غالية المواعظ
ومصباح المتعظ وقبس الواعظ

تأليف

العلامة الشيخ خير الدين آلوسي

الجزء الأول والثاني

تحقيق

رزق السيد هيبه

دار احياء الكتب العربية
فيصل عيسى البابي الحلبي

غالية المواعظ
ومصباح المتعظ وقبس الواعظ

تأليف

العلامة الشيخ خير الدين أبى البركات نعمان أفندى آلوسى زاده
ابن السيد الشيخ محمود أفندى المفتى ببغداد
مؤلف التفسير المشهور بروح المعانى

الجزء الأول

صححه وقدَّم له
رزق السيد هيبة



تقديم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله ، خاتم النبيين والمرسلين ، الداعى إلى الحق ، الهادى إلى الصراط المستقيم ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، صلاة عاطرة دائمة إلى يوم الدين، ورضى الله تبارك وتعالى عن صحابته الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الداعى إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة - سواء كان واعظاً عاماً ، أم خطيب جمعة ، أم له اهتمام بشئون الدعوة الدينية بأى وجه من الوجوه - قد أصبح فى حاجة ماسة إلى المورد العذب ، والنبع الصافى ، والزاد النقى ، الذى يستعين به على السير فى طريق دعوته ، والوصول إلى الغاية التى يجهد نفسه فى سبيل الله وابتغاء وجهه من أجلها .

وهذا الكتاب يؤدى غرض الدعاة خير أداء ، إذ بناه مؤلفه على واحد وخمسين درساً ، تقوم على المواعظ والرقائق ، التى تلين قلوب السامعين ، وتستميل أفئدة المنصتين ، وتأخذ بيد قارئها إلى الطريق القويم . ولم ينس المؤلف ، رحمه الله ، أن يتعرض لبعض الأحكام الفقهية التى يحتاج إليها المسترشدون ، فجاء الكتاب طاقة زهر تجمع صنوف الرياحين ، وتعطر مجالس الوعظ والإرشاد بذكر آيات القرآن المبين ، وأحاديث سيد المرسلين ، وأمثال وحكم السابقين من الصحابة والتابعين ، والأئمة المجتهدين .

وقد سماه مؤلفه « غالية المواعظ ، ومصباح المتعظ ، وقبس الواعظ » ، فجاء الاسم دليلاً صادقاً على مسماه ، إذ يجد فيه الواعظ مطلبه ، والمتعظ مبتغاه .

ويكفينا عن التعريف بالمؤلف أن نقول : إنه العلامة الشيخ خير الدين أبو البركات نعمان أفندى آلوسى زاده ، ابن السيد الشيخ محمود أفندى الآلوسى ، المفتى ببغداد، ومؤلف التفسير المشهور بروح المعانى ، وقد نشأ فى بيئة علمية ، ودرج فى ساحات تفوح بعطر المعانى القرآنية ، فكان امتداداً لوالده ، وعلماً من أعلام عصره، وقد ترك غير هذا الكتاب بعض الآثار التى ذكر عناوينها فى ثنايا دروس وعظه ، ولم يسعفنا الوقت للتقصى عنها والتعريف بها .

ونحن ، إذ نقدم هذا الكتاب ، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يحقق الفائدة التى نرجوها ، من نشر علوم الدين ، وتزويد المسلم بما يمهد له طريق التقرب إلى الله رب العالمين .

جعله الله خالصاً لوجهه ، ووضعه فى كفة حسناتنا ، يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

رزق السيد هيبة

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحيا قلوب المؤمنين بتبصرته ، وزجر الغافلين عن تذكرته بزواجر موعظته ، والصلاة والسلام على البشير النذير ، والنبى الساطع هداه كالصبح المستنير، والرسول الذى غدت مواعظه كيمياء السعادة ، وامتثال أوامره والاجتناب عن مناهيه موصلين إلى الحسنى والزيادة ، وعلى آله الحائزين من العلم والعمل أوفر نصيب ، وأصحابه الفائزين بنعمتى الترغيب والترهيب ، وعلى من اقتفى أثرهم من علماء الأمة ، الذين كشفوا بحسن توجهاتهم وبديع تقريراتهم عن قلوب المستمعين كل غمة .

أما بعد : فيقول أسير ذنوبه ، الغافل عن عيوبه ، المهمل لنفسه ، الذاهل عن مضى أمسه ، نعمان بن المرحوم السيد محمود أفندى مفتى الحنفية ببغداد ، الشهير بآلوسى زاده ، غفر ذنوبهما ، وستر عيوبهما المعيد المبدى : إنى لما بليت بالوعظ للأنام فى مدينة السلام ، وتذكير الخواص وتعليم العوام ، وأردت كتاباً أقرؤه مفيداً فى هذا الزمن للعموم ، وسفراً تنقشع به عن قلوب الجاهلين واللاهين الغموم ، فلم أجد مؤلفاً حاوياً للمسائل الفقهية الدينية ، والأحاديث النبوية ، والقصص الصحيحة المرضية ، والترقيقات الجوزية ، اللازم بيان جميعه فى هذا الزمن ، والواجب على العلماء قراءته لمن فطن ، إذ كل من المؤلفات فى هذا الباب ، لم يجمع هذه الصفات بأسرها فيما رأينا من كتاب ، فأحببت أن أجمع كتاباً متصفاً بهذه الصفات ، فحررت هذه المجالس المهذبات ، فجاءت كتاباً يحتوى - إن شاء الله تعالى - على ذلك ، وينير للمستفيدين الليل الحالك ، ويسهل لهم فى معرفة ضروريات دينهم المسالك ، متتبعاً لصحيح الروايات ، متجنباً عن موضوع الحكايات، مثبتاً لبعض أقوال المذاهب الأربعة ، ليدل (١) على ما ينبغى طالبه وسامعه ، متوجاً كل درس منه بديباجة من تبصرة العلامة ، التى بدت لكل واعظ أمامه ، وموشحاً بسجع منها ختامه ، لئلا تخلو هذه الرياض عن تغريد حمامه .

---

(١) قوله ليدل فى نسخة ليوقف .

والله تعالى أسأل أن يعلمنى ما لم أعلم ، وينفعنى بما أتعلم ، ويجعلنى ممن يتعظ أولاً بمواعظها [(١)] ويعمل بفوائدها ، وينزجر عن منهياتها ، ويمتثل لمروياتها ، وينال أجر روايتها وثواب تعليمها ، وخير جمعها وتفهيمها ، وألا يجعلنى ممن أمر الناس بالبر ونسى نفسه [(٢)] ، وأضاء القبور بمصباحه [(٣)] وأظلم رمسه . وأبتهل إليه سبحانه أن ينفع بها السامعين ، ويكتب لى مثل أجرهم يوم الدين ، ويختم أجلى بصالح الأعمال ، ويحفظنى من كيد الحساد والجهال ، ويتوفانى على الإيمان الكامل ، ويحشرنى ووالدى مع الأبرار ، ويرزقنى كل خير متواصل ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار . آمين .

ورتبته على أحد وخمسين مجلساً ، ليطيب الطالب بعقبها نفساً ، وسميته (غالية المواعظ ومصباح المتعظ وقبس الواعظ) ، هذا وإنى أحمد الله الوهاب ، على أن وفقنى لجمع هذا الكتاب ، فى أيام خلافة ظل الله تعالى على الأنام ، وحامى سور الإسلام عن الانثلام ، سلطان سلاطين العالم ، وصاحب الرأفة والرحمة على كافة بنى آدم ، من حمدت أيامه المسلمون ، ونشر اللطف على كافة رعيته الذين هم فى ظله الظليل قائلون ، والخاقان الذى دل النص الجلى على خلافته بالمنطوق والمفهوم، وخصه الله تعالى بالشرف المحكم من بين هذا العموم ، الخليفة الذى من يفارق حماه فهو مارق ، ومن يلزم إطاعته فهو فى دينه صادق ، المؤيد بتأييد الله المجيد ، ومن أوجب الله تعالى طاعته على كافة العبيد ، حضرة مولانا أمير المؤمنين السلطان الغازى عبد الحميد خان ، ابن المبرور المرحوم السلطان الغازى عبد المجيد خان ، لا زالت أعلام دولته محفوفة بالنصر مدى الزمان ، ودولته العلية محاطة بالتأييد ما دام الدوران ، ولا برحت أقطار الأرض مشرقة بأنوار معدلته ، وأغصان الأمن مورقة بسحائب رأفته ، ولازالت أعتابه السنية ملجأ طوائف الأنام ، وحصناً حصيناً للخاص والعام . آمين آمين .

من قال آمين أبقى الله مهجته ... فإن هذا دعاء يشمل البشرا

ولذا أسرع قلمى بهذه الأبيات المخبرة عن بعض كريم الصفات ، والمفصحة بلازم الدعوات ، وهى :

---

(١) وقوله بمواعظها فى نسخة بمواعظه ، وكذا بقية الضمائر اجعلها مذكرة إن شئت ا هـ . مؤلفه .

(٢) قوله : وأضاء ، فى نسخة وأنار .

(٣) وقوله : وأظلم رمسه ، فى نسخة وأخلى منه رمسه .

بمولانا أميـــــر المؤمنينـــا لقد سُرَّت قلوب العالمينـــا
وفى ظـــل الإله همُ أقاموا [1] وظل الله يؤوى القائلينـــا
أنـــامَ الكلَّ فى ظل ظليل [2] فكـان لجمعهم كهفا أمينا
وأصناف الرعية قد تراءت بأنــــواع المعارف عارفينا
مليـــك ليس يشبهه مليك فلا تطـلب له مَلِكا قرينـا
مـلاذ الخلق فى الدنيا جميعا وســيدنـــا إمام المسلمينا
عيـاذُ الناس سلطان البرايا وخـــاقانُ الخلائق أجمعينا
خـليفة ربنـا قد صار حقا فكــان لتخته السامى مُزِينا
وقد أحـيا مآثر لن تضاهى ومهَّــد ملكــــه للساكنينا
وقد عمــت أياديـه البرايـا وأدَّب فـــى الفـلاة المارقينا
أدام الله دولتـــه علينـــا وأيدنـــا بـــه دنيـــا ودينـا
وأبقى ذاتـــه العليــاء فينا وأعطـــانا بـــه فتحا مبينا
وملَّكه أقاصى الأرض طرا شمـــائلها البعيدة واليمينـا
وأبقى عبـــده المولى حميدا حميد العيش دهر الداهرينـا
وأيـــد جنده البارى بنصر وفتــح كائــن حينا فحينـا

وقد آن الشروع فى المقصود ، فأقول مستمداً من فيض الله تعالى الكريم ، وطالباً للفوز بجنات النعيم .

* * *

(١) وقوله : وظل الله ، فى نسخة كذاك الظل .
(٢) وقوله : فكان لجمعهم ، فى نسخة فكان لشملهم .

المجلس الأول
فى شهر رمضان المبارك وفرضية صومه وليقرأ فى آخر شعبان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١) . . .

الحمد لله خالق الخلق كلهم من تراب ، وفارق ما بينهم فى المعانى والآداب ، رفع عن أبصار بصائر الأولياء الحجاب ، وأشهدهم ما خفى عن غيرهم وغاب ، فهم على باب الدلالة للخلق على الباب ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ، وشغل الجهال الطغام والشراب ، فهم فى جمع الحطام بين المجىء والذهاب ، يعمرون بالهوى أجسامهم والقلوب فى خراب ، وما ابيض لهم عرض حتى اسود الكتاب ، فإذا عاينوا تفريطهم عند الموت بان المرتاب ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب .

أحمده على كل ما عرض وناب ، وأقر بوحدانيته من غير شك ولا ارتياب ، وأصلى وأسلم على رسوله محمد الذى عرج به فكان قاب ، وعلى أبى بكر السابق إلى الفضائل ولا سبق العِرَاب ، وعلى العادل عمر بن الخطاب ، وعلى عثمان منفق الأموال على الإسلام من غير حساب ، وعلى ابن عمه على المعد لكشف الكربات الصعاب ، وعلى بقية الصحابة والقرابة والتابعين إلى يوم الحشر والحساب .

---

(١) بهامش الأصل للمؤلف خطبة أخرى بدل الخطبة المتقدمة وهى قوله : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، الظاهر بلا اختفاء ، الباطن بلا خفاء ، الأحد بلا احتواء ، الصمد بلا انزواء ، الفرد بلا ثناء ، الأبدى بلا فناء ، الوفى بلا التواء ، العلى بلا اعتداء ، البرى من الشركاء ، الخلى عن القرناء ، السميع بلا إصغاء ، البصير بلا سوداء ، المتكلم بلا هجاء ، الحاكم بلا أهواء ، القابض بغير أعضاء ، الباسط بغير احتثاء ، الذى رفع السماء بغير بناء ، ومهد البطحاء على تيار الماء ، استوى على العرش فلا كيف للاستواء ، ونظم متفرق العلوم فى طى سجل علمه فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

أحمده على السراء والضراء ، والجهر والخفاء ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد المصطفى ، ونبيه المجتبى ، وصفيه المقتفى ، خاتم الأنبياء ، المخصوص بليلة الإسراء ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأولاده وذرياته السادة النجباء ، لا سيما أبو بكر الصاحب فى الشدة والرخاء ، وعمر سيد الوزراء ، وعثمان الصابر على مر البلاء ، وأمير المؤمنين على أبو الأمناء ، وزوج بضعته الزهراء ، إلى آخره ، ا هـ .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون* أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون * شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ صدق الله العظيم .

فنقول : وبالله تعالى التوفيق ، ومنه الهداية إلى أقوم طريق ، قال العلماء رحمهم الله : الصوم فى اللغة مطلق الإمساك ومنه قوله تعالى حكاية عن مريم : ﴿إنى نذرت للرحمن صوماً﴾ (١) أى صمتاً وسكوتاً عن الكلام ، ويقال : صامت الريح أى أمسكت عن الهبوب ، وصامت الفرس أى أمسكت عن العدو والركض ، قال النابغة :

خـيل صيام وخيل (٢) غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وقيل صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت ؛ لأنه نسخ فى أمته ، وإنما أمرها الله تعالى أن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها فى كلام لمعنيين ، أحدهما : أن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها من قوله : ﴿ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ﴾ إلخ ، والثانى كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه إشارة إلى أن السكوت عن السفيه واجب ، ولقد أحسن من قال :

إذا فاه السفيه بسب عرضى ... كـرهت بأن أكون له مجيبا

يـزيد سفاهـــة وأزيد حلما ... كعـود زاده الإحـراق طيبا

فتبين أن الصوم لغة الإمساك ، وفى الشرع إمساك (٣) مخصوص من شخص

---

(١) قوله : صوماً قرأ أنس بن مالك رضى الله عنه صمتاً ، وكذلك فى مصحف عبد الله .

(٢) وقوله : وخيل غير صائمة ، فى نسخة وأخرى إلخ . ا هـ منه .

(٣) أى حقيقة أو حكماً كمن أكل ناسياً .

مخصوص بشرطه [١] فى زمن مخصوص بعينه ، وهو اليوم ، وفى هذه الآية دلالة ظاهرة قطعية على وجوب صوم رمضان ، وهو من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ؛ ولذلك يكفر جاحده ، بل قد ذكر فى البزازية أن من أكل فى شهر رضمان عياناً متعمداً يؤمر بقتله لأن صنيعه الفاحش دليل الاستحلال .

وههنا مسائل وفوائد نفيسة .

أولاها : فرض الصوم فى السنة الثانية من الهجرة بالمدينة ، وفى الخطاب بيا أيها الذين آمنوا إشارة إلى أنه فرض فيها لا بمكة ؛ لأن الخطاب بها على ما قيل كان بيا أيها الناس .

الفائدة الثانية : اختلف العلماء فى أفضل العبادات البدنية ، فقيل الصوم أفضل أعمال القرب ، وقيل الحج ، وقيل الطواف ، وبه قال جمع ، واستدلوا [٢] بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ينزل الله على هذا البيت فى كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ، فستون للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين » ، قال الماوردى : فجعل للطائف أكثر من المصلى ، فدل على أن الطواف أفضل ، وقيل الجهاد أفضل ، وقيل الصلاة بمكة أفضل [٣] والصوم بالمدينة أفضل ، نظراً إلى محل فرضيتهما .

وقيل الدعاء أفضل وبه صرح الغزالى فى أول كتابه « وسائل الحاجات » والصحيح كما قال السفيرى الذى قاله جمهور العلماء : أن الصلاة أفضل عبادات البدن بدلائل ، منها أن الله تعالى سماها إيماناً فى قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ أى صلاتكم لبيت المقدس ، ومنها ما ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، قال : سألت النبى ﷺ « أى الأعمال أحب إلى الله تعالى » ، وفى رواية « أفضل » قال : « الصلاة لوقتها » ، ومنها ما رواه عبد الله بن عمر أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الأعمال فقال ﷺ : « الصلاة » [٤] قال : ثم مه ، قال: ثم الصلاة ، قال : ثم مه قال : ثم الجهاد فى سبيل الله . ومنها ما رواه عبد الله بن

---

(١) وقوله : بشرطه ، وهو كونه مسلماً طاهراً عن حيض ونفاس مع النية .

(٢) وقوله : واستدلوا إلخ لكن قال الشيخ عز الدين : هذا الحديث ضعيف فلا حجة فيه .

(٣) ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ .

(٤) ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

قرط رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله » ، وأيضاً إنما فضلت الصلاة لأنها تجمع من القرب ما تفرق فى غيرها من ذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والقراءات (١) والتسبيح والاستقبال والطهارة والستارة ، وترك الأكل والشرب والكلام ، فما حوته من مقاصد التكليف لا يجتمع فى عبادة غيرها ، فإن باطنها الحضور بين يدى الله تعالى ، وذلك مقصود التكاليف، وظاهرها شغل جميع الجوارح بالطاعات ومنعها من المعصيات ؛ ولهذ قال صلى الله تعالى عليه وسلم « حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ، وليعلم أنه ليس المراد كما قال الإمام النووى من قولهم : الصلاة أفضل ، أن صلاة ركعتين أفضل من صيام يوم أو يومين ، فإن صوم يوم أفضل من ركعتين ، وإنما معناه أن من أمكنه الاستكثار من الصوم والصلاة فأراد أن يستكثر من أحدهما ويقتصر عن الآخر فليستكثر من الصلاة ، فهذا محل الخلاف، واعلم أنه إنما قلنا سابقاً أن الصلاة أفضل عبادات البدن لإخراج عبادات القلب ، كالإيمان والمعرفة والتوكل ونحوها ، فإنها أفضل من العبادات البدنية ، وأفضلها الإيمان ، ولإخراج العبادات المالية كالزكاة وشبهها فإنها أفضل من العبادات البدنية أيضاً لتعدى النفع بها على ما قاله أبو على ، ونازعه الشيخ عز الدين بما قاله الشافعى رضى الله تعالى عنه أن الصلاة أعظم من الزكاة .

والحاصل أن أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم الصوم ، وأفضل الصوم صوم رمضان ، وكم له من فضائل جليلة ومناقب جسيمة . فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ، رواه أبو هريرة .وفى البخارى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم « الصيام جنة ، فلا يرفث، ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم (مرتين) والذى نفسى بيده لخلوف (٢) فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها » ، وعنه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليس بتارك أحداً من المسلمين صبيحة أول يوم

---

(١) فى نسخة والقراءة .

(٢) تغير ريح الفم .

رمضان إلا غفر له » . وعن ابن مسعود قال : « من صام يوماً من شهر رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حى لم يكتب عليه خطيئة إلى الحول » ، رواه فى « الدرر واللآلئ » . وفى الصحيحين : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » . وفى فضل الصيام مطلقاً أحاديث كثيرة نذكر بعضها إن شاء الله تعالى فى محلها .

الفائدة الثالثة : يستحب لمن رأى هلال رمضان أو غيره أن يكبر ، وأن يقول : «اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله : فقد روى الترمذى عن طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه ، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان إذا رأى الهلال يقول : « اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربى وربك الله » . ونقل السفيرى عن « نزهة المجالس » : أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إذا رأيت الهلال أول الشهر فقل : الله أكبر ثلاثاً ، الحمد لله الذى خلقنى وخلقك ، وقدر لك منازل ، وجعلك آية للعالمين ، يباهى الله بك الملائكة ، ويقول: يا ملائكتى اشهدوا أنى قد أعتقت هذا العبد من النار . وروينا فى مسند أحمد أنه كان يقول : الله أكبر الحمد لله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم إنى أسألك خير هذا الشهر ، وأعوذ بك من شر القدر ومن شر المحشر . قال السبكى : ويستحب أن يقرأ سورة تبارك لأمر ورد فى ذلك ، ولأنها المنجية ، قال : والحكمة فى قراءتها أنها ثلاثون آية بعدد أيام الشهر ، أى فلعله ينجى الله العبد بقراءتها عند رؤية الهلال ويحفظه جمع أيام الشهر ببركة كل آية منها . بل قال العلماء : يستحب قراءتها كل ليلة لأنها تنجى من عذاب القبر ، كما ورد فى ذلك أخبار وآثار ، منها ما أخرجه عبد الرحمن فى مسنده عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى ، قال : اقرأ تبارك الذى بيده الملك ، وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة، تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن ينجيه من عذاب النار .

وأخرج خلف بن هشام فى « فضائل القرآن » عن ابن مسعود قال : سورة الملك هى المانعة ، تمنع من عذاب القرب ، يؤتى صاحبها فى قبره من قبل رأسه فيقول رأسه : لا سبيل لك علىَّ إنه وعى بى سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول

رجلاه: ليس لك عليَّ سبيل إنه كان يقوم عليَّ فى سورة الملك ، وهى إحدى الأشياء التى تنجى من عذاب القبر ، فقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أشياء تنجى من عذاب القبر ، منها الموت يوم الجمعة أو ليلتها ، أخرج أبو يعلى عن أنس قال ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من مات يوم الجمعة وقى عذاب القبر، ومعنى وقى عذاب القبر ، أى المترتب على السؤال ، وأما السؤال فلا بد منه لكل أحد ما عدا الأنبياء على الصحيح ؛ لأنه قيل إن الأنبياء أيضاً يسألون وكذا الصبيان لا يسألون على الصحيح ، بدليل أنهم قالوا : الصبى لا يسن تلقينه ولو مميزاً ، ومنها الموت فى رمضان ، وكذا لو مات فى غير رمضان فإنه يرفع عنه العذاب لشرف رمضان ، بل عمم النسفى فى « بحر الكلام » فقال : إن الكافر يرفع عنه العذاب يوم الجمعة وليلتها وجميع شهر رمضان كما يرفع عن المسلم العاصى . وسنذكر إن شاء الله تعالى بقية من ينجو من عذاب القبر فى محله .

الفائدة الرابعة : قال الشيخ شمس الدين محمد السفيرى : لما كان شهر رمضان شهراً مباركاً جليلاً شرعت التهنئة فيه فيهنىء الإنسان بقدومه إخوانه المسلمين ، بأن يقول لمن رآه منهم : جعل الله تعالى هذا الشهر مباركاً علينا وعليكم ، أو أبشر بشهر مبارك علينا وعليكم . فقد أفاد ابن رجب وغيره أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان . وقد صنف العلامة السيوطى كتاباً ذكر فيه أنه يُهنأ الإنسان بالفضائل العلية (١) ، ويهنأ بالعافية من مرض ، ويهنأ بتمام الحج، ويهنأ بقدومه من الحج ، ويهنأ بعقد النكاح ، ويهنأ بمولود ولده ، ويهنأ بشهر رمضان ، وغير ذلك ، والتهنئة فى كل واحد من هؤلاء بما يليق له ، ولله در القائل:

قد جاء شهر الصوم فيه الأمان	والعتق والفوز بسكنى الجنان
شهر شريف فيه نيل المنى	وهو طراز فوق كم الزمان
طوبى لمن قد صامه واتقى	مولاه فى الفعل ونطق اللسان
ويا هنا من قام فى ليله	ودمعه فى الخد يحكى الجمان
ذاك الذى قد خصه ربه	بجنة الخلد وحور حسان
هنَّاكم الله بشهر أتى	فى مدحه القرآن نص عيان

---

(١) لكن ذكروا أنه لا تجوز التهنئة بالمحرمة فلا تغفل .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « ما من يوم إلا وملك يهتف فى المقابر فينادى : يا أهل القبور من تحسدون اليوم ؟ فيجيبونه : نحسد أهل المساجد فى مساجدهم يصلون ولا نقدر أن نصلى ، ويصومون ولا نقدر أن نصوم ، ويتصدقون ولا نقدر أن نتصدق ، ويذكرون ولا نقدر أن نذكر ، فيندمون على ما مضى من زمانهم حيث لا ينفع الندم .

الفائدة الخامسة : لرمضان أسماء كثيرة تزيد على الستين ذكرها أبو الخير الطالقانى، منها شهر الله ، وشهر الأمة ، وشهر القرآن ، وشهر القيام ، وشهر النجاة ، وغير ذلك . واختلفوا فى سبب تسمية رمضان فقيل : إنه مأخوذ من الرمض ، وهو شدة الحر ؛ لأن العرب لما أرادت أن تضع أسماء الشهور وافق أن الشهر المذكور فى شدة الحر ، كما سمى الربيعان لموافقتهما زمن الربيع ، وقيل سمى بذلك لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها .

الفائدة السادسة :قال الوالد عليه الرحمة : منع بعضهم أن يقال رمضان بدون شهر لما أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى هريرة مرفوعاً : « لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، ولكن قولوا شهر رمضان » ، وإلى ذلك ذهب مجاهد ، والصحيح الجواز ، فقد روى ذلك فى الصحيح [1] والاحتياط لا يخفى ، اهـ كلامه ، وقال بعضهم فى ذلك :

ولا تضف شهراً للفظ شهر إلا الـــذى أولـــه الرا فادر
واستثن مـــن ذا رجباً فيمتنع لأنه فيمـــا رووه ما سمـــع

الفائدة السابعة : يجب صوم شهر رمضان بأحد أمرين ، إما بإكمال شعبان ثلاثين يوماً ، وإما برؤية الهلال ليلة الثلاثين من شعبان ، لما ورد فى صحيح البخارى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » . ومعنى غم استتر عليكم بأن حال بينكم وبينه غيم ، وفى بعض كتب أئمتنا الحنفية أنه لا بأس بالاعتماد على قول المنجمين ، وعن محمد ابن مقاتل أنه كان يسألهم ويعتمد على قولهم بعد أن يتفق على ذلك جماعة منهم ، ورده الإمام السرخسى رحمه الله تعالى بقوله عليه الصلاة والسلام « من صدق كاهناً

---

(١) كقوله ﷺ « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد » . وصوم يوم الشك لا يحرم عند الحنفية والمالكية خلافاً للشافعية ، وأما قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم » . كما رواه أصحاب السنن ، فهو حديث موقوف ، وسيأتى تفصيل هذه المسألة إن شاء الله تعالى فى المجلس المشتمل على فضائل شعبان وليلة البراءة ، فراجعه فإنه مفيد ، قيل : والسبب فى الكراهية أن فيه تشبهاً بأهل الكتاب لأنهم زادوا فى مدة الصوم ، وليتقوى على العبادة بفطر يوم أو يومين قبل رمضان ، وفى الحديث « الطاعم الشاكر كالصائم الصابر » ، وقد وردت أخبار كثيرة وأحاديث وفيرة ، نذكر بعضها إن شاء الله تعالى فى عقاب من أفطر شهر رمضان مقرا به ، وأما إذا أنكره فهو كافر بالإجماع ، منها ما روى فى نزهة الأبصار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « سمعت جبريل يقول : يؤتى بشاب يوم القيامة باكياً حزيناً والملائكة تسوقه بمقامع من حديد من نار ، وهو يقول : الأمان الأمان ، ألف سنة ولا أمان له ، ثم يساق فيوقف بين يدى الله تعالى ،فيأمر الله تعالى ملائكة العذاب أن تسحبه على وجهه إلى النار ، قلت : يا جبريل ، من هو ؟ قال : شاب من أمتك . قلت : وما ذنبه ؟ قال : أدرك رمضان فعصى الله تعالى فيه ولم يتب ولم يستغفر الله تعالى كى يغفر له ، فأخذه الله عز وجل بغتة .

فعليكم عباد الله تعالى بإخلاص الصيام والصلاة والناس نيام ، فأين من كان معنا فى رمضان الماضى ، أما أتته آفات المنون القواضى ، واسمعوا ما قاله سبحانه فى آياته : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ .

إخوانى ، توبوا من المعاصى ، واستعدوا ليوم يؤخذ بالنواصى ، واقتدوا بالسلف لما تلمحوا الطباع إلى الدنيا صابية ، رفضوها عن عزيمة آبيه ، وثنوا قلوبهم إلى الدار الثانية ، ورأوها بعين اليقين دانية ، فآثروها على الحقيرة الفانية ، يطلبون العيشة الهانية ، هممهم ليست متوانية ، تنهض نهوض السباع الضارية ، سارية عن عاداتها منتصبة فى عباداتها كالسارية ، كانوا يقومون والليالى داجية ، قيام نفس خائفة راجية ، يسهرون طول الليالى الشاتية ، يستعدون للصيحة الآتية ، عيونهم من البكاء عاشية ، والقلوب منزعجة خاشية ، وأسرار القوم بالدمع واشية ، فلهذا غدوا

فى الحاشية ، يصبحون والنفوس عطشى صارية (١) ، يرضون بالخلقان والأجسام بادية، أسماع لما ينفعها واعية ، قلوب لما يصلحها راعية ، أقدام إلى أرباحها ساعية، ألسنة طول الزمان داعية ، بطون من الطعام خاوية ، غصون من الإعدام ذاوية ، أبدان من الجوع ضاوية ، تبيت الليالى لفقرها طاوية ، اقتنعوا من الدنيا بزاوية ، وتركوا الهوى خوف الهوى فهم فى عافية ، صاروا بالمجاعة كالشنان البالية ، آه لهممهم إنها عالية ، آه لمطلوباتهم إنها غالية ، وآه لطيبهم زاد على الغالية ، فلو سمعت منادى الجزاء فى الدار الباقية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية .

وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا وحالكم خيراً من ماضيه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

* * *

المجلس الثانى
فيما يتعلق بالصيام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله خالق الدجى والصباح ، ومسبب الهدى والصلاح ، ومقدر الغموم والأفراح ، الجائد بالفضل الزائد والسماح ، مالك الملك ، والمنجى من الهلك ، ومسير الفلك ، والفلك مسير النجاح . عز فارتفع ، وفرق وجمع ، ووصل وقطع، وحرم وأباح ، ملك وقدر ، وطوى ونشر ، وخلق البشر ، وفطر الأشباح . رفع السماء ، وأنزل الماء ، علم آدم الأسماء ، ودرأ الرياح . أعطى ومنح ، وأنعم ومدح ، وداوى الجراح . علم ما كان وما يكون ، وخلق الحركة والسكون ، وإليه الرجوع والركون ، فى الغدو والرواح . يتصرف فى الطول والعرض ، وينصب ميزان العدل يوم العرض ، الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . وأصلى وأسلم على سيدنا محمد رسوله المكرم ، وحبيبه المعظم ، تفديه الأرواح . وعلى رفيقه أبى بكر فى الغار ، وعلى عمر مبيد الكفار ، وعلى عثمان شهيد الدار، وعلى على الذى يفتك رعبه قبل السلاح. وعلى بقية القرابة، والتابعين أهل الصلاح.

---

(١) قول الشيخ صارية بالصاد والراء أى فى شدة من المجاعة والعطش ا هـ .

أما بعد : فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز وكلامه البليغ الوجيز : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام** ﴾ الآيات المتقدمة فى الدرس الماضى . فنقول وبالله تعالى التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق : قد تقدم بعض الكلام فى الدرس الماضى على هذه الآية الكريمة ، ولنكمل إن شاء الله تعالى الكلام اللازم بيانه على هذه الآيات مختصراً من تفاسير الأجلة الأعلام ، ثم نرجع بحوله سبحانه إلى ذكر ما يتعلق بها من الأبحاث المناسبة للمقام ، فاعلموا أنه قال عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب**﴾ أى فرض ﴿ **عليكم الصيام** ﴾ وهو عدم الأكل والشرب والجماع من خروج الفجر الصادق إلى غروب الشمس مع النية . فإذا أفسد الصائم صومه بشىء من ذلك وجبت عليه الكفارة ، وسيأتى بيانها إن شاء الله تعالى ﴿ **كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ من الأنبياء عليهم السلام ، والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم.

واختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو ، فقيل : قدر الصوم ووقته ، فإن الله تعالى كتب على اليهود والنصارى صوم شهر رمضان فغيروا ، وقيل وجوب مطلق الصوم ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ أى تحافظون على ذلك ، وقيل تتقون المعاصى بسبب هذه العبادة ؛ لأنها تكسر الشهوة وتضعف دواعى المعاصى ، كما ورد فى الحديث أنه جنة (١) ، وأنه وجاء فى قوله عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٢) ﴿**أياماً معدودات** ﴾ أى معيَّنات بعدد معلوم ، وأتى بجمع القلة إشارة إلى تقليل الأيام ، وقيل إن الصوم كان فى ابتداء الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم عاشوراء ، ثم نسخ ذلك بفرضية شهر رمضان ، وأخرج البخارى فى تاريخه والطبرانى عن دغفل بن حنظلة عن النبى ﷺ أنه قال : « كان على النصارى صوم شهر رمضان فمرض ملكهم فقالوا لئن شفاه الله تعالى لنزيدن عشراً ، ثم كان آخر فأكل لحماً فأوجع فاه فقال : لئن شفاه الله تعالى ليزيدن سبعة ، ثم كان عليهم ملك آخر فقال : ما ندع من هذه الثلاثة أيام شيئاً نتمها ونجعل صومنا فى الربيع ، ففعل، فصارت خمسين يوماً ﴿ **فمن كان منكم مريضاً** ﴾ وسنبين إن شاء الله تعالى حد

(١) أى كالترس .

(٢) الوِجاء الخصاء، يقال وجئ إذا دق عروق خصيه بين حجرين ولم يخرجهما كما فى القاموس.

المرض ، وأن المرضع أيضاً يباح لها الإفطار في الدروس الآتية ﴿ **أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ واختلفوا في السفر المبيح للإفطار ، فالذى عليه الجمهور أنه مسيرة ثلاثة أيام للإبل ، وقال غير الجمهور : أقل من ذلك ، وهو ما صدق عليه اسم السفر، واختلفوا في سفر المعصية هل يجوز فيه الإفطار أم لا ، فعند إمامنا الأعظم يجوز ، وعند الشافعي وأحمد لا يجوز الإفطار إلا في سفر طاعة ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ قد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة ، فالذى عليه الجمهور أنها منسوخة ، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام ، وكان من أطعم من الشيوخ والعجائز كل يوم مسكيناً ترك الصوم وهو يطيقه ، ثم نسخ ذلك ، وقال بعض العلماء : إنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصوم إلا بمشقة ، فعلى هذا أن لفظة « لا » مقدرة أى وعلى الذين لا يطيقونه فدية ، فتكون الآية غير منسوخة ، واختلفوا في الفدية أيضاً ، فقال الإمام الأعظم : كل يوم صاع من غير البر ونصف صاع منه ، وقيل مد ، وقال ابن عباس : يعطى كل مسكين عشاءه وسحوره ، وروى عنه أن المرضع تفطر وتطعم ولا تقضى ، وهذا أيضاً مروى عن جماعة من التابعين لكن لا يفتى به ، ولا يعمل بمقتضاه ﴿ **فمن تطوع خيراً فهو خير له** ﴾ أى من أراد الإطعام مع الصوم أو زاد على إطعام المسكين ﴿ **وأن تصوموا خير لكم** ﴾ أى صيامكم أيها المطيقون خير لكم من الإفطار مع الفدية ، وهذا قبل النسخ ، أو معناها : وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق خير لكم من الإفطار ، وفي هذا دليل على خلاف ما قالته الإمامية أن إفطار المسافر واجب ، والبحث في ذلك طويل ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ أن الصوم خير لكم .

واعلموا أنه لا رخصة لأحد من المكلفين في إفطار شهر رمضان بغير عذر ، والأعذار المبيحة للفطر ثلاثة : **أحدها** : السفر والمرض والحيض والنفاس ، فإذا أفطر هؤلاء فعليهم القضاء دون الكفارة . **والثاني** : الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء فقط عند الحنفية ، وعند الإمام الشافعي عليهما الكفارة أيضاً ، **والثالث** : الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذى لا يرجى برؤه فعليهم الكفارة دون القضاء . والكفارة قد تقدم ذكرها ، بخلاف المجامع في رمضان فعليه كفارة الظهار ، وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى .

﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ أى ذلكم شهر إلخ ، أو كتب عليكم الصيام صيام شهر ، وقرئ بالنصب ، أى صوموا شهر رمضان ، واسمه فى الجاهلية ناتق لأنه كان ينتق لشدته عليهم ، والمراد من إنزال القرآن العظيم فيه إنزاله فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم كان ينزل به جبريل عليه السلام منجماً ، أى مفرقاً إلى النبى ﷺ ، وقيل : معنى الآية أنزل فى شأن رمضان القرآن ، أو فى فرض صيامه ، وروى البيهقى وغيره أن رسول الله ﷺ قال : أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزل الزبور لثمانى عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان ، وفى رواية زيادة وأنزل التوراة لست خلون من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان ، والقرآن هو كلام الله تعالى غير مخلوق ، وسيأتى تفصيل هذا البحث فى حديث جبريل إن شاء الله تعالى ﴿ **هدى للناس** ﴾ أي هادياً لهم من الضلالة ، وقوله تعالى : ﴿ **وبينات من الهدى** ﴾ من عطف الخاص على العام إظهاراً لشرف المعطوف بإفراده بالذكر ، وقيل الهدى الأول فى الأحكام الاعتقادية والهدى الثانى فى الفرعية ﴿ **والفرقان** ﴾ أى الفاصل بين الحق والباطل ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ أى من حضر ولم يكن فى سفر فليصم فيه ، وإذا سافر يباح له الإفطار، وقال جماعة من العلماء : إن من أدركه شهر رمضان مقيماً لزمه إكمال صيامه ولو سافر بعد ذلك ، واستدلوا بهذه الآية ، وخالفهم الجمهور بدليل أحاديث كثيرة أن النبى سافر فأفطر فى رمضان ، وقيل : من شهد أى رأى الهلال ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته » الحديث ، فإذا رآه أحد الناس فى بلدة أو نحوها يلزم الجميع أن يصوموا ، ونصاب الشهادة عند عدم العلة فى السماء جماعة ، وعند العلة واحد ، وتفصيل المسألة فى الكتب الفقهية ﴿ **ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ إنما كرره سبحانه لأنه ذكر فى الآية الأولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ، ثم نسخه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ فلو اقتصر على هذا لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع، فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ، ليعلم أن الحكم باق على ما كان عليه ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ فلذلك أباح الفطر للمسافر والمريض ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ وقد ثبت عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا

تنفروا » ﴿ **ولتكملوا العدة ولتكبروا الله** ﴾ أى تقولوا : « الله أكبر » ليلة الفطر ، وقد وقع الخلاف بين العلماء فى وقته ، وسنبين ذلك إن شاء الله تعالى فى الدروس الآتية فى آخر الشهر بحوله تعالى ﴿ **على ما هداكم** ﴾ أى على هدايته لكم وإرشادكم إلى طاعته ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ الله عز وجل على نعمه التى لا تعد ولا تحصى .

ولنرجع إلى الأبحاث المتعلقة بالصيام فنقول : قد تقدم أن المراد بكتابة الصيام على الأمم السالفة على بعض الأقوال ثلاثة أيام من كل شهر ، وقد ورد فى الترغيب على ذلك ولا سيما الأيام البيض ، وكذا عاشوراء وغيرها أحاديث كثيرة . منها عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : « أوصانى حبيبى بثلاث لن أدعهن ما عشت : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، وبألا أنام حتى أوتر . رواه الإمام مسلم ، وعن أبى قتادة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان فهذا صيام الدهر كله » رواه مسلم ، وعن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من صام من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر » فأنزل الله تعالى تصديق ذلك فى كتابه ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ رواه الإمام أحمد ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال له : بلغنى أنك تصوم النهار وتقوم الليل ، فلا تفعل فإن لجسدك عليك حظاً ، ولعينك عليك حظاً ، وإن لزوجك عليك حظاً ، صم وأفطر ، صم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر» فأنزل الله تعالى تصديق ذلك فى كتابه ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ رواه الإمام أحمد ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال له : بلغنى أنك تصوم النهار وتقوم الليل ، فلا تفعل فإن لجسدك عليك حظاً ، ولعينك عليك حظاً ، وإن لزوجك عليك حظا ، صم وأفطر ، صم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صوم الدهر ، قلت : يا رسول الله ، إن لى قوة . قال : فصم صوم داود عليه السلام ، صم يوماً وأفطر يوماً . أقول : ولذا ورد كراهية صيام الدهر ، وأما ما ورد فى صوم عاشوراء فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه وسنة خلفه ، ومن صام عاشوراء غفر له سنة »، وكذلك ورد فى صوم الاثنين والخميس عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم قال : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ، وأحب أن يعرض عملى وأنا صائم » ، رواه الترمذى ، وروى مسلم قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تعرض الأعمال فى كل اثنين وخميس ، فيغفر الله عز وجل فى ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقول : اتركوا هذين حتى يصطلحا » .

وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من صام الأربعاء والخميس كتبت له براءة من النار » ، وروى عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من صام الأربعاء والخميس والجمعة بنى الله تعالى له بيتاً فى الجنة يرى ظاهره من باطنه وباطنه من ظاهره ».

وليعلم أن المرأة لا تصوم تطوعاً وزوجها حاضر إلا أن تستأذنه ، فقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « أيما امرأة صامت بغير إذن زوجها فأرادها على شىء فامتنعت عليه كتب الله عليها ثلاثاً من الكبائر » ، وفى رواية : « فإن فعلت جاعت وعطشت ولا يقبله الله تعالى منها»، وفى « مختصر الترغيب » عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه » ، رواه البخارى ومسلم ، وزاد الإمام أحمد إلا رمضان.

واعلم أن الصوم له درجات كما قال حجة الإسلام الغزالى عليه الرحمة فى كتاب « الإحياء » .

الفصل الثانى فى أسرار الصوم : اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية ، يحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فى سوى الله عز وجل واليوم الآخر ، وبالفكر فى الدنيا إلا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة ، حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف فى نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت له خطيئة . فإن ذلك

من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل ، وقلة اليقين برزقه الموعود ، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين .

وأما صوم خصوص الخصوص فهو صوم الصالحين وهو كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة أمور . **الأول** : غض البصر وكفه عن الاتساع فى النظر إلى كل ما يذم ويكره ، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله ، فمن تركها خوفاً من الله تعالى آتاه الله عز وجل إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » ، وروى عن جابر قال صلى الله تعالى عليه وسلم : خمس يفطرن الصائم : الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، واليمين الكاذبة ، والنظرة بشهوة . **الثانى** : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والفحش ، والجفاء ، والخصومة ، والمراء ، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله تعالى ، وتلاوة القرآن ، فهذا صوم اللسان ، وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إنى صائم إنى صائم . قال الغزالى : وجاء فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تستأذنانه فى الإفطار فأرسل إليهما قدحاً وقال قل لهما قيئا فيه ما أكلتما فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا (1) وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « هاتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تغتابان الناس ، فهذا ما أكلتا من لحومهم » **الثالث** : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ، فلذلك حرم الله تعالى سماع الغيبة ، فقال : ﴿ **سماعون للكذب أكالون للسحت** ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت**﴾ ، وقال عليه السلام : المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم . **الرابع** : كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل والبطن عن الشبهات وقت الإفطار ،

---

(1) قوله غريضاً ، الغريض الطرى أو المهزول اهـ منه .

فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام ، فمثل هذا الصائم كمن يبنى قصراً ويهدم مصراً . **الخامس** : ألا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار ، بحيث يمتلئ ، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوات إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام ، حتى استمرت العادة بأن يدخر جميع الأطعمة لشهر رمضان ، مع أن المقصود من الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، إلى أن قال . **السادس** : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن ذلك فى آخر كل عبادة يفرغ منها.ا هـ.

واعلموا أن لشهر رمضان فضائل لا تحصى ، وكرامات لا تستقصى ، ويكفى فيه شرفاً وفضلاً ما رواه البيهقى من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبى قبلى ، أما الأولى فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله تعالى إليهم ومن نظر إليه لم يعذبه أبداً ، وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله تعالى من ريح المسك ، وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم كل يوم وليلة ، وأما الرابعة فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها استعدى وتزينى لعبادى ، أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر لهم جميعاً . قال رجل من القوم: أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا ، ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم . ومن الفضل الذى يساوى فيه الناقص الكامل تفتيح أبواب الجنة وغلق أبواب النار ، وعن سلمان رضى الله تعالى عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان فقال : « أيها الناس ، قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر ، جعل الله تعالى صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد رزق المؤمن فيه ، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من كغير أن ينقص من أجره شىء . قالوا : يا رسول الله ، ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ،

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يعطى الله عز وجل هذا الثواب من فطر صائماً على تمر أو شربة ماء أو مذقة لبن ، وهذا شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، فمن خفف عن مملوكه فيه غفر الله تعالى له وأعتقه من النار، استكثروا فيه من أربع خصال ، خصلتين ترضون بهما ربكم عز وجل ، وخصلتين لا غنى لكم عنهما ، أما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم عز وجل فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه ، وأما الخصلتان اللتان لا غنى لكم عنهما فتسألون الله تعالى الجنة وتعوذون به من النار ، ومن سقى صائماً سقاه الله تعالى من حوضى شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة . رواه ابن خزيمة والبيهقى وأبو الشيخ وابن حبان .

واعلموا أيضاً أن للصيام آداباً كثيرة ولوازم غزيرة ، لا يحصل الأجر التام إلا بها. منها الإخلاص لله سبحانه وتعالى فى العمل لقوله تعالى : ﴿ **مخلصين له الدين** ﴾ وقوله عز وجل ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ ، ومنها أكل الحلال والإفطار على الحلال ، ومنها كف الأذى عن الناس ، ومنها عدم سماع اللهو والغناء المحرم ، وعدم سماع القصص المحرمة فى الأماكن المذمومة ، وترك الكذب والغيبة والنميمة ، وغض النظر عن المحرمات . ولله در الشاعر حيث يقول :

إذا لـم يكـن فى السمع منى تصاون ... وفى بصرى غض وفى منطقى صمت

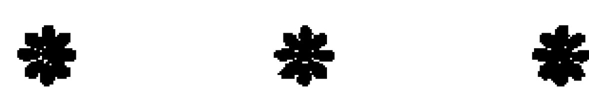
فحـظى إذاً من صومىَ الجوع والظما ... وإن قلت إنى صمت يوماً فما صمت

بل قد نهى عليه الصلاة والسلام عن فضول كلام غير الصائم أيضاً ، بقوله : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ، وقال عليه الصلاة والسلام : «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » .

أقول : وقد عكس الناس الأمر فى هذا الزمان ، فأمسكوا المال وأطلقوا اللسان ، ومن أعظم الفضول تكلم الإنسان بكلمة ليضحك بها أصحابه حتى عد ذلك من الكبائر ، وقد يستشهد له بالخبر المرفوع ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يريد بها إلا أن يضحك القوم يهوى بها بُعدَ ما بين السماء والأرض » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله

تعالى لا يلقى لها بالاً يرفعه الله تعالى بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .
قال العلماء رحمهم الله تعالى : ومن ذلك التكلم فى موافقة من أراد أن يسن سنة سيئة فإنه يعذب بتلك الكلمة ما دام أحد يعمل بتلك السنة السيئة ، ومنه أيضاً إعانة الظالم على المظلوم فى أخذ السحت والزقوم ، قالوا : ومن الفضول أيضاً أن يحدث الإنسان بكل شىء من الأخبار من غير أن يتحقق صدقها ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع » . وقد قيل : إياك والفضول ، فإن حسابه يطول . فيا من طول سنته قد نام ، انتبه لهذه الأيام ، واحذر غفلة الطغام ، وخذ قدر البلغة من الطعام ، واسمع قول الملك العلام : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ ، يا مريضاً لا يقبل من طبيبه ، هذا شهر الحمية قد جاء لتهذيبه ، صن لسانك عن اللغو ولا تهذى به ، فالصوم لى وأنا أجزى به ، ولكن أين الصيام ، هذا شهر عمارة المحراب ، هذا زمان حضور الألباب ، هذا وقت تلاوة الكتاب ، للمتقين فيه على الباب كل وقت زحام ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ . شهر فيه تكف النفوس ، كأنها فى حبوس ، وتظمأ عن الكئوس ، وتطرق من الخشية الرءوس ، عن النظر الحرام ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ . شهر فيه تملأ المساجد ، ويخشع فيه الراكع والساجد ، وينهض إلى الخير كل قاعد ، ويصير الراغب كالزاهد ، من قلة الطعام ﴿كتب عليكم الصيام﴾ . شهر التعبد والتراويح ، شهر السهر والمصابيح ، شهر المتجر الربيح ، شهر يترك فيه القبيح ، وتهجر الآثام ، ﴿كتب عليكم الصيام﴾ . فيه تصح الأمور ، فيه تراق الخمور ، فيه يتعطل الزور ، فيه تنحنى الظهور من القيام ﴿كتب عليكم الصيام﴾ فيه ترق القلوب ، فيه تغفر الذنوب ، وتتجافى المضاجع والجنوب ، فتجفو لذيذ المنام ﴿كتب عليكم الصيام﴾ .

أيقظوا فيه الأسماع والأبصار ، واحبسوا عن الفضول اللسان المهذار ، وانهضوا للاستغفار وقت الأسحار ، واعجبا لمن ينام ﴿كتب عليكم الصيام﴾ . اعزموا على ترك القبائح ، فى السنة ، واعملوا ما يصلح للضرائح فإلى متى أنتم فى السنة . هذا ما يقول لكم الناصح ، والسلام . .



المجلس الثالث

فيما يتعلق بالصوم أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله اللطيف الرءوف العظيم المنان ، الغنى العلى القوى السلطان ، الحليم الكريم الرحيم الرحمن ، الكبير القدير القديم الديان ، الأول فلا سبق لسبقه ، المنعم فما قام مخلوق بحقه ، المولى بفضله على جميع خلقه ، بشرائف المنائح على توالى الزمان . جل عن شريك وولد ، وعز عن الاحتياج إلى أحد ، وتقدس عن نظير وانفرد ، وعلم ما يكون وأوجد ما كان . أنشأ المخلوقات بحكمته وصنعها ، وفرق الأشياء بقدرته وجمعها ، ودحا الأرض على الماء وأوسعها ، والسماء رفعها ووضع الميزان . يعز ويذل ويفقر ويغنى ، ويسعد ويشقى ويبقى ويفنى ، ويشين ويزين وينقض ويبنى ، كل يوم هو فى شان . مد الأرض فأوسعها بقدرته ، وأجرى فيها أنهارها بصنعته ، وصبغ ألوان نباتها بحكمته ، فمن يقدر على صبغ تلك الألوان . ثبت بالجبال الراسيات نواحيها ، وأرسل السحاب بمياه تحييها ، وقضى ربك بالفناء على جميع ساكنيها ، كل من عليها فان . أنعم على هذه الأمة بتمام إحسانه ، وعاد عليها بفضله وامتنانه ، وجعل شهرها مخصوصاً بعميم غفرانه ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن .

أحمده على ما خصنا به من الصيام والقيام ، وأشكره على بلوغ الآمال وسبوغ الإنعام ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى لا تحيط به العقول والأذهان ، وأن محمداً أفضل خلقه وبريته ، المقدم على الأنبياء يبقاء معجزته ، الذى انشق ليلة ولادته الإيوان . صلى الله تعالى عليه وعلى أبى بكر رفيقه فى الغار ، وعلى عمر فتاح الأمصار ، وعلى عثمان شهيد الدار ، وعلى علىٍّ راسخ الإيمان . وعلى سائر الآل والأصحاب على توالى الزمان .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز ، ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ الآيات المتقدم ذكرها فى الدرس الماضى ، فنقول : وبالله تعالى التوفيق ، وبيده أزمَّة التحقيق : قد أسلفنا لكم فى الدرسين الماضيين جملة من الأبحاث المتعلقة بالصوم ، وبقيت أبحاث أخر نذكرها إن شاء الله

تعالى لكم فى هذا اليوم ، فمنها ما فى « الميزان » للعلامة الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، وملخصه أن أئمة المذاهب رحمهم الله تعالى اختلفوا فى باب الصوم فى مسائل ، منها أن الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على الولد لزمهما القضاء والكفارة عن كل يوم مد على أرجح قولى الشافعى وأحمد ، مع قول أبى حنيفة أنه لا كفارة عليهما ، ومع قول ابن عمر وابن عباس أنه تجب الكفارة دون القضاء ، ومنها قول أبى حنيفة وأحمد أن المسافر إذا قدم مفطراً أو برئ المريض أو بلغ الصبى أو أسلم الكافر أو طهرت الحائض فى أثناء النهار لزمهم إمساك بقية النهار ، مع قول مالك والشافعى فى الأصح أنه يستحب ، ومنها قول الأئمة الثلاثة أن المرتد إذا أسلم وجب عليه قضاء ما فاته من الصوم حال ردته ، مع قول أبى حنيفة أنه لا يجب ، ومنها قول الأئمة الثلاثة أنه يصح صوم الصبى ، مع قول أبى حنيفة أنه لا يصح .

أقول : سيأتى إن شاء الله تعالى بحث صوم الصبى مفصلاً فلا تغفل وراجع .

ومنها قول أبى حنيفة والشافعى أن المجنون إذا أفاق لا يجب عليه قضاء ما فاته ، مع قول مالك أنه يجب ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل ، ومنها قول أبى حنيفة ، وهو الأصح من مذهب الشافعى ، أن المريض الذى لا يرجى برؤه والشيخ الكبير لا صوم عليهما ، وإنما تجب عليهما الفدية فقط ، مع قول مالك أنه لا صوم عليهما ولا فدية ، وهو قول للشافعى ، وهى عند أبى حنيفة وأحمد نصف صاع من بر عن كل يوم ، وعند الشافعى مد ، ومنها قول الأئمة الثلاثة أنه لا بد من التعيين فى النية مع قول أبى حنيفة أنه لا يشترط التعيين ، بل إن نوى صوماً مطلقاً أو نفلاجاز ، ومنها قول الأئمة الثلاثة أن وقت النية فى صوم رمضان ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثانى ، مع قول أبى حنيفة أنه لا يجب التعيين ، أى التبييت ، بل تجوز النية من الليل ، فإن لم ينو ليلا أجزأته النية إلى الزوال ، وكذلك قولهم فى النذر المعين .

ومنها قول الأئمة الثلاثة أن صوم رمضان يفتقر كل ليلة إلى نية مجردة مع قول مالك أنه يكفيه فيه واحدة من أول ليلة من الشهر أنه يصوم جميعه . ومنها قول الأئمة الثلاثة أن صوم النفل يصح بنية قبل الزوال مع قول مالك أنه لا يصح بنية من النهار كالواجب ، واختاره المزنى . ومنها قول الأئمة الأربعة أن صوم الجنب صحيح مع قول أبى هريرة وسالم بن عبد الله أنه يبطل صومه كما مر أول الباب ، وأنه يمسك ويقضى ، ومع قول عروة والحسن أنه إن أخر الغسل بغير عذر بطل صومه ، ومع قول النخعى إن كان فى الفرض يقضى . ومنها قول الأوزاعى بإبطال الصوم

بالغيبة والكذب ، مع قول الأئمة بصحة الصوم مع النقص . ومنها قول أبى حنيفة وأكثر المالكية والشافعية أن الصوم لا يبطل بنية الخروج منه مع قول أحمد ببطلانه .

ومنها قول الإمام مالك والشافعى أنه يفطر بالقىء عامداً ، مع قول الإمام أبى حنيفة أنه لا يفطر بالقىء إلا إذا كان ملء فيه ، أى إذا استقاء تعمداً ، ومع قول أحمد فى أشهر رواياته أنه لا يفطر إلا بالقىء الفاحش ، ومع قول الحسن أنه يفطر إذا ذرعه القىء . ومنها قول الأئمة الثلاثة أنه لو بقى بين أسنانه طعام فجرى به ريقه لم يفطر إن عجز عن تمييزه ومجه ، وأنه إن ابتلعه بطل صومه ، مع قول أبى حنيفة أنه لا يبطل صومه ، وقدره بعضهم بالحمصة ، وبعضهم بالسمسمة الكاملة .

ومنها قول الأئمة الثلاثة : إن الحقنة تفطر إلا فى رواية عن مالك ، وكذلك التقطير فى باطن الأذن والإحليل والإسعاط مفطر عند الشافعى ، ولم أجد لغيره فى ذلك كلاماً . ومنها قول الأئمة الثلاثة أن الحجامة لا تفطر مع قول أحمد أنها تفطر الحاجم والمحجوم . ومنها اتفاق الأئمة على أنه لو أكل شاكا فى طلوع الفجر ثم بان أنه طلع بطل صومه ، مع قول عطاء وداود وإسحق أنه لا قضاء عليه . وحكى عن مالك انه يقضى فى الفرض .

أقول : وقد ذهب إلى عدم الإفطار فى الفرض وغيره من الحنابلة الشيخ أبو العباس تقى الدين عليه الرحمة ، ومنها قول أبى حنيفة والشافعى أنه لا يكره الكحل للصائم ، مع قول مالك وأحمد بكراهته ، بل لو وجد طعم الكحل فى الحلق أفطر عندهما . وقال ابن أبى ليلى وابن سيرين : يفطر بالكحل ، ومنها قول الأئمة الثلاثة أن العتق والإطعام والصوم فى كفارة الجماع فى نهار رمضان عامداً على الترتيب ، مع قول مالك أن الإطعام أولى ، وأنها على التخيير ، ومنها قول الشافعى وأحمد أن الكفارة على الزوج مع قول أبى حنيفة ومالك أن على كل منهما كفارة ، فإن وطئ فى يومين من رمضان لزمه كفارتان عند مالك والشافعى . وقال أبو حنيفة إذا لم يكفر عن الأول لزمه كفارة واحدة ، وإن وطئ فى اليوم الواحد مرتين لم يجب بالوطء الثانى كفارة ، وقال أحمد : يلزمه كفارة ثانية وإن كفر عن الأول ، ومنها اتفاق الأئمة الأربعة على أن الكفارة لا تجب إلا فى أداء رمضان ، مع قول عطاء وقتادة أنها تجب فى قضائه ، ومنها قول الأئمة الثلاثة أنه لو طلع الفجر وهو يجامع ونزع فى الحال لم يبطل صومه ، مع قول مالك أنه يبطل ، ومنها قول

أبى حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى روايتيه أن القبلة لا تحرم على الصائم إلا إن حركت شهوته ، مع قول مالك : أنها تحرم عليه بكل حال ، ومنها قول الأئمة الثلاثة : إنه لو قبل فأمذى لم يفطر مع قول أحمد : إنه يفطر ، وكذلك لو نظر بشهوة فأنزل لم يفطر عند الثلاثة . وقال مالك : يفطر ، ومنها قول الأئمة الثلاثة : إن للمسافر الفطر بالأكل والشرب والجماع ، مع قول أحمد : إنه لا يجوز له الفطر بالجماع ، ومتى ما جامع المسافر عنده فعليه الكفارة ، ومنها قول أبى حنيفة ومالك : إن من أفطر فى نهار رمضان وهو صحيح مقيم تلزمه الكفارة مع القضاء ، مع قول الشافعى فى أرجح قوليه ، وأحمد أنه لا كفارة عليه ، ومنها قول الأئمة الأربعة : إن من أفسد صوم يوم من رمضان بالأكل أو الشرب عامداً ليس عليه إلا قضاء يوم مكانه ، مع قول ربيعة : لا يحصل إلا بصوم ألف يوم ، ومع قول على وابن مسعود : إنه لا يقضيه صوم الدهر .

ومنها قول أبى حنيفة والشافعى : إن من أكل أو شرب أو جامع ناسياً لم يبطل صومه ، مع قول مالك أنه يبطل ، ومع قول أحمد : إنه يبطل بالجماع دون الأكل والشرب ، وتجب به الكفارة . ودليل أبى حنيفة قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من أكل أو شرب ناسياً وهو صائم فإنما أطعمه الله تعالى وسقاه » . ومنها قول أبى حنيفة ومالك : إنه لو سبق ماء المضمضة أو الاستنشاق إلى جوف الصائم من غير مبالغة بطل صومه ، مع قول الشافعى فى أرجح قوليه وهو قول أحمد أنه لا يبطل ، ومنها قول مالك والشافعى وأحمد : إن من أخر قضاء رمضان مع إمكان القضاء حتى يدخل رمضان آخر لزمه مع القضاء لكل يوم مد ، مع قول أبى حنيفة : إنه يجوز له التأخير ولا كفارة عليه ، واختاره المزنى ، وقال الأئمة الثلاثة : إنه لا يجوز تأخير القضاء ، ومنها قول الأئمة الثلاثة باستحباب صيام ستة أيام من شوال، مع قول مالك : إنه لا يستحب صيامها ، وقال فى الموطأ : لم أر أحداً من أشياخى يصومها ، وأخاف أن يظن أنها فرض . اهـ .

قلت : وما نقله المناوى فى شرحه الكبير للجامع الصغير ، وصاحب الدرر واللآلىء : إن الإمام الأعظم قال بكراهية صومها ، فهو قول غير مصحح عنه ، ولا مروى بطريق سالم منه ، فلا تغفل .

أقول : واتفقوا على أن الصائم إذا غمس جميع بدنه ورأسه فى الماء لا يفطر

خلافاً للشيعة فإن ذلك عندهم مفطر ، واتفق العلماء المتأخرون على أن شرب الدخان والنتن وجعله فى الأنف والاستعاط به أن ذلك مفطر لدخوله إلى الجوف والباطن فلا تغفل ، وفى حاشية الحضرمية للجد العلامة الشيخ حسين أفندى عليه الرحمة : لو خرجت مقعدة مبسور (١) لم يفطر ، وكذا إن أعادها ولا يجب غسل ما عليها من القذر ، ولا يضر عوده معها للباطن، لأنه لم يفارق معدته سواء ضره الغسل أم لا، ا هـ.

قلت : وذكر أئمتنا الحنفية أن الصائم لا يبالغ فى الاستنجاء خوفاً من أن يدخل فى باطنه الماء فليحفظ ، واعلموا أنه يسن تعجيل الفطر إذا تيقن الغروب وتقديمه على الصلاة للخبر الصحيح « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » وفى خبر «أحب عبادى إلى أعجلهم فطراً » على تمر وأفضل منه رطب وجد لما صح كان صلى الله تعالى عليه وسلم يفطر قبل أن يصلى على رطبات فإن لم يكن فعلى تمرات فإن لم يكن حسا حسوات من ماء ، للخبر الصحيح « إذا كان أحدكم صائماً فليفطر على التمر فإنه بركة فإن لم يجد فعلى ماء فإنه طهور » وأخذ منه ابن المنذر وغيره وجوب الفطر على التمر ، وقال المحب الطبرى : يسن له على ماء زمزم ولو جمع فحسن ، وفيها مخالفة لرواية التمر فلا تغفل ، وقيل الأولى فى هذا الزمن أن يفطر على ماء النهر ، ويأخذه بيده لعدم وجود الحلال الصرف ، وإن قيل إن ماء الأنهر الكبار كدجلة لا يخلو عن شبهة لأنه كما قال ابن حجر أن كثيراً من البلاد التى على حافتها يحفرون حفراً لصيد السمك فيمتلئ ماء ثم يسدون عليه فإذا أخذوا السمك منه فتحوا السد فيختلط ماؤهم المملوك بغيره ، وهذه شبهة قوية . ا هـ .

وحكمة الإفطار على التمر كما قال ابن حجر أنه لم تمسه نار مع إزالته لضعف البصر الحاصل من الصوم لإخراجه فضلات المعدة إن كانت وإلا فتغذية للأعضاء الرئيسية ، وقول الأطباء : إنه يضعفه أي عند المداومة عليه ، والشىء قد ينفع قليله ويضر كثيره ، قيل : والزبيب أخو التمر إن لم يوجد . ا هـ .

قال بعض الأفاضل : ومن القبيح إفطار كثير من الناس على الدخان والنتن مع أن العلماء اختلفوا فيه كما قال العلامة ابن عابدين فمنهم من قال بحرمته ومنهم من قال بكراهته ، ومنهم من قال بإباحته ، كالثوم والبصل . وقد ورد فيهما : من أكل

---

(١) قوله مبسور أى : من فيه باسور . ا هـ منه .

هاتين الشجرتين فلا يقرب مسجدنا يؤذنا . وستأتى تتمة البحث إن شاء الله تعالى . ويسن أن يقول عقب فطره : اللهم لك صمت - أى لا لغرض ولا لأحد غيرك - وعلى رزقك أفطرت . وروى : ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . وفى رواية : يا واسع الفضل اغفر لى .

واعلموا أن من السنن فى الصيام السحور وتأخيره لما فى صحيح البخارى عن زيد ابن ثابت رضى الله تعالى عنه قال : تسحرنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الصلاة . قلت : كم بين الأذان والسحور ؟ قال : قدر خمسين آية . وفى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تسحروا فإن فى السحور بركة ، والبركة التى فيه القوة على الصيام لخفة المشقة على المتسحر . وقيل : لأنه يتضمن الاستيقاظ والذكر والدعاء فى وقت نزول الرحمة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور ، رواه مسلم ، ومعناه أنه الفارق بين الصيامين فإنهم لا يتسحرون ، وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين .

واعلموا رحمكم الله تعالى وإيانا أن من أعظم القرب فى شهر رمضان صلاة التراويح ، ففى شرح السفيرى : باب فضل من قام رمضان ، حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنى الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال : حدثنى أبو سلمة أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لرمضان : « من قامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ، ومعنى قوله عليه السلام إيماناً أى مصدقاً بما وعد الله تعالى من الثواب عليه ، ومعتقداً لفضله . وقوله احتساباً ، أى يريد به وجه الله تعالى والدار الآخرة من غير رياء ولا سمعة ، وقوله غفر له ما تقدم من ذنبه ، قيل الصغائر والكبائر ما عدا حقوق العباد ، وقيل الصغائر فقط ، قال العلماء : والمراد بقيامه أن يصلى صلاة التراويح فى لياليه، وهى سنة باتفاق العلماء ، وإنما سميت بالتراويح لأنهم كانوا يستريحون بعد كل تسليمتين ، ويسمى كل أربعة منها ترويحة ، فهى خمس ترويحات ، وأهل المدينة كانوا يصلونها ستاً وثلاثين ركعة ، قال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى : رأيت أهل المدينة يصلون تسعة وثلاثين ركعة منها ثلاث الوتر ، وروى الإمام البخارى فى صحيحه عن عروة

عن عائشة رضى الله تعالى عنها أخبرته أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليلة من جوف الليل فصلى فى المسجد ، وصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فصلى فصلوا بصلاته فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال : أما بعد : فإنه لم يخف عليَّ مكانكم ، ولكنى خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها . فتوفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والأمر على ذلك ، قال بعض العلماء : يحتمل عدم خروجه صلى الله تعالى عليه وسلم وجوهاً :

الأول : أن يكون أوحى الله تعالى إليه أنه إن صلى هذه الصلاة معهم فرضت عليهم، **الثانى** :أن يكون ظن عليه الصلاة والسلام أنها ستفرض عليهم ، **الثالث** :أن يكون خاف صلى الله تعالى عليه وسلم أن يظن أحد من أمته بعده إذا داوم عليها أنها واجبة ، أى يتوهموا فرضيتها فيعجزوا عنها ، والله تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وهذا من شفقته عليه الصلاة والسلام ، فإنه كان بالمؤمنين رحيماً . قال العلماء : وصلاها باقى الشهر فى بيته ، واستمر ترك صلاة التراويح مع الجماعة إلى خلافة عمر رضى الله تعالى عنه حتى جمع الناس عليها جميع شهر رمضان ، قال ابن الملقن : ذكر أن عليا كرم الله تعالى وجهه مر ليلة ببعض مساجد الكوفة فى رمضان وهم يقومون ، فقال : نور علينا عمر مساجدنا نور الله تعالى عليه قبره .

فإن قيل : قد ثبت فى صحيح البخارى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال فى التراويح : نعمت البدعة هذه ، فسماها بدعة مع أن البدعة هى الفعل الذى لم يعهد فى عصره صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذه قد عهد فعلها فى الجملة فقد أجاب الكرمانى بأجوبة . منها أنه لم يثبت فعلها كل ليلة مع الجماعة ، ومنها أنه لم يثبت فعلها بهذه الصفة أى بهذا العدد المعين ؛ فلذا قيل أربعون ، وقيل ست وثلاثون ما عدا الوتر ، وقيل عشرون وهو المشهور ، ومنها أنه لم يثبت فعلها أول الليل ، فلهذا قال الحليمى فى منهاجه : ينبغى أن يكون الشروع فيها بعد مضى ربع الليل أو قريباً منه ، فإن قيل : البدعة على ما قال غير واحد تنقسم إلى خمسة أقسام واجبة ومندوبة ومحرمة ومكروهة ومباحة فمن أى قسم صلاة التراويح ؟ فالجواب أنها من قسم المندوبة ، وقد صرح بذلك العز بن عبد السلام فى قواعده ، فمثل للبدعة

الواجبة بتعلم النحو لأجل القرآن والحديث ، والمحرمة بمذهب القدرية والمجسمة ونحوهما ، وقال إن الرد عليهم من البدعة الواجبة ، وللمندوبة بصلاة التروايح وبناء المدارس ونحوهما ، وللمكروهة بزخرفة المساجد وتزويق المصاحف ، وللمباحة بالمصافحة بعد صلاة العصر ، بل قيل : سنة ، وأصل المصافحة سنة ، فقد ورد «إذا التقى المسلمان وتكاشرا وتصافحا تحاتت عنهما ذنوبهما » وأما تقبيل يد العالم والسلطان فقيل لا بأس به، وأما تقبيل الأرض والعتبات كما يفعله الجهلة فهو حرام.

والحاصل أن التراويح مندوبة ومسنونة بفعل عمر رضى الله تعالى عنه ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر » لا سيما وقد اتفقت معه الصحابة فقد زال اسم البدعة عنها ، لكن لا تفعل بكثرة التطويل الممل ولا بالاستعجال المخل ، من غير خشوع ولا تكميل أركان ، كما يفعلها كثير من أئمة الزمان ، وكذا صلاتها فى البيت باستئجار الإمام كما يفعله كثير من الأنام ، فذلك مكروه أشد الكراهة ، كما نص على ذلك فى الفتاوى الهندية ، فلا تغفل .

عباد الله ، قد مضى عنكم شهر رجب وشعبان ، ولعل أكثر أيامهما ذهبت فى العصيان ، وها أنتم اليوم فى شهر رمضان ، وهو شهر الإعتاق من النيران ، لمن ترك الذنوب واستحيا من رقيبه القائل : « الصوم لى وأنا أجزى به » شهر أقبل على المقبولين بتكثير الأجور ، وعلى الصادقين بتوفير النور ، وعلى المتقين بالفرح والسرور ، وعلى التائبين بتقويم الأمور ، وعلى العامل بتكميل نصيبه « الصوم لى وأنا أجزى به » . شهر يتم به الإسعاد والتكريم ، ويتفضل بجزيل الإنعام الملك الكريم ، ويصفد فيه كل شيطان رجيم ، ويعافى فيه مريض الخطايا السقيم ، إذا امتثل أمر طبيبه « الصوم لى وأنا أجزى به » . شهر تتوافر فيه العطايا والمنح ، ويتحصل فيه كل مأمول مقترح ، ويتم للعابد بالثواب الفرح ، ويغفر للعاصى كل ما اجترح ، ويعاد على من أصلح وصلح بإدنائه وتقريبه « الصوم لى وأنا أجزى به » . فيه الأحباب بالدعاء يعجون ، وبالتضرع فى جميع أوقاته يضجون ، وفى نهاره من الغفلات يتحرجون ، وفى دياجيه للمولى الكريم يناجون ، وبآمالهم لسيدهم يلتجئون إذا سكن كل حبيب إلى حبيبه « الصوم لى وأنا أجزى به » . شهر يعفو فيه عن عباده الرؤوف الرحيم ، فاحفظوه لعله يحصل لكم جنات النعيم ، ويقيكم فى القيامة هول الجحيم ، إذا انزعجت القلوب لهيبة لهيبه « الصوم لى وأنا أجزى به ».

لقد سعد من اتقى فيه ونجا ، ولقد نال مأمول الغفران فيه من رجا ، ولقد تم حال من أفطر فيه على السؤال والنجا ، وتسحر فى جوف الليل وظلمة الدجا . ببكائه ونحيبه « الصوم لى وأنا أجزى به » . فصححوا رحمكم الله الفرض والنوافل ، واحترسوا من سهوات الغفلات القواتل ، وتيقظوا قبل لحاق الأواخر بالأوائل ، تنجوا من عقاب الله وتعذيبه « الصوم لى وأنا أجزى به » . واحذروا غيبة الناس فإنها تحبط الأجر ، وجانبوا أكل الحرام فإنه سبب الطرد والهجر ، وعظموا شهركم فإنه عظيم الأمر ، وانتظروا فيه بحسن اليقظة ليلة القدر، فإنها غريبة غريبة ، وعجيبة عجيبة « الصوم لى وأنا أجزى به » . وإياكم فيه وفضول النظر والكلام ، واجتهدوا فيه فى الصلاة والصيام ، فإذا سلم رمضان سلم جميع العام ، عساه يقيكم شر الوقوف على الأقدام ، يوم يفر المرء من أخيه والنسيب من نسيبه « الصوم لى وأنا أجزى به ».. وحققوا فى صيامكم التقوى والورع ، ولازموا الحذر قبل يوم الفزع ، وراقبوا مولاكم لعله إذا اطلع ، منحكم أفضل المنح ووهب أحسن الخلع ، فى دار جزائه وثوابه إذا تبرأ الحبيب من حبيبه « الصوم لى وأنا أجزى به » .

اللهم أيقظنا من رقدات الغفلة ، ووفقنا للتزود قبل العلة ، وألهمنا اغتنام الزمان ووقت المهلة ، اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك ، ونعتمد عليك ، ونسألك بنور وجهك الكريم ، وسلطانك العظيم ، توبة صادقة ، وأوبة خالصة ، وإنابة كاملة ، ومحبة غالبة ، وشوقاً إليك ، ورغبة فيما لديك ، وفرجاً عاجلاً ، ورزقاً حلالاً واسعاً ، اللهم إنا نسألك لساناً رطباً بذكرك ، وقلباً مفعماً بشكرك ، وبدناً هينا لينا بطاعتك ، وأعطنا مع ذلك ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . اللهم الطف بنا فى قضائك ، وعافنا من بلائك ، وهب لنا ما وهبته لأوليائك، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وتوفنا وأنت راض عنا ، وقد قبلت اليسير منا ، واجعلنا يا مولانا من عبادك الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون. اللهم اعصمنا من شر الفتن ، وعافنا من جميع المحن ، وأصلح منا ما ظهر وما بطن ، ونق قلوبنا من الحقد والحسد ، ولا تجعل علينا تباعة لأحد . اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، ومن الخوف إلا منك ، ونعوذ بك أن نقول زوراً ، وأن نغشى فجوراً ، ونعوذ بك من شماتة الأعداء ، وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفجأة النقمة ، اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، واغفر لنا ولوالدينا وللجماعة

الحاضرين ، ولجميع المسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين .

* * *

المجلس الرابع
فى صوم الصبى وما يتعلق به كالعقيقة ونحوها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى يسبح له البحار الطوافح ، والسحب السوافح ، والأبصار الطوامح ، والأفكار والقرائح ، العزيز فى سلطانه ، الكريم فى امتنانه ، ساتر المذنب فى عصيانه ، ورازق الصالح والطالح . تقدس عن مثل وشبيه ، وتنزه عن نقص يعتريه ، يعلم خافية الصدر وما فيه ، مِن سرٍّ أضمرته الجوانح . لا يشغله شاغل ، ولا يبرمه سائل ، ولا ينقصه نائل ، تعالى عن الند المماثل ، والضد المكادح . يسمع تغريد الورقاء على الغصن ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ويتكلم وكلامه مكتوب فى اللوح مسموع بالأذن ، بغير آلات ولا أدوات ولا جوانح. موصوف بالسمع والبصر ، مرئى فى الجنة كما يرى القمر ، من شبهه أو كيفه فقد كفر ، هذا مذهب أهل السنة والأثر ، ودليلهم جلى واضح . ينجى من يشاء ويهلك ، فهو المسلِم والمسلِّم والملك ، لم ينتفع كنعان بالنسب يوم الغرق ، لأنه مشرك ، قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح .

أحمده على تسهيل المصالح ، وأشكره على ستر القبائح ، وأصلى على رسوله محمد أفضل غاد ورائح ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر ذى الفضل الراجح، وعلى عمر العادل فلم يراقب ولم يسامح ، وعلى عثمان الذى بايع عنه الرسول فيا لها صفقة رابح ، وعلى على البحر الخضم الطافح ، وعلى جميع آله وأصحابه ذوى الرأى السديد والعمل الصالح .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز : **﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾** ، فنقول : قال المفسرون : **﴿ وأمر أهلك ﴾** المراد بهم أهل بيته ، وقيل جميع أمته ، ولم يذكر ههنا الأمر من الله تعالى له **﴿ بالصلاة ﴾** بل قصر الأمر على أهله ، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً ، أو لكون أمره بها قد تقدم فى قوله : **﴿ وسبح بحمد**

ربك ﴾ إلخ ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له ، ولهذا قال : واصطبر عليها ، أى اصبر على محافظة الصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا ، وقيل اصبر عليها فعلا فإن الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول . أخرج البخارى وابن عساكر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت هذه الآية كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يجيء إلى باب عليٍّ صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول : الصلاة . رحمكم الله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . وأخرج أحمد والبيهقى وغيرهما عن ثابت قال : كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله : يا أهلاه صلوا صلوا . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وعن عبد الله بن سلام ، قال السيوطى بسند صحيح قال : كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وقرأ وأمر أهلك بالصلاة الآية ، وكان عروة بن الزبير إذا رأى ما عند السلاطين قرأ هذه الآية ثم ينادى : الصلاة الصلاة ، وكان بكر بن عبد الله المزنى إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا ، بهذا أمر الله ورسوله ، وعن مالك بن دينار مثله ﴿ **لا نسألك رزقا**﴾ أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك وتشتغل بذلك عن الصلاة نحن نرزقك ونرزقهم والعاقبة المحمودة وهى الجنة للتقوى أى لأهل التقوى على التقوى ، على حذف المضاف ، كما قال الأخفش ، وفيه دليل على أن التقوى هى ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير .

قال السفيرى عليه الرحمة : ويجب على ولى الصغير أن يأمره بالصلاة إذا بلغ الصغير سبع سنين ، وإذا بلغ عشر سنين أن يضربه ، وكذا الأمر بالصوم إن أطاقه ، والمراد بالولى الأب والجد والوصى والقيم ، فإن ترك الولى الأمر أو الضرب أثم ، وكما يجب عليه ذلك يجب عليه تعليمه الطهارة وما يلزم من العلم ، ونهيه عن فعل المحرمات ، وأمره بقضاء ما فاته من الصلاة ، وضربه عليها . وليعلم أن الأئمة اختلفوا فى رجوع ثواب الصبى لمن من صلاة وحج وقراءة ونحو ذلك . فالذى ذكره الإمام النووى الشافعى فى فتاويه أن ثواب ذلك للصبى لا لوالديه ، بل يثاب وليه على أمره له بذلك ، وهذا مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه . واختلف الحنفية ففى فتاوى قاضيخان إذا فعل الصغير من الحسنات قال أبو بكر الإسكافى : تكون

حسناته له دون أبويه ، لقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وإنما يكون لوالده من ذلك أجر التعليم كما قالت الشافعية ، وقال بعضهم : حسناته تكون لأبويه لما روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال : من جملة ما ينتفع به المرء بعد موته أن يترك ولداً علمه القرآن والعلم ، فيكون لوالديه أجر ذلك من غير أن ينقص من أجر الولد شيء . وهذا يرجع إلى قول الشافعي أيضاً ، وأما المرأة فكما ذكرنا أنها من الأهل فيلزم أمرها بذلك ؛ لكن المرأة إذا أرادت أن تصوم نفلا فلا تصوم إلا برضا زوجها ، فإن الصيام بلا إذنه على ما قال ابن حجر فى الزواجر من الكبائر كما تقدم ، وكذا يجب على السيد أن يأمر رقيقه ورقيقته بالصلاة والصوم وغير ذلك ، كالولد والأقارب وأولى الأرحام . وليعلم أن للوالد على الولد حقوقاً، وللولد على والديه حقوقاً ، والحقوق قسمان ، واجبة ومندوبة ، فمن الحقوق الواجبة عليه النفقة والكسوة ، فقد روى « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول» ، ومنها أمره بالصلاة كما تقدم ، وأما حقوقه المستحبة فكثيرة . منها أن يؤذن فى أذنه اليمنى ، ويقيم فى اليسرى . ولله در من قال :

أذان المرء حين الطفل يأتى ... وتأخير الصلاة إلى الممات
دليـــل أن محيـــاه قليـــل ... كما بين الأذان إلى الصلاة

ولله در من قال أيضاً :

ولدتـــك أمـــك يا ابن آدم باكيا ... والناس حولك يضحكون سرورا
فاجـهد لنفسك أن تكون إذا بكوا ... فى يوم موتك ضاحـكا مسرورا

ثم ليعلم أن غير الأب يقوم مقامه فى الأذان ، روى الترمذى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أذن فى أذن الحسين رضى الله تعالى عنه حين ولدته فاطمة ، وروى ابن السنى عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من ولد له مولود فأذن فى أذنه اليمنى وأقام فى أذنه اليسرى لم تضره أم الصبيان ، وأم الصبيان التابعة من الجن ، والحكمة أيضاً فى الأذان والإقامة أن يكون أول ما يدخل سمعه عند قدومه إلى الدنيا توحيد ربه عز وجل ، كما يلقن التوحيد عند خروجه منها . ويستحب أيضاً قراءة سورة الإخلاص

فى أذنه اليمنى ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرأها فى أذن مولود .

وللإخلاص فضائل عظيمة . منها ما رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال : أقبلت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد السورة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وجبت ، فسألته : ماذا يا رسول الله ؟ فقال : الجنة ، وعن أبى أيوب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أيعجز أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن ؟ من قرأ قل هو الله أحد فقد قرأ ثلث القرآن. وروى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من قرأ قل هو الله أحد ، يختمها عشر مرات بنى الله عز وجل له قصراً فى الجنة ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : إذن نستكثر يا رسول الله ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: الله أكثر وأطيب . وهذا كما لكثير من الآيات والسور خواص وثواب عظيم . من ذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام فى آية الكرسى عن أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه أن أباه أخبره أنه كان لهم جرين فيه تمر ، وكان مما يتعاهده فيجده ينقص فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة كهيئة الغلام المحتلم قال فسلم ، فرد السلام ، فقلت: من أنت جن أم إنس ؟ قال : جن ، فقلت : ناولنى يدك فإذا يد كلب وشعر كلب، فقلت : هذا خلق الجن ، لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد منى ، فقلت : ما يحملك على ما صنعت ؟ فقال : بلغنى أنك تحب الصدقة فأحببت أن أصيب من طعامك ، فقلت : ما الذى يحرزنا منكم ؟ قال : هذه الآية آية الكرسى ، قال : فتركته . وغدا أبى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال : صدق الخبيث . رواه ابن حبان ، بنقل الترغيب ، وروى الحاكم : سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لا تقرأ فى بيت وفيه شيطان إلا خرج منه ، آية الكرسى ، وكذا ورد فى المعوذتين ، قال عقبة بن عامر : بينما أسير مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين الجحفة والأبواء إذ غشينا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتعوذ بأعوذ برب الفلق ، وأعوذ برب الناس، ويقول: يا عقبة، تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما . قال : وسمعته يؤمنا بهما فى الصلاة ، وفى

سورة يس قوله عليه الصلاة والسلام : قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، اقرءوها على موتاكم ، رواه الإمام أحمد .

ولنرجع إلى ما نحن بصدده من القراءة فى أذن المولود ، قال العلماء : فكما يسن قراءة الإخلاص فى أذنه يسن قراءة ، إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . قال بعض الحنفية : ويلف المولود إذا ولد فى خرقة بيضاء نقية ولا يلف فى خرقة صفراء، ويستحب أن يحنك الولد عند ولادته بتمر بأن يمضغ التمر ويدلك به حنكه، ويفتح فمه حتى يدخل إلى جوفه منه شىء ، فإن لم يوجد تمر فبحلو كعسل ، وينبغى أن يكون المحنك له من أهل الخير ، فإن لم يكن رجل فامرأة صالحة ، فإنه كان يؤتى بالصبيان إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيدعو لهم ويحنكهم، قال الإمام الغزالى : ويستحب أن يلقن الصبى أول انطلاق لسانه لا إله إلا الله ليكون ذلك أول حديثه ، ومن حقوق الولد على وليه أن يحسن اسمه ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » وأفضل الأسماء عبد الله وعبد الرحمن ، ويستحب أن يكون التسمية يوم السابع من ولادته ، ويستحب تسمية السقط لخبر ورد فيه فإن تركه طالبه بذلك يوم القيامة.

حكى الغزالى أن السقط يوم القيامة يسعى إلى أبيه فيقول أنت ضيعتنى وأنت تركتنى ولا اسم لى . فإن لم يعلم هل السقط ذكر أم أنثى سمى باسم يصلح لهما كحمزة وطلحة وعمارة ، ونحو ذلك ، وقال الإمام مالك : لا يسمى ما لم يستهل صارخاً . ويستحب تغيير الاسم القبيح ، فقد ورد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير اسم عاصية إلى جميلة . وفى الصحيحين إن زينب كان اسمها برة ، فقيل تزكى نفسها ، فسماها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زينب . وفى الصحيح أن شخصاً جاء إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ما اسمك ؟ قال : حزن . قال : أنت سهل ، قال : لا أغير اسماً سمانيه أبى . فما زالت الحزونة فيه وفى أولاده ، والحزونة غلظ الوجه وشىء من القساوة ، وبهذا يعرف خطأ من يسمى ولده بعبد فلان وعبد فلان ويشمئز عن التسمية بعبد القادر وعبد الملك وعبد الرحمن ، فهلا علم سر قوله تعالى : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء ﴾ على بعض التفاسير ، فتذكر ولا تغفل .

ومنها الختان ، قال ابن حجر فى كتاب الزواجر : الكبيرة التاسعة والثمانون بعد

الثلثمائة ترك ختان الرجل والمرأة بعد البلوغ ، كذا ذكره بعضهم ، وله نوع وجه فى ترك ختان الرجل لما يترتب على ذلك من المفاسد التى من جملتها عدم صحة الصلاة غالباً لأن غير المختون لا يصح استنجاؤه حتى يغسل الحشفة التى داخل قلفته ؛ لأنها لما كانت مستحقة الإزالة كان ما تحتها فى حكم الظاهر ، فوجب غسله ، والغالب من أحوال غير المختونين التساهل فى ذلك وعدم الاعتناء به فلا تصح صلاتهم ، فكأن هذا هو ملحظ من قال بأن ذلك كبيرة ، وأما كون تركه فى حق الأنثى كبيرة فلا وجه له . قال فى شرح المنهاج : إنا إن أوجبنا الختان فتركه بلا عذر فسق ، انتهى ، أى فى حق الذكر فسق دون الأنثى فإنه فى حقها ليس بكبيرة : ولما كان لا يتم تطهير الحشفة على أتم وجه كان عدم الختان من الكبائر عند بعض العلماء لما أن التحفظ والاستبراء التام والتنزه من البول أمر لازم ، فعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر من البول ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : كنا نمشى مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمررنا على قبرين فقام فقمنا معه فجعل لونه يتغير حتى رعد كم قميصه ، فقلنا : ما لك يا رسول الله ، فقال : ألا تسمعون ما أسمع ، فقلنا : وما ذاك يا نبى الله ، قال : هذان رجلان يعذبان فى قبورهما عذاباً شديداً فى ذنب هين ، قلنا : فيم ذاك ؟ قال : كان أحدهما لا يستنزه من البول ، وكان الآخر يؤذى الناس بلسانه ويمشى بينهم بالنميمة، فدعا بجريدتين من جرائد النخل فجعل فى كل قبر واحدة ، قلنا : وهل ينفعهم ذلك ، قال : نعم ، يخفف عنهما ما دامتا رطبتين . وقوله فى ذنب هين ، يعنى هين عندهما وفى ظنهما، أو هين عليهما اجتنابه ؛ لأن النميمة محرمة اتفاقاً . فقد روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من مشى بالنميمة بين اثنين سلط الله تعالى عليه ناراً فى قبره تحرقه إلى يوم القيامة » ، وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: لا يدخل الجنة قتات ، وفى رواية نمام ، وسيأتى إن شاء الله تعالى فى الدروس الآتية تفصيل الغيبة والنميمة ، وكونهما من الكبائر المحرمة .

ولنرجع إلى تتمة الختان فنقول : إن الإمام الأعظم قد توقف فى زمنه كما توقف

من شدة ورعه رضى الله تعالى عنه فى خمسة عشر مسألة أو أكثر ، والذى يقتضيه كلام العلماء أن وقته عند السبع لأنه وقت الأمر بالصلاة ، واعلم أنهم اختلفوا فى أن النبى عليه الصلاة والسلام هل ولد مختوناً أم لا . فقيل : نعم لما رواه فى الجامع الصغير عن أنس « من كرامتى على ربى أنى ولدت مختوناً ولم ير أحد سوأتى » ، وقيل : هذا ضعيف ، وقد ولد اثنا عشر نبياً مختونين ، والختان كما قيل من الكلمات التى ابتلى إبراهيم عليه السلام بهن فأتمهن ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ ، وقيل هى شرائع الإسلام ، وقيل ذبح ولده ، وقيل أداء الرسالة، وقيل خصال الفطرة ، وهى الختان ونتف العانة وتقليم الأظفار ونحوها .

ولنرجع إلى حقوق الولد على والده فنقول : قال العلماء : منها أن يعلمه القرآن ويزوجه إذا بلغ . فقد ذكر أبو الليث السمرقندى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : حق الولد على الوالد ثلاثة أشياء ، أن يحسن اسمه إذا ولده ، ويعلمه الكتاب إذا عقل ، ويزوجه إذا أدرك ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : الغلام يعق عنه يوم السابع ، ويسمى ويماط عنه الأذى ، فإذا بلغ ست سنين أدب ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة يضرب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال : قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة . قال فى « شرعة الإسلام » لبعض العلماء الحنفية : فإن لم يزوجه وأحدث حدثاً فالإثم بينهما . قال : والولد أمانة الله عند والده أودعه إياه طاهراً على فطرة الإسلام فينبغى أن يؤديه إلى الله تعالى طاهراً مطهراً ، ويبذل الجهد فى تربيته وصيانة عرضه . قال أبو الليث : وجاء رجل بابنه إلى عمر رضى الله تعالى عنه فقال : ابنى هذا يعقنى . فقال عمر للابن: أما تخاف من عقوق والدك فإن من حق الوالد كذا وكذا ، فقال الابن : يا أمير المؤمنين أما للابن على والده حق ، قال : نعم ، عليه أن ينتخب أمه ويحسن اسمه ويعلمه الكتاب، قال : فوالله ما انتخب أمى ما هى إلا سندية اشتراها بأربعمائة درهم، ولا حسن اسمى سمانى جعلا، ولا علمنى من كتاب الله شيئاً. فالتفت عمر إلى أبيه، وقال: تقول ابنى يعقنى وقد عققته قبل أن يعقك قم عنى، ومن حقوق الولد على

والده أن يسوى بينه وبين بقية أولاده فى العطية ذكورهم وإناثهم سواء ، فإن لم يسو كره له إلا إذا علم ورع أحد أولاده فلا بأس .

ومنها معاشرته باللطف فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدلع لسانه للحسين رضى الله تعالى عنه فإذا رآه حركه له ، ومنها أن يعلمه حرفة صالحة فإن الحرفة أمان من الفقر ، فقد كانت الأنبياء والأولياء أصحاب حرف يأكلون منها ، ومنها أن يدعو له بالخير ، ففى الحديث « دعاء الوالد لولده كدعاء النبى لأمته ولا يدعو عليه بالشر » ، ومنها أن يطرفه بشىء من فواكه السوق ، فقد ورد فى الحديث « من اشترى لعياله شيئاً ثم حمله بيده إليهم حط عنه ذنب سبعين سنة ، وليبدأ بالإناث فى الإعطاء لأنهن أضعف قلوباً » وجاء فى الحديث : من فرح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ، ومن بكى من خشية الله حرم الله بدنه على النار .

ومنها العقيقة ، قال الشعرانى فى الميزان : العقيقة عند مالك والشافعى مستحبة ، وعند أبى حنيفة مباحة ، وعند أحمد فى أشهر روايتيه سنة ، والثانية أنها واجبة ، واختارها بعض أصحابه وهو مذهب الحسن البصرى وداود الظاهرى ، وإن السنة فى العقيقة عند الأئمة الثلاثة عن الغلام شاتان وعن الجارية واحدة ، وقال مالك عن الغلام شاة واحدة كما فى الجارية ، وذهب الشافعى وأحمد إلى استحباب عدم كسر عظام العقيقة ، وذهب غيرهما إلى استحباب كسرها تفاؤلاً بالذبول وكثرة التواضع وخمود نار البشرية . اهـ . وقال السفيرى : قال العلماء : يستحب للوالد أن يعق عن ولده ، وكل من تلزمه النفقة فى معنى الوالد ، والسنة أن يعق عن الولد الذكر بشاتين وعن الأنثى بشاة ، وفضل الذكر على الأنثى فى العقيقة لأن السرور بالغلام أكثر ، فإن ذبح عن الغلام شاة حصل أصل السنة ، ولو ولد له ولدان فذبح عنهما شاة واحدة لم تحصل سنة العقيقة ، ويشترط أن ينوى عند ذبحها أنها عقيقة كما فى الأضحية ، ويستحب أن يقول عند ذبحها بعد التسمية : اللهم منك وإليك عقيقة فلان، ويستحب أن يفصل أعضاءها ولا يكسر شيئاً من عظامها تفاؤلاً بسلامة أعضاء المولود، نعم يجوز كسرها بلا كراهة ، ويستحب ألا يتصدق بلحمها نيئا بل يطبخه بشىء حلو ويتصدق به على الفقراء ، ويستحب أن يأكل منها ويتصدق ويهدى ، والسنة أن يكون ذبحها فى اليوم السابع ، ولا تفوت بتأخيرها عن السبعة ، لكن يستحب ألا يؤخرها عن البلوغ ، فإن بلغ سقط حكمها عن الوالد ، والولد مخير

إن شاء عق عن نفسه ، ولو مات بعد اليوم السابع وبعد التمكن من الذبح يستحب أن يعق عنه، ويستحب أن تذبح أول النهار وأن يدفع للقابلة رجل العقيقة ، ويكره أن يلطخ رأس المولود بدمها كما كان فى الجاهلية ، فإنهم كانوا يضعون قطنة فى دم العقيقة ويجعلونها على رأس المولود فأمرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعلوا مكان الدم خلوقاً ، فالسنة أن يلطخ رأسه بخلوق أو زعفران ، ويستجب أن يحلق رأسه يوم السابع أيضاً ، وأن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة سواء فيه الذكر والأنثى ، فإن فاطمة بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وزنت شعر حسن وحسين وزينب وأم كلثوم فتصدقت بزنة ذلك فضة ، ويستحب أن يكون الحلق بعد الذبح ، وفعل العقيقة أفضل من التصدق بثمنها عندنا [١] وسن الشاة التى تذبح كالأضحية جذعة [٢] ضأن أو ثنية [٣] معز ، وذهب الإمام أحمد بن حنبل فى إحدى روايتيه إلى أنها واجبة ، وذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة أنها ليست بواجبة ولا سنة بل هى بدعة .

واستدل الشافعى على استحبابها بما رواه الترمذى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : الغلام مرتهن بعقيقته ، تذبح عنه يوم السابع ، ويحلق رأسه ، ويسمى . فاختلف العلماء رحمهم الله تعالى فى معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم مرتهن بعقيقته ، فقيل : معناه لا ينمو نمو مثله حتى يعق عنه ، وأجود ما قيل فى معناه أنه إذا لم يعق عنه لم يشفع فى والديه يوم القيامة ، فإن الولد إذا مات دون البلوغ يشفع فى والديه إلا إذا لم يعق عنه ، هذا ما اختاره الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ذرارى المسلمين يوم القيامة تحت العرش شافعين مشفعين » هذا ومن جملة حقوقه تربيته وتأديبه . روى جابر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع » ، وأما حقوق الوالدين فكثيرة وعقوقهما من أكبر الكبائر ، وقد ورد فى ذلك آيات عديدة وأحاديث سديدة ، منها قوله تعالى : ﴿ **ولا تقل لهما أف** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك** ﴾ وغير ذلك ، ومنها ما رواه طلحة قال : أتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت : يا رسول الله، إنى أريد الجهاد فى سبيل الله تعالى،

---

(١) أى الشافعية ، ا هـ منه .
(٢) ما تمت له سنة أو أقل ، ا هـ منه .
(٣) هى ما دخل فى الثانية أو الثالثة ، ا هـ منه .

قال : أمك حية ؟ قلت : نعم ، قال الزم رجلها فثم الجنة . وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، ومن أتاه أخوه مستنصلاً فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً ، فإن لم يفعل لم يرد علىَّ الحوض » وفى حديث آخر « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا العقوق فإنه يعجله لصاحبه » وفى حديث آخر « لا ينظر الله تعالى إلى العاق ومدمن الخمر والمنان عطاءه » وفى حديث آخر « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق والديوث والرجلة ، أى المرأة المتشبهة بالرجال ، ومن جملة عقوقه انتسابه إلى غيره ، قال عليه الصلاة والسلام « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » . وروى أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه « من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً » رواه البخارى وغيره ، وروى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال : رقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المنبر فلما رقى الدرجة الأولى قال آمين ، ثم رقى الثانية فقال آمين ، ثم رقى الثالثة فقال آمين، فقالوا : يا رسول الله ، سمعناك تقول آمين ثلاث مرات ، قال لما رقيت الدرجة الأولى جاءنى جبريل فقال : شقى عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له فقلت آمين ، ثم قال : شقى عبد أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة فقلت آمين ، ثم قال : شقى عبد ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين .

فعليكم عباد الله بحسن تربية أولادكم وبر آبائكم وخدمة أمهاتكم ، والتزود لمعادكم ، فكأنى بك غافل وعمرك قد انقرض ، وهجم عليك المرض ، وغاب كل مراد وغرض ، وإذا بالتلف قد عرض أخاذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » ، شخص البصر ، وسكن الصوت ، ولم يمكن التدارك للفوت ، ونزل بك ملك الموت وحاذى . « لقد كنت فى غفلة من هذا » عالجت أشد الشدائد ، فيا عجبا لما تكابد كأنك سقيت سم الأساود ، فقطع أفلاذا . « لقد كنت فى غفلة من هذا » . بلغت الروح التراقى ، ولم تعرف الراقى من الساقى ، وما تدرى عند الرحيل ما تلاقى ، عياذا بالله عياذاً « لقد كنت فى غفلة من هذا » . ثم أدرجوك فى الكفن ، وحملوك إلى بيت العفن ، على العيب والقبيح والأفن ، وإذا الحبيب من التراب قد حفن ، وصرت فى القبر جذاذاً « لقد كنت فى غفلة من هذا » . وتسربت عنك

الأقارب تسرى فى مالك وتغرى ، وغاية أمرهم أن تجرى دموعهم رذاذاً « لقد كنت فى غفلة من هذا » . قفلوا الأقفال ، وبضعوا البضاعة ، ونسوا ذكرك يا حبيبهم بعد ساعة ، وبقيت هناك إلى يوم الساعة ، لا تجد زاداً ولا معاذاً « لقد كنت فى غفلة من هذا » . ثم قمت من قبرك فقيراً ، لا تملك من المال نقيراً ، وأصبحت بالذنوب عقيراً ، فلو قدمت من الخير حقيراً صار ملجأ وملاذاً « لقد كنت فى غفلة مْن هذا » ونصب الصراط والميزان ، وتغيرت الوجوه والألوان ، ونودى شقى فلان بن فلان ، وما ترى للعذر نفاذاً « لقد كنت فى غفلة من هذا » كم بالغ عذولك فى الملام ، وكم قعد فى زجرك وقام ، فإذا رأى قلبك ما استقام ، قطع الكلام على ذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

اللهم يا مصلح الصالحين أصلح فساد قلوبنا ، واستر فى الدنيا والآخرة عيوبنا ، واغفر بعفوك ورحمتك ذنوبنا ، وامح عنا زللاً وآثاماً ، واجعلنا بآبائنا وأمهاتنا بارين، واجعلنا من عبادك المقربين ، وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين .

* * *

المجلس الخامس

فى مبدأ الكلام على حديث جبريل عليه السلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى لا شأن يشغله ، ولا نسيان يذهله ، ولا قاطع لمن يصله ، ولا نافع لمن يخذله ، جل عن ضد يماثله ، أو ند يشاكله ، أو نظير يقابله ، أو مناظر يقايله ، يثيب على العمل القليل ويقبله ، ويحلم على العاصى فلا يعاجله ، ويدعى الكافر له شريكاً ويمهله ، ثم إذا بطش هلك كسرى وصواهله ، وذهب قيصر ومعاقله ، استوى على العرش وما العرش يحمله ، وينزل لا كالمنتقل تخلو منازله ، هذا جملة اعتقادنا وهذا حاصله ، من ادعى علينا التشبيه فالله يقاتله ، مذهبنا مذهب أحمد ومن كان يطاوله ، وطريقنا طريق الشافعى وقد علمت فضائله ، ونرفض قول جهم فقد عرف باطله ، ونؤمل رؤية الحق ومتى خاب آمله ؟ ، لقد حنت حنة إلى

ولد فسألت من لا يرد سائله ، فانكسرت بوضع أنثى فجبر المكسور قابله ، فكفلها زكريا فإذا وكيل الغيب يواصله ، فيا لها من مكفول ما تعنى كافله . فلما بلغت حملت بمن شرف حامله ، فعجبت من ولد لا عن والد يشاكله ، فقيل هزى فهزت جذعاً يابساً تزاوله ، فأخرج فى الحال رطباً يلتذ آكله ، فاستدلت على تكوين ولد تحمد شمائله ، فالنصارى غلت واليهود عتت فأتت به قومها تحمله .

أحمده حمداً أديمه وأواصله ، وأصلى على رسوله محمد الذى ارتجت ليلة ولادته أعالى الإيوان وأسافله ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر ثانى اثنين واعرفوا من قائله ، وعلى عمر الذى انتشر عدله فى الأقطار واشتهرت فضائله ، وعلى عثمان الذى زارته الشهادة وما تعبت رواحله ، وعلى علىٍّ بحر العلم المديد فما يدرك ساحله ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين صفا الإسلام بجدهم وعذبت مناهله .

أما بعد : فأروى بسندى إلى الإمام الشهير والمحدث النحرير أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى نسباً والنيسابورى وطناً ، المتوفى سنة إحدى وستين ومائتين ، نفعنا الله تعالى بعلومه اللدنية ، وجعلنا من العاملين وإياكم بما روى من الأحاديث النبوية ، فإنه قد قال فى كتابه الصحيح ، قال عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة

يتطاولون فى البنيان ، قال : ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال لى : يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

فنقول وبالله تعالى التوفيق ، ومنه الهداية إلى أقوم طريق : قال القاضى عياض عليه الرحمة كما نقله النووى : هذا الحديث أى المشهور بحديث جبريل عليه السلام قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ؛ حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومتشعبة منه . قال : وعلى هذا الحديث وأقسامه الثلاثة ألفنا كتابنا الذى سميناه « المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان » إذ لا يشذ شىء من الواجبات والسنن والرغائب والمحظورات والمكروهات عن أقسامه الثلاثة ا هـ .

قلت : ولنذكر إن شاء الله تعالى فى درسنا هذا والدروس الآتية بعض ما يتعلق بهذه الكلمات الوافية الشافية ، إذ ما لا يدرك كله لا يترك كله ، مكررين له فى مبادئ الدرس فلعله يرسخ فى بعض الأذهان ، ويسهل حفظه على الإخوان ؛ لأنه العمدة فى باب الإيمان ، وقد قيل : لا عطر بعد عروس ، وقد ورد هذا الحديث الجليل بروايات عديدة فى الكتب الصحاح ، وبهذه الرواية رواه أبو داود فى باب القدر ، ورواه الإمام مسلم كالإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، قال : كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل ، وفى رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال : سلونى فهابوه أن يسألوه فجاء رجل فجلس عند ركبتيه فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث ، قال : ما الإسلام قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ، قال : ما الإحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ الآية . ثم أدبر الرجل فقال : ردوه فلم يروا شيئاً فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم ، وفى رواية : أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا ، وفى حديث أبى عامر « والذى نفس محمد بيده ما جاءنى قط إلا وأنا أعرفه إلا أن تكون هذه المرة » وفى رواية : « ما عرفته حتى ولى »

وفى جامع الأصول لابن الأثير عليه الرحمة ، قال : فما الإسلام ؟ قال : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة ، وفى رواية أخرى : فلبثت ثلاثا ، وفى أخرى ، قال عمر فلقينى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ثلاث فقال : يا عمر ، هل تدرى من السائل ؟ الحديث . وفى رواية فى الإحسان أن تخشى الله كأنك تراه ، وفى رواية إذا ولدت الأمة بعلها، وفى رواية قال له فى آخر كل سؤال منها صدقت ، وفى رواية : وإذا رأيت أو وإذا كانت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض ، فذاك من أشراطها ، وفى آخرها : هذا جبريل أراد أن تعلموا ا هـ . قال العلماء رحمهم الله تعالى : يستفاد من هذا الحديث أن التجمل باللباس الحسن والأبيض لا سيما لطلب العلم أمر مشروع ، وفى المساجد مأمور به : لقوله تعالى : ﴿ **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ وقد فصل الفقهاء أمر اللبس على وجوه ، فمنها فرض ، ومنها سنة ، ومنها مباح ، ومنها حرام ، ولنذكر أولاً صفة لباسه عليه الصلاة والسلام ليقتدى به المهتدى من كاملى الإسلام . قال الإمام الغزالى فى إحيائه . كان يلبس من الثياب ما وجد ، وكان يعجبه الثياب الخضر ، وأكثر لباسه البياض ، ويقول : ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم ، وكان له قباء سندس ، فتحسن خضرته على بياض لونه ، وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق ، وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول : إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد ، وكان له ثوبان لجمعته خاصة ، وكان له كساء أسود فوهبه ، فقالت له أم سلمة : بأبى أنت وأمى ما فعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال : كسوته ، فقالت : ما رأيت قط كان أحسن من بياضك على سواده ، وكان يتختم وربما خرج وفى خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشىء ، وكان يختم به على الكتب ، ويقول : الخاتم على الكتاب خير من التهمة، وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة ، وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله تعالى عليه وسلم : أتاكم على فى السحاب ، وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه ، ويقول : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى الناس . وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ، ثم يقول : ما من مسلم يكسو مسلماً من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله إلا كان فى ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيا وميتاً . وكان له فراش من أدم ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع

وشبر أو نحوه . وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقتين تحته . وكان ينام على الحصير ليس تحته غيره ، وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة، وكان له مطهرة من فخار يتوضأ فيها ويشرب منها فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين عقلوا فيدخلون على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يدفعون عنه، فإذا وجدوا فيها شربوا ومسحوا أجسادهم ووجوههم يبتغون البركة ا هـ.

وقال فى الدر المختار وحاشيته رد المحتار ما ملخصهما مع زيادة من غيرهما : اعلم أن الكسوة منها فرض وهو ما يستر العورة ويدفع الحر والبرد والأولى كونه من القطن أو الكتان أو الصوف على وفاق السنة ، بأن يكون ذيله للرجال إلى نصف الساق لما روى أبو هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما أسفل الكعبين من الإزار ففى النار ، وقال عليه الصلاة والسلام : إزرة المؤمن إلى نصف الساق ولا حرج فيما بينه وبين الكعبين ، ما كان أسفل من ذلك فهو فى النار ، ومن جر إزاره بطرا لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة . وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿**وثيابك فطهر**﴾ أى فقصر على بعض التفاسير ، وأن يكون كمه إلى رءوس أصابعه، وفمه قدر شبر بين النفيس والخسيس ، إذ خير الأمور أوساطها ، وللنهى عن الشهرتين ، وهو ما كان فى غاية النفاسة أو الخساسة ، ومستحب وهو الزائد لأخذ الزينة وإظهار نعمة الله تعالى ، قال عليه الصلاة والسلام : إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده ، وأما النساء فتطويل الثياب لهن مشروع ، فقد أخرج أبو داود فى سننه عن صفية بنت أبى عبيد أن أم سلمة زوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قالت لرسول الله عليه الصلاة والسلام حين ذكر الإزار : فالمرأة يا رسول الله، قال : ترخى شبراً ، قالت أم سلمة : إذاً ينكشف عنها ، قال عليه الصلاة والسلام : فذراعاً لا تزيد عليه . ومباح وهو الثوب الجميل للتزين فى الأعياد والجمع ومجامع الناس ، لا فى جميع الأوقات ؛ لأنه صلف وخيلاء وربما يغيظ المحتاجين ، فالتحرز عنه أولى ، قال بعض الأفاضل : ويستحب التجمل لطلب العلم والقدوم على الغير ، ومن أعظمه القدوم إلى المساجد والصلوات ، قال تعالى: ﴿ **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ قال العلامة ابن عبد السلام : لا بأس بلباس شعار العلماء ليعرفوا بذلك فيسألوا ، فإنى كنت محرماً فأنكرت على

جماعة محرمين لا يعرفونني ما أخلوا به من آداب الطواف فلم يقبلوا ، فلما لبست ثياب الفقهاء وأنكرت عليهم ذلك سمعوا وأطاعوا ، فإذا لبسها لمثل ذلك كان فيه أجر . وأما المكروه ، فهو اللبس للتكبر لما قال عليه الصلاة والسلام : يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم وإياكم والبغى وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجده عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : من لبس ثوب شهرة ألبسه الله تعالى إياه يوم القيامة ثم ألهب فيه النار ، ومن تشبه بقوم فهو منهم . قالوا : ومثله من يلبس الثياب الخشنة لغير غرض شرعى ، فقد روى أن الحسن رضى الله تعالى عنه جذب فرقدا فأخذ بكسائه وقال له : يا فرقد يا فريقد إن البر ليس فى لبس هذا الكساء ، إنما البر ما وقر فى الصدر وصدقه العمل ا هـ . ويستحب الأبيض لقوله عليه الصلاة والسلام : البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم . وكذا الأسود لأنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة وعلى رأسه عمامة سوداء ، ولبس الأخضر سنة كما فى الشرعة ، وقد جعل علامة للشرفاء العلويين الفاطميين فى حدود سنة ستمائة وعلى ذلك قول الشاعر :

جـــعلوا لأبنـــاء الرســول علامة ... إن العلامة شـأن من لــم يشهــر

نـــور النبـــوة فى جباه وجوههم ... يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

ومن المحرم لبس الحرير والذهب والفضة للرجال إلا ما استثنى ، فعن عبد الله بن عمر وأبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تلبسوا الحرير فإن من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربه فى الآخرة ، ومن شرب فى آنية من الذهب والفضة لم يشرب بهما فى الآخرة . ثم قال : لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة . قلت : ويحرم استعمالها بغير شرب وأكل كما إذا جعلهما علبة للتتن أو ساعة أو نحو ذلك مما نصوا على حرمته . وكذا يكره عند الحنفية على الرجل لبس الثوب المنسوج بذهب أو فضة إلا إذا كان قدر أربع أصابع ، أى عرض ذلك ، وإن زاد طوله ، على ما قيل ، ومثله الحرير لخبر مسلم : نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن لبس الحرير إلا موضع أصبع أو أصبعين أو ثلاث أو أربع . والحاصل أن

استعمال أواني الذهب والفضة للرجال والنساء مكروه كراهية التحريم إلا السلاح ، ولبسهما على الرجال حرام وللنساء مباح للتزين ، وكذا لبس الحرير على الرجال مكروه وللنساء حلال. وفي الهداية: ويكره أن يلبس الذكور من الصبيان الذهب والحرير.

قلت : ومنها الجلاجل ونحوها والناس عنه غافلون ، ولا بأس بكلة الديباج ، وتكره التكة منه والكيس الذى يعلق معه بخلاف كيس الدراهم الذي يوضع فى الجيب ، وفى الدر المنتقى : ولا تكره الصلاة على سجادة من الإبريسم لأن الحرام هو اللبس أما الانتفاع بسائر الوجوه فليس بحرام ، وفى القنية : لا بأس بشد خمار أسود على عينيه من إبريسم لعذر ، ومنه الرمد ، ويحل توسده وافتراشه والنوم عليه على رواية عن أبى حنيفة خلافاً لأبى يوسف ومحمد ومالك والشافعى ، ا هـ .

وعن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال : رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبة مجيبة بحرير فقال : طوق من نار يوم القيامة ، قال العلماء : وأما جعله دثاراً فحرام عند الجميع ، ويحل لبس ما سداه إبريسم ولحمته غيره ؛ لأن الثوب إنما يصير ثوباً بالنسج والنسج باللحمة فكانت هى المعتبرة دون السدى ، وكره لبس المعصفر والمزعفر الأحمر والأصفر للرجال فقط ، ولا بأس بسائر الألوان ، وبقى فى هذه الأبحاث تفصيلات وتعريفات واختلافات لا يسعها المجلس العام لضيق الوقت على الصوام ، فلنفرقها فى الدروس استطراداً ، بتوفيق الملك العلام ، ومن المحرم على النساء إظهار الزينة للأجانب والتمايل ولبس الثوب الرقيق حتى عد ذلك بعض العلماء من الكبائر ، ففى كتاب الزواجر لابن حجر رحمه الله تعالى : أخرج الإمام مسلم وغيره : صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات متميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن رحيها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا . وقوله: كاسيات أى من نعم الله تعالى وعاريات أى من طاعة الله وما يلزمهن فعله وحفظه ، ومتميلات أى لغيرهن أى يعلمن غيرهن ، أو متبخترات .

وروى ابن حبان : يكون فى آخر أمتى رجال يركبون على سروج كأشباه الرحال ينزلون على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف ، العنونهن فإنهن ملعونات ، لو كان وراءكم أمة من الأمم خدمتهن نساؤكم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم . وروى أبو داود عن عائشة أن أختها أسماء

رضى الله تعالى عنها دخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت زمان المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهها وكفيها ، قال الذهبى : ومن الأفعال التى تلعن المرأة عليها إظهار زينتها كذهب أو لؤلؤ من تحت نقابها أو تطيبها بطيب كمسك إذا خرجت ، وكذا لبسها عند خروجها كل ما يؤدى إلى التبهرج كمصبوغ براق وإزار حرير وتوسعة كم وتطويله ؛ ولهذه القبائح قال عنهن عليه الصلاة والسلام : اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء ، وكذلك من الكبائر تشبه النساء بالرجال ، وتشبه الرجال بالنساء. أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال . وروى الطبرانى أن امرأة مرت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متقلدة قوساً فقال : لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء . وروى أحمد : لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مخنثى الرجال الذين يتشبهون بالنساء والمترجلات من النساء المتشبهات بالرجال وراكب الفلاة وحده، وروى الطبرانى : أربعة لعنوا فى الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة : رجل جعله الله تعالى ذكراً فأنث نفسه وتشبه بالنساء وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال ، والذى يضل الأعمى ، ورجل حصور ، ولم يجعل الله حصوراً إلا يحيى ابن زكريا ، والحصور الذى لا يأتى النساء ، إما من العنة وإما من العفة ، أو الاجتهاد فى إزالة الشهوة . وينبغى للرجل أن يمنع زوجته مما تقع فيه من التشبه بالرجال فى لبس أو غيره أو خروج خوفاً من اللعنة عليه وعليها لقوله تعالى : ﴿**قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**﴾ قال ابن حجر فى الزواجر : أى بتعليمهم وتأديبهم وأمرهم بطاعة ربهم ونهيهم عن معصيته ، ولقول نبيه عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، الرجل فى أهله راع وهو مسئول عنهم يوم القيامة » ، وفى حديث : إن هلاك الرجال طاعتهم لنسائهم . ومن ثم قال الحسن : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله فى النار .

ولنرجع إلى الحديث ، قوله شديد سواد الشعر ، لعله يستدل بهذا وما قبله أن جبريل عليه السلام لما أتى يعلم الصحابة دينهم كما فى آخر الحديث برز لهم فى هذه الهيئة معلماً لهم بفعله أيضاً التزيى بالزى الحسن ، ويشعر هذا بأن جبريل عليه

السلام كان قد أرخى شعره وهو المسنون عن سيد العالمين عليه أفضل صلاة المصلين. فقد أخرج أبو داود عن البراء قال : ما رأيت من ذى لمة أحسن فى حلة حمراء من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، زاد محمد بن سليمان : له شعر يضرب منكبيه ، وفى رواية أخرى : له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، وعن أنس قال : كان شعر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أنصاف أذنيه ، وعن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القزع . والقزع أن يحلق رأس الصبى فيترك بعض شعره ، وفى رواية قال : إحلقوه كله أو اتركوه كله . وكذلك سن عليه الصلاة والسلام الأخذ من الشوارب فقال : خمس من الفطرة ، أى فطرة الإسلام: الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب ، وفى رواية عن أنس: وقت لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حلق العانة وتقليم الأظفار وقص الشارب ونتف الإبط أربعين يوماً مرة ، وكذلك نهى عن نتف الشيب ، وقال عليه الصلاة والسلام : لا تنتفوا الشيب ، ما من مسلم يشيب شيبة فى الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة ، وكذلك نهى عن الخضاب بالسواد وأمر به فى غير السواد، ونهى الرجال عن خضاب الأيدى ، وأمر النساء به حتى أن المرأة إذا تركته وتركت الزينة لزوجها له أن يأمرها ثم يؤدبها على ذلك ، وكذلك وصل شعر المرأة بشعر أخرى حرام ، فقد لعن عليه الصلاة والسلام الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والمتنمصة والمتفلجة للحسن المغيرة خلق الله تعالى ، فعليكم عباد الله بامتثال أوامره والاجتناب عن نواهيه وزواجره ، فإن من خالف شرعه القويم له العذاب الأليم ، فوا أسفاً لأهل النار قد هلكوا وشقوا ، لا يقدر الواصف أن يصف ما قد لقوا ، كلما عطشوا جىء بالحميم فسقوا ، هذا جزاؤهم إذا خرجوا من الطاعة وفسقوا ، فقطعوا والله بالعذاب ومزقوا ، فلما رأيتهم قد كبلوا بالسلاسل وأوثقوا ، واشتد زفيرهم وتضرع أسيرهم وقلقوا ، وتمنوا أن لم يكونوا وتأسفوا كيف خلقوا ، وندموا إذ أعرضوا عن النصح ، وقد صدقوا ، فلا اعتذارهم يسمع ولا بكاؤهم ينفع ، ولا أعتقوا ، يا من بين يديه يوم لا شك فيه ولا مرا ، يقع فيه الفراق وتنفصم فيه العرا ، تدبر أمرك قبل أن تحضر وترى ، وانظر لنفسك نظر من فهم ودرى ، قبل أن يغضب الحاكم رب الورى ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، يوم تشيب فيه الأطفال ، يوم تسير فيه الجبال ، يوم يظهر فيه الوبال، يوم تنطق فيه الأعضاء بالخصال ، يوم لا تقال فيه العثار ، وكم أعذار تقال، فترى من قد افترى يقدم قدماً وأخرى إلى ورا، يوم تجد كل نفس ما عملت من

خير محضراً ، ينصب الصراط فناج وواقع ، ويوضع الميزان فتكثر فيه الوضائع ، وتنشر الكتب وتسيل المدامع ، وتظهر القبائح بين تلك المجامع ، ويؤلم العتاب ويملأ المسامع ، ويخسر العاصى ويربح الطائع ، فكم غنى قد عاد من الخير مقتراً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً .

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك ، اللهم احفظنا بالإسلام قاعدين ، واحفظنا بالإسلام راقدين ، ولا تشمت بنا الأعداء ولا الحاسدين ، اللهم طهر قلوبنا من النفاق ، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب ، وأعيننا من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آهل وأصحابه وسلم تسليماً .

* * *

المجلس السادس

فى حديث جبريل عليه السلام أيضاً والكلام على الإيمان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله ومن يحمد سوى الله ، ولا إله إلا الله وما من إله إلا الله ، وسبحان الله ولا ينبغى التسبيح إلا لله ، والله أكبر ولا كبير أكبر من الله ، وأستغفر الله ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ذلكم الله ربكم الذى قامت الدلالة على ربوبيته فى سجل شهد الله ، واحد بدليل لو كان فيهما آلهة إلا الله ، فرد بدليل لا تتخذوا إلهين اثنين إنما إلهكم الله ، عليم بدليل قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، سميع بدليل قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، بصير بدليل وقل اعملوا فسيرى الله ، خبير بدليل وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله ، قدير بدليل ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، مريد بدليل ألا له الخلق والأمر تبارك الله ، متكلم بدليل وكلم الله ، لا شريك له بدليل فادعوا من استطعتم من دون الله ، لا ولد له بدليل ما اتخذ ، رداً لليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله ، أحمده على نعماه ، وأصلى على محمد الذى اختاره واجتباه ، وأحبه وارتضاه ، وعظمه وكرمه ورفعه على من سواه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ولا سيما أبا بكر الذى نزل فيه آية إلا تنصروه فقد نصره الله ، وعمر الذى وافق حكمه حكم لو لا كتاب سبق من الله ، وعثمان الذى

شملته آية إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، وعلى الذى نزل فيه آية إنما نطعمكم لوجه الله ، صلاة وسلاماً دائمين ما أضاء النهار بضياه ، واحلولك الليل بظلماه .

أما بعد : فإنى أروى بسندى إلى الإمام الشهير ، والمحدث النحرير ، أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى نسباً ، والنيسابورى وطناً ، لا زال نائلا بضريحه مننا ، فإنه قد قال فى كتابه الصحيح ، ومسنده الحرى بالترجيح ، عن عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، الحديث الذى تقدم فى الدرس الماضى . فنقول وبالله تعالى التوفيق ، ومنه الهداية إلى أقوم طريق : قوله حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أى دنا حتى جلس قريباً منه ، واعلموا أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يجلسون بحضور النبى عليه أفضل الصلاة والسلام لكن بزيادة السكينة والوقار ، حتى كأنهم على رءوسهم الطير ، وما كانوا يقفون بين يديه ولا يقوم بعضهم لبعض ؛ لأن القيام للقادم عادة الأعاجم ، قال أبو أمامة : خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوكأ على عصا ، فقمنا إليه فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . وقام رجل مرة لمعاوية فأمره بالجلوس ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار . وقيل : المراد أن يقفوا وهو جالس ، وكذلك الإنصات من الجالسين ، واستماع كلام بعضهم لبعض من السنن . فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام : ما تجالس قوم مجلساً فلم ينصت بعضهم لبعض إلا نزع الله من ذلك المجلس البركة . ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنه الآنك يوم القيامة ، وكذلك نهى عن الجلوس فى مواضع التهم والمجالس التى يغتاب الناس فيها ومجالس اللهو وما يقرأ فيها القصاصون ، وبين عليه الصلاة والسلام أن أشرف الأماكن المساجد وشرها الأسواق، ونهى عن الجلوس فى الطرق ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إياكم والجلوس فى الطرقات فقالوا : يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بد ، نتحدث فيها . فقال : إن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حقه؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن

المنكر ، وإرشاد الضالة عن الطريق ، وإغاثة الملهوف ، وحسن الكلام . وستأتى تفصيلات هذه الأبحاث . قوله إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يقل بين يديه قيل لأن حاله تدل على أنه لم يجئ متعلماً وإنما جاء معلماً ، قوله فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، قال الإمام النووى عليه الرحمة : على فخذى نفسه ، وجلس على هيئة المتعلم ، وقال بعض الأفاضل : ظاهره أنه جلس بين يديه وهو كذلك ، إذ لو جلس إلى جانبه لما أمكنه إلا إسناد ركبة واحدة وهو غير جلوس المتعلم بين يدى شيخه للتعلم ، وإنما فعل ذلك للتنبيه على ما ينبغى للسائل من قوة النفس وعدم الاستحياء عند السؤال ، وإن كان المسئول ممن يحترمه ويهابه ، وعلى ما ينبغى للمسئول من التواضع والصفح عن السائل وإن تعدى ما ينبغى من الاحترام للمسئول والأدب معه ؛ لأن شرف المعلم وكذا شرف المتعلم عظيم، فقد روى أبو أسامة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له أجر حاج تاماً حجته . رواه الطبرانى ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من غدا يريد العلم يتعلمه لله تعالى فتح الله له باباً إلى الجنة وفرشت له الملائكة أكتافها وصلت عليه ملائكة السموات وحيتان البحر . وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب فى السماء . والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكنهم أورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظه ، وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، وهو نجم طمس . موت قبيلة أيسر من موت عالم . رواه أبو داود وغيره . . وسيأتى إن شاء الله تعالى فى الدروس الآتية تفصيل هذه المطالب العالية .

وقيل فى قوله ووضع كفيه على فخذيه أى فخذى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفعل ذلك للاستئناس باعتبار ما بينهما من الأنس فى الأصل حين يأتيه بالوحى . قال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، إنما ناداه باسمه كما تناديه الأعراب مع انه حرام لما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون* إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم * إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ الآيات ، قال المفسرون : قال ابن عباس : لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، هو أن

يتكلموا بين يدى كلامه ، بل عليهم أن يصغوا ولا يتكلموا . وقيل : معناه لا تخالفوا كتاب الله وسنة رسوله ، وقوله تعالى : ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم** ﴾ قال بعض أجلة المفسرين : يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت ، لأن ذلك يدل على ترك الاحترام لأن خفض الصوت من لوازم التعظيم . ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط . والمعنى لا ترفعوا أصواتكم إلى حد يكون فوق ما يبلغه صوت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . قال المفسرون : والمراد من الآية تعظيمه عليه الصلاة والسلام ، وألا ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا ، حتى أن أبا بكر الصديق قال : لا أكلمك يا رسول الله إلا كأخى السرار حتى ألقى الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ **ولا تجهروا** ﴾ أى لا ينادى وقت الخطاب باسمه أو كنيته كنداء بعضهم لبعض ، فلا يقال يا محمد يا أحمد ، ولكن يا نبى الله يا رسول الله ﴿ **أن تحبط أعمالكم** ﴾ أى كراهة حبوط أعمالكم ، وذلك أن الرفع والجهر إذا كان عن استخفاف وإهانة فهو كفر محبط للأعمال ، وقوله تعالى : ﴿ **امتحن الله** ﴾ أى أخلص الله قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج جيده من رديئه ، وقيل طهرها من كل قبيح . وقيل وسعها وشرحها . وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ جمع حجرة وهم جفاة بنى تميم على قول ، وقيل جاء رجل فقال : يا محمد إن حمدى زين وإن ذمى شين ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ذاك الله . وعن زيد بن أرقم قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبى فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأذنى وجعل يقول : لقد صدق الله قولك يا زيد .

أقول : ويستفاد من ذلك أن من زار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينبغى له أن يمتثل هذه الآية الكريمة ولا يفعل ولا يقول ما لا يرضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياته ؛ لأنه عليه أفضل الصلاة والسلام حى فى قبره الشريف ، ويسمع سلام المسلم عليه فى مقامه العالى المنيف ، كما صرحت بذلك علماء

المذاهب الأربعة . فاسمع قول البارى سبحانه وكن متبعه [(١)] . إما لأنه معلم لا متعلم، أو قبل التحريم . وبما تقرر علم أن نداء غيره عليه الصلاة والسلام ممن يستحق التوقير باسمه غير حرام وإنما هو خلاف الأولى إلا أن يتأذى به فينبغى تحريمه، حتى قيل : من العقوق نداء الولد والده باسمه .

واعلموا أن فى مسألة الإسلام والإيمان مسائل كثيرة يلزم التنبيه على بعضها فى هذا المجلس . منها أن الإيمان والإسلام هل هما بمعنى واحد أو مختلفان ، فذهب البخارى وجماعة إلى أن معناهما واحد ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ وذهبت طائفة من المعتزلة والحشوية إلى أن الإسلام غير الإيمان ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ قال الخطابى : والصحيح فى هذا أن تقيد الكلام ، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً فى بعض الأحوال ولا يكون فى بعضها ، والمؤمن مسلم فى جميع الأحوال ، وكل مؤمن مسلم ، ولا عكس ، وقيل الخلاف لفظى ، فقد قال الوالد نور الله تعالى ضريحه فى بعض تعليقاته على شرح البخارى للسفيرى ما نصه : جمع السعد بين القول بالترادف والقول بعدمه ، بأنهما خلاف فى حال فإن مفهوم الإسلام إن فسر بالانقياد الظاهرى بمعنى امتثال الأوامر والنواهى والعمل بمقتضى تلك الأحكام من غير ملاحظة الإذعان والتسليم القلبى كان مخالفاً لمفهوم الإيمان ، وإن فسر بالإسلام والانقياد الباطنى بمعنى قبول تلك الأحكام والإذعان لها وترك الإباء والاستكبار عنها كان متحداً فيه ، فعلى هذا يصير الخلاف لفظياً ، ولصيرورته كذلك وجه آخر أيضاً فتدبر ا هـ .

ومنها أن الإيمان هل يزيد وينقص أم لا ؟ اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فى ذلك ، فذهب إمامنا الأعظم أبو حنيفة عليه الرحمة وأصحابه وإمام الحرمين وجمع كثير من الأشاعرة إلى أنه لا يزيد ولا ينقص . وقالوا : متى قبل الزيادة كان شكا وكفرا، وذهب الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل والإمام مالك بن أنس وسفيان الثورى وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار وأكثر الأشاعرة رحمهم الله تعالى أجمعين إلى أنه يزيد بزيادة الطاعات وينقص بنقصانها للقطع بأن إيمان آحاد

---

(١) قوله إما لأنه معلم إلخ ، هو مرتبط بقوله سابقاً إنما ناداه باسمه . ا هـ .

الأمة ليس كإيمان أبى بكر الصديق ونحوه من الصحابة الكرام ، فضلاً عن إيمان الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام . وأدلتهم من الكتاب والسنة مثل قوله تعالى : ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أيكم زادته هذه إيمانا** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾ وما رواه ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا : يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ، قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار . وقال سفيان بن عيينة : الإيمان قول وفعل ، ويزيد وينقص ، فقال أخوه إبراهيم : لا تقل ينقص ، فغضب ، وقال : اسكت يا صبى بل ينقص حتى لا يبقى منه شىء ا هـ .

قالوا : والدليل على نقصانه أن كل ما قبل الزيادة لا بد أن يكون قابلاً للنقصان ضرورة ، قال فى الشيبانية :

وإيمــاننـــا قول وفعـــل ونية　　　يزداد بالتقوى وينقص بالردى

وقال الخطابى : الإيمان قول وهو لا يزيد ولا ينقص ، وعمل وهو يزيد وينقص ، واعتقاد وهو يزيد ولا ينقص ، فإن نقص ذهب . قال بعض الأفاضل : ومن قال أن الخلاف لفظى فهو خطأ ، وأجابت الحنفية ومن وافقهم أن المراد بالزيادة الزيادة بحسب الدوام والثبات وكثرة الزمان والساعات ، أو المراد الزيادة بحسب زيادة ما يؤمن به ، أو أن المراد زيادة ثمرته وإشراق نوره فى القلب إلى غير ذلك .

ومنها كما قال السفيرى عليه الرحمة : اختلف العلماء فى إيمان المقلد ، والمقلد هو أن يسمع إنسان الناس يقولون إن للخلق ربا خلقهم وخلق كل شىء ويستحق العبادة عليهم وحده لا شريك له فيجزم بما سمعه منهم . والمختار الذى عليه الفقهاء وكثير من العلماء صحته من غير نظر واستدلال لحصول الجزم بالإيمان الذى يحصله الاستدلال ؛ ولأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يقبلون إيمان عوام الأمصار التى فتحوها من العجم حال كون إيمانهم صادراً تحت السيف ولا استدلال . ومنع كثير من المعتزلة صحته ، ورد عليهم بأنه يلزم من قولهم تكفير العوام وهم غالب المؤمنين .

ومنها ما اختلفوا فيه أيضاً أنه هل يجوز للإنسان أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله تعالى أم لا . فذهب إمامنا الأعظم وأصحابه وكثير من العلماء إلى أنه ليس له أن

يقول ذلك ، وإنما يقول أنا مؤمن حقاً ، والذى ذهب إليه الإمام الشافعى وأصحابه والإمام مالك وأصحابه والإمام أحمد وأصحابه وأكثر السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم جواز قول الإنسان أنا مؤمن إن شاء الله ، وبه قالت الأشعرية . هذا إذا كان جازماً بالإيمان حال التكلم ، أما إذا شك فى إيمانه حال التكلم وقال إن شاء الله للشك فى إيمانه فإن إيمانه يكون منفياً لأن الشك فى ثبوته فى الحال كفر ، وليس محل قول إن شاء الله تعالى بالاتفاق ، بل محل النزاع بين الفريقين ، إنما هو إيمان الموافاة وهو الذى يموت العبد عليه ويأتى متصفاً به آخر حياته وأول منازل آخرته ، وهو المعتبر فى النجاة فى الدار الآخرة ، وهو الملحوظ عند المتكلم بالمشيئة ، فإذا جزم الإنسان بالإيمان فى الحال لكن لا يعلم هل يبقى هذا الإيمان إلى الوفاة أم لا فله عند الفريق الثانى أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله ، أى أنا أموت على الإيمان إن شاء الله تعالى ، وهو أمر مستقبل ، فالقائل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى مقتد بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعامل بقوله تعالى : ﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله** ﴾ وأيضاً يقول إن شاء الله تعالى للتبرك بالمشيئة خوفاً من سوء الخاتمة مع جزمه بالإيمان فى الحال ، فكأن القائل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى يقول أطلب حسن الخاتمة . فكم من إنسان سلب الإيمان عند موته ، ولذلك قال بعض العلماء أن الخلاف فى هذه المسألة بين الأئمة الحنفية والأئمة الشافعية لفظى، فنسأل الله العظيم أن يختم لنا وللمسلمين بخير فى عافية بلا محنة .

وحكى الإمام الغزالى حجة الإسلام قدس الله تعالى روحه فى منهاج العابدين : إن تلميذ الفضيل بن عياض حضرته الوفاة فدخل عليه الفضيل وجلس عند رأسه وقرأ سورة يس ، فقال : يا أستاذ لا تقرأ هذه ، فسكت ثم لقنه ، وقال له قل لا إله إلا الله قال: لا أقولها إنى منها برىء ومات على ذلك ، فدخل الفضيل منزله وجعل يبكى أربعين يوماً ولم يخرج من البيت ثم رآه فى النوم وهو يسحب إلى جهنم أجارنا الله تعالى منها بمنه ، فقال : بأى شىء نزع الله تعالى المعرفة عنك وكنت أعلم تلامذتى، فقال بثلاثة أشياء : أولها النميمة فإنى قلت لأصحابى بخلاف ما قلت لك، والثانى الحسد حسدت أصحابى ، والثالث كان بى علة فجئت إلى طبيب وسألته عنها فقال تشرب فى كل سنة قدحاً من خمر فإن لم تفعل تبق فى تلك العلة فكنت أشربه . نعوذ بالله تعالى من سخطه الذى لا طاقة لنا به . قال بعض العلماء : إن سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى أكثر ما تكون أسبابه من حب الدنيا والاعتقادات

الفاسدة ، وكثرة المعاصى ، ومن أعظمها ظلم العباد ، وسئل بعض العارفين عن سبب ذلك فقال : ترك الشكر على الإسلام ، وترك الخوف على ذهابه والظلم للعباد . وقال بعض الواصلين : سببها ترك الصلاة وأكل الربا والعداوة لأولياء الله تعالى ، وقد قال تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا * إلا من تاب وآمن** ﴾ الآية . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر » ، وقال سبحانه فى حق أكلة الربا ﴿**فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ ، وقال فى الحديث القدسى فى حق المعادين لأوليائه عز وجل : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » . قالوا : لأن الله تعالى لا يحارب إلا الكافرين ، فينبغى للمسلم ألا يعادى العباد الصالحين والمتقين المؤمنين ، وأن يخاف من سلب إيمانه عند الموت والعياذ بالله تعالى . وقد ورد فى الحديث أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ما يبقى بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يبقى بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة . ولذا ورد « إنما الأعمال بالخواتيم » فنسأله عز شأنه أن يثبتنا وإياكم على القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة إنه أرحم الراحمين .

وقال فى الروض الفائق : يروى أن أخوين كان أحدهما عابداً والآخر مسرفاً على نفسه ، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس فى محرابه فتمثل له فقال له : وا أسفا عليك ضيعت عمرك أربعين سنة فى حصر نفسك وإتعاب بدنك ، وقد بقى من عمرك مثل ما مضى ، فأطلق نفسك فى شهواتها وتلذذ ثم تب بعد ذلك وعد إلى العبادة فإن الله غفور رحيم . فقال العابد : لعلى أنزل إلى أخى فى أسفل الدار وأوافقه على اللهو واللذات عشرين سنة ثم أتوب وأعبد الله فى العشرين التى تبقى من عمرى . فنزل . وقال أخوه المسرف على نفسه : قد أفنيت عمرى فى المعاصى وأخى العابد يدخل الجنة وأنا أدخل النار والله لأتوبن وأصعد إلى أخى العابد وأوافقه فى العبادة ما بقى من عمرى فلعل الله أن يغفر لى ، فطلع على نية التوبة ، ونزل أخوه على نية المعصية . فزلت رجله فوقع على أخيه فماتا جميعاً فى السلم ، فحشر العابد على نية المعصية وحشر المسرف المسلم على نية التوبة .

فرغوا قلوبكم للاعتبار . فيما يجرى فى الليل والنهار . كم من بعيد قرب . وكم من قريب أبعد . وجفاه الأهل والجيران . وكان حظ الأول الجنة . وحظ الثانى النار ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . ندم العابد على تغيير نيته بلا شك ولا خفا ،

وبكي على تفريطه بعد عبادته إذ زل وهفا ، يود لو أن صافى وده يرد ويرجع إلى الوفا ، وسيعلم أنه كان يبنى على شفا جرف هار ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . اسمعوا أيها القاعدون ، افهموا أيها الراضون بالدون ، لما جد فى الجد المتقون ، مدحهم من يقول للشىء كن فيكون ، والسابقون السابقون، كانوا إذا جن الليل يسهرون ، وتجرى من العيون عيون ، فإذا جاءت الهواجر فللطعام يهجرون ، وما زالوا فى الخدمة كالخدم ينتصبون ، إن أقبل البلاء فهم صابرون ، وإن وردت النعماء فهم شاكرون ، وإن تزخرفت الدنيا فهم عنها معرضون ، وكذا من أراد الأخرى يكون ، أذكارهم فى الحياة وهم ميتون ، فإذا انجاب التراب عن الأنجاب فعلى النجائب يحملون ، وتبشرهم الأملاك هذا يومكم الذى كنتم توعدون ، لا يقفون إلى الحساب بل إلى الجنة يحملون ، يعجب أهل الموقف منهم ثم يسألون ، من هؤلاء الذين إلى النعيم يحضرون ، فإذا الجواب : إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ، فلو قيل ما صفاتهم قيل : التائبون العابدون ، وأحسن ما به القوم يمدحون ، والسابقون السابقون .

اللهم انظمنا فى سلك السابقين الأخيار ، وألحقنا بعبادك الصالحين الأبرار ، وآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .

* * *

المجلس السابع

فى حديث جبريل عليه السلام أيضاً وفيه ما يتعلق ببعض ما يجبُّ الكفر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله عالم الأسرار المكنونة ، ومخرج البذور المدفونة ، أمر بالجد وضمن المئونة ، ونبه على عيب الدنيا فافتضحت الخئونة ، كلماته مسموعة فى الصحف مصونة ، احذر طريق البدع فإنها مسبعة غير مأمونة ، هذه أمانة أديتها كانت عندي مخزونة ، وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فسبحان من أنشأ الإنسان وخلقه ، وأنعم عليه ورزقه ، وألهمه الهدى ووفقه ، وأخرجه بالتقى من أسر الهوى وأعتقه ، علم ما فى كل شجرة من ورقة ، وسمع تطريب الحمامة المطوقة ، وقوَّم أعضاء الآدمى فتناسبت متسقة ، واختط الأنف ونور

الحدقة . أحمده على توفيقه أجمل الحمد وأصدقه ، وأقر بوحدانيته إقرار من صدقه، وأصلى على رسوله محمد ذى الرأفة والشفقة ، صلى الله تعالى عليه وعلى أبى بكر الذى صاحبه فى الغار ورافقه ، وعلى عمر الذى كسر كسرى وخنقه ، وعلى عثمان الذى أخرج المال وأنفقه ، وعلى علىٍّ الذى بحار علومه مغدقة ، وعلى سائر آله وأصحابه ما انهلت الغيوث المتدفقة ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى عليه الرحمة والرضوان ، فإنه قد قال فى كتابه الصحيح ، وجامعه الحرى بالترجيح ، عن عبدالله ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إلى آخر الحديث الذى ذكرناه مراراً . .

فنقول : وبالله التوفيق ، ونسأله الوصول بأحسن طريق : قد تقدم الكلام على بعض المسائل المتعلقة بالإسلام والإيمان ، ولنذكر فى هذا الدرس إن شاء الله تعالى تتمة لذلك ؛ لتستضيئوا بأنوارها فى الليل الحالك ، فاعلموا أن معنى الشهادتين أماتنا الله تعالى وإياكم عليهما ، أشهد أى أذعن وأقر وأصدق أن لا إله إلا الله ، أى لا معبود بحق فى الوجود إلا الله ، وأشهد أى أقر وأصدق أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصى وينتهى إلى إبراهيم خليل الرحمن هو رسول الله وعبده وصفيه وحبيبه ، أرسله رحمة للعالمين ، ونبيا للإنس وللجن أجمعين [(١)] ، فمن قال هاتين الكلمتين الطيبتين خالصاً مخلصاً فهو من أهل الإيمان وأصحاب الجنان . وقد ورد فى فضلهما أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الإمام المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قلت: يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال صلى الله تعالى عليه

---

(١) وأما إرساله عليه الصلاة والسلام إلى الملائكة الكرام فمختلف فيه بين العلماء الأعلام ا هـ منه .

وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، أو نفسه ، رواه البخارى . وروى أيضاً عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ، زاد جنادة : من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء . وفى رواية لمسلم : من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار ، قال العلماء : أى إذا أتى بلوازمها من أداء الفرائض واجتناب الكبائر ، والدليل على ذلك ما رواه الطبرانى من قوله عليه الصلاة والسلام : من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن يحجزه عن محارم الله .

وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : قال موسى عليه السلام : يا رب علمنى شيئاً أذكرك به وأدعوك به قال : قل لا إله إلا الله . قال : يا رب كل عبادك يقول هذا . قال : قل لا إله إلا الله قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله، ومثله حديث البطاقة ، وهو ما روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن الله يستخلص رجلاً من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : أفلك عذر ، فيقول : لا يا رب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم . فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، قال : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله تعالى شىء ، فلذا قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه الحاكم عن عمر رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه فيموت على ذلك إلا حرمه الله على النار ، لا إله إلا الله ، وقال : أكثروا

من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها . وقال : ما من عبد قال لا إله إلا الله فى ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما فى الصحف من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات .

واعلموا أنما ورد فى بعض هذه الأحاديث ذكر لا إله إلا الله من دون محمد رسول الله لأن ذلك مراد ومعلوم ؛ لأن من قال لا إله إلا الله ولم يقل محمد رسول الله ولم يشهد بهما معاً فهو ليس بمسلم ، فالشهادتان بمنزلة شهادة واحدة ، وكلمتان بمنزلة كلمة واحدة ، لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ الآية جعلهما الله تعالى آخر كلامى وكلامكم ، وحشرنى وإياكم عليهما وجعلهما ولوازمهما فى موازين أعمالنا ، آمين .

ثم اعلموا أن هاتين الشهادتين والكلمتين الطيبتين لهما شروط ولوازم ينبغى تنبيهكم عليها وتعليمكم إياها ، وهى ألا يعتقد الإنسان ما ينافيهما ، وألا يترك ما يلزمهما ، وأن يموت عليهما ، فإذا أتى بالمنافى لهما قولاً وفعلاً كما سنبينه إن شاء الله تعالى فهو والعياذ بالله تعالى كافر أو منافق . والكفر على أقسام ، والنفاق على قسمين ، والشرك على قسمين ، شرك أصغر وهو الرياء ونحوه فى العمل وهو الذى يغفر ، وشرك أكبر وهو الذى لا يغفر ولا يستر ، نعوذ بالله تعالى منه ، وهو على ما قال فى كتاب تبيين المحارم : من أكبر الكبائر على الإطلاق ، وهو الستر وجحود الحق ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وإنما كان كذلك لأنه يعدم المقصود الأصلى من خلق العالم ، والمقصود من خلقه معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه وكتبه ورسله ، والوسيلة المقربة إليه . والكفر حجاب بين العبد وبين هذه المعارف ، بخلاف سائر المعاصى ، والعبد بقدر جهله يبعد عن ربه . وأعظم الجهل الكفر بالله تعالى ، ومن كفر بعد من الله تعالى بعداً أبديا . ويتلو الكفر من المعاصى قتل النفس بغير حق ، فهو أكبر الكبائر بعد الكفر ويتلو القتل الزنا واللواطة وعقوق الوالدين ، وسيأتى الكلام عليها فى محالها إن شاء الله تعالى . وإنما كان القتل دون الكفر لأن الكفر يعدم عين المقصود كما ذكرنا وهذا يعدم وسيلة المقصود ، وهى الحياة الدنيا التى لا تراد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ، ويتلو القتل والزنا اللواطة ؛ لأن الزنا وإن كان لا يعدم عين المقصود ولا الوسيلة ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث

والتناصر ويبطل جملة من الأمور التى لا ينتظم العيش إلا بها ، وإن كان الزنا يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ، فما كاد يفضى إلى التقاتل قرب فى الرتبة إلى القتل، وكذا مرتبة اللواطة لأنه لو اجتمع الناس عل الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الوجود قريب من قطع الوجود ، وكذلك عقوق الوالدين مضاره ومخاطراته لا تخفى على ذى عينين .

واعلموا أن ما يلزم به الكفر على أنواع ، نوع يتعلق بالله تعالى ، ونوع يتعلق بالقرآن العظيم وسائر الكتب المنزلة ، ونوع يتعلق بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر الأنبياء والملائكة والعلماء . ونوع يتعلق بالأحكام . وليعلم أنه إذا كان فى المسألة وجوه توجب الكفر ووجه واحد يمنعه فللعالم أن يميل إلى هذا الوجه ؛ لأن الأليق للمؤمن أن يريد هذا الوجه إلا إذا صرح القائل بأن مراده الوجه الذى يوجب الكفر فحينئذ لا ينفعه التأويل فيكفر .

وروى الطحاوى عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى ، وكذا روى عن أصحابه أنه لا يخرج المؤمن من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه ، وهو الإقرار والتصديق ، فلا يحكم بكفر المؤمن إلا بالإنكار ، وقال بعض العلماء : الخطأ فى ترك الحق على كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم ، فينبغى ألا يعجل المسلم فى تكفير مسلم حتى يحيط خبراً بالمسألة فى الكفر ولو على بعض الأقوال ؛ لأن الكفر إذا لم يلزمه فالحرمة أو الحظر فيها موجود أو مظنون . وكما ورد « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . وليعلم أيضاً أن المسلم إذا صدر منه والعياذ بالله تعالى ما يوجب الكفر يخرج من دين الإسلام ، وتبين زوجته فيستتاب ويحبس ثلاثة أيام ، فإن تاب فبها ونعمت وإلا قتل ، وتركته لبيت المال ، والمسلمة إذا كفرت والعياذ بالله تعالى تبين من زوجها وتستتاب ولا تقتل ، وكثير مما عمله المرتد والمرتدة يحبط لقوله تعالى : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك** ﴾ حتى أن بعض الفقهاء من الحنفية استحسن أن يجدد الرجل نكاح زوجته فى كل شهر لما يظهر من طائفة النساء من المكفرات بلا علم منهن فلا تغفل . فأما ما يتعلق بالله تعالى ، إذا وصف الله تعالى بما لا يليق به أن يشبه الله تعالى بشىء من المخلوقات أو نعته بجارحة ، أو نفى صفات كمال ، أو قال بالحلول والاتحاد ، أو قال إنه مستقر فى مكان أو فى زمان أو معه قديم آخر ، أو معه مدبر مستقل غيره ،

أو اعتقد أن الله سبحانه وتعالى جسم أو محدث أو غير حى ، أو اعتقد أنه لا يعلم الجزئيات ، أو سخر باسم من أسمائه أو أمر من أوامره أو وعده أو وعيده أو أنكرها، أو سجد لغير الله ، أو سب الله تعالى ، أو ادعى أنه له ولدا أو صاحبة ، أو أنه متولد من شىء ، أو كائن عنه ، أو أشرك بعبادته شيئاً من خلقه ، أو افترى على الله الكذب بادعاء الإلهية والرسالة أو نفى ألا يكون خلقه ربه وقال ليس لى رب ، أو قال لذرة من الذرات هذه خلقت عبثاً أو سهواً وما أشبه ذلك مما لا يليق به سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، يكفر فى هذه الوجوه كلها بالإجماع ، سواء فعل عمداً أو هزلاً ، يقتل إن أصر على ذلك أو على واحدة من المذكورات ، وإن تاب تاب الله تعالى عليه وسلم من القتل . ومن قال أن الله تعالى فى السماء إن أراد به المكان وأنه مستقر كاستقرارنا يكفر ، وإن أراد به الحكاية والنقل عما جاء فى ظاهر الأخبار لا يكفر ، وإن لم يكن له نية يكفر عند أكثرهم ، ومذهب السلف فى ذلك أسلم وأحكم والله تعالى أعلم . وتفصيل هذا فى الفتاوى والكتب الكلامية ، وأما ما يتعلق بالقرآن فقد قالوا إن من استخف بالقرآن أو حرف من حروفه أو استخف بالمصحف أو سبه أو ألقى المصحف إلى القاذورات أو جحد حرفاً منه أو آية أو كذب به أو شىء منه أو كذب بشىء مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك أو شك فى شىء من ذلك ، أو نقص حرفاً منه قصداً أو بدله بحرف آخر مكانه عمداً ، أو جسم إذا كُتب وعرَض إذا قرئ ، أو قرأ القرآن على وجه الهزل أو الدف والقصب ، أو قال : شبعت ، أو قرأ القرآن زاد فيه حرفاً عالماً بما يشتمل عليه المصحف الذى وقع الإجماع عليه ، أو قال القرآن فى بذلة كلامه كما لو قال فى موضع الأمر بالشىء أو قال فى موضع الإجازة لمن يقول له آخذ أو أدخل أو أقوم أو أصعد أو أتقدم أو أسير ، وقال المستشار باسم الله كما هو عادة بعض أهل الحجاز من مكة والمدينة وما حواليهما والأعجام ، يعنى به أذنت لك فيما أذنت ، أو حضر الطعام وقال واحد باسم الله ما كان كلوا يكفر ، كذا فى تتمة الفتاوى إلا إذا كان مراده من قول باسم الله التبرك ، أو فعل مستعيناً باسم الله تعالى ، أو كل مبتدئا باسم الله ، وفى هذا الوجه ما يكفر لأنه لم يستعمل القرآن فى بذلة كلامه من الإعلام والجواب ، بل أراد به التبرك والاستعانة باسم الله تعالى والاحتياط لا يخفى عليك ، وكذا يكفر من قال : القرآن مخلوق أو أعجمى ، أو قال خذ أجرة القرآن أو أجرة المصحف ، أو عاب شيئاً من القرآن أو خطأ أو أنكر المعوذتين أن يكونا من القرآن ، أو سمع قراءة فقال استهزاء : صوت طرفه ، أو قال

عند ازدحام الناس : فجمعناهم جمعاً ، أو ملأ قدحاً وقال : كأساً دهاقاً ، أو عند الكيل والوزن . وإذا كالوهم أو وزنوهم ، أو قال والنازعات نزعاً ، أو نزع ، أراد به الاستهزاء أو المزاح ، أو قال للقراء :هؤلاء أكلة الأرز استخفافاً بهم ، وأمثال هذه لا يمكن عده بكفر فى هذه الوجوه كلها ، يقتل إن أصر على ذلك وإن تاب تقبل توبته، ومن أنكر التوراة والإنجيل والزبور أو لعنها أو سبها فقد كفر ، ومن قرأ أو أقرأ بشواذ من الحروف مما ليس فى المصحف قالوا يجب عليه التوبة منه والرجوع عنه .

وأما ما يتعلق بنبينا عليه الصلاة والسلام ، من سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو غيره من الأنبياء والعياذ بالله تعالى أو عابه أو شبهه بشىء على طريق السب له أو الازدراء عليه أو التصغير لشأنه أو لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه العالى أو لشعره شعير ، أو قال : جن النبى عليه الصلاة والسلام أو غيره بشىء مما جرى عليه من البلاء والمحن أو نسب إليه المداهنة فى تبليغ الرسالة ، أو قال : إنه شاعر أو كاهن أو ساحر ، أو ألحق نقصاً أو دنيئة عابه بها أو خصلة من خصاله أو عرض به ، أو قال إن رداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو إزاره وسخ وأراد به عيبه أو عيره برعاية الغنم أو السهو أو النسيان ، أو نسب إليه المداهنة فى حكم بين الناس أو نسب إليه سفه القول أو قال : هزم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على وجه الاستخفاف ، أو قال : مراء فى زهده وفقره ، أو نفى نبوته أو رسالته أو ختمه للأنبياء . أو قال : أنه رسول ولكن رسول إلى العرب فقط، أو قال : إنه ليس من العرب ، فقد كفر من هذه الوجوه كلها بالإجماع ، يقتل إن أصر على ذلك لا خلاف فى وجوب قتله . وأما إن تاب هل تقبل توبته أم لا ؟ فعندنا وعند مالك لا تقبل توبته ، فقبل التوبة يقتل كفراً ، وبعد التوبة حدا عندنا ، وعند مالك يقتل بعد التوبة كفراً فى رواية وحدا فى رواية ، ولا تعمل توبته فى إسقاط قتله عندنا وعند مالك . نقل هذا عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، ولا فرق بين أن يجىء تائباً من نفسه أو شهد الشهود عليه بذلك ، بخلاف الغير من الكفر فإن الإنكار فيه توبة فلا تعمل الشهادة معه ، حتى من سبه صلى الله تعالى عليه وسلم سكراناً يقتل ولا يعفى عنه ، قاله ابن الهمام فى شرح الهداية ، ولا بد من تقييده بما إذا كان سكره بسبب محظور باشره بلا إكراه ، وإلا فهو كالمجنون ، وأما قتله فى حقه تعالى فيعمل بتوبته فى إسقاط قتله ، نقل هذا عن على

كرم الله تعالى وجهه ، وقال القاضي عياض : واختلف فيه عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى ، ثم قال : والفرق بينه وبين من سب الله تعالى على مشهور القول باستتابته أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بشر ، والبشر جنس تلحقهم المعرة إلا من أكرمه الله تعالى بنبوته ، والبارى تعالى منزه عن جميع المعايب قطعاً ، وليس من جنس من لحقته المعرة ، وليس سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كالارتداد المقبول فيه التوبة ؛ لأن الارتداد معنى ينفرد بالمرتد لا حق فيه لغيره من الآدميين فقبلت توبته . ومن سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تعلق فيه حق الآدمى فكان كالمرتد يقتل حين ارتداده فيه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد التوبة لكفره ، لكن لمعنى يرجع إلى تعظيم حرمته وزوال المعرة ، وذلك لا يسقط بالتوبة . ا هـ كلام القاضي .

هذا حكم المسلم ، وأما الذمى إذا سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو استخف به أو وصفه بما لا يليق بمنصبه العالى يؤدب عندنا ويعزر ، وعند مالك يقتل إن لم يسلم فإن أسلم ففى ذلك روايتان فى إسقاط قتله ، قال ابن الهمام : والذى عندى إن سب الذمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو نسب ما لا ينبغى إلى الله تعالى إن كان مما يعتقدونه كنسبة الولد إليه سبحانه وتعالى وتقدس عن ذلك إذا أظهره يقتل به وينقض عهده ، وإن لم يظهره ولكن تستر عليه وهو يكتمه فلا يقتل ا هـ.

ومن سب سائر الأنبياء أو الملائكة عليهم السلام أو استخف بهم أو كذبهم بما أتوا به أو أنكر واحداً منهم ممن تعين أنه نبى أو جحد حكم نبى منهم ، أو قال جبريل أخطأ بالوحى إنما كان النبى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أو سب سائر الملائكة فعليه القتل ، وحكمه حكم المرتد عندنا ، وعند مالك لم يستتب ، ومن سب أبا بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما أو أنكر خلافتهما يكفر ، كذا قيل ، والذى صححه غير واحد من الفقهاء أنه لا يكفر بسب الشيخين رضى الله تعالى عنهما ، ومن قذف عائشة رضى الله تعالى عنها فهو كافر بالإجماع ويقتل إن لم يتب عنه ، وأما سب آل بيته وسائر أزواجه المطهرات وسائر الصحابة رضى الله تعالى عنهم فهو حرام ، ملعون فاعله وينكل النكال الشديد . ومن أبغض عالماً من غير سبب ظاهر قال فى الخلاصة خيف عليه الكفر ، ومن قال لعالم عويلم أو لعلوى عليوى قاصداً به الاستخفاف قال فى المحيط : كفر . وقد أمر الإمام الفضيلى بقتل من قال لمن ترك كتابه عنده تركت المنشار ههنا وذهبت ، واستخفاف العلماء إنما يكون كفراً إذا كان عاملاً بعلمه لأن من لا يعمل بعلمه لا يستحق التعظيم ، ومن

قال لفقيه أخذ شاربه : ما أعجب قبحها أو أشد قبحاً قص الشارب أو لف العمامة تحت الذقن ، قال فى الظهيرية : يكفر ؛ لأنه استخفاف بالعلماء ، ومن قال : قصصت شاربك وألقيت العمامة على العاتق استخفافاً كفر ، كذا فى الخلاصة للحميدى ، والتشبه بالمعلم على وجه السخرية بأخذ الخشبة وضرب الصبيان كفر ؛ لأنه استخف بالعلم والعالم ، ومن قال لرجل صالح لقاؤك عندى كلقاء الخنزير ، قال في الذخيرة يخاف عليه الكفر ، ومن قال من يقدر على الإتيان بما قاله العلماء كفر ، قال فى الخلاصة : رجل يجلس فى مكان مرتفع ويسألون منه مسائل بطريق الاستهزاء ثم يضربونه بالوسائد وهم يضحكون كفروا جميعاً . وكذا لو لم يجلس على مكان مرتفع . قلت : وكذلك إذا تشبه المضحك المذكور بقاض أو مفت أو خطيب أو نحوهم وأتى بحركات مضحكة أو تكلم بكلمات كفرية ليضحك السامعين كفروا جميعهم . وهذا الفعل شائع فى زماننا هذا ، ويسمون المضحك المذكور بالإخبارى مع أن المطابق للحال تسميته بالإكفارى ، فإنا لله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ونسأله وهو ذو النعم الفاخرة أن يثبتنا وإياكم على القول الثابت فى الحيا الدنيا وفى الآخرة .

ومما يتعلق بالأحكام مسائل متفرقة الألفاظ كثيرة أيضاً نذكر بعضها إن شاء الله تعالى ليتوقاها الإنسان الكامل الإيمان . فمن ذلك إذا أنكر حكماً شرعياً ثابتاً من الدين بالضرورة كإنكار الصلاة أو تركها عند الإمام أحمد بن حنبل وكثير من العلماء. وكإنكار الحج والزكاة والصيام والغسل من الجنابة والحيض ونحو ذلك ، ومنه إذا اعتقد الحلال حراماً والحرام حلالا ، ومنه استحلال المعاصى والاستهانة بها لأن ذلك من أمارات التكذيب ولو لم يتكلم بكلمة الكفر ، وإذا تكلم بكلمة الكفر من غير قصد أو من غير علم قيل لا يكفر ، وقال أكثرهم يكفر ، ومنه العزم على الكفر بعد حين . ورضاه بكفر الغير كفر . وقيل لا ، ومنه ما لو أنكر وجود الجن أو الملائكة ، ومنه ما لو صدق أن الكاهن يعلم الغيب أو المنجم . قال عليه الصلاة والسلام : من أتى كاهناً فصدقه كفر بالله ، ومن ذلك ما لو قال : قصد قصعة ثريد خير من العلم ، ومنه ما لو قال : العزة للدرهم لا للعلم ؛ لأنه عارض قوله تعالى: ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ ومنه ما لو قال لو كان فلان قبلة ما توجهت إليه، ومنه ما لو قال الصلاة وتركها واحد ، ومنه ما إذا تمنى أن يكون نصرانياً أو يهودياً فيسلم ليعطى ، ومنه ما لو قال لمن أسلم ما ضرك دينك حتى أسلمت ومنه [1] ما لو قال

(١) ينبغى هذا التكفير على قول من قال به إذا لم تخش فتنة عظيمة ولم تكن معاهدة فليراجع ا هـ منه .

له كافر أريد أن أسلم فقال له اصبر الآن ، ومنه ما إذا قال إن أمرنى فلان بالكفر كفرت ، ومنه ما لو قال الحلال ما حل فى الكف ، أو قال الحرام أحب إلى من الحلال ، ومنه إذا قال حين ما يعطى عالم فقيراً درهماً تضرب الملائكة الطبل فى السموات ، ومنه ما لو قال : يعلم الله كذا وهو كاذب ، ومنه ما لو قال له خصمه نذهب إلى شرع الله فقال : لا أعرف شرع الله ، ومنه ما لو صاح الطير فقال : يدل على كذا ، يكفر عند بعضهم ، ومنه على ما فى البزازية من قال أرواح مشايخنا حاضرة تعلم . ومنه إذا قال : أنا أعلم المسروقات أو أن الجن تخبر بالمغيبات كفر ؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى : ﴿ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾ الآية ، ومنه ما لو قال له المظلوم سوف آخذ دراهمى منك يوم لا درهم . فقال : زدنى وخذ هناك ، ومنه ما لو وضع قلنسوة المجوسى على رأسه أو شد الزنار ودخل دار الحرب ، أو دعاه المجوسى فى أعياده وأجابه كفر ، وقال الإمام أبو حفص : لو أن رجلا عبد ربه خمسين سنة ثم جاء يوم النيروز ، فأهدى إلى بعض المشركين هدية يريد تعظيم ذلك اليوم فقد كفر ، ومنه التصفيق على الذكر قال فى الوهبانية :

بدرويش درويشان كفر بعضهـــم ... وصحـــح أن لا كفر وهو المحرر
كذا قول شى لله قيــــل بكفــره ... ويـــا حاضراً يا ناظراً ليس يكفر
ومن يستحل الرقص قالوا بكفـره ... ولا سـيما بالــدف يلهــو ويزمر
ومـــن لولى قال طـــى مســافة ... يجـــوز جـــهول ثم بعض يكفر
وإثباتهـــا فى كل ما كان خـــارقا ... عـــن النسفى النجم يروى وينصر

قال العلماء : وإذا قال هو يهودى أو نصرانى أو برىء من الإسلام أو ما أشبه ذلك إن فعل كذا على أمر مستقبل فهو يمين عندنا ، والمسألة معروفة ، فإن أتى بالشرط وعنده أنه يكفر كفر ، وإن كان عنده أنه لا يكفر متى أتى بالشرط فعليه كفارة اليمين لا غير ، ويكون قصده بذلك الكلام هو المبالغة عن امتناعه وتقبيحه لذلك المرام ، وإن حلف بهذه الألفاظ على أمر فى الماضى وعنده أنه لا يكفر كاذباً لا كفارة عليه لأنه غموس ، لكونه كبيرة فلا يكفر به على ما ذكرنا أى كما قررنا ، وفى الماضى (١) والمستقبل أن عنده أنه يكفر كفر لأنه رضا منه بالكفر ، ولو قال بالله وبروحك أو برأسك قال بعض المشايخ يكفر ، ولو قال بالله وبتراب قدمك كفر عند

(١) فى هامش الأصل وفى الحاضر بدل الماضى .

الكل ، ومنه ما لو قال لغيره : رؤيتك كرؤية ملك الموت قيل يكفر ، لأن بغض الملائكة وسبهم كفر . ومنه ما لو قال قتل فلان واجب أو مستحق القتل ولم يكن عليه فى الشرع ما يلزمه القتل يكفر القائل ؛ لأنه استحل ما حرم الله تعالى ، وهذا كثير الوقوع والناس عنه غافلون ، ومنه ما لو قال للظالم حين ضرب زيداً مثلاً ظلماً أحسنت يكفر ، ومنه ما لو قال لمن لبس الحرير أو استعمل المحرم مبارك ، قيل يكفر، ومنه ما لو تصدق من الحرام رجاء الثواب كفر [1] . قال فى تبيين المحارم : والأمن من مكر الله واليأس من رحمته كفر عندنا ، وعند غيرنا من الكبائر ، وظاهر الآية معنى قوله تعالى : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ وينبغى للإنسان أن يتعوذ بهذا الدعاء المأثور صباحاً ومساء فإنه سبب الحفظ عما يوقع فى المكفرات ، وهو اللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم ، إنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . وأما النفاق فسيأتى بحثه إن شاء الله تعالى .

فسبحان من خلق سعيداً وشقياً ، وعاصياً وتقياً ، وأحضر جهنم متهماً وبرياً ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ، جمع عدواً وولياً ، وفرق على الفريقين زياً ، فترى وجه التقى نقياً ، وبصر الشقىَ عمياً ، فسلم طائعاً وأهلك عصياً ، ونذر الظالمين فيها جثياً ، نشر على الفريقين كتاباً مطوياً ، وعرض أعمالهم وما كان ربك نسياً ، فآتاهم عيشاً مرياً وعيشاً هنياً ، وكأنك بهذا قد كان وكان وعده مأتياً ، حضروا يوم الحساب فأغنى جميع الخلائق كلهم برياً وبحرياً ، فميز الميزان من كان سعيداً أو شقياً ، فما نجا إلا من كان مخلصاً نقياً ، ونذر الظالمين فيها جثياً ، خرست ألسنتهم خوفاً لا عجزاً وعياً ، وبرد اعتذارهم وما ذاك بناكس رأسه خجلاً من لم يكن حيياً ، وسكت عن الكلام من لم يزل جرياً ، وانعجم اللسان وإن كان عربياً ، يستغيث أهل النار بكرة وعشياً ، يعطشون ولا يجدون رياً ، لو رأيتهم يضجون شيخاً وصبياً ، يستغيثون إلى أن يرجع الصوت خفياً ، ويلهم من يرحمهم وقد غضب من لم يزل حفياً ، ما نفع فقرهم إن كان فى الدنيا غنياً . ولا ضعيفهم إن كان قوياً ، ولا شجاعهم وكم قد حمل خطياً ، ولا ذليلهم وقد كان علياً ،

---

(١) ومنه على ما فى الفتاوى لو قال بعد القرون الثلاثة لملك يجور عادل لأنه قد سمى الظلم والجور عدلاً إلا إذا أول كلامه أى بالنسبة إلى غيره فإنه لا يكفر ا هـ منه .

ونذر الظالمين فيها جثياً . عموا عن الرشاد فأصبح كل غبياً ، كم سلكوا سبيلاً خالفوا فيها دليلاً جلياً ، كم آذوا صالحاً وكم ظلموا وليا ، كم حبس الحقوق منهم من كان مليا ، دخلوا سجنا وجدوه بالبلاء مبنياً ، قد أفردوا فى العذاب لا يجدون نجياً ، يعذبون عذاباً دائماً سرمديا ، يأكلون لحم أيديهم فينبت طرياً ، غرسوا شجر الندامة فتناولوا الأسف جنيا ، انتبه بهذه الموعظة ولا تنى قبل أن تقول : ﴿ **يا ليتنى كنت نسياً منسيا** ﴾ .

* * *

المجلس الثامن

فى حديث جبريل عليه السلام أيضاً فى الصلاة وبعض لوازمها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله المطلع على ظاهر الأمر ومكنونه ، العالم بسر العبد وجهره وظنونه ، المنفرد بإبداع العالم وإنشاء فنونه ، ويقول للشىء كن فيكون بين كافه ونونه ، فطر الخلائق على إرادته ، ودبر الكل بمقتضى حكمته ، وأجراهم فى التصريف على مشيئته ، وقدر حال كل منهم فى حركته وسكونه . أحسن إنشاء ما خلق ، وفتق الأسماع وشق الحدق ، وأحصى عدد ما فى الشجر من الورق ، فى أعواده وغصونه. مد الأرض ووضعها ، وأوسع السماء ورفعها ، وسير النجوم وأطلعها ، فى حندس الظلام ودجونه . أنزل القطر وبلا ورذاذا . فأنقذ به البذر من اليبس إنقاذا، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه .

أحمده على جوده وإحسانه ، وأقر أنه لا شريك له فى سلطانه ، وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث ببرهانه ، إلى جاحد الحق وخئونه ، صلى الله تعالى عليه وعلى أبى بكر صاحبه فى جميع شانه ، وعلى عمر مقلق كسرى فى سلطانه ، وعلى عثمان ساهر ليله بقرآنه ، وعلى على قالع باب خيبر ومزلزل حصونه . وعلى سائر آله وأصحابه الذين اجتهد كل منهم فى الطاعة فى حركاته وسكونه .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن حجاج النيسابورى عليه الرحمة فإنه قد قال فى جامعه الصحيح وكتابه الحرى بالترجيح ، عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يامحمد ، أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة . الحديث.

فنقول : وبالله تعالى التوفيق ، ونسأله الهداية إلى أقوم طريق : قد تقدم الكلام على بعض المسائل المتعلقة بالإسلام ، ولنذكر لكم إن شاء الله تعالى ما يتعلق بأمز الصلاة التى هى عماد الدين ، والفرق بين المسلمين والكافرين ، وإقامتها كفارة لذنوب المذنبين ، ونور على الصراط ووسيلة للنجاة من العذاب الأليم ، والدخول فى دار النعيم ، فقد روى عمرو بن مرة الجهنى رضى الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان وقمته فمن أنا ؟ قال : من الصديقين والشهداء . وعن أبى مسلم قال : دخلت على أبى أمامة وهو فى المسجد فقلت : يا أبا أمامة إن رجلاً حدثنى عنك أنك سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من توضأ فأسبغ الوضوء غسل يديه ووجهه ومسح على رأسه وأذنيه وغسل رجليه ثم قام إلى صلاة مفروضة غفر الله تعالى له فى ذلك اليوم ما مشت إليه رجلاه وقبضت عليه يداه وسمعت أذناه ونظرت إليه عيناه وحدث به نفسه من سوء . فقال : والله لقد سمعته من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مراراً . وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج فى الشتاء والورق يتهافت ، فأخذ بغصن من شجرة قال : فجعل ذلك الورق يتهافت فقال : يا أبا ذر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال إن العبد المسلم ليصلى الصلاة يريد بها وجه الله فتهافت عنه ذنوبه كما يتهافت هذا الورق عن الشجرة .

وروى جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة ، وعن الإمام أحمد عن أميمة مولاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالت : كنت أصب على رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم وضوءه فدخل رجل فقال : أوصنى ، قال : لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت وأحرقت بالنار ، ولا تعص والديك وإن أمراك أن تخلى من أهلك ودنياك فتخله ، ولا تشربن خمراً فإنها مفتاح كل شر ، ولا تتركن صلاة متعمداً فمن فعل ذلك فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله . وعن على رضى الله تعالى عنه : من لم يصل فهو كافر ؛ ولأجل ذلك ذهب الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه وبعض أصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه وجماعات من الصحابة إلى أن الإنسان المكلف إذا ترك الصلاة عمداً من غير حجة يكفر ويخرج من الملة المحمدية وتجرى عليه أحكام المرتدين فلا يورث ولا يغسل ولا يصلى عليه وتبين منه امرأته . واستدل بحديث مسلم : بين الرجل والكفر أو الشرك ترك الصلاة . وقال أبو هريرة : كان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة ، لكن جمهور العلماء كالإمام الأعظم والشافعى رضى الله تعالى عنهما قالوا: لا يكفر إلا الجاحد لوجوبها ، وأجابوا عن الأحاديث بأنها محمولة على مقاربة الكفر أو على كفران النعمة ، كقوله عليه السلام : سباب المسلم فسق وقتاله كفر ، أو على أن معناها أنه يستحق بتركها عقوبة الكافر ، وهى القتل ، وإنما حملوه على ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة . وفى الميزان للشعرانى قال الإمام مالك والشافعى رحمهما الله تعالى : إن من ترك الصلاة كسلاً لا جحداً قتل ثم تجرى عليه أحكام المسلمين . والصحيح من مذهب الشافعى قتله بصلاة فقط ، بشرط إخراجها عن وقت الضرورة ، ويستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وقال أبو حنيفة أنه يحبس أبداً حتى يصلى، وقال الإمام أحمد بن حنبل : ويقتل بترك صلاة واحدة، وتجرى عليه أحكام المرتدين، فلا يصلى عليه ولا يورث ويكون ماله فيئاً . انتهى من الميزان ملخصاً .

وقال السفيرى : قيل تقول الملائكة لتارك الفجر : يا فاجر ، ولتارك الظهر يا خاسر، ولتارك العصر يا عاصى ، ولتارك المغرب يا كافر ، ولتارك العشاء يا مضيع ضيعك الله تعالى . وجاء فى الخبر : من نام عن صلاة العتمة نادته الملائكة : لا نامت عيناك ولا قرتا ، حبسك الله تعالى بين الجنة والنار كما حبستنا .

وليعلم أن للصلاة فرائض وسنناً ومستحبات ، أما فرائض الصلاة فأجمعوا على أنها سبعة ، وهى النية للصلاة وتكبيرة الإحرام والقيام مع الاستطاعة والقراءة فى

الركعتين للإمام والمنفرد والركوع والسجود والجلوس فى آخر الصلاة بمقدار إيقاع السلام ، فهذه هى الشرائط والأركان المجمع عليها فى المذاهب الأربعة وأما ما عدا هذه فمختلف فيه فيما بينهم ، وللصلاة شرائط ، وهى كما فى الدر المختار ستة : طهارة بدنه من حدث وخبث وثوبه ، وكذا ما يتحرك بحركته كمنديل طرفه نجس وموضع الوقوف والجبهة طاهر فلا يمنع ، وكذا تشترط طهارة مكانه أى موضع قدميه لقوله تعالى : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ فبدنه ومكانه أولى لأنهما ألزم . والرابع ستر عورته ، ووجوبه عام ولو فى الخلوة ، وهى للرجل ما تحت سرته إلى ما تحت ركبته، وشرط الإمام أحمد ستر أحد منكبيه أيضاً ، وعند الإمام مالك هى القبل والدبر فقط(١) ، وما هو عورة من الرجل عورة من الأمة مع ظهرها وبطنها وجنبها تبع لهما ، وللحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل فى الأصح خلا الوجه والكفين، فظهر الكف عورة ، وتمنع الشابة من كشف الوجه بين رجال لخوف الفتنة ، ولا يجوز النظر إليه بشهوة كوجه أمرد فإنه يحرم النظر إلى وجهها ووجه الأمرد إذا شك فى الشهوة . والخامس النية، وهى إرادته والمعتبر فيها عمل القلب ، وهو أن يعلم بداهة أى صلاة يصلى ، والتلفظ بها مستحب ، وعند الحنفية أن مصلى الجنازة ينوى الصلاة لله تعالى والدعاء للميت ، والسادس استقبال القبلة حقيقة أو حكما كعاجز، وهو شرط زائد ، أى ليس مقصودا ؛ لأن المسجود له هو الله تعالى حتى لو سجد للكعبة نفسها كفر ، وشرطه تعالى للابتلاء أى للاختبار ، كما ابتلى الملائكة بالسجود لآدم ، وصفة الصلاة التحريمة وهى شرط ، والقيام فى فرض للقادر عليه، والقراءة وهى ركن زائد لسقوطه بالاقتداء لقادر ، وهى قراءة آية (٢) من القرآن والركوع والسجود والقعود الأخير وهو شرط أو ركن زائد قدر التشهد إلى عبده ورسوله ، والخروج بصنعه والصحيح ، أنه ليس بفرض ا هـ .

واعلموا أن أوقات الصلاة اختلفت فى بعضها المذاهب ، أما وقت الصبح فهو من طلوع الفجر الصادق ونهايته إلى طلوع الشمس اتفاقاً ، وأما أول وقت الظهر فهو من زوال الشمس عن وسط السماء، وفى آخره خلاف ، وأما أول وقت العصر عند الشافعى إذا صار ظل كل شىء مثله ما عدا فىء الزوال ، وعند أئمتنا الحنفية أول

---

(١) أى فى الصلاة وأما غيرهما فحرام رؤيته عنده أيضاً ، كذا نقله عن بعض العلماء ، ا هـ منه .

(٢) وهذا عند الإمام الأعظم ، وأما عند الشافعية والحنبلية فلا بد من قراءة الفاتحة لقوله عليه الصلاة والسلام لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ، ودليل الحنفية مبسوط فى محله ا هـ منه .

وقت العصر إذا صار ظل كل شيء مثليه ما عدا فيء الزوال ، وآخر وقتها غروب الشمس ، فيكون آخر الظهر على هذا الخلاف ، وأما المغرب فقال مالك والشافعى فى الجديد أن وقت المغرب بعد غروب الشمس لا يؤخر عنه فى الاختيار عند مالك، وفى الجواز عند الشافعى ، وقال أبو حنيفة وأحمد أن لها وقتين أحدهما كقول مالك والشافعى فى الجديد ، والثانى أن وقتها إلى أن يغيب الشفق وهو القول القديم للشافعى ، والشفق هو الحمرة التى تكون بعد الغروب ا هـ . قاله فى الميزان . وفى الدر المختار ، وقت المغرب من غروب الشمس إلى غروب الشفق وهو الحمرة عند أبى يوسف ومحمد ، وبه قالت الأئمة الثلاثة وإليه رجع الإمام أبو حنيفة ، فكان هو المذهب ، وفى كتاب الاختيار : الشفق البياض وهو مذهب الصديق ومعاذ بن جبل وعائشة رضى الله تعالى عنهم اهـ ، فالشفق شفقان أحمر وأبيض ، والخلاف جار فيه فلا تغفل ، والبحث مستوفى فى الكتب الفقهية ، وأما أول وقت العشاء فإنه يدخل إذا غاب الشفق الأحمر عند مالك والشافعى ، وأحمد خلافاً لأبى حنيفة على ما تقدم ، ويبقى الفجر اتفاقاً عند الأربعة ، وفى قول بعض الأئمة من التابعين أن العشاء لا تؤخر عن ثلث الليل وفى قول آخر أنها لا تؤخر عن نصفه ، وأما وقت الوتر الواجب عند أبى حنيفة فهو بعد صلاة العشاء إلى الفجر .

واعلم أن هذه الأوقات إنما هى للمقيم ، وأما المسافر سفر طاعة فيباح له القصر والجمع جمع تقديم وتأخير عند الأئمة الثلاثة خلافاً لأبى حنيفة ، وكذلك اختلفوا فى جواز الجمع تقديماً وتأخيراً للمقيم عند المطر ، وتفصيل البحث فى الكتب الفقهية فارجع إليها إن أردتها .

وليعلم أن الطهارة كما سبق شرط فى الصلاة على القادر عليها ، وهى عبارة عن الاغتسال من الجنابة والحيض والنفاس ، والوضوء ، أو بدل ذلك وهو التيمم ، أما الاغتسال ففرضه المضمضة والاستنشاق وغسل جميع البدن عند الإمام الأعظم ، والإمام أحمد ، وعند الشافعى المضمضة ليست بفرض(١)، وعند الإمام مالك الدلك أيضاً واجب ونقض ضفائر الرجل لا المرأة ، ويقتضى أن يتعهد ما تحت الأظافر والأنف ، وأما الوضوء ففرائضه عند الحنفية أربعة : غسل الوجه وغسل اليدين ومسح ربع الرأس وغسل الرجلين أو مسح الخفين أو الجوربين بشرطه ، وقد أجمعوا

(١) أي فى الغسل . ا هـ . منه .

على اشتراط النية ما عدا الإمام الأعظم ، وكذا فى الغسل لقوله عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات » وأبو حنيفة يقول إن الوضوء ليس مقصوداً لذاته بل لغيره ، وهى الصلاة ، فالنية فيها فرض والبسملة فى ابتدائه غير واجبة خلافاً لأحمد فى إحدى روايتيه . واتفق الأربعة على أن الترتيب والموالاة فى الطهارة مشروعان ، ثم اختلفوا فى وجوبهما ، فقال أبو حنيفة : لا يجبان ، وقال الإمام مالك : الموالاة واجبة دون الترتيب ، وقال الشافعى الترتيب واجب قولاً واحداً ، وعنه فى الموالاة قولان . وقال الإمام أحمد فى المشهور عنه أنهما واجبان ، وعنه رواية أخرى فى الموالاة أنها لا تجب ، واختلفوا فى مسح الرأس ، فعند أبى حنيفة الربع أو قدر أربع أصابع ، وعند مالك وأحمد فى أظهر الروايات عنه يجب استيعابه ، والأذن منه عند أحمد فى رواية فيمسحهما ، وقال الشافعى يجزئ أن يمسح منه أقل ما يقع عليه اسم المسح ، والمرفقان والكعبان يغسلان خلافاً لمالك ، والمضمضة والاستنشاق سنة وأوجبهما أحمد فى الوضوء والغسل والإمام الأعظم فى الغسل فقط ، ويستحب أن يتوضأ مستقبل القبلة ، وألا يتكلم بلا حاجة لما ورد أن فيه تنزل عليه الرحمة إذا توضأ فإذا تكلم ارتفعت ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من توضأ فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله قبل أن يتكلم غفر الله تعالى له ما بين الوضوءين ، وأن يقرأ بعده قل هو الله أحد لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه بها ، وقال ينادى مناد: يا مادح الرحمن قم فادخل الجنة ، وأن يقرأ أيضاً إنا أنزلناه ، لما ورد فى الحديث من قرأ إنا أنزلناه عقب وضوئه غفر له ذنوب أربعين سنة . والوضوء على الوضوء نور على نور ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقوم فى صلاته فيعلم ما يقول إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، رواه الحاكم ، وأما التيمم فهو عبارة عن ضرب اليدين على الصعيد وهو التراب ، ومسح الوجه واليدين ، وقد اختلفوا فيه أيضاً فى بعض المسائل واتفقوا فى بعضها ، أما ما اتفقوا عليه فهو أن التيمم بالصعيد الطيب عند عدم الماء أو الخوف من استعماله جائز، وأجمعوا على وجوب التيمم للجنب كالمحدث ، وعلى أن المسافر إذا كان معه ماء وخشى العطش فله أن يحبسه ليشربه ويتيمم ، وعلى أن المحدث إذا تيمم ثم وجد الماء قبل الدخول فى الصلاة بطل تيممه ، ولزمه استعمال الماء . وأما ما اختلفوا فيه فمن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى : التيمم ضربتان ، مع قول مالك

وأحمد ، واحدة ، بأن يكون بطون الإصابع للوجه وبطون الراحتين لمسح الكف ، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد : الصعيد التراب أو الرمل فيه الغبار ، وقال أبوحنيفة ومالك : يجوز بجميع أجزاء الأرض ولو بحجر لا تراب عليه ، وزاد مالك ما اتصل بالأرض كالنبات ، ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى فى الجديد أن مسح اليدين إلى المرافق كالغسل فى الوضوء ، مع قول مالك وأحمد إلى المرافق مستحب وإلى الكوعين جائز ، وقول الزهرى إلى الآباط ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة : لا يجوز الجمع بين فرضين بتيمم واحد ، وقال أبو حنيفة : التيمم كالوضوء ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة : لا يجوز التيمم لصلاة العيدين والجنازة فى الحضر ، وإن خيف فواتهما ، مع قول أبى حنيفة بجواز ذلك ، ومن ذلك قول الشافعى إن من تعذر عليه الماء فى الحضر وخاف فوات الوقت فإن كان الماء بعيداً عنه أو فى بئر ولو استسقى منه خرج الوقت أنه يتيمم ويصلى ، ثم إذا وجد الماء أعاد مع قول مالك أنه يصلى بالتيمم ولا يعيد ، ومع قول أبى حنيفة أنه يصبر إلى أن يقدر على الماء ، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد ، وفى رواية عنه أنه إذا وجد ماء لا يكفى جميع الأعضاء يغسل البعض ويتيمم ، وعند بقية الأئمة يتيمم فقط ، ومن ذلك قول الشافعى من كان بعضوه جرحة وخاف من نزع الجبيرة يمسح على الجبيرة ويتيمم ، ومع قول أبى حنيفة ومالك إن كان بعض جسده صحيحاً وبعضه جريحاً ولكن الأكثر هو الصحيح غسله وسقط حكم الجريح ، ويستحب مسحه بالماء ، وإن كان الصحيح هو الأقل يتيمم ، وسقط غسل العضو الصحيح ، وقال أحمد يغسل الصحيح ويتيمم عن الجريح من غير مسح للجبيرة ، ومن ذلك قول أبى حنيفة أن فاقد الطهورين لا يصلى، مع قول الشافعى أنه يصلى ويعيد إذا وجد أحدهما ، وهو رواية عن مالك، وعن أحمد يصلى ولا يعيد ا هـ ، من الميزان ملخصاً .

وأما نواقض الوضوء فقد اتفقوا على أن الخارج من السبيلين ناقض كالبول والغائط والمذى ، واختلفوا فى بعض النواقض ، قال فى الميزان فمن ذلك قول الأئمة الثلاثة أنه لا ينقض الخارج النادر كالدود والحصاة والريح من القبل ، مع قول أبى حنيفة ينقض الريح الخارج من القبل وهو الراجح من مذهب الشافعى فإنه قال بالنقض فى الثلاثة ا هـ .

قلت : لكن المصرح به فى كتب الحنفية خلافه فقد قال فى التنوير والدر : لا ينقضه خروج ريح من قبل وذكر ؛ لأنه اختلاج حتى لو خرج ريح من الدبر وهو

يعلم أنه لم يكن من الأعلى فهو اختلاج فلا ينقض ، وإنما قيدنا بالريح لأن خروج الدودة والحصاة منهما ناقض إجماعاً ا هـ ، قال فى الميزان : ومن ذلك قول الإمام أبى حنيفة : لا ينقض الوضوء مس الفرج مطلقاً على أى وجه كان ، مع قول الشافعى والقول الأرجح من مذهب أحمد بانتقاضه ببطن الكف ، وزاد أحمد نقض الطهارة بلمس الذكر بظهر الكف أيضاً ، ومع قول مالك إن مسه بشهوة انتقض وإلا فلا ، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد بنقض طهارة من مس فرج غيره صغيراً كان الممسوس أو كبيراً حياً كان أو ميتاً ، مع قول مالك أنه لا ينقض مس فرج الصغير ، ومع قول أبى حنيفة أنه لا ينقض مطلقاً ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة بعدم نقض الطهارة بلمس الأمرد الجميل ، مع قول الإمام مالك بإيجاب الوضوء بلمسه ، وحكى ذلك أيضاً عن الإمام أحمد وغيره ، ومن ذلك قول الشافعى إن لمس المرأة ينقض إلا إن كانت محرماً مع قول مالك وأحمد إن كان ذلك بشهوة نقض وإلا فلا، ومع قول أبى حنيفة لا ينقض إلا بالمباشرة الفاحشة ، وهى الانتشار (١) ، وأما الملموس فمذهب مالك والراجح من قولى الشافعى وإحدى الروايتين عن أحمد أنه كاللامس فى النقض ، انتهى ، وفى غيره من كتب اختلاف المذاهب أنهم أجمعوا على أنه لا وضوء على من مس أنثييه ، وقالت الثلاثة إن أكل لحم الجزور وغسل الميت ناقض ، خلافا لأحمد ، وقالت الثلاثة : القهقهة لا تنقض الوضوء ، بل تبطل الصلاة خلافاً لأبى حنيفة فإنها تنقض عنده بشروطها (٢) المفصلة ، وينقضه الإغماء والجنون والسكر ، ولو بأكل حشيشة عند أبى حنيفة ، واختلفوا فى خروج النجاسات من غير السبيلين كالقىء والحجامة ، وخروج الدم ، قال أبو حنيفة : القىء ملء الفم والدم السائل ناقض ، وقال مالك والشافعى : لا ينقض ، وقال أحمد : إذا كان كثيراً فاحشاً ينقض ، وإن كان يسيراً ففيه روايتان ، ونوم غير المتمكن ناقض ا هـ ملخصاً .

واعلموا أن الصلاة لها درجات يزداد الأجر فيها وينقص ، ومن أعظم ما يزاد الأجر فيها صلاة الجماعة ، وقد أجمع العلماء على أنها مشروعة وأنه يجب إظهارها فى الناس ، فإن امتنعوا منها قتلوا ، واختلف الأئمة فيها فقال أبو حنيفة والشافعى: هى فرض كفاية فى غير الجمعة ، وفى قول عند الحنفية واجبة ، فقد قال فى شرح

---

(١) أى وملاقاة الفرجين ا هـ .

(٢) قوله بشروطها وهى أن تكون قهقهة بالغ فى صلاة ذات ركوع وسجود ا هـ .

المنية : والأحكام تدل على الوجوب من أن تاركها بلا عذر يعزر وترد شهادته ، ويأثم الجيران بالسكوت عنه ، وفى تنوير الأبصار : والجماعة سنة مؤكدة للرجال ، وأقلها اثنان واحد مع الإمام ، وقيل واجبة وعليه عامة المشايخ ا هـ . وقال الإمام أحمد : فرض عين وقال مالك : سنة ، واختلفوا فى إمامة الفاسق فقال أبو حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى روايتيه بصحة إمامته لكن مع الكراهة . وقال الإمام مالك وأحمد فى أشهر روايتيه أنها لا تصح إن كان فسقه بلا تأويل ، قال القطب الربانى الشيخ عبد القادر الكيلانى فى كتابه الغنية : فصل فى الخروج إلى المسجد والخشوع ، عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما بين صلاة الجماعة والفذ سبع وعشرون درجة » ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا توضأ العبد ثم خرج إلى المسجد كتب الله عز وجل له بكل خطوة حسنة ومحا عنه سيئة ورفع له درجة ويستبشر الله تعالى كما يستبشر بالغائب الطويل غيبة إذا قدم على أهله . وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : جاء جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : بشر المشائين فى ظلم الليل إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة ، قال الشيخ : ويستحب للرجل إذا أقبل للمسجد أن يقبل بخوف ووجل وخشوع وخضوع ، وأن تكون عليه السكينة والوقار من غير عجب ولا تكبر ولا رياء وافتخار ، بل بذل وانكسار ، وينوى بذلك التوجه إلى الله عز وجل ؛ لأنه روى أنه تبارك وتعالى لا يتقبل من المتكبرين عملاً حتى يتوبوا ، وفى الحديث : إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام : إذا قمت بين يدى فقم مقام الخائف الذليل الذام لنفسه ؛ فإنها أولى بالذم ، وإذا دعوتنى فادعنى وأعضاؤك تنتفض . وأبصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته فى صلاته فقال : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه . ا هـ .

قيل : ويكفى فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام : « الإحسان أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ولذا كان العبث فى الصلاة مكروهاً ، والحركات الثلاث المتواليات مبطلة، أو عمل اليدين مبطل ، أو ما إذا رآه الرائى يظنه ليس فى الصلاة . على أقوال مبسوطة فى كتب الفقهاء ، ثم اعلموا أن العلامة ابن حجر الهيثمى قد عد ترك

الجماعة فى كتابه الزواجر من الكبائر ، قال : أخرج الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام : لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أنطلق برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الجماعة فأحرق عليهم بيوتهم . وروى أحمد والطبرانى : بحسب المؤمن من الشقاء والخيبة أن يسمع المؤذن يثوب بالصلاة فلا يجيبه ، والتثويب هنا اسم لإقامة الصلاة . وقال كعب الأحبار فى قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون** ﴾ والله ما نزلت إلا فى المتخلفين عن الجماعات ، وسئل ابن عباس عمن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يصلى فى الجماعة ولا يجمع يوم الجمعة ، فقال : إن مات هذا فهو فى النار . واعلم أنه قد ذهب بعض العلماء إلى تفضيل الصلاة فى الفلاة على الجماعة لما روى أبو داود عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الصلاة فى الجماعة تعدل خمساً وعشرين صلاة فإذا صلاها فى فلاة فأتم ركوعها وسجودها بلغت خمسين صلاة ، فيا هذا إذا صليت والقلب غائب كان وجود الصلاة كالعدم .

هـو بالروم مقيم　　　وله بالشام قلب

يا ذاهل القلب فى الصلاة حاضر الذهن فى الهوى ، جسده فى المحراب ، وقلبه فى بلاد الغفلة يدور على كل باب ، يا من شاب وما تاب ، اكتسب باقى الرمق ، كان الشباب غصناً غضاً فخلا عن ورق ، وأنت فى الشيب كالشباب تجرى على نسق ، يا غريقاً فى الهوى اصح من قبل الغرق ، ليأتينك من الموت مالا يقبل رشوة ولا مالا ، يا مختالا جهلاً وضلالاً ، لقد حملت أزرك أوزاراً ثقالاً ، إياك والمنى فكم وعد المنى محالا ، كم سقى الموت من الحسرات كئوساً ، كم فرغ ربعا عامراً مأنوساً ، كم طمس بدوراً وشموساً ، وأغمض عيوناً ونكس رءوساً ، وأبدل التراب عن الثياب ملبوساً ، يا هذا احذر الأمل وبادر العمل ، فكأنك بالأجل على عجل، أنت كل يوم تقترب ، وسترحل إلى البلاد وتغرب ، وسيأكل المحب بعدك ويشرب، وكأنك به إذا ذكرته يطرب ، فخذ العدة واسمع نصحى فنصحى مجرب ، اللهم إنا إلى رحمتك محتاجون ، وبكرمك واثقون ، وعلى بابك عاكفون ، ولنعمائك شاكرون ، ولآلائك ذاكرون ، وإلى طاعتك داعون ، ولمخالفتك كارهون ، ومن

نورك مقتبسون ، فاحفظنا فى أحوالنا ، ووفقنا فى أقوالنا وأفعالنا ، واجعل علينا رقيباً منا حتى لا نعتمد إلا على رضاك ، ولا نقصد من الدارين إلا إياك ، اللهم حسن إيماننا بالتوفيق ، وزين سرائرنا بالتحقيق ، وعلمنا ما لم نعلم وانفعنا بما تعلمنا، وتجاوز عن آبائنا وأمهاتنا ، وجميع أموات المسلمين ، اللهم إنا نسألك من الخير أوله وآخره ، والدرجات العلى من الجنة ، آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس التاسع
فيما يتعلق بالصلاة أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الواحد القديم الجبار ، القادر العظيم القهار ، المتعالى عن درك الخواطر والأفكار ، المنفرد بالعز والقهر والاقتدار ، الذى وسم كل مخلوق بسمة الافتقار ، وأظهر آثار قدرته بتصريف الليل والنهار ، سميع بصير يسمع لا كالأسماع ويبصر لا كالأبصار ، قادر مدبر حكيم عليم بالأسرار ، يبصر دبيب النملة السوداء ، فى الليلة الظلماء ، على الغار . ويسمع أنين المدنف يشكو ما به من أضرار ، كلم موسى كفاحاً لما قضى الأجل وسار ، ورآه نبينا كما دل على ذلك القرآن والأخبار ، ويراه المؤمنون إذا نزلوا دار القرار ، صفاته كذاته والمشبهة كفار ، نقر وغمر وأرباب البحث فى خسار ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنبانه على شفا جرف هار ، أحمده فى الإعلان والإسرار ، وأشهد بوحدانيته بأصح إقرار ، وأصلى على رسوله محمد سيد الأنبياء الأطهار ، صلى الله تعالى عليه وعلى أبى بكر رفيقه فى الغار ، وعلى عمر قامع الكفار ، وعلى عثمان شهيد الدار، وعلى على القائم بالأسحار ، وعلى سائر آله وأصحابه خصوصاً المهاجرين والأنصار .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى عليه الرحمة ، فإنه قد قال فى جامعه الصحيح ، وكتابه الحرى بالترجيح ، عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض

الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة. . الحديث .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : قد تقدم الكلام فى الدرس الماضى على بعض المسائل المتعلقة بالصلاة ، وبقى عليها كلام كثير نذكر بعضه إن شاء الله تعالى فى هذا الدرس ، فمنه الأذان والإقامة ، قال الإمام أبو حنيفة ومالك والشافعى : إن الأذان والإقامة سنتان للصلوات الخمس والجمعة ، وقال الإمام أحمد إنهما فرض كفاية على أهل الأمصار ، وقال داود إنهما واجبان لكن تصح الصلاة بتركهما ، وقال الأوزاعى : إن نسى الأذان وصلى أعاد فى الوقت ، وقال عطاء إن من نسى الإقامة أعاد الصلاة ، وقال الأئمة الثلاثة : لا تسن للنساء الإقامة ، وقال الشافعى أنها تسن فى حقهن ، وفى كتاب كشف الغمة للشعرانى عليه الرحمة : كان عبد الله ابن زيد رضى الله تعالى عنه يقول : سبب الأذان يعنى على هذه الهيئة المشروعة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما أجمع أن يضرب بالناقوس وهو كاره له لموافقته النصارى طاف بى طائف من الليل وأنا نائم ، رجل عليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس يحمله ، قال : فقلت له : يا عبد الله أتبيع الناقوس ، قال : وما تصنع به ، قال : قلت : ندعو به إلى الصلاة قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ، فقلت: بلى . قال : تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الصلاة حى على الفلاح حى على الفلاح الله أكبر الله أكبر لاإله إلا الله . قال : ثم استأخر غير بعيد ، قال : ثم تقول إذا قمت للصلاة الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

قال عبد الله بن زيد : فلما أصبحت أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبرته بما رأيت فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن هذه رؤيا حق إن شاء الله تعالى ، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فإنه أندى صوتاً منك ، قال :

فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به فسمع بذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وهو فى بيته فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق نبياً لقد رأيت مثل الذى أرى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فلله الحمد ، فكان بلال يؤذن بذلك ويدعو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الصلاة فجاءه يوماً فدعاه ذات غداة إلى الفجر فقيل له : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نائم، فصرخ بلال بأعلى صوته « الصلاة خير من النوم » ، فأدخلت هذه الكلمة فى التأذين فى صلاة الفجر دون غيرها . وفى رواية فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أحسن هذا يا بلال اجعله فى أذانك ، وفى رواية أن بلالاً كان ينادى بالصبح حى على خير العمل ، فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقول مكانها الصلاة خير من النوم ، وترك حى على خير العمل . وقد جاء فى فضل الأذان أحاديث كثيرة ، فمنها قوله عليه الصلاة والسلام : من أذن سنة محتسباً قيل له يوم القيامة اشفع لمن شئت ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم لذكر الله عز وجل ، وسيأتى على الناس زمان يكون سفلتهم مؤذنوهم ، وكان مجاهد يقول : المؤذنون احتساباً لله تعالى لا يدودون فى قبورهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا أذن فى قرية آمنها الله من عذابه ذلك اليوم ، وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لو يعلم الناس ما فى التأذين لتضاربوا عليه بالسيوف - وروى أيضاً عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : المؤذن يغفر له مدى صوته ويصدقه كل رطب ويابس ، وزاد النسائى : وله مثل أجر من صلى معه ، وروى الطبرانى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لو أقسمت لبررت إن أحب عباد الله إليه لرعاة الشمس والقمر ، يعنى المؤذنين ، وأنهم ليعرفون يوم القيامة بطول أعناقهم .

وروى البخارى فى تاريخه عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال : كن مؤذناً ، قال : لا أستطيع ، قال : كن إماماً ، قال : لا أستطيع قال : قم بإزاء الإمام . وروى أبو داود والنسائى عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى

عنه قال : سمعت رسول الله صلي الله تعالى عليه وسلم يقول : عجب ربك عز وجل من راعى غنم فى رأس شظية للجبل ، يؤذن بالصلاة ويصلى فيقول الله عز وجل : انظروا إلى عبدى هذا يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة . قال فى كشف الغمة : وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يجهر بإجابة المؤذن حتى يسمع من حوله ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : عليكم بالدعاء بين الأذان والإقامة فإن الدعاء بينهما لا يرد ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : لعن الله من سمع حى على الفلاح ثم لم يجب ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إذا كنتم فى المسجد فنودى بالصلاة فلا يخرج أحدكم حتى يصلى .

خاتمة : قال شيخنا رضى الله تعالى عنه : لم يكن التسليم الذى يفعله المؤذنون فى أيام حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الخلفاء الراشدين ، قال كان فى أيام الروافض بمصر شرعوا التسليم على الخليفة ووزرائه بعد الأذان إلى أن توفى الحاكم بأمر الله وولوا أخته فسلموا عليها وعلى وزرائها من النساء ، فلما تولى الملك العادل صلاح الدين بن أيوب أبطل هذه البدعة وأمر المؤذنين بالصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بدل تلك البدعة ، وأمر بها أهل الأمصار والقرى فجزاه الله تعالى خيراً ا هـ . ومنه الصلاة فى المقبرة قال فى الميزان : قال أبو حنيفة والشافعى : تصح الصلاة فى المواضع المنهى عنها مع الكراهة وبه قال مالك : إلا فى المقبرة المنبوشة فإن كانت غير منبوشة كرهت وأجزأت ، وقال الإمام أحمد إنها تبطل على الإطلاق ا هـ . وقال فى الدر المختار : يكره الصلاة فى أماكن كفوق الكعبة لما فيه من ترك التعظيم ، وفى الطريق ولمزبلة ولمجزرة ولمقبرة ؛ لأن أصل عباد الأصنام اتخاذ قبور الصالحين مساجد ، وقيل : لأنه تشبه باليهود ، وقيل : لأن فيها صديد الموتى ، وكذا تكره فى المغتسل والحمام ومعابد الكفار وبطن واد ، فإن الغالب احتواؤه على نجاسة يحملها إليه السيل أو تلقى فيه ، وكذا فى معاطن إبل وغنم وبقر ومرابط دواب وطاحون ، ولعله لشغل البال بصوتها ، وكنيف وسطوحها وأرض مغصوبة . قلت : وألحق فى الأرض المغصوبة بعض الفقهاء ما يفعله بعض

الناس من إرسال السجادات قبلهم إلى المساجد، وكذا الأرض المزروعة أو المكروبة وصحراء بلا ستر لمار وقد نظم ذلك بعضهم فقال :

نهى الرسول أحمد خير البشر ... عـن الصـلاة فى بقاع تعتبر
معاطـن الجـمال ثم مقبره ... مزبلة طـريق ثم مجـزره
وفـوق بيت الله والحـمام ... والحـمد لله علـى التمـام

ا هـ مزاداً من الحاشية وغيرها . وقال العلامة ابن حجر فى الزواجر : ومن الكبائر اتخاذ القبور مساجد وإيقاد السرج عليها واتخاذها أوثاناً والطواف بها واستلامها والصلاة إليها . أخرج الطبرانى : لا تصلوا إلى قبر ولا تصلوا على قبر ، وروى أحمد رحمه الله تعالى عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج . وروى الحاكم : الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام . وروى أبو هريرة : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وروى الشيخان أن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة ا هـ .

قلت : ويستفاد من ذلك حرمة ما يفعله كثير من جهلة العوام من نذر إيقاد الشموع والسرج عند مقابر الصالحين ، وهو باطل وحرام ، ومثله وضع الحناء على مقابرهم وجعل الراية البيضاء المتداولة عند جهلة الناس لهم لأنهم ظنوا أن الميت يتصرف بالأمور دون الله تعالى ، واعتقاد ذلك كفر ، إلا إن نذر لله تعالى الإيقاد فى المساجد فهو جائز ، وقد فصل هذا البحث بأتم مما ذكرنا العلامة ابن عابدين الحنفى فى حاشيته على الدر المختار ، وغيره من علماء الأمصار ، ولعل لنا عودة إلى هذا البحث إن شاء الله تعالى ، ولنرجع إلى المسائل المتعلقة بالصلاة فاعلموا أن أهل الصلاة هو الطاهر فلا تصح من غير طاهر ، كما لا تصح من جنب حتى يغتسل أو يتيمم لفقد الماء ، ولا من نفساء وحائض حتى تطهرا أو تغتسلا أو تتيمما لفقد الماء ، ولنبين بحوله تعالى مدة الحيض والنفاس على المذاهب الأربعة ، فإن ذلك من ضروريات الدين ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه** ﴾ وروى : ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا إلا أخذ على

العلماء أن يعلموا ، وقال ابن حجر فى شرح الحضرمية : يجب على النساء أن يتعلمن ما يحتجن إليه من هذا الباب كغيره ، فإن كان زوجها عالماً لزمه تعليمهما وإلا فلها الخروج لتعلم ما لزمها تعلمه عيناً بل يجب منعها إلا أن يسأل ويخبرها وليس لها خروج لتعلم غير واجب عين إلا برضاه ا هـ .

فنقول : قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى : أجمع الأمة على أن فرض الصلاة ساقط عن الحائض مدة حيضها ، وعلى أنه لا يجب عليها قضاؤها ، وعلى أنه يحرم عليها [1] الطواف بالبيت واللبث بالمسجد ، وعلى أنه يحرم وطؤها حتى ينقطع حيضها ، وعلى أنه يحرم بالنفاس ما يحرم بالحيض ، هذا ما أجمعوا عليه ، واختلفوا فى أقل الحيض وأكثره فقال أبو حنيفة : أقله ثلاثة وأكثره عشرة أيام والزائد استحاضة تصوم وتصلى فيها ، وقال الشافعى أقله يوم وليلة وأكثره خمسة عشر يوماً، وقال مالك : أقله ليس له حد وأكثره خمسة عشر ، وأقل طهر بين حيضتين خمسة عشر يوماً عند أبى حنيفة والشافعى ، وقال أحمد ثلاثة عشر يوماً ، ومن ذلك قول أكثر العلماء أنه يحرم وطء من انقطع دمها حتى تغتسل ، وقال أبو حنيفة: إن انقطع لأكثر الحيض جاز وطؤها قبل الغسل ، وإن لدون حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت صلاة ، ومن ذلك اتفقوا على أن الحائض كالجنب فى الصلاة ، وأما فى القراءة فقال أبو حنيفة والشافعى وأحمد أنها لا تقرأ القرآن . وقال مالك وداود تقرأ القرآن ، وفى أخرى عنه تقرأ اليسير فقط ، ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد أن الحامل لا تحيض مع قول مالك والشافعى أنها تحيض فعلى الأول تصلى إذا رأت الدم وعلى الثانى لا تصلى لأنه حيض ، ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد عليهما الرحمة: أكثر النفاس أربعون يوماً ، وقال مالك والشافعى ستون يوماً ، وأقله لحظة عندنا والشافعى إلا عند نصب العادة فى الحيض والنفاس ا هـ .

قلت : واتفقوا على أن الحائض لا تطوف بالكعبة المشرفة إلا فى رواية عن إمامنا الأعظم أنها تطوف وتفدى بدنة ، وقد وافقه فى جواز الطواف المذكور من الحنابلة شيخ الإسلام تقى الدين الحرانى كما بيناه فى كتابنا الجلاء ، فليحفظ ، وليعلم أن العلامة ابن حجر قد عد جملة من المسائل المتعلقة بالصلاة من الكبائر ، فمنها إمامة

---

(١) أقول هذا الإجماع منظور فيه ، قد جوز بعض الأئمة الطواف للحائض وأن تهدى بدنة فلا تغفل ا.هـ منه .

الإنسان لقوم وهم له كارهون ، فقد أخرج الحاكم : ثلاثة لعنهم الله ، من تقدم قوماً وهم له كارهون وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، ورجل يسمع حى على الصلاة حى على الفلاح فلم يجب ، وروى الترمذى : ثلاثة لا تتجاوز صلاتهم آذانهم ، العبد الآبق حتى يرجع ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وإمام قوم وهم له كارهون ، وفى رواية : رجل اعتبد حراً أي جعله عبداً ، وأخوان متصارمان. وكذلك قالوا : لا يؤم الرجل جماعة وفيهم من هو أعلم منه وأتقى منه، فقد روى : إذا أم القوم رجل وخلفه من هو أفضل منه لم يزالوا فى صغار وإدبار . ومنها مسابقة الإمام ، أخرج الشيخان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه من ركوع أو سجود قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ، أو يجعل الله صورته صورة حمار . وفى رواية الذى يخفض ويرفع قبل الإمام إنما ناصيته بيد شيطان ، ومنها قطع الصف وعدم تسويته ، أخرج جماعة وصححه الحاكم : من وصل صفاً وصله الله ومن قطع صفاً قطعه الله ، وصح أيضاً أن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، وصح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يسويهم فى صفوفهم بيده الشريفة ، ويقول : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ومنها تخطى الرقاب ولا سيما يوم الجمعة . أخرج الترمذى وابن ماجة : من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل : قد رأيتك تتخطى رقاب الناس وتؤذيهم ، من آذى مسلماً فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله عز وجل ا هـ .

قلت : ويلتحق بذلك سؤال المساجد الذين يدورون بين الصفوف ، فلذا منع الفقهاء إعطاءهم ، ويلتحق بذلك من يرسل سجادته قبله ثم يخترق الصفوف إليها، ومما يلحق بذلك أكله الثوم والبصل ونحوهما وشربه التتن . وذوو الرائحة الكريهة بالقياس على ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من أكل من هاتين الشجرتين يعنى الثوم والبصل فلا يقرب مسجدنا يؤذينا ، ومنها المرور بين يدى المصلى إلا بسترة بشرطها ، أخرج الشيخان وأصحاب السنن : لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه لكان يقف أربعين خريفاً ، وفى رواية مائة عام ، خير له من أن يمر بين يديه . وصح أيضاً : فلا يدع أحداً يمر بين يديه وإن أبى فليقاتله فإنه معه القرين أى الشيطان . وقد أطاعه . قلت : ونحو ذلك استقبال أحد للمصلى بوجهه بخلاف صلاته إلى ظهره

فقد روى فى الأثر : ما أفلح وجه صلى إليه لأنه يشبه العبادة ، ولذا كرهت الصلاة إلى النار التى هى جمر بخلاف السراج .

واعلم أنهم اختلفوا فى المرور الذى هو بين يدى المصلى ، فبعضهم قال : هو ما بين المصلى وموضع سجوده ، وبعضهم قال : مطلقاً إلا إذا كانت سترة أو بعدت المسافة ، كما فصل فى الكتب الفقهية ، وقالت الأئمة : لا تبطل الصلاة بمرور حيوان بين يدى المصلى ولو كان حائضاً أو حماراً أو كلباً أسود ، وقال الإمام أحمد: الكلب الأسود يقطع الصلاة ، وفى قلبى من الحمار والمرأة شيء [(١)] ، فرحم الله عبداً أحسن صلاته التى هى عماد الإسلام وسهر ليله والناس نيام ، فيا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان ، يا معرضاً عن الأرباح متعرضاً للخسران ، متى تتنبه من رقادك أيها الوسنان ، متى تفيق لنفسك أما حق أما آن ، إلى متى ترفض قول الناصح ، وقد أتاك بأمر واضح ، أترضى بالشين والقبائح ، كأنى بك قد نقلت إلى بطون الصفائح ، وبقيت محبوساً إلى الحشر تحت الضرائح ، وختم الكتاب على آفات وقبائح ، من رأيت من آفات الدنيا سلم ، ومن شاهدت صحيحاً وما سقم ، أى حياة بالموت لم تختتم ، وأى عمر بالساعات لم ينصرم ، إن الدنيا لغرور حائل ، وسرور إلى الشرور آيل ، تردى مستزيدها ، وتؤذى مستفيدها ، بينا طالبها يضحك أبكته ، ويفرح بسلامته أهلكته ، فندم على زلله ، إذ قدم على عمله ، وبقى رهين خوفه ووجله ، وود أن لو زيد ساعة فى أجله ، فما هو إلا أسير فى حفرته ، وحسير فى سفرته :

يا واقفاً يسـأل القبـور أفـق ... فأهلهـا اليوم عنك قد شغلـوا
قـد هالهـم منكر وصاحبـه ... وخـوف ما قدموا وما عملـوا
رهـائن للثـرى على مـدر ... تسـمع للـدود بينهـم زجل
سرى البلى فى جسومهم فجرت ... دمـاً وقيحـاً وسـالت المقل
ينتظـرون النشـور إذ يقف الـ ... ـأمـلاك والأنبيـاء والرسـل
يومـاً ترى الصحـف فيه طائرة ... وكـل قلب لـه من هوله وجل
قد دنت الشـمس من رءوسهم ... والنـار قـد أبرزت لها شعل

---

(١) أقول : ومما يجب التنبيه عليه أيضاً فى هذا المقام الكلام عند ما يخطب الإمام فإنه على ما صرحوا به حرام كما سنفصله إن شاء الله تعالى فى محله ا هـ منه .

وأزلفت جـــنة النعيم فيــا طوبى لقوم بربعها نزلـــوا
أكـوابهم عسجد يطاف بها والخمر والسلسبيل والعسل

* * *

المجلس العاشر
من حديث جبريل عليه الصلاة والسلام أيضاً
فى الزكاة وبعض واجباتها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى أعان بفضله الأقدام السالكة ، وأنقذ برحمته النفوس الهالكة ، ذم الدنيا وأعلم أن سيوف غدرها بائكة ، وأعرض عن أهلها إلا العصبة الناسكة ، وكيف يسكن إليها ونوق الرحيل باركة ، وسيقرع محبها سنه ندماً إذا أصبحت سن الزاهد ضاحكة ، كم بينك وبينهم يا من نفسه عليها متهالكة ، فالعمل على تقوى رابعة لا على انبساط بوران وعاتكه ، سعد من رأى الدنيا فتصبر ، ورضى بوصف أشعث أغبر ، وأقبلت عليه بزخرفها فأدبر ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة .

أحمده على الأمور اللذيذة والشائكة ، وأقر بوحدانيته إقرار عبد يعرف مالكه ، وأصلى وأسلم على رسوله محمد صلوات متداركة ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى تحرض عليه الفرقة الآفكة ، وعلى عمر الذى كانت نفسه لنفسه مالكه ، وعلى عثمان منفق الأموال المتداركة ، وعلى على مجلى الكرب المظلمة الهالكة ، وعلى بقية الصحابة الذين هم أناروا الظلم الحالكة .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى فإنه قال فى جامعه الصحيح ، الحرى بالترجيح ، عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن

الإسلام، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، الحديث . .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق : قد تقدم الكلام على أول الحديث فى الدروس السالفة ، وبقى الكلام على قوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتؤتى الزكاة ، فالزكاة هى من أركان الإسلام ، وقد وردت فيها آيات عظيمة ، وأحاديث كريمة ، وقد قرنت بالصلاة فى اثنين وثلاثين موضعاً فى التنزيل ، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما ، ولذا قدمت على الصوم ولفرضها قبله ، قيل : ولا تجب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إجماعا ؛ لأن الزكاة طهرة لمن عساه أن يتدنس ، والأنبياء مبرءون منه ، وليس يبقى لهم مال ، وأما قوله تعالى حكاية عن عيسى ﴿ **وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً** ﴾ فالمراد زكاة النفس من الرذائل التى لا تليق بمقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأوصانى بتبليغ الزكاة .

والزكاة لغة الطهارة والنماء ، وشرعاً تمليك جزء مال ، خرج الإباحة فلو أطعم يتيماً ناوياً الزكاة لا يجزئه إلا إذا دفع إليه المطعوم ، كما لو كساه فإنه يجزئه ، وقوله جزء مال خرج المنفعة فلو سكن فقيراً داره سنة ناوياً لا يجزئه ، عينه الشارع وهو ربع عشر نصاب حولى ، خرج النافلة والفطرة من مسلم فقير غير هاشمى ، قيل : ولا لتارك الصلاة ، ولا مولاه أى معتق الهاشمى ، وهم آل عباس وعلى وجعفر وعقيل وولد الحرث بن عبد المطلب ، مع قطع المنفعة عن المملك فلا يدفع لأصله وفرعه ، ويكون النصاب فارغاً عن دين له مطالب من جهة العباد ، وهذا إذا كان الدين فى ذمته قبل وجوب الزكاة ، فلو لحقه بعده لم تسقط لأنها ثبتت فى ذمته فلا يسقطها ما لحق من الدين بعد ثبوتها ، ويشترط أيضاً أن يكون النصاب فارغاً عن حاجته الأصلية لأن المشغول بها كالمعدوم ، وفسره ابن مالك بما يدفع عنه الهلاك تحقيقاً كثيابه ونفقته ودور سكناه وآلات الحرب ، أو تقديراً كالدين فإن المديون محتاج إلى قضائه بما فى يده من النصاب دفعاً للحبس ، وكآلات الحرفة وأثاث المنزل ودواب الركوب وكتب العلم لأهلها ولغير أهلها ، غير أن الأهل له أخذ الزكاة من الغير ، والمديون يزكى الفاضل عن دينه وافتراضها عمرى أى على التراخى ، وقيل فورى وعليه الفتوى ، فيأثم بتأخيرها بلا عذر ، وترد شهادته . ولا زكاة فى اللآلئ والجواهر إلا أن تكون للتجارة ، ولا زكاة فى السائمة المعلوفة فى أكثر الحول إلا أن تكون للتجارة فتجب فيها زكاة التجارة .

وزكاة الإبل نصابها خمس فيؤخذ من كل خمس منها إلى خمس وعشرين شاة وفى خمس وعشرين بنت مَخاض ، وهى التى طعنت فى الثانية ، وفى ست وثلاثين بنت لبون وهى التى طعنت فى الثالثة ، وفى ست وأربعين حقة وهى التى طعنت فى الرابعة ، وفى إحدى وستين جذعة وهى التى طعنت فى الخامسة ، وفى ست وسبعين بنتا لبون ، وفى إحدى وتسعين حقتان إلى مائة وعشرين ، هكذا كتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه . ثم تستأنف الفريضة عندنا . وقال الشافعى وأحمد : إذا زادت على مائة وعشرين واحدة ففيها ثلاث بنات لبون إلى مائة وثلاثين ففيها حقة وبنتا لبون . وعن مالك قولان أحدهما كمذهب الإمام أبى حنيفة والآخر كالشافعى . ونصاب البقر والجاموس ثلاثون سائمة وفيها تبيع وهو دون سنة وفى أربعين مسن ذو سنتين ، وفيما زاد بحسابه لا يكون عفواً إلى ستين ففيها ضعف ما فى ثلاثين .

ونصاب الغنم ضأن ومعز أربعون وفيها شاة وفى مائة وإحدى وعشرين شاتان وفى مائتين وواحدة ثلاث شياه ، وفى أربعمائة أربع شياه وما بينهما عفو ، ثم فى كل مائة شاة .ولو أخذ البغاة والسلاطين الجائرة زكاة السوائم والعشر والخراج لا إعادة على أربابها إن صرف فى محله الشرعى ، وإلا فعليهم فيما بينهم وبين الله تعالى .

ونصاب الذهب عشرون مثقالاً ، والفضة مائتا درهم ، وفى عرض تجارة قيمته نصاب ربع عشر ، وفى كل خمس بحسابه ، ففى كل أربعين درهماً درهم ، وفى كل أربعة مثاقيل قيراطان ، وما بين الخمس إلى الخمس عفو ، وقال : ما زاد بحسابه ، وإليه ذهب أحمد ومالك والشافعى . وشرط حولان الحول ، وكمال النصاب فى طرفى الحول ، فلا يضر نقصانه بينهما ، ويضم عند الثلاثة الذهب إلى الفضة وعكسه قيمة خلافاً للشافعى ، وتجب عند الحنفية وإن كان حلياً . وقال مالك وأحمد : لا تجب ، وعن الشافعى قولان ، واتفق الأئمة على وجوب الزكاة فى الأوانى ذهباً وفضة ، وإن كانت محرمة وعصى الله تعالى باستعمالها .

وأما الأحاديث الواردة فى فضل الزكاة فمنها ما روى عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله تعالى عنهما قال : خطبنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : والذى نفسى بيده - ثلاث مرات - ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكى لا يدرى على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه وفى وجهه البشرى ، فكانت أحب إلينا من حمر النعم،

قال : ما من عبد يصلى الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ، وقيل له : ادخل بسلام . وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : أتى رجل من بنى تميم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى ذو مال كثير وذو أهل وحاضرة فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل .

وعن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع : إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التى كتبهن الله تعالى عليه ويصوم رمضان ويحتسب صومه ويؤتى الزكاة محتسباً طيبة بها نفسه ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله تعالى عنها إلا رافق محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فى بحبوحة جنته ، أبوابها مصارع الذهب ، فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ، وكم الكبائر ؟ قال : تسع أعظمهن الإشراك بالله وقتل المؤمن بغير حق والفرار من الزحف وقذف المحصنة والسحر وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل : يا رسول الله ، فالإبل . قال : ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر (١) أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار . قيل : يارسول الله ، فالبقر والغنم ؟ قال : ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها شيئاً ليس منها عقصاء (٢)

---

(١) القرقر : الأرض المطمئنة اللينة ا هـ منه .

(٢) قال فى القاموس : الأعقص من التيوس ما التوى قرناه على أذنيه من خلفه ، وبقر جلح كسكر بلا قرون ، والعضباء الشاة المكسورة القرن الداخل ا هـ منه .

ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل : يا رسول الله ، فالخيل ؟ قال : الخيل ثلاثة ، هى لرجل وزر وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر . فأما التى هى له وزر فرجل ربطها رياء وفخرا ونواء لأهل الإسلام فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر فرجل ربطها فى سبيل الله ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ولا رقابها فهى له ستر ، وأما التى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مرج أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقتطع طولها فاستنت شرفاً أو شرفين إلا كتب له عدد آثارها وأرواثها حسنات ، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله تعالى له عدد ما شربت حسنات . قيل : يا رسول الله، فالحمر ؟ قال : ما أنزل على فى الحمر إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية للنسائى ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جاء يوم القيامة شجاعاً من نار فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس . وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ما تلف مال فى بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة . وروى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا المطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾ قال ابن

عمر : قال عليه الصلاة والسلام : إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يخيل إليه ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان (١) ، فيلزمه أى يطوقه ، يقول : أنا كنزك . ولله ميراث السموات والأرض ، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله .

وحكى فى نزهة المجالس أنه كان فى زمن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رجل كثير المال ، فلما مات حفروا قبره فوجدوا فيه ثعباناً عظيماً فأخبروا ابن عباس بذلك، فقال : احفروا غيره فحفروا فوجدوا الثعبان فيه ، حتى حفروا سبعة قبور ، فسأل ابن عباس أهله عن حاله فقالوا إنه كان يمنع الزكاة ، فأمرهم بدفنه معه .

وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ويل للأغنياء من الفقراء ، يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا ، فيقول : وعزتى وجلالى لأدنينكم ولأبعدنهم .

فائدة : اختلف العلماء ، هل الفقير الصابر أفضل أم الغنى الشاكر ، فقيل : الغنى الشاكر ، وقال جمع : الفقير الصابر ؛ لما روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء . وفى رواية : فرأيت أكثر أهلها الأغنياء . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى ما شاء الله تعالى أن يحبس ، ثم أدخل الجنة فلقيه فقال : يا أخى ماذا حبسك ، والله لقد خشيت حتى خفت عليك . فقال : يا أخى، إنى حبست بعدك حبساً فظيعاً كريهاً ، ما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لو ورد ألف بعير لصدرت عنه . ولما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة . قالت عائشة : ولم يا رسول الله ؟ قال : لأنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، يا عائشة لا تردى مسكيناً ولو بشق تمرة ، يا عائشة أحبى المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة . رواه الترمذى .

واعلموا أن الصدقة ما عدا الزكاة من أفضل الأعمال وموجبة فى الدنيا والآخرة للخلاص من الشدائد والأهوال ، ولا سيما صدقة السر فإنها تطفئ غضب الرب ، وقد روى الترمذى وغيره أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله

---

(١) الزبيب : سم الحية والزبيبتان اسم ريق الحية اهـ . منه .

تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه . روى الطبرانى : ما نقصت صدقة من مال وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل ، وما فتح عبد باب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر ، يقول العبد : مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاث ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس . وقال عليه الصلاة والسلام : ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان . فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر أشمل منه فما يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار . وفى حديث كعب بن عجرة : يا كعب إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت ، النار أولى به ، يا كعب ، الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وتطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء. وفى رواية : إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين باباً من ميتة السوء ، كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس . وفى رواية : الصدقة تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف . وروى : من كسا مسلماً ثوباً لم يزل فى ستر الله عز وجل ما دام عليه منه خيط أو سلك . وروى : أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عرى كساه الله تعالى من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله تعالى من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم، الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة رحم ، وكل فرض صدقة .

وفى رواية : رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الحسنة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرة إلا كان كتصدقه مرتين، من يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . وروى : أى الإسلام خير ؟

قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف . وروى : من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه من الماء حتى يرويه باعده الله تعالى من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين خمسمائة عام . وروى أن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، إنك لو عدته لوجدتنى عنده ، ياابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب ، وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى . قال : يارب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى . وروى فى الماء قوله : يا رسول الله إن أمى توفيت ولم توص فينفعها أن أتصدق عنها ؟ قال : نعم ، وعليك بالماء . وروى : يأ رسول الله ، أى الصدقة أفضل ؟ قال : سقى الماء . وفى حديث : سبع تجرى للعبد بعد موته وهو فى قبره ، من علم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته . وفى رواية: أو غرس نخلاً أو بنى بيتاً لابن السبيل .

واعلموا أن من الكبائر سؤال الغنى ، وكسب الصدقة طمعاً وتكثراً . أخرج الطبرانى : من سأل من غير فقر فكأنما يأكل الجمر ، وروى الإمام أحمد : من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته فى وجهه خموش وخدوش . وروى : من فتح على نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت به أو عيال لا يطيقهم فتح الله عليه باب فاقة من حيث لا يحتسب ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن الكبائر الإلحاح فى السؤال المؤذى للمسئول . أخرج البزار : لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت ، إن الله تبارك وتعالى يحب الغنى الحليم المتعفف ، ويبغض البذى الفاجر السائل الملح . وروى : إن أحدكم ليخرج من عندى لحاجته متأبطها - أى جاعلها تحت إبطه - وما هى إلا النار. فقال: يا رسول الله لم تعطيهم ؟ قال : يأبون إلا أن يسألونى ويأبى الله عز وجل لى البخل . وأما ما كان من غير مسألة فإنما ذلك رزق يرزقكه الله تعالى .

وروى : من آتاه الله شيئاً من هذا المال من غير أن يسأله فليقبله فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه . لكن صرح الفقهاء بأن من أعطى شيئاً على ظن علمه أو صلاحه مثلاً وهو ليس كذلك يحرم عليه أخذه . ومن الكبائر التطفل وهو الدخول على طعام الغير ليأكل منه من غير إذنه ولا رضاء ، حتى قال ابن حجر فى الزواجر أنه لا تقبل شهادة الطفيلى ، وبه قال الشافعى رحمه الله تعالى ، لما روى مرفوعاً : من أتى طعاماً لم يدع إليه دخل سارقاً وخرج مغيراً ؛ ولأنه يأكل حراماً ويفعل ما فيه دناءة ، وهذا إذا تكرر منه وإلا فتقبل . قال : ولذا ورد أن شر الطعام طعام الوليمة، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه موقوفاً عليه : شر الطعام طعام الوليمة تدعى إليه الأغنياء وتترك المساكين ، ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله . وفى رواية لمسلم : إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو نحوه ، قال : والحاصل عندنا أن الإجابة لوليمة العرس واجبة بشروطها المقررة فى محلها ، ولسائر الولائم وغيرها مستحبة ا هـ . ومن الكبائر أيضاً منع الإنسان لقريبه أو مولاه مما سأله فيه لاضطراره إليه مع قدرة المانع عليه وعدم عذر له فى المنع ، فقد أخرج الطبرانى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من ذى رحم يأتى ذو رحمه إليه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج الله عز وجل من جهنم حية يقال لها شجاع يتلمظ فتطوق به . وروى : من أراد أن يمد فى عمره ويبسط فى رزقه فليصل رحمه . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : الله الله فيما ملكت أيمانكم ولا تعذبوا خلق الله إن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم . وستأتى تتمة لهذه الأبحاث فى الدروس الآتية إن شاء الله تعالى .

ومن الكبائر أن يسأل السائل غير الجنة وأن يمنع المسئول سائله بوجه الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام : ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سئل بوجه الله تعالى ثم منع سائله ما لم يسأل هجراً ، أى قبيحاً . وروى الترمذى : ألا أخبركم بشر الناس ، رجل يُسأل بالله ولا يعطى . والنسائى وغيره : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سأل بوجه الله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه . وفيه رواية زيادة قصة الخضر ، وهى : ألا أحدثكم عن الخضر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : بينما هو يمشى ذات يوم فى سوق بنى إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال : تصدق

علي بارك الله تعالى فيك ، فقال الخضر : آمنت بالله ، ما شاء الله من أمر يكون ، ما عندى شيء أعطيكه . فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت على فإنى نظرت السماحة فى وجهك ورجوت البركة عندك . فقال الخضر : آمنت بالله ما عندى شيء أعطيكه إلا أن تأخذنى فتبيعنى ، فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ قال: نعم ، أقول : لقد سألتنى بأمر عظيم أما إنى لا أجيبك بوجه ربى . يعنى ، قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشترى زماناً لا يستعمله فى شيء فقال : إنما اشتريتنى التماس خير عندى فأوصنى بعمل ، قال : أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف ، قال : ليس يشق على ، قال : قم فانقل هذه الحجارة ، وكان لا ينقلها دون ست نفر فى يوم ، فخرج الرجل لبعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة فى ساعة . قال : أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه ، ثم عرض للرجل سفر فقال : إنى أحسبك أميناً فاخلفنى فى أهلى خلافة حسنة . قال : أوصنى بعمل ، قال : إنى أكره أن أشق عليك ، قال : ليس يشق على ، قال : فاضرب من اللبن لبيتى حتى أقدم عليك ، فمضى الرجل لسفره ، قال : فرجع الرجل وقد شيد بناءه ، قال : أسألك بوجه الله تعالى ما سببك ، وما أمرك ؟ قال : سألتنى بوجه الله ووجه الله أوقعنى فى هذه العبودية ، فقال الخضر ؟ سأحدثك من أنا ، أنا الخضر الذى سمعت به ، سألنى مسكين صدقة فلم يكن عندى شيء أعطيه ، فسألنى بوجه الله عز وجل فأمكنته من رقبتى فباعنى ، وأخبرك أنه من سئل بوجه الله تعالى فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلده لا لحم له يتقعقع ، فقال الرجل : آمنت بالله ، شققت عليك يا نبى الله ، لم أعلم ، قال : لا بأس ، أحسنت وأنفقت ، فقال الرجل : بأبى أنت وأمى احكم فى مالى وأهلى ما شئت ، أو اختر فأخلى سبيلك ، قال : أحب أن تخلى سبيلى فأعبد ربى ، فخلى سبيله ، فقال : الحمد لله الذى أوقعنى فى العبودية ثم نجانى منها . ا هـ .

فعليكم عباد الله بالتجنب عن الشبهات والحرام ، وأكل الحلال ، والتصدق به على الأهل والعيال ، ولا سيما الأقارب والأرامل وأبناء السبيل والأيتام ، فقد قال عز من قائل : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ فيا عباد الله اطلبوا الحلال واحذروا من الشبهات ، واقنعوا باليسير فما يحتمل الصافى الشهوات ، وليس الطيب ما طاب طعمه ، بل ما صفا من الآفات ، وبذلك أمر الأنبياء لاتباع اللذات

﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ الدنيا دار تكليف لا منزل راحات ، **اغتنموا** زمانكم وجزئوا الأوقات ، واحذروا لذيذ مطاعمها فعمومها سمومات ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ كانوا يقنعون من الدنيا بلقيمات ، ويتناولون بين الليل والنهار ثمرات ، غرسوا أشجار الصبر برجون الثمرات ، **فما مضت أيام إلا وسنبل** النبات ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ ما ضرهم ما مضى من الملمات ، لقد عاشوا بالذكر بعد الممات ، وصلوا بعد الرحيل إلى الجنات ، فتلقتهم براحات الراحات حور مقصورات ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ كان أويس يتلقط من المزايل خريقات، وربما أعد لإفطاره حشفات ، فيأكلها ثم يرد الفرات ، ما أطيبها إذا سلمت من الزلات ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ ويحك إن اللذات سبب هلاك الذات ، كم تعزم على فعل الطاعات ، ثم تتغير فى ساعة لا فى ساعات ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ أين المجتهد فى كسبه ، أين الخائف من ربه ، إن آكل الربا قد آذن بحربه ، ألا إنه من أدخل الحرام على قلبه مات ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ تأتى بقلب قد أظلم ، فتحدث بالنصح ولا تفهم ، وتقول دلونى على طريق ابن أدهم ، ألا إن العمى مانع والظلم ظلمات .

وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا خيراً من ماضيه ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبني معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ، واغفر لنا ولكافة المسلمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين .

* * *

المجلس الحادى عشر
فى الحج من حديث جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الملك العظيم الجليل ، المنزه عن النظير والعديل ، المنعم بقبول القليل، المكرم بإعطاء الجزيل ، تقدس عما يقول أهل التعطيل ، وتنزه عما يعتقد أهل

التمثيل ، نصب للعقل على وجوده أعظم دليل ، وهدى إلى جوده أبين سبيل، وجعل للحسن حظاً إلى ميله يميل ، فأمر ببناء بيت وجل عن السكنى الجليل ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ ثم حمى حماه لما قصده أصحاب الفيل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل .

أحمده كلما نطق بحمده وقيل ، وأصلى وأسلم على رسوله محمد النبى النبيل الجليل ، وعلى أبى بكر الذى لا يبغضه إلا ثقيل ، وعلى عمر وفضله طويل ، وعلى عثمان وكم له من فعل جميل ، وعلى على من كسر الأصنام وقمع الأباطيل، وعلى بقية الآل والصحابة الوارثين التنزيل .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج فإنه قال فى جامعه الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه إلى فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . . الحديث . .

فنقول : قد تقدم الكلام على الإسلام والشهادتين والصلاة والزكاة والصوم فى الدروس السالفة ، ولنذكر الآن إن شاء الله تعالى ما يتعلق بالحج وما بعده .

اعلم أن الحج لغة هو القصد . وشرعاً هو قصد الكعبة المكرمة لأجل النسك والطواف بها والسعى بين الصفا والمروة مع الوقوف بعرفة فى زمن مخصوص ، وهو من أعظم أركان الإسلام وكفارة للآثام . فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقول : من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . وعن عمرو بن عنبسة رضى الله تعالى عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت . قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : الهجرة . قال : وما الهجرة ؟ قال أن تهجر السوء . قال : فأى

الهجرة أفضل ؟ قال : الجهاد . قال : وما الجهاد ؟ قال : أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم . قال : فأي الجهاد أفضل ؟ قال : من عقر جواده وأهريق دمه . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما، حجة مبرورة أو عمرة مبرورة . رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقى وغيرهم ، والحج المبرور ، قيل : هو الذى لا يقع فيه معصية ، وقيل : هو المقبول، ومن علامات قبوله أنه إذا رجع إلى وطنه الحاج يكون حاله خيراً من الأول، وقيل : هو الذى لا رياء فيه ، وقيل : هو الذى لا تعقبه معصية ، وقيل : هو الذى لا ترتكب فيه المعاصى ، ولا يكون فيه فلس من حرام . وما أحسن قول القائل :

ومن كان بالمال الحرام حجيجه فعـن حجـه والله ما كان أغناه

إذا هـو لبى الله كـان جوابه من الله لا لبيك حـج رددناه

قلت : ولعل من علامات الحج غير المبرور أن يحج قاصداً أن يدعى بحاج فلان، حتى أنه إذا نودى باسمه فقط يغضب ويضجر ويقطب وجهه وتكدر ، ففعله هذا يدلك على عدم إخلاصه فى الحج ، وعلى ريائه والعياذ بالله تعالى ، فى العج والثج . وقد جاء من حديث جابر مرفوعاً : إن بر الحج إطعام الطعام وطيب الكلام، وعند بعضهم وإفشاء السلام ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة . رواه البخارى ، وعن أبى موسى رضى الله تعالى عنه رفعه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: الحاج يشفع فى أربعمائة من أهل بيته ، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ما ترفع إبل الحاج رجلاً ولا تضع يداً إلا كتب الله له بها حسنة أو محا عنه سيئة أو رفعه بها درجة . وفى رواية : حتى إذا انتهى إلى البيت فطاف وطاف بين الصفا والمروة ثم حلق أو قصر إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدت أمه .

وقد مرض ابن عباس رضى الله تعالى عنه فدعا ولده فجمعهم فقال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من حج من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة كتب الله تعالى له بكل خطوة سبعمائة حسنة كل حسنة مثل حسنات الحرم، قيل له : وما حسنات الحرم ؟ قال : بكل حسنة مائة ألف حسنة . وعن أبى هريرة

رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج . وعنه : من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازياً فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة . وقال عليه الصلاة والسلام : من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة . وروى عن على كرم الله تعالى وجهه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً . وذلك لأن الله تعالى يقول : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ وفيه ضعف ، نعم صح عن عمر رضى الله تعالى عنه : لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فينظروا كل من له نفقة ولم يحج فليضرب عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين . وقال عليه الصلاة والسلام : تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة جزاء إلا الجنة . وورد فى بعض الروايات أن الصلاة الواحدة فى مسجد مكة بثلثمائة ألف ألف صلاة فى غيرها ، وأخرج الطبرانى أن الله عز وجل ينزل على هذا المسجد فى كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ستين للطائفين وأربعين للمصلين وعشرين للناظرين . وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف . وقالت عائشة : يا رسول الله ، هل على النساء من جهاد ؟ قال : نعم عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة .

وليعلم أن المرأة لا يجب عليها الحج إلا إذا ملكت الزاد والراحلة ووجدت معها محرماً أو زوجاً ؛ لأنه لا يباح لها السفر مسيرة ثلاثة أيام بلا ذلك ، وعبدها ليس بمحرم ؛ لأن تحريم نكاحها عليه ليس على التأبيد ، فإذا وجدت الشروط لها أن تحج بلا إذن الزوج فليحفظ .

ولنذكر بعض المسائل التى اتفق العلماء عليها فى بحث الحج ، وبعضاً من المسائل التى اختلف فيها على وجه الاقتصار ، قال فى الميزان : أجمع العلماء على أن الحج أحد أركان الإسلام ، وأنه فرض واجب على كل مسلم حر بالغ عاقل مستطيع فى العمر مرة واحدة . وأجمعوا على أنه لا يجب على الصبى حج ، وأن حجه قبل البلوغ لا يسقط عنه فريضة الحج ، واتفقوا على استحباب الحج لمن لم يجد زاداً ولا

راحلة ولكنه يقدر على المشى ، وعلى صنعة يكتسب بها ما يكفيه للنفقة ، وعلى أنه لا يلزم بيع المسكن للحج ، وعلى جواز النيابة فى حج الفرض عن الميت ، واختلفوا فى العمرة ، فقال أبو حنيفة ومالك : إن العمرة سنة لا فريضة . وقال أحمد والشافعى فى أرجح قوليه : إنها فريضة كالحج ، وقال الأئمة الثلاثة ما عدا مالكاً : إنه يجوز فعل العمرة فى كل وقت مطلقاً من غير حصر ، يعنى فى العدد ، بلا كراهة . وقال الإمام مالك : يكره أن يعتمر فى السنة مرتين ، والعمرة هى إحرام وطواف وسعى بين الصفا والمروة وحلق ، ثم يتحلل ، وليس فيه وقوف فى عرفات بخلاف الحج فإن فيه الوقوف فى اليوم التاسع من ذى الحجة ؛ لأن الحج عرفات . واختلفوا فيمن مات بعد التمكن من الحج ، فقال الشافعى وأحمد : لا يسقط عنه الحج بل يجب الحج عنه من رأس ماله سواء أوصى به م ألم يوص به كالدين . وقال أبو حنيفة ومالك : يسقط عنه الحج بالموت ولا يلزم ورثته أن يحجوا عنه إلا أن يوصى فيحجوا عنه من ثلثه ، واختلفوا فى موضع الحج عنه ، فقال أبوحنيفة وأحمد : يحج عن الميت من دويرة أهله ، وقال مالك : من حيث أوصى به ، والراجح من مذهب الشافعى أنه من الميقات ، واختلفوا فى صحة حج الصبى، فقال الأئمة الثلاثة بصحة حج الصبى بإذن وليه إذا كان يعقل ويميز ، ومن لم يميز يحرم عنه وليه . وقال الإمام أبو حنيفة لا يصح إحرام الصبى بالحج . واختلفوا فى حج من يحتاج إلى مسألة الناس فقال الأئمة الثلاثة بكراهته ، وقال مالك : إنه إن كان له عادة بالسؤال وجب عليه الحج ، واختلفوا فى حج من استؤجر للخدمة فى الطريق ، فقال الأئمة الثلاثة : إنه يصح حجه ، وقال الإمام أحمد لا يصح حجه ، واختلفوا فيما لو غصب دابة فحج عليها أو مالا فحج به ، فقال الأئمة الثلاثة : يصح حجه وإن كان عاصياً بذلك . وقال أحمد : لا يصح حجه ولا يجزئه .

واختلفوا فى وجوب الحج على من وجبت عليه خفارة [1] فى الطريق ، فقال الأئمة الثلاثة : لا يجب الحج على من وجبت عليه أجرة خفارة . وقال مالك : يجب عليه الحج إن كانت يسيرة وأمن العدو ، واختلفوا فى العاجز ، فقال الأئمة الثلاثة : إن العاجز عن الحج بنفسه لمرض أو زمانة لا يرجى برؤه منها أو لهرم ووجد أجرة من يحج عنه لزمه الحج فإن لم يفعل استقر الفرض فى ذمته . وقال أحمد :

(١) التى تسمى الآن خلوة ا هـ منه .

لا يجب عليه الحج ، وإنما يجب الحج على من كان مستطيعاً بنفسه خاصة . واختلفوا فى الأعمى ، فقالت الأئمة الثلاثة : إن الأعمى إذا وجد من يقوده لزمه الحج بنفسه ولا يجوز له الاستنابة . وقال أبو حنيفة : يلزمه الحج فى ماله فيستنيب من يحج عنه ، واختلفوا فيمن قصد دخول مكة زادها الله تعالى شرفاً فقال الشافعى: إن من قصد دخول مكة لا لنسك يستحب له أن يحرم بحج أو عمرة . وقال أبو حنيفة : لا يجوز لمن هو وراء الميقات أن يجاوزه إلا محرماً ، وأما من هو دونه فيجوز له دخوله بغير إحرام ، وقال ابن عباس لا يدخل أحد الحرم إلا محرماً. وقال مالك والشافعى فى القديم : لا تجوز مجاوزة الميقات بغير إحرام ولا دخول مكة بغير إحرام ، إلا أن يتكرر دخوله كحطاب وصياد ، واختلفوا فى المرأة إذا حاضت قبل طواف الإفاضة لم تنفر حتى تطهر وتطوف ، ولا يلزم الجمال حبس الجمل لها ، بل ينفر مع الناس ويركب غيرها . وقال مالك : يلزمه حبس الجمل أكثر من مدة الحيض وزيادة ثلاثة أيام . وقال أبو حنيفة : إن الطواف لا يشترط فيه طهارة فتطوف وتدخل مع الحاج ، وقد أفتى البارزى النساء اللاتى حضن فى الحج بذلك ، ونقله عن جماعة من أئمة الشافعية ا هـ .

قلت : وقد سبق ذكر هذا القول عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى ، وأنها تفدى ببدنة ، وإلى هذا القول ذهب من الحنابلة شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية عليه الرحمة . وبقيت من مسائل الحج خلافيات كثيرة من أرادها فليرجع إلى الكتب الفقهية .

فوائد جليلة :

الفائدة الأولى : مواقيت الحج زمانية ومكانية . فالزمانية هى التى يحرم فيها وهى شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، والمواقيت المكانية لأهل المدينة المنورة ذو الحليفة ، ولأهل الشام الجحفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ، ولأهل اليمن يلملم ، ولأهل العراق ذات عرق ، وكذلك هى لمن أتى عليها من غير أهلها . والإحرام عبارة عن عدم لبس المخيط وترك الجماع والصيد وغير ذلك مما هو مفصل فى كتب المناسك ، وموقت العمرة جميع السنة كما تقدم ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: عمرة فى رمضان تعدل حجة معى .

الفائدة الثانية : ورد فى ماء زمزم أحاديث شريفة ، منها قوله عليه الصلاة والسلام: « ماء زمزم لما شرب له إن شربته تستشفى به شفاك الله عز وجل وإن شربته ليشبعك أشبعك الله وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله تعالى » ومنها : آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من ماء زمزم ، وكان ابن عباس يقول إذا شربه : اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كل داء . وكان ابن المبارك يقول: اللهم إن نبيك صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ماء زمزم لما شرب له وهأنذا قد شربته لعطش يوم القيامة ، ثم يشرب . وروى أن بين الركن والمقام ملتزماً ما يدعو به صاحب عاهة إلا برئ . وأن جبريل لما وكز زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء ، رحم الله هاجر ، لو تركتها لكانت عيناً معيناً ، وأن ماءها لما شرب له من أمور الدنيا والآخرة . وجاء فى حديث صحيح أن الحجر الأسود من الجنة ، وأنه يرفع ، بينما هم يطوفون به إذ أصبحوا وقد فقدوه ، وأنه يبعث يوم القيامة وله عينان ولسان يشهد على من استلمه . وفى رواية : وقبّله من أهل الدنيا ، وأنه شافع مشفع وأنه كان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك ، ولولا ذلك ما مسه ذو عاهة إلا شفى ، وأنه يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، أى يمنه ، وبركته ينزلها عليهم إذا استلموه ، وأنه والركن اليمانى يحطان الخطايا والذنوب .

الفائدة الثالثة : كره الإمام الأعظم المجاورة بمكة زادها الله تعالى شرفاً لتضاعف السيئات فيها كالحسنات إذ لا يقدر المجاور على حفظ نفسه ، خلافاً للصاحبين ، وبالاستحباب قالت الأئمة الثلاثة ، قال حجة الإسلام الغزالى وبقوله قال الخائفون المحتاطون : ولا يظن أن كراهة القيام تنافى فضل البقعة . لأن هذه الكراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع المكرم .

خاتمة - رزقنا الله وإياكم حسنها - : صرح علماء المذاهب كافة أن الإنسان إذا قضي حجه ينبغى له أن يزور النبى المصطفى والحبيب المجتبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويصلى فى مسجده الشريف ؛ لأنهم قالوا بسنية شد الرحال إلى المساجد الثلاثة ، وهى المسجد الحرام والمسجد الأقصى - وهو البيت المقدس - ومسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وثبت أن الصلاة تتضاعف فى ذلك كما سيأتى ، وصرحوا بأن من أتى المسجد النبوى على ساكنه أفضل الصلاة والسلام سنت له

زيارة المصطفى ، أرواحنا له الفداء . حتى قال بعضهم بوجوبها ، ويأتى الزائر بعد صلاة الركعتين إلى روضته المطهرة مقابلاً لوجهه الشريف خاضعاً متذللاً متأدباً متشوقاً كما يأتى إليه فى حياته ، ويصلى ويسلم عليه وعلى صاحبيه وضجيعيه المحترمين ، ويدعو بالأدعية المشروعة من غير تقبيل للجدار المكرم كما نص عليه النووى فى مناسكه ، لأنه عليه الصلاة والسلام حى فى قبره ، بل ذهب كثير من العلماء إلى سنية جواز شد الرحل إلى الزيارة بخصوصها ، رزقنا الله تعالى العود إليها لقوله عليه الصلاة والسلام : من جاءنى زائراً لا يعجله حاجة إلا زيارتى كان حقاً على أن أكون له شفيعاً يوم القيامة . وقوله : من حج ولم يزرنى فقد جفانى ، وقوله ما من أحد يسلم على إلا سلمت عليه ، ولا يصلى علىَّ أحد إلا صلى الله تعالى وملائكته عليه ، وقد صرحت بسنية زيارته عليه الصلاة والسلام علماء الحنابلة قاطبة ، ومنهم شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم الهمام ، وغيرهما من الأعلام ، إلا أن الزائر عندهم ينوى المسجد النبوى ثم يقصد الزيارة المسنونة المشروعة بأدعيتها المأثورة ، وهى لديهم من أعظم السنن المرغوبة ، والطاعات المطلوبة ، وقد استوفينا الكلام فى هذا البحث فى كتابنا « جلاء العينين » فارجع إليه لينقشع الغين من البين(١) .

واعلم أنه قد ورد فى المدينة المنورة أحاديث كثيرة ، فمنها ما رواه بلال بن الحرث: رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان، وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان . وفي الجامع الصغير عن أبى الدرداء أنه عليه أفضل الصلاة والسلام قال : الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة والصلاة فى مسجدى بألف صلاة . والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة . وفى رواية أخرى : والصلاة بمسجدى عشرة آلاف صلاة والصلاة فى مسجد الرباطات - وهى ثغور العدو - ألف صلاة . ومنها ما أخرجه الشيخان عن سعد رضى الله تعالى عنه

---

(١) وفى شرح القسطلانى لصحيح البخارى عند قوله عليه الصلاة والسلام : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى . أى لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه ، ثم قال فى آخر باب فضل ما بين القبر والمنبر ما نصه : واختلف فى شد الرحال إلى غيرها كالذهاب إلى زيارة الصالحين أحياء وأمواتا ، وإلى المواضع الفاضلة للصلاة فيها والتبرك بها ، فقال أبو محمد الجوينى : يحرم عملاً بظاهر الحديث ، واختاره القاضى حسين ، وقال به القاضى عياض وطائفة ، والصحيح عند جمع من الشافعية الجواز ا هـ باقتصار ا هـ منه .

قال : سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء . زاد مسلم : ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله تعالى فى النار ذوب الرصاص ، أو ذوب الملح فى الماء . وروى الإمام أحمد وغيره ، من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبى . ومنها ما رواه الطبرانى : اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، أى فرض ونافلة ، قال ابن حجر : صرح ابن القيم بأن استحلال حرمة المدينة كبيرة ، وهى كمكة ، لخبر مسلم أن أنساً قيل له: أحرّم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ؟ فقال : بلى ، حرام ، لا يختلى ، أى لا يقطع ، خلاها ، أى كلؤها الرطب ، من فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وهذه مسألة خلافية بين المذاهب ، ومنها : لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة ، ولا يدعها أحد رغبة إلا أبدل الله فيها من هو خير منه . ومنها : ليأتين على أهل المدينة زمان ينطلق الناس منها إلى الأرياف يلتمسون الرخاء فيجدون الرخاء ، ثم يأتون فيحتملون أهلهم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . ومنها : من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت فمن مات بالمدينة كنت له شفيعاً وشهيداً ، الوباء والدجال لا يدخلانها . ومنها : اللهم بارك لنا فى صاعنا وفى مدنا ، وبارك لنا فى شامنا ويمننا، قيل : وعراقنا . قال : إن بها قرن الشيطان ، قال فى الزواجر : أى أتباعه ، أو قوة ملكه وتصريفه ، وتهييج الفتن . وفى صحيح البخارى فى باب الزلازل عن ابن عمر أنه قال : اللهم بارك لنا فى شامنا وفى يمننا . قال : قالوا : وفى نجدنا . قال: اللهم بارك لنا فى شامنا وفى يمننا . قال : قالوا : وفى نجدنا ، قال : قال : هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان . قال القسطلانى : والمراد بشامنا ويمننا الإقليمان المعروفان ، أو البلاد التى عن يميننا وشمالنا أعم منها ، وإنما ترك الدعاء لأهل المشرق لأنه علم العاقبة ، وأن المقدر سبق بوقوع الفتن فيها ، وفى المشارق عن مسلم . غلظ القلوب فى أهل المشرق والإيمان فى أهل الحجاز .

قلت : ولأن من أرض العراق أرض بابل ، وهى كما قال على كرم الله تعالى وجهه : نهانى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة ، كيف لا وقد وقعت فيها الوقائع التى أبكت المسلمين ، وفلت أعمدة الدين، وخرج كثير من المبتدعة منها ، ورووا أحاديث الفتن عنها ، وهذا لا ينافى

بزوغ العلماء الأجلة أيضاً فيها ، فكم وكم بزغ من برجها إمام كامل ، ومجتهد فاضل ، وورع زاهد ، وولى مجاهد ، ومجدد واصل ، وقطب كامل ، وعالم تشد إليه من الأقطار الرواحل ، ومحدث ومفسر وفقيه ، وعلامة مدقق نبيه ، وطال ما انتشرت منها العلوم الإسلامية ، وانتشرت من ساكنيها الأحكام السنية ، ونسأله تعالى أن يدفع عنهم كل ضير ، ويجزيهم عنا وعن المسلمين بكل خير ، آمين . فعليكم عباد الله بالحج المبرور ، وزيارة النبى الشافع المشفع يوم النشور .

فيا أيها الناسى ليوم رحيلـــه أراك عن الموت المفرق لاهيـا

ألا تعتبر بالظاعنين إلى البلـى وتركهم الدنيا جميعاً كما هيـا

ولم يخرجوا إلا بقطن وخرقة وما عمروًا من منزل ظل خـاليا

وأنت غدا أو بعـده فى جوارهـم وحيداً فريداً فى المقابر ثـاويـاً

ويا من عليه منازل الموت تدور ، وهو مستأنس بالمنازل والدور ، لا بد أن تخرج من القصور ، على التوانى والقصور ، لا بد من الرحيل إلى بلاد القبور ، على الغفلات وعلى القتور ، يا مظلم القلب وما للقلب نور ، الباطن خراب والظاهر معمور ، ستحاسب على الأيام والشهور ، وترى ما فعلته من فجور فى النهار والديجور ، وستحزن بعد السرور ، على تلك الشرور ، إذا وفيت الأجور ، ونجا المخلصون دون أهل الزور ، تصلى ولكن بلا حضور ، وتصوم والصوم بالغيبة مغمور ، لو أردت الولدان والحور ، لسألتهم وقت السحور ، فكم بارزت بالقبيح والكريم الغفور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . اللهم يا كريم يا غفور ، آنسنا برحمتك فى ظلمة القبور ، واجعلنا يوم القيامة ممن يسعى بين أيديهم وبأيمانهم النور ، وأسكنا بفضلك وإحسانك الغرف والقصور ، فى جوار هذا الشفيع المشفع يوم العرض والنشور .

* * *

المجلس الثانى عشر

فى الإيمان بالملائكة من حديث جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله مستحق الحمد وأهله ، وخالق الفرع وأصله ، منشىء الكائنات بفعله ،

ومبين الهدى بإيضاح سبله ، فضل نبينا بالقرآن . فزاد على الرسل من قبله ، وتحدى به المكذبين فخرس كل ذى جهل عن جهله ، ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ أحمده على صعب القدر وسهله ، وأشكره على قليل عطائه وجزله ، وأقر بوحدانيته متفيئاً فى حمى الصدق وظله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى ختم به الأنبياء فبت كل حبل غير حبله ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر الصديق مزعج المرتدين بسيف عزمه قبل سله ، وعلى عمر الذى كان الشيطان يفرق من صوت نعله ، وعلى عثمان الصابر على جراحه وقتله ، وعلى علىٍّ المجاهد فى سبيل الله ومن أجله ، وعلى سائر آله وأصحابه ، الذين جعل كل منهم طاعة الله أعظم شغله .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج عليه الرحمة ، فإنه قال فى جامعه الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ، فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . قال : صدقت . . الحديث .

فنقول ، وبالله التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق : قوله عليه الصلاة والسلام أن تؤمن بالله ، أى تصدق قلباً ولساناً بوجوده سبحانه وتعالى ، وأنه قديم أزلى أبدى سميع بصير متكلم لا شبه له ولا نظير ، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه وهو اللطيف الخبير ، وأن تؤمن بجميع صفاته وأنها لا تشبه الصفات ، كما أن ذاته العلية لا تشبه الذوات ، فكل ما تصورته فى ذهنك أو توهمته فى وهمك فالله تعالى بخلافه؛ لأنك مخلوق وكل ما تصورته أو توهمته فهو مثلك مخلوق ، وقوله عليه الصلاة والسلام : وملائكته ، أى تصدق بوجود ملائكته ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم

ويفعلون ما يؤمرون ، وهم أجساد نورانية ، مبرأة عن الكدورات الجسمانية ، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة لا يحتاجون إلى طعام ولا شراب ، وهم عباد الله المكرمون ، وفيهم سفراؤه عز وجل بينه وبين خلقه ، صادقون فيما يخبرون به عنه . ومنهم الكرام الكاتبون والمأمورون فى الأرض والسماء ، وهم بالغون من الكثرة ما لا يعلم علمها إلا هو .

قال الوالد عليه الرحمة فى تفسيره : اختلف الناس فى حقيقة الملائكة بعد اتفاقهم على أنها موجودة ، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام نورانية ، وقيل هوائية قادرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى. وقالت النصارى: إنها الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها الصافية الخيرة، والخبيثة عندهم شياطين. وقالت عبدة الأوثان: إنها هذه الكواكب السعد منها ملائكة الرحمة ، والنحس ملائكة العذاب.

وهى عندنا منقسمة إلى قسمين ، قسم شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره ، يسبحون ولا يفترون ، وهم العلويون والمقربون ، وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء ، وجرى به القلم ، لا يعصون الله ما أمرهم ، وهم المدبرات أمراً ، فمنهم سماوية ، ومنهم أرضية ، ولا يعلم عددهم إلا الله ، وفى الخبر : أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع ، وهم مختلفون فى الهيئات متفاوتون فى العظم ، لا يراهم على ما هم عليه إلا أرباب النفوس القدسية ، وقد يظهرون بأبدان يشترك فى رؤيتها الخاص والعام ، وهم على ما هم عليه حتى قيل إن جبريل عليه السلام فى وقت ظهوره فى صورة دحية الكلبى بين يدى المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفارق سدرة المنتهى ، ومثله يقع للكمل من الأولياء . وهذا ما وراء طور العقل وأنا به من المؤمنين ، ا هـ .

وقد تبين من هذا الحديث ونحوه من الآيات وجوب الإيمان بهم وأن منكرهم كافر، وقال عز وجل : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾ نقل الجلال السيوطى عليه الرحمة فى كتابه « الحبائك » عن شعب الإيمان للبيهقى أن الإيمان بالملائكة ينتظم فى معان . أحدها التصديق بوجودهم ، والثانى : إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه

كالإنس والجن ، مأمورون مكلفون لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله تعالى عليه ، والموت عليهم جائز ، ولكن الله تعالى جعل لهم أمداً بعيداً فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدى وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى ، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل . والثالث : الاعتراف بأن منهم رسلاً يرسلهم إلى من يشاء من البشر ، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض ، ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون ، ومنهم خزنة الجنة ، ومنهم خزنة النار ، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب . فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره. ورويناه عن ابن عمر عن عمر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين سئل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.ا هـ.

وقد نظم بعض ما يتعلق بهم الإمام أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى فى أرجوزته المسماة بالجواهر المضيئة ، فقال :

القول بالملائك الكرام ... فريضة لصحة الإسلام
وهم عباد الخالق القهار ... قد خلقوا من خالص الأنوار
حياتهم بالذكر والتسبيح ... وما لهم فى الذكر من تبريح
قاموا صفوفاً للعزيز الماجد ... يدعونه على مقام واحد
قد طهروا عن شهوة العصيان ... ومن شرور النفس والشيطان
وما لهم نسل ولا ولاده ... ولا لهم شغل سوى العباده
فمنهمُ كتاب أعمال الورى ... ومنهمُ حفاظ سكان الثرى
ومنهمُ موكل بالرزق ... يوصل أو يزوى بأمر الحق
فوصف حال القوم بالتفصيل ... فى صحف الآثار والتنزيل
ونفيهم بالجحد والإنكار ... كفر صريح موجب للنار
ومن جرى لسانه بالطعن ... والنقص فيهم فهو أهل اللعن

ثم قال :

كذا لجنس الإنس فضل بادى ... بالعلم والتكليف والجهاد
على كرام الملأ العباد ... من ساكنى السبع العلا الشداد
فالرسل الكرام من نسل البشر ... أفضل من رسل أولئك النفر

إذ موعـــد اللقاء والنعيم للإنس دون الملك الكريم

وفى شرح النسفية : رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ، ورسل الملائكة أفضل من عامة البشر ، أما تفضيل رسل الملائكة على عامة البشر فبالإجماع بل بالضرورة، وأما تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة وعامة البشر على عامة الملائكة فلوجوه ، منها مسألة السجود لآدم ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ والملائكة من جملة العالم ، وذهبت المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة ، وتمسكوا بوجوه ، منها أن الأنبياء يتعلمون منهم بدليل قوله تعالى : ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾ والمعلم أفضل من المتعلم، ومنها تقديمهم فى الذكر كما فى هذا الحديث ، وقوله تعالى : ﴿ **كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ ومفصل أجوبة الطرفين فى الكتب الكلامية ، ولما كان الإيمان بهم واجباً فلنذكر لكم بعض الأحاديث الواردة ، وبيان بعض فرقهم وما يتعلق بالإيمان بهم ، لتزدادوا معرفة وإيماناً ، مستمداً من الكتاب المذكور ، ضوعفت لمؤلفه الأجور ، فقد أخرج مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن رومان أنه بلغه أن الملائكة خلقت من روح الله ، وأخرج البزار وأبو الشيخ وابن منده فى كتاب « الرد على الجهمية » عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : خلق الله تعالى الملائكة من نور ، وينفخ فى ذلك ثم يقول ليكن منكم ألف ألفان فإن من الملائكة لخلقا أصغر من الذباب ، وليس شىء أكثر من الملائكة . وروى أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما منها موضع أربع أصابع إلا وعليها ملك واضع جبهته ، وفى رواية : أو قائم ، ثم قرأ: وإنا لنحن الصافون . وأخرج الدينورى عن عبد الرحمن بن زيد قال: ليس من خلق الله شىء أكثر من الملائكة ليس من بنى آدم إلا ومعه ملكان سائق يسوقه وشاهد يشهد عليه ، فهذا ضعف بنى آدم ، ثم بعد ذلك السموات مكبوسات ، ومن فوق السموات بعد الذين حول العرش ، وأخرج أبو الشيخ أن فى الجنة لنهرا من دخله (١)

---

(١) ما من أحد يدخله ، فليراجع ا هـ منه .

فيخرج فينتفض إلا خلق الله من كل قطرة تقطر منه ملكاً . وأخرج أبو الشيخ عن الأوزاعى رضى الله تعالى عنه قال موسى عليه السلام : يا رب من معكم فى السماء؟ قال : ملائكتى . قال : وكم هم يا رب . قال : اثنا عشر سبطاً ، قال : وكم عدد كل سبط . قال : عدد التراب . وأخرج أيضاً .لجبريل فى كل يوم اغتماسة في الكوثر ، ثم ينتفض فكل قطرة يخلق منها ملك . وأخرج ابن أبى حاتم عن كعب رضى الله تعالى عنه قال : ما من موضع إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله تعالى ، وإن ملائكة السماء أكثر من عدد التراب ، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى خده مسيرة مائة عام . وعن عبد الله بن عمر: الملائكة عشرة أجزاء ، تسعة أجزاء الكروبيون ، وهم الذين يحملون العرش، وجزء وكلوا بخزانة كل شىء ، وإن البيت المعمور بحيال الكعبة لو سقط لسقط عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه . وفى الملائكة رؤساء أربعة، فعن ابن سابط قال : يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم . وأخرج البيهقى عن المطلب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: قلت لجبريل : مالى لا أرى إسرافيل يضحك ولم يأتنى أحد من الملائكة إلا رأيته يضحك ؟ قال جبريل : ما رأينا ذلك الملك ضاحكاً منذ خلقت النار . وفى رواية إذا سبح إسرافيل قطع على كل ملك فى السماء صلاته استماعاً له . وليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً منه ، وهو صاحب الصور .

وعن ابن عباس قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشره بذلك ، فأذن له فجاء إبراهيم فبشره فقال : الحمد لله ، ثم قال : يا ملك الموت أرنى كيف تقبض أنفاس الكفار ، قال : يا إبراهيم لا تطيق ذلك، قال: بلى. قال : فأعرض ، ثم نظر وإذا برجل أسود ينال رأسه السماء يخرج من فيه لهب النار ، ليس من شعرة فى جسده إلا فى صورة رجل يخرج من فيه ومسامعه لهب النار ، فغشى على إبراهيم ، ثم أفاق وقد تحول ملك الموت إلى الصورة الأولى ، فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك لكفاه ، فأرنى كيف تقبض أنفاس المؤمنين ، قال : أعرض ، فأعرض ، ثم التفت فإذا برجل شاب

أحسن الناس وجهاً وأطيب ريحاً فى ثياب بيض ، فقال : يا ملك الموت لو لم ير المؤمن عند موته من قرة العين والكرامة إلا صورتك لكان يكفيه . وأخرج ابن أبى الدنيا قال : سأل إبراهيم عزرائيل عليهما السلام ، إذا كانت نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، واتفق الزمان كيف تصنع ؟ قال : أدعو الأرواح بإذن الله تعالى فتكون بين أصبعى هاتين ، قال : ودحيت له الأرض فتركت مثل الطشت يتناول منها حيث شاء . وفى رواية : وجعل له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها منهم ، وفى رواية أخرى : وكل خطوة منه من المشرق إلى المغرب . وأخرج أبو الشيخ : إن لله ملكاً فى السماء يقال له الديك فإذا سبح فى السماء سبحت الديوك فى الأرض ، يقول : سبحان السبوح القدوس الرحمن الملك الديان الذى لا إله إلا هو ، فما قالها مكروب أو مريض عند ذلك إلا كشف الله همه .

وفى رواية : فيرون أن الديكة إنما تضرب بأجنحتها وتصرخ إذا سمعت ذلك .

وأخرج الترمذى والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ، ثم ينور له فيه ، فيقال له : نم . يقول : أرجع إلى أهلى فأخبرهم ، فيقولون : نم كنوم العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله ، حتى يبعثه الله عز وجل من مضجعه . فإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم ، لا أدرى ، فيقولون : قد علمنا أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك . وأخرج ابن أبى الدنيا عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن ابن آدم لفى غفلة عما خلق له ، إن الله عز وجل إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه ، اكتب أجله ، شقياً أم سعيداً ، ثم يرتفع ذلك الملك ، ثم يوكل الله تعالى به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ، فإذا حضره الموت ارتفع هذان الملكان ، وجاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فإذا أدخل قبره ورد الروح فى جسده ، وفى رواية : إنه يسمع قرع نعالكم ، أتاه منكر ونكير ،

أعينهما مثل قدور النحاس ، وأنيابهما مثل صياصي [1] البقر . وأصواتهما مثل الرعد ، فامتحناه ، أي سألاه عما كان يعبد ، ومن كان نبيه ، ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه ، واحد سائق وآخر شهيد ، ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، إن قدامكم لأمراً عظيماً ما تقدرونه ، فاستعينوا بالله العظيم .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال : كاتب الحسنات عن يمينه يكتب حسناته وكاتب السيئات عن يساره ، فإذا عمل حسنة كتب صاحب اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه حتى يسبح أو يستغفر . وفي رواية: فيمسك ست ساعاتٍ ، فإذا كان يوم الخميس كتب ما يجري به الخير والشر ، ويلقى ما سوى ذلك ، أي لأنه كان يكتب كل ما يتكلم به حتى إنه يكتب أكلت وشربت ونحوه ثم يلقى ما ليس فيه خير ولا شر ، ويثبت ما كان منه شراً أو خيراً ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ، وقوله سبحانه: ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ .

وأخرج الدينوري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: قال الله تعالى للملائكة : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها واحدة فإن عملها فاكتبوها عشراً ، وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها واحدة ، فقال رجل: يا أبا محمد الملكان يعلمان الغيب ؟ قال : لا يعلمان الغيب ولكن إذا هم العبد بحسنة فاح منه رائحة المسك ، فيعلمان أنه قد هم بالحسنة . وإذا هم بالسيئة فاح منه رائحة النتن فيعلمان أنه قد هم بالسيئة . وأخرج أيضاً عن ابن المبارك قال : بلغني أن ما من أحد من بني آدم إلا ومعه خمسة من الملائكة ، واحد عن يمينه . وواحد عن شماله، وواحد خلفه ، وواحد أمامه ، وواحد فوقه يدفع عنه ما ينزل من فوق أو من الهواء . وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ له معقبات ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدره خلوا عنه. وأخرج ابن جرير عن إبراهيم : يحفظونه من أمر الله قال : من الجن ، وفي رواية عن السدي : يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، ولا يصيبه شيء لم يكتب

---

(١) الصياصي على ما في القاموس جمع صيصة : شوكة الديك وقرن البقر والظباء والحصن وكل ما امتنع به ا هـ . منه .

عليه إذا غشى من ذلك شيئاً دفعاه عنه ، ألم تره يمر بالحائط فإذا جاز سقط فإذا جاء الكتاب خلوا بينه وبين ما كتب له ، وهم من أمر الله أمرهم أن يحفظوه .

وروى البيهقى أن لله عز وجل ملائكة فى الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الأشجار ، فإذا أصاب أحدكم شىء بأن أفلتت دابته أو احتاج إلى عون فليقل : يا عباد الله أعينونا رحمكم الله تعالى ، فإنه يعان إن شاء الله تعالى . وروى عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : سمعت أبى يقول : حججت خمس حجج منها اثنتان راكباً وثلاث ماشياً فضللت الطريق ، وكنت ماشياً فجعلت أقول : يا عباد الله دلونى على الطريق ، فلم أزل أقول ذلك حتى وقعت على الطريق . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن محمد بن كعب القرظى قال : قرأت فى التوراة أو قال فى صحف إبراهيم عليه السلام ، فوجدت فيها يقول الله عز وجل : يا ابن آدم ما أنصفتنى ، خلقتك ولم تكن شيئاً وجعلتك بشراً سويا خلقتك من سلالة من طين وجعلتك نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقت النطفة علقة فخلقت العلقة مضغة فخلقت المضغة عظاماً فكسوت العظام لحماً ثم أنشأتك خلقاً آخر ، يا ابن آدم فهل يقدر على ذلك غيرى ؟ ثم خففت ثقلك عن أمك لئلا تتأذى بك ، ثم أوحيت إلى الأمعاء أن اتسعى ، وإلى الجوارح أن تفرقى ، فاتسعت الأمعاء من بعد ضيقها ، وتفرقت الجوارح من بعد تشبيكها ، ثم أوحيت إلى الملك الموكل بالأرحام أن يخرجك من بطن أمك فاستخلصت على ريشة من جناحه فأطلعت عليها فإذا أنت خلق ضعيف ليس لك سن يقطع ولا ضرس يطحن فاستخلصت لك فى صدر أمك عرقاً يدر لبناً بارداً فى الصيف حاراً فى الشتاء ، واستخلصته لك من بين جلد ودم وعروق ، ثم قذفت لك فى قلب والدتك الرحمة وفى قلب أبيك التحنن ، فهما يكدان ويجهدان ويربيانك ويغذيانك ولا ينامان حتى ينوماك ، يا ابن آدم ، ما فعلت بك ذلك لشىء استأهلت به منى ، أو لحاجة استعنت بك على قضائها ، يا ابن آدم، فلما قطع سنك وطحن ضرسك أطعمتك فاكهة الصيف فى أوانها وفاكهة الشتاء فى أوانها ، فلما أن عرفت أنى ربك عصيتنى ، فالآن إذ عصيتنى فادعنى فإنى قريب مجيب ، فادعنى فإنى غفور رحيم . وأخرج أبو الشيخ بسند جيد عن ابن عباس قال : وكل بالجنين ملك إذا نامت الأم واضطجعت رفع رأسه ، لولا ذلك لغرق فى الدم .

قلت : إذا علمت ذلك ، وأردت السلوك بأحسن المسالك ، علمت أن ما تقوله النساء عند وضع الجنين مخالف لما شرع فى الكتاب المبين . وورد فى أدعية سيد المرسلين . عليه أفضل صلاة المصلين ، فينبغى ألا ينادين يا على يا عباس ، أو غيرهما من صلحاء الناس ، ولا يطلبوا تيسير المخاض والطلق ، إلا من فالق الصباح والفلق ، فإنه الخالق للجنين ، ومخرجه من الرحم المكين ، ولا ينبغى لصادق الإيمان ، أن يلتجئ فى تلك الحالة إلى أحد من الإنس والجان ، بل ينقطع فى تنفيس كربته ، إلى خالق مضغته ، ومبدئ نشأته ، والقادر بعد الفناء على إعادته، نعم ذكر الفقهاء لأجل تسهيل [1] الولادة كتابة بعض الآيات فمنها ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * وألقت ما فيها وتخلت * وأذنت لربها وحقت ﴾ أهيا شراهيا ا هـ. ورأيت فى بعض الكتب أن معناهما يا حى يا قيوم ، قالوا : وتكتب هذه على ورقة قرطاس وتشد بفخذ المرأة اليسرى فيعجل الوضع بإذنه تعالى ، وترى بعد العسر يسراً .

هذا ، ولنرجع إلى ما نحن بصدده من بيان وظائف بعض الملائكة وأصنافهم ، فقد أخرج الأوزاعى فى تاريخ مكة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل : هذه الجمار ترمى فى الجاهلية والإسلام كيف لا تكون هضاباً تسد الطريق ، فقال : إن الله عز وجل وكل بها ملكاً فما تقبل منه رفع ، وما لم يتقبل منه ترك ، وأخرج الحاكم فى تاريخه والشيرازى فى الألقاب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ملك موكل بالقرآن فمن قرأه من أعجمى أو عربى فلم يقومه قومه الملك ثم رفعه قواماً ، وأخرج الخطيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من صلى على عند قبرى سمعته ومن صلى على نائياً وكل الله بها ملكاً يبلغنى . وأخرج الطبرانى والبغوى عن أبى طلحة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أتانى جبريل ببشارة من ربى قال : إن الله بعثنى إليك أبشر أنه ليس أحد من أمتك يصلى عليك صلاة إلا صلى الله وملائكته عليه بها عشراً ، وأخرج ابن عساكر عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن لله ملائكة وهم الكروبيون من شحمة أذن أحدهم إلى ترقوته [2] مسيرة سبعمائة عام للطائر السريع الانحطاط .

---

(١) وفى المجلس السابع والعشرين رقيات أخر لتسهيل الولادة فراجعها ولا تغفل ا هـ منه .

(٢) الترقوة ولا تضم تاؤه : العظم بين ثغرة النحر والعاتق ، وجمعه التراقى والترائق ا هـ منه

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه قال: إن فى السماء الرابعة حظيرة يقال لها حظيرة القدس ، فيها ملائكة يقال لهم الروحانيون ، فإذا كان ليلة القدر استأذنوا ربهم فى النزول إلى الدنيا فيأذن لهم فلا يمرون على مسجدٍ يصلى فيه ولا يستقبلون أحداً فى طريق إلا دعوا له فأصابه منهم بركة . وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً ، وليعلم أن طوائف المكلفين أربعة : الملائكة وهم أكثر جميع المخلوقات عدداً والإنس والجن والشياطين ، فالجن خيارهم والشياطين شرارهم ، وبعض الفرق أنكرتهم وإنكارهم كفر . قال تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس** ﴾ وقال عليه السلام: « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . ما منكم أحد إلا وله شيطان ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن الله تعالى أعاننى عليه فأسلم » ويروى أن عيسى عليه السلام دعا ربه أن يريه موضع الشيطان من بنى آدم وكيفية وسوسته ، فأراه ذلك فإذا رأسه مثل رأس الحية واضع رأسه على قلبه فإذا ذكر الله تعالى خنس وأيس ، وإذا لم يذكره ولم يستعذ وضع رأسه على حبة قلبه ، وقال الوالد عليه الرحمة فى روح المعانى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن** ﴾ ما ملخصه : الجن واحده جنى ، كروم ورومى ، وهم أجسام عاقلة تغلب عليها النارية ، كما يشهد له قوله تعالى : ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ وقيل الهوائية ، قابلة جميعها أو صنف منها للتشكل بالأشكال المختلفة ، من شأنها الخفاء ، وقد ترى بصور غير صورها الأصلية ، بل وبصورها الأصلية التى خلقت عليها كالملائكة عليهم السلام ، وهذا للأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، ومن شاء الله تعالى من خواص عباده عز وجل ، ولها قوة على الأعمال الشاقة ، وأكثر الفلاسفة على إنكار الجن ، وهو الذى يلوح من كلام ابن سينا . وذلك كفر صريح ، واعترف جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات بوجودهم ، ويسمونهم بالأرواح السفلية ، والآية ظاهرة فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم استماعهم له بالوحى لا بالمشاهدة ، وقد وقع فى الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام رآهم ، وجميع ذلك بتعدد القصة ؛ لأن ابن عباس يقول : ما رآهم . وقد روى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم قال : أتانى داعى الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن ، قال : وانطلق بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وفى رواية أخرى عن ابن مسعود أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى العشاء فأخذ بيدى حتى أتينا مكان كذا فأجلسنى وخط على خطا ثم قال : لا تبرحن خطك فبينما أنا جالس إذ أتانى رجال منهم كأنهم [1] الزط ، فذكر حديثاً طويلاً ، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاءه إلى السحر ، قال : وجعلت أسمع الأصوات ثم جاء عليه الصلاة والسلام . فقلت : أين كنت يا رسول الله ؟ فقال : أرسلت إلى الجن . فقلت : ما هذه الأصوات التى سمعت قال : هى أصواتهم حين ودعونى وسلموا على .

واختلف العلماء فيما استمعوه ، فقال عكرمة : اقرأ باسم ربك وقيل سورة الرحمن، وتمام الكلام فى بحث الجان يطلب من كتاب آكام المرجان ، فيا من بين يديه الموت والحساب ، والتوبيخ الشديد والعتاب ، وعليه بأقواله وأفعاله من الملائكة كتاب ، وقد أذنب كثيراً غير أنه ما تاب ، وكلما عوتب خرج من باب إلى باب ، ألست الذى دمت على الخطأ وعصيت ، وبارزت بالقبيح وما استحييت ، وعلمت تحريم الذنب ثم أتيت ، وعرفت عظيم الجزاء وتناسيت ، ستكف الخمس ، بعد الحركة واللمس ، وسيذهب اليوم كما ذهب أمس ، وسيبدل النطق بالسكوت والهمس ، وستعدم نور القمر وضوء الشمس ، وسيفلع البستان وييبس الغرس ، وقد قرب وقت الغمس فى بحر الرمس ، وسينسى ذو العلم الدرس بالدرس .

نشيد قصوراً للخلود سفاهة ... ونبصر ما شئنا قبوراً دوارسا
لقد صرمت كسرى الملوك وتبعا ... وقيصر آمال فلم تر قابسا
وقد نصح الدنيا لنا الموت واعظا ... وهيهات ما نزداد إلا تقاعسا

فيا نائماً إلى كم ذا الهجوع ، إلى متى بالهوى هذا الولوع ، أتنفعك وقت الموت الدموع ، تقول فرقوا المال فالعجب يجود المنوع ، هذا وملك الموت يسلها من بين الضلوع ، وخلت منك المساكن وفرغت الربوع ، وتمنيت أن لو زدت من سجود وركوع ، فيا إخوتى، الدنيا فى إدبار ، وأهلها منها فى استكثار، فهذا حادى الممات قد أسرع ، هذه قصور الإخوان بلقع ، ما لصاحب المال إذا المال يوزع ، ما نفعه

(١) قال الفيروزا بادى عليه الرحمة : الزط بالضم : جيل من الهند معرب جت بالفتح ا هـ منه .

حرصه فسلب ما جمع أجمع . أين كسرى أين قيصر أين تبع ، أين حاتم الجود أين من كان يمنع ، أين قس وسحبان أين ابن المقفع [(١)] . إنها لتمحو العين ثم للأثر تقلع ، فعليكم عباد الله بالتقوى فهذه أوقات معظمة ، وساعات مكرمة ، وقد صيرتم ضحاها بالذنوب عتمة ، فبيضوا بالتوبة صحفكم المظلمة ، فالملك يكتب خطاياكم ونفسكم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، قد ضيعتم معظم السنة ، فدعوا من الآن هذه السنة ، واسمعوا المواعظ فقد نطقت بألسنة ، ودعوا الخطأ فيكفى ما قد ركسكم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا ميتاً إلا رحمته ، ولا مريضاً إلا شفيته ، ولا فاسقاً إلا أصلحته ، ولا صالحاً إلا قبلته ، ولا غائباً إلا بالخير رددته ، ولا محتاجاً إلا من الحلال رزقته ، ولا كربا إلا فرجته ، ولا عسراً إلا يسرته ، ولا حاسداً إلا خيبته ، ولا عدواً إلا خذلته وأبعدته ، ولا حقاً إلا استخلصته ، ولا عملاً إلا تقبلته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا ولنا فيها صلاح إلا يسرتها برحمتك يا أرحم الراحمين .

* * *

المجلس الثالث عشر
فى الإيمان بالكتب المنزلة من حديث
جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الداعى إلى بابه ، الهادى لأحبابه ، المنعم بإنزال كتابه ، يشتمل على محكم ومتشابه ، وليس للمتكلم به مشابه ، شغل به محبه عن مزماره وربابه ، فكلما تلاه زاد الحب وربا به ، وكساه العرفان أثواب ثوابه ، فألهاه عن الكون لذة شرابه ، وسرى به عن سرابه ، فهو دون الناس أولى به . أحمده على الهدى وتسهيل أسبابه ، وأقر بوحدانيته إقرار مؤمن يأمن عقابه ، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى قدمه على أضرابه ، ورآه عياناً ليلة أسرى به ، صلى الله تعالى عليه

(١) مروان بن المقفع تابعى ، وأبو محمد عبد الله بن المقفع : فصيح بليغ ، كما فى القاموس ا هـ منه .

وسلم وعلى صاحبه أبى بكر الصديق المقدم على أصحابه ، وعلى عمر الذى عز به الدين واستقامت الدنيا به ، وعلى عثمان شهيد داره وقتيل محرابه ، وعلى ابن عمه على حلاَّل كل مشكل وكاشف نقابه ، وعلى آله وجميع أصحابه ومن هو أولى به.

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج عليه الرحمة فإنه قال فى جامعه الصحيح ، الحرى بالترجيح ، عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم. فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ، فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . إلخ . . .

فنقول ، وبالله التوفيق : ومنه الهداية إلى أقوم طريق : قد تقدم الكلام فى الدروس الماضية ، على مبدإ هذا الحديث ، وبقى الكلام على قوله عليه الصلاة والسلام وكتبه إلخ ، قال العلماء رحمهم الله تعالى : أى تصدق بأنها كلام الله تعالى المنزل على أنبيائه وكل ما تضمنته حق ، وهى مائة كتاب وأربعة كتب . أنزل منها على شيث خمسين ، وعلى إدريس ثلاثين . وعلى آدم عشرة ، وعلى إبراهيم عشرة ، وعلى داود الزبور ، وعلى موسى التوراة ، وعلى عيسى الإنجيل ، وعلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن العظيم . قال العلماء : إن الله تعالى أنزل القرآن فى رمضان ، وأنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة ، والقرآن لأربع وعشرين ، ثم إنه لا شك أن القرآن قد نزل منجماً مفرقاً على حسب الوقائع والمصالح ، وقوله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ أى أنزل أوله وذلك ليلة القدر ، أو أنزل جملة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل إلى الأرض نجوماً [1] فى

---

(١) أى مفرقاً ا هـ منه .

ثلاث وعشرين سنة ، وهو أفضل جميع الكتب ، ولنذكر مسائل منثورة من كتب العلماء ولا سيما الإتقان فيما يتعلق بالقرآن ، فقد قالوا : يستحب الإكثار من تلاوته، قال الله تعالى : ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾ وفى الصحيحين : لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله تعالى القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، وروى الترمذى : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، وروى ابن مسعود : يقول الرب سبحانه وتعالى : من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه .

وروى أبو أمامة : اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لصاحبه ، وأخرج البيهقى عن عائشة : البيت الذى يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض . وروى النعمان بن بشير : أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن ، ويكره تأخير ختمه بلا عذر أكثر من أربعين يوماً على ما قال غير واحد ، نص عليه أحمد . وروى الحسن بن زياد عن أبى حنيفة أنه قال : من قرأ القرآن فى كل سنة مرتين فقد أدى حقه ؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عرض على جبريل فى السنة التى قبض فيها مرتين ، وللسلف عادات ، فأكثر ما ورد من كان يختم فى اليوم والليلة ثمانى ختمات أربعاً فى الليل وأربعاً فى النهار ، وقد ذمت عائشة رضى الله تعالى عنها من يختم فيهما ختمة ، قال مخراق : قلت لعائشة : إن رجالاً يقرأ أحدهم القرآن فى ليلة مرتين أو ثلاثاً ، فقالت : قرءوا ولم يقرءوا . كنت أقوم مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب ولا بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ . وكره جماعات الختم فى أقل من ثلاثة أيام ، وروى ابن عمر : اقرأ القرآن فى شهر . ونسيانه من الكبائر ، فقد روى أبو داود : عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها . ويستحب الوضوء لقراءته ، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يكره أن يذكر الله إلا على طهر ، ولا يكون فمه نجساً ، وإذا عرضت له ريح يمسك عن القراءة حتى تستتم ، وتسن القراءة فى مكان نظيف ، وأفضله المسجد ، وكره قوم فى الحمام والطريق ، ويستحب أن يجلس مستقبلاً للقبلة متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه ، ويستاك ، ويسن التعوذ قبلها ،

وذهب قوم بعدها ، وذهب قوم إلى وجوبها ، ولو مر على قوم فسلم وعاد إلى القراءة عاد إلى التعوذ ، قيل يجهر وقيل يسر به ، وليحافظ على البسملة ولا تحتاج إلى النية ، ويسن الترتيل ، قال تعالى : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلاً** ﴾ قالوا قراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزءين بقدر ذلك الزمان بلا ترتيل .

روى ابن عمر مرفوعاً : يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ وارق فى الدرجات ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلك عند آخر آية كنت تقرؤها ، ويسن تحسين الصوت بالقراءة وترتيبها لحديث ابن حبان وغيره : زينوا القرآن بأصواتكم ، وفى آخر : حسن الصوت زينة القرآن ، لكن لا يخرج إلى حد التمطيط ، وأما القراءة بألحان فنص الشافعى أنه لا بأس بها ، والقراءة فى المصحف أفضل من الحفظ لأن النظر فيه عبادة مطلوبة . روى أويس موقوفاً : قراءة الرجل فى غير المصحف ألف درجة وقراءة فى المصحف تضاعف ألفى درجة ، وقيل : من الحفظ أفضل ، ويكره قطع القراءة لمكالمة أحد ، والضحك والعبث والنظر إلى ما يلهى ، وقراءة السورة منكوسة ، أى من آخرها إلى أولها ممنوع ، فعن ابن مسعود أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً ، قال : ذلك منكوس القلب ، ويسن الاستماع لقوله تعالى : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له** ﴾ إلى آخره . ويسن صوم يوم الختم ، وأن يحضره أهله وأصدقاؤه ، والرحمة تنزل عند ختمه والدعاء مستجاب .

روى : من ختم القرآن فله دعوة مستجابة ، ويستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن ، عن البزى أن الأصل فى ذلك أنه انقطع الوحى عنه عليه الصلاة والسلام لكلب كان تحت السرير ، فقال المشركون قلى محمداً ربه فنزلت سورة الضحى فكبر، وقيل : التشبه للقرآن بصوم رمضان إذا كمل عدته يكبر ، وقيل لا يكبر خوفاً من مظنة الزيادة ، وعند السخاوى وأبى شامة سواء فى التكبير الصلاة وخارجها ، ويسن إذا فرغ أن يشرع فى غيرها إلى « أولئك هم المفلحون » ، ويكره اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها ، ومن قرأ القرآن عند ظالم ليرفع به لعن بكل حرف عشر لعنات، روى : القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه ، واتفق أكثر الأئمة على وصول ثواب القراءة للميت ، ومذهب المعتزلة خلافه ، لقوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ وفى الدر المختار وحاشيته لابن عابدين عليه

الرحمة أن من دخل إلى المقبرة يقرأ يس ، فقد ورد : من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنه يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات ، وفى حديث : من قرأ الإخلاص إحدى عشرة مرة ثم وهب أجرها للأموات أعطى من الأجر بعدد الأموات، وفى شرح اللباب : ويقرأ من القرآن ما تيسر له من الفاتحة وأول البقرة إلى المفلحون ، وآية الكرسى ، وآمن الرسول ، وسورة يس ، وتبارك الملك، وسورة التكاثر والإخلاص اثنتى عشره مرة أو إحدى عشرة أو ثلاثاً ثم يقول : اللهم أوصل ثواب ما قرأناه إلى فلان أو إليهم ا هـ . فقد صرح علماؤنا فى باب الحج عن الغير بأن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاة أو صوماً أو صدقة أو غيرها ، بل قيل : الأفضل لمن يتصدق نفلا ، أن ينوى لجميع المؤمنين والمؤمنات لأنها تصل إليهم ، ولا ينقص من أجره شيء ، وهو مذهب أهل السنة ، لكن استثنى مالك والشافعى العبادات البدنية المحضة ، كالصلاة والتلاوة ، فلا يصل ثوابها إلى الميت عندهما بخلاف غيرها كالصدقة والحج ، وخالف المعتزلة فى الكل.

أقول : ما مر عن الشافعى هو المشهور عنه ، والذى حرره المتأخرون من الشافعية وصول القراءة للميت إذا كانت بحضرته أو دعا له عقبها ولو غائباً ؛ لأن محل القراءة تنزل الرحمة والبركة ، والدعاء عقبها أرجى للقبول ، ومقتضاه أن المراد انتفاع الميت بالقراءة لا حصول ثوابها به ، ولهذا اختاروا فى الدعاء : اللهم أوصل مثل ثواب ما قرأته إلى فلان ، وأما عندنا فالواصل إليه نفس الثواب ، وفى كتاب الروح للحافظ ابن القيم أنه اختلف فى إهداء الثواب إلى الحى ، فقيل : يصح لإطلاق قول أحمد يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه وأمه ، وقد نقل عن جماعة أنهم جعلوا ثواب أعمالهم للمسلمين ، وقالوا : نلقى الله تعالى بالفقر والإفلاس ، والشريعة لا تمنع من ذلك ا هـ باقتصار واختصار .

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن والتباكى لمن لا يقدر ، والحزن والخشوع ، قال عليه الصلاة والسلام : إنى قارئ عليكم سورة فمن بكى فله الجنة فإن لم تبكوا فتباكوا ، وطريق البكاء أن يتأمل فى الوعد والوعيد ، وفى تقصيره ، ويكره الجماع بحضوره ، ومد الرجل له ، ولا يقرؤه الجنب ، ولا يتوسده . وعن ابن عباس : أشراف أمتى حملة القرآن ، وأصحاب الليل . وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما : من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه ،

وعنه عليه الصلاة والسلام : إن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، والذى لا يقرأ فيه يقل خيره ، وعنه : القرآن أحب إلى الله من السموات والأرض وما فيهن .

روى أحمد : ما من مسلم يأخذ مضجعه فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى إلا وكل الله به ملكاً فلا يقربه شىء يؤذيه حتى يهب متى هب . أخرج أحمد : لو كان القرآن من أهاب ما أكلته النار ، أى قلب المؤمن ، عن أنس مرفوعاً : القرآن شافع مشفع وماحل [1] مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه قاده إلى النار ، وعن أبى هريرة : ما من رجل يعلم ولده القرآن إلا توج يوم القيامة بتاج من الجنة .

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فى جواز الاستئجار على تعليم القرآن فحرمه جماعة لرواية البيهقى : من قرأ القرآن يتأكل به الناس جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم ، وعن أبى بن كعب قال : علمت رجلاً القرآن فأهدى لى قوساً فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إن أخذتها أخذت قوساً من نار، ومن جوز استدل بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله . هذا فى التعليم ، وأما فى القراءة للميت بالاستئجار فلا يصح على القول الأصح ، قال شيخ مشايخنا العلامة ابن عابدين فى حاشيته من جملة كلام طويل : قال تاج الشريعة فى شرح الهداية : إن القرآن بالأجرة لا يستحق الثواب ، لا للميت ولا للقارئ ، وقال العينى : ويمنع القارئ للدنيا ، والآخذ والمعطى آثمان، وقال الشيخ خير الدين الرملى : المفتى به جواز الأخذ استحساناً على تعليم القرآن لا على القراءة المجردة ، والإجارة فى ذلك باطلة ، وهى بدعة لم يفعلها أحد من الخلفاء . وقال فى الواوالجية : ولو زار قبر صديق أو قريب له وقرأ عنده شيئاً من القرآن فهو حسن ، أما الوصية بذلك فلا معنى لها . ونقل الخلوتى فى حاشية المنتهى الحنبلى عن شيخ الإسلام تقى الدين ما نصه : ولا يصح الاستئجار على القراءة وإهداؤها إلى الميت لأنه لم ينقل عن أحد من الأئمة الإذن فى ذلك، وقد قال العلماء : إن القارئ إذا قرأ لأجل المال فلا ثواب له فأى شىء يهديه إلى الميت، وإنما يصل إلى الميت العمل الصالح ، والاستئجار على مجرد التلاوة لم يقل به أحد

---

(١) لعل الماحل بمعنى المجادل أو من المماحلة وهى القوة والشدة كما فى القاموس فليراجع ا هـ منه .

من الأئمة ، وإنما تنازعوا على التعليم ا هـ بحروفه . وممن صرح بذلك أيضاً الإمام البركوى قدس سره فى آخر الطريقة المحمدية فقال : الفصل الثالث فى أمور مبتدعة باطلة أكب الناس عليها على ظن أنها قرب مقصودة إلى أن قال : ومنها الوصية من الميت باتخاذ الطعام والضيافة يوم موته أو بعده وبإعطاء دراهم لمن يتلو القرآن لروحه أو يسبح أو يهلل له ، وكلها بدع منكرات باطلة ، والمأخوذ منها حرام للآخذ ، وهو عاص بالتلاوة والذكر لأجل الدنيا . ا هـ ملخصاً .

وليعلم أن العلماء اختلفوا فى أخوف آية من القرآن فقيل قوله تعالى : **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** وقيل : **﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾** ، وقيل : **﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾** وكذا فى أرجى آية فقيل قوله تعالى : **﴿ وهل يجازى إلا الكفور ﴾** وقيل : **﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾** وقيل : **﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾** ، وقيل : **﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾** . وروى عن على كرم الله تعالى وجهه أنها **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾** وما أحسن ما قيل :

أترضـــى حـــبيبى أن تكـــون منعما　　　ونحـــن على جـــمر اللظى نتقلب

ألم يرضك الرحمن فى سورة الضحى　　　وحاشـــاك أن ترضـــى وفينـــا معذب

واعلم أن القرآن كلام الله تعالى ، وهو مقروء بألسنتنا . محفوظ فى صدورنا ، مكتوب فى مصاحفنا ، قديم غير محدث ، لا خالق ولا مخلوق ، ومن قال (١) إنه

---

(١) ولنذكر إن شاء الله تعالى فى هذا المقام مسألة يكثر السؤال عنها وتحجم أغلب الأذهان عنها ، وهى أن الحنابلة صرحوا بأن كلام البارى سبحانه بحروف وصوت ، ونسب هذا أيضاً إلى بقية المذاهب الأربعة ، وصرح سيدى الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس سره فى الغنية بذلك ، وغيره من الحنابلة أيضاً ، ورووا عن الإمام أحمد أنه قال : من قال لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، وأن الحروف قديمة لأن كلامه سبحانه قديم ، وهو مركب من الحروف .

واعترض بعض العلماء عليهم بأنه يلزمه أن يكون كلام المخلوقين أيضاً قديماً لوجود هذه الحروف فيه، فأجاب الشيخ أحمد بن عبد الحليم الحرانى الدمشقى فى بعض تصنيفاته بأن الإمام أحمد قال : من قال : لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، ولم يقل من قال صوتى بالقرآن لأن الصوت غير اللفظ، فالصوت مخلوق وهو صوت القارئ واللفظ كلام البارى سبحانه فلا يكون مخلوقاً ، وأما قدم الحروف فإنه لا يلزم إذا كانت الحروف فى القرآن وكلام الله عز وجل قديمة أن تكون فى كلامنا أيضاً قديمة ، =

مخلوق فقد كفر ، وأما صوت القارئ فهو حادث ، وأنه فيه المحكم والمتشابه ، فأما المحكم فهو الذى يعرف معناه والمقصود منه كآية الصوم والصلاة والحج والزكاة ونحوها ، والمتشابه ينقسم إلى قسمين : الأول الذى لا يعلم معناه والمراد به إلا الله تعالى كحم عسق والم وكهيعص ونحوها ، من أوائل السور ، والثانى كآية الاستواء والوجه واليد فى قوله تعالى : ﴿ استوى على العرش ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ويبقى وجه ربك ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدى ﴾ ونحو ذلك من الأحاديث كحديث ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ، فالخلف على تأويل جميع ذلك كتأويل الاستواء بالاستيلاء ، والسلف على الإيمان بذلك وعدم تكييفه ، إذ سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو أسلم وأعلم وأحكم ، ومن أراد زيادة الاطلاع على مفصل هذه الأبحاث فعليه بكتابنا «جلاء العينين » والله تعالى أعلم بالصواب .

ولنرجع إلى الكلام على بقية الحديث فنقول : قوله عليه الصلاة والسلام (ورسله) أى وأن تؤمن برسله أى تصدق بما جاءوا به عن الله تعالى قال عز وجل : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ الآية ، وقدم ذكر الملائكة للترتيب الوجودى ؛ لأنهم خلقوا قبل الأنبياء أو لأنهم واسطة بين الله وبين أنبيائه ، والأنبياء عددهم مائة ألف نبى وأربعة وعشرون ألف نبى ، أولهم آدم عليه السلام وآخرهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنهم المرسلون ثلثمائة وثلاثة عشر ،

= كما إذا قلنا إن البارى سبحانه له علم وقدرة ونحن لنا علم وقدرة مثلاً فلا يلزم أن يكون علمنا كعلمه وقدرتنا كقدرته ؛ لأن علمنا وقدرتنا مخلوقان حادثان وعلمه سبحانه قديم غير مخلوق ، وكذا قدرته ، فلذلك أن هذه الحروف الهجائية إن وجدت فى كلامنا فهى من كلامنا وكلامنا مخلوق ، وإن وجدت فى كلام البارى سبحانه فهى غير مخلوقة لأن كلامه غير مخلوق ؛ لأن مثل هذه الأمور إذا أخذت مجردة مطلقة لم يكن لها حقيقة فى الخارج وإذا أخذت مشخصة فحينئذ يكون لها حقيقة فتختلف بذلك الاعتبار كالوجود المطلق فإنه لا حقيقة له فى الخارج ، فإذا قلت وجود الله تعالى فيكون قديماً ، وإن قلت وجود العبد فيكون حادثاً مخلوقاً ، فإذا قلنا : يا يحيى خذ الكتاب ، خطاباً لرجل فهذا حادث مخلوق ، وإذا قرأنا ذلك من القرآن فهو كلام الله غير مخلوق ولا خالق ؛ لأن كلام البارى سبحانه ليس ككلامنا كما أن سمعه ليس كسمعنا ، والمقصود أن الحنابلة صرحوا بأن صوت القارئ مخلوق وأن المداد مخلوق ، وصرحوا بأن الحروف التى فى كلامنا مخلوقة ولا يلزم أنها إذا كانت فى كلامه سبحانه قديمة أن تكون فى كلامنا قديمة إذ فرق بين التراب ورب الأرباب ، فليحفظ .

وقيل وأربعة عشر ، وأولو العزم منهم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، والأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر والصغائر ، وأما ما وقع من بعضهم فهو محمول على ترك الأفضل والعمل بالفاضل ، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولولا خوف الإطالة لذكرنا مفصل ذلك ، ونبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضلهم ، وأمته أفضل الأمم ، واختلفت المعتزلة مع أهل السنة فى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، فقال أهل السنة بالتفضيل والمعتزلة بالمنع ، قال فى المواهب اللدنية : قد بين قوله تعالى : ﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ أن مراتب الرسل والأنبياء متفاوتة خلافاً للمعتزلة القائلين بأنه لا فضل لبعضهم على بعض ، وفى هذه الآية رد عليهم ، وقال قوم : آدم أفضل الخلق لأبوته ، وتوقف بعضهم فقال : السكوت أفضل ، والجمهور على أن الرسل أفضل من الأنبياء ، والرسل بعضهم أفضل من بعض ، ونبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الجميع .

روى الترمذى : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، وما من بنى آدم فمن سواه إلا تحت لوائى . وفى حديث أبى هريرة : أنا سيد الناس يوم القيامة ، وعن ابن عباس ـ أنا سيد ولد آدم ، وعلى سيد العرب . وأما قوله عليه السلام ما تقدم فليس عجباً وافتخاراً على من دونه ، حاشاه من ذلك ، بل لإظهار نعمة الله تعالى ، وتعليماً للأمة بقدر متبوعهم ، وقوله عليه الصلاة والسلام : ما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ، وقوله : لا تفضلونى على الأنبياء ، كان قبل أن يعلم أنه سيد الأنبياء ، أو له أجوبة أخر ليس هذا محلها.

وأعظم دليل على أفضليته حديث الشفاعة وأخذ الميثاق على الأنبياء ، فقد قال على كرم الله تعالى وجهه : ما بعث الله تعالى نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، قال تعالى : ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه** ﴾ إلى آخر الآية الكريمة ، وقوله عليه الصلاة والسلام (واليوم الآخر) أي أن تؤمن وتصدق بأن الله سبحانه وتعالى يعيد الخلق بعد موتهم، قال ابن القيم فى كتابه الروح : إن منكر المعاد الجسمانى كافر ، وقد اتفق عليه المسلمين واليهود والنصارى ، وقال الجلال الدوانى : هو بإجماع أهل الملل

وبشهادة نصوص القرآن بحيث لا يقبل التأويل كقوله تعالى : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو حاتم والإسماعيلى فى معجمه والحافظ وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعظم بال ففتته بيده فقال : يا محمد، يحيى الله هذا بعد مارم ، قال : نعم ، يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات من آخر سورة يس ﴿ **أو لم ير الإنسان** ﴾ إلى آخر السورة ، وهذا نص صريح فى الحشر الجسمانى يقلع عرق التأويل بالكلية ، ولهذا قال الإمام الرازى : الإنصاف أنه لا يمكن الجمع بين الإيمان بما جاء به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبين نفى الحشر الجسمانى ، فإنه قد ورد فى عدة مواضع من القرآن المجيد التصريح به بحيث لا يقبل التأويل أصلاً ا هـ .

وقد سأل إبراهيم عليه السلام من البارى عز وجل أن يريه كيف يحيى الموتى ، فحكى ذلك عنه فى كتابه العزيز قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ قال المفسرون : سبب السؤال منازعة النمروذ إياه فى الإحياء وتوعده بالقتل إن لم يحى الله تعالى الميت بحيث يشاهده ، فدعا فقال الرب جل جلاله : خذ أربعة من الطير ، وهى الغرنوق والطاوس والديك والحمامة ، كما روى عن ابن عباس ، فصرهن إليك أى فقطعهن ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وهى أربعة جبال أو سبعة أو عشرة ، جعل عليها أجزاء الطيور المذكورة بعد أن خلطها وأبقى الرءوس بيده ، ثم نادى : أيتها العظام المتمزقة ، واللحوم المتفرقة ، والعروق المتقطعة ، اجتمعى ليرد الله فيكن أرواحكن ، فوثب العظم إلى العظم ، وطارت الريشة إلى الريشة ، وجرى الدم إلى الدم ، حتى رجع إلى كل طائر دمه ولحمه وريشه حتى صارت جثثاً ، ثم أقبلن إلى رؤوسهن فانضمت كل جثة إلى رأسها فعادت كل واحدة منهن إلى ما كانت عليه من الهيئة الأولى . وأخرج الطبرانى بسند حسن عن المقدام بن معديكرب قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليهِ وسلم

يقول : يحشر ما بين السقط إلى الشيخ الفانى يوم القيامة . قال القرطبى : هذا فى السقط الذى تم خلقه ونفخ فيه الروح بخلاف ما لم ينفخ فيه ، وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الله الخلائق ، الإنس والجن والدواب والوحوش ، فإذا كان ذلك اليوم جعل الله تعالى القصاص بين الدواب حتى يقضى للشاة الجماء من القرناء بنطحتها ، فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها : كونى تراباً . فيراها الكافر فيقول : يا ليتنى كنت تراباً .

وأخرج النسائى عن شريك بن سويد قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول : يا رب إن فلاناً قتلنى عبثاً ولم يقتلنى لمنفعة . وأخرج ابن حبان وغيره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل منْ خشاش (1) الأرض ، فهى إذا أقبلت تنهشها وإذا أدبرت تنهشها . وأخرج الطبرانى عن جنادة قال : أتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإبل قد وسمتها فى أنفها ، فقال : ما وجدت عضواً تسمه إلا فى الوجه ، أما إن أمامك القصاص . وسنذكر إن شاء الله تعالى تتمة هذا البحث فى الدرس الثامن عشر .

فعليكم عباد الله بالاستعداد ليوم المحشر ، قبل أن تفقدوا اللسان والسمع والبصر، فإذا أعيدت الأجسام البالية ، وجمعت الأوصال الفانية ، وسيقت النفوس العاتية ، وزفرت الحطيم الصالية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، عجباً أيها المنغمسون فى الذنوب ، والمرتدون فى أسمال المخازى والعيوب ، تستخفون عن الناس والله علام الغيوب ، فهل كذبتم أن يعيدكم كما بدأ كم ثانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فيا ليت شعرى من للزانى إذا افتضح ، واشتهر أمره بين الخلائق واتضح ، ووزن عمل آكل الربا والمطفف فما رجح ، وقال الكافر يا ليتنى لم أدر ما حسابيه ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . أيها اللاهون عن البعث ، الراضون بالدون عن ذلك البحث ، لقد وعظنا فما أفاد الوعظ والحث، فاستمعوا قول الله بأذن واعية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . يجزى الناس بفعلهم يوم القيامة ، ويرى كل عامل عمله أمامه، فيستبشر الصالح ولا

---

(1) الخشاش مثلثة الخاء حشرات الأرض والعصافير ونحوها ا هـ منه .

تنفع الطالح الندامة ، ويؤمر بالمتقين إلى دار لا تسمع فيها لاغية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . تبا لمن كفر وعصى رسوله ، وأنكر عرضه على الديان ووصوله ، ولما رأى نشره وحسابه وكبوله ومثوله ، نادى ولم ينفعه إذا ذاك : هلك عنى سلطانيه ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . ويحصى ما تصاغر من الذنوب ولو ذر ، ويجزى العبد بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولا ينجو إلا من آمن وتواصى بالصبر ، أو أسلف من صوم فى أيام خالية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية .

وعليكم عباد الله بالتمسك بالكلام القديم ، والقرآن الذى هو الصراط المستقيم ، والاستعداد ليوم القيامة لتفوزوا بالنعيم ، وتخلصوا من الندامة والعذاب الأليم ، هذا هو الكتاب القديم ، هذا كلام السميع العليم ، هذا الذى منه ا ل م . تكلم به فى الأزل ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، هذا كلام الرحمن ، هذا المسموع بالآذان، هذا الدليل والبرهان ، هذا الذى إذا سمعه الشيطان ولى واعتزل ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، هذا كلام ذى العزة والعلا ، هذا الذى أعجز جميع الفصحا ، هذا الذى تكلم به فى الأزل ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، هذا الذى حير الألباب، فلما قصد مسيلمة الكذاب ، معارضته ومناقضته خاب ، أتراه لعب أو هزل ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل . يدفع غواة الناس والجنة ، ويصل بتاليه إلى الجنة ، ولقد والى أهل السنة ، وأهل البدعة عزل ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل . اللهم إنا عبادك وأبناء عبادك وأبناء إمائك ، نواصينا بيدك ، اللهم إنا نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وجلاء همومنا وذهاب أحزاننا ، ونور أبصارنا ، ونوراً يوم القيامة بين أيدينا ، وعلمنا ما فيه ، واجعلنا من المؤمنين الممتثلين لظاهره وخافيه ، واجعله حجة لنا ولا تجعله حجة علينا ، اللهم إنا قد أمسينا لا نملك لأنفسنا دفعاً ، ولا رفعاً ولا ضراً ولا نفعاً ، فأعطنا من الخير فوق ما نرجو ، واصرف عنا من السوء فوق ما نحذر ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، وصلى الله على سيدنا محمد والآل والأصحاب .

* * *

المجلس الرابع عشر
فى الإيمان بالقدر وفى الإحسان من حديث
جبريل عليه السلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله العظيم فى قدره ، العزيز فى قهره ، العليم بحال العبد فى سره وجهره، وما يجرى عليه فى دهره ، الجائد على المجاهد بنصره ، المنعم على العاصى بستره ، الحليم عن آمن مكره ، فهو يرزق الكافر على كفره ، يسمع صريف القلم عند خط سطره ، ونعيق الضفدع فى حافة بحره ، وأنين المدنف عند ضعف صبره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره . أحمده على القدر خيره وشره ، وأشكره على القضاء حلوه ومره ، وأشهد بوحدانيته شهادة من لا يجول التشبيه فى فكره ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله داعياً إلى البر أهل بحره وبره ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر سابق الكل بشىء وقر فى صدره ، وعلى عمر معز الإسلام بغضاضته وقهره ، وعلى عثمان ذى النورين الصابر من أمره على مره ، وعلى على أخيه وابن عمه وصهره ، وعلى سائر آله وأصحابه ما جاد السحاب بقطره .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى فإنه قال فى جامعه الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت ، فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فعجبنا منه يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . إلى آخره . .

فنقول ، وبالله التوفيق ، ولطفه عز شأنه أقوى رفيق : قد تقدم الكلام على مبدأ هذا الحديث فى الدروس الماضية ، وبقى الكلام على قوله عليه الصلاة والسلام (وبالقدر) أى وبأن تؤمن وتصدق بأن فعل العبد بقضائه تعالى وقدره ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . قال تعالى : ﴿ **ما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ ، وقال تعالى: ﴿**قل كل من عند الله** ﴾ وأخرج البزار فى الأوسط والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عمر قال : جاء فئام (١) من الناس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، زعم أبو بكر أن الحسنات من الله والسيئات من العباد، وقال عمر : الحسنات والسيئات من الله ، فتابع هذا قوم وهذا قوم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لأقضين بينكما بقضاء إسرافيل بين جبريل وميكائيل، فإنهما اختلفا كما تختلف أهل الأرض فتحاكما إلى إسرافيل فقضى بينهما بحقيقة القدر خيره وشره وحلوه ومره كله من الله . ثم قال : يا أبا بكر إن الله لو أراد ألا يعصى لم يخلق إبليس ، فقال أبو بكر : صدق الله ورسوله . نقله فى الحبائك ، وقال ابن حجر فى كتابه الزواجر إن قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ أكثر المفسرين على أنها نزلت فى القدرية ، ويؤيده ما أخرجه مسلم أن سبب نزولها أن كفار مكة أتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخاصمون فى القدر، فنزل ﴿**إن المجرمين فى ضلال وسعر * يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ وصح : كتب الله تعالى مقادير الخلائق كلها من قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعن على كرم الله تعالى وجهه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى وسلم : لا يؤمن عبد بالله حتى يؤمن بأربع ، يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر . وفى رواية : خيره وشره ، ومذهب أهل السنة أن الأفعال بخلق الله تعالى وكسب من العبد، قال الأمالى فى منظومته :

مريـــد الخير والشر القبيح ولكن ليس يرضى بالمحال

قال بعض الشارحين : اعلم أن تقدير الخير والشر من الله تعالى ، وهو خالق الخير والشر ، ومريدهما ، وفعل الخير والشر من العبد ، والعبد مختار فى فعله اختيار تمييز وتحصيل لا اختيار مشيئة وقدرة . وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ،

---

(١) الفئام بالفاء المكسورة ، ككتاب : الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه ، اهـ منه .

وقوله : (ولكن ليس يرضى بالمحال) يعنى بالكفر والقبائح والمعاصى مريداً لها ولا يكون الشيء بغير قضاء ، وما أحسن ما رواه الكورانى عن الإمام الشافعى حيث يقول :

ما شئت كان وإن لـم أشـأ   وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خـلقت العباد على ما علمت   ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننـت وهذا خـذلت   وهـذا أعنـت وذا لم تعـن
فمنهـم شقى ومنهـم سعيد   ومنهـم قبيـح ومنهم حسن

وذهبت القدرية ، وهم المعتزلة ومن وافقتهم من الإمامية ، إلى أن الإنسان خالق لأفعاله من خير وشر ، قادر على الفعل والترك ، متمكن منهما إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، ولذلك سموا قدرية ؛ لأنهم ينفون القدر ويثبتون القدرة ، وذهبت الجبرية إلى أن الإنسان مجبور على الفعل مطلقاً كالسعفة فى الهواء ، وهذا مذهب باطل أيضاً ، وأنشدوا له :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له   إيـاك إيـاك أن تبتل بالمـاء

ومذهب أهل السنة والجماعة ولله تعالى الحمد ، مذهب وسط لا جبر ولا تفويض ، كهذه الأمة المحمدية القائل فى وصفهم سبحانه وتعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ وما أحسن ما قيل :

تنكب عن طريق الجبر واحذر   وقوعـك فى مهاوى الاعتزال
وخـذ وسـطاً طريقاً مستقيما   كما سار الإمام أبـو المعـالى

وهذا البحث طويل الأذيال ، ومعترك الفحول من الرجال ، فاقنع الآن بما ذكرنا واعتصم بالملك المتعال ، ولنرجع إلى الحديث ، قوله (فعجبنا له يسأله ويصدقه) قال الإمام النووى عليه الرحمة : سبب تعجبهم أن هذا خلاف عادة السائل الجاهل إنما هذا كلام خبير بالمسئول عنه ، ولم يكن فى ذلك الوقت من يعلم هذا غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، هذا من جوامع الكلم التى أوتيها صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام فى عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت ، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها ، إلا أتى به ، فقال صلى

الله تعالى عليه وسلم : اعبد الله فى جميع أحوالك كعبادتك فى حال العيان فإن التتميم المذكور فى حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ، فلا يقدر العبد على تقصير فى هذا الحال للاطلاع عليه ، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد فينبغى أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص فى العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى فى إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك ، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من تلبسه بشىء من النقائص احتراماً لهم واستحياء منهم ، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعاً عليه فى سره وعلانيته ، اهـ .

قال القسطلانى فى باب الخشوع فى الصلاة : الصلاة صلة العبد بربه ، فمن تحقق بالصلة فى الصلاة لمعت له طوالع التجلى فيخشع ، وقد شهد القرآن بفلاح مصل خاشع ، قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ أى خائفون من الله متذللون له ، يلزمون أبصارهم مساجدهم ، وعلامة ذلك ألا يلتفت المصلى يميناً ولا شمالاً ، ولا يجاوز بصره موضع سجوده ، صلى بعضهم فى جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس عليها ولم يشعر هو بها . والفلاح أجمع اسم لسعادة الآخرة ، وفقد الخشوع ينفيه ، وقد قال تعالى: ﴿ **وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ وظاهر الأمر الوجوب ، فالغفلة ضد ، فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره تعالى ، فافهم واعمل ، فليقبل العبد على ربه ، ويستحضر بين يدى من هو واقف ، كان مكتوباً فى محراب داود عليه السلام: أيها المصلى من أنت ولمن أنت ؟ وبين يدى من أنت ؟ ومن تناجى ومن يسمع كلامك ، ومن ينظر إليك ؟ وقال الخراز : ليكن إقبالك على الصلاة كإقبالك على الله يوم القيامة، ووقوفك بين يديه وهو مقبل عليك وأنت تناجيه، اهـ.

وقيل : يجوز أن يكون الإحسان بمعنى إجادة العمل من أحسن فى كذا ، والمشهور فى الإحسان الإخلاص كما قال تعالى : ﴿ **مخلصين له الدين** ﴾ وقال تعالى : ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ . وروى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فارقها والله عنه راض . وروى البيهقى عن الضحاك قال : قال رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم وليس لله تعالى فيها شىء . وروى الإمام أحمد عن أبى كبشة الأنصارى رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، « ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله تعالى عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله تعالى عليه باب فقر » أو كلمة نحوها . وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال : إنما الدنيا لأربعة نفر ، عبد رزقه الله تعالى مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه عز وجل ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله عز وجل مالاً ولم يرزقه علماً يخبط فى ماله بغير علم ولا يتقى فيه ربه عز وجل ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله تعالى فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله تعالى مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء . رواه أحمد والترمذى وصححه ؛ ولأجل ذلك كان الرياء فى الأعمال من الكبائر ، وعمل صاحبه مردوداً عليه ، فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا انظروا هل تجدون عندهم جزاء . وروى الطبرانى أن أدنى الرياء شرك ، وأحب العبيد إلى الله الأتقياء الأسخياء الأخفياء ، أى المبالغين فى ستر عبادتهم وتنزيهها عن شائبة الأغراض الفانية . وروى الترمذى والحاكم أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد أى يتجلى لهم تجلياً منزهاً عن الحركة والانتقال وسائر لوازم الجهات والأجسام ، أو نزولاً لائقاً بذاته جل وعز ليقضى بينهم ، وكل أمة جاثية ، وأول من يذهبون به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ، قال : بلى يا رب . قال : فماذا عملت فيما علمت ، قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار . فيقول الله تعالى: كذبت ، وتقول له الملائكة كذبت ، ويقول الله تعالى : بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله تعالى ألم أوسع عليك حتى

لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله عز وجل له : بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله تعالى له : فيما ذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى : كذبت ، وتقول الملائكة له : كذبت ، ويقول الله تعالى له : بل أردت أن يقال فلان جرىء شجاع فقد قيل ذلك . يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة .

وفى رواية أخرى : ورجل تعلم العلم وعلمه فأتى به فعرفه نعمته فعرفها ، فقال: فما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته قال : كذبت ولكنك تعلمته ليقال عالم فقد قيل ذلك ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . وروى أنه إذا كان يوم القيامة يجاء بالأعمال فى صحف محكمة ، فيقول الله عز وجل : اقبلوا هذا وردوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما كتبنا إلا ما عمل ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهى ، وإنى لا أقبل اليوم إلا ما كان لوجهى . وروى الديلمى أن الأرض لتعج إلى الله من الذين يلبسون الصوف رياء . وابن ماجة : رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر . والديلمى : ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجدها من طلب الدنيا بعمل الآخرة . والبيهقى : من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ثم أساءها حيث يخلو فتلك استهانة أهان بها ربه . قال الفضيل : ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك ، والذى يذهب الرياء ونحوه قولك كل يوم ثلاث مرات: اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم ، ذكر حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء أن رجلاً عابداً بلغه أن قوماً يعبدون شجرة فخرج لقطعها فقال له إبليس لعنه الله تعالى : إن قطعتها عبدوا غيرها فارجع إلى عبادتك ، فقال : لا بد من قطعها ، فقاتله فصرعه العابد ، فقال : أنت رجل فقير فارجع إلى عبادتك وأجعل لك دينارين تحت رأسك كل ليلة ، ولو شاء الله تعالى لأرسل رسولاً يقطعها وما عليك إذا لم تعبدها أنت ، قال : نعم ، فلما أصبح وجد دينارين وفى ثانى يوم لم يجد فخرج لقطعها فصرعه إبليس ، فقال له العابد : كيف غلبتك أولاً ثم غلبتنى ثانياً ، فقال : لأن غضبك كان أولاً لله وثانياً للدينارين فصرعتك وغلبتك .

ثم اعلم أن الإحسان بالمعنى الذى ذكرناه وتكلمنا عليه هو المراد من الحديث الشريف ، وقد يأتى الإحسان بمعنى عام شامل لإحسان الإنسان على نفسه ، وشامل للإحسان على غيره ، فلذلك يشمل الإحسان وجوهاً عديدة فلنذكر بعضها تكميلاً لفائدة المقام ؛ إذ الإحسان كما قيل بالتمام ، فمنها الإحسان لليتيم ، قال تعالى : ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر**﴾ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق نبياً لا يعذب الله تعالى يوم القيامة من رحم اليتيم وألان له الكلام ، ورحم له يتمه وضعفه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره وغدا وراح شاهراً سيفه فى سبيل الله ، وكنت أنا وهو فى الجنة أخوين كما أن هاتين أختان ، وألصق أصبعيه السبابة والوسطى . عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن أحب البيوت إلى الله تعالى بيت فيه يتيم مكرم ، وفى رواية : وشر بيت من بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه . وعن أبى هريرة قال صلى الله تعالى عليه وسلم : أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أنى أرى امرأة تبادرنى فأقول لها : ما لك ومن أنت ، فتقول : أنا امرأة قعدت على أيتام لى . وعن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنة . وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من أنفق على ابنتين أو أختين أو ذواتى قرابة يحتسب النفقة عليهما حتى يغنيهما من فضل الله أو يكفيهما كانتا له ستراً من النار ، ومنها ستر المسلم أخاه ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : لا يرى مؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا أدخله الله تعالى بها الجنة ، ومن ستر مسلماً ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفتضح بها فى بيته ، ومنها إكرام الجار ، وتحمل أذيته . عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الإخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت . وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم : والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره أو لأخيه ما يحب لنفسه . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أتدرون ما حق الجوار ؟

إن استعان بك أعنه ، وإن استقرضك أقرضه ، وإن افتقر جد عليه، وإن مرض عده، وإن مات اتبع جنازته ، وإن أصابه خير هنّه ، وإن أصبته مصيبة عزّه ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجز عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها ، وإن اشتريت فاكهة فأهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا تخرج بها أولادك فيغيظوا بها ولده . قال الحسن البصرى : ليس حسن الجوار كف الأذى عن الجار ، بل حسن الجوار الصبر على أذى الجار . وكان للحسن بن على رضى الله تعالى عنهما جار يهودى قد انخرق جداره وصارت القاذورات فى دار الحسن واليهودى لم يعلم ، فدخلت زوجة اليهودي يوماً فرأت ذلك فأخبرت زوجها فجاء معتذراً فقال الحسن : أمرنى جدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بإكرام الجار ، فعند ذلك قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فحسن إسلامه .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن ؟ فقلت: أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدى فعد خمساً ، قال : اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب . رواه الترمذى ، وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله عز وجل ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ، ثم قرأ ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ رواه فى الترهيب والترغيب ، ومنها طلاقة الوجه وطيب الكلام ، روى مسلم عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وعن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة ، وعن أبى جرى الهجيمى رضى الله تعالى عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، إنا قوم من أهل البادية ، فعلمنا شيئاً ينفعنا الله تعالى به ، قال : لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الإزار فإنه من المخيلة ، ولا يحبها الله تعالى ، وإن امرؤ شتمك بما

يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإن أجره لك ووباله على من قاله . ومنها ألا يستمع إلى كلام غيره ، ففى الحديث : من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنه الآنك (١) يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيه الروح وليس بنافخ . ومنها عدم التهاجر ، عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، وروى كعب عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : الله الله فيما ملكت أيمانكم ألبسوا ظهورهم وأشبعوا بطونهم وألينوا لهم القول .

وعن أبى أمامة عنه عليه الصلاة والسلام : أربعة يوفون أجورهم مرتين ، أزواج النبى ومن أسلم من أهل الكتاب ورجل كانت عنده أمة فأعجبته فأعتقها ثم تزوجها، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق ساداته . وعن ابن عباس : ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى ، إن شئت يا رسول الله . قال : إن شراركم الذى ينزل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده ، أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى ، إن شئت يا رسول الله ، قال : من يبغض الناس ويبغضونه ، قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله ، قال : الذين لا يقيلون عثرة ، ولا يقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنباً ، قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله ، قال : من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره .

ومنها شكر الإحسان ، فلذا كان كفر الإحسان من الكبائر ، قال فى الزواجر : ومنها كفران نعمة المحسن ، قال عليه الصلاة والسلام : لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر زوجها وهى لا تستغنى عنه ، ولذلك سماهن كافرات ، وقال عليه الصلاة والسلام: لا يشكر الله من لا يشكر الناس . روى عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من صنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء ، ومنها عدم احتقار المسلم ، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، روى

---

(١) قوله الآنك بالمد وضم النون : الرصاص ونحوه ا هـ منه .

مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولايحقره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، وأشار إلى صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله . ومنها ألا يكون ذا لسانين ولا وجهين ، عن أنس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من كان ذا لسانين جعل الله تعالى له يوم القيامة لسانين من نار ، وعن سعد بن أبى وقاص قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ذو الوجهين فى الدنيا يأتى يوم القيامة وله وجهان من نار ، رواه الطبرانى .

ومنها الإصلاح بين الناس وقبول اعتذار من اعتذر محقاً كان أو باطلاً . روى أبوهريرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من أتاه أخوه متنصلاً (١) من ذنب فليقبل محقاً ذاك أو مبطلاً ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض . ومنها زيارة الإخوان والصالحين وإكرام الزائر ، روى فى كشف الغمة قال : قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : زار رجل أخا له فى قرية فأرسل الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها ، قال : لا غير أنى أحببته فى الله عز وجل ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من عاد مريضاً أو زار أخا له فى قرية ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك ، وطابت لك الجنة ، وقال الله فى ملكوت عرشه : عبدى زار فىَّ وعلى قِراه ، فلم يرض له بثواب دون الجنة ، وفى رواية قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألا أخبركم برجالكم فى الجنة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : النبى فى الجنة ، والصديق فى الجنة ، والرجل يزور أخاه فى ناحية المصر لا يزوره إلا لله فى الجنة . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىَّ والمتجالسين فىَّ ، والمتزاورين والمتباذلين

(١) يقال تنصل إليه من الجناية أى خرج وتبرأ ا هـ منه .

فيَّ . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن فى الجنة غرفاً يرى ظواهرها من بواطنها وبواطنها من ظواهرها ، أعدها الله للمتحابين فيه والمتزاورين فيه . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم كثيراً ما يزور رجلاً مكفوف البصر بالمدينة ويجلس عنده، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : زر غبا تزدد حبا .

فيا أيها المرائى ، كيف رضيت بفساد أمرك ، حتى ضيعت أيام عمرك ، ويا أيها الظالم كيف ركبت الضلال بعد علمك وخبرك ، فلم تعمل صالحاً لقبرك ، وكيف آمنت بمعادك وحشرك ، ثم وافقت فى ترك العمل له المشرك ، ويحك اجتهد فى أيام بذرك ، وانتبه لإقامة عذرك ، واحذر أن ينادى عليك بغدرك ، فاندم على ما مضى، واستدرك ، أين علامات الإيمان يا من يدعيه ، أين تأثير الوعظ يا من يسمعه ويعيه، أين اعتبارك بمن حوى الدنيا فأصبح اللحد يحويه ، يا مسئولاً عما يسره ويبديه ، من نفسه فى الحقيقة من أكبر أعاديه ، يا من أصمه الهوى ومنادى الهدى يناديه ، يا من لا يفيق حتى يحل الموت بناديه ، نبه هذه النفس النائمة ، أعلمها ما هى عليه قادمة، قل لها إلى متى يا ظالمة ، إلى متى هذه الآمال ، والناس كلهم على ارتحال ، أترضى بهذا الحال ، ولم تراقب الرحيم المتعال ، فيا كثير السيئات ، وغزير الرياء فى الصلوات ، ومن لم يخلص الأعمال فى النيات ، غدا والله ترى عملك ، ويا هاتك الحرمات ، إلى متى تديم رياءك وزللك ، أما تعلم أن الله مطلع على قلبك ، أما تعلم أن الموت يسعى فى تبديد شملك ، أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك ، واعجباً لك من راحل تركت الزاد فى غير رحلك ، أين فطنتك ويقظتك وتدبير عقلك ، أما بارزت بالقبيح فأين التوبة والحزن ، أما دريت أن الحق سبحانه يعلم السر والعلن .

فحقيق أيها الإخوان لمن علم ما بين يديه ، وتيقن أن العمل يكتبه الملكان عليه ، وأنه لا بد من الرحيل عما لديه ، إلى موقف صعب يساق إليه ، أن يتجافى من مضجع البطالة بجنبيه ، وأن يتذكر يوماً يقع فيه الفراق وتنفصم فيه العرى ، فتدبر أمرك أيها المرائى قبل أن تحضر وترى ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، يوم تشيب فيه الأطفال ، يوم تسير فيه الجبال ، يوم يظهر فيه الوبال ، يوم تنطق فيه الأعضاء بما جرى من خيانة فى الأفعال والأقوال ، يوم لا تقال فيه العثار وكم أعذار تقال ، فترى من قد افترى ، يقدم قدماً ويؤخر أخرى ، إلى ورا ،

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً . ينصب الصراط فناج وواقع ، ويوضع الميزان فتكثر فيه الوضائع ، وتنشر الكتب وتسيل المدامع ، وتظهر القبائح بين تلك المجامع ، ويؤلم العتاب ويملأ المسامع ، ويخسر المرائى والعاصى ويربح المخلص والطائع ، وكم غنى قد عاد من الخير مقتراً . يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضراً .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، وطهر قلوبنا من النفاق ، وأعمالنا من الرياء ، قبل أن تشهد علينا الجوارح ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأصلح لنا شأننا كله ونبهنا من رقدات الغفلات ، وسامحنا فأنت الحليم المسامح ، اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أرجى عندنا من أعمالنا ، يا من أظهر الجميل وستر على القبائح، اغفر لنا ولوالدينا وللجماعة الحاضرين ، وجميع المسلمين وانفعنا بما علمتنا ، وعلمنا ما ينفعنا فمنك الفضل والمنائح . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس الخامس عشر
فى أمارات الساعة من حديث جبريل
عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله ذى النعم الظاهرة ، والحكم الباهرة ، والدلالات الظاهرة ، والعقوبات القاهرة ، خلق الخلائق من أصول منافرة ، وعم خلقه بالأيادى المتكاثرة، ثم عاد بالفناء على المستحكمات الناضرة ، فإذا هى بالبلى متناثرة ، ثم يجمعهم بنفخة الصور ، إلى الدار الآخرة ، فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ، أحمده على النعم الغامرة ، حمداً يعيد قفار القلوب عامرة ، وأقر له بالتوحيد على عقيدة ظاهرة ، وأصلى وأسلم على رسوله محمد صلاة تجلب لنا صلاة إلى صلاة إلى عاشرة ، وعلى صاحبه أبى بكر الناهض يوم الردة نهضة ظافرة ، وعلى عمر الذى أقلق الأكاسرة ، وعلى عثمان ذى المقلة الساهرة ، وعلى على قامع النفوس الكافرة .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى ، فإنه قال فى جامعه الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : حدثنى أبى عمر ابن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإن يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها ، قال أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان، قال : ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لى : يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . .

فنقول : وبالله التوفيق قد تقدم الكلام فى الدروس الماضية على هذا الحديث ، واختلاف رواته ، وبقى الكلام فى هذا الدرس على ما يتعلق بقوله عليه الصلاة والسلام فى الساعة (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) والكلام على أماراتها ، فقد قال العلماء عليهم الرحمة : قوله : (**فأخبرنى عن الساعة**) أى وقت القيامة ، وسميت الساعة لسرعة قيامها ووقوعها بغتة ، أو لأنها عند الله تعالى كساعة من الساعات عند الخلق ، قال بعض الفضلاء : ليس السؤال عن وقت مجيئها ليعلمه الحاضرون ، بل لينزجروا عن السؤال عنها ، كما قال تعالى : ﴿ **يسئلونك عن الساعة أيان مرساها** ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ **يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من**

الخير وما مسنى السوء إن أن إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ والساعة صغرى وهى موت الشخص نفسه كما قيل : من مات فقد قامت قيامته . ووسطى وهى موت أهل القرن كما ورد فى الجامع الصغير : لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة . وكبرى وهى المعنية فى هذا الحديث ، وإنكارها كفر والعياذ بالله تعالى ، وبها وردت الآيات الكريمة والأحاديث العظيمة الآتى ذكرها ، إن شاء الله تعالى فى هذا الدرس، ولها أمارات وعلامات متقدمة عليها ، فمنها بعثة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ، الذى هو خاتم النبيين ، وعاقب المرسلين .

وقد ورد فى الأثر أنه عليه الصلاة والسلام قال : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بأصبعيه الشريفتين . ومنها وفاته عليه الصلاة والسلام ، ومنها فتح بيت المقدس ، ومنها قتل أمير المؤمنين عثمان ، ومنها وقعة الجمل ووقعة صفين ، فقد صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة . ومنها واقعة النهروان ، ومنها وقعة كربلاء ووقعة الحرة ، وقتل ابن الزبير ورمى الكعبة بالمنجنيق ، وما جرى فى ذلك مما لا يحسن ولا يليق ، ومنها نار الحجاز التى أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى، ومنها خروج المبتدعة والكذابين الدجالين ، ومنها زوال ملك العرب كما رواه الترمذى ، ومنها كثرة المال وكثرة الزلازل والمسخ ، وغير ذلك مما أخبر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه من أمارات الساعة ، فظهر ومضى من أماراتها ما ورد فى هذا الحديث الشريف من قوله (**فأخبرنى عن أماراتها**) وهى بفتح الهمزة وبالتاء وهى والأمار بحذف الهاء العلامة ، وقوله عليه الصلاة والسلام (**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**) فيه دلالة على أنه ينبغى للعالم والمفتى وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، وأن ذلك لا ينقصه ، بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه كما اتفق لإمامنا الأعظم وغيره من الأئمة الأعلام ، وقوله عليه الصلاة والسلام : أن تلد الأمة ربتها ، وفى الرواية الأخرى : ربها على التذكير ، وفى الأخرى بعلها، يعنى السرارى ، ومعنى ذلك سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها . قال النووى عليه الرحمة : قال الأكثرون من العلماء : هو إخبار عن كثرة السرارى وأولادهن فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها ؛ لأن مال الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه فى الحال تصرف المالكين إما بتصريح أبيه بالإذن وإما بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف

الاستعمال ، وقيل : معناه أن الإماء يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته ، وقيل معناه أنه تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد فى آخر الزمان فيكثر ترددها فى أيدى المشترين حتى يشتريها ابنها ولا يدرى، وأما رواية بعلها فالصحيح فى معناه أن البعل هو المالك أو السيد فيكون بمعنى ربها على ما ذكرناه ، قال أهل اللغة : بعل الشىء ربه ومالكه ، وقيل المراد به الزوج ، ومعناه نحو ما تقدم أنه يكثر بيع السرارى ، أى المملوكات حتى يتزوج الإنسان أمه ، وهو لا يدرى ، فذلك من أمارات الساعة .

ومنها أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان ، والحفاة جمع حاف وهو ما لا نعل فى رجله ، والعراة جمع عار وهو الذى لا شىء على جسده والعالة جمع عائل وهو الفقير والعيلة الفقر ، وعال الرجل يعيل عيلة أى افتقر ، والرعاء بكسر الراء وبالمد ، ويقال فيهم رعاة بضم الراء وزيادة الهاء بلا مد ، ومعناه كما قال النووى أن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا وتكثر أموالهم ، ويستولون على أهل الحاضرة ، فيتباهون فى البنيان بتشييده وارتفاعه. قال العلماء : إن ارتفاع البنيان وتشييده من غير حاجة ضرورية مذموم ، كما قيل : بيت العنكبوت ، كثير على من يموت ، وقد ورد فى الأثر عن سيد البشر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : يؤجر ابن آدم فى نفقته كلها إلا ما يضيعه فى هذا التراب ، حتى قال العلماء : إن زخرفة المساجد مذمومة شرعاً ، حتى إن ذلك من جملة أمارات الساعة أيضاً ، قال بعض العافين : ويعلم من ذلك حكم تزيين القبور وتذهيبها وما يوضع عليها من القناديل والفضة والستور ، فإن ذلك أيضاً من العلامات ، ومحرم كما نص عليه فى المذاهب الأربعة العلماء الثقات ، فإنا لله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومنها ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا اتخذ الفىء دولا والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً ، وتعلم لغير دين ، وأطاع الرجل امرأته ، وعق أمه ، وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ، وفى رواية ، ولبس الحرير ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو زلزلة وخسفاً ومسخا وقذفا

وآيات تتتابع كنظام قطع سلكه فتتابع . ومنها ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: إذا مشت أمتى المطيطاء أى التبختر وخدمتهم أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلط الله شرارهم على خيارهم . وروى : لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس لكع بن لكع ، ومنها ما رواه البخارى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا ، قال العلماء : ليس المراد برفع العلم محوه من صدور الحفاظ وقلوب العلماء، فإن الله سبحانه وتعالى لا يهب العلم لخلقه ثم ينتزعه منهم بعد أن تفضل عليهم به تعالى الله أن يسترجع ما وهب من علمه الذى يؤدى إلى معرفته ، والإيمان به وبرسله ، وإنما يكون قبض العلم بموت العلماء وعدم المتعلمين ، فلا يوجد فيمن يبقى من يخلف من مضى ، قال عليه الصلاة والسلام : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا . ثم موت العلماء نقص فى الدين كما قال عطاء وجماعة ، فى قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ، وقال ابن مسعود : موت العالم ثلمة فى الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار، وقال عمر رضى الله تعالى عنه : موت ألف عابد صائم النهار قائم الليل أهون من موت عالم . وقال سليمان : لا يزال الناس بخير ما بقى الأول حتى تعلم الآخر ، وفضائل العلم كثيرة لا يسع ذكرها هذا المجلس ، والمقصد الآن أن قلة العلم وفشو الجهل فى الأحكام الشرعية من أمارات الساعة ، كما فى زماننا هذا ، من ترك أكثر الناس تعلم أمور دينهم وحضورهم لسماع القصاصين فى الأماكن المذمومة ، وجلوسهم فى المحال غير المشروعة ، وبذل دراهمهم للمحرمات الممنوعة ، وصرف نقد عمرهم فى الأحوال التى لا تفيد فى الحال والمآل ، ومنها شرب الخمور وكثرة المسكرات ، كما ورد فى بعض الأحاديث المتقدمة وهو من الكبائر ، روى أبو داود : لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرَها وحاملها والمحمولة إليه . وفى رواية : وآكل ثمنها . وروى أيضاً : من باع الخمر فليشقص الخنزير ، أى لا فرق بينهما فى الحرمة ، وعنه عليه الصلاة والسلام : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر ، والنسائى : كل مسكر حرام ومن يشرب الخمر فى الدنيا ولم يتب لم يشربها فى الآخرة . وروى أن شراب

شاربى الخمر فى جهنم من طينة الخبال ، وهى صديد أهل النار ، وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل أخذ رجلاً فخيره بين أن يشرب الخمر أو يقتل نفساً أو يزنى أو يأكل لحم خنزير أو يقتلوه فاختار الخمر ، وأنه لما شربها لم يمتنع من شيء أرادوه وفعل جميع ذلك ، ولله در ابن الوردى حيث يقول :

واهـجر الخـمرة إن كنت فتى　　كيف يسعى فى جنون من عقل

ومنها كما ورد فى الحديث . قلة الرجال وكثرة النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد ، ومنها ما روى عن حذيفة الغفارى رضى الله تعالى عنه قال : اطلع علينا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نتذاكر ، فقال : ما تتذاكرون ؟ قلنا : نذكر الساعة ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر عليه الصلاة والسلام الدخان والدجال ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ا هـ قال العلامة السفارينى فى منظومته :

وما أتى فى النص من أشراط　　فكلـه حـق بـلا شطـاط
منهـا الإمام الخـاتم الفصيح　　محـمد المهـدى والمسيـح
وأنـه يقتـل للـدجـال　　ببـاب لـد خل عن جدال
وأمـر يأجوج ومأجوج أثبت　　فإنـه حـق كهـدم الكعبة
ودابـة وآيـة الـدخـان　　وأنـه يذهـب بـالقرآن
طـلوع شمس الأفق من دبور　　كـذات أجـياد على المشهور
فكلهـا صحـت بها الأخبار　　وسطـرت آثارهـا الأخيار
وآخـر الآيـات حشر النار　　كمـا أتى فى محكم الأخبار

ولنذكر مفصل ذلك فنقول إن هذه العلامات العشر هى الآيات الكبار القريبة لقيام الساعة ، فمنها خروج المهدى رضى الله تعالى عنه على القول الأصح، عند أكثر العلماء ، ولا عبرة بمن أنكر مجيئه من الفضلاء وإن استدل بما فى بعض الروايات الضعيفة « لا مهدى إلا عيسى » ، حتى قال ابن حجر فى الصواعق ما نصه : قوله تعالى : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ قال مقاتل بن سليمان ومن تبعه من المفسرين : إن

هذه الآية نزلت فى المهدى ا هـ . وأقول : أول الآية يشعر بأنها فى حق عيسى عليه السلام ، وإشارة إلى نزوله وأنه من أشراط الساعة ، قال تعالى : ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه** ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ **وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها** ﴾ وفى مجىء المهدى أحاديث عديدة ، فقد روى عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى ، وفى رواية أبى هريرة : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . وفى رواية : يملك سبع سنين ، وفى أخرى : ثمان أو تسع سنين ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون مع عيسى عليه السلام ويدفن فى بيت المقدس ، وفى رواية يحكم أربعين سنة ، قال فى الإشاعة ، وهو الذى تقتضيه بشارة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم به ، وأن الله تعالى يعوضهم عن الظلم عدلاً ، واللائق بكرمه تعالى أن تكون المدة بقدر ما ينسون فيها الظلم السابق مع أنه فى مدته تفتح الدنيا كما فتحها ذو القرنين وسليمان عليه السلام ، وهذا يقتضى مدة طويلة مع ما ورد أن الأعمار تطول فى زمانه فطولها مستلزم لطول مدته والتسع ليست من الطول فى شىء ا هـ .

واختلف فى نسبه ، فقيل : من أولاد العباس بن عبد المطلب ، وقيل من أولاد الحسن ، والأصح أنه من أولاد الحسين ، قيل : وأمه من أولاد العباس ، وفى شرح عقيدة السفارينى ما ملخصه أن المهدى هو خاتم الأئمة فلا إمام بعده واسمه محمد ، وفى بعض الأخبار أحمد ، واسم أبيه عبد الله ، واشتهر بالمهدى لأنه يهدى إلى أمر خفى ، ويستخرج التوراة والإنجيل من أرض يقال لها أنطاكية ، أو من جبال الشام، ويدعو إليها اليهود فيسلم على تلك جماعة كثيرة ، وحليته كما فى الأحاديث أنه رجل ربعة مشرب بحمرة ووجهه كالكوكب الدرى ولونه لون عربى ، وجسمه جسم إسرائيلى ، يرضى عن خلافته أهل الأرض ، وأهل السماء والطير فى الجو ، يملك عشرين سنة . وروى ابن مسعود : المهدى منى ، أجلى الجبهة أقنى الأنف . وعن عبد الرحمن بن عوف عنه صلى الله تعلى عليه وسلم : ليبعثن الله فى عترتى رجلاً فرق الثنايا أجلى الجبهة يملأ الأرض عدلاً ويقبض المال قبضاً ، وفى حديث آخر : فى خده الأيمن خال أسود ، ابن أربعين سنة . وفى آخر : يستخرج الكنوز ويفتح مدائن الترك . وعن أبى جعفر محمد الباقر قال : سئل أمير المؤمنين على كرم الله

تعالى وجهه عن صفته فقال : هو شاب مربوع حسن الوجه ، يسيل شعره على منكبيه ، يعلو نور وجهه سواد شعره ، ولحيته ورأسه ، وفى أخرى عنه : أنه كث اللحية أكحل العينين ، براق الثنايا ، فى وجهه خال أقنى ، فى كتفه علامة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وفى رواية لأبى نعيم : بكفه اليمنى خال ، وفى رواية: فى لسانه ثقل ، وإذا أبطأ عليه الكلام ضرب فخذه الأيسر بيده اليمنى ، قال العلماء : المهدى يقاتل على السنة لا يترك سنة إلا أقامها ، ولا بدعة إلا رفعها ، يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويرد إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم ، ولظهوره علامات جاءت بها الآثار ، فمنها كسوف الشمس والقمر ، ونجم الذنب والظلمة وسماع الصوت برمضان ، وتحارب القبائل بذى القعدة ، وظهور الخسف والفتن ، وأن معه قميص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسيفه ورايته ، ويغرس قضيباً يابساً فى أرض يابسة فيخضر ويورق ، ويطلب منه آية فيومئ إلى طير فى الهواء بيده فيسقط على يده ، وينادى مناد من السماء : أيها الناس إن الله قطع عنكم الجبارين والمنافقين وأشياعهم ، وولاكم خير أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالحقوه بمكة فإنه المهدى ، ويخرج كنز الكعبة المدفون فيها فيقسمه فى سبيل الله تعالى ، وعن على كرم الله تعالى وجهه أنه سيخرج تابوت السكينة من غار أنطاكية أو من بحيرة طبرية فيوضع بين يديه فى بيت المقدس ، فإذا نظر إليه اليهود أسلموا إلا قليلاً منهم ، وتأتيه الرايات السود من خراسان فيرسلون إليه البيعة ، وينشق الفرات فينحسر عن جبل من ذهب ، وذكروا أنه ينكسف القمر أول ليلة من رمضان والشمس ليلة النصف ، ولعل ذلك خرق للعادة وإلا فانكساف القمر ليلة الإبدار والشمس أيام الإسرار ، وقال كعب الأحبار : ينكسف ثلاث ليال متواليات ، وروى عنه أنه يطلع نجم بالمشرق وله ذنب يضيء كما يضيء القمر ، ينعطف حتى يلتقى طرفاه أو يكاد . وفى الديلمى : تكون هذه فى رمضان هائلة ، ومن العلامات خسف قرية ببلاد الشام يقال حرستا كما قاله فى كتاب الإشاعة ، وفيه أنه إذا انحسر الفرات عن جبل ذهب يقتتلون عليه ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : من حضر فلا يأخذ منه شيئاً . وروى أنه قال : إن بين يدى الساعة كذابين فاحذروهم ، وفى أخرى أنهم دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أنه لا يظهر إلا على خوف شديد من الناس ، وزوال وفتنة وبلاء يصيب الناس ، والطاعون قبل

ذلك ، وسيف قاطع بين العرب واختلاف شديد فى الناس ، وتشتت فى دينهم وتغيير فى حالهم ، حتى يتمنى الموت صباحاً ومساء من عظيم ما يرى من كلب الناس وأكل بعضهم بعضاً ، فحينئذ يخرج فطوبى لمن أدركه ، وكان من أنصاره ، والويل لمن خالفه . وقال محمد بن الصامت : قلت للحسين بن على رضى الله تعالى عنهما : أما من علامة لظهور المهدى ؟ قال : بلى ، هلاك بنى العباس ، وخروج السفيانى والخسف بالبيداء ، قال السفارينى : ومن أقوى العلامات خروج السفيانى والأبقع والأصهب والأعرج والكندى ، أما السفيانى فاسمه عروة قيل وهو من ولد خالد بن يزيد بن أبى سفيان ملعون فى السماء والأرض يخرج من ناحية دمشق ، وعامة أتباعه من كلب ، ويخسف بهم ، والأبقع يخرج من مصر أو من بلاد الجزيرة ، والجرهمى من الشام ، ويخرج القحطانى من بلاد اليمن ، ويتقاتلون فيقتلهم السفيانى ، ثم يقاتل الترك فيظهر عليهم ثم يفسد فى الأرض ويدخل الزوراء ويقتل من أهلها ، ثم يخرج وراء النهر خارج يقال له الحرث واجب على كل مؤمن نصره ، ويثور أهل خراسان بعساكر السفيانى وتكون بينهم واقعات ، ثم إنه يقتل على يد المهدى .

وأما مولد المهدى وبيعته فقد أخرج نعيم بن حماد عن على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه قال : مولده بالمدينة ومهاجره بيت المقدس ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ، يخرج من قرية يقال لها كريمة ، وأما بيعته فيبايع بمكة المشرفة بين الركن والمقام ليلة عاشوراء ، وإذا هاجر المهدى من المدينة إلى بيت المقدس تخرب المدينة بعد هجرته وتصير مأوى للوحش ، وقد ورد أن عمار بيت المقدس خراب يثرب ، وفى حديث قتادة يخرج المهدى من المدينة إلى مكة ، وفى خبر أن السفيانى يبعث جيشاً إلى مكة فيأمر بقتل من كان فيها من بنى هاشم فيقتتلون ويهربون إلى الجبال حتى يظهر المهدى فيطلبونه فيصيبونه بمكة فيقولون ألست فلاناً فيقول بلى أنا رجل من الأنصار ، ثم يلحق بالمدينة فيطلبونه فيرجع إلى مكة وهكذا ثلاث مرات ، فيصيبونه بمكة فى الثالثة فيبايعونه بين الركن والمقام ، وقد أقبل عسكر السفيانى وأنصار المهدى من أهل الشام عدد أصحاب بدر ، ثم يتوجه إلى المدينة ومعه المؤمنون ، ثم يسير إلى جهة الكوفة ، ثم يعود منهزماً من جيش السفيانى إلى الشام فيخرج الله تعالى على السفيانى من أهل المشرق وزير المهدى فيهزم السفيانى

إلى الشام ، فيقصده المهدى فيذبحه عند عتبة بيت المقدس ، ويغنمه ومن معه من أخواله الذين هم جنده من بنى كلب غنيمة عظيمة .

وفى حديث آخر : لا تحشر أمتى حتى يخرج المهدى يمده الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة ، ويخرج إليه الأبدال من الشام والنجباء من مصر وعصائب أهل الشرق، حتى يأتوا مكة فيبايع له بين الركن والمقام ، ثم يتوجه إلى الشام وجبريل على مقدمته وميكائيل على يساره ، ومعه أهل الكهف أعوان له ، فيقدم إلى الشام ، ويأخذ السفيانى فيذبحه تحت الشجرة التى أغصانها إلى بحيرية طبرية ، ثم تمهد الأرض له وتدخل فى طاعته ملوك الأرض كلهم .

وقد اختلف فى مدته فقيل خمساً أو سبعاً أو ثلاثين أو أربعين سنة ، ويفتح القسطنطينية ورومية المدائن وغيرهما ، ثم يستمر حتى يسلم الأمر لسيدنا عيسى عليه السلام ، ويصلى المهدى رضى الله تعالى عنه بعيسى عليه السلام صلاة واحدة ، وهى صلاة الفجر ، ثم يستمر المهدى على الصلاة خلف سيدنا عيسى عليه السلام بعد تسليمه الأمر إليه ، ويخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال عليه اللعنة بباب لد بأرض فلسطين ، كما سنفصله إن شاء الله تعالى ، ثم يموت المهدى ويصلى عليه روح الله عيسى عليه السلام ، ويدفنه فى بيت المقدس ا هـ .

وهذا الذى ذكرناه فى أمر المهدى هو الصحيح من أقوال أهل السنة والجماعة ، وأما عند الشيعة فقد اختلفوا فيه أيضاً على أقوال شتى ، والمشهور من مذاهبهم مذهب الإمامية الاثنى عشرية أن المهدى هو محمد بن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنهم . ويعرف عندهم بالحجة والمنتظر والقائم ، وهو الذى غاب فى سرداب دار أبيه فى سامراء صغيراً وأمه تنظر إليه وذلك فى سنة خمس وستين ومائتين، وهو حى الآن موجود فى الدنيا ، وهذا مع بعده فى العقل لا يؤيده صحيح نقل ، ولقد أنشد بعض الشعراء مخاطباً لمن يعتقد هذه العقيدة الشنعاء :

ما آن للسرداب أن يلد الذى   ولدتمـــوه بزعمكـــم ما آنا

فعلى عقولكـم العفاء لأنكم   ثلثتـــم العنـــقاء والغيلانا

والكلام فى هذه المباحث طويل ، ومن أراد تفصيلها فعليه بالكتب الجامعة لمتفرق

الأقاويل ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، فانتهوا أيها النيام ، فقد بقيت لكم قليلات الأيام ، وتوالت أمارات الساعة فاتخذوا لكم التقوى بضاعة :

هى الدنيـــا فلا يغررك منها ... زخارف تستفز ذوى العقول

أقل قليلهـــا يكفيـــك منهـــا ... ولكن لست تقنع بالقليـــــل

فيا أيها الراحل وماله رواحل ، متى تسمع قول العاذل ، هذا العدو ينصب الحبائل ، إلى كم ترضى باسم الجاهل ، كم تعد بالتوبة وكم تماطل ، كم أسمعك الموت وعيدك ، فلم تنته حتى قطع وريدك ، ونقض منزلك وهدم مشيدك ، ومزق مالك وفرق عبيدك ، وأخلى دارك وملأ بيدك ، أما رأيت قرينك ، أما أبصرت فقيدك، يا ميتاً عن قليل مهد تمهيدك ، لقد أمرضك الهوى وفى عزمه أن يزيدك ، أف لعيش آخره الندامة ، آه من سفر بدايته القيامة ، هذا نذير الموت قد غدا ، يقول لكم الرحيل غدا ، كيف بكم إذا صاح إسرافيل فى الصور بالصوَر ، فخرجت تسعى من تحت المدر ، وقد رجت الأرض وبست الجبال ، وشخصت الأبصار لتلك الأهوال ، وطارت الصحائف ، وقلق الخائف ، وشاب الصغار ، وزفرت النار ، وأحاطت الأوزار ، ونصب الصراط وحضر الحساب ، وقرب العذاب وشهد الكتاب، وقطعت الأسباب ، فكم من شيخ يقول وا شيبتاه ، وكم من كهل ينادى واخيبتاه ، وكم من شاب يصيح وا شباباه ، برزت النار فأحرقت ، وقطعت الأفئدة وتفرقت ، والأحداق قد سالت ، والأعناق قد مالت ، والمحن قد توالت ، أين عدتك لذلك الزمان ، أين تصحيح اليقين والإيمان ، أترضى يومئذ بالخسران ، أما تعلم أنك كما تدين تدان ، يا من قد ملأ كتابه بالقبيح ، وهو عن قليل رهن الضريح ، كم فى كتابك من زلل ، كم فى عملك من خلل ، هذا وقد قرب الأجل، كم ضيعت واجباً وفرضاً ، ونقضت عهداً محكماً نقضاً ، وأتيت حراماً صريحاً محضاً ، يا أجساداً صحاحاً فيها القلوب مرضى :

إنمـــا الدنيـا بـــلاء ... ليس فى الدنيا ثبوت

إنمـــا الدنيـا كبيـــت ... نسجته العنكبـــوت

كل من فيها لعمرى ... عن قريـب سيموت

إنمـــا يكفيـــك منها ... أيهـــا الراغب قوت

فنسأله تعالى أن يوفقنا وإياكم لمراضيه ، ويجعل مستقبل حالنا وحالكم خيراً من ماضيه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

* * *

المجلس السادس عشر
فى أمارات الساعة من حديث جبريل
عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الواحد الماجد العظيم ، الدائم القائم القديم ، السميع البصير الحليم ، القوى العلى الغنى الحكيم ، قضى فأسقم الصحيح ، وعافى السقيم ، وقدر فأعان الضعيف وأوهى القويم ، وقسم عباده إلى قسمين طائع وأثيم ، وجعل مآلهم إلى دارين دار النعيم ودار الجحيم ، فمنهم من عصمه عن الخطايا فكأنه فى حريم ، ومنهم من قضى له أن يبقى على الذنوب ويقيم ، ومنهم من تردد بين الأمرين . والعمل بالخواتيم .

خرج موسى راعياً فعاد وهو الكليم ، وذهب ذو النون مغاضباً فالتقمه الحوت وهو مليم ، وكان محمد يتيماً فصار الكون لذلك اليتيم ، وعصى آدم وإبليس فهذا مرحوم وهذا رجيم .

أنعم علينا بالفضل الوافر العميم ، وهدانا بمنه إلى الصراط القويم ، وحذرنا بلطفه من العذاب الأليم ، ومن علينا بالكتاب العزيز القديم ، فهو سبحانه مستوجب للتعظيم ، أحمده وكيف لا يحمد ، وأشهد أنه لم يلد ولم يولد ، وأن محمداً عبده الأمجد ، ورسوله الأوحد ، أخذ له الميثاق على أقرب الأنبياء والأبعد، وأقام عيسى يقول مبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، وبه توسل آدم وقد أسجد له من أسجد ، من كل ملك كريم ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الرفيق حين يسافر وحين يقيم ، وعلى عمر الفاروق الذى عمَّر من الدين ما غمر بأحسن تدبير وأكمل تقويم ، وعلى عثمان الشريف قدره الجليل صبره على ما أضيم ، وعلى على مقدم الشجعان فى حربهم والمؤمنون به من كربهم فى مقعد مقيم، وعلى سائر آله وأصحابه ما سلك الطريق المستقيم .

أما بعد : فقد قال عليه الصلاة والسلام فى أمارات الساعة : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان، إلى آخر الحديث الذى قدمناه مراراً عديدة ، وقد تكلمنا عليه ، وذكرنا ما يتعلق به من بعض أمارات الساعة وعلاماتها ، وبقى علامات أخر نذكر تفصيلها فى هذا الدرس إن شاء الله تعالى؛ ليعرفها المسلم إذ الإيمان بها واجب، فمن ذلك خروج الدجال عليه اللعنة والوبال.

فنقول : هو منبع الكفر والضلال ، وينبوع الفتن والأوجال ، قد أنذرت به الأنبياء قومها ، وحذرت منه أممها ، حتى كان النبى عليه الصلاة والسلام يدعو فى آخر صلاته بقوله : اللهم إنى أعوذ بك من فتنة المحيا وفتنةِ الممات ، ومن عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ؛ فلذا ذهب بعض العلماء من الشافعية إلى وجوب هذا الدعاء فى الصلاة . وفى الحديث ما كانت ولا تكون فتنة حتى تقوم الساعة أعظم من فتنة الدجال ، وما من نبى إلا وحذر قومه الدجال . رواه الحاكم. وقال ابن ماجة : سمعت المشايخ يقولون : ينبغى أن يعطى حديث الدجال للمؤدبين حتى يعلموه الصبيان فى الكتاب ، وقد ورد من علامات خروجه نسيان ذكره على المنابر ، فينبغى لكل عالم ولا سيما فى زماننا التذكير به ، والتحذير من فتنته ، وفتنة أمثاله المتلاعبين فى الدين ، أجارنا الله تعالى وإياكم من فتنتهم أجمعين .

وقد اختلف العلماء فى نسبه فقيل : إنه صاف بن صياد ، وأنه ولد بالمدينة ، وقيل هو شيطان موثوق فى بعض الجزائر ، وأنه من أولاد شق الكاهن أو هو شق نفسه وأن أمه كانت جنية عشقت أباه فأولدها إياه ، وكانت الشياطين تعمل له العجائب ، فحبسه سليمان بن داود عليهما السلام ، وهذا قول مردود . وقال كعب الأحبار : الدجال تلده أمه بقوص من أرض مصر ، وبين مولده وخروجه أربعون سنة ، وفى الترمذى : يخرج من خراسان ، وفى صحيح مسلم عن أنس رضى الله تعالى عنه مرفوعاً : يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة . وفى مستدرك الحاكم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : يخرج الدجال من يهودية أصبهان لم يخلق له عين والأخرى كأنها كوكب ، يشوى فى الشمس سمكاً ، ويتناول الطير من حوله ، وله ثلاث صيحات يسمعها أهل المشرق والمغرب ، ومن حليته أنه شاب، وفى رواية : شيخ جسيم أحمر ، وفى رواية : أبيض أمهق ، وفى أخرى آدم

أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية . وفى رواية أخرى أعور العين اليسرى ، وفى رواية أنه أعور العين مطموسة .

ومن أوصافه أنه قصير أفحج أى متباعد ما بين الساقين ، عظيم اللحية والجثة ، مكتوب بين عينيه ك ا ف ر حروفاً مقطعة يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب ، ولا يقرؤها الكافر ، ولا يولد له ولا يدخل المدينة ولا مكة ، تتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة ، وسبعون ألفاً من يهود أصبهان عليهم التيجان ، وكلهم ذو سيف محلى ، ومن صفاته أيضاً أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وأبوه طوال ، ضرب اللحم كأن أنفه منقار ، وأمه كثيرة اللحم عظيمة الثديين طويلة الشفتين ، وللدجال حمار أهلب ، وهو المشعر ، ما بين أذنيه أربعون ذراعاً ، يضع خطوته عند منتهى طرفه . قيل : وأول خروجه يدعى الإيمان والصلاح حتى يقدم الكوفة فيظهر الدين ويتبع ، ثم يدعى الإلهية فيقول : أنا الله ، فتغشى عينه، وتقطع أذناه ، ويكتب بين عينيه كافر ، فيفارقه المسلمون .

قال عليه الصلاة والسلام : إن الدجال أعور ، والله عز وجل ليس بأعور . قال العلماء : ولذا سمى مسيحاً لأن المسيح هو الممسوحة عينه ، وأما عيسى عليه السلام فسمى مسيحاً لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ ، وقال كعب الأحبار : يتوجه فينزل عند باب دمشق الشرقى ابتداء قبل خروجه ، ثم لا يدرى أين توجه ، ثم يظهر فى المشرق فيعطى الخلافة ، ثم يظهر السحر ، ثم يدعى النبوة فينصرف عنه المسلمون ، فيأتى النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ، ثم يأمره أن يرجع فيرجع ، ثم يأمره أن ييبس فييبس ، ويبعث الله تعالى له شياطين فيقولون له : استعن بنا على ما تريد ، فيقول لهم : نعم اذهبوا إلى الناس فقولوا أنا ربهم ، فيبعثهم فى الآفاق ، ويدعى الإلهية، ويقتل النفوس ويحييهم ، وقيل : يخرج من كوثى بالكوفة ، وأكثر من يتبعه اليهود والنساء والأعراب . وفى الحديث : إن السماء تمسك ما فيها ويهلك كل ذى ضرس وظلف سنة خروجه ، وهو يسير معه جبلان ، أحدهما فيه أشجار وأثمار وماء ، والآخر فيه دخان ، فيقول : هذه الجنة وهذه النار ، وعن حذيفة أن معه رجالاً يقتلهم ثم يحييهم ، وفى صحيح مسلم أن ناره جنة وجنته نار ، وفى حديث آخر فى صحيح مسلم أن الدجال معه نهران يجريان أحدهما رأى العين ماء أبيض والآخر رأى العين نار تأجج . فأما إن أدرك ذلك أحد منكم فليأت النهر الذى يراه ناراً

ويغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد . وفى الحديث أن من أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، وأن الصحابة قالوا : يا رسول الله فما لبثه فى الأرض؟ قال : أربعون . . يوم ، كسنة ، ويوم كشهر ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم . قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة تكفينا فيه صلاة يوم ، قال : لا ، أقدروا له قدره ، قلنا : يا رسول الله ، ما إسراعه فى الأرض ، قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت درا ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول : أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه ، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله تعالى المسيح بن مريم عليه السلام ، فينزل من المنارة البيضاء شرقى دمشق ، ثم يقتل الدجال ، كما سنفصله إن شاء الله تعالى فى بحث عيسى عليه السلام .

ومنها العلامة الثالثة وهى نزول عيسى عليه السلام من السماء ، وذلك ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته** ﴾ أى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان حتى تكون الملة واحدة ، ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً ، قال بعض المفسرين : إن الضمير فى قوله قبل موته راجع ليهود ، ويؤيده قراءة أبى رضى الله تعالى عنه : قبل موتهم ، وأما السنة ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، الحديث .

وأخرج مسلم عن جابر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : ألا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة . وأما الإجماع فقد أجمعت الأمة على نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة ، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة

والملاحدة مما لا يعتد بخلافهم ، وقد انعقد إجماع الأمة على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المطهرة المحمدية ، وليس ينزل بشريعة مستقلة ، وإن كانت نبوته قائمة به ، وقول من زعم من العلماء أنه يرفع التكليف مردود ، ويتسلم الأمر من المهدى ، ويكون المهدى من أصحابه وأتباعه ، حتى أصحاب الكهف الذين هم من أتباع المهدى ، ويسلم إليه تابوت بنى إسرائيل وكل ما معه من آلات الأمر كما تقدم ، ولنذكر فوائد تتعلق بحليته وسيرته عليه السلام .

فعن البخارى من حديث عقيل بن خالد أنه أحمر أجعد عريض الصدر ، وفى رواية له لمة (أى بكسر اللام وتشديد الميم) قد رجلها أى سرحها ، وفى رواية : لمته بين منكبيه ، رجل الشعر يقطر رأسه ماء . وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعاً : ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام ، مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض سبط الرأس . وفى حديث أبى هريرة : كأنما خرج من ديماس ، يعنى الحمام ، وأما سيرته فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير والقرد ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام ، ويتحد الدين فلا يعبد إلا الله ، ويترك الزكاة لعدم من يقبلها، وتظهر الكنوز فى زمنه ، ولا يرغب فى اقتناء المال ، ويرفع الشحناء والتباغض ، وينزع الله سم كل ذى سم حتى تلعب الأولاد بالحيات والعقارب ، ويرعى الذئب مع الشاة ، وينعدم القتال ، وتنبت الأرض كعهد آدم عليه السلام ، حتى يجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، وترخص الخيل لعدم القتال ، ويغلو الثور لكثرة الحرث ، وأما نزوله من السماء وما يجرى على يديه من الملاحم فقد ورد فى الأحاديث الصحيحة ، ففى صحيح مسلم : بينما الدجال كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين أو شقتين أو حلتين أو ثوبين صفراوين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، ا هـ .

ويكون نزوله لست ساعات مضت من النهار ، حتى يأتى مسجد دمشق ويقعد على المنبر ، فيدخل المسلمون المسجد ، وكذا النصارى واليهود كلهم يرجونه ، ويأتى مؤذن المسلمين وصاحب بوق اليهود وناقوس النصارى فيقترعون فلا يخرج إلا سهم المسلمين ، وحينئذ يؤذن مؤذنهم ، ويخرج اليهود والنصارى من المسجد ، ويصلى بالمسلمين صلاة العصر ، وفى رواية : بينما إمامهم أى المهدى قد تقدم يصلى

بهم الصبح إذ نزل عليهم نبى الله عيسى بن مريم للصبح ، فيرجع المهدى قهقرى ، ليتقدم عيسى عليه السلام ، ويقال له : يا روح الله تقدم ، أى يقول ذلك من لم يحرم بالصلاة إذن فيقول : ليتقدم إمامكم ، فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفى المهدى فيقول له : تقدم فإنها لك أقيمت ، فيصلى بهم إمامهم فإذا انصرف قال عيسى : افتح فيفتح ووراءه - أى وراء الباب - الدجال ومعه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح فى الماء وانطلق هاربا ، فيدركه عند باب لد ، وهى بلدة مشهورة بينها وبين رملة فلسطين مقدار فرسخ ، فيقتله هناك بحربته التى نزل بها من السماء . وفى رواية : يذبحه بالسكين، فينهزم جنوده ، فلا يبقى شىء مما خلق الله يتوارى به يهودى إلا أنطق الله تعالى ذلك الشىء من شجر وحجر ودابة إلا قال : يا عبد الله هذا يهودى ، وفى لفظ : دجالى ، فتعال اقتله إلا الغرقد [1] فإنه من شجر اليهود . ثم إن عيسى عليه السلام بعد قتل الدجال يذهب إلى المدينة ، يزور قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويحج ويتوفى بالمدينة فيدفن هناك .

وفى الحديث : وليأتين قبرى حتى يسلم على ولأردن عليه . وأخرج البخارى فى تاريخه : يدفن ابن مريم مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبيه رضى الله تعالى عنهما ، وفى المواهب : بقى من البيت موضع قبر يدفن فيه عيسى بن مريم عليه السلام ، ويكون قبره الرابع ، وقد تقدم أن المهدى يتوفى قبله .

وروى أبو هريرة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ينزل عيسى بن مريم فيمكث فى الناس أربعين سنة ، وعن الإمام أحمد وأبى داود أنه يمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ، ويدفنونه عند نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم . ونقل السفارينى عن ابن الجوزى أنه روى فى كتابه المنتظم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ينزل عيسى بن مريم فيتزوج ويولد له ، ذكر بعضهم ولدين ، أحدهما يسميه موسى والآخر محمداً ، وأن أمهما من اليزد ، قال : ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت ويدفن معى فى قبرى ، فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبى بكر وعمر ، جعلنا الله وإياكم من

---

(١) العوسج اهـ منه .

المؤمنين بهم ، المصدقين بمجيئهم والمحبين لهم والمحشورين معهم ، ووقانا وإياكم من الفتن والأهواء ، وتوفانا على شريعة سيد الأنبياء ، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، ما مضت ساعة ومر يوم من الأيام ، إلى قيام الساعة وساعة القيام .

ومنها الأمارة الرابعة ، وهى خروج يأجوج ومأجوج ، وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام ، كما قال مقاتل ، وقال الضحاك : هم من الترك (١) ، وقال أهل التاريخ : أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب والعجم والروم ، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ، ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج . قال ابن عباس : يأجوج ومأجوج عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء ؛ لأنهم لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه يحملون السلاح ، فمنهم من طوله مائة وعشرون ذراعاً أو خمسون ، ومنهم من طوله وعرضه كذلك ، ومنهم من يلتحف بإحدى أذنيه ويفترش الأخرى ، وقال على رضى الله تعالى عنه : منهم من طوله شبر ومنهم هو مفرط فى الطول ، لهم مخالب فى موضع الأظفار من أيدينا ، وأنياب وأضراس كأضراس السباع ، ولهم شعر فى أجسادهم . واعلم أن خروجهم ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، قال الله تعالى : ﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ وروى مسلم من حديث النواس بن سمعان رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: إن الله تعالى يوحى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتله الدجال : إنى قد أخرجت عباداً لى لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، الحديث . وفى رواية لمسلم : ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر ، وهو جبل بيت المقدس ، فيقولون : لقد قتلنا من فى الأرض هلم فلنقتل من فى السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضبة دماً ، فيرغب نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى ، فيرسل الله تعالى عليه النغف - بفتح النون والغين المعجمة فقاء - وفى رواية دودا كالنغف فى أعناقهم ، وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم، فيصبحون موتى كموتى نفس واحدة ، أى قتلى ثم يبعث الله ريحاً يمانية فتقذف جيفهم فى البحر . ولفظ صحيح مسلم : فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله

---

(١) أى الذين هم في بلاد العجم ا هـ منه .

تعالى طيراً كأعناق البخت . فتحملهم فتطردهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُّ معه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، أى كالمرآة ، ثم يقال للأرض : أنبتى ثمرك ، وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله تعالى فى اللبن ، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفى الجماعة من الناس .

وروى مسلم : فبينما هم يعنى عيسى وأصحابه فى ذلك العيش الرغد وقد هلك عدوهم ، إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة ، والله تعالى أعلم .

فيا من قد أخذ الموت منهم ولداً أو عرساً ، وغرس بعضه فى القبور غرساً ، كم رأيت مصبحاً فى الدنيا ما أمسى ، كم عاينت بطاشاً كف الموت منه خمساً ، كأنك باليقين قد جاء فرفع شكا ولبسا ، وكأنك بمركب العمر على اللحد قد أرسى ، وسكنت بعد القصور العالية حفيرة ورمساً ، أرأيت فى الحبوس مثل القبر حبساً ، وعلمت أن جميع مالك لا يساوى فلساً ، وتخلع ثيابك فتكسى من التراب لبساً ، وينساك من كان خديناً ورفيقاً وأنسا ، تركوا والله ذكرك فوقعت فى المنسى ، ولو بكوا ما انتفعت ولو ندبتك الخنسا ، ودرسك البلى بكلكله درسا ، ويحك إلى متى تؤثر بخسا ورجسا ، متى تحصل تطهيرا بالتوبة وقدسا ، أف لقلب ما أصلبه وما أقسى ، أتؤثر ما يفنى على ما يبقى تعساً لرأيك تعساً ، ويحك خلص نفسك فيا لها نفسا ، أما هذا بين يديك ما أكثر ما تنسى ، ثم تقوم من قبرك وقد سكتت الألسن هيبة حتى كأنها خرسا ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يوم تنكدر النجوم ، وتنقلع الجبال من التخوم ، وتصعد القلوب إلى الحلقوم ، وينشر الكتاب المطوى المختوم ، ويظهر من الهول ما لم يكن فى الوهوم ، فتتحير العقول وتذهل الفهوم ، ويعم الإزعجاج الخصوص والعموم ، ويتمنى المولود أنه معدوم ، هذا والنار حول العصاة تحوم ، فإذا أخذتهم لم يبق شحوم ولا لحوم ، والشراب الحميم والمأكول الزقوم ، يا بئس المشروب ويا بئس المطعوم ، لكل باب منهم جزء مقسوم ، تالله إن نسيان هذا جهل ولوم ، ألا ينتبه من رقدته هذا النئوم ، جسده عندنا وقلبه فى الروم ، متى ترى هذه الأهوال حين ينشق القبر وتقوم ، وعنت

الوجوه للحى القيوم . اللهم سلمنا من تلك الأهوال ، وآمنا من الفزع والزلزال ، وارزقنا الاستعداد لما وعدتنا ، وأدم لنا إحسانك ومعروفك كما عودتنا ، وبارك لنا فى كل ما أعطيتنا ، وأتمم علينا نعمتك ، وفضلك ومنتك ، واجعل فى قلوبنا نوراً نهتدى به إليك ، ووفقنا للأعمال الصالحة المقربة لديك ، واجعلنا يا مولانا ممن توكل فى جميع أموره عليك ، ولا تفضحنا يا سيدنا يوم العرض والوقوف بين يديك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين .

* * *

المجلس السابع عشر
فى بقية أمارات الساعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الملك القديم الواحد ، العزيز العظيم الشاهد ، سامع ذكر الذاكر وحمد الحامد ، وعالم ضمير المريد ونية القاصد ، لعظمته خضع الراكع وذل الساجد ، وبهداه اهتدى الطالب وأدرك الواجد ، ورفع السماء فعلاها ولم يحتج إلى مساعد ، وألقى فى الأرض رواسى راسيات القواعد ، فتنزه عن شريك مشاقق أو ند معاند ، وعز عن ولد وجل عن والد ، وأحاط علماً بالأسرار والعقائد ، وأبصر حتى دبيب النمل فى الجلامد ، وسطا فسالت لهيبته صعاب الجوامد ، ويقول فى الليل هل من سائل فانتبه يا راقد ، بنى بيتاً أمر بقصده وتلقى الوافد ، وأقسم على وحدانيته وما ينكر إلا معاند ، والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد . أحمده على الرخاء والشدائد ، وأقر بتوحيده إقرار عابد، وأصلى على رسوله بيت القصائد ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر التقى النقى الزاهد ، وعلى عمر العادل فلا يراقب الولد ولا الوالد ، وعلى عثمان المقتول ظلماً بكف الحاسد ، وعلى على البحر الخضم والبطل المجاهد ، وعلى سائر آله وأصحابه الأقارب منهم والأباعد .

أما بعد : فقد ذكرنا فى الدروس الماضية بعض أمارات الساعة المتعلقة بحديث جبريل عليه السلام ، وبقى منها علامات نذكرها فى هذا الدرس إن شاء الله تعالى فنقول : منها العلامة الخامسة ، وهى هدم الكعبة المكرمة زادها الله تعالى شرفاً ،

وإخراج كنزها ، فقد أخرج البخارى ومسلم والنسائى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : يخرب الكعبة ذو السوقتين من الحبشة ، وأخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث ابن عمر نحوه ، وزاد : ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها فلكأنى أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته أو معوله . وفى رواية أخرى : يحبس البحر عن فئة من السودان ثم يسيلون سيل النمل حتى ينتهوا إلى الكعبة فيخربوها ، والذى نفسى بيده إنى لكأنى أنظر إلى صفته فى كتاب الله تعالى ، أفيحج أصيلع أفيدع ، وفى رواية : أسود ، وفى أخرى: حبشى أحمر الساقين ، أزرق العينين ، أفطس الأنف ، كبير البطن قائماً يهدمها هو وأصحابه ، ينقضونها حجراً حجراً ، ويتناولونها حتى يطرحونها فى البحر . وقوله عليه الصلاة والسلام : أصيلع ، تصغير الأصلع ، وهو من ذهب شعر مقدم رأسه ، والأفيدع من بيده اعوجاج من الرسغ حتى ينقلب الكف ، وكذلك الرجل ، أو هو المشى على ظهر القدم ، والأفيحج المتباعد الفخذين ، فإن قلت : قد تقدم أن المهدى هو الذى يخرج كنز الكعبة ، قلت : قد أجاب العلامة السفارينى الحنبلى عليه الرحمة بأن المهدى لعله لما يستخرجه يجتمع فيه بعد ذلك المال الكثير فى أيامه وأيام عيسى عليه السلام ، أو أن المهدى أخذ البعض وترك البعض . ثم يستخرجه الحبشى .

واعلم أن العلماء اختلفوا : هل هذا الهدم فى أيام المسيح عيسى عليه السلام أو بعده عند قيام الساعة ، حيث لا يبقى فى الأرض من يقول : الله ، فعن كعب الأحبار أنه زمن عيسى ، وقيل بعد زمنه وبعد هلاك يأجوج ومأجوج ، وقيل بعد موت سيدنا عيسى عليه السلام ، وبعد هبوب الريح التى يموت بها من فى قلبه ذرة من إيمان ، وقيل : إن هدم الكعبة بعد خروج الدابة ، وقيل : بعد الآيات كلها ، فعند ذلك يرتفع القرآن الكريم . وقال الشيخ مرعى الحنبلى : يمكث الناس ما شاء الله فى الخصب والدعة بعد هلاك يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس وخروج الدابة ، ثم يخرج الحبشة فيخربون مكة ، ثم لا تعمر أبداً ، ثم يجتمع بقايا المسلمين فيقتلونهم ويسبونهم حتى يباع الحبشى بعباءة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

ومنها العلامة السادسة وهى الدخان ، قال العلماء رحمهم الله تعالى : آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء**

بدخان مبين ﴾ الآية ، قال ابن عباس وابن عمر والحسن وزيد بن على رضى الله تعالى عنهم : هو دخان قبل قيام الساعة يدخل فى أسماع الكفار والمنافقين ويعترى المؤمن كهيئة الزكام ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ، وهذه العلامة لم تأت إلى الآن ، وهى آتية ، وأما السنة فأخرج مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضى الله تعالى عنه قال : طلع علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نتذاكر، فقال : ما تتذاكرون : قالوا : الساعة يا رسول الله ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر منها الدخان ، وفى حديث حذيفة بن اليمان : إن من أشراط الساعة دخاناً يملأ ما بين الشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوماً ، فالمؤمن يصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره .

وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : خمس قد مضين ، الدخان وهو القحط الذى صار فى زمنه عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عليهم بقوله اللهم سبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة ممحلة حتى أكلوا الميتة من الجوع ، فيرى أحدهم حينما ينظر إلى السماء هيئة الدخان من الجوع ، واللزام وهو يوم بدر ، وكذا البطشة يوم بدر ، قال تعالى : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ والقمر ، قال تعالى : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ والخامسة ، الروم قال العلامة الشيخ مرعى الحنبلى: كلام ابن مسعود رضى الله تعالى عنه موافق لظاهر الآية ، والجمهور دليلهم السنة مع أنه ورد عن ابن مسعود أنهما دخانان ، مضى واحد والذى بقى لم يأت بعد ، والصحيح قول الجمهور وهو المروى عن باب مدينة العلم على كرم الله تعالى وجهه ، والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب.

ومنها العلامة السابعة من العشر العظمى ، ذهاب القرآن العظيم ، وكلامه المنزل على نبيه الكريم ، من المصاحف والصدور ، وهى من أشد معضلات الأمور ، أخرج الديلمى من حديث أبى هريرة وحذيفة رضى الله تعالى عنهما : يسرى على كتاب الله تعالى ليلاً فيصبح الناس وليس منه آية ولا حرف فى جوف إلا نسخت ، وفى الحديث : أكثروا من الطواف بالبيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه ، وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يرفع ، وورد أنهم ينسون أيضاً قول لا إله إلا الله ، وعن

ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء، له دوى حول العرش كدوى النحل ، فيقول الله عز وجل : مالك ، فيقول : منك خرجت وإليك أعود ، أتلى فلا يعمل بى . وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية عليه الرحمة عن السلف : من أن القرآن العظيم كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، أى يسرى به حتى لا يبقى فى المصاحف منه حرف ولا فى القلوب منه آية .

ومنها العلامة الثامنة ، طلوع الشمس من مغربها ، وذلك ثابت بالكتاب والسنة الصحيحة ، أما الكتاب فقال تعالى : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً** ﴾ قال جمهور المفسرين إنها طلوع الشمس من مغربها ، وأما السنة فقد أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، الآية ، ونحوه عن ابن عباس ، وقال أيضاً : خلق الله تعالى بابا للتوبة فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله عز وجل إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ، إلى أن قال : فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك ، وهذا الحديث ، وإن كان فى سنده ضعف إلا أن له شواهد أخر ، وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال : سألت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ قال : تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين ، وفى رواية أو ثلاث ، فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون ثم يرقدون ثم يقومون والليل كأنه لم ينقص ، حتى يتطاول عليهم الليل ، فيفزع الناس إلى المساجد خائفين ، فبينما هم ينظرون طلوع الشمس من المشرق إذ هى طالعة من المغرب ، فيضج الناس ، حتى إذا صارت فى وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها ، وفى رواية فعند ذلك يصير فى هذه الأمة قردة وخنازير . وعن ابن عمر : يمكث الناس بعد ذلك عشرين ومائة سنة لكنها تمر سريعا كمقدار مائة وعشرين شهراً ، وقيل : أقل من ذلك . والله تعالى أعلم بما هنالك .

ومنها العلامة التاسعة ، وهى خروج دابة الأرض ، وهى المسماة بذات أجياد ، أى صاحبة أجياد ، وهو اسم أرض مكة أو جبل بها ، ويقال لها : جياد بلا همز ،

وخروجها ثابت بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ وأما السنة فالأحاديث كثيرة ، منها ما رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعاً : تخرج دابة الأرض من أجياد فيبلغ صدرها الركن اليمانى ولم يخرج ذنبها بعد ، وهى دابة ذات قوائم . وفى رواية : تصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من فى الخافقين، وقال السخاوى : خروجها من مكة إما من صدع الصفا أو من المروة أو من شعب أجياد أو من بعض أودية تهامة أو من مدينة قوم لوط ، وقيل : من أقصى اليمن ، وقيل : إن لها ثلاث خرجات فى الدهر ، أول خرجة من أقصى اليمن ، ثم تمكث زماناً ، ثم تخرج أخرى ، ثم تخرج ثالثة ، وترى فى ناحية المسجد من الركن الأسود ، وباب بنى مخزوم ، وقيل : تخرج من أرض الطائف ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام ، لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب . وروى أنها تخرج ليلة جمع والناس سائرون إلى منى فيتصدع الصفا فتخرج منه ، وفى حديث حذيفة : أول ما يبدو رأسها معلمة ، ذات وبر وريش ، وقال على كرم الله تعالى وجهه : تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها ، وروى فلا يخرج إلا رأسها فيبلغ عنان السماء ، وتبلغ السحاب . وقال أبو هريرة : فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب ، وقال وهب : وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير ، وفى حديث آخر : تجلو وجه المؤمن بالعصا ، وتحطم أنف الكافر بالخاتم ، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا: يا كافر ، وقال ابن عباس : إن لها عنقاً مشرفاً أى طويلاً يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب ، وأنها ذات زغب وريش ، فيها من ألوان الدواب كلها ، وفيها من كل أمة سمة ، وسيماها من هذه الأمة أنها تكلم الناس بلسان عربى مبين .

وفى رواية أنها تنادى بأعلى صوتها أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . وتسم المؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب درى ، ويكتب بين عينيه مؤمن ، وتسم الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء ويكتب بين عينيه كافر ، ثم تنطلق ، ويشترك الناس فى الأموال ، ويصطحبون فى الأمصار . وروى ابن مسعود أن إبليس عليه اللعنة بعد يأجوج ومأجوج يخر ساجداً وينادى : إلهى مرنى أسجد لمن شئت ، وتجتمع إليه الشياطين تقول : يا سيدنا إلى من تفزع ؟ فيقول : إنما سألت ربى أن ينظرنى إلى

يوم البعث فأنظرنى إلى يوم الوقت المعلوم . وقد طلعت الشمس من مغربها فهذا يوم الوقت المعلوم ، وتصير الشياطين ظاهرة فى الأرض حتى يقول الرجل : هذا قرينى الذى كان يغوينى ، فالحمد لله الذى أخزاه ، ولا يزال إبليس ساجداً باكياً حتى تخرج الدابة فتقتله وهو ساجد ، وهذا أصح من قول كعب أن إبليس إنما يذوق الموت يوم الحشر ، وقيل : إن دابة الأرض هى الجساسة التى حدث عنها تميم الدارى ، وقصتها طويلة مذكورة فى كتب الأحاديث، وملخصها أن الجساسة هى دابة كثيرة الشعر ، فى إحدى جزائر بحر القلزم ، تجس الأخبار ، قريبة إلى المحل الذى فيه الدجال ، قد قيد بالحديد . وعن ابن عباس : هى الثعبان الذى كان فى بئر الكعبة فاختطفه العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام وألقاه بالحجون ، أو فى أجياد فالتقمتها الأرض ، وهذه كلها أقوال ضعيفة ، والأول هو الصحيح ، والأغرب والأعجب من هذه الأقوال ما قاله جابر الجعفى الكوفى أن دابة الأرض المذكورة فى القرآن هى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه ، فقد قال الحافظ الذهبى : إن جابرا شيعى يرى الرجعة أى يعتقد أن علياً يرجع إلى الدنيا ويتخلف ويحكم ، وقال أبو حنيفة : ما لقيت أحداً أكذب من جابر الجعفى ، وقال الشافعى : أخبرنى سفيان بن عيينة قال : كنا فى منزل جابر فتكلم بشىء فنزلنا خوفاً أن يقع علينا السقف ، ومات سنة ثمان وعشرين ومائة .

قلت : ولا يبعد ممن يعتقد الغيبة والرجعة بالوجه الذى يزعمونه أن يجعل أمير المؤمنين ومولى الموحدين ويعسوب المسلمين الدابة الموعود بها فى الكتاب المبين ، فكم وكم لهم مثل هذا الهذيان ، والترهات التى لا يقام عليها ساطع برهان ، فنسأله تعالى أن يتوفانا على كامل الإيمان ، ويحشرنا مع الهداة المهديين إلى أعلى فراديس الجنان ، بشفاعة سيد ولد عدنان ، عليه وعلى آله الكرام أفضل الصلاة والسلام .

ومنها العلامة العاشرة وهى خروج النار من قعر عدن تحشر الناس إلى محشرهم، وقد ثبت ذلك فى الأحاديث العديدة الصحيحة كما تقدم ، ومنها ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده والبخارى وغيرهما عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أول أشراط الساعة ، نار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب ، ومنها ما رواه حذيفة بن أسيد الغفارى أنه صلى الله

تعالى عليه وسلم قال : لن تقوم الساعة حتى ترى قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، قال : وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ، وفى رواية : تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم حيث قالوا : قال بعض العلماء : وفى هذا إشكال ؛ لأن فى الحديث الأول أن النار أول أشراط الساعة ، وفى الحديث الثانى أن النار آخر الأمارات ، والجواب عنه أن النار ناران إحداهما تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، والثانية تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى المحشر الذى هو أرض الشام ، فلعل إحدى النارين فى أول الآيات والأخرى فى آخرها . وقال السخاوى: المراد من كونها أول الآيات التى لا شىء بعدها من أمور الدنيا أصلاً لأن بعدها النفخ فى الصور ، وهو جواب ضعيف ، وأخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مرفوعاً : ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس ، قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام . وأخرج الطبرانى وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً : لتقصدنكم نار هى اليوم خامدة فى واد يقال له برهوت ، يغشى الناس فيها عذاب أليم ، تأكل الأنفس والأموال ، تدور الدنيا كلها فى ثمانية أيام ، تطير طير الريح والسحاب ، مرها بالليل أشد من مرها بالنهار ، ولها بين السماء والأرض دوى كدوى الرعد القاصف ، هى من رءوس الخلائق أدنى من العرش ، قيل : يا رسول الله ، أسليمة يومئذ على المؤمنين والمؤمنات ، قال عليه الصلاة والسلام : وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذ ، هم شر من الحمر يتسافدون كما تتسافد البهائم ، وليس فيهم رجل يقول : مه مه . أى : اتركوا ، وفى حديث أبى هريرة مرفوعاً : إن الله تعالى يبعث ريحا من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً فى قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، وفى رواية : أن الريح تأتى من الشام ، قال العلماء : لا مضادة بين الحديثين لأنهما ريحان شامية ويمانية .

واعلموا أن العلماء عليهم الرحمة اختلفوا فى حشر النار من المشرق إلى المغرب، هل هو يوم القيامة أو قبله ، فقال العلامة القرطبى المالكى والإمام الخطابى وصوبه القاضى عياض ، أن هذا الحشر يكون قبل يوم القيامة ، وأما الحشر من القبور فهو على ما فى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعاً كما فى الصحيحين :

إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا [1] ، وقال الحكيم الترمذى وأبو حامد الغزالى عليهما الرحمة : هو يوم القيامة عند ما يحشرون وينشرون من قبورهم إلى الموقف للحساب، والله تعالى أعلم بالصواب .

ثم إنه بعد أن تمضى هذه الأمارات المذكورة ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الأولى ؛ لأن النفخ فى الصور ثلاث نفخات ، فالأولى نفخة الفزع ، وهى التى يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه ، وهى المشار إليها فى قوله تعالى : ﴿ **وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق** ﴾ أى من رجوع ومرد ، وقوله تعالى : ﴿**ونفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله** ﴾ قيل : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . والنفخة الثانية نفخة الصعق وفيها هلاك كل شىء قال تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله** ﴾ وفسر الصعق بالموت فتموت الخلائق ، ثم النفخة الثالثة وهى نفخة البعث والنشور قال تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة** ﴾ والزجرة هى النفخ فى الصور ، والساهرة الأرض ، وغير ذلك من الآيات والأحاديث القاطعة بإعادة الأموات ، وسنفصل إن شاء الله تعالى كيفية الحشر ببعض الدروس الآتيات ، فاستعدوا رحمكم الله تعالى للحشر والحساب ، وتوبوا قبل أن يطوى الكتاب ، واخشوا يوماً تعرض فيه الخلائق على رب الأرباب، فما هذا السكون إلى دار الدوائر ، وما هذا الانحراف إلى حرف جرف هائر ، أما تلمحت أبصار البصائر ، ما إليه الأمر صائر، كم آثرتم الرذائل على المفاخر ، إن عين اللبيب ترى الآخر ، فيا أيها الغافل أما أنت عن قريب راحل ، وساكن بيتاً أنت فيه غريب حائر ذاهل ، ويا أهل القصور العامرة، عن قليل تعود غامرة ، يا معجبون بالنضارة الظاهرة ، عن قريب ترجع العظام ناخرة ، فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ، أكل التراب تلك العظام، وصيرها كالرفات والرمام ، فلما نفخ فى الصور يوم القيام ، نهضت الأقدام إلى القيامة متبادرة، فإذا هم بالساهرة، سالت فى القبور الحدق، وجال البلى فيهم واحتدق، فلما أمر بالإعادة من خلق، عادت الأبدان نافرة، فإذا هم بالساهرة ،

(١) أى غير مختونين ا هـ منه .

ضمت أجسادهم اللحود ، وخلا بهم الدود ، فمزق الجلود ، وتفرقوا كما تفرق الورود ، فإذا أراد إعادتهم المعبود صاح إسرافيل صيحة نافرة ، فإذا هم بالساهرة ، حفرت قبورهم لغيرهم مرات ، ونقل تراب أبدانهم تارات ، فإذا جاء الفصل والميقات ، جمع المتفرق بعد الشتات ، المؤمنة والكافرة ، فإذا هم بالساهرة . عظم عندهم القلق ، واشتد عليهم الخوف والفرق ، وسال منهم كالسيل العرق ، لقوة الهاجرة، فإذا هم بالساهرة . يذهبون ولا يدرون إلى أين، ويهربون وهيهات عليهم دين، ولا ينجو إلا قائل الكلمتين ، ثم طوبى وطوبى للعين التى كانت ساهرة، تبرز النار باللهيب والجمر ، فيبكى آكل الربا وشارب الخمر ، ويشتغل زيد بنفسه عن عمرو، وقد عرفتك أول الأمر وآخره، فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة .

فنسألك اللهم أن تجيرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، وتلبسنا فى جنات النعيم حلل رحمتك الفاخرة ، وتوفقنا لصالح الأعمال ، وتنجينا من جميع الأهوال ، وتحشرنا وآباءنا مع الصحابة والعترة الطاهرة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس الثامن عشر
فى البعث بعد الموت

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله المنفرد بالقدرة ، العظيم فلا يقدر أحد قدره ، أنعم فكم أقال عثرة ، ووعظ فكم أسال عبرة ، خلق الآدمى وأحصى عمره ، وأراه قبل رحيله عن الدنيا تبره ، وأنه سيخلو فى بيداء قفرة ، ثم يخرجه فيحضره الحضرة ، ويسأله عن الكلمة والنظرة ، وأنذرهم يوم الحسرة . أحمده حمداً دائماً بلا فترة ، وأشكره على نعمه التى لا تحصى كثرة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أدخرها نجاة من عذاب الحفرة ، وسلاحاً من العدو فى العسرة واليسرة ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق وضمن له نصره ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر الصديق رفيقه فى الحفرة ، وعلى عمر بن الخطاب

ثالثهما فى الحجرة ، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة ، وعلى ابن عمه على بن أبى طالب الذى اشترى هل أتى بكسرة ، وعلى سائر آله وأصحابه ومن امتثل نهيه وأمره وسلم تسليماً .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام الشهير أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى عليه الرحمة والرضوان قال : كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بارزاً يوماً للناس ، فجاء رجل فجلس عند ركبتيه فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر . الحديث .

فنقول وبالله التوفيق : قد تقدم الكلام فى مبدأ الدروس الماضية المتعلقة بهذا الحديث ، وتقدم ذكر الروايات المختلفة لهذا الحديث ، وأسلفنا الكلام على الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله ، والإسلام والصلاة والزكاة والصوم والحج والإحسان ، وأمارات الساعة المتقدمة . والمتأخرة ، وبقى الكلام الآن فيما يتعلق بلقاء الله تعالى فى هذا الدرس ، خاتمين به حديث جبريل ، وهو سبحانه الموفق الهادى إلى أقوم سبيل .

فاعلموا أن قوله عليه الصلاة والسلام : أن تؤمن بالله وبلقائه وتؤمن بالبعث الآخر ، أى بكسر الخاء المعجمة ، اختلف العلماء فى المراد بالجمع بين الإيمان بلقاء الله تعالى والبعث ، قال الإمام النووى ، قيل : اللقاء يحصل بالانتقال إلى دار الجزاء والبعث بعده عند قيام الساعة ، وقيل اللقاء ما يكون بعد البعث عند الحساب، ثم ليس المراد باللقاء رؤية الله تعالى فإن أحداً لا يقطع لنفسه برؤية الله تعالى ؛ لأن الرؤية مختصة بالمؤمنين ، ولا يدرى الإنسان بماذا يختم له ، وأما وصف البعث بالآخر فقيل هو مبالغة فى البيان والإيضاح ، وذلك لشدة الاهتمام به ، وقيل سببه أن خروج الإنسان إلى الدنيا بعث من الأرحام ، وخروجه من القبر للحشر بعث من الأرض ، فقيد البعث بالآخر ليتميز ا هـ .

ثم اعلموا أن منكر البعث والحشر كافر مخلد ، للدلائل القطعية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وإجماع الأمم الكتابية والإسلامية ، فقد وردت الكتب الإلهية ، وبينت كافة الأنبياء عليهم السلام لأممهم أن الله سبحانه وتعالى يميت المخلوقات كافة ، ثم يعيد المكلفين بعد موتهم ، عند قيام الساعة إعادة جسمانية ، ويحشرهم ويسألهم ويجازيهم ، ويدخل بعضهم النار وبعضهم الجنة ، دار القرار .

والعقل أيضاً مطابق لذلك ؛ لأن هذا العالم لا بد له من صانع وأن صانعه لا بد أن يكون واحداً وهو الله سبحانه فإذا سلمنا ذلك علمنا أن الله سبحانه أوجدنا من العدم ولم نك شيئا فالإعادة أهون من الإيجاد وأن الله عز وجل حاكم عادل فلا بد أن يجازى العباد الظالم بظلمه ، والمحسن على إحسانه ، ويجعل الدار الآخرة دار الجزاء والحساب ، ويعامل بعضاً بعدله وبعضاً بغفرانه وامتنانه . ولنذكر ما ورد فى ذلك من الآيات والأخبار ، مبينين ما يتعلق بالبعث بأصح الآثار ، فقد ورد أن إسرافيل عليه السلام ينفخ فى الصور ، وهو قرن من نور يجعل فيه أرواح الخلائق النفخة الأولى ، وهى نفخة الفزع ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى أحد الدروس الماضية ، فيختل نظام العالم ، ويفزع أهل السماء والأرض ، إلا من شاء الله وهم الشهداء ، فيمدها ويطيلها ، وهى التى يقول الله تعالى فيها : **﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾** فيسير الله تعالى الجبال فتمر مر السحاب فتكون سراباً ، وترتج الأرض بأهلها رجاً فتكون كالسفينة الموقرة فى البحر تضربها الأمواج، فتميل الأرض بالناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع ، حتى تأتى الأقطار فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ، ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضاً ، وهو الذى يقول الله تعالى فيه : **﴿ يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله عاصم﴾**، وقال تعالى : **﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾** وروى البغوى عن أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت ، واضطربت ، وفزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحش ، وماج بعضهم فى بعض ، فذلك قوله تعالى : **﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾** اختلطت . **﴿ وإذا العشار عطلت﴾** أهملت ، و **﴿ إذا البحار سجرت ﴾** قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أوقدت فصارت ناراً تضرم ، قال أبى : قالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى ، وانشقت السماء انشقاقة واحدة إلى السماء السابعة العليا ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم ا هـ .

ثم ينفخ النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق أى الموت ، وفيها هلاك كل شىء إلا من لم يخلق للفناء ، فإنه لم يفن كالجنة وما فيها من الحور والولدان ، وكذا النار وما فيها من الحيات والعقارب والخزان ، قال تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله** ﴾ وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى وسلم أنه قال : ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فيقول ملك الموت : قد مات أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فيقول الله وهو أعلم : فمن بقى . فيقول : أى رب بقيت أنت الحى القيوم وبقيت حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل وبقيت أنا ، فيقول الله تعالى : فليمت جبريل وميكائيل فيموتان . ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله تعالى : فليمت حملة العرش ، فيموتون ، ويأمر الله العرش أن يقبض الصور من إسرافيل ثم يقول: ليمت إسرافيل ، فيموت . ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول : رب قد مات حملة العرش ، فيقول وهو أعلم : فمن بقى فيقول : أنت الحى القيوم الذى لا يموت ، وبقيت أنا فيقول أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار ، طوى السماء والأرض كطى السجل للكتب وقال : أنا الجبار ، لمن الملك اليوم ، ثلاث مرات ، فلم يجبه أحد ، ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، الحديث .

وأخرج أبو الشيخ ، قال : هؤلاء الأربعة أملاك ، جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت أول من خلقهم الله من الخلق وآخر من يميتهم ، وأول من يحييهم ، وهم المدبرات أمراً ، والمقسمات أمراً ، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعاً : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين الملوك . وأخرج مسلم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى [1] ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ،

---

(١) قد قدمنا لك أن مثل هذه الأحاديث مؤولة عند الخلف كاليد بالقدرة وعند السلف بالإيمان بها وجهل الكيفية لأنه سبحانه ليس كمثله شىء فلا تغفل ا هـ منه .

ثم يطوى الأرض بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، ثم ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فى الصور ، وهى نفخة البعث والنشور ، وبين هاتين النفختين أربعون عاماً على ما فى بعض الروايات ، وقد جاءت فى الكتاب العزيز آيات تدل عليها ، وأخبار تشير إليها ، كقوله تعالى : **﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾** وقوله : **﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾** ، **﴿ فإذا نقر فى الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾** ، وقوله تعالى : **﴿ واستمع يوم يناد المنادى من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾** الآية . قال المفسرون : المنادى هو إسرافيل عليه السلام ينفخ فى الصور ، وينادى أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وقيل : ينفخ إسرافيل، وينادى جبريل ، وفى تفسير الثعلبى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فى تفسير سورة الزمر مرفوعاً : إن الله يرسل مطراً على الأرض فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثنا عشر ذراعاً فيأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت ، قال الله تعالى : ليحى حملة العرش ليحى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ثم يأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يدعو الأرواح فيأتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً ثم يلقيها في الصور ، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، ثم يقول الله تعالى : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها فتدخل الأرواح من الخياشيم ، ثم تمشى مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعاً ، فأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون ، وفى حديث آخر : ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ، منه يركب الخلق يوم القيامة . وفى رواية لمسلم : إن فى الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب الخلق يوم القيامة ، قالوا : أى عظم هو يا رسول الله؟ قال : عجب الذنب . وفى رواية : منه خلق وفيه يركب ، وهو مثل حبة خردل ، وهو بفتح العين المهملة وإسكان الجيم بعدها باء موحدة أو ميم ، وفى تفسير الثعلبى فى سورة الأعراف ، وتفسير ابن عطية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إذا مات الناس كلهم أمطر عليهم أربعين عاماً كمنى الرجال من ماء تحت

العرش يدعى ماء الحياة ، فينبتون من قبورهم بذلك المطر كما ينبت الزرع من الماء ، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون فى قبورهم ، فإذا نفخ فى الصور النفخة الثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم فى أعينهم، كما يجده النائم إذا استيقظ من نومه فعند ذلك يقولون : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . وأخرج مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أنا سيد ولد آدم ، أول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع . وفى صحيح البخارى : أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة فإذا بموسى عليه السلام متعلق بالعرش فلا أدرى أكذلك كان أم بعد النفخة ، وفى بعض ألفاظ البخارى : فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور ، وأخرج الحكيم الترمذى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويمينه إلى أبى بكر وشماله على عمر فقال : هكذا انبعث يوم القيامة ، وفى الصحيحين من حديث أنس رضى الله تعالى عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قال الله تعالى: ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم** ﴾ أيحشر الكافر على وجهه ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه ؟ قال قتادة حين بلغه : بلى وعزة ربنا . وروى النسائى والترمذى وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له بولس(١) ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال .

وروى البزار من حديث جابر رضى الله تعالى عنه مرفوعاً : يبعث الله تعالى يوم القيامة ناساً فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم فيقال : ما هؤلاء الذين فى صورة الذر ؟ فيقال : هؤلاء المتكبرون فى الدنيا . وروى الجلال السيوطى عليه الرحمة فى كتابه البدور السافرة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال يحشر كل شىء حتى أن الذباب ليحشر ، قال العلماء : ثم إن الله تعالى يقول للوحوش : كونوا ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتنى كنت ترابا. قال: وأخرج

---

(١) بولس بضم الباء وفتح اللام سجن بجهنم منها ، قاله فى القاموس ا هـ منه .

أبو نعيم في الحلية عن عكرمة قال: إن الذين يغرقون في البحر فتقسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام تلوح فتلقيها الأمواج على البر فتمكث العظام حيناً ثم تصير حائلاً نخرة فتمر بها الإبل فتأكلها ثم تسير الإبل فتبعره ثم يجيء بعدهم قوم فينزلون منزلاً فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم تخمد تلك النار فتجيء ريح فتلقى ذلك الرماد على الأرض فإذا جاءت النفخة خرج أولئك وأهل القبور سواء .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة ، وفي رواية : مشاة غرلاً ، أى غير مختونين ، قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان، فقلت : يا رسول الله وا سوأتاه ، ينظر بعضنا إلى بعض ، قال : شغل الناس . قلت : ما شغلهم ، قال : نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر . وفي رواية فقال : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وقال السيوطى عليه الرحمة فى البدور السافرة : أخرج الخطيب : يحشر عشرة أصناف من أمتى أشتاتاً ، فمنهم على صورة القردة ، وهم النمامون ، وبعضهم على صورة الخنازير وهم أهل السحت والحرام والمكس ، وبعضهم منكسون أرجلهم أعلاهم ووجوههم يسحبون عليها ، وهم أكلة الربا ، وبعضهم عمى يترددون وهم من يجور فى الحكم ، وبعضهم صم بكم لا يعقلون وهم الذين يعجبون بأعمالهم ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يقذرهم أهل الجمع ، وهم العلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وهم الذين يؤذون الجيران ، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار ، وهم السعاة بالناس إلى السلطان، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وهم الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله من أموالهم ، وبعضهم يلبسون جلابيب سابغة من القطران ، وهم أهل الكبر والفخر والخيلاء .

ولنرجع إلى قوله عليه الصلاة والسلام في حديث جبريل المذكور آنفاً : فى خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى ، ثم تلا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : **﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾** قال والدنا عليه الرحمة فى تفسيره روح المعانى : أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له الوارث بن عمرو

جاء إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا محمد ، متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ، وقد علمت بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت، فنزلت هذه الآية (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أي علم وقت القيامة مختص به عز وجل حتى روى الشعبى أن عيسى عليه السلام سأل جبريل عليه السلام عن الساعة فانتفض بأجنحته ، وقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، والمراد التساوى فى العلم ؛ لأن الله تعالى استأثر بعلمها على الوجه الأكمل ، قيل : ويجوز أن يكون الله تعالى قد أطلع حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام على وقت قيامها ، وأوجب عليه كتمه لحكمة ، ويكون ذلك من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ وينزل الغيث ﴾ أى ويعلم هو لا غيره زمان نزوله من غير تقديم ولا تأخير ، ومكانه ومقداره ، ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ أى أذكراً أم أنثى أتاماً أم ناقصاً ، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿ وما تدرى نفس ﴾ أى كل نفس برة كانت أو فاجرة ﴿ ماذا تكسب غدا ﴾ أى فى الزمان المستقبل من خير أو شر ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ أي لا يدرى أحد أين مضجعه أفى بر أم فى بحر فى سهل أم فى جبل ، وهذا يستلزم ألا يعلم الإنسان وقت موته أيضاً من باب أولى، قال على كرم الله تعالى وجهه : لم يغم على نبيكم إلا الخمس من سائر الغيب ، وقال ابن مسعود : أوتى نبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير الخمس ، وهى ما فى هذه الآية ، والذى ينبغى أن يعلم أن كل غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وليست المغيبات محصورة بهذه الخمس ، وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها كما أشار إليه القسطلانى .

قلت : ولذا قال الفقهاء : إن من قال إن الجن يعلمون الغيب أو إن أرواح المشايخ حاضرة تعلم الغيب يكفر ، وأن قول القائل: مطرنا بنوء كذا أشرك ، ولذا قال عليه

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل : من هذا ؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدنى ، فمر الريح أن تحملنى وتلقينى بالهند ، أى حتى يخلص منه ، ففعل فقال الملك : كان دوام نظرى إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند ، وهو عندك ، ا هـ منه .

الصلاة والسلام : من أتى كاهناً أو منجماً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ، لكن قال المناوى فى شرحه الكبير فى الكلام على حديث خمس لا يعلمهن إلا الله: أى على وجه الإحاطة والشمول كلياً وجزئياً فلا ينافيه إطلاع الله تعالى بعض خواصه على بعض المغيبات حتى من هذه الخمس ؛ لأنها جزئيات معدودة ، وإنكار المعتزلة لذلك مكابرة ا هـ مع زيادة وتلخيص .

ولنرجع إلى قوله عليه الصلاة والسلام : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، فجبريل اسمه عبد الله كما روى عن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، فقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن على بن الحسين قال : اسم جبريل عبد الله ، واسم ميكائيل عبيد الله ، وإسرافيل عبد الرحمن ، وكل شىء رجع إلى إيل فهو معبد لله عز وجل ، وقال عبد العزيز بن عمير : اسم جبريل فى الملائكة خادم ربه عز وجل، وقال موسى بن عائشة : بلغنى أن جبريل إمام أهل السماء . وقال ابن عباس: قال صلى الله تعالى عليه وسلم : ألا أخبركم بأفضل الملائكة ، جبريل . وسئل وهب بن منبه عن خلق جبريل فذكر أن ما بين منكبيه خفق الطير سبعمائة عام، وقال ابن مسعود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين ، أما الأولى فإنه سأله أن يريه نفسه فسد الأفق ، وأما الأخرى فليلة الإسراء عند سدرة المنتهى ، وعن ابن عباس مرفوعاً قال : جبريل له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها مثل ريش الطاوس . وعن قتادة وغيره : لجبريل جناحان ، وعليه وشاح من در منظوم ، وهو براق الثنايا أجلى الجبين ، ورأسه حبك مثل المرجان ، وهو كاللؤلؤ كأنه الثلج ، وقدماه إلى الخضرة .

وأخرج أبو الشيخ عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لجبريل : هل ترى ربك . قال : إن بينى وبينه لسبعين حجاباً من نار أو نور لو دنوت من أدناها لاحترقت ، ذكر ذلك السيوطى كله فى كتاب الحبائك ، وقد وصفه سبحانه بالقوة فى قوله عز وجل ﴿ **علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى** ﴾ أى هو صاحب استحكام فى العقل ، أو ذو منظر حسن ، قال الوالد عليه الرحمة : وناهيك دليلاً على شدة قوته أنه خلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح

بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف ، ا هـ .

هذا وقد تبين لكم من هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى يبعث من فى القبور ، ويجازى على العمل الصالح والفجور ، فاستعدوا رحمكم الله تعالى لصالح الأعمال ، لتكون ذخيرة لكم عند الزلزلة والأهوال ، فهى زلزلة توجل لها القلوب، زلزلة تظهر عندها العيوب ، زلزلة تشتد فيها الكروب ، زلزلة فيها أفئدة العصاة تذوب ، فالعذاب شديد والعقاب أليم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، زلزلة بشيب فيها المولود ، زلزلة تشهد فيها الجلود ، زلزلة تخد فيها الدموع الخدود، زلزلة يتمنى العدم عندها الموجود ، زلزلة يظهر عندها التقاطع والصدود ، ويفر الولد عن الوالد والحميم عن الحميم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم . انظر لنفسك قبل أن لا يمكن النظر ، وتفكر فى أمرك قبل أن لا ينفع الفكر ، ومثل يوم الحشر إذا بدا الهول وظهر ، وتزود للرحيل وتأهب للسفر ، وخذ عدتك لنقلتك فلست بمقيم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم . اللهم يا سامع الصوت ، ويا كاسى لحماً بعد الموت . نسألك باسمك الأعظم ، وبأسمائك الحسنى ما نعلم منها وما لم نعلم ، وبحبك لنبيك الأكرم ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن توفقنا لطاعتك ، وتجنبنا عن معصيتك ، وتعمنا فى الدنيا برحمتك ، وتثبت قلوبنا على دينك ، وتحفظنا فى جميع أحوالنا ، وتوفقنا فى أقوالنا وأفعالنا ، وتغفر ما سلف من ذنوبنا، وتستر ما بدا من عيوبنا ، واعصمنا فيما بقى من أعمارنا ، قبل أن يشتمل الهدم على البناء ، والكدر على الصفاء ، وينقطع من الحياة حبل الرجاء ، وتصير المنازل تحت أطباق الثرى ، وقبل أن يصير الصبح ليلاً ، ويسحب الموت على أهل الأرض والسماء ذيلاً ، فيقول الشيخ الكبير وا شيبتاه ، ويقول الكهل الخطير وا خجلتاه ، ويقول المذنب المسيء يا خيبتاه ، ويقول الحدث الصغير وا حسرتاه ، وخجلوا من عملهم وأشفقوا ، وعاينوا من الأهوال ما ودوا معه أنهم لم يخلقوا ، وارحم اللهم أهل القبور فإنهم رهائن ذنوب لا يطلقون ، أسراء وحشة لا يفكون ، محت دارسات الثرى محاسن وجوههم ، وجاورتهم الهوام فى ملاحد قبورهم ، فهم خمود لا يتكلمون ، وسكان لحد إلى الحشر لا يظعنون ، وفيهم محسنون ومسيئون، ومقصرون ومجتهدون .

اللهم فمن كان منهم مسروراً ، فزده كرامة وحبوراً ، ومن كان منهم ملهوفاً فبدل حزنه فرحاً وسروراً ، اللهم وتعطف على كافة أموات المسلمين ، وارحمهم وارحمنا إذا عدنا إليهم برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين ، ولا سيما الآباء والأمهات والأعمام والإخوة والأخوات ، وجميع الأقربين ، وأموات الجماعة الحاضرين ، ومشايخنا ومن له حق علينا من المسلمين ، اللهم اجعل قبورهم مفائض صلاتك ، ومقار هباتك ، وطرق إحسانك ، ومجارى عفوك وغفرانك ، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا كرباً إلا كشفته ، ولا مبتلى إلا عافيته ، ولا غائباً إلا بالخير رددته ، ولا عاصياً إلا هديته ، ولا حقاً إلا استخلصته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا ولنا فيها صلاح إلا يسرتها وقضيتها بمنك ، وانصر سلطاننا ومن نصر الدين ، واحفظ المجاهدين وعساكر الموحدين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين .

* * *

المجلس التاسع عشر
فى إطاعة السلطان والجهاد وما يتعلق بذلك

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله رب الأرباب ، ومنزل الكتاب ، حفظ الأرض بالجبال من الاضطراب، وقهر الجبارين الصعاب ، وسمع خفى النطق ومهموس الخطاب ، وأبصر فلم يستر نظره حجاب ، أنزل القرآن يحث فيه على الجهاد واكتساب الثواب ، وزجر عن الفرار وأسباب العقاب ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب.

أحمده على رفع الشك والارتياب ، وأشكره على ستر الخطايا والعاب ، وأقر له بالتوحيد إقراراً نافعاً يوم الحساب ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذى رفع له الحجاب ، وعلى صاحبه أبى بكر خير الأصحاب ، وعلى عمر الذى إذا ذكر فى المجلس طاب ، وعلى عثمان جامع القرآن وشهيد المحراب ، وعلى على البدر يوم بدر والصدر يوم الأحزاب .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام الهمام محيى الدين أبى زكريا يحيى النواوى عليه رحمة الملك العلام ، فإنه روى فى كتابه الأربعين عن الترمذى عن معاذ بن

جبل رضى الله تعالى عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى من النار ، قال : لقد سألت عن أمر عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل ، ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ (١) ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ، قلت : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ، قلت: بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : كف عليك هذا ، قلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال : ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : هذا الحديث من أعظم الأحاديث النبوية المفصلة فيه الأحكام الدينية منها والدنيوية ، وقد تكلمنا فيما سبق من الدروس على عبادة الله تعالى ، وأنها إظهار العبودية له من تصديق به وعدم إشراك به عز وجل ، والإيمان بما أنزل ، وذكرنا بحث الصوم والصلاة والحج والزكاة ، ولنذكر الآن إن شاء الله تعالى ما يتعلق بالجهاد وإطاعة السلطان ؛ لأنه له أقوى عماد ، ونورد الآيات الكريمة، والأحاديث العظيمة ، المتعلقة بالجهاد وإطاعة السلطان ، والرباط والإنفاق فى سبيل الله تعالى ، من تجهيز الغزاة والهجرة من دار الكفار ، ونحو ذلك مما أتى فى صحيح الأخبار .

فاعلموا أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : أولو الأمر هم الأمراء ، وفى لفظ هم أمراء السرايا ، وقال ابن عباس : هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم ، وقال مالك والضحاك : هم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال العلماء : والمراد من إطاعة الله تعالى اتباع كتابه ، ومن

(١) تمامها ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ حتى بلغ يعملون .

إطاعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اتباع أوامره وسنته ، ومن إطاعة السلاطين والأئمة والقضاة والولاة إطاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ، ما لم تكن معصية ؛ فقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وقال شيخ الإسلام فى كتابه « السياسة الشرعية » ما نصه : ويجب أن يعرف أن ولاية أمور الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا يقام الدين ولا الدنيا إلا بها، فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم ، رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة . وروى الإمام أحمد فى المسند عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا غليهم أحدهم . فأوجب صلى الله تعالى عليه وسلم تأمير الواحد فى الجمع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتهاد ، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ، ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا يتم إلا بالقوة والإمارة ؛ ولهذا روى أن السلطان ظل الله فى الأرض ، ويقال : ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان ، والتجربة تبين ذلك ؛ ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان ، وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . رواه مسلم ا هـ .

وروى العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، قلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، وإن من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار . وفى التبيان فى إطاعة السلطان لوالدنا المبرور : أخرج الحاكم فى المستدرك عن عبادة بن الصامت أنه قال له النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم : اسمع وأطع خليفة زمانك فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك إلا أن يكون معصية لله بواحاً ، أى جهاراً ظاهراً . وأخرج الطبرانى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى بكرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : السلطان ظل الله فى الأرض فمن أكرمه أكرمه الله ومن أهانه أهانه الله .

وروى البخارى فى تاريخه عن أبى ذر الغفارى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : سيكون بعدى سلطان فأعزوه فإنه من أراد ذله ثغر ثغرة ، أى ثلم ثلمة فى الإسلام ، وليست له توبة إلا إن سدها ، وليس بسادها إلى يوم القيامة. وأخرج أبو داود فى سننه عن عامر بن مسهر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تمسكوا بطاعة أئمتكم ولا تخالفوهم ، فإن طاعتهم طاعة الله وإن معصيتهم معصية الله ، وإن الله تعالى إنما بعثنى أدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة . وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما كما أخرجه الديلمى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فإن اعتدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أو ظلم أو خان كان عليه الوزر وكان على الرعية الصبر ، وفى هذا الحديث ضعف لكن له متابعات ، فقد روى البيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فإن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإن جار أو خان أو ظلم كان عليه الوزر وكان على الرعية الصبر . وإذا جارت الولاة قحطت السماء . وأخرج الديلمى قال : قال صلى الله تعالى عليه وسلم : الإسلام والسلطان أخوان لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه ، فالإسلام أس ، أى أساس ، والسلطان حارس ، وما لا أس له يهدم ، وما لا حارس له ضائع .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الإمام العادل المتواضع ظل الله ورمحه فى الأرض ، ويرفع للوالى العادل المتواضع فى كل يوم وليلة عمل ستين ، وفى رواية سبعين صديقاً ، كلهم عابد مجتهد . وأخرج الغزالى فى كتابه « نصيحة الملوك » عن رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم أنه قال : والذى نفس محمد بيده إنه يرفع للسلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل رعيته ، وكل صلاة يصليها تعدل سبعين ألف صلاة . وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا دخل أحدكم بلداً ليس فيه سلطان فلا يقيمن به ، أى لأنه لا يكاد يأمن على نفسه وماله ودينه ، إذ لا يحصل ذلك إلا بالأمان المنوط بوجود السلطان ؛ ولهذا صار اتخاذ الإمام واجباً فى كل زمان . ونص بعضهم أن البلدة التى ليس فيها حجام أو طبيب مسلم مثلاً لا يجوز السكنى فيها ، فإذا لم تجز الإقامة فى بلدة خلت عن طبيب وحجام فكيف حال الإقامة فى بلدة إذا خلت عن إمام ، وعن ابن عمر : من أكرم سلطان الله فى الدنيا أكرمه الله تعالى يوم القيامة ، وعن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تسبوا الأئمة وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم لكل أحد صلاح ، وفى بعض الكتب المنزلة : أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدى ، فإن العباد أطاعونى جعلتهم رحمة وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة . فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم . وكان من دعاء نبينا المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم : اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : من خرج من الطاعة ، أى طاعة الإمام ، وفارق الجماعة ، أى جماعة المسلمين ، فمات مات ميتة جاهلية ، أى على الضلالة. وعن أبى هريرة واللفظ للبخارى أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً سلعة بعد العصر فحلف له لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه منها وفَى له وإن لم يعطه لم يف له ، ولقد أحسن السلفى حيث يقول :

عليـــك بطاعة الحـكام سرا   وجهرا ما حييت مدى الزمان
ولا تعبـــأ بذى سفه وطيش   رقيـــع قد يمنيـــك الأمـــانى
فطـــاعة من لــــه أمر ونهى   أمـــان فى أمـــان فى أمـــان

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشحونة بها الكتب الحديثية ، وصادحة بمثل أحكامها القوانين الشرعية ، ونقل فى البرهان أن الشيخ الأكبر ، قدس سره الأطهر ، صرح

بأن السلطان إن كان صالحاً فمن الأقطاب ، وإن كان غير صالح فمن الأبدال ، فنحمده تعالى على أن جعل سلطاننا الأعظم ، والخليفة على الخليقة فى هذا العالم، عبده الخاضع لسلطانه ، وأمير المؤمنين فى زمانه ، حضرة مولانا السلطان الغازى عبدالحميد خان ، ابن الخاقان المرحوم عبد المجيد خان ، ابن المبرور الخاقان السلطان محمود خان ، شيد الله تعالى دولته بالشرع الأقوم ، ونصره على سائر الأمم ، ووفقه للخير الأتم ، وأذل له الطاغين الباغين ، وأعلى به كلمة الدين المبين ، وجعل فى حوزته جميع الأقطار ، وسدد أركان دولته ما تعاقب الليل والنهار ، كيف لا وهو والحمد لله تعالى بدر سماء السلطنة العثمانية ، وشمس أوج سلطنتها السنية ، التى قال فيها الشيخ عبد الغنى النابلسى عليه الرحمة : إنها المشار إليها فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ ونقل أيضاً صاحب كتاب البرهان ، عن بعض أهل العرفان ، أن الدولة العلية من بنى عثمان ، تمتد إلى آخر الزمان ، حتى يظهر المهدى من ذرية سيد ولد عدنان ، عليه الصلاة والسلام ما تعاقب الملوان .

وليعلم أنه كما يجب على الناس إطاعة السلطان يجب عليه العدل بين رعيته ، وتولية الأمور لأحسن من فى دولته ، فقد ورد فى الحديث الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، يوم القيامة ، حتى إن الرجل راع فى أهل بيته . وروى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : ما من أمير ولا وال إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، أطلقه عدله أو أوبقه جوره ، وعن على كرم الله تعالى وجهه : الإيمان على أربعة دعائم ، الصبر واليقين والعدل والجهاد . وفى كتاب هداية الولاة عن صعصعة بن صوحان قال : خطبنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وعلى رأسه عمامة سوداء فقال : أيها الناس ، إنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إنه ليس من قاض ولا وال إلا يؤتى به يوم القيامة حتى يوقف بين يدى الله تعالى على الصراط ، ثم تنشر الملائكة سيرته ، أى صحيفته مع رعيته ، أعدل أم جار ، فيقرؤها على رأس الخلائق، فإن كان عدلاً أنجاه الله بعدله ، وإن كان غير عدل انتفض الصراط به انتفاضة وصار بين كل عضو من أعضائه مسيرة مائة سنة ، ثم ينخرق به الصراط فما يتلقى قعر جهنم إلا بوجهه وحر جبينه .

وروى الحاكم فى صحيحه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ا هـ .

ولنشرع فى سرد أحاديث وآيات تدل على فضل الرباط والجهاد ، وما يتعلق بذلك على وجه الاقتصار والاقتصاد ، فمنها قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم* تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ ومنها ما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور ، رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . ومنها عن أبى هريرة ورواه الترمذى أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة ، شهيد وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه ، ومنها عن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : للشهيد عند الله ست خصال ، يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقربائه . رواه الترمذى وابن ماجه ، ومنها عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة ، رواه الترمذى والنسائى والدارمى ، ومنها عن معاذ رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الغزو غزوان فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة وأسر الشريك واجتنب الفساد فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة وعصى الإمام وأفسد فى الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف . رواه مالك وأبو داود والنسائى . ومنها عن أبى

أمامة رضى الله تعالى عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سرية فمر رجل بغار فيه شيء من ماء وبقل فحدث نفسه بأن يقيم فيه ويتخلى من الدنيا ، فاستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ، ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة ، والذى نفس محمد بيده لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة . رواه أحمد ، ومنها عن على وأبى الدرداء وأبى هريرة وأبى أمامة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين رضى الله تعالى عنهم كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من أنفق نفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ، ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم ، ثم تلا الآية ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء** ﴾ رواه ابن ماجه .

ومنها عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله ، متفق عليه . ومنها عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ، متفق عليه . ومنها عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من لم يغز أو لم يجهز غازياً أو يخلف غازياً فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة ، رواه أبو داود والنسائى والدارمى ، وعن سهل ابن سعد رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، متفق عليه . وعن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان . رواه مسلم . وقال عليه الصلاة والسلام: من جهز غازياً كان له مثل أجره ومن جهز غازياً فقد غزا . وروى ميمون ابن مهران عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من حبس فرساً فى سبيل الله كتب له بكل شعرة حسنة ، وحط عنه سيئة ، ورفع له درجة . وعن عبد الله بن عمر : وغزوة فى البحر خير من عشر

غزوات فى البر . ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها ، والمائد فيه كالمتشحط فى دمه . رواه الطبرانى ، ولذا كان الفرار يوم الزحف من الكبائر ، فقد روى الطبرانى عن ثوبان رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: ثلاثة لا ينفع معهن عمل ، الشرك بالله تعالى وعقوق الوالدين والفرار من الزحف ، وكذا الغلول فى الجهاد من الكبائر ، وهو أخذ شيء من الغنيمة ، فقد روى ثوبان أيضاً : من جاء يوم القيامة بريئاً من ثلاث دخل الجنة ، الكبر والغلول والدين . وعن سمرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول : من يكتم غالا فإنه مثله ، وليعلم أيضاً أن الهجرة من بلاد الكفر إلى ديار الإسلام وردت فيها أيضاً آيات وأحاديث عظام ، فمنها قوله تعالى : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ ، ومنها ما رواه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . فتبين من هذه الآيات والأحاديث أن إطاعة أولى الأمر والجهاد ، واجبان على كافة العباد ، ولنذكر بعض الحكايات الصحيحة ، لتكون فى ذلك عبرة لذوى العقول الرجيحة ، فمنها على ما نقله الوالد عليه الرحمة فى كتابه التبيان عن معاذ النسفى قال : كان شاب مراهق لا يصلى الصلاة فلما مات حضر الناس جنازته ، ولم يحضر أبوه ، فعوتب بذلك فقال : إنه كان عاصياً لله ولرسوله ، فرآه فى منامه وهو يقول : أبت إن لم تحضر جنازتى فقد حضر من هو خير منك ، أتانى جبريل عليه السلام مع سبعين ألف ملك فصلى على ، وبشرنى من الله تعالى بالمغفرة ، فقال له أبوه : يابنى من أين لك هذه الكرامة ، وقد كنت عاصياً لله ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : يا أبت بلغنى أن المسلمين قد رجعوا من غزوتهم سالمين فكنت مسروراً بذلك فأكرمنى الله تعالى بهذه الكرامة ، فهذا حال من استبشر بسلامة الغزاة، وليس معهم ، فكيف حال من هو من جملتهم . وذكر الإمام ناصر السنة ابن الجوزى فى عيون الحكايات بسنده عن أبى على ، وهو أول من سكن طرسوس، حتى بناها أبو سليم قال : إن ثلاثة إخوة من الشام كانوا يغزون ، وكانوا فرساناً شجعاناً ، فأسرهم الروم مرة فقال الملك : إنى أجعل فيكم الملك ، وأزوجكم بناتي وتدخلون فى النصرانية ، فأبوا ، وقالوا : يا محمداه ، فأمر بثلاث

قدور فصب فيها الزيت ثم أوقد تحتها ثلاثة أيام يعرضون فى كل يوم على تلك القدور ، ويدعون إلى النصرانية فيأبون فألقى الأكبر فى القدر ، ثم الثانى ثم أدنى الأصغر فجعل يفتنه عن دينه بكل أمر فقام إليه علج فقال : أيها الملك أنا أفتنه عن دينه قال : بماذا ؟ قال لقد علمت أن العرب أسرع شىء إلى النساء ، وليس فى الروم أجمل من بنتى فادفعه إلى حتى أخليه معها فإنها ستفتنه ، فضرب له أجلاً أربعين يوماً ، ودفعه إليه فجاء به فأدخله مع ابنته وأخبرها بالأمر ، فقالت له : دعه فقد كفيتك أمره ، فقام معها نهاره صائم وليله قائم ، حتى مضى أكثر الأجل ، فقال العلج لابنته : ما صنعت ؟ قالت : ما صنعت شيئا . هذا الرجل فقد أخويه فى هذه البلدة فأخاف أن يكون امتناعه من أجلهما كلما رأى آثارهما ، ولكن استزد الملك فى الأجل ، وانقلنى أنا وإياه إلى بلد آخر غير هذا ، فزاده أياماً وأخرجهما إلى بلد آخر ، فمكث على ذلك أياماً صائم النهار قائم الليل ، حتى إذا بقى من الأجل أيام قالت له الجارية ليلة : يا هذا إنى أراك تقدس رباً عظيماً ، وإنى قد دخلت فى دينك وتركت دين آبائى ، قال لها : كيف تكون الحيلة فى أمر الهرب قالت : أنا أحتال لك ، فجاءته بدواب فركبا فكانا يسيران بالليل ويكمنان بالنهار ، فبينما هما يسيران ليلة إذ سمع وقع خيل فإذا هو بأخويه ومعهما ملائكة فسلم عليهما وسألهما عن حالهما فقالا : ما كانت إلا الغسطة التى رأيت حتى خرجنا فى الفردوس ، وإن الله أرسلنا إليك لنشهد تزويجك بهذه الفتاة فزوجاه إياها وخرج من بلاد الروم فأقام معها ، وكانوا مشهورين بذلك معروفين بالشام فى الزمن الأول، وقال فيهما الشعراء أبياتاً منها :

سيعطى الصادقون بفضل صدق ... نجـــاة فى الحـــياة وفى الممات

اهـ ، قلت : بحسب الظاهر فى هذه الحكاية بعدٌ غير أنه لا يبعد من كرم الله تعالى أن يرسل ملائكة على صورة أخويه المذكورين كما كان جبريل عليه السلام يتصور أحياناً بصورة دحية رضى الله تعالى عنه ، ومع هذا فعالم البرزخ ما وراء طور العقول ، وقد ثبتت حياة الشهداء حياة برزخية بأصح المنقول ، ويروى أن عبدالله بن المبارك كتب للفضيل بن عياض بمكة المكرمة يحثه على الجهاد ، وكان الفضيل قد اعتزل الناس ولازم العزلة والعبادة وترك الجهاد فقال :

يـــا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنـــا بدمائنـــا تتخضب

أو كان يتعب خـيله فى باطــل	فخــيولنا يــوم الصبيحة تتعب
ريــح العبير لكم ونحـن عبيرنا	وهـج السنابك [1] والغبار الأطيب
ولقــد أتانـــا من مقال نبينـــا	قول صـــحيح صـادق لا يكذب
لا يستوى وغبار [2] خيل الله فـى	أنف امــرئ ودخـــان نار تلهب
هـــذا كتــاب الله ينطق بيننـــا	ليس الشهـــيد بميت لا يكـــذب

فلما قرأها الفضيل بكى ، وقال : نصحنا جزاه الله تعالى خيراً .

فيا إخوانى أقبل المجاهدون ولازم المرابطون على خدمة الحق إقبال عالم ، وما سلكوا قط إلا الطريق السالم ، بلغوا من الجهاد فوق ما يروم الرائم ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، تذكروا ذنوبهم العظائم ، وخافوا من أن تكون جرت منهم مظالم ، فحزنهم عليها دائم ، الحزين مطرق والخائف واجم ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، أرباب اجتهاد وجهاد وعزائم ، وأهل إقدام قد أمنوا الهزائم ، الشوق حاديهم والصدق خادم ، ولا يخافون لومة لائم ، يعدون التقصير من العظائم ، ولتأييد دينهم يبذلون المهج الكرائم ، فإذا جن الليل فساجد وقائم ، وإذا حاربوا قمعوا كل كافر وظالم ، ولا يخافون لوة لائم ، أين أنت وهم ما ساهر كنائم ، كلا والله ولا مفطر كصائم ، أنت وقت الغنائم نائم وقلبك فى شهوات البهائم هائم :

نهـــارك يا مغـــرور سهو وغفلة	وليلك نـــوم والــردى لك لازم
يغـــرك ما يفنى وتشـــغل بالمنى	كما غر باللذات فى النوم حالـم
وتشغـــل فيما سوف يكـــره غبه	كذلك فى الدنيا تعيش البهائـم

فنسألك اللهم أن تجعلنا من أوليائك المجاهدين ، وعبادك المطيعين ، ولأوامر أولى الأمر ممتثلين ، وأحينا فى الدنيا مؤمنين ، وتوفنا مسلمين تائبين ، واجعلنا عند السؤال ثابتين ، واجعلنا ممن يأخذ الكتاب باليمين ، واجعلنا يوم الفزع الأكبر آمنين، اللهم ثبت المسلمين أي ثبات ، وشتت الكافرين أى شتات ، وانصر اللهم سلطاننا أمير المؤمنين ، وأعل كلمته وشيد دولته ، وكثر فرقته ، وأيده بتأييدك ، وسدده

---

(١) السنبك من السيف طوق حليته ا هـ منه .

(٢) فى نسخة لا يجمعن غبار .

بتسديدك ، واحفظ عساكره ، وكثر جنوده ، وأعطهم من الخير فوق ما يرجون ، واصرف عنهم من السوء فوق ما يحذرون ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، وارحم اللهم كافة المسلمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس العشرون
فى التوبة النصوح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى أوضح سبيل هدايته لأرباب ولايته وأبهج . وحرك أهل عبادته إلى التوبة النصوح وأزعج ، وأبدع بدائع قدرته فى محكم صنعته وأخرج ، وأوقد نيران محبته فى أفئدة أحبته وأجج ، من عرف لطفه ثنى عطفه إليه وأدلج ، ومن خاف عتبه ترك ذنبه وتحرج ، يحب الإخلاص فى الأعمال ولا يخفى عليه البهرج ، حليم فإن غضب مكر بالعبد واستدرج ، لا تغتر بحلمه فكم عقاب فى الحلم أدرج ، لا يخفى عليه ضمير القلب فى سواد الليل ولا طرف أدعج ، يبصر جرى اللبن يسرى فى العروق نحو المخرج ، وينزل إلى السماء فأين الذى بالمناجاة والاستغفار يلهج ، فيستعرض الحوائج إلى أن يلوح الفجر ويتبلج ، وما انتقل ومن عقل رأى الحق أبلج، هذا مذهب من القرآن القديم والنقل القويم مستخرج ، وهو المنهاج السليم فلا تعرج عن المنهج ، أحمده على ما أسر وما أزعج ، وأشهد بوحدانيته شهادة موقن ما تلجلج ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى محاسن الشرائع فى شريعته تدرج، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر أول من أنفق ماله وأخرج ، وعلى عمر الذى اضطر كسرى إلى الهرب وأحوج ، وعلى عثمان المظلوم وقد عدل وما عذل ولا عرج ، وعلى على مبيد الطغاة فلم يكن لهم منه مهرب ولا مخرج ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين نصر الله بهم الدين وأبهج .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز ، بعد أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله**

توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ .

فنقول وبالله تعالى التوفيق ، وبيده أزمَّة التحقيق : لما كان البارى سبحانه وتعالى رءوفاً بعباده ، ولا سيما هذه الأمة التى هى من أهل وداده ، وأن نبيها حبيبه وصفيه، بشرها سبحانه وتعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام بهذه الآيات الكريمة ، ووعدهم بالعفو والمغفرة بعد التوبة والاستغفار من كل جريمة ، وقال عز من قائل : **﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون ﴾** وليعلم أنه قرأ الجمهور نصوحاً بالفتح ، وقرأ الحسن وعاصم نصوحاً بالضم ، وهو مصدر نصح ، فإن النصح والنصوح كالشكر والشكور ، والكفر والكفور ، أى ذات نصح أو تنصح نصوحاً ، أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له ، والتوبة لغة الرجوع، وشرعاً هى الرجوع عن المعاصى ، والتوبة النصوح أى مبالغة فى النصح، فهو من أمثلة المبالغة كضروب ، وصفت التوبة به على الإسناد المجازى ، وهو وصف التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقتها ، وقيل نصوح من نصاحة الثوب أي خياطته ، أى توبة ترفو خروقك فى دينك ، وترم خللك ، وقيل خالصة من قوله عسل ناصح إذا خلص من الشمع ، وجوز أن يراد توبة تنصح الناس ، أى تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها فى صاحبها ، وفى المراد بها فى الآية الكريمة أقوال كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين قولاً ، ستسمع أكثرها إن شاء الله تعالى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : قال معاذ رضى الله تعالى عنهم : يا رسول الله ما التوبة النصوح ، قال : أن يندم العبد على الذنب الذى أصابه فيعتذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع ، قال العلماء : الندم تحزن وتوجع على أن فعل ، وتمنى كونه لم يفعل ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : توبة ، وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : التوبة النصوح ، وهى الندم بالقلب والاستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإضمار أن لا يعود . وقال غير واحد من العلماء : يشترط مع ذلك رد ظلامة آدمى إن تعلقت به ، فإن ظلمته بأخذ ماله ومات وجب رده إلى وارثه ؛ لأنه

المطالب به فى الآخرة فلو أعسر وانتظر الوارث يساره وتاب صحت توبته . قال الماوردى : فإن مات معسراً أوفى الله تعالى عنه .

ويشترط لصحة التوبة أن يكون قادراً على المعصية ، فلو تاب عن الذنب مثلاً لعجزه عنه بهرم أو غيره فلا ، ويشترط أن تكون التوبة لله تعالى ، فلو كان يعصى بماله فترك المعصية لبخله مثلا فلا تقبل توبته ، قاله الأسنوى ، ولا يشترط لصحة التوبة أن يفضح نفسه عند الحاكم بل عليه أن يستتر بستر الله تعالى ، ولا أن يقيم الحد على نفسه لأن العفو فى حقوق الله تعالى قريب من التائبين ، وأما مظالم العباد فيجب إظهارها والتمكن من استيفائها ، وأما غيرها من المعاصى كالنظر إلى غير محرم وسماع الملاهى والقعود فى المسجد مع الجنابة ومس المصحف بغير وضوء وشرب الخمر فيستحب عند التوبة أن يكفر كل معصية بحسنة من جنسها ، فيكفر سماع الملاهى مثلاً بسماع القرآن ، وأذى المسلمين بالإحسان إليهم ، وكذا الباقى . ولذا قال بعضهم : التوبة النصوح لا تحصل إلا بثمانية أشياء ، وهى الندم على ما سلف من الذنب ، وقضاء الفرائض ، ورد المظالم واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تربى نفسك فى طاعة الله تعالى كما ربيتها فى المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصى ، وإصلاح المآكل والمشارب من الحلال ، وليعلم أن تأخير التوبة أو تركها عده بعضهم من الكبائر . روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هلك المسوفون ، والمسوف من يقول سوف أتوب ، وهو هالك لأنه بنى الأمر على البقاء الذى ليس مفوضاً إليه ، فلعله لا يبقى وإن بقى فإنه كما لا يقدر على ترك الذنب اليوم لا يقدر على تركه غداً ، لأن عجزه من الترك فى الحال ليس إلا لغلبة الشهوة عليه ، والشهوة لا تفارقه غداً ، بل تتضاعف وتتأكد بالاعتياد . وروى ابن ماجة : يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال قبل أن تشتغلوا، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا، وتنصروا وتجبروا . وروى الحاكم : اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك ، أي فينبغى للإنسان أن يتوب ويعمل الصالحات ما دام صحيحاً فى قيد الحياة لأنه يخاف أن يفجأه الموت قبل التوبة ، أو يتوب عند الغرغرة، وقد

قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ قال حجة الإسلام الغزالى عليه الرحمة : الأجل القريب ، معناه أن يقول العبد عند كشف الغطاء يا ملك الموت أخرنى يوماً أعتذر فيه إلى ربى وأتوب ، وأتزود صالحاً لنفسى، فيقول : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول : فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة ، فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى حلقومه وضلوعه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فإن خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقاوة والعياذ بالله تعالى خرجت روحه على الشك ، وذلك سوء الخاتمة ، ولمثل هذا يقال: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ ا هـ .

هذا وحيث كانت التوبة أهم الأوامر الإسلامية ، وأول المقامات الإيمانية ، ومبدأ طريق السالكين ، ومفتاح باب الواصلين ، فنذكر أيضاً ما يتعلق بها من الأحاديث التى فاقت روضاً ، روى الإمام مسلم عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : لو أخطأتم حتى تبلغ السماء ثم تبتم لتاب عليكم ، وعنه رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن عبدا أصاب ذنباً فقال : يا رب إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى ، فقال له ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله تعالى ثم أصاب ذنباً آخر فقال : يا رب إنى أذنبت ذنباً آخر فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال : يا رب إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى ، فقال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء . رواه البخارى . وقوله فليعمل ما شاء معناه ، والله تعالى أعلم على ما قال المنذرى، أنه ما دام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب عنه ولم يعد إليه بدليل قوله ثم أصاب ذنباً آخر

فليفعل ، إذا كان هذا دأبه ، ما شاء لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لأنه إذا كان يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإنها توبة الكذابين ، ولذا قالت رابعة العدوية رحمها الله تعالى : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، وروى مسلم : والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله عز وجل فيغفر لهم . وروى : ما علم الله تعالى من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفر منه. وعن عبد الله ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ، ومعنى يغرغر ، بغينين معجمتين، أى ما لم تبلغ روحه حلقومه ، وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظته ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض ، حتى يلقى الله تعالى يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : النادم ينتظر من الله الرحمة والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله، وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة ، واحذروا التسويف فإن الموت يأتى بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، ثم قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

وروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه ، وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب علمه فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك أكرهتك، قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وماحملنى عليه إلا الحاجة . فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته قط ، اذهبى فهى لك ، وقال : لا والله لا أعصى الله بعدها أبداً ، فمات من ليلته فأصبح

مكتوب على بابه إن الله قد غفر للكفل ، قال : وسمعته من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر من عشرين مرة .

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : كانت قريتان إحداهما صالحة والأخرى ظالمة فخرج رجل من القرية الظالمة يريد القرية الصالحة فأتاه الموت حيث شاء الله ، واختصم فيه الملك والشيطان ، فقال الشيطان : والله ما عصانى قط فقال: الملك إنه قد خرج يريد التوبة ، فقضى بينهما أن ينظر إلى أيهما أقرب ، فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر ، فغفر له . قال معمر : وسمعت من يقول: قرب الله إليه القرية الصالحة . رواه الطبرانى ، وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة فقال : لا ، فقتله : فكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم من يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة إنسان فجعلوه بينهم ، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة . وفى رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى ، وقال : قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من تقرب إلى الله شبراً تقرب إليه ذراعاً ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ومن أقبل إلى الله عز وجل ماشياً أقبل إليه مهرولاً . والله أعلى وأجل ، والله أعلى وأجل ، والله أعلى وأجل ، رواه الإمام أحمد ، وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة . وفى رواية لمسلم : لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس

منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال : أخذ بيدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فمشى قليلاً ثم قال : يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد ، وأداء الأمانة وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الإمام والثقة فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تصدق كاذباً ، أو تكذب صادقاً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، وأن تفسد فى الأرض ، وإذا أسأت فأحسن ، يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر ، وأحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية ، واتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن . رواه الترمذى . وقال العلامة عبد الرحمن بن الجوزى فى التبصرة : واعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مقته لنفسه على قبح زلته ، فمنهم من قوى مقته لها ورأى تعريضها للقتل كما فعل ماعز والغامدية ، روى عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالساً عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ جاء رجل يقال له ماعز بن مالك ، فقال : يا نبى الله، إنى قد زنيت ، وأنا أريد أن تطهرنى . فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ارجع فلما كان من الغد أتاه أيضاً فاعترف عنده بالزنا فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: ارجع . ثم أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى قومه فسألهم عنه فقال لهم : ما تعلمون من ماعز بن مالك الأسلمى ، هل ترون به بأساً أو تنكرون من عقله شيئاً فقالوا : ما نرى به بأساً ولا ننكر من عقله شيئاً . ثم عاد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الثالثة فاعترف عنده بالزنا ، وقال : يا نبى الله طهرنى فأرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى قومه أيضاً فسألهم عنه فقالوا كما قالوا فى المرة الأولى : ما نرى به بأساً وما ننكر من عقله شيئاً . ثم رجع إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاعترف عنده بالزنا فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فحفر له حفيرة فجعل فيها إلى صدره ثم أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الناس أن يرجموه ، وقال بريدة : وكنت جالساً عند النبى صلى الله تعالى عليه

وسلم فجاءته امرأة من غامد فقالت : يا نبى الله إنى زنيت وأنا أريد أن تطهرنى فقال لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ارجعى فلما كان الغد أتته فاعترفت عنده بالزنا وقالت : يا نبى الله طهرنى فلعلك أن تردنى كما رددت ماعز بن مالك ، فوالله إنى لحبلى يا نبى الله، فقال لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ارجعى حتى تلدى ، فلما ولدت جاءت بالصبى تحمله فقالت : يا نبى الله هذا ولدته قال : اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته جاءت بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : يا نبى الله هذا قد فطمته فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالصبى فدفع إلى رجل من المسلمين ، وأمر بها فحفر لها حفيرة ، فجعلت فيها إلى صدرها ثم أمر الناس أن يرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجنة خالد فسبها ، فسمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سبه إياها فقال : مهلاً يا خالد لا تسبها فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، فأمر بها فصلى عليها ودفنت . فانظر إلى مقت هؤلاء أنفسهم حتى أسلموها إلى الهلاك غضباً عليها لما فعلت . ومن الناس من لم يجز له التعرض لقتلها فكان ينغص عيشها ، قال بعض السلف : رأيت ضيغما لعابد قد أخذ كوزا من ماء بارد فصبه فى الحب واكتاز غيره فقلت له فى ذلك فقال : نظرت نظرة وأنا شاب فجعلت على نفسى ألا أذيقها الماء البارد أنغص عليها أيام الحياة .

لهج بعض العباد بالبكاء فعوتب على كثرته فقال شعراً :

بكيت على الذنوب لعظم جرمى ... وحـق لكل من يعصـى البكاء
فلـو كـان البكـاء يـرد همى ... لأسعـدت الدمـوع معاً دماءَ

فعليكم إخوانى بالتوبة والاستغفار ، فى آناء الليل والنهار ، فقد ورد أيضاً فيه أحاديث كثيرة ، وآيات غزيرة ، فلنذكر لكم بعضها لتشموا وردها ، فقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن رب العزة جل جلاله أنه قال : يا بنى آدم كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : قال إبليس : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله تبارك وتعالى : وعزتى وجلالى لا أزال

أغفر لهم ما استغفرونى . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ألا أدلكم على دوائكم من الذنوب ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : دواؤكم الاستغفار ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفاراً كثيراً ، فمن أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله تعالى له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة ، وفى رواية : من استغفر للمؤمنين والمؤمنات فى كل يوم سبعاً وعشرين مرة أو خمساً وعشرين مرة كان من الذين يستجاب لهم ويرزق به أهل الأرض ، ومن استغفر الله عند الغروب سبعين مرة كل يوم لم يكتب من الكاذبين ، ومن استغفر الله فى ليلة سبعين مرة لم يكتب من الغافلين ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف الملك ثلاث ساعات ، فإن استغفر من ذنوبه لم يوقفه عليه ولم يعذبه يوم القيامة . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من قال : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، غفر له وإن كان قد فر من الزحف ، ومن قالها فى دبر كل صلاة غفرت له ذنوبه كلها ، ومن استغفر الله تعالى سبعين مرة فى دبر كل صلاة غفر الله له ما اكتسب من الذنوب ، ولم يخرج من الدنيا حتى يرى أزواجه ومساكنه من الجنة . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : وا ذنوباه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ، ورحمتك أرجى عندى من عملى ، فقالها فقال له : قم فقد غفر الله لك .

وأخرج البيهقى وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ينزل ربنا إلى السماء الدنيا فى ثلث الليل الآخر فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له ، الحديث . وقال ابن مسعود : كان بنو إسرائيل إذا أذنبوا أصبح مكتوباً على باب أحدهم الذنب وكفارته ، فيفتضح فأعطينا خيراً من ذلك وهو الاستغفار ،

وذكر الله عز وجل ، ويقرأ قوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ .

فعليكم إخوانى بالتوبة والاستغفار ، والابتهال إلى ذى الجلال والإفضال ، واغسلوا بالدمع درن الذنوب ، قبل أن تفتضحوا بالعيوب ، فيا هذا ماء العين فى الأرض حياة الزرع ، وماء العين فى الخد حياة القلب ، يا طالب الجنة ، بذنب واحد أبوك أخرج منها ، أفتريد دخولها بذنوب ما تبت عنها ، وإن امرءًا تنقضى بالجهل ساعاته ، وتذهب فى المعاصى أوقاته ، فخليق أن يجرى دماً دموعه ، وحقيق أن يقل فى الدجى هجوعه ، يا من ذهب عمره فى الخلاف ، وصار قلبه فى الخطايا فى غلاف ، كم تعصى وتتمرد ، وأقبح من قبيحك أنك تتعمد ، ياردىء العزم يا سيئ المقصد ، يا نقى الثوب والقلب أسود ، ما هذا الأمل ولست بمخلد ، أما تخاف من أوعد وهدد ، يا مسئولاً عن القبيح أتقر أم تجحد ، يا من شاب وما تاب ، هذا الدأب مذ أنت أمرد، ميز ما يبقى مما يفنى ثم اطلب الأجود . أسفاً لنفس لا تعقل أمرها ، مضت أيامها فى الذنوب وجهلت قدرها ، ولم تزل فى المعاصى تضيع عمرها ، يا نادماً على الذنوب أين أثر ندمك ، أين بكاؤك على زلة قدمك ، أين حذرك من أليم العقاب ، أين قلقك من خوف العتاب ، أتعتقد أن التوبة قول باللسان ، إنما التوبة نار تحرق الجنان ، جرد الإقرار ، ثم ألبسه الاعتذار، ثم حله بحلية الانكسار ، ثم أقمه على باب الدار ، أكتب قصة الرجوع بقلم النزوع، بمداد الدموع ، واسع بها على قدم الخضوع ، إلى باب الخشوع ، واتبعها بالعطش والجوع ، وسل رفعها فرب سؤال مسموع ، مناجاتك نجاتك ، وصلاتك صلاتك ، ناد فى نادى الأسحار والناس نائمون ، يا أكرم من أمله الآملون ، إن طردتنى فإلى من أذهب ، وإن أبعدتنى فإليك أنسب ، علمت ذنبى وخلقتنى ، ورأيت زللى ورزقتنى .

لئـــن جـل ذنبى وارتكبت المآثما   وأصبحت فى بحر الخطيئة عائمـــا
فهـــا أنا ذا يا رب أقررت بالذى   جنيت على نفسى وأصبحت نادما
أجـــل ذنوبى عند عفوك سيـــدى   حـــقير وإن كانت ذنوبى عظائمـــا

لو رأيت التائب لرأيت جفناً مقروحاً ، تراه فى الأسحار على باب الاعتذار مطروحاً ، سمع قول الإله : ﴿ **توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾ مطعمه يسير ، وحزنه

كثير ، ومزعجه مثير ، كأنه أسير ، قد رمى مجروحاً ، توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، أنحل بدنه الصيام ، وأتعب قدمه القيام ، فبذل بدناً وروحاً ، توبوا إلى الله توبة نصوحاً . الذل قد علاه ، والحزن قد وهاه ، يذم نفسه على هواه ، وبهذا صار ممدوحا ، توبوا إلى الله توبة نصوحا . أين من يبكى جنايات الشباب ، التى بها قد اسود الكتاب ، إن من أتى الباب يجد الباب مفتوحا ، توبوا إلى الله توبة نصوحا. اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك ، حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها ، وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها ، وارحمنا بقبولك توبتنا واستر عيوبنا ، يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

* * *

المجلس الحادى والعشرون
فى ليلة القدر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله عالم السر والجهر ، وقاصم الجبابرة بالعز والقهر ، محصى قطرات الماء، وهو يجرى فى النهر ، موفر الثواب للأحباب ، ومكمل الأجر ، وباعث ظلام الليل ينسخه نور الفجر ، يعلم خائنة الأعين وخافية الصدر ، الموالى رزقه فلم ينس النمل فى الرمل والفرخ فى الوكر ، جل أن تناله أيدى الحوادث على مرور الدهر ، أحصى عدد الرمل فى الفيافى ، والنمل فى القفر ، أغنى وأفقر ، فبإرادته وقوع الغنى والفقر ، وفضل بعض المخلوقات على بعض حتى أوقات الدهر ، ليلة القدر خير من ألف شهر .

أحمده حمداً لا منتهى لعدده ، وأشهد بتوحيده شهادة مخلص فى معتقده ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى نبع الماء من بين أصابع يده ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر رفيقه فى شدائده ، وعلى عمر كهف الإسلام وعضده ، وعلى عثمان جامع القرآن فى رقه بعد تبدده ، وعلى على كافى الحروب وشجعانها بمفرده، وعلى سائر آله وأصحابه المحسن كل منهم فى مقصده .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذا ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

ونقول ، وبالله تعالى التوفيق ، ومنه الهداية إلى أقوم طريق : إن البسملة المذكورة فى أوائل السور من القرآن الكريم ، اختلف العلماء فى كونها من السورة أم لا ، ومن القرآن أم لا ، على أقوال كثيرة ليس هذا موضع ذكرها ، لكنا نذكر المهم منها، وهو أن البسملة هل هى آية من الفاتحة أم آية برأسها مستقلة ، ذكرت للفصل بين السور ، فالذى ذهبت إليه أئمتنا الحنفية أنها ليست من الفاتحة فلا يجب قراءتها معها فتصح الصلاة ، وإن لم يقرأ البسملة أو الفاتحة ، لأن الفرض قراءة بعض القرآن ، والذى ذهبت إليه ساداتنا الشافعية فرضية قراءة الفاتحة فى الصلاة والبسملة آية منها ، ودليل كل واحد فى موضعه .

ولنرجع إلى قوله تعالى إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، فالهاء عائد إلى القرآن كما قال جمهور المفسرين ، وهو وإن لم يتقدم ذكره غير أنه فى قوة المذكور ، لعلو شأنه فكأنه حاضر عند كل أحد ، والمراد بإنزاله فيها إنزاله كله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، فقد صح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا ، وفى رواية : ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، وفى رواية أخرى عنه أيضاً : أنزل جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ونزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم منجماً بجواب كلام العباد وأعمالهم ، وفى أخرى : أنه أنزل فى رمضان ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً فى الشهور والأيام ، قال الوالد عليه الرحمة : وقال بعضهم ، وهو الأشهر : فى ثلاث وعشرين ، وقال آخر فى خمس وعشرين . وهذا للخلاف فى مدة إقامته صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة بعد البعث ، والمراد بالإنزال إظهار القرآن من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، أو إثباته لدى السفرة هناك أو نحو ذلك مما لا يشكل نسبته إلى القرآن ، واختلف العلماء فى سبب نزول هذه السورة على أقوال ، فمنها كما أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن مجاهد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ،

فعجب المسلمون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم ، فأنزل الله تعالى السورة ، وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن عروة ، قال : ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوماً أربعة من بنى إسرائيل عبدوا الله تعالى ثمانين عاماً لم يعصوه طرفة عين ، فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن العجوز ، ويوشع بن نون ، فعجب أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يامحمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، فقد أنزل الله تعالى عليك خيراً من ذلك فقرأ عليه إنا أنزلناه ، ثم قال : هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك منه، فسر بذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر ، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد . وقال أبو بكر الوراق : كان ملك كل من سليمان وذى القرنين خمسمائة شهر ، فجعل الله تعالى العمل فى هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما ، وفى هذا نظر .

وقيل : أرى عليه الصلاة والسلام أعمار الأمم فاستقصر أعمار أمته فخاف عليه الصلاة والسلام ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر ، وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم ، وذكره الإمام مالك فى الموطأ . وقيل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رأى بنى أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت سورة الكوثر ، وسورة القدر ، قال القاسم بن الفضل : قد عددنا مدة ملكهم فإذا هى ألف شهر ، وروى هذا عن الحسن بن على وابن عباس وسعيد بن المسيب ، قال المزى : هو حديث منكر ، وبعض رواته مطعون فيهم . ونقل السفيرى عن ثعلب عن وهب بن منبه أن نبيا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقال له سمنون كان يجاهد قومه فيقتل منهم ويأخذ من أموالهم ، وكان لا يوثقه الحديد ، فلما عجزوا عنه قالوا لزوجته : إن أوثقتيه لنا أعطيناك مالا كثيراً فلما نام أوثقته بحبل فلما استيقظ وقع من يديه ورجليه ، فسألها عن ذلك فقالت : لأرى قوتك ، ثم أوثقته بحديد ، فلما استيقظ سقط عنه الحديد ، فسألها عن ذلك فقالت: لأرى قوتك فى الحديد أيضاً ، ثم قالت له : أما فى الدنيا شىء يوثقك ، قال : شعرى ، فلما نام أوثقته بشعره ، وبعثت إلى قومه فقطعوا أنفه وأذنيه وقلعوا عينيه فخسف الله تعالى بهم الأرض ، وأرسل على المرأة صاعقة ، ورد الله تعالى

ذلك النبى إلى أحسن حال ، وكان قد جاهدهم ألف شهر ، فتعجب أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وقيل غير ذلك مما فيه ضعف أيضاً.

قال الوالد عليه الرحمة : وخيرتها من ألف شهر باعتبار العادة عند الأكثرين ، على معنى أن العبادة فيها خير من العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، ولا يعلم مقدار خيريتها منها إلا هو سبحانه وتعالى ، وهذا تفضل منه عز وجل . واختلف فى أن تلك الليلة هل تستتبع يومها أم لا فقال الشعبى نعم يومها مثلها ، قال الزهرى : وإنما سميت ليلة القدر لعظمها وشرفها من قولهم رجل له قدر عند فلان أى منزلة وشرف ، أو سميت بذلك لأن من أتى بفعل الطاعات فيها صار ذا قدر وشرف عند الله عز وجل ، أو لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً ، وقيل لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر بواسطة ملك ذى قدر على رسول ذى قدر لأمة ذات قدر ، وقال الخليل بن أحمد : سميت ليلة القدر لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة عليهم السلام كقوله ومن قدر عليه رزقه أى ضيقه ، وقال غير واحد من العلماء : سميت ليلة القدر ؛ لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة من أمر الموت والأجل وغير ذلك .

قلت : وهو الراجح عندى بدليل قوله تعالى : ﴿ **حم والكتاب المبين * إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ﴾ فيها يفرق ، أى يفصل ، كل أمر حكيم . قال ابن الجوزى : فى الليلة المباركة قولان أحدهما أنها ليلة القدر ، والثانى ليلة النصف من شعبان ، كما سنفصل ذلك فى محله إن شاء الله تعالى ، فقد روى أصحاب السنن عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كانت ليلة النصف من شعبان ليلتى ، فبات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندى ، فلما كان فى جوف الليل فقدته فأخذنى عليه ما يأخذ النساء من الغيرة فتلفعت بمرطى ، أما والله ما كان مرطى خزا ولا قزا ولا حريراً ولا ديباجاً ولا قطنا ، ولا كتانا ، قيل : مم كان ؟ قالت : سداه كان شعراً ولحمته أوبار الإبل ، فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده ، فانصرفت إلى حجرتى فإذا به كالثوب الساقط على وجه الأرض ساجداً وهو يقول فى سجوده : سجد لك سوادى وخيالى ، وآمن بك فؤادى ، هذه يدى وما جنيت بها على نفسى. يا عظيماً يرجى لكل عظيم ، اغفر الذنب العظيم ، أقول لك كما قال

داود: أعفر وجهى بالتراب لسيدى ، وحق له أن يسجد ، سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره . ثم رفع رأسه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : اللهم ارزقنى قلباً نقياً تقياً من الشرك برياً ، لا كافراً ولا شقياً ، ثم سجد وقال : أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من معاقبتك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، قالت : ثم انصرف ودخل معى فى الخميلة ولى نفس عال ، فقال : ما هذا النفس يا حميراء ، فأخبرته فطفق يمسح بيده على ركبتى ويقول ، ويس (١) هاتين الركبتين ، ماذا لقيتا فى هذه الليلة ليلة النصف من شعبان ، إن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيغفر لعباده إلا لمشرك أو مشاحن ، وفى رواية أخرى : إن الله عز وجل فى هذه الليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم بنى كلب ، لا أقول فيهم ستة (٢) مدمن خمر ، ولا عاق والديه ، ولا مصر على ربا أو زنا ، ولا مصارم (٣) ولا مصور ولا قتات (٤) ، وعن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : إذا كان ليلة النصف من شعبان قال الله تعالى : هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له، هل من مسترزق فأرزقه ، حتى ينفجر الفجر ، فأمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقيام ليلها وصيام نهارها ، وعن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ قال فى ليلة النصف من شعبان ، يدبر الله أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ، ويكتب حاج بيت الله تعالى ، فلا يزيد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد ، ا هـ .

وفى روح المعانى ، ومعنى ليلة القدر ليلة التقدير ، وسميت بذلك لما روى عن ابن عباس وغيره أنه يقدر فيها ويقضى ما يكون فى تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى السنة القابلة ، والمراد إظهار تقديره تعالى ذلك للملائكة عليهم السلام المأمورين بالحوادث الكونية ، وإلا فتقديره تعالى جميع الأشياء أزلى قبل خلق السموات والأرض ، لكن قال بعض الأجلة : كون التقدير فى هذه الليلة يشكل عليه قول كثير إنه ليلة النصف من شعبان ، وهى المراد بالليلة المباركة قال الله تعالى: ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ وأجاب بأن ههنا ثلاثة أشياء : الأول نفس تقدير

---

(١) قال فى القاموس ، ويس كلمة تستعمل فى موضع رأفة واستملاح للصبى ا هـ منه .

(٢) قوله لا أقول فيهم ستة إلخ هكذا بالأصل الذى بأيدينا وليحرر لفظ الحديث ا هـ .

(٣) المصارم المقاطع لأخيه المسلم ا هـ منه . (٤) القتات النمام ا هـ منه .

الأمور ، أى تعيين مقاديرها وأوقاتها ، وذلك فى الأزل ، والثانى إظهار تلك المقادير للملائكة عليه السلام بأن تكتب فى اللوح المحفوظ ، وذلك فى ليلة النصف من شعبان ، والثالث إثبات تلك المقادير فى نسخ وتسليمها إلى أربابها من المدبرات فتدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل عليه السلام ، ونسخة الحروب والرياح والجنود والزلازل والصواعق والخسف إلى جبريل عليه السلام ، ونسخة الأعمال إلى إسرافيل عليه السلام ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت وذلك فى ليلة القدر ، وقيل : يقدر فى ليلة النصف الآجال والأرزاق ، وفى ليلة القدر الأمور التى فيها الخير والبركة والسلامة . وقيل يقدر فى هذه ما يتعلق به إعزاز الدين وما فيه النفع العظيم للمسلمين ، وفى ليلة النصف يكتب أسماء من يموت ويسلم إلى ملك الموت ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

واعلم أن العلماء اختلفوا فى ليلة القدر ، فقيل رفعت وهو قول مردود ، وعن عكرمة أنها ليلة النصف من شعبان وهو قول شاذ لقوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، وعن ابن مسعود أنها تنتقل فتكون فى كل سنة فى ليلة ، والأكثرون على أنها فى شهر رمضان ، فعن ابن رزين أنها الليلة الأولى منه ، وعن الحسن البصرى السابعة عشرة لأن وقعة بدر كانت فى صبيحتها ، وحكى عن زيد بن أرقم وعن أنس مرفوعاً التاسعة عشرة وحكى موقوفاً على ابن مسعود أيضاً ، وعن محمد ابن إسحق الحادية والعشرون لما فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى أنه عليه الصلاة والسلام قال : لقد رأيت هذه الليلة يعنى ليلة القدر ثم نسيتها ، وقد رأيتنى أسجد من صبيحتها فى ماء وطين ، قال أبو سعيد فمطرت السماء من تلك الليلة فوكف المسجد فأبصرت عيناى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين ، وفى مسلم من صبيحة ثلاث وعشرين ، ومنه مع ما قبله مال الشافعى عليه الرحمة إلى أنها الليلة الحادية أو الثالثة والعشرون ، وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أنيس أنه سئل عن ليلة القدر فقال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : التمسوها الليلة ، وتلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين ، وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى وابن جرير وغيرهم عن بلال قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم : ليلة القدر ليلة أربع وعشرين ، وفى الإتقان وغيره أنها الليلة التى أنزل فيها القرآن .

وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى ذر أنه سئل عن ليلة القدر فقال : كان عمر وحذيفة وناس من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يشكون أنها ليلة سبع وعشرين ، وأخرج ابن نضر وابن جرير فى تهذيبه عن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : التمسوا ليلة القدر فى آخر ليلة من رمضان ، وفى رواية أحمد عن أبى هريرة مرفوعاً أنها آخر ليلة ، وقيل : هى فى العشر الأوسط تنتقل فيه ، وقيل فى أوتاره وقيل : فى أشفاعه ، وأخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فى شهر رمضان ، وبالجملة الأقوال فيها مختلفة جدا ؛ لأن الأكثرين على أنها فى العشر الأواخر لكثرة الأحاديث الصحيحة فى ذلك ، وأكثرهم على أنها فى أوتارها لذلك أيضاً ، وكثير منها ذهب إلى أنها ليلة السابعة ، من تلك الأوتار ، وصح من رواية الإمام أحمد ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن حبان وغيرهم أن رزين بن حبيش سأل أبى ابن كعب عنها فحلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين ، فقال له : بم تقول ذلك يا أبا المنذر ؟ فقال : بالآية والعلامة التى قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنها تصبح من ذلك اليوم تطلع الشمس ليس لها شعاع ، وبعض الأخبار عن ابن عباس ظاهر فى ذلك وفى بعضها الاستئناس له بما يدل على جلالة شأن السبعة التى قالوا فيها إنها عدد تام من كون السموات سبعاً والأرضين سبعاً والأيام سبعاً والجمار سبعاً والطواف بالبيت سبعاً والسجود على سبع ، إلى غير ذلك مما ذكره ، لما علمت من الأخبار الصحيحة المتضافرة ، وهو زمان ضعف البدن وفيه يزيد أجر العمل ووقت قوة الاستعداد للتجليات لمزيد التصفية ، وأنها فى الأوتار أرجى للأحاديث أيضاً مع أن الله تعالى وتر يحب الوتر ، وقال ابن حجر الهيثمى : اختار جمع أنها لا تلزم ليلة بعينها من العشر الأواخر بل تنتقل فى لياليه فعاماً أو أعواماً تكون وتراً إحدى أو ثلاثاً أو غيرهما ، وعاماً أو أعواماً تكون شفعاً اثنتين أو أربعاً أو غيرهما ، قالوا : ولا تجتمع الأحاديث المتعارضة فيها إلا بذلك ، وكلام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الجمع بين الأحاديث يقتضيه ا هـ .

ولا يخفى أن الجمع بذلك بين الأحاديث المتعارضة فيها مطلقاً مما لا يستثنى وإنما يستثنى الجمع بذلك بين الأحاديث المتعارضة فيها بالنظر إلى العشر ، وقيل فى الجمع مطلقاً أنها تنتقل وما صح من التعيين فى الجملة أو على التحقيق محمول على ليلة قدر فى شهر رمضان مخصوص ، وعلم عليه الصلاة والسلام أنها فى شهر رمضان بعده ليلة كذا ، وفى هذا نظر ، وفى بعض الأخبار ذكر علامات لها ، ففى حديث الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت من أماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة لا حارة ولا باردة ، وكأن فيها قمراً ساطعاً ، لا يرمى فيها بنجم حتى الصباح ، وقيل : إن ماء البحر يعذب ، وقيل : إن الشمس تكون صبيحتها غير مضيئة [1] جداً ، وقيل : إن الأشجار كلها تخر ساجدة ، قال العلماء : والحكمة فى إخفائها أن يجتهد من يطلبها فى العبادة فى غيرها ليصادفها ، كأن يحيى ليالى شهر رمضان كلها كما كان دأب السلف ، قالوا : ولذلك أيضاً لم تعين ساعة الإجابة يوم الجمعة ، والله تعالى أعلم .

وليعلم أن ظاهر الآية دل على أن ليلة القدر أفضل من ليلة الجمعة ، والمسألة خلافية ، وأكثر الأئمة على أنها أفضل منها للآية ، ولأن الله تعالى أنزل فيها القرآن وهو هو ولم ينزله فى غيرها ، ولأنه سبحانه أمر بطلبها ، فعن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ **وابتغوا ما كتب الله لكم** ﴾ ليلة القدر ، ولأنه عز وجل جعلها ليلة الفرق والحكم فقال جل شأنه : ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾ وسماها جل وعلا ليلة القدر أى التقدير ، ولما روى عن كعب أنه قال : إن الله تعالى اختار الساعات فاختار ساعات أوقات الصلاة ، واختار الأيام فاختار يوم الجمعة ، واختار الشهور فاختار رمضان ، واختار الليالى فاختار ليلة القدر ، فهى أفضل ليلة فى أفضل شهر ؛ ولأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حث على العمل فيها ، فقد صح : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه . وفى رواية : وما تأخر . ونهى عليه الصلاة والسلام أن يخص ليلة الجمعة بقيام ويومها بصيام ولأنه سبحانه وتعالى أخفاها ولم يبينها ، كما أخفى سبحانه أعظم أسمائه عز وجل ، وكما أخفى جل شأنه أفضل الصلاة وهى الصلاة الوسطى ، إلى غير ذلك ، وذهب أكثر الحنابلة كأبى حسن الجرزى وعبد الله بن بطة وأبى حفص البرمكى وغيرهم إلى

---

(١) أى لنزول الملائكة وصعودهم ا هـ منه .

أن ليلة الجمعة أفضل لما أخرج مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يغفر الله تعالى ليلة الجمعة لأهل الإسلام أجمعين، وهذه فضيلة لم تجئ لغيرها ، ونحوه ما روى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من ليلة جمعة إلا وينظر الله تعالى إلى خلقه ثلاث مرات فيغفر لمن لا يشرك بالله تعالى شيئاً ، ولأنه روى ابن بشكوال فى كتابه الغربة إلى رب العالمين ، بسنده إلى عمر رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أكثروا الصلاة علىَّ فى الليلة الغراء واليوم الأزهر ، ليلة الجمعة ويوم الجمعة ، والغرة من الشيء خياره ، ولأنه قد روى كثيرون ، منهم الإمام أحمد أن يومها سيد الأيام وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى، وصحيح ابن حبان خبر : لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة ، فهى لذلك سيدة الليالى وأعظمها وأفضلها لأنها متعينة مشهودة يشهدها الخاص والعام من ذكر وأنثى وصغير وكبير وبصير وضرير ، وتصل بركتها إلى الأحياء والأموات ، وليلة القدر غير معينة فلا ينتفع بها إلا قليل ، إلى غير ذلك ، وأجوبة الطرفين فى روح المعانى ، قال الوالد عليه الرحمة : وههنا قول متوسط بين القولين ، حكى القاضى أبو يعلى أن أبا الحسن التميمى من الحنابلة أيضاً كان يقول: ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن أفضل من ليلة الجمعة لما حصل فيها من الخير الكثير الذى لم يحصل فى غيرها ، فأما أمثالها من ليالى القدر فليلة الجمعة أفضل منها ، وقيل نظيره من ليلة القدر وسائر ليالى السنة ، ويرد عليه ظاهر الآية أيضاً ، ونقل الطحاوى عليه الرحمة فى حواشى الدر المختار عن بعض الشافعية ، أن أفضل الليالى ليلة مولده عليه الصلاة والسلام ، ولقد أحسن البوصيرى حيث قال :

ليلة المولد الذى كان للديـــــن ســـــرور بيومـــــه وازدهاء

وتداعى إيوان كسرى ولولا آيـــة منـك ما تداعى البناء

ثم ليلة القدر ثم ليلة الإسراء والمعراج ثم ليلة عرفة ثم ليلة الجمعة ثم ليلة النصف من شعبان ثم ليلة العيد . وليلة القدر عند السادة الصوفية ، قدست أسرارهم الزكية ، ليلة يختص فيها السالك بتجلى خاص يعرف به قدره ورتبته بالنسبة إلى محبوبه ، وهى وقت ابتداء وصول السالك إلى عين الجمع ومقام البالغين فى المعرفة ، وما ألطف قول الشيخ عمر بن الفارض قدس سره :

وكل الليالى ليلة القدر إن دنت كمـــا كل أيام اللقا يوم جمعة

فائدة : فى ليلة القدر يلزم التنبيه عليها لبعض العلماء الأعلام وإن لم يلزم قراءتها للعوام فى المجلس العام ، وهى ملخص ما ذكره العلامة الوالد عليه الرحمة أنه على قول المعتبرين لاختلاف المطالع يلزم القول بتعدد ليلة القدر فى رمضان وكونها وتراً ، من لياليه عند قوم شفعاً عند الآخرين ، فلا يصح القول بأحدهما بل لا يصح إطلاق القول بأن وقت التقدير وتنزل الملائكة ليل فالليلة عند قوم نهار فى الجهة المسامتة لأقدامهم ، وهى قد تكون مسكونة ولو بواسطة سفينة ، وربما يكون زمان الليل عند قوم بعضه ليلا وبعضه نهارا عند آخرين (١) ، وأجاب بعض بالتزام أن ما أطلق من القول فيها ليس على إطلاقه فيكون القول بوتريتها بالنسبة إلى قوم وبشفعيتها بالنسبة إلى آخرين ، وهكذا القول بأنها ليلة كذا من الشهر ، وأن التعبير بالليلة لرعاية مكان المنزل عليه القرآن عليه الصلاة والسلام وغالب المؤمنين به ، وفيه نظر ، وأجيب أيضاً بأنه ربما يقال : أنها لكل قوم ليلتهم وإن اختلفت دخولاً وخروجاً بالنسبة إلى آفاقهم كسائر لياليهم ، فكأن الليلة راكب يسير إلى جهة فيصل إلى كل منزل فى وقت ، ويلتزم أن تنزل الملائكة حسب سيرها ، ولا يبعد أن يتنزل عند كل قوم ما شاء الله تعالى منهم عند أول دخولها عندهم ، ويعرجون عند مطلع فجرها ، أو يبقى التنزل منهم هناك إلى أن تنقضى الليلة فى جميع المعمورة فيعرجون معاً عند انقضائها ، ويلتزم القول بتعدد التقدير حسب السير أيضاً ، ومثل ليلة القدر فيما ذكر وقت نزوله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا وساعة الإجابة ، وارتضاه الوالد ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولنرجع إلى قوله تعالى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها** ﴾ أى تهبط الملائكة من السموات إلى الأرض ، قرأ الجمهور تنزل بفتح التاء وقرئ بضمها ، والروح عند الجمهور هو جبريل عليه السلام ، وخص بالذكر لزيادة شرفه مع أنه النازل بالذكر ، وقيل : حفظة عن الملائكة كالملائكة الحفظة علينا ، وقيل: خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ولا من الإنس ، وتحقيق ما لا تعلمون « وما يعلم جنود

---

(١) أقول : وشبيه بهذه المسألة من وجه مسألة طلوع الفجر فى بلاد البرغال قبل غيبوبة الشفق ودخول وقت العشاء فوقته عند بعضهم يقدر لهم وعند بعضهم تسقط الصلاة والأول أصح كما نبه عليه الفقهاء ا هـ .

ربك إلا هو » ولعلهم على ما قيل خدم أهل الجنة . وقيل هو عيسى عليه السلام ، ينزل لمطالعة هذه الأمة وليزور قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : أرواح المؤمنين ينزلون لعيادة أهليهم ، وقيل : الرحمة كما قرىء « لا تيأسوا من روح الله » بالضم ، قال الوالد على الأول المعول ، والظاهر الذى تشهد له الأخبار أن التنزل إلى الأرض لأجل ما ذكر الله تعالى من قوله من كل أمر ، أى تتنزل من أجل الأمور التى قضى الله تعالى بها فى تلك السنة ، وقد تم الكلام عند قوله تعالى من كل أمر ، ثم ابتدأ بفضلها أيضاً فقال : سلام هى أى ما هى إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها ، ولا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ، وقيل : ينزلون فيها للتسليم على المؤمنين ، وقيل : لأن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة فى الاشتغال بطاعته فى الأرض ، فهم ينزلون إليها لتصير طاعاتهم أكثر ثواباً ؛ كما أنا نروح إلى مكة ليكثر ثوابنا ، وقيل : غير ذلك .

وقال القطب الربانى الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس سره النورانى فى كتابه «الغنية » ما نصه : عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : إذا كان ليلة القدر يأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن ينزل إلى الأرض ومعه سكان سدرة المنتهى ، سبعون ألف ملك ، ومعهم ألوية من نور ، فإذا هبطوا إلى الأرض ركز جبربل لواءه والملائكة ألويتهم فى أربعة مواطن ، عند الكعبة وعند قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسجد بيت المقدس ، ومسجد طور سيناء ، ثم يقول جبريل عليه السلام: تفرقوا فيتفرقون فلا تبقى دار ولا حجرة ولا بيت ولا سفينة فيها مؤمن أو مؤمنة إلا دخلت الملائكة فيها ، إلا بيتاً فيه كلب أو خنزير أو جنب من حرام ، أو صورة تماثيل فيسبحون ويقدسون ويهللون ويستغفرون لأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى إذا كان وقت الفجر صعدوا إلى السماء فيستقبلهم أهل سكان سماء الدنيا فيقولون لهم : من أين أقبلتم ؟ فيقولون كنا فى الدنيا لأن الليلة ليلة القدر لأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقول سكان سماء الدنيا : ما فعل الله بحوائج أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ فيقول جبريل عليه السلام : إن الله تعالى غفر لصالحيهم وشفعهم فى طالحيهم ، فترفع ملائكة سماء الدنيا أصواتهم بالتسبيح والتقديس والثناء على رب العالمين شكراً لما أعطى الله عز وجل هذه الأمة من المغفرة والرضوان ، ثم تشيعهم ملائكة سماء الدنيا إلى الثانية ، كذلك ثم كذلك من سماء

إلى سماء إلى السابعة ثم يقول جبريل : يا سكان السموات ، ارجعوا ، فيرجع ملائكة كل سماء إلى مواضعهم ، فإذا وصلوا إلى سدرة المنتهى ، يقولون لهم : أين كنتم فيجيبونهم مثل ما أجابوا أهل السموات فترفع سكان سدرة المنتهى أصواتهم بالتسبيح والتهليل والثناء فتسمع جنة المأوى ، ثم جنة النعيم ، وجنة عدن ، والفردوس ، ويسمع عرش الرحمن فيرفع العرش صوته بالتسبيح والتهليل والثناء على رب العالمين شكراً لما أعطى هذه الأمة ، فيقول : إلهى بلغنى عنك أنك غفرت البارحة لصالحى أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشفعت صالحيها فى طالحيها ، فيقول الله عز وجل : صدقت يا عرشى ، ولأمة محمد عندى من الكرامة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ا هـ .

وليعلم أن فى قيام ليلة القدر ثواباً عظيماً وأجراً جزيلاً لأحاديث كثيرة وردت فى ذلك كما تقدم بعضها ، من قوله عليه الصلاة والسلام : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، أى مصدقاً غير مراء فى عمله ، غفر له ما تقدم من ذنبه . وفى رواية وما تأخر . ولذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم يجتهد فى العشر الأواخر ما لا يجتهد فى غيرها ، فقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخلط العشرين بصلاة ونوم فإذا كان العشر شمر وشد المئزر ، أى اجتهد فى أنواع العبادات من صلاة وغيرها ، وكانت تقول له : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول ، قال قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى ، وقال سفيان الثورى : الدعاء فى تلك الليلة أحب من الصلاة ، ثم أفاد إنه إذا قرأ ودعا كان حسناً ، وذكر ابن رجب عليه الرحمة أن الأكمل الجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء ، والتفكير . ويحصل قيامها على ما قال بعض العلماء بصلاة التراويح ، وأخرج البيهقى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من صلى المغرب والعشاء فى جماعة حتى ينقضى شهر رمضان فقد أصاب من ليلة القدر بحظ وافر ، وأخرج البيهقى عن سعيد بن المسيب قال : من شهد العشاء ليلة القدر فى جماعة فقد أخذ بحظه منها ، ولذا قال الشافعى كما نقل عنه أنه تحصل فضيلة الإحياء بساعة ، ولهذه الأحاديث ونحوها تأكدت سنية الاعتكاف فى العشر الأواخر ، ولنذكر لكم ما ورد فى الاعتكاف مطلقاً ، ولا سيما فى العشر ، وما يتعلق بالاعتكاف على مذاهب الأئمة الأربعة الأشراف ، فأقول :

قال الله تعالى : ﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود** ﴾ وروى الشعرانى فى كشف الغمة عن الإمام أبى عبدالله الحسين بن على عن على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من اعتكف عشراً فى رمضان كان كحجتين وعمرتين ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من اعتكف ما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة وقرآن كان حقاً على الله أن يبنى له قصرا فى الجنة ا هـ . وروى عنه عليه الصلاة والسلام : من اعتكف فواق ناقة فكأنما أعتق رقبة ، والفواق هو الزمان الذى بين الحلبتين ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى وسلم : من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان له خيراً من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعدهما مما بين الخافقين . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى المعتكف : هو يعتكف عن الذنوب ، ويجرى له من الحسنات كعامل الحسنات كلها ، واعلم أن الأئمة اتفقوا على أن الاعتكاف مشروع ، وإنه قربة إلى الله تعالى ، وإنه مستحب كل وقت ، وفى العشر الأواخر من رمضان أفضل لطالب ليلة القدر . واتفقوا أنه لا يصح اعتكاف إلا بالنية ، وأجمعوا على أن خروج المعتكف لما لا بد منه كقضاء الحاجة وغسل الجنابة جائز ، وعلى أنه إذا اعتكف بغير المسجد الجامع وحضرت الجمعة وجب عليه الخروج لها ، وعلى أنه إذا باشر المعتكف فى الفرج عمداً بطل اعتكافه ولا كفارة عليه ، وقال الحسن البصرى والزهرى : يلزمه كفارة يمين (١) ، وكذلك أجمعوا على أن الصمت إلى الليل مكروه، قال الشافعى : ولو نذر الصمت فى اعتكافه تكلم ولا كفارة عليه ، وكذلك أجمعوا على استحباب الصلاة والقراءة والذكر للمعتكف ، وأجمعوا على أنه ليس للمعتكف أن يتجر ولا يكتسب بالصنعة على الإطلاق ، قال فى كتاب اختلاف المذاهب : واختلفوا : هل يصح الاعتكاف بغير صوم فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد فى إحدى روايتيه: لا يصح بغير صوم، وقال الشافعى وأحمد فى الرواية المشهورة:

---

(١) كفارة اليمين عتق رقبة ، وإن شاء كسا عشرة مساكين كل واحد منهم ثوبا فما زاد وأدناه ما يجزى فيه الصلاة ، وإن شاء أطعم عشرة مساكين ، وإن لم يقدر على أحد الثلاثة صام ثلاثة أيام متتابعات ا هـ منه .

يصح بغيره ، وأجمعوا على أنه يصح الاعتكاف فى كل مسجد ، إلا أحمد فإنه قال: لا يصح إلا فى مسجد تقام فيه الجماعة ، وأجمعوا على أنه لا يصح اعتكاف المرأة فى بيتها إلا أبا حنيفة فإنه قال : يجوز اعتكافها فى مسجد بيتها ، واتفقوا على أن الوطء عامداً يبطل الاعتكاف المنذور والمسنون معا ، واختلفوا فى وجوب الكفارة فيه فقالوا : لا تجب ، إلا أحمد فعنه روايتان أظهرهما وجوب الكفارة ، وهى كفارة يمين ، واختلفوا فى القبلة واللمس بشهوة فقال أبو حنيفة وأحمد : قد أساء لأنه قد أتى ما يحرم عليه ولا يفسد اعتكافه . وقال مالك : يفسد اعتكافه ، وعن الشافعى قولان ، واتفقوا على أنه يجوز للمعتكف الخروج إلى ما لا بد منه كحاجة الإنسان وغسل الجنابة وخوف الفتنة ، ولقضاء عدة المتوفى عنها زوجها والحيض والنفاس .

واتفقوا على أنه إذا نذر اعتكاف شهر ثم مات قبل انقضائه فإن لا يقضى عنه . إلا أحمد فإنه قال : يجب أن يقضى ذلك عنه وليه ، واختلفوا فيمن أذن لزوجته فى الاعتكاف فدخلت فيه هل له منعها من إتمامه ، فقال أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه والإمام مالك : ليس له منعها ، وقال الشافعى وأحمد : له منعها ، وأجمعوا على أن العبد ليس له أن يعتكف إلا بإذن مولاه ، واتفقوا على أنه يكره للمعتكف الصمت إلى الليل إلا أنه لا يتكلم إلا بخير ، وأجمعوا على أنه يستحب للمعتكف ذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن ، ثم اختلفوا فى إقرائه القرآن أو الحديث أو الفقه ، فقال مالك وأحمد رحمهم الله تعالى : لا يستحب له ذلك ولا ينبغى له إقراؤه غيره. وعن مالك رواية أخرى أنه لا بأس أن يكتب ويقرئ غيره القرآن ، وقال أبو حنيفة والشافعى : يستحب له ذلك ، وروى عن أحمد فى الرجل يقرئ فى المسجد ويريد أن يعتكف فقال يقرئ أحب إلى ، واختلفوا فى جواز البيع فقال أبو حنيفة له أن يبيع ويبتاع وهو فى المسجد من غير أن يحضر السلع ، وقال الشافعى : له أن يأمر بالأمر الخفيف فى ماله ويبيع ويشترى من غير إكثار ، وقال مالك : له أن يفعل ذلك إذا كان الاعتكاف تطوعاً وكان يسيراً ، وعنه رواية أخرى بالمنع من ذلك على الإطلاق ، وقال أحمد : لا يجوز له البيع والشراء على الإطلاق ، ولا يجوز له فعل الخياطة فيه ولو كان محتاجاً . ا هـ .

ولنختم البحث بعبارة ملخصة من كتب أئمتنا الحنفية ، رحمهم رب البرية ، فقد

قال فى الدر المختار : الاعتكاف لغة اللبث وشرعاً لبث فى مسجد جماعة ، وأفضله ما كان فى المسجد الحرام ، ثم فى مسجده صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم فى المسجد الأقصى ثم فى الجامع الأقصى ، ثم فى الجامع ، ويتعين بالشروع فيه ، فليس له أن ينتقل إلى مسجد آخر من غير عذر ، وعند الصاحبين يصح فى كل مسجد ، والمرأة فى مسجد بيتها ، ويكره لها فى المسجد إلا أنه جائز ، وشرطه النية من مسلم عاقل طاهر ، وهو ثلاثة أقسام واجب بالنذر وسنة مؤكدة فى العشر ، وسنة فى غيرها ، وشرط للنذر الصوم وأقله نفلا ساعة من ليل أو نهار عند محمد، وهو ظاهر الرواية عن الإمام ، والساعة عند الفقهاء جزء من الزمان ، ونظم ذلك بعضهم فقال :

ثم أقل الاعتكــــاف النفل　　يوم لدى أستاذنا الأجـــل
وأكثر النهـــار عنـــد الثانى　　وساعة فى مذهب الشيبانى

وحرم عليه - أى المعتكف - واجباً الخروج إلا لحاجة الإنسان طبيعية كانت كبول وغائط وغسل لو احتلم ولا يمكنه الاغتسال فى المسجد ، أو شرعية كعيد وأذان وجمعة وقت الزوال ا هـ مزاداً من الحاشية .

فعليكم عباد الله بالاعتكاف وإحياء ليلة القدر ، فإنه من أعظم موجبات القبول والأجر ، فإن العمر يمضى كساعة من الدهر ، فيا من أمله إلى أجله يقوده ، ما أنت على يقين من نيل ما تريده ، كم من غصن كسر عوده ، كم من ملك غاب تفرقت جنوده ، إخوانى تأملوا حق هذه الأيام مهما أمكنكم ، واشكروا للذى وهب لكم السلامة ومكنكم ، فكم من مؤمل لم يبلغ ما أمل ، وإن شككت فتلمح جيرانك وتأمل ، كم من أناس صلوا معكم فى أول الشهر التراويح ، وأوقدوا فى المساجد طلباً للأجر المصابيح ، اقتنصهم قبل تمامه الصائد فقهروا ، وأسرتهم المصائد فأسروا، ولم ينفعهم المال والآمال لما قبروا ، أدارت عليهم المنون رحاها ، وأحلت وجوههم بالثرى فمحاها ، فأعدمتهم صوماً وفطراً ، وزودتهم من الحنوط عطراً ، وهذا حالك يا من لا يعقل أمراً :

وفى الشيب ما ينهى الحليم عن الصبا　　إذا استـــوقـــدت نيرانـــه فى عذاره
وأى امرئ يرجـــو مـــن العيش غبطة　　إذا اصفـــر مـــنه العود بعد اخضـــراره

ولله فى عرض السمـــــوات جنة ولكنهــــا محــــفوفة بالمكـــاره

إخوانى ليلة القدر ليلة يفتح فيها الباب ، ويقرب فيها الأحباب ، ويسمع الخطاب، ويرد الجواب ، ويرجى للعاملين عظيم الأجر ، سلام هى حتى مطلع الفجر ، ليلة تتلقى فيها الوفود ، ويحصل لهم المقصود ، أترى ما يؤلمك أيها المطرود هذا الهجر . سلام هى حتى مطلع الفجر . أخلصوا وما أخلصت قصدك ، وبلغوا المراد وما بلغت رشدك ، أما يؤثر عندك هذا الزجر ، سلام هى حتى مطلع الفجر . أيقظ نفسك لما بين يديها ، وانتظر ما سيأتى عن قليل إليها ، وأسمعها المواعظ فقد حضرت لديها ، واقبل نصحى وخذ عليها ضرب الحجر ، سلام هى حتى مطلع الفجر . هذه أوقات يربح فيها من فهم ودرى ، ويصل إلى مراده كل من جد وسرى ، ويفك منه الجانى وتطلق منه الأسرا ، تقدم القوم وأنت راجع إلى ورا، أليس هذا كله قد جرى ، وكأنه لم يجر . سلام هى حتى مطلع الفجر ، اللهم يا من خلق الإنسان وبناه ، واللسان وأجراه ، يا من لا يخيب من دعاه، هب لكل منا فى هذه الليلة ما رجاه ، وبلغه من خير الدارين مناه ، يا أكرم من كل كريم، اللهم وإذا اطلعت فى ليلتنا هذه على خلقك ، فعد علينا بمنك وعتقك ، وقدر لنا من الحلال واسع رزقك ، واجعلنا ممن عرفك وقام بحقك ، وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم من قضيت بوفاته فاقض مع ذلك رحمتك ، ومن قدرت طول حياته فاجعل فى ذلك نعمتك ، وأسبل على الجميع سترك ومغفرتك ، وعاملنا بعفوك يا حليم ، اللهم اشف فى هذه الليلة مرضانا ، وارحم بفضلك موتانا ، واستر علينا عيوبنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه أجمعين .

* * *

المجلس الثانى والعشرون
فى صلاة الجمعة ومتعلقاتها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١) . . .

الحمد لله الذى يغفر الزلل ، ويصفح ويعفو عن الخطل ، ويسمح كل من لأدبه

---

(١) (بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الملك الحق المبين ، القدير القوى المتين ، الفاطر البارئ =

أنجح ، وكل من عامله يربح ، تشبيهه قبيح وجحده أقبح ، ورفع السماء بغير عمد فتأمل وألمح ، وأنزل القطر فإذا الزرع فى الماء يسبح ، والمواشى بعد الجدوب الغواشى فى الخصب تسرح ، وأقام الورق على الورق تشكر وتمدح ، أغنى وأفقر والفقر فى الأغلب أصلح ، كم من غنى طرحه البطر والأشر أقبح مطرح ، هذا قارون ملك الكثير وبالقليل لم يسمح ، نبه فلم يزل نومه ، وليم فلم ينفع لومه ، إذقال له قومه ، لا تفرح . أحمده ما أمسى المساء وأصبح ، وأصلى على رسوله محمد الذى أنزل عليه ألم نشرح ، صلى الله تعالى عليه وعلى أبى بكر صاحبه فى الدار والغار لم يبرح ، وعلى عمر الذى لم يزل فى إعزاز الدين يكدح ، وعلى عثمان ولاأذكر ما جرى ولا أشرح ، وعلى على الذى كان يغسل قدمه فى الوضوء ولا يمسح ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة دائمة لا تبرح .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين** ﴾ .

فنقول ومن الله تعالى التوفيق : قال العلماء : سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة فأقبلت عير من الشام وضرب لقدومها الطبل ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو خرج كلهم لاضطرم عليهم المسجد ناراً ، قال قتادة : بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات كل

= فتبارك الله أحسن الخالقين ، خلق آدم من سلالة من طين ، فكمل خلقه يوم الجمعة وجعله عيد المسلمين ، واصطفى من ذريته الأولياء والنبيين ، واختار من جميع الخلائق أجمعين ، محمداً سيد الأولين والآخرين ، ورفع أمته على سائر الأدميين ، وشرفهم بيوم الجمعة على العالمين ، وجعله بفضله ورحمته حج المساكين ، وصلى الله تعالى على ذلك النبى الأمين ، وعلى أصحابه الأكرمين ، خصوصاً على أبى بكر الصديق أمير المؤمنين ، وعلى عمر بن الخطاب الذى تأيد به الإسلام والدين ، وعلى عثمان بن عفان المخصوص بشرف الابنتين من جميع المسلمين ، وعلى ابن عمه على قاتل الكفرة والمبتدعين ، وعلى بقية الصحابة والقرابة والتابعين أجمعين ، ا هـ منه .

مرة تقدم العير من الشام ويوافق قدومها يوم الجمعة وقت الخطبة ، قال العلامة فى فتح البيان : والذى سوغ لهم الخروج وترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز لانقضاء المقصود وهو الصلاة ، لأنه كان صلى الله تعالى عليه وسلم أول الإسلام يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين، فلما وقعت هذه الواقعة ونزلت الآية قدم الخطبة وأخر الصلاة ا هـ باختصار .

ونذكر ما يتعلق بتفسير هذه الآية على وجه الإجمال ، ثم ما يتعلق بالجمعة وما فيها على سنن الكمال ، فليعلم أن قوله تعالى : يا أيها الذين الآية ، أى وقع النداء لها والمراد به الأذان الثانى ، وهو عند قعود الإمام على المنبر للخطبة ، فعن السائب ابن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثانى ، على الزوراء يعنى على داره المسماة زوراء ، وجعل للجمعة مؤذنين ، وقوله تعالى من يوم الجمعة أى فيه كقوله تعالى : أرونى ماذا خلقوا من الأرض أى فيها ، والجمعة بضم الميم وبه قرأ الجمهور ، وقرأ ابن الزبير وزيد بن على بسكونها ، وجاء فتحها ولم يقرأ به ، ونقل بعضهم الكسر أيضاً ، قال أبو البقاء : الجمعة بالضم مصدر بمعنى الاجتماع ، وكانت العرب تسمى يوم الجمعة عروبة ، وفى كتاب المعربات أن عروبة هو يوم الجمعة اسم سريانى ، قال السهيلى : ومعنى العروبة الرحمة ، فيما بلغنا عن بعض أهل العلم ، ا هـ .

وأول من سماه جمعة قيل كعب بن لؤى : أخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدم المدينة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقبل أن تنزل الجمعة فقالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك فهلم فلنجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره ، فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، وكانوا يسمون يوم الجمعة بذلك فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه الجمعة ، حين اجتمعوا إليه ، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها ، وذلك لعامتهم، فأنزل الله تعالى فى ذلك بعد ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة** ﴾ الآية ، وفى هذه المسألة أقوال أخر مذكورة فى روح المعانى ، وقال بعضهم : إنما سمى يوم الجمعة لأن آدم عليه السلام اجتمع فيه مع حواء فى الأرض ، وقيل لأن خلق آدم عليه السلام جمع فيه ، ويسميه الملائكة يوم المزيد ؛ لأن الله تعالى يتجلى فيه لأهل

الجنة فيعطيهم ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، وفى حديث آخر : يوم الجمعة سيد الأيام وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر والأضحى ، وفيه خلق آدم وإهباطه إلى الأرض وموته وساعة الإجابة ما لم يكن سؤال حرام ، وقيام الساعة ، ولذلك قال كثير من الحنابلة بأفضليته على سائر الأيام كما تقدم فى بحث ليلة القدر ، وقوله تعالى : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ أى امشوا إليه، وليس المراد من السعى الإسراع ، وقد كان يقرأ بعض الصحابة فامضوا إلى ذكر الله ، قال الحسن أما والله ما هو بالسعى على الأقدام والسرعة فيها ، وقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن السعى بالنية والخشوع بالقلب ، واختلف فى المراد بذكر الله فقيل الصلاة والخطبة ، وقيل موعظة القرآن ، وقال سعيد بن المسيب الخطبة وهو موعظة الإمام ، وقوله تعالى : ﴿ **وذروا البيع** ﴾ أى اتركوا المعاملة من بيع وشراء وإجارة وغيرها ، وقد صرحوا بكراهة التحريم فى ذلك ، بل بالحرمة ، أخرج عبد ابن حميد عن عبد الرحمن بن القاسم أن القاسم دخل على أهله يوم الجمعة وعندهم عطار يبايعونه فاشتروا منه ، وخرج القاسم إلى الجمعة فوجد الإمام قد خرج فلما رجع أمرهم أن يناقضوا البيع ، وظاهره حرمة البيع إذا نودى للصلاة على غير من تجب عليه أيضاً ، والظاهر حرمة البيع والشراء حالة السعى ، وصرح فى السراج الوهاج بعدمها إذا لم يشغله ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ **وابتغوا من فضل الله** ﴾ أى الربح على ما قيل ، وقال الحسن وابن المسيب : المأمور بابتغائه هو العلم ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : يأمر بشىء من طلب الدنيا إنما هى عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله تعالى ، قال الوالد رحمه الله تعالى وغفر له : والأمر للإباحة على الأصح ، فيباح بعد قضاء الصلاة الجلوس فى المسجد ، وحكى الكرمانى الاتفاق على ذلك وفيه نظر ، وقد حكى السرخسى القول بأنه للوجوب ، وقيل هو للندب ، وأخرج أبو عبيد عن عبد الله بن بسر الحرانى قال : رأيت عبد الله المازنى صاحب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى الجمعة خرج فدار فى السوق ساعة ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلى، فقيل له : لأى شىء تصنع هذا ؟ قال : إنى رأيت سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم هكذا يصنع، وتلا فإذا قضيت الصلاة الآية ، وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : إذا انصرفت يوم الجمعة فاخرج إلى باب المسجد فساوم بالشىء وإن لم تشتره ، ونقل عنه القول بالندبية وهو الأقرب ا هـ .

ولنرجع إلى بيان شروطها وأحكامها ، وفضائلها والوعيد على تركها ، وما يتعلق بها وفيها ، فمن ذلك الترغيب فى قراءة سورة الكهف فيها ، قال المنذرى فى الترغيب والترهيب : روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له النور ما بين الجمعتين ، وفى رواية عن ابن عمر : يسطع له نور من تحت قدميه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة ، وغفر له ما بين الجمعتين . وكذلك ورد فى سورة الدخان عن أبى هريرة : من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة غفر له ، وفى رواية فى ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله تعالى له بيتاً فى الجنة ، وروى الأصبهانى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من قرأ سورة يس فى ليلة الجمعة غفر له ، وقد ورد فى فضل يس أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الإمام أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، اقرءوها على موتاكم ، وفى رواية : من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له ا هـ ، وفى الجامع الصغير عن أنس عنه عليه الصلاة والسلام قال : اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأساً بدينار ، وعن أبى أمامة اغتسلوا يوم الجمعة فإنه من اغتسل يوم الجمعة ، أى ولو مع الجنابة ، فله كعبادة ما بين الجمعة إلى الجمعة ، وزيادة ثلاثة أيام . وزاد مسلم ما لم تغش الكبائر ، وعنه أن الغسل يوم الجمعة ليسل الخطايا من أصول الشعر استلالا ، وفى حديث كان عليه الصلاة والسلام يغتسل يوم الجمعة ويوم الفطر ويوم النحر ويوم عرفة ، روى عمار أن من الفطرة المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط والاستحداد بالحديد ، أى حلق العانة ، وغسل البراجم وهى العقد بظهر الأصابع ، والانتضاح بالماء أى الاستنجاء ، والاختتان .

وعن عائشة عنه عليه الصلاة والسلام : الإسلام نظيف فتنظفوا فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف ، ولذا روى فى حديث آخر ، نظفوا أفنيتكم فإن اليهود لا ينظفون أفنيتهم، وقال الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس سره فى كتابه الغنية عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من اغتسل فى كل يوم جمعة أخرجه الله تعالى من ذنوبه ، ثم قيل له : استأنف العمل . وقال : من غسل واغتسل وغدا وابتكر ودنا من الإمام ولم يلغ كان له بكل خطوة صيام سنة وقيامها ،

قال الشيخ وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : من غسل بالتشديد أى غسَّل أهله كناية عن الجماع ، ولهذا يستحب عند أهل العلم إتيان الزوجة فى يوم الجمعة ، ويفعلونه اتباعاً لهذا الحديث ، ويشتغل فيه بالذكر والتسبيح واستماع العلم والدعاء، ولا يستحب له حضور القصاص لأن القصص بدعة ، قال الشيخ : وكان ابن عمر وغيره من الصحابة رضى الله تعالى عنهم يخرجون القصاص من الجامع ، اللهم إلا أن يكون عالماً بالله تعالى من أهل المعرفة واليقين ، فيكون حضور مجلسه أفضل من صلاة ألف ركعة ، وإذا أتى الجامع لا يتخطى رقاب الناس إلا أن يكون إماماً أو مؤذناً ، لما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لرجل رآه يتخطى رقاب الناس : يا فلان ما منعك أن تصلى معنا الجمعة ، فقال : أو لم ترنى يا رسول الله ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : رأيتك تلبثت وآذيت أى تأخرت من البكور وآذيت الحضور .

وقد قيل إن من فعل ذلك جعل جسرا يوم القيامة على ظهر جهنم يتخطاه الناس، قال الشيخ : ولا تمرن بين يدى المصلى ، ففى خبر : لأن يكون الرجل رمادا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلى ، ولا يقيمن أحداً من موضعه ويجلس مكانه ، لما روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ، وكان ابن عمر إذا قام له الرجل من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه ، وإن رأى بين يديه فرجة فهل يجوز له أن يتخطى الرقاب فيجلس ، على روايتين عند إمامنا أحمد ، وإن بسط له شيئاً فهل لغيره أن يرفعه ويجلس هناك ، على وجهين عند أصحابنا اهـ .

ومن ذلك الأحاديث الواردة فى فضلها ، ورد فى الصحاح عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ، ومثل المبكر كمثل الذى يهدى بدنة ثم كالذى يهدى بقرة ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم وجلسوا يستمعون الذكر ، وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، وذلك لأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن مس الحصا (١) فقد لغا ، وعنه

---

(١) أى لأنهم كانوا يصلون على الأرض والتراب والحصا الصغار اهـ منه .

عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر ، وعن أبى سعيد أنه سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : خمس من عملهن فى يوم كتبه الله من أهل الجنة ، من عاد مريضاً وشهد جنازة وصام يوماً وراح إلى الجمعة وأعتق رقبة ، وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتى المسجد فيركع ما بدا له ولم يؤذ أحداً ثم أنصت حتى يصلى ، كان كفارة لما بينه وبين الجمعة الأخرى ، وروى عن عتيق أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من اغتسل يوم الجمعة كفرت عنه ذنوبه وخطاياه فإذا أخذ فى المشى كتب له بكل خطوة عشرون حسنة فإذا انصرف من الصلاة أجيز بعمل مائتى سنة ، وعن أنس ابن مالك رضى الله تعالى عنه قال : عرضت الجمعة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جاء جبريل عليه السلام فى كفه كالمرآة البيضاء فى وسطها كالنكتة السوداء ، فقال : ما هذا يا جبريل ، قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ، ولكم فيها خير ، تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك . وعن أنس رضى الله تعالى عنه أن الله تبارك وتعالى ليس بتارك أحداً من المسلمين يوم الجمعة إلا غفر له . وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تحشر الأيام على هيئاتها وتحشر الجمعة زهراء منيرة ، أهلها يحفون بها كالعروس تهدى إلى خدرها ، تضىء لهم يمشون فى ضوئها ألوانهم كالثلج بياضاً ، وريحهم كالمسك ، يخوضون فى جبال الكافور ، ينظر إليهم الثقلان لا يطرقون تعجباً [1] حتى يدخلون الجنة ، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون ، ومنها الترهيب على ترك الجمعة من غير عذر شرعى ، وإن ذلك من الكبائر كما قال العلامة ابن حجر فى الزواجر، فعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم ، رواه مسلم ، وعن أسامة قال : قال رسول الله صلى

(١) من أطرق رأسه ، وتعجبا ، الظاهر أنه مفعول لأجله ا هـ منه .

الله تعالى عليه وسلم : من ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين ، وروى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا ، واعلموا أن الله تعالى افترض عليكم الجمعة فى مقامى هذا فى يومى هذا فى شهرى هذا فى عامى هذا إلى يوم القيامة ، فمن تركها فى حياتى أو بعدى وله إمام عادل أو جائر استخفافا بها وجحودا بها فلا جمع الله له شمله ، ولا بارك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ألا ولا زكاة له ولا حج له ولا صوم له ولا بر له حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : من ترك الجمعة ثلاث جمع متواليات فقد نبذ الإسلام وراء ظهره .

أقول : قد تبين من هذه الآية الكريمة والأحاديث العظيمة خطأ الإمامية التاركين لصلاة الجمعة فى الأمصار الإسلامية ، فليت شعرى كيف يكون جوابهم إذا سألهم عن تركه عالم الأسرار الخفية ، فإن قالوا : يا ربنا عندنا من شروطها حضور الإمام وهو قد غاب فى السرداب منذ ألف عام ، فالظاهر أن يكون لهم الجواب ، إن وجوده ليس مشروطاً فى آى الكتاب ، ومع ذا لم أخذتم أيها العلماء من الناس أموالاً وأعلمتموهم بزعمكم أنكم فى ذلك عن الإمام وكلاء، أمناء ، فالمقتضى أنكم لما ادعيتم عنه الوكالة ، فاللازم أن تكون عامة فى أخذ الدراهم من حق الإمام ورد المظالم وصلاة الجمعة التامة . ومتى فرقتم بين الاثنتين فقد أرحتم أنفسكم من تعب الجمعة وقبضتم زيف الدرهم والعين ، ولعبتم المسألة مرتين ، فنسأله تعالى أن يجعلنا وإياكم من خالصى أهل السنة والجمعة والجماعة ، ولا يجعلنا وإياكم ممن اتخذ الهوى بعد العلم بضاعة .

ومن ذلك الأحكام الفقهية المتعلقة بها نذكرها على اختلاف المذاهب سالكين الاختصار على كثير منها ، فقد قال فى الميزان : اتفقوا على أن صلاة الجمعة فرض عين ، وغلطوا من قال : هى فرض كفاية ، وعلى أنها تجب على المقيم دون المسافر، إلا فى قول الزهرى والنخعى إذا سمع النداء ، واتفقوا على أنهم إذا فاتتهم الجمعة صلوها ظهراً ، وأما ما اختلفوا فيه فمنه قول الأئمة الثلاثة : الأعمى لا تجب عليه إلا إذا وجد قائداً خلافاً لأبى حنيفة رحمه الله ، ومنه قول الأئمة : إن الجمعة

لا تجب على صبى ولا عبد ولا مسافر ، ولا امرأة إلا فى رواية عن أحمد فى العبد خاصة ، وقال داود بن على الظاهرى : تجب ، قلت : وإذا صلاها هؤلاء صحت، ومنه قول الأئمة الثلاثة أنها تجب على كل من سمع النداء وهو ساكن بموضع خارج عن المصر ، خلافاً لأبى حنيفة ، ومنه قول الأئمة الثلاثة أنه لا تكره الجماعة فى صلاة الظهر فى حق من لم يمكنه إتيان مكان الجمعة ، بل قال الشافعى باستحبابها مع قول أبى حنيفة بكراهة الجماعة فيها ، ومنه إذا وافق يوم عيد يوم الجمعة فلا تسقط الجمعة بصلاة العيد عن أهل البلد ، بخلاف أهل القرى إذا حضروا فإنها تسقط عنهم ، ويجوز لهم ترك الجمعة والانصراف عند الشافعى مع قول أبى حنيفة بوجوب الجمعة على أهل البلد والقرى معاً ، ومع قول أحمد : يسقط عن الجميع فرض الجمعة بصلاة العيد ويصلون الظهر ، ومع قول عطاء تسقط الجمعة والظهر معاً فى ذلك اليوم فلا صلاة بعد العيد إلا العصر ، ومنه قول أبى حنيفة ومالك أنه يجوز لمن لزمته الجمعة السفر قبل الزوال ، مع قول الشافعى وأحمد بعدم جواز ذلك إلا أن يكون سفر جهاد ، ومنه قول أبى حنيفة والشافعى : يحرم البيع بعد الأذان الثانى لكنه صحيح مع قول مالك وأحمد أنه لا يصح ، ومنه قول الشافعى وأحمد بجواز الكلام حال الخطبة لمن لا يسمعها ، ولكن يستحب الإنصات مع قول أبى حنيفة بتحريم الكلام حال الخطبة على من سمع ومن لم يسمع ، ومع قول مالك الإنصات واجب قرب أم بعد ، قلت والمشهور : أن من قال صه فقد لغا ، ومن لغا فلا جمعة له ، وبه يعلم خطأ كثير من الناس ، ومنه قول أبى حنيفة ومالك والشافعى فى القديم أنه يحرم الكلام لمن يسمع الخطبة حتى الخطيب إلا أن مالكاً أجاز الكلام للخطيب خاصة بما فيه مصلحة للصلاة كنحو زجر الداخلين عن تخطى الرقاب ، وإن خاطب إنساناً بعينه جاز لذلك الإنسان أن يجيبه ، وقال الشافعى فى الأم : لا يحرم عليهما بل يكره ، وعن أحمد ونحوه والرواية المشهورة عن أحمد أنه يحرم على المستمع دون الخطيب ، ومنه قول الشافعى : لا تصح الجمعة إلا فى أبنية يستوطنها من تنعقد بهم الجمعة من بلدة أو قرية مع قول أبى حنيفة أنها لا تصح إلا فى مصر جامع لهم سلطان ، ومنه قول الشافعى وأحمد أن الجمعة لا تنعقد إلا بأربعين مع قول أبى حنيفة أنها تنعقد بأربعة ، ومع قول مالك أنها تصح بما دون الأربعين غير أنها لا تجب على الثلاثة والأربعة ، ومع قول الأوزاعى وأبى يوسف أنها تنعقد بثلاثة ، ومع قول أبى ثور أنها كسائر الصلوات ، ومنه قول الأئمة الثلاثة

أنها لا تصح إلا فى وقت الظهر مع قول أحمد بصحة فعلها قبل الزوال ، ومنه اتفاق الأئمة الأربعة على أن الخطبتين قبل الصلاة شرط فى صحة انعقاد الجمعة ، مع قول الحسن البصرى هما سنة ، ومنه قول الشافعى ومالك فى أرجح روايتيه أنه لابد من الإتيان فى خطبة الجمعة بحمدلة وتصلية ووصية بتقوى الله وقراءة آية مفهمة والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، مع قول أبى حنيفة ومالك فى إحدى روايتيه أنه لو سبح أو هلل أو قال الحمد لله ونزل كفاه خلافاً لأبى يوسف ومحمد فقالا : لا بد من كلام يسمى خطبة فى العادة ، ومنه قول مالك والشافعى بوجوب القيام على القادر فيهما مع قول أبى حنيفة وأحمد بعدم وجوبه ، ومنه قول الشافعى بعدم الجلوس بين الخطبتين ، مع قول غيره بعدم الوجوب ، ومنه قول الشافعى وأحمد يستحب للخطيب إذا صعد المنبر أن يسلم على الحاضرين مع قول أبى حنيفة ومالك أن ذلك مكروه ، ومنه قول أبى حنيفة ومالك فى أرجح روايتيه لا يجوز أن يصلى بالناس فى الجمعة إلا من خطب إلا لعذر فيجوز مع قول مالك فى الرواية الأخرى أنه لا يصلى إلا من خطب ، ومع قول الشافعى فى أرجح قوليه بجواز ذلك وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، ومنه أن الجنب لو اغتسل بنية غسل الجنابة والجمعة معاً أجزأه مع قول مالك أنه لا يجزئه عن واحد منهما ، ومنه قول الأئمة الأربعة أنه لا يجوز تعدد الجمعة فى بلد إلا إذا كثروا وعسر اجتماعهم فى مكان واحد ، قال مالك: وإذا أقيمت فى جوامع فالقديم أولى ، وليس للإمام أبى حنيفة فى المسألة شىء ، ولكن قال أبو يوسف : إذا كان للبلد جانبان جاز فيه إقامة جمعتين ، وإن كان لها جانب واحد فلا تجوز ، وعبارة الإمام أحمد : وإذا عظم البلد وكثر أهله كبغداد جاز فيه جمعتان ، وإن لم يكن لهم حاجة إلى أكثر من جمعة لم يجز ، وقال الطحاوى : يجوز تعدد الجمعة فى البلد الواحد بحسب الحاجة ، ولو أكثر من جمعتين ، وقال داود: الجمعة كسائر الصلوات يجوز لأهل البلد أن يصلوها فى مساجدهم . ا هـ.

خاتمة : قال الحصكفى فى الدر المختار ، وتؤدى فى مصر واحد بمواضع كثيرة مطلقا أى سواء كان المصر كبيراً أم لا ، وسواء فصل بين جانبيه نهر كبير كبغداد أم لا، وسواء قطع الجسر أو بقى متصلاً على المذهب وعليه الفتوى ، وعلى القول المرجوح من عدم الجواز فى أكثر من موضعين فالجمعة لمن سبق ، وتفسد بالمعية والاشتباه فيصلى بعدها آخر ظهر ، وكل ذلك خلاف المذهب ، قال فى البحر :

وقد أفتيت مراراً بعدم صلاة الأربع بعدها بنية آخر الظهر ، خوف اعتقاد عدم فرضية الجمعة ، وهو الاحتياط فى زماننا ، وأما من لا يخاف عليه مفسدة منها فالأولى أن تكون فى بيته خفية ، وقال العلامة ابن عابدين : نقل المقدسى عن المحيط : كل موضع وقع الشك فى كونه مصراً ينبغى لهم أن يصلوا بعد الجمعة أربعاً بنية الظهر احتياطاً ، حتى أنه لو لم تقع الجمعة موقعها يخرجون عن عهدة فرض الوقت بأداء الظهر ، ومثله فى الكافى ا هـ باختصار . فاختر لنفسك من هذين القولين ما يحلو لديك ، وسلام الله علينا وعليك .

وليعلم أن من أعظم القرب يوم الجمعة التصلية والتسليم على نبينا وشفيعنا الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، قال كثير من العلماء : إنها عليه فيه أفضل من قراءة القرآن العظيم ، والصلاة عليه واجبة ، لقوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾ وروى ابن ماجه (١) وغيره عن أوس ابن أوس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة ، وفيه الصعقة فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على ، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ، أي بليت ، فقال : إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجسامنا . وعن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : حيثما كنتم فصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى ، وعن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله وكل بقبرى ملكاً أعطاه أسماع الخلائق فلا يصلى على أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغنى باسمه واسم أبيه ، هذا فلان بن فلان قد صلى عليك : وعن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أكثروا على من الصلاة فى يوم الجمعة فإن صلاة أمتى تعرض على فى كل يوم جمعة ، فمن كان أكثرهم على صلاة كان أقربهم منى منزلة .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من صلى على واحدة صلى الله عليه عشراً ، وعن ابن مسعود

---

(١) ماجه بسكون الهاء فلا تغفل ا هـ منه .

رضى الله تعالى عنه : إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة ، وعن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من صلى على فى يوم ألف مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة ، وعن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من ذكرت عنده فخطى الصلاة على خطى طريق الجنة ، وعن على كرم الله تعالى وجهه: كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد ، وروى فى الحديث الصحيح أنه قيل له عليه الصلاة والسلام : كيف نصلى عليك يا رسول الله ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد .

فعليكم عباد الله بإقامة الجمعة والصلاة والتسليم على رسول الله لتنالوا الأجر العظيم ، فما أشرف من أكرمه المولى الكريم ، وما أعلى من مدحه وما أجل من أثنى عليه العزيز الرحيم ، إن الأبرار لفى نعيم ، نعموا فى الدنيا بالإخلاص والطاعة ، وفازوا يوم القيامة بالربح فى البضاعة ، ولبسوا ثياب التقى وارتدوا بالقناعة ، وداوموا فى الدنيا على السهر والمجاعة ، فيا فخرهم إذا قامت الساعة ، وقد قربت لهم مطايا التكريم ، إن الأبرار لفى نعيم . نعموا فى الدنيا بالوحدة والخلوة ، اعتذروا فى الأسحار من زلة وهفوة ، وحذروا من موجبات الإبعاد والجفوة ، أولئك هم المختارون الصفوة ، الصدق قرينهم والصبر نديم ، إن الأبرار لفى نعيم . طالما تعبت أبدانهم بين الجوع والسهر ، وكفت جوارحهم عن اللهو والأشر ، وحبسوا أغراضهم عن الكلام والنظر ، وانتهوا عما نهاهم وامتثلوا ما أمر، وتقبلوا مفروضاته بالسمع والبصر ، واستعدوا من الزاد ما يصلح للسفر ، فالخوف يقلقهم فيمنعهم قضاء الوطر ، والعبرة تجرى والقلب قد اعتبر ، فيا حسنهم فى جوف الليل وقت السحر ، السر صاف والحال مستقيم . إن الأبرار لفى نعيم . جن الظلام فزمت مطاياهم ، وجاء السحر فتوفرت عطاياهم ، فسبحان من اختارهم من الكل واصطفاهم ، فليس المقصود بالمحبة من الخلق سواهم ، أزعجتهم عواصف المخافة فتداركهم من الرجاء نسيم ، إن الأبرار لفى نعيم ، قصورهم فى الجنان عالية، وعيشتهم فى القصور صافية ، وهم فى عفو ممزوج بعافية ، وقطوف

الأشجار من القوم دانية ، وأقدامهم على أرض من المسك ساعية ، وأبدانهم من السندس والإستبرق كاسية ، والعيش لذيذ والملك عظيم . إن الأبرار لفى نعيم ، رضى عنهم جبارهم ، وأشرقت برضاه دارهم ، وارتفعت من كل أوجه أكدارهم ، ووردت فى الجنان أشجارهم ، واطردت تحت القصور أنهارهم ، فرنمت على الورق أطيارهم ، فالملائكة تخصهم بالتسليم ، والعيون تجرى من رحيق وتسنيم ، والملك قد وصفهم فى كلامه القديم ، إن الأبرار لفى نعيم .

* * *

المجلس الثالث والعشرون
فى الصلاة على الميت وما يتعلق به

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الحى القيوم ، الباقى وغيره لا يدوم ، رفع السماء مزينة بالنجوم ، وأمسك الأرض بجبال فى التخوم ، بنى بحكمته هذه الجسوم ، ثم أماتها ومحا الرسوم ، ثم ينفخ فى الصور فإذا الهالك يقوم ، فالمؤمن إلى جنة لذيذة المطعوم والمشموم ، والكافر إلى نار يلقى منها عذاب السموم ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، أحمده حمداً يبلغ أقصى المروم ، وأقر بوحدانيته لا كاعتقاد المحروم ، وأصلى على رسوله محمد عدد قطرات الغيوم ، وعلى أبى بكر الذى ذكره للمبغض شجا فى الحلقوم ، وعلى عمر الذى عم بعدله الخصوص والعموم ، وعلى عثمان التقى الشهيد المظلوم ، وعلى أخيه وابن عمه علىٍّ باب مدينة العلوم ، وعلى بقية الصحابة الذين كل منهم مأموم .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام الهمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن برد زبده الجعفى البخارى فإنه قال فى كتابه « الصحيح » ، الحرى بالترجيح ، باب اتباع الجنائز من الإيمان ، حدثنا أحمد بن عبد الله المنجوفى قال : حدثنا روح ، قال : حدثنا عوف عن الحسن ومحمد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من تبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معها حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : فى هذا الحديث فوائد .

الفائدة الأولى : الحث على الصلاة على الميت واتباع جنازته وحضور دفنه ، قال السفيرى : حض الشارع على التواصل فى الحياة ، بقوله : « صل من قطعك ، وأعط من حرمك » وحض على التواصل بعد الموت بالصلاة والتشييع إلى القبر والدعاء له ، والتشييع إلى القبر من حق المسلم على المسلم ، وقد وردت الأخبار ودلت الآثار ، على أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب والأوزار لمن تبع جنازة المؤمن إلى قبره ، قال فى البرزخ : أخرج ابن أبى الدنيا عن أبى عاصم حديثاً مرفوعاً أن أول ما يتحف به المؤمن فى قبره أن يقال له : أبشر فقد غفر لمن تبع جنازتك ، وأخرج عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن أول تحفة المؤمن أن يغفر لمن خرج فى جنازته ، وأخرج البزار وغيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن أول ما يجازى به المؤمن بعد موته أن يغفر لجميع من تبعه ، وأما الأحاديث الواردة فى أن التشييع من حق المسلم على المسلم فكثيرة ، منها ما فى كتاب « الترغيب والترهيب » للمنذرى ، قال : روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، والذى نفسى بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما ، وللمسلم على المسلم ست ، يشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، وينصحه إذا غاب أوشهد ، ويسلم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويتبعه إذا مات. وفى رواية : إن هذه الست واجبة فمن ترك واحدة منها فقد ترك حقاً واجباً. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : عودوا المرضى واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة ، ومما حض عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كثرة المصلين ، فقد روت عائشة رضى الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه ، وفى رواية ابن عمر : ما من رجل يصلى عليه مائة إلا غفر الله تعالى له ، وفى رواية : أمة من الناس ، قال بعضهم : هى أربعون ، وكذلك رغب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الثناء على الميت إن كان أهلا ، فقد روى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قال : قال

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم واسألوا له بالتثبيت فإنه الآن يسأل ، وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون إلا خيراً إلا قال الله تعالى : قد قبلت علمكم فيه وغفرت له ما لا تعلمون ، وروى البزار عن عامر بن ربيعة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا مات العبد والله تعالى يعلم منه شراً ويقول الناس خيراً ، قال الله عز وجل لملائكته : قد قبلت شهادة عبدى وعفوت له علمى فيه . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم.

الفائدة الثانية : قال الشيخ شمس الدين محمد بن عمر السفيرى الحلبى فى شرحه لهذا الحديث : إن القيراط الذى يحصل بالصلاة على الميت احتسابا لوجه لله وطلبا للثواب وبحضور دفنه اسم لمقدر من الثواب يقع على القليل والكثير ، بين فى هذا الحديث أنه مثل أحد ، وفى رواية للحاكم القيراط أعظم من أحد ، وفى أخرى له فى الميزان أثقل من أحد ، والمقصود من قوله عليه الصلاة والسلام فإنه يرجع من الأجر بقيراطين ، أنه يرجع بحصتين من جنس الأجر ، وأحد جبل بجنب المدينة على نحو ميلين منها ، وإنما خصه بالذكر لأنه أعظم جبالها ، وكان يحبه عليه الصلاة والسلام ويقول : جبل أحد يحبنا ونحبه ، والذى يستفاد من الحديث أن من شهد جنازتين من مكانهما إلى المصلى وصلى عليهما صلاة واحدة فإن تعدد مكانهما حصل له بكل واحدة قيراط بلا شك ، وإن اتحد مكانهما ومشى معهما حتى صلى عليهما صلاة واحدة فالظاهر أنه يحصل له قيراط بكل ميت نظراً إلى التعدد ، وذهب بعض العلماء إلى أنه قد يحصل للمشيع أربعة قراريط لحديث من أوذن أى أخبر بجنازة فأتى أهلها فعزاهم كتب الله تعالى له قيراطا ، فإن شيعها كتب الله تعالى له قيراطين ، فإن صلى عليها كتب الله له ثلاثة قراريط ، فإن شهد دفنها كتب الله له أربعة قراريط القيراط مثل أحد ، والمعنى أن ذلك يكون فى ميزان عمله يوم القيامة، واعلم أن ظاهر الحديث يدل على أن لمن حضر الدفن أن ينصرف بغير إذن أهل الميت ، وحكى عن مالك عدم الانصراف إلا بالإذن .

الفائدة الثالثة : اختلفوا هل المشى خلف الجنازة أفضل أم أمامها . فالإمام الأعظم قال إن المشى خلفها أفضل لأنها متبوعة ، ففى صحيح البخارى عن البراء بن عازب: أمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باتباع الجنازة ، وعن على كرم الله تعالى وجهه : قدمها بين يديك ، واجعلها نصب عينيك ، فإنما هى موعظة وعبرة إلا أن يكون خلفها نساء فالمشى أمامها أحسن ، ويكره خروجهن تحريماً . وقال الأئمة الثلاثة : المشى قدامها أفضل لما روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والشيخين كانوا يمشون أمامها ؛ ولأنهم كالشافعين لها ، قال الحصكفى الحنفى فى الدر المختار : وإذا حمل الجنازة وضع ندبا مقدمها على يمينه عشر خطوات لحديث من حمل جنازة أربعين خطوة كفرت عنه أربعين كبيرة ، ثم وضع مؤخرها على يمينه كذلك ثم مقدمها ، على يساره ثم مؤخرها كذلك فيقع الفراغ خلف الجنازة فيمشى خلفها .

مسائل منثورة : استفيد من الأحاديث المتقدمة فرضية الصلاة على الميت كفاية ، فيأثم أهل البلدة جميعهم بتركها ، ولذا قيل : إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين ، لأن فى أداء فرض الكفاية يرتفع الإثم عن جميع الناس ، ومنها أن اللغط والكلام يكرهان خلف الجنازة ، ومنها أن الغاسل ومن حضر إذا رأوا ما يكره ذكره من حال الميت لم يجز أن يذكروه إلا إذا كان صاحب بدعة لينزجر غيره ، ومنها الترغيب فى تغسيله وتكفينه وحفر قبره ، فقد روى الطبرانى وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من حفر قبراً بنى الله له بيتاً فى الجنة ، ومن كفن ميتاً كساه الله تعالى من حلل الجنة حلتين لا تقوم لهما الدنيا ، ومن كفل يتيماً أو أرملة أظله الله تعالى فى ظله وأدخله الجنة . وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : زر القبور تذكر بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين فى ظل الله تعالى يتعرض لكل خير ، ومنها أن من رأى جنازة فلا يقم فالقيام منسوخ ، وليقل ما رواه الطبرانى عن ابن عمر : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، اللهم زدنا إيمانا وتسليما ، فإذا قال ذلك كتب له عشرون حسنة، وفى رواية يقول : سبحان الحى الذى لا يموت ، ومنها كما نقله السفيرى أنه يكره أن نتبع الجنازة بنار فى مجمرة أو غيرها ، ونقل ابن المنذر وغيره الإجماع عليه،

وكذا يكره أن يكون عند القبر مجمرة ، ولذا قال ابن حجر : إيقاد السرج والشموع في المقابر حرام [1] بل عد ذلك بعضهم من الكبائر .

قلت : ولعل لنا عودة في هذا البحث في الدروس الآتية إن شاء الله تعالى ، ومنها أن تعزية أهل المصيبة أمر مسنون ، فقد روى ابن ماجه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبته إلا كساه الله تعالى من حلل الكرامة يوم القيامة ، وقال عليه الصلاة والسلام ، من عزى مصاباً فله مثل أجره ، والتعزية أن يقول : أعظم الله أجرك وأحسن عزاك ، وغفر لميتك ، ولا بأس بل يستحب اتخاذ طعام لهم لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم ، لأنه بر ومعروف ، وليلح على أهل المصيبة بالأكل لأن الحزن مانعهم ، ويكره اتخاذ الضيافة من الطعام من أهل الميت ، لأنه شرع في السرور. وفي البزازية : ويكره اتخاذ الطعام في اليوم الأول والثالث وبعد الأسبوع، ونقل الطعام إلى القبر في المواسم ، واتخاذ الدعوة لقراءة القرآن مكروه ، والحاصل أن اتخاذ الطعام عند قراءة القرآن لأجل الأكل مكروه ، وإن اتخذ طعاماً للفقراء كان حسناً ، قال في المعراج : وهذه الأفعال كلها للسمعة والرياء فيحترز عنها لأنهم لايريدون بها وجه الله تعالى ، ولا بأس بالجلوس للتعزية للرجال لا للنساء ، قطعاً، وبزيارة القبور للرجال ، قيل : وللنساء ، قال الخير الرملي : إن كان لتجديد الحزن والبكاء فلا ، لحديث : لعن الله زائرات القبور ومن علقن التمائم والخرز ، وإن كان للاعتبار والترحم فلا بأس إذا كنَّ عجائز ، قال في الدر المختار : ولا بأس بزيارة القبور ، ولو للنساء ، لحديث : كنت نهيتكن عن زيارة القبور ألا فزوروها ، ويقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون، ويقرأ يس ، وفي الحديث : من قرأ الإخلاص إحدى عشرة مرة ثم وهب أجرها للأموات أعطى من الأجر بعدد الأموات ، اهـ .

قال العلامة شيخ مشايخنا السيد محمد أمين بن عابدين في حاشيته : تندب زيارة القبور ، وتزار في كل أسبوع ، ونقل عن شرح لباب المناسك أن الأفضل يوم الجمعة والسبت والاثنين والخميس ، فقد قال محمد بن واسع : الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ، ويوماً قبله ويوماً بعده ، فتحصل أن يوم الجمعة أفضل ، ثم

---

(١) أي لأن ذلك إسراف وتفاؤل في النار اهـ منه .

هل تندب الرحلة للزيارة كما اعتيد من الرحلة إلى زيارة خليل الرحمن وأهله وأولاده ، وزيارة السيد البدوى ، وغيره من الأكابر ، لم أر من صرح به من أئمتنا ، ومنع منه بعض أئمة الشافعية إلا لزيارته صلى الله تعالى عليه وسلم قياسا على منع الرحلة لغير المساجد الثلاثة ، يعنى الوارد فيها قوله عليه الصلاة والسلام : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا ، خلافا للغزالى ا هـ ، والبحث فى هذه المسألة طويل ، وقد حققناه فى كتابنا جلاء العينين بما يزيل الغين والرين ، ومنها أنه يجب على المسلم أن يعتقد سؤال القبر ، قال فى الأمالية :

وفى الأجداث عن توحيد ربى ـــــ سيبلى كل شخص بالسؤال

لحديث البخارى عن أنس مرفوعاً قال : العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقول انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : فيراهما جميعاً . وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، فيضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين ، قال الوالد عليه الرحمة : وفيه ما يدل على عمومه المؤمن والكافر ، وبه قال القرطبى وابن القيم وعبد الحق والجمهور ، وقالوا بدخول الجنى فى العموم ، وقال ابن عبد البر فى التمهيد أن الكافر لا يسأل وإنما يسأل المؤمن والمنافق ، قال الحافظ بن حجر : الروايات مجتمعة معى على أن كلا من الثلاثة يسأل ، وهل هو من خواص هذه الأمة أم لا ، قولان ، وجزم ابن عبدالبر والترمذى فى النوادر بالاختصاص ، وقال ابن القيم : كل نبى مع أمته كذلك، وتوقف ابن الفاكهانى فى أهل الفترة والمجانين والبله ، قال الجلال : ومقتضى كلام الروضة أنه لا يسأل إلا المكلفون أى من الإنس والجن ، وإلا فالملك وإن عد مكلفاً لا يسأل كما استظهره الحافظ بن حجر ، وفى دعوى الاختصاص بالمكلفين نظر ، فقد جزم القرطبى وجماعة بسؤال الأطفال ، وهو أحد قولى الحنابلة والحنفية ، والآخر أنهم لا يسألون ، واختاره الجلال تبعاً لشيخه ، وقيد ابن حجر الطفل المختلف فيه بغير المميز ، وتوقف الإمام أبو حنيفة فى سؤال الأطفال المشركين

كدخولهم الجنة. والحق أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يسألون بل لا ينبغى أن يكونوا محل خلاف ، وكذا المرابط والملازم قراءة تبارك كل ليلة ، والميت ليلة الجمعة أو يومها، والميت بالطاعون ، والشهيد إلى آخرين ، لأحاديث خصصت أحاديث العموم ، والسؤال عن العقائد فقط ، يقول الملك للميت : من ربك وما دينك وما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيك ؟ وفى رواية : زيادة ومن أبوك وما قبلتك؟ وفى أخرى : الاقتصار على بعض المذكورات ، وجمع باختلاف أحوال المسئولين ، وبأن بعض الروايات اقتصر وبعضاً أتم ، وهو للروح والبدن على الصحيح ، وفى حديث أسماء أن العبد يسأل ثلاثا ، وجزم الجلال فى رسالة مفردة فى المسألة بأن المؤمن سبعة أيام والكافر أربعين صباحا ، ووقت السؤال أول يوم بعد تمام الدفن فيمن يدفن، وعند انصراف الناس ، ويتولى السؤال ملكان على المشهور، وجزم الجلال بأنهما يأتيان معا ولا يتولاه إلا أحدهما وهما منكر ونكير ، للمؤمن الطائع وغيره على الصحيح ، وقيل للكافر والعاصى ، وللطائع مبشر وبشير ، ومعهما آخر يقال له ناكور ، قيل : ويجىء قبلهما ملك يقال له رومان ، وحديثه قيل : موضوع ، وقيل فيه لين ، ولم يثبت حضور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند السؤال ، نعم ، ثبت حضور إبليس عليه اللعنة فى زاوية من القبر يشير إلى نفسه عند قول الملك للميت من ربك ، والحكمة فى السؤال هتك ستر المنافق ، ونوع تعذيب للكافر ، وتذكرة للمؤمن المكلف ، ومباهاة بالطفل إلى أمور يعلمها الله تعالى ، وبقيت أبحاث أخر طويناها على غرها ، وإذا وقع البحث عنها نشرناها، ا هـ .

وذكر بعض العلماء أن الشهداء الذين لا يسألون كثيرون ومنهم المطعون بالرمح والمطعون والمبطون والنفساء والحرق والغرق وذات الجنب والسل والهدم وسادن بيت المقدس ، أى خادمه والقارئ فى مرض موته قل هو الله أحد . ا هـ .

ومنها التلقين قال فى الدر المختار : ويلقن ندبا وقيل وجوبا لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنه ليس مسلم يقولها عند الموت إلا أنجته من النار ، بذكر الشهادتين عند المحتضر ، أى يجب على إخوانه وأصدقائه أن يلقنوه ذلك من غير أمره بها لئلا يضجر أى ويردها والعياذ بالله تعالى ، ويندب قراءة يس والرعد ، ولا يلقن بعد تلحيده ، وإن فعل لا ينهى عنه ، وفى الجوهرة أنه مشروع

عند أهل السنة ، وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه أمر بالتلقين بعد الدفن ، فيقول يا فلان بن فلان اذكر دينك الذى كنت عليه من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبيا ، وبالقرآن إماما ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين إخوانا ا هـ مزاداً من الحاشية .

وليعلم أن العلامة ابن حجر قد عد جملة مما يتعلق بهذا البحث من الكبائر ، فمنها كسر عظم الميت والجلوس على قبره ، أخرج أبو داود عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : كسر عظم الميت ككسره حيا . وروى الإمام مسلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لأن يجلس أحدكم على جمرة فتخرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر . وروى ابن ماجه : لأن أمشى على جمرة أو سيف أو أخصف نعلى برجلى أحب إلى من أن أمشى على قبر .

ومنها النياحة وشق الجيوب ونحو ذلك ، فعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه، قال بعض العلماء ، أى إذا أوصى بذلك يعذب ، وأخرج الشيخان : ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . وفى رواية : برئ من النائحة والحالقة لرأسها عند المصيبة ، روى ابن ماجه : النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله تعالى لها ثيابا من قطران ودرعا من لهب النار . والطبرانى أن هذه النوائح يجعلن يوم القيامة صفين فى جهنم ، صف عن يمينهم وصف عن يسارهم ، فينبحن على أهل النار كما تنبح الكلاب ، وعن أبى سعيد الخدرى : لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم النائحة والمستمعة ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه سمع صوت بكاء رجل فدخل ومعه غيره فمال عليهم ضربا حتى بلغ إلى النائحة فضربها حتى سقط خمارها ، وقال : اضرب فإنها نائحة ولا حرمة لها ، إنها تبكى بشجوكم ، إنها تهريق دموعها على أخذ دراهمكم ، وإنها تؤذى موتاكم في قبورهم وأحياءكم فى دورهم ؛ لأنها تنهى عن الصبر ، وقد أمر الله تعالى به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله تعالى عنه ، قال العلماء : أما البكاء على الميت بلا رفع أصوات فليس فيه بأس ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله لا يعذب

بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا ويرحم بهذا ، وأشار إلى لسانه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخرج الشيخان أنه رفع إليه صلى الله تعالى عليه وسلم ابن لابنته وهو فى الموت ففاضت عيناه ، فقال سعد : ما هذا يا رسول الله . قال : هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء . وروى البخارى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ، فقال : يا ابن عوف إنها رحمة أتبعها بأخرى ، فقال : إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وليعلم أنه يتأكد لمن ابتلى بمصيبة بميت أو غيره وإن خفت أن يكثر من قوله إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، لخبر مسلم أن من قال ذلك آجره الله وأخلف له خيراً منها ، ولأنه تعالى وعد من قال ذلك بأن عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأنهم لمهتدون ، أى للترجيع أو الجنة أو الثواب ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : إن من حمد الله واسترجع عند موت ولده أمر الله تعالى ملائكته أن يبنوا له فى الجنة بيتا يسمونه بيت الحمد ؛ وفى حديث آخر: إن الولد الصغير إذا مات كان حصناً لأبويه من النار ، وفى حديث آخر : يفتح لهما باب الجنة ا هـ . فيا من يمنَّى أنه بالمنى ظافر ، وقد علقت به من المنون أظافر ، يا من نقصه على الدوام وافر ، أين زادك قل لى يا مسافر ، ويحك اذكر الغاسل ولا تنس الحافر ، وا عجباً لك أأمؤمن أنت أم كافر ، يا ساكن الدنيا أتعمر منزلا لم يبق فيه مع المنية ساكن :

الموت شىء أنت تعلم أنه ... حق وأنت بذكره متهـاون
إن المنية لا تؤامر من أتت ... فى نفسـه يوماً ولا تستأذن

فانظروا إخوانى إلى المقابر ، فاللبيب يرى الآخر ، فأى صحيح من الدنيا لم يمرض ، وأى بناء شيد فلم ينقض ، يا عجبا لمصاب فيها بالملمات انزعج ، أما تعلم أن من دخل دار غيره خرج ، فتفكروا فى الراحلين ، واعتبروا بالسالفين ، وتأملوا بالبصائر حال الدفين ، وتأهبوا فأنتم والله فى أثر الماضين ، أين الأخلاء وأين الإخوان ، أين الرفقاء والأقرباء ، وأين الأقران ، رحلوا عنا إلى أعجب الأوطان ،

وبنوا فى القلوب بيوت الأحزان ، وقد مضت الأعمار فى الذنوب ، وامتلأت عيب القلوب بالعيوب ، وما راقبتم علام الغيوب ، وأعظم المصائب فقد الطبيب ، وأعظم العظائم غفلة المطلوب ، فهل فيكم من يغسل درن ذنوبه بدمعه ، هل منكم معتذر من قبيح صنعه ، أين المذكر حلول الموت بربعه ، أين من يزرع فهذا أوان زرعه ، تا الله لو حضرت القلوب لطابت غير أنها غائبة ، ولو صدقت اليوم لقبلت لكنها كاذبة ، كيف بكم إذا فاز الأبرار وخبتم ، وحضر المتقون وغبتم ، كم ضيعتم الأوقات النفيسة ولعبتم ، ولو سمعتم وصفكم من غيركم لعبتم ، أما الموت عن قليل يأتيكم ، أما اللحود بعد أيام مثاويكم ، أما يوم القيامة غدا يجمعكم . كم بارزتم خالقكم بذنب وما استحييتم ، كم خوفتم من العذاب وما ارعويتم ، أنسيتم أن الله يعلم ما أخفيتم ، فاحذروا من الدنيا فإن حسن الدنيا زور ، وإنها لتودع من أول ما تزور ، إنما هى قنطرة للعبور ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، اللهم أيقظ قلوبنا من رقدات الآمال ، وذكرنا قرب الرحيل ودنو الآجال ، وصبرنا على أقوم الأمور وأشرف الخصال ، وثبت قلوبنا على الإيمان وتوفنا جميعاً على الإسلام ، ووفقنا لصالح الأعمال ، ونجنا من جميع الأهوال ، وآمنا من الفزع الأكبر يوم الرجف والزلزال ، وبارك لنا فى الأعمار والأولاد والأموال ، ولا تقطع منا فى الحياة والممات صالح الأعمال ، واشف بلطفك مرضانا ، وارحم بفضلك موتانا ، واستر علينا عيوبنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، وأصلح شأننا كله ، وارحم كافة المسلمين والمسلمات ، برحمتك يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



المجلس الرابع والعشرون
فى الاستعداد للموت وما يتعلق بذلك

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى جعل الدنيا معبر اعتبار ، يفتقر ملاح سفينتها إلى حذق واصطبار، ولم يرضها لأوليائه فبنى لهم دارا غير هذه الدار ، وبالغ فى ذمها ويكفى ما فيها من الآثام والأكدار ، غير أنه زينها بالدول والأموال للمالك والنظار ، فبينا هى فى

صعود الزيادة إذ صاحبها إلى القدر فى انحدار ، وغربان البين قامت تندب الآثار ، ذلك متاع الحياة الدنيا وهل المتاع إلا عارية تعار ، أما سمعتم عيوب العاجلة إذ بينما تجرى براكبها عثرت به أى عثار ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أحمده عدد الرمل فى القفار ، وأقر بوحدانيته أصح إقرار ، وأصلى وأسلم على رسوله محمد الذى مذ أقبل وقع الكفر فى إدبار ، وعلى جليسه وأنيسه فى الدار والغار ، وعلى عمر الذى فتح بهيبته الأقطار ، وعلى عثمان قائم الليل والدموع غزار ، وعلى على معشوقنا وما على عاشق على من عار، وعلى عمه العباس آخذ البيعة على الأنصار ، وعلى بقية الصحابة والتابعين الأخيار .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه ، ومبين خطابه ، ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾ الآية . .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : هذا يقوله من يسأل الرجعة للملائكة الذين يقبضون الأرواح ، والمعنى ارجعونى إلى الدنيا لعلى أعمل صالحاً فيما تركت من العمل الذى مضى ، وقوله تعالى كلا أى لا يرجع إلى الدنيا ، إنها يعنى مسألة الرجعة ، كلمة هو قائلها ، أى هى كلام يقوله لا فائدة فيه ولا نفع ، وقوله تعالى ، ومن ورائهم ، أى أمامهم وبين أيديهم ، فالوراء بمعنى القدام ، برزخ إلى يوم يبعثون ، قال الزجاج : البرزخ فى اللغة الحاجز ، وهو ههنا ما بين موت الميت وبعثه ، واعلموا أنه جدير بمن بين يديه الموت أن يكثر ذكره ، كما قال عليه الصلاة والسلام: أكثروا ذكر هاذم اللذات [1] ، وأن يعد نفسه من الموتى ، لأن كل آت قريب ، قال العلامة ابن الجوزى فى التبصرة : ثم إن الناس فى ذكر الموت على ضربين ، أحدهما أهل الغفلة ، فمنهم من لا يذكره ، فإن عرض له ذكره صرف ذلك عن قلبه، ومنهم من إذا عرض له ذكره حزن لفراق الدنيا ونقض البنية ، فهذان داخلان فى حزب الغافلين الجاهلين ، والثانى أهل اليقظة ، وهم منقسمون إلى خائف منه إما بالطبع ، وإما لأنه لا يرضى عمله ، وإما لأنه باب الجزاء على الأعمال ، فإن آدم عليه السلام كره الموت والخليل عليه السلام كره الموت ، وموسى عليه السلام لطم عين ملك الموت لكراهية الموت ، وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة بكى

---

(١) بالذال المعجمة اى قاطع وآكل بسرعة اهـ منه .

حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه ، وكان ابن سيرين إذا ذكر الموت مات كل عضو منه على حدته ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله وانتفض انتفاض الطير ، وقد كان فى الصالحين من يغلب شوقه إلى ربه على خوفه من الموت فيؤثر الموت لأنه موعد لقاء الحبيب . قال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم . وفيهم من يكره الموت ، ليصحح العمل وفيهم من تخايل شدائد الموت فقوى حذره ، فالشدة الأولى تقوى فى حق الغافلين ، وهى مفارقة المال والولد وهى خفيفة عند المتيقظين، لأشغالهم بما هو أهم، والشدة الثانية رؤية الأعمال ، قال أبو جعفر محمد بن على : ليس من ميت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة ، فيشخص إلى حسناته ويطرق عند سيئاته ، وقال مجاهد : ما ميت إلا عرض عليه جلساؤه إن كانوا أهل ذكر ، وإن كانوا أهل لهو ، والشدة الثالثة حسرات الفوت حين لا يمكن الاستدراك ، وهذه أشد شدة على المتيقظين .

ويقال إن الميت يقول لملك الموت : أخرنى يوما فيقول : ذهبت الأيام . فيقول : أخرنى ساعة فيقول : ذهبت الساعات ، قال قتادة : والله ما يتمنى أن يرجع إلى أهل ولا عشيرة ، ولكن يتمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، والشدة الرابعة معاينة ملك الموت ، وهى حالة عظيمة ، قال إبراهيم الخليل عليه السلام لملك الموت : أرنى كيف تقبض أرواح الكفار . قال : لا تطيق ، قال : بلى ، قال : فأعرض فأعرض ثم نظر فإذا هو برجل أسود ينال رأسه السماء يخرج من فيه لهب النار ، ليس من شعرة فى جسده إلا فى صورة رجل يخرج من فيه ومسامعه لهيب النار ، فغشى على إبراهيم ، فلما أفاق قال : لو لم يلق الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك لاكتفى، فأرنى كيف تقبض أرواح المؤمنين ، قال : أعرض فأعرض ، ثم التفت فإذا برجل شاب أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً فى ثياب بيض ، كما قدمنا هذا فى بعض الدروس ، والشدة الخامسة ألم الموت ، روى أن موسى عليه السلام لما توفى قيل له كيف وجدت طعم الموت ، قال : كسفود [1] أدخل فى جزة صوف فانسلخ ، وفى صحيح البخارى من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إله إلا الله،

---

(١) بالفاء والدال على وزن تنور وهو الحديد الذى يشوى به اللحم ا هـ منه .

إن للموت سكرات، وعن أبى حسين البرجمى مرفوعاً قال : احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة فإن الحكيم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد فى ذلك الموطن ، عند فراق الدنيا وترك الأحبة ، ولا تعظوهم فإن الكرب شديد والأمر عظيم ، والذى نفس محمد بيده لمعالجة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف ، وما من ميت يموت إلا وكل عرق منه يألم على حدته ، وقال على بن أبى طالب رضوان الله عليه : والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش ، وقال شداد بن أوس : لو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بألم الموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم، وقال وهب : لو أن ألم عرق من عروقه قسم على أهل الأرض لأوسعهم ألما. وسئل الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : ما بال الميت تنزع نفسه وهو ساكت وابن آدم يضطرب من القرصة ، فقال : إن الملائكة توثقه . والشدة السادسة رؤية المجرمين مواضعهم من النار ، وخوف هذا كان يقلقل الصالحين عند النزع فينسون كل شدة فى جانبه ، قال على رضى الله تعالى عنه : ما تخرج نفس ابن آدم حتى يعلم أن مصيره إلى جنة أم إلى نار ، وبكى إبراهيم النخعى عند الموت فقيل له : ما يبكيك قال : أنتظر رسل ربى إما إلى الجنة وإما إلى النار . والشدة السابعة أم الشدائد وهى سوء الخاتمة أعاذنا الله تعالى وإياكم منها ، وأماتنا على الإيمان الكامل بمنه وكرمه ، وقد فسروها بشيئين أحدهما أن يغلب على القلب عند سكرات الموت ظهور أحواله إما الشك وإما الجحود ، فتخرج الروح فى حالة غلبة تلك الآفة فيلقى الله تعالى فى حزب الكفار ، نعوذ بالله تعالى من ذلك، والثانى أن يغلب على القلب حينئذ حب الدنيا وشهواتها فتخرج الروح فى حالة استغراق تلك الحالة فيعمى بذلك عن تدارك زلة أو تأهب للقاء الحق ، وذلك حجاب يوجب الطرد عن التقريب بعد الممات وفى الحشر ، لأن كل ميت يحشر على ما مات عليه ، ولله تعالى در القائل :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس ... ولو تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت نافذة ... فى كل مدرع منا ومترس
ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... وثوب جسمك محفوظ من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

فاستعدوا إخوانى للممات قبل الفوات ، فقد روى أنس رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله ، قالوا : وكيف يستعمله ، قال : يوفقه لعمل صالح قبل موته . وعن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه قال : خرجنا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس المطمئنة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك ، وجدت على وجه الأرض ، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ، فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقول الله تبارك وتعالى : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك فيقول : ربى الله فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له: وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة. قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مد بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الذى يجىء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ،

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من الملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب، قال : فتغرق فى جسده فينتزعها ، كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة ، وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيثة فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدى فى سجين فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولون : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولون له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد أن كذب عبدى فافرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من ذكاء حرها وسمومها، ويضيق قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الذى يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة .

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة . وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى قبره احتوشته أعماله الصالحة فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال القيام لله عز وجل فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا ، فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه

وحج وجاهد لله تعالى ، لا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبى فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين ، حتى وقعت فى يد الله عز وجل ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه ، فيقال له : نم هنيئاً طبت حياً وميتاً ، قال : ويأتيه ملائكة الرحمة فيفرشونه فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة ، ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضىء بنوره إلى يوم يبعثه الله عز وجل من قبره . ا هـ . باختصار .

ولنذكر من الكبائر التى ذكرت فى الزواجر والأبحاث الفقهية المتعلقة بهذه الأبحاث ، فمنها كراهة لقاء الله تعالى ، أخرج الشيخان عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقلت : يا نبى الله أما كراهة الموت فكلنا نكره الموت ، فقال : ليس ذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله تعالى ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وأن الكافر إذا بشر بعذاب الله تعالى وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه ، وفى أخرى ليس ذاك كراهة ولكن المؤمن إذا حضر جاءه المبشر من الله فليس شىء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه ، وأن الكافر أو الفاجر إذا حضر جاءه ما هو صائر إليه من الشر فكره لقاء الله فكره الله تعالى لقاءه. والطبرانى : اللهم من آمن بك وشهد أنى رسولك فحبب إليه لقاءك وسهل عليه قضاءك ، وأقلل له من الدنيا ، ومن لم يؤمن بك ولم يشهد أنى رسولك فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وكثر له الدنيا .

ومنها الفرار من الموت والطاعون ، فقد روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : الفار من الطاعون كالفار من الزحف ، ومن صبر فيه كان له أجر شهيد ، وفى حديث آخر : فناء أمتى بالطعن والطاعون ، وهو وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة ، وروى أنه لما خرج عمر رضى الله تعالى عنه إلى الشام وبلغ سرع [1] بلغه أن الوباء قد وقع بالشام فاستشار كبار الصحابة فلم يجدوا عند أحد منهم علماً ، حتى جاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه فقال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه، فرجع عمر، فقال له أبو عبيدة : أفراراً

---

(١) سرع اسم موضع ا هـ منه .

من قدر الله ، فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، يعنى : أمرنا الله تعالى بالتحرز من المهالك واستفراغ الوسع فى التوقى من المكروهات. وقال أكثر المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم** ﴾ هى قرية قرب واسط، وقع بها الطاعون فخرج عامة أهلها وبقيت طائفة لم يبق منهم إلا قليل مرضى فلما ارتفع الطاعون رجع الهاربون سالمين ، فقال المرضى : هؤلاء أحزم منا نجوا لو صنعنا كما صنعوا نجونا ، ولئن وقع الطاعون ثانياً لنخرجن إلى أرض لا وباء فيها ، فوقع الطاعون من قابل ، فهرب عامة أهلها ، وهم بضع وثلاثون ألفاً حتى نزلوا وادياً فظنوا النجاة فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعاً ، وبليت أجسامهم فمر بهم حزقيل ، ووقف متفكراً متعجباً فأوحى الله تعالى إليه : تريد أن أريك آية ، قال : نعم ، فقيل له ناد أيتها العظام إن الله تعالى يأمرك أن تجتمعى فتطاير بعضها إلى بعض حتى التأمت ، ثم أوحى الله تعالى إليه أن ناد أيتها العظام إن الله تعالى يأمرك أن تكتسى لحماً ودماً ، ثم ناد إن الله تعالى يأمرك أن تقومى فقاموا أحياء قائلين سبحانك ربنا ، وحدك لا إله إلا أنت ، ثم رجعوا إلى قومهم ، وأمارات الموتى ظاهرة عليهم فى وجوههم ، وأبدانهم إلى أن ماتوا بعد متفرقين بحسب آجالهم .

ومنها تبديل الوصية ، روى الشيخان : من مات على وصية مات على سبيل وسنة، ومات على تقى وشهادة ، ومات مغفوراً له . وقال عليه الصلاة والسلام : ترك الوصية عار فى الدنيا وشتات فى الآخرة ، وروى ابن الجوزى فى التبصرة قال أبو بكر القرشى : أن رجلاً كان يحفر القبور بالبصرة قال : حفرت قبراً ووضعت رأسى قريباً منه فأتتنى امرأتان فى منامى فقالت إحداهما : نشدتك الله إلا صرفت عنا هذه المرأة ولم تجاورنا بها ، فاستيقظت فزعا فإذا جنازة امرأة قد جىء بها فصرفتهم إلى غير ذلك القبر ، فلما كان الليل إذا أنا بالمرأتين فى منامى تقول لى إحداهما : جزاك الله خيراً صرفت عنا شراً طويلاً قلت : ما بال صاحبتك لا تكلمنى كما تكلمينى أنت ، قالت : إن هذه ماتت عن غير وصية وحق لمن ماتت عن غير وصية ألا تتكلم إلى يوم القيامة ا هـ .

قال العلماء : والصدقة فى الحياة أفضل ، فقد روى لأن يتصدق المرء فى حياته

وصحته بدرهم خير من أن يتصدق بمائة درهم عند موته ، ومنها الإضرار فى الوصية، ويقع على وجوه منها أن يوصى بأكثر من الثلث ، أو يقر بكل ماله أو بعضه لأجنبى أو يقر على نفسه بدين لا حقيقة له ، أو يقبض دينا له على الغير ، وبيع شىء بأرخص ، أو يوصى بالثلث لا لوجه الله تعالى ، بل للإضرار للورثة .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة فيعدل فى الوصية فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة ، وقال عليه السلام من قطع ميراثاً فرضه الله تعالى قطع الله ميراثه فى الجنة ، ومن الإضرار أن يوصى على نحو أطفاله من يعلم من حاله أن يأكل ما لهم أو يكون سبباً لضياعه ، والأكبر من ذلك أن يجعل القاضى وصياً غير أهل لقوله عليه السلام من ولى رجلاً وفى رعيته من هو خير منه فقد خان الله ورسوله وعامة المسلمين ا هـ .

وأما المسائل الفقهية المتعلقة بالجنائز فنذكرها لكم على اختلاف المذاهب ، لتعرفوا الواجب والسنة والجائز ، قال الشعرانى فى الميزان : أجمع العلماء على أن الوصية مستحبة حال الصحة ، لكل من له مال أو عنده لأحد مال ، وعلى تأكدها فى المرض ، وعلى أنه إذا تيقن الموت وجه الميت للقبلة ، واتفقوا على أن غسل الميت فرض كفاية ، وعلى أن للزوجة أن تغسل زوجها وعلى أن السقط إذا لم يبلغ أربعة أشهر لا يغسل ولا يصلى عليه ، وعلى أنه إذا استهل وبكى يكون حكمه حكم الكبير، وعن سعيد بن جبير أنه لا يصلى على الصبى ما لم يبلغ ، وأجمعوا على أنه إذا مات غير مختون لا يختن ، وعلى أن الشهيد الذى مات فى قتال الكفار لا يغسل، وعلى أن النفساء تغسل ويصلى عليها ، واتفقوا على أن الواجب من الغسل ما تحصل به الطهارة ، وأن يكون الغسل وترا وأن يكون ندبا بسدر وفى الأخيرة كافور ، وعلى أن التكفين مقدم على الدين والورثة ، واتفقوا على أن المحرم لا يطيب ولا يلبس المخيط ولا يخمر رأسه إلا فى رواية لأبى حنيفة ، أن إحرامه يبطل بموته ، فيفعل به ما يفعل بجميع الموتى . واتفقوا على أن تكبيرات الجنازة أربع وعلى أن قاتل نفسه يصلى عليه ، وإنما الخلاف فى صلاة الإمام عليه ، يعنى الأعظم، واتفقوا على أنه لا يجوز حفر قبر الميت ليدفن آخر إلا إذا مضى زمان يبلى فى مثله، واتفقوا على أن الدفن فى التابوت لا يستحب ، وأجمعوا على استحباب

اللبن والقصب فى القبر ، وعلى كراهة الآجر والخشب ، واتفقوا على أن السنة اللحد ، وأن الشق ليس بسنة ، واتفقوا على أن الاستغفار للميت والدعاء والصدقة والعتق والحج عنه ينفعه، واتفقوا على أن من دفن بغير صلاة عليه يصلى على قبره، وعلى عدم كراهة الدفن ليلاً مع قول الحسن البصرى بكراهته، والله تعالى أعلم .

وأما ما اختلفوا فيه فمن ذلك أن الأولى عند الشافعى أن يكون غسل الميت تحت السماء ، وقيل الأولى أن يكون تحت سقف ، ومن ذلك قول الأئمة أن غسل الميت بالماء البارد أولى إلا لضرورة كبرد شديد ووسخ ، مع قول أبى حنيفة أن الماء المسخن أولى بكل حال ، ولعل وجه الأول التفاؤل بالنعيم بقرينة نهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن اتباع الجنازة بنار ، ومن ذلك قول الثلاثة للزوج أن يغسل زوجته خلافاً لأبى حنيفة ، وإذا ماتت امرأة لا زوج لها ولا غاسل يممت عند أبى حنيفة ومالك، وعلى الراجح من مذهب الشافعى وأحمد ، والرواية الأخرى عنهما أن الغاسل يلف على يديه خرقة ويغسلها ، قال الأوزاعى : تدفن من غير غسل ولا تيمم ، ومن ذلك قول الثلاثة أنه يجوز للمسلم تغسيل قريبه الكافر خلافاً لمالك ، ومن ذلك قول الثلاثة أنه يستحب للغاسل أن يوضئ الميت كالحى ويسوك أسنانه ويدخل أصبعيه فى منخريه ويغسلهما ، مع قول أبى حنيفة أن ذلك لا يستحب ، وكذلك قالوا باستحباب ضفر شعر المرأة ثلاث ضفائر ثم تلقى خلفها إذا غسلت ، مع قول أبى حنيفة أن الشعر يترك على حاله من غير ضفر ، ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى أن الحامل إذا ماتت وفى بطنها جنين حى يشق بطنها ، مع قول مالك فى إحدى روايتيه وأحمد أنه لا يشق ، ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد فى إحدى روايتيه أنه يصلى على الشهيد ، مع قول مالك والشافعى أنه لا يصلى عليه لاستغنائه عن شافع، ومن ذلك قول الشافعى أن الصلاة لا تكره فى شىء من الأوقات المنهى عن الصلاة فيها ، مع قول أبى حنيفة وأحمد أنها تكره فيها ، ومع قول مالك أنها تكره عند طلوع الشمس وعند غروبها فقط ، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد بعدم كراهة الصلاة على الميت فى المسجد مع قول أبى حنيفة ومالك بكراهة ذلك [1] ، ومن ذلك قول الأئمة الأربعة أن الطهارة شرط فى صحة الصلاة عليه مع قول الشعبى ومحمد بن جرير الطبرى أنها تجوز بغير طهارة ، أقول : وعند الحنفية يجوز التيمم

(١) أى لخوف نزول شىء منه فى المسجد ا هـ منه .

وإن وجد الماء إذا لم ينتظر ، ومن ذلك قول أبى حنيفة ومالك : أنه لا يرفع يديه فى التكبيرات إلا فى الأولى مع قول الشافعى يرفع فى الجميع ، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد أن قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى فرض مع قول أبى حنيفة ومالك أنه لا يقرأ فيها شىء من القرآن . قلت : وعن بعض الحنفية أنه يقرؤها خروجاً من الخلاف ، وكذا يقرؤها خلف الإمام فى سائر الصلوات لكن ذلك خلاف المفتى به، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة أنه يسلم من صلاة الجنازة تسليمتين مع قول أحمد وهو المشهور عن مالك أنه يسلم واحدة عن يمينه ، ومن ذلك قول أحمد أن من فاتته الصلاة على الميت يصلى على قبره إلى شهر وهو مذهب جماعة من الشافعية ، مع قول بعضهم أنه يصلى عليه ما لم يبل ، وقيل أبداً ، وشرط أبو حنيفة ومالك فى صحة الصلاة على القبر أن يكون قد دفن قبل أن يصلى عليه ، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد بصحة الصلاة على الغائب مع قول أبى حنيفة ومالك بعدم صحتها، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد إذا وجد عضو ميت غسل وصلى عليه مع قول أبى حنيفة ومالك أنه لا يصلى إلا إن وجد أكثر الميت ، ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى أن الإمام يصلى على قاتل نفسه مع قول مالك وأحمد : من قتل نفسه أو قتل فى حد فإن الإمام لا يصلى عليه، ومع قول أحمد لا يصلى الإمام على الغال(1) ولا على قاتل نفسه ، ومع قول الزهرى لا يصلى على من قتل فى رجم أو قصاص، وكره عمر بن عبد العزيز الصلاة على من قتل نفسه ، وقال الأوزاعى لا يصلى عليه، وعن قتادة أنه لا يصلى على ولد الزنا ، وعن الحسن أنه لا يصلى على النفساء ، ومن ذلك قول مالك والشافعى فى أرجح قوليه أن المقتول من أهل العدل فى قتال البغاة غير شهيد فيغسل ويصلى عليه . مع قول أبى حنيفة أنه لا يغسل (2) ولا يصلى عليه ، وعن أحمد روايتان . ومن ذلك قول الثلاثة أن من قتل ظلماً فى غير حرب يغسل ويصلى عليه مع قول أبى حنيفة أنه إن قتل بحديدة لم يغسل وإن بمثقل غسل وصلى عليه ، ومن ذلك قول الثلاثة أن من مات بالبحر ولم يكن بقربه ساحل جعل بين لوحين وألقى فى البحر إن كان فى الساحل مسلمون ، وإن كان فيه كفار ثقل وألقى فى البحر ليجعل بقراره مع قول أحمد أنه يثقل ويرمى فى البحر بكل حال إذا

---

(1) أى الآخذ السارق من الغنيمة ا هـ منه .

(2) فى نقله مخالفة بحسب الظاهر ، فليراجع ا هـ منه .

تعذر دفنه ، ومن ذلك قول الثلاثة أن التسنيم للقبر أولى لأن التسطيح قد صار من شعار غير أهل السنة ، مع قول الشافعى فى أرجح القولين أن التسطيح أولى ، ومن ذلك قول الثلاثة بعدم كراهة المشى بالنعال بين القبور مع قول أحمد بكراهته ، ومن ذلك قول أبى حنيفة أن التعزية سنة قبل الدفن لا بعده وبه قال الثورى ، مع قول الشافعى وأحمد أنها تسن قبله وبعده إلى ثلاثة أيام ، ومن ذلك قول الثلاثة بكراهة الجلوس للتعزية مع قول أبى حنيفة بعدم الكراهة ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة أن القبر لا يبنى ولا يجصص مع قول أبى حنيفة بجواز ذلك ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة باستحباب القراءة للقرآن عند القبر مع قول أبى حنيفة بكراهتها ا هـ باختصار.

فيا أيها الإخوان تذكروا ما لا ينساكم ، وتفكروا فيما لا بد أن يلقاكم ، واعمروا القبور فإنها مأواكم ، واحذروا الغرور فكم غرت دنياكم ، واعتبروا فقد وعظكم من سواكم بسواكم .

شغلتنـــا الدنيا بهاك وهات ونسينا مصـــارع الأمـــوات
نحـن موتى وإنما بين من يمـ ـضى ويبقى تفاوت الأوقات

إخوانى ، أكثر أهل القبور فى تجاراتهم قد خسروا ، فمروا على القبور واعتبروا، وتفكروا فى أحوالهم وانتظروا ، يتمنون العود وهيهات ، ويسألون الرجوع وقد فات، فيا مطلقاً اذكر قيودهم ، ويا متحركاً قد عرفت همودهم ، خلص نفسك من أسر الذنوب ، وتأهب فإنك بالغيبة والنميمة مطلوب ، وتذكر بقلبك يوم تقلب القلوب ، قبل أن يمسك اللسان ، ويتحير الإنسان ، ويزول العرفان ، وتنشر الأكفان، وتزار الحفرة ، وتطول السفرة ، ويأتى منكر ونكير ، ويقوى الشهيق والزفير ، ويلحق المذنب سلفه ، وينسى من خلفه ، ويلقى هنالك أسيراً ، إلى أن يقوم عرياناً حسيراً ، فحينئذ تنتثر الكواكب ، وتنتشر المصائب ، وتنسد المذاهب ، وتتبين العجائب ، وتسود وجوه ، ويفوت العاصى ما يرجوه ، وتثقل على الظهور الأوزار ، ويؤخذ الكتاب باليمين أو باليسار ، وليس هنالك لأحد قرار ، إلا الجنة أو النار ، فاعتبروا بالسابقين ، من الآباء والأمهات والأقربين ، وتفكروا فى الراحلين، فلعل القلب القاسى يلين ، وابكوا على أنفسكم قبل الحلول فى رمسكم، فوا عجبا لمن رأى فعل الموت بصحبه ، وسكن الإيمان فى قلبه ، كيف بات غافلا على جنبه ، وذاهلا عن عيبه ، وناسياً جزاءه على جرمه وذنبه ، ومعرضا عن ربه

إلى أربه ، وكأني به قد سقى كأس حمام يضج من شربه ، وأفرده الموت عن أهله وسربه ، ونقله إلى قبر بعيد عن خليله وصحبه ، فيا ذا اللب جز على قربه واتعظ به .

فيا أيها الناس لا دافع عنكم من الموت يقيكم ، وإنه الذى فى هوة الهلاك يلقيكم، وإنما تندمون إذا غصت تراقيكم ، قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ، يا لها من صرعة عجيبة ، ومصيبة فوق كل مصيبة ، مرت سهام الموت لكم مصيبة ، فهل يردها توقيكم ، قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم . أقبل التلف وحد ، فردم باب السلامة وسد ، وجاوز الألم الحد ، وما رد راقيكم ، بلغ الروح التراقى ، وبادر بالجد الراقى ، ووقع اليأس من التلاقى ، فتحير الساقى الذى يسقيكم ، سبحان من حكم وقضى ، بسكنى الثرى بعد الفضا ، ليس لنا إلا الرضا ، كما ذهب من مضى يذهب باقيكم ، قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم . اللهم يا حى يا قيوم برحمتك نستغيث ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأصلح لنا شأننا كله ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، اللهم استرنا بسترك الجميل فى الدارين ، اللهم اجعل قبور آبائنا وأمهاتنا وأقاربنا من رياض جنتك ومحل مغفرتك ، وآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وألحقنا بأوليائك الأخيار ، وأسكنا معهم بشفاعة نبيك الجنة دار القرار . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه السادة الأبرار .

* * *

المجلس الخامس والعشرون
فى الظهار والإيلاء والطلاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١) . . .

الحمد لله الذى لا مانع لما وهب ، ولا واهب لما سلب ، طاعته أفضل مكتسب،

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله المتعالى عن الأنداد ، المقدس عن الأضداد ، المنزه عن الصاحبة والأولاد ، خالق المائع والجماد ، ومبدع المطلوب والمراد ، المطلع على سر القلب وضمير الفؤاد ، مقدر ما كان ويكون من الضلال والرشاد ، والصلاح والفساد ، والوفاق والنفاق ، والبغض والوداد ، رأى حتى دبيب النمل الأسود فى السواد ، وسمع صوت المدنف الضعيف المجهود غاية الإجهاد ، وعلم ما فى سويداء السر وباطن الاعتقاد ، وجاد على السائلين فزادهم من الزاد ، وألف الأجساد وليس يشبه الأجساد ، وخلق من كل شىء زوجين وتوحد بالانفراد ، أحمده حمداً يفوق =

وتقواه للمتقى أعلى نسب ، والمعاصى من خوفه تجتذب ، والمصائب فى جنب أجره تحتسب ، والعطايا من فضله ترتقب ، وهو المرجو لكشف الكرب ، هيأ قلوب أحبائه للإيمان وكتب ، فتقربوا إليه بالتقوى والورع والأدب ، وحلى لهم فى طاعته النصب ، ولم يجدوا لحبه من تعب ، وقاموا بأعباء التكليف على أكمل الأدب ، وقدر الشقاء للأشقياء فغلب ، وأعرض عنهم فوقعوا فى العطب ، لا يعرفون السبب ، فإن أصابه خيراً اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب .

أحمده إذ وهب خيراً من الذهب ، وأشهد بوحدانيته شهادة تقضى ما وجب ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى اختاره وانتخب ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر الصديق العالى على أعلى الرتب ، الذى كان ليلة الغار بين يديه خوف الرصد وخلفه خوف الطلب ، وعلى عمر الفاروق الذى لم يعلق الشيطان منه بسبب، وكان يفرق من حسه فيطلب له طريقاً للهرب ، وعلى عثمان ذى النورين الزكى العرض النقى الحسب ، وعلى على بن أبى طالب الوافى وحده لجميع أبطال العرب ، الراغب فى الأخرى فما له فى الدنيا من أرب ، وعلى عمه العباس أقرب الخلق فى النسب ، ثم اكتسب بالدين شرفاً فنعم المكتسب .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز **﴿بسم الله الرحمن الرحيم * قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾** .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : قال العلماء رحمهم الله تعالى : نزلت هذه الآيات

= الأعداد ، وأشهد أنه الواحد لا كالآحاد ، وأصلى على رسوله محمد المبعوث إلى جميع العباد ، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى صاحبه أبى بكر رأس العباد ، وعلى عمر الذى فتح أقصى البلاد ، وعلى عثمان هاجر الوساد، وعلى ابن عمه على أول الإسلام والزهاد، وعلى آله وصحبه صلاة دائمة مستمرة بلا نفاد، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ا هـ منه .

الجليلة فى خولة بنت ثعلبة ، وكانت تحت أوس بن الصامت ، وكانت حسنة الجسم وكان به لمم فأرادها فأبت فقال لها : أنت على كظهر أمى ، ثم ندم على ما قال ، وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية فقال لها : ما أظنك إلا قد حرمت على ، فقالت : والله ما ذاك طلاق ، وأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وعائشة رضى الله تعالى عنها تغسل شق رأسه ، فقالت : يا رسول الله إن زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة غنية ذات مال وأهل ، وحتى إذا أكل مالى وأفنى شبابى وتفرق أهلى وكبرت سنى ظاهر منى ، وقد ندم فهل من شىء يجمعنى وإياه تنعشنى به ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً ، وإنه أبو ولدى وأحب الناس إلى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : حرمت عليه ، فقالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ، قد طالت صحبتى ونفضت له بطنى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أراك إلا وقد حرمت عليه، ولم أومر فى شأنك بشىء ، فجعلت تراجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا قال لها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : حرمت عليه هتفت قائلة : أشكو إلى الله فاقتى وشدة حالى ، وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلى جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وكان هذا أول ظهار فى الإسلام ، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت : انظر فى أمرى جعلنى الله فداك يا رسول الله ، فقالت عائشة: اقصرى حديثك ومجادلتك ، أما ترين وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى أخذه مثل السبات فلما قضى الوحى ، قال : ادع زوجك ، فتلا عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، الآيات ، قالت عائشة : تبارك الذى وسع سمعه الأصوات كلها ، إن المرأة لتحاور رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا فى ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى على بعضه ، إذ أنزل الله : قد سمع الله ، الآيات .

وأخرج البخارى فى تاريخه عن ثمامة قالت : بينما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يسير على حماره لقيته امرأة فقالت : قف يا عمر ، فوقف ، فأغلظت له القول ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم ، فقال : وما يمنعنى أن أستمع

إليها وهى التى سمع الله لها وأنزل فيها ما أنزل « قد سمع الله قول التى تجادلك » الآية . وأخرج سعيد بن منصور : لما نزل « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » فقال لامرأته : مريه فليعتق ، فقالت : يا رسول الله والذى أعطاك ما أعطاك ما جئت إلا رحمة له ، إن له فى منافع ، والله ما عنده رقبة ولا يملكها ، قالت : فنزل القرآن وهى عنده فى البيت ، فقال : مريه فليصم شهرين متتابعين ، فقالت : والذى أعطاك ما أعطاك ما يقدر عليه ، قال : مريه فليتصدق على ستين مسكيناً ، فقالت : يا رسول الله ما عنده ما يتصدق به ، فقال : اذهبى إلى فلان الأنصارى فإن عنده شطر وسق تمراً أخبرنى أنه يريد أن يتصدق به فليأخذ منه ثم ليصرف على ستين مسكيناً .

ولنذكر ما ذكره الفقهاء رحمهم الله تعالى من أحكام الظهار فإنها كثيرة الوقوع والناس عنها غافلون كغفلتهم عن الإيلاء وحرمة المصاهرة ، وسنذكرها مع ما يتعلق ويقرب بهذه المباحث إن شاء الله تعالى أيضاً .

فنقول : قالت الأئمة الحنفية فى كتبهم : الظهار تشبيه المسلم زوجته ولو صغيرة أو كتابية ، أو تشبيه ما يعبر به عنها من أعضائها كالرأس والرقبة ، أو تشبيه جزء شائع منها كنصفك ، بمحرم عليه تأبيداً . ولو قال أنت على كالدم والخمر والخنزير والغيبة والنميمة والزنا والربا والرشوة وقتل المسلم إن نوى طلاقا أو ظهارا يكون طلاقا ولا يكون ظهارا على ما فى الخانية ، وقيل : إن نوى الظهار يكون ظهارا كأنت على كأمى ، وظهار الزوجة منه لغو ، وقيل روى عن أبى يوسف : عليه كفارة ظهار ، وقيل : كفارة يمين ، والظهار كأنت على كظهر أمى أو أمك أو رأسك ونحوه أو نصفك ، كظهر أمى أو كبطنها أو أختى أو عمتى ويصير به مظاهرا بلا نية صريح ، فيحرم عليه وطؤها ودواعيه ، من القبلة والمس بشهوة ، لقوله تعالى : ﴿من قبل أن يتماسا ﴾ حتى يكفر فإن وطئ قبله تاب واستغفر وكفر للظهار فقط ، وقال سعيد بن جبير والزهرى : كفارتين ، وقال الحسن البصرى : ثلاث كفارات ، وللمرأة أن تطالبه بالوطء وأن تمنعه منه حتى يكفر ، وعلى القاضى إلزامه بالتكفير ولو بحبس أو يطلق ، وإن نوى بأنت كأمى برا أو ظهارا أو طلاقا صحت نيته وإلا ينوى شيئا لغا لأنه كناية ، ولا ظهار من أمته ، ولو ظاهر من نسائه كفر لكل واحدة بخلاف لو آلى منهن . وقال مالك وأحمد : يكفيه واحدة أيضاً ، ولو ظاهر من امرأته مراراً فعليه لكل ظهار كفارة ، واعلم أن الكفارة لغة من كفر الله عنه الذنب ،

أى ستره ، وشرعاً تحرير رقبة ولو كافرة قبل التماس ، أى قبل العزم على الوطء ، فإن لم يجد صام شهرين متتابعين قبل المسيس ليس فيهما رمضان والأيام المنهية ، فإن أفطر فيهما استأنف الصوم ، فإن عجز المظاهر عن الصوم لمرض لا يرجى برؤه أو كبر أطعم أى ملك ستين مسكيناً أو فقيراً ولا يجزئ غير المراهق كالفطرة قدراً وهى نصف صاع من بر أو صاع من شعير أو قيمة ذلك ، وإن غداهم وعشاهم جاز كما لو أطعم واحداً ستين يوماً فإنه جائز ، هذا ملخص ما ذكره أئمتنا الحنفية .

وفى الميزان اتفق الأئمة على أن المسلم متى قال لزوجته : أنت على كظهر أمى كان مظاهراً منها لا يحل له وطؤها حتى يقدم الكفارة ، وهى عتق رقبة إن وجدها فإن لم يجدها فصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً مسلماً ، وكذلك اتفقوا على أن المرأة إذا قالت لزوجها ذلك فلا كفارة عليها إلا فى رواية اختارها الخرقى ، وأما ما اختلفوا فيه فمن ذلك قول أبى حنيفة أنه لو قال لزوجته ، حرة كانت أو أمة ، أنت على حرام فإن نوى الطلاق بذلك كان طلاقاً ، وإن نوى الطلاق ثلاثاً كان ثلاثاً ، وإن نوى ثنتين أو واحدة فواحدة ، فإن نوى التحريم ولم ينو الطلاق ولم يكن له نية فهو يمين . وهو مول إن تركها أربعة أشهر وقعت عليه طلقة بائنة وإن نوى الظهار كان مظاهراً وإن نوى اليمين كانت يميناً ، ويرجع إلى نيته كم أراد بها واحدة أو أكثر ، سواء المدخول بها وغيرها ، مع قول مالك أن ذلك طلاق ثلاث إن كانت مدخولاً بها وواحدة إن كانت غير مدخول بها ، ومع قول الشافعى إن نوى بذلك الطلاق أو الظهار كان ما نواه ، وإن نوى اليمين لم يكن يميناً ، ولكن عليه كفارة يمين (١) ، وإن لم ينو شيئاً فالأرجح من قوليه أنه لا شىء عليه ، والثانى أن عليه كفارة يمين ، ومع قول أحمد فى أظهر روايتيه أن ذلك صريح فى الظهار نواه أو لم ينوه ، وفيه كفارة الظهار ، والثانى أنه لا طلاق ، ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد إن من حرم طعامه أو شرابه أو أمته كان حالفاً وعليه كفارة يمين بالحنث من غير أن يحرم ذلك ، ويحصل الحنث عندهما بأكل جزء منه مع قول الشافعى إن من حرم طعامه أو شرابه أو لباسه فلا كفارة عليه وليس بشىء ، وإن

---

(١) وقد ذكرنا لكم فى بعض الدروس أن كفارة اليمين عتق رقبة وإن شاء كسا عشرة مساكين كل واحد منهم ثوباً فما زاد وأدناه ما تجزئ فيه الصلاة ، وإن شاء أطعم عشرة مساكين وإن لم يقدر على أحد الثلاثة صام ثلاثة أيام متتابعات ، ا هـ منه .

حرم أمته فالراجح أنها لا تحرم ولكن عليه كفارة يمين ، ومع قول مالك أنه لا يحرم عليه شيء من ذلك على الإطلاق ولا كفارة عليه . ا هـ ما فى الميزان باقتصار .

ولنذكر لكم من أحكام الإيلاء شيئا لأن الناس فى غفلة عنه أيضاً فنقول : قال الله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾ قال أئمتنا الحنفية ، رحمهم رب البرية : الإيلاء من آلى يولى إيلاء وجمعه ألايا ، وهو لغة اليمين وشرعا الحلف على ترك قربان زوجته ولو قبل الزواج أربعة أشهر أو أكثر للحرة ، وشهران للأمة أو أكثر، وحكمه وقوع طلقة بائنة إن بر بيمينه ، ولزوم الكفارة أو الجزاء كالحج مثلا إن حنث بالقربان ، وأقل المدة للحرة أربعة أشهر كما ذكرنا، فلو حلف على أقل فعليه الكفارة فقط ، ولا إيلاء ، ولو عجز عن وطئها لسفر أو مرض أو صغر أو لحبسه ففيؤه نحو قوله بلسانه فئت إليها أو راجعتك أو أبطلت الإيلاء ، أو رجعت عما قلت فلا يقع الطلاق إذا مضت المدة ، غير أن اليمين باقية ، فلو وطأها بعد الفيء باللسان فى مدة الإيلاء لزمه كفارة ، لتحقق الحنث ا هـ .

وقال فى الميزان : اتفقت الأئمة على أنه إذا حلف بالله عز وجل على ألا يجامع زوجته مدة تزيد على أربعة أشهر كان موليا ، وإن حلف على أقل من ذلك لم يكن موليا ، وعلى أن المولى إذا فاء لزمته كفارة يمين بالله تعالى إلا فى قول قديم للشافعى ، وأما ما اختلفوا فيه فمن ذلك قول أبى حنيفة ألا يطأ زوجته أربعة أشهر إيلاء ، ويروى مثل ذلك عن أحمد مع قول مالك والشافعى فى المشهور عنه أنه ليس بإيلاء ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة أنه إذا مضت الأربعة أشهر لا يقع بمضيها طلاق، بل يوقف الأمر ليفىء أو يطلق مع قول أبى حنيفة أنه متى مضت المدة وقع الطلاق ، ومن ذلك قول مالك وأحمد أن المولى إذا امتنع من الطلاق على قول الوقف ، يطلق عليه الحاكم ، وهو الأظهر من قولى الشافعى مع قولى أحمد فى الرواية الأخرى والشافعى فى القول الآخر عنه إن الحاكم يضيق عليه حتى يطلق ، ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى فى أصح قوليه إن آلى بغير اليمين بالله تعالى كالعتاق والحج يكون مولياً سواء قصد الإضرار بها أو دفعه عنها كالمرضع والمريضة أو عن نفسه ، مع قول مالك أنه لا يكون مولياً إلا أن يحلف حال الغضب أو يقصد الإضرار بها . قيل: قال الإمام أحمد : لا يكون مولياً إذا قصد دفع الضرر عنها فإن

قصد الإضرار بها فإنه يكون مولياً ، ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى إنه لو ترك وطء زوجته للإضرار بها من غير يمين أكثر من أربعة أشهر لا يكون مولياً ، مع قول مالك وأحمد فى إحدى روايتيه إنه يكون مولياً ، ومن ذلك قول مالك إن مدة إيلاء العبد شهران حرة كانت زوجته أو أمة مع قول الشافعى إنها أربعة مطلقاً ، ومع قول أبى حنيفة إن الاعتبار فى المدة بالنساء فمن كان تحته أمة فشهران حراً كان أو عبداً ، وعن أحمد روايتان كمذهب مالك وكمذهب الشافعى ا هـ باقتصار .

وليعلم أيضاً أن مسألة حرمة المصاهرة على مذهب أئمتنا الحنفية من أعظم المسائل الدينية فيلزم التنبيه عليها بطريق الإجمال لأن كثيراً من الناس عنها غافلون ، وفى ورطتها يقعون ولا يعلمون ، قال فى الدر المختار : وأسباب التحريم أنواع : قرابة أى كفروعه وأصوله ، ومصاهرة أى كفروع نسائه ، وأصولهن . ورضاع فيحرم به ما يحرم من النسب إلا ما استثنى ، وجمع أى بين المحارم كأختين ونحوهما أو بين الأجنبيات زيادة على الأربع ، وملك كنكاح السيدة مملوكها ، وشرك أى كالمجوسية والمرتدة وإدخال أمة على حرة والتطليق ثلاثاً ، وتعلق حق الغير ا هـ .

قال محشيه العلامة ابن عابدين : قوله مصاهرة كفروع نسائه المدخول بهن وإن نزلن وأمهات الزوجات وجداتهن بعقد صحيح وإن علون وإن لم يدخل بالزوجات ، وتحرم موطوءات آبائه وأجداده وإن علوا ولو بزنا ، والمعقودات لهم عليهن بعقد صحيح وموطوءات أبنائه وأبناء أولاده وإن سفلوا ولو بزنا والمعقودات لهن عليهم بعقد صحيح ، فتح ، وكذا المقبلات أو الملموسات بشهوة لأصوله أو فروعه ، أو من قبل أو لمس أصولهن أو فروعهن ا هـ . ونقل فى الدر عن الكشاف أن النمس ونحوه كالدخول عند أبى حنيفة ، وقال فى الفتح : ولا فرق بين عمد ونسيان . فلو أيقظ زوجته أو أيقظته هى لجماعها فمست يده بنتها المشتهاة أو يدها ابنه حرمت الأم أبداً ا هـ ، وقال فى الميزان : إن من جملة المحرمات أيضاً نكاح الزانية قبل التوبة عند أحمد خلافاً للثلاثة ، قال : ومن المسائل المختلف فيها قول مالك والشافعى أن من زنا بامرأة لم يحرم عليه نكاحها ولا نكاح أمها وبنتها مع قول أبى حنيفة وأحمد يتعلق تحريم المصاهرة بالزنا ، وزاد عليه أحمد فقال : إذا لاط بغلام حرمت عليه أمه وبنته ا هـ . وليعلم أن العلامة ابن حجر قد عد فى الزواجر أن من جملة الكبائر الظهار ، لقوله تعالى : ﴿ **وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا ، وإن الله لعفو**

غفور ﴾ . وكذا الإيلاء لأن فيه مضارة للزوجة لأن صبرها عن الرجل يفنى بعد الأربعة أشهر كما قالت حفصة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها لأبيها عمر رضى الله تعالى عنه لما سألها عن مقدار صبر المرأة عن زوجها حينما سمع امرأة من نساء المجاهدين الغائبين تقول :

فــوالله لولا الله تخشى عواقبه لزحزح من هذا السرير جوانبه

فأمر عمر رضى الله تعالى عنه حينئذ ألا يغيب أحد عن زوجته أكثر من ذلك ، وكذا أيضاً أمرت الزوجة بعدم إضرار زوجها وعدم نشوزها وعدم سؤالها الطلاق ، وكان كل ذلك من الكبائر أيضاً على ما قال ، فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : أول ما تسأل المرأة يوم القيامة عن صلاتها وعن بعلها ، وقال عليه الصلاة والسلام : إذا دعا الرجل زوجته لفراشه فامتنعت باتت تلعنها الملائكة حتى تصبح ، وقال عليه الصلاة والسلام : إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وأطاعت بعلها فتدخل من أى أبواب الجنة شاءت . وأخرج الترمذى عن ثوبان رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة . وورد : أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، ولذا قسمه أئمتنا الحنفية إلى ثلاثة أقسام : الأول حسن ، والثانى أحسن ، والثالث بدعى يأثم به ، فالأحسن أى بالنسبة إلى غيره لأنه فى نفسه حسن طلقة رجعية فقط، فى طهر لا وطء فيه ، وتركها حتى تمضى عدتها ، والحسن هو أن يطلقها أى الموطوءة ثلاثاً متفرقة فى ثلاثة أطهار لا وطء فيها ، والبدعى ثلاث متفرقة أو بكلمة واحدة أو ثنتان بمرة أو مرتين فى طهر واحد لا رجعة فيه ، أو واحدة فى طهر وطئت فيه أو واحدة فى حيض مدخول بها ، وتجب رجعتها فى الحيض دفعاً للمعصية فإذا طهرت طلقها إن شاء أو أمسكها ، والخلع فى الحيض والنفاس لا يكره ا هـ .

وليعلم أنه مما ينبغى التنبيه عليه أيضاً أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، أى إذا قال زيد لزوجته المدخول بها أنت كذا ثلاثا يقع ثلاثا ، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره كما هو مذهب الأئمة الأربعة ، ولا يشترط لوقوعه تكرير أنت طالق ثلاث مرات ، كما ذهب إليه بعض أجلة الحنابلة ، ونسبه أيضاً لابن عباس وغيره وبعض الحنفية والشافعية ، لأن ذلك خلاف قول جمهور الصحابة ، وخلاف ما عليه الأئمة الأربعة ، ولا يجوز لأحد العمل به فلا يعمل بهذا القول ولا أدين الله تعالى به ،

ويد الله على الجماعة ، فإذا طلق الرجل ثلاثاً ولو بلفظ واحد فلا يحل له الرجوع إلا بعد التحليل ، والله يقول الحق وهو السبيل .

وسنذكر تكملة أبحاث الزوج والزوجة والنساء فى بعض الدروس الآتية إن شاء الله تعالى .

فعليكم عباد الله بتحصيل ما ينفعكم ، وتعلم ما ينجيكم فى آخرتكم ، والتجنب عن المحرمات ، والتورع عن المكروهات . فيا إخوانى الأيام سفن ومراحل، وما يحس بسيرها الراحل ، حتى يبلغ البلد أو الساحل ، ما هذه الغفلة والفتور ، أما المآل إلى اللحود والقبور ، أما علمتم منتهى السرور ، أما الأجداث المنازل إلى النشور ، أيها الشاب ضيعت الشباب فى جهلك ، أيها الكهل ببعض فعلك تهلك ، أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك ، أيها الغافل أما تذكر من كان قبلك ، لقد نطقت العبر فأين سامعها ، واستنارت طريق الهدى فأين تابعها ، وتجلت الحقائق فأين مطالعها ، أما المنية فقد دنت واقتربت ، فما بال النفوس قد غفلت ولعبت ، يا من إذا دعى لنفعه وتعليمه تولى وفر ، يا من على ما يضره قد استمر ، يا من أعلن المعاصى وأسر ، أما تعتبر بمن رحل عن القرناء ومر ، أما تعلم أن من حالف الذنوب استضر ، أما الموت إذا أتى حمل وكر ، كأنى بك إذا برق البصر تطلب المفر . إلى متى تؤثر الفساد على السداد ، وتسرع فى جواد الهوى إسراع الجواد ، متى يتيقظ القلب ويصحو الفؤاد ، كيف بك إذا حشرت يوم المعاد :

يسرك أن تكون رفيق قوم   لهـــم زاد وأنت بغير زاد

فيا أيها الضال عن طريق الهدى ، أما تسمع صوت الحادى قد حدا ، من لك إذا ظهر الجزاء وبدا ، وربما كان فيه أن تشقى أبدا ، أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، يامن تكتب لحظاته ، وتجمع لفظاته ، وتعلم عزماته ، وتحسب عليه حركاته ، إن راح أو غدا ، أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ويحك الرقيب حاضر ، يرعى عليك اللسان وللناظر ، وهو إلى جميع أفعالك ناظر ، إنما الدنيا مراحل إلى المقابر، وسينقضى هذا المدى . أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ما لى أراك فى الذنوب تعجل ، وإذا زجرت عنها لا تقبل ، ويحك انتبه لقبح ما تفعل ، إن الأيام فى الأجل تعمل مثل عمل المدى ، أيحسب الإنسان أن يترك سدى . كأنك ببساط العمر قد انطوى ، وبعود الصحة بعد قد ذوى ، وبسلك الإمهال قد قطع فهوى ، انتبه

لنفسك فقد أشمت والله العدا ، أيحسب الإنسان أن يترك سدى . فبادر زمنك واحذر الفوت ، واصغ للزواجر فقد رفعت لك الصوت ، واتبع الشرع وتنبه فطال ما قد سهوت ، واعلم قطعاً ويقيناً أن الموت لا يقبل الفدى ، أيحسب الإنسان أن يترك سدى . انهض إلى التقى بقريحة ، وابك الذنوب بعين قريحة ، وازعج للتهجد فى الليل أعضاءك المستريحة ، تا لله لئن لم تقبل منا هذه النصيحة لتندمن غدا ، أيحسب الإنسان أن يترك سدى . اللهم وفقنا لقول الحق واتباعه ، وخلصنا من وساوس قلبنا وابتداعه ، وكن لنا يا إلهى مؤيداً ، واجعل إيماننا محمدياً ، ثابتاً راسخاً دائماً قوياً ، ولا تجعل لفاجر علينا يدا . وارزقنا فى محبتك علماً نافعاً ، ورزقاً حلالاً واسعاً ، ولا تشمت بنا عدوا ولا حاسداً ، وارزقنا ذرية علماء عاملين، وألحقنا بأوليائك الصالحين ، واجعل عيشنا فى الدارين عيشاً رغداً ، وارحمنا وجميع المؤمنين . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين ، آمين .

تم الجزء الأول من كتاب غالية المواعظ
ويليه الجزء الثانى ، وأوله المجلس السادس والعشرون
فى الزنا واللواطة

* * *

فهرست الجزء الأول من غالية المواعظ

غالية المواعظ
ومصباح المتعظ وقبس الواعظ

تأليف

العلامة الشيخ خير الدين أبى البركات نعمان أفندى آلوسى زاده
ابن السيد الشيخ محمود أفندى الآلوسى المفتى ببغداد
مؤلف التفسير المشهور بروح المعانى

الجزء الثانى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المجلس السادس والعشرون
فى الزنا واللواطة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى أحكم الأشياء كلها صنعاً ، وتصرف كما شاء إعطاء ومنعا ، أنشأ الآدمى من قطرة فإذا هو يسعى ، وخلق له عينين ليبصر المسعى ، ووالى لديه النعم وترا وشفعا ، وضم إليه زوجه تدبر أمر البيت وترعى ، وأباحه محل الزرع وقد فهم مقصود المرعى، فتعدى قوم إلى الفاحشة الشنعا، وعدوا ستا وسبعا، فرجموا بالحجارة فلو رأيتهم صرعى ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا** ﴾ .

أحمده ما أرسل سحابا وأنبت زرعا ، وأصلى وأسلم على رسوله محمد أفضل نبى علمه الله شرعاً ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى كانت نفقته للإسلام نفعا ، وعلى عمر ضيف الإسلام بدعوة الرسول المستدعى ، وعلى عثمان الذى ارتكب منه الفجار بدعا ، وعلى علىّ الذى يحبه أهل السنة طبعاً ، وعلى بقية الصحابة والآل الذين قطع الله بهم الكفر قطعا ، وسلم تسليما .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى القرآن العظيم ، والكتاب الكريم : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قد تعددت الآيات الكريمة فى تحريم الزنا أعاذنا الله تعالى وإياكم منه ومن غيره من المعاصى بمنه وكرمه ، منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب** ﴾ الآية . . وغير ذلك ، وأما الأحاديث فى تحريمه وتقبيحه فكثيرة جداً ، وأما حكمه فى الدنيا فالرجم بالحجارة للمحصن وهو المتزوج حتى يموت ، وجلد مائة سوط لغير المتزوج ، ولا بد لإجراء الحد الشرعى من شهادة

أربعة شهود أو يقر الزانى فى أربعة مجالس عند أبى حنيفة وأحمد ، وعند الإمام الشافعى بإقراره مرة واحدة كما هو مفصل فى الكتب الفقهية . ولنذكر بعض الأحاديث الواردة فيه . فمنها ما أخرجه الشيخان وأحمد عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك ، وتلا هذه الآية : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ﴾ الآية . وورد أن فى الزبور مكتوباً أن الزناة يعلقون بفروجهم فى النار ويضربون عليها بسياط من حديد فإذا استغاث أحدهم من الضرب نادته الملائكة الزبانية : أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتفرح وتمرح ولا تراقب الله تعالى ولا تستحى ؟ نقله فى الزواجر . وقال عليه الصلاة والسلام : يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاثة فى الدنيا ، وثلاثة فى الآخرة ، أما التى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة فسخط الله وسوء الحساب وعذاب النار . وروى النسائى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان وملك كذاب وعائل - أى فقير - مستكبر . وفى حديث آخر ، هم الشيخ الزانى ، والفقير المختال ، والغنى الظلوم .

وروى أبو يعلى بسند حسن : ما ظهر فى قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله . وروى الإمام أحمد : لا تزال أمتى بخير متماسك أمرها ما لم يظهر فيهم ولد الزنا . وروى مسلم : حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله فيخونه فيهم إلا وقف يوم القيامة فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى . وفى رواية : قيل له : هذا خلفك فى أهلك فخذ من حسناته ما شئت ، أترون يدع له من حسناته شيئاً ؟ وروى الإمام أحمد : لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره. وروى الطبرانى : من قعد على فراش مغيبة - أى التى غاب عنها زوجها - قيض الله تعالى له ثعباناً يوم القيامة . وقال عليه الصلاة والسلام : من زنى بامرأة مزوجة كان عليه وعليها فى القبر نصف عذاب هذه الأمة ، فإذا كان يوم القيامة

يحكم الله زوجها فى حسناته . هذا إذا كان بغير علمه فإن علم وسكت حرم الله عليه الجنة ؛ لأن الله كتب على بابها : أنت حرام على الديوث ، وهو الذى يسكت ولا يغار .

وروى أنه من وقع على امرأة لا تحل له بشهوة جاء يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه فإن كان قد قبلها قرضت شفتاه فى النار ، فإن زنى بها قطعت فخذه وشهدت عليه ، وقالت : أنا للحرام ركبت ، فينظر إليه بعين الغضب فيقع لحم وجهه فيكابر ويقول : ما فعلت ؛ فيشهد عليه لسانه ويقول : أنا بما لا يحل لى نطقت ، وتقول يداه : أنا للحرام تناولت ، وتقول عينه : أنا للحرام نظرت ، وتقول رجله : أنا لما لا يحل لى مشيت ، ويقول فرجه : أنا فعلت ، ومصداق ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا** ﴾ قال المفسرون : أى لفروجهم ، ويقول الحافظ من الملائكة : وأنا سمعت ، ويقول الملك الآخر : وأنا كتبت ، ويقول الله تعالى : وأنا اطلعت وسترت ، ثم يقول الله عز وجل : يا ملائكتى خذوه ، ومن عذابى أذيقوه ، فقد اشتد غضبى على من قل حياؤه . وتصديق ذلك من كتاب الله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ .

وأعظم الزنا على الإطلاق الزنا بالمحارم ، فقد صحح الحاكم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من وقع على ذات محرم فاقتلوه ، وروى الطبرانى واللفظ له : تفتح أبواب السماء نصف الليل فينادى مناد : هل من داع فيستجاب له ، هل من سائل فيعطى ، هل من مكروب فيفرج عنه ، فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله عز وجل له ، إلا زانية تسعى بفرجها أو عشار (١) .

وروى الشيخان عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن . وروى الحاكم : من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه . وفى رواية : فإذا تاب رد عليه، وعن أبى أمامة من بعض حديثه الطويل قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : بينا أنا نائم أتانى رجلان فأخذا بضبعى فأتيا بى جبلاً فإذا

---

(١) قوله : عشار ، هو قابض عشر الأموال ، وذلك هو المتعدى حق الشرع يأخذ زيادة ، وأما من يأخذ من الناس حق الإمام على وجه الحق فلا يدخل فى هذا الوعيد ، ا هـ منه .

أنا بأصوات شديدة فقلت : ما هذه الأصوات ؟ فقالوا : هذا عواء أهل النار ، فانطلقوا بى فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل دماً . قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل أن يحل فطرهم من صومهم ، ثم انطلقا بى فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخاً وأنتنه ريحاً ، وأسوؤه منظراً ، فقلت : من هؤلاء ؟ قال: قتلى الكفار ، ثم انطلقا بى فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخاً وأنتنه ريحاً كأن ريحهم المراحيض ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزانون والزوانى ، ثم انطلقا بى فإذا أنا بنساء ينهشن ثديهن الحيات ، قلت : ما بال هؤلاء ؟ قال : يمنعن أولادهن ألبانهن ، ثم انطلقا بى وإذا أنا بغلمان يلعبون بين نهرين ، قلت : من هؤلاء ؟ قيل : هؤلاء ذرارى المؤمنين .

وعن على كرم الله تعالى وجهه أن الناس يرسل عليهم يوم القيامة ريح منتنة حتى يتأذى منها كل بر وفاجر ، حتى إذا بلغت منهم كل مبلغ ناداهم مناد يسمعهم الصوت ويقول لهم : هل تدرون هذه الريح التى آذتكم ؟ فيقولون : لا ندرى ، فيقال : ألا إنها ريح فروج الزناة الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه ، ثم ينصرف بهم .

واعلم أنه قد جاء فى حفظ الفرج أحاديث عظيمة ، منها ما رواه البيهقى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : يا شباب قريش ، احفظوا فروجكم ، لا تزنوا، ألا من حفظ فرجه فله الجنة . وروى البخارى : من يضمن لى ما بين لحييه - أى لسانه - وما بين رجليه ، أى فرجه ، ضمنت له الجنة . وروى أحمد : اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة : أصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم. وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

وقد تبين لكم أن الزنا من الكبائر ، وهو بعد الشرك بالله تعالى ، وقال كثير من

العلماء إن الذى يلى الشرك هو القتل ثم الزنا ، واختلف العلماء فى الزنا واللواطة أيهما أعظم ، فقال جمع أن اللواطة أعظم للتشديد الآتى ذكره ، وقال فى الإحياء : الزنا أكبر من اللواطة ؛ لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ، ويعظم الضرر لكثرته ، أى ولأنه يترتب عليه اختلاط الأنساب . قال ابن حجر [الهيتمى] فى الزواجر: اختلف أهل العلم فى حد اللوطى ، فذهب قوم إلى أن حد الفاعل حد الزنا إن كان محصنا يرجم وإن لم يكن محصنا يجلد مائة ، وهو قول ابن المسيب وعطاء والحسن والنخعى ، وبه قال الثورى والأوزاعى ، وهو أظهر قولى الشافعى. وحكى أيضاً عن أبى يوسف ومحمد بن الحسن . وعلى المفعول به عند الشافعى على هذا القول جلد مائة وتغريب عام رجلاً كان أو امرأة محصنا أو غير محصن . وذهب قوم إلى أن اللوطى يرجم ولو غير محصن ، رواه سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس ، وبه قال الزهرى والشعبى ، وهو قول مالك وأحمد وإسحق ، وروى عن حماد بن إبراهيم ، والقول الآخر للشافعى أنه يقتل الفاعل والمفعول به كما جاء فى الحديث . وقال الحافظ المنذرى : حرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء أبو بكر وعلى وعبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهم ، وهشام بن عبد الملك .

وروى ابن أبى الدنيا أن خالد بن الوليد كتب إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه وجد رجلاً فى بعض ضواحى العرب يُنكح كما تُنكح المرأة ، فجمع لذلك أبو بكر رضى الله تعالى عنه أصحاب رسول الله وفيهم على كرم الله تعالى وجهه فقال: إن هذا ذنب لم يعمل به إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم أرى أن تحرقوه بالنار . فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن يحرقوه بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار فأحرقه خالد ا هـ . وفى الميزان أن حد اللواط عند مالك والشافعى فى أحد قوليه وأحمد فى أظهر روايتيه الرجم بكل حال ثيباً كان أو بكراً . وعن الشافعى فى أرجح قوليه وأحمد فى إحدى روايتيه أن حده كحد الزنا ، وأما عند أبى حنيفة فإنه يعزر فى أول مرة فإن تكرر منه قتل . وجوز بعض الحنفية أن يعزر بإلقائه من شاهق وإن أدى إلى موته . وليعلم أن مما اختلفوا فى حده أيضاً إتيان البهيمة ، قال أبو حنيفة ومالك والشافعى فى الراجح من أقواله إنه يعزر ، وهى الرواية التى اختارها الخرقى من أقوال أحمد . وعن مالك فى الرواية الأخرى عنه والشافعى فى أحد أقواله إنه يحد ، ويختلف بالبكارة والثيوبة ،

والقول الثالث للشافعى أنه يقتل بكرا كان أو ثيباً . وأما البهيمة فقال أبو حنيفة (١) إن كانت مما تؤكل ذبحت وإلا فلا ، وهو الراجح عند أصحاب الشافعى من عدة أوجه ، مع قول مالك : إنها لا تذبح بحال ، ومع قول أحمد : إنها تذبح سواء كانت له أو لغيره ، وسواء كانت مما يؤكل لحمها أم لا يؤكل ، وعلى الواطئ قيمتها لصاحبها .

وأما الاستمناء بالكف فهو حرام وليس فيه حد ، وعن بعض العلماء أنه يباح إذا خيف الزنا ، وقد ذكر بعض الأطباء أنه أيضاً يورث الخوف فى الإنسان وأمراضاً عظيمة فى بدنه ، وأما المتعة فإنها حرام لأنها منسوخة وليس على فاعلها حد شرعى، لكن إثمها قريب من الزنا لقوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ وهذه ليست بزوجة ولا ملك يمين ؛ لأنها لو كانت زوجة لورثت مع أن الإمامية لا يقولون بوراثتها أيضاً ، فهى حرام بإجماع الأئمة الأربعة عليهم الرحمة والرضوان .

ولنذكر من الآيات والأحاديث المتعلقة باللواطة ونحوها مما تقدم ذكره وما يلتحق به إن شاء الله تعالى ، فقد قال فى الزواجر : أخرج ابن ماجه والترمذى والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط. والحاكم: ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ، ولا ظهرت الفاحشة فى قوم إلا فشا فيهم الطاعون، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القطر . وروى الطبرانى : إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو ، وإذا كثر الزنا كثر السبى ، وإذا كثر اللواط رفع الله عز وجل يده عن الخلق فلا يبالى فى أى واد هلكوا . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لعن الله سبعة من خلقه من فوق سبع سموات، ورد اللعنة على واحد منهم ثلاثاً، ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه، قال: ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من أتى شيئاً من البهائم، ملعون من عق والديه ،

---

(١) قوله : فقال أبو حنيفة إلخ ، والذى يخطر بالبال فى كتب أئمتنا الحنفية أنه لو أتى بهيمة تذبح وتحرق حتى لا يبقى العار فليراجع ا هـ منه .

ملعون من جمع بين امرأة وأختها ، ملعون من غيَّر حدود الله ، ملعون من ادعى إلى غير مواليه .

وروى ابن حبان فى صحيحه والبيهقى : لعن الله من غيَّر تخوم الأرض [1] ، ولعن الله من كمَّه أعمى عن السبيل ، ولعن الله من سب والديه ، ولعن الله من تولى غير مواليه ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، قالها ثلاثاً فيمن عمِل عمَل قوم لوط . وروى الطبرانى والبيهقى : أربعة يصبحون فى غضب الله تعالى ويمسون فى سخط الله ، قلت : من هم يا رسول الله ؟ قال : المتشبهون من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال ، والذى يأتى البهيمة ، والذى يأتى الرجال. وروى ابن ماجه : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به . وقال ابن عباس : إن اللوطى إذا مات من غير توبة مسخ فى قبره خنزيراً . وفى رواية أنس أنه يحشر مع قوم لوط . وروى الطبرانى : ثلاثة لا يقبل لهم شهادة أن لا إله إلا الله : الراكب والمركوب والراكبة والمركوبة ، والإمام الجائر. وروى ابن ماجه : من أتى حائضا أو امرأة فى دبرها أو كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما الآيات فمنها قوله تعالى فى حق قوم لوط ﴿ أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ونجيناه ﴾ أى لوطا ﴿ من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ قال العلماء : فأعظم خبائثهم إتيان الذكور بحضرة بعضهم ، ومنها أنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم ، ويمشون ويجلسون كاشفى عوراتهم ، وكانوا يتحنون ويتزينون كالنساء ، وذكر عن ابن عباس : من خبائثهم عشر ، تصفيف الشعر ، ورمى البندق ، والخذف بالحصا، واللعب بالحمام الطيارة . وقد ورد : من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر، والصفير بالأصابع ، وفرقعة العلك ، وإسبال الإزار ، وإدمان شرب الخمر ، وإتيان الذكور، وستزيد عليها هذه الأمة مساحقة النساء . وروى أيضاً : من أعمالهم اللعب بالنرد والمهارشة بين الكلاب ، والمناطحة بالكباش ، والمناقرة بالديوك ، ودخول الحمام بلا مئزر ، ونقص المكيال والميزان .

ولنذكر لكم قصة إهلاك قوم لوط عليه السلام ؛ لتزدادوا عبرة واتعاظا ، فنقول :

---

(١) قوله : تخوم الأرض هى الحدود التى بينك وبين جارك ا هـ منه .

قال فى التبصرة قوله تعالى : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعاً** ﴾ لوط عليه السلام ابن هاران بن تارخ فهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان قد آمن به وهاجر معه إلى الشام بعد نجاته من النار ، فنزل إبراهيم فلسطين(١) ونزل لوط الأردن (٢) ، فأرسل الله تعالى لوطا إلى أهل سدوم (٣) وكانوا مع كفرهم بالله عز وجل يرتكبون الفاحشة ، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى ونهاهم عن الفاحشة فلم يزدهم ذلك إلا عتوا ، فدعا الله تعالى أن ينصره عليهم ، فبعث الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل فأقبلوا مشاة فى صورة رجال شبان فنزلوا على إبراهيم عليه السلام فقام يخدمهم وقدم إليهم الطعام فلم يأكلوا ، فقالوا : لا نأكل طعاماً إلا بثمنه ، قال : فإن له ثمناً . قالوا : ما هو ؟ قال : تذكرون اسم الله عز وجل على أوله وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال : حق لهذا أن يتخذه الله خليلاً ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم** ﴾ أى خاف أن يكونوا لصوصاً فقالوا : ﴿ **لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾ فضحكت سارة تعجباً وقالت: نخدمهم بأنفسنا ولا يأكلون طعامنا ، فقال جبريل : أيتها الضاحكة ، أبشرى بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وكانت بنت تسعين سنة ، وإبراهيم بن مائة وعشرين سنة، فلما سكن روع إبراهيم وعلم أنهم ملائكة أخذ يناظرهم ، وقال: أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أربعون ؟ قالوا : لا . قال : أربعة عشر ؟ قالوا : لا ، وكان يعدهم أربعة عشر مع امرأة لوط ﴿ **قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها** ﴾ فسكن واطمأنت نفسه ، ثم خرجوا من عنده فجاءوا إلى لوط وهو فى أرض له يعمل فيها ، فقالوا : إنا متضيفوك الليلة ، فانطلق بهم والتفت إليهم فى بعض الطريق ، فقال : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ، والله ما أعلم على ظهر الأرض أخبث منهم ، فلما دخلوا منزله انطلقت امرأته فأخبرت بهم قومها ، قوله تعالى : ﴿ **سىء بهم** ﴾ أى أساءه مجىء الرسل لأنه لم يعرفهم فخاف عليهم من قومه ﴿ **وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب** ﴾ أى شديد ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل** ﴾ مجىء الأضياف ﴿ **كانوا يعملون السيآت قال** ﴾

---

(١) قوله فلسطين هى كورة بالشام وبلد بالعراق كما فى القاموس ا هـ منه .

(٢) قوله الأردن هى كورة بالشام ا هـ منه .

(٣) قوله سدوم فى القاموس ، سدوم اسم لقرية قوم لوط فأغلط فيه الجوهرى والصواب بالذال المعجمة سذوم ا هـ منه .

لوط ﴿ **يا قوم هؤلا بناتى** ﴾ يعنى النساء ، ولكونهن من أمته صار كالأب لهن ﴿ **هن أطهر لكم** ﴾ أى أحل ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ أى احذروا عقوبته ﴿ **ولا تخزون فى ضيفى** ﴾ أى لا تفعلوا بهم فعلا يوجب حيائى ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ فيأمر بمعروف وينهى عن منكر ﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق** ﴾ أى من حاجة ﴿ **وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ أى ما نريد إلا الرجال لا النساء ﴿ **قال لو أن لى بكم قوة** ﴾ أى جماعة أقوى بها عليكم ﴿ **أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ أى إلى عشيرة منيعة ، وإنما قال هذا لأنه كان أغلق بابه وهم يعالجون الباب ويرومون تسور الجدار ، فلما رأت الملائكة ما يلقى من الكرب ﴿ **قالوا يا لوط إنا رسل ربك** ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا واستأذن جبريل ربه فى عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم فانصرفوا يقولون : النجاة النجاة ، فإن فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض ، وجعلوا يقولون : كما أنت حتى تصبح ، يوعدونه ، فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم قالوا : الصبح قال : لو أهلكتموهم الآن فقالوا : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ ثم قالت الملائكة له ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ فخرج بامرأته وابنتيه وغنمه وبقره ﴿ **بقطع من الليل** ﴾ أى ببقية تبقى من آخره ، وأوحى الله عز وجل إلى جبريل. تول هلاكهم ، فلما طلع الصبح عدا عليهم جبريل واحتمل بلادهم على جناحه ، وكانت خمس قرى أعظمها سذوم ، فى كل قرية مائة ألف ، فلم ينكسر فى وقت رفعهم إناء ، ثم صعد بها حتى خرج الطير فى الهواء أين يذهب ، وسمعت الملائكة نباح كلابهم ، ثم كفأها عليهم ، وسمعوا وجبة شديدة ، فالتفتت امرأة لوط فرماها جبريل بحجر فقتلها ، ثم صعد حتى أشرف على الأرض فجعل يتبع مسافرهم ورعاتهم ومن تحول عن القرية فرماهم بالحجارة حتى قتلهم ، وكانت الحجارة من سجيل . قال أبو عبيد هو الشديد الصلب من الحجارة ﴿ **مسومة** ﴾ أي معلمة ، قال ابن عباس : كان الحجر أسود وفيه نقطة بيضاء ، وقال الربيع : كان على كل حجر منها اسم صاحبه ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ تخويفاً للمخالفين .

خاتمة مهمة : قال فى الزواجر : فى هذه الأمة قوم يقال لهم اللوطية ، وهى ثلاثة أصناف ، صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل الخبيث ، ولذا قال بعضهم : النظر إلى المرأة والأمرد زنا ؛ لما صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : زنا العين النظر وزنا اللسان النطق ، وزنا اليد

البطش ، أى اللمس ، وزنا الرِّجل الخطا والنفس تتمنى وتشتهى . وروى أن وفد عبد القيس لما قدموا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان فيهم أمرد حسن فأجلسه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خلف ظهره وقال : إنما كانت فتنة داود عليه السلام من النظر ، وكان يقال : النظر بريد الزنا ، وفى الحديث الذى رواه المنذرى: يقول الرب جل جلاله : النظرة سهم من سهام إبليس من تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه . ولقد أحسن من قال :

كل الحوادث مبداها من النظـــر ومعظم النار من مستصـغر الشرر

والمـــرء مـا دام ذا عين يقلبهـــا فى أعين العين موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهـــام بلا قوس ولا وتر

يســـر ناظـــره ما ضـــر خاطره لا مرحبـــاً بســـرور عاد بالضرر

ولأجل ذلك بالغ الصالحون فى الإعراض عن المرد والنظر إليهم ومجالستهم ، قال الحسن بن ذكوان : لا تجالسوا أولاد الأغنياء ، فإن لهم صوراً كصور العذارى، وهم أشد فتنة من النساء ؛ ولذا حرم كثير من العلماء الخلوة بالأمرد كالنساء ، بل الفتنة به أعظم ؛ لأنه يمكن فى حقه من الشر ما لا يمكن فى حق النساء ، فهو بالتحريم أولى .

أقول : ولذا روى عن الإمام مالك وكذا الإمام أحمد أن لمسه بشهوة ناقض كالمرأة، وسواء فى كل ما ذكر النظر من الصالح والطالح ، ومن خالف هذا فقد زين له الشيطان عمله . قال ابن حجر : دخل سفيان الثورى ، وناهيك به علماً وزهداً ، إلى الحمام فدخل عليه صبى حَسن الوجه ، فقال : أخرجوه عنى ، فإنى أرى مع كل امرأة شيطاناً ومع كل صبى بضعة عشر شيطاناً . وجاء رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ومعه صبى حسن الوجه فقال له الإمام : من هذا منك ؟ قال : ابن أخى ، قال : لا تجئ به إلينا مرة أخرى ، ولا تمش معه فى الطريق ؛ لئلا يظن بك من لا يعرفك ولا تعرفه سوءاً . وقد نبه القرآن العظيم على أن النظر سبب للفعل الوخيم المستوجب للعذاب الأليم ، فى قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ قال ناصر السنة ابن الجوزى فى تبصرته : وقد كان بعض السلف رحمة

الله عليهم يبالغون فى الاحتراز من النظر حذرا من فتنته وخوفاً من عقوبته ، فأما فتنته فكم من عابد خرج من صومعته بعد تعبده بسبب نظرة ، وأما عقوبته فقد روى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتشلشل دماً ، فقال له : ما لك ؟ قال : مرت بى امرأة فنظرت إليها فلم أزل أتبعها بصرى فاستقبلنى جدار فضربنى فصنع بى ما ترى ، فقال : إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً عجل له عقوبته فى الدنيا ، وعن أبى الأديان قال : كنت مع أستاذى أبى بكر الدقاق فمر حدث فنظرت إليه فرآنى أستاذى وأنا أنظر إليه فقال : يا بنى ، لتجدن غبها ولو بعد حين ، فبقيت عشرين سنة وأنا أراعى ذلك الغب ، فنمت ليلة وأنا أتفكر فيه فأصبحت وقد نسيت القرآن كله ، وعن أبى عبد الله الزراد أنه رؤى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى كل ذنب أقررت به إلا واحداً استحييت أن أقر به فواقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى . قيل : ما الذنب ؟ قال : نظرت إلى شخص جميل . وقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت فى سبيل الله ، وعين يخرج منها مثل الذباب، يعنى الدموع ، من خشية الله (١) .

فيا إخوانى ، تذكروا مصير الصور ، وتفكروا فى نزول الحفر ، واعلموا أن المصير إلى القبور ، وإن الله سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، إن الدنيا سموم قاتلة ، والنفوس عن مكايدها غافلة ، فكم نظرة تحلو فى العاجلة ، ومرارتها لا تطاق فى الآجلة ، فإلى متى عينك مطلقة فى الحرام ، وقلبك لا يخشى الملك العلام ، فيا عجبا للمشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطارهم ، لو تفكروا فى حال صفائهم فى أكدارهم ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ الدنيا دار الآفات والمحن ، كم غرت غرا وما فطن ، أرته ظاهرها والظاهر حسن ، فلما فتح عين

---

(١) تنبيه فيه فائدتان يكثر وقوعهما والناس عنهما غافلون ، الأولى أن نظر الكافرات إلى عورات المسلمات حرام كالرجال عند إمامنا الأعظم، وكذا رؤية النساء وتلذذهن برؤية الرجال، الثانية قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلى : يحرم خلوة النساء بالخصيان والمجبوبين إذ غاية ما تجد فيهم عدم العضو أو ضعفه ولا يمنع ذلك لإمكان الاستمتاع بجسهم ولمسهم واعتناقهم والخصى يقرع قرع الفحل والمجبوب يساحق. انتهى ، وسنذكر بعض هذا فى الدرس الآتى إن شاء الله تعالى فلا تغفل ا هـ منه .

الفكر من رقاد الوسن ، قال رب ارجعون ولن ، ويح المقتولين بسيف اغترارهم ، والشرع ينهاهم عن أوزارهم ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ .

أين أرباب الهوى والشهوات ، ذهبت والله اللذات دون التبعات ، وندموا إذ قدموا على ما فات ، وتمنوا العَوْد بعد يبس العود وهيهات ، فتلمح فى الآثار سوء أذكارهم ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ نازلهم الموت على الذنوب ، وأسروا فى قيود الجهل والعيوب ، فرحلت لذات خلت من الأفواه والقلوب ، وحزنوا على الفائت ولا حزن يعقوب ، حين أخرجوا من ديارهم فى تباب إدبارهم وعصا التوبيخ فى أدبارهم ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ .

اللهم وفقنا للهدى ، واعصمنا من أسباب الجهل والردى ، وسلمنا من آفات النفوس فإنها شر العدا ، واجعلنا من المنتفعين بوعظ خيارهم ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ .

اللهم اجعل أبصارنا مصروفة إلى طاعتك ، وجوارحنا مشغولة بعبادتك ، وأذهب ظلمة قلوبنا بنور مغفرتك ، اللهم إنا إن عصيناك بجوارحنا فقلوبنا بتوحيدك طائعة ، وأفئدتنا عند الشدائد إليك راجعة ، فندعوك اللهم اضطراراً بذل العبودية ، ووثوقاً بكرم الربوبية ، متبرئين من حولنا وقوتنا ، راجعين إلى حولك وقوتك ، أن تغفر ذنوبنا وتحسن فى الدارين عواقبنا ، وترحمنا ووالدينا ، والمسلمين ، وتصلى وتسلم على محمد وإخوانه النبيين والمرسلين وعبادك الصالحين ، وآله أجمعين .

* * *

المجلس السابع والعشرون
فى التزوج وما يتعلق بأحكام النساء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى لا مثل له يوجد ، ولا إله سواه يعبد ، ولا كريم غيره يقصد ، قدرته تجمع ما انتشر وتبدد ، ومشيئته تظهر ما تكون وتجدد ، وإرادته نافذة بمن ألحد ووحد ، وحلمه يسع من عتى وتمرد ، ولا يعزب عن سمعه صوت الحمام إذا غرد ، ولا أنين المذنب إذا قام يتهجد ، ولا يغيب عن نظره سواد النمل فى الليل الأسود ، ذاب لهيبته الصخر والجلمد ، وأحاط علمه بحال الفكر كلما جال وتردد ، وتنزه

عن الشريك وتعالى عن المعين والصاحبة والولد ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ﴾ .

أحمده وهو أحق من يحمد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقبل وتصعد ، وأشهد أن سيدنا وسندنا وذخرنا وملاذنا محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، المزمل المدثر الحامد الأحمد . وأصلى وأسلم عليه وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه لا سيما على أبى بكر الصديق أول من أنفق وأسعد ، وعلى عمر بن الخطاب المحدَّث (١) الموفق الأرشد ، وعلى عثمان بن عفان الكريم الأمجد، وعلى علىّ بن أبى طالب بحر العلم الزاخر الذى لا ينفد ، صلاة وسلاماً دائمين باقيين ما غنى حمام على غصن وغرد .

أما بعد : فقد روى الإمام مسلم والإمام البخارى ، عليهما رحمة الملك البارى ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء (٢) .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : قد تقدم أن الزنا ودواعيه من الكبائر ، وأن صاحبه ممقوت فى الدنيا وهالك فى اليوم الآخر ، ومن أعظم أسبابه الداعية لذلك من المرأة والرجل عدم الزواج ، إذ بالعزوبة يكون له زواج ، فلذلك ولأجل بقاء نوع بنى آدم إلى ما شاء تعالى أمر الله تعالى فى كتابه الكريم بالنكاح ، وحض عليه رسوله الرءوف الرحيم وأباح لنا منه ما أباح ، فلنبين لكم فى هذا الدرس إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك ؛ لتسلكوا منه أحسن المسالك ، فاسمعوا وعوا ، واقبلوا ما روته العلماء واتبعوا ، قال الشعرانى فى الميزان : أجمع الأمة على أن النكاح من العقود الشرعية المسنونة بأصل الشرع ، واتفق الأئمة على استحبابه لمن تاقت نفسه إليه وخاف الزنا ، ويكون فى حقه أفضل له من الحج والجهاد والصلاة والصوم التطوع، واتفقوا على أنه إذا قصد نكاح امرأة سن له نظره إلى وجهها وكفيها خلافاً لداود فإنه قال : يجوز النظر إلى سائر جسدها خلا السوأتين ، وأما ما اختلفوا فيه فمن ذلك

---

(١) قوله محدث كمحمد الصادق ، قاله فى القاموس . ا هـ منه .

(٢) قوله فى القاموس : وجئ دق عروق خصيبه بين حجرين ، ولم يخرجهما ، والمراد من الحديث أن الصوم بمنزلة الخصاء له ا هـ منه .

قول مالك والشافعى أن النكاح مستحب لمحتاج إليه يجد أهبته ، مع قول أحمد أنه متى تاقت نفسه إليه وخشى العنت وجب ، ومع قول أبى حنيفة إنه يستحب مطلقاً بكل حال ، ومع قول داود الظاهرى بوجوبه مطلقاً على الرجل والمرأة لكن مرة فى العمر .

قلت : لكن فى الدر المختار للحصكفى الحنفى : والنكاح يكون واجباً عند التوقان فإن تيقن الزنا إلا به فرض أو تسرى جارية ، وهذا إن ملك المهر والنفقة ، وسنة حال الاعتدال أى القدرة على وطء ومهر ونفقة ، ومكروهاً لخوف الجور ، فإن تيقنه حرم ذلك ، وينبغى النظر إليها قبله ، ومن ذلك قول الشافعى وأحمد أنه لا يصح العقد إلا بولى ذكر ، فإن عقدت المرأة النكاح فهو باطل ، مع قول أبى حنيفة إن للمرأة أن تتزوج بنفسها وأن توكل فى نكاحها إذا كانت من أهل التصرف فى مالها ، ولا اعتراض عليها إلا أن تضع نفسها فى غير كفء فهناك يعترض الولى عليها، ومع قول مالك : إن كانت ذات شرف ومال يرغب فى مثلها لم يصح نكاحها إلا بولى ، وإن كانت بخلاف ذلك جاز أن يتولى نكاحها أجنبى برضاها ، ومع قول داود : إن كانت بكراً لم يصح نكاحها بغير ولى ، وإن كانت ثيباً صح ، ومن ذلك قول الشافعى : إن للجد والأب تزويج البكر بغير رضاها صغيرة كانت أو كبيرة ، وبذلك قال مالك فى الجد ، وهو أشهر الروايتين عن أحمد فى الجد ، مع قول أبى حنيفة إن تزويج البكر البالغة العاقلة بغير رضاها لا يصح لأحد ، ومع قول مالك وأحمد فى إحدى الروايتين أنه لا يثبت للجد ولاية الإجبار بخلاف الأب ، ومن ذلك قول الثلاثة أنه لا يجوز لغير الأب تزويج الصغيرة حتى تبلغ وتأذن ، مع قول أبى حنيفة إن ذلك يجوز لسائر العصبات غير أنها يثبت لها الخيار إذا بلغت . ومن ذلك قول الشافعى وأحمد أنه لا يثبت النكاح إلا بشاهدين عدلين ذكرين ، مع قول أبى حنيفة أنه ينعقد برجل وامرأتين وبشهادة فاسقين ، ومن ذلك قول الثلاثة أنه يجوز للمسلم أن يتزوج كتابية من وليها الكتابى خلافا لأحمد ، ومن ذلك إذا تزوجها لأجل أن تحل للأول فعند أبى حنيفة النكاح صحيح ، وعن مالك وأحمد أنه لا يصح ، وعن الشافعى أنه مكروه ، والبحث فى ذلك طويل ، ومن ذلك قول أبى حنيفة : إنه لا يفسخ النكاح بشىء من العيوب ، وإنما للمرأة الخيار فى الجب والعنة

فقط ، مع قول مالك والشافعى أنه يثبت فى ذلك كله الخيار إلا فى الفتق ، ومع قول أحمد بثبوته فى الكل .

والعيوب تسعة : وهى الجنون ، والجذام ، والبرص ، والجب ، والعنة ، والقرن، وهو عظم فى الفرج ، والرتق ، وهو انسداده ، والفتق ، وهو انخراقه ، والعفل وهو لحم يكون فى الفرج . ومن ذلك أن أقل الصداق عند أبى حنيفة ما تقطع به يد السارق وهو عشرة دراهم أو دينار ، وعند مالك ثلاثة دراهم ، وقال الشافعى وأحمد لا حد لأقله .

ومن ذلك قول الشافعى : إن العزل (١) عن الحرة ولو بغير إذنها جائز مع الكراهة ، مع قول الثلاثة أنه لا يجوز إلا بإذنها . انتهى باقتصار .

ولنذكر لكم الأحاديث والآثار : قال فى كشف الغمة : كان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إذا أفاد أحدكم امرأة أو خادماً أو دابة فليأخذ بناصيتها وليقل : اللهم إنى أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه ، وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من أراد أن يلقى الله عز وجل طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر ، رواه فى الترغيب . وروى أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص : الدنيا متاع وخير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة ، مسكين مسكين رجل لا امرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها . وعن ابن عباس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة ، قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغيه حوبا (٢) فى نفسها وماله . وعن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه رضى الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ثلاثة من السعادة ، المرأة تراها تعجبك وتغيب تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون طيبة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق . وثلاثة من الشقاوة المرأة تراها تسوءك وتحمل لسانها عليك . وإن غبت لم تأمنها ، والدابة تكون قطوفاً فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق ، رواه الحاكم .

---

(١) قوله : العزل هو أن يخرج ذكره عند إرادة الإنزال ا هـ منه .

(٢) الحوب : الإثم وله معان أخر ، ا هـ منه .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله تعالى فى الشطر الآخر ، رواه الطبرانى . وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله تعالى إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله تعالى إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسنها لم يزده الله تعالى إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يردها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه ويصل رحمه بارك الله تعالى له فيها وبارك لها فيه . وقال : تزوجوا الولود فإنى مكاثر بكم الأمم ، وقال: إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا ، وألطفهم بأهله . وقال : لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهى لا تستغنى عنه ، ولذلك ورد أيضاً فى حديث آخر : لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها . وفى حديث آخر : إذا دعا رجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات وهو عليها غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح ، وفى حديث آخر : إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك فى السماء وكل ملك فى الأرض . وقد أمر الرجال أيضاً بالإحسان إليهن ومداراتهن ، فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ، رواه أبو داود . وروى الشيخان : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته ، وروى مسلم والترمذى : أفضل دينار أنفقه الرجل دينار على عياله ، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله تعالى ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله . وروى الطبرانى : من أنفق على نفسه نفقة يستعف بها فهى صدقة ، ومن أنفق على امرأته وولده وأهل بيته فهى صدقة ، وروى أيضاً : أول ما يوضع فى ميزان العبد نفقته على أهله . وفى حديث آخر : ما من مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن إلا كن له حجابا من النار . وفى رواية : فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة . وأخرج الطبرانى : ما من ذى محرم يأتى ذو رحمة إليه فيسأله فضلاً أعطاه الله تعالى إياه فيبخل عليه إلا أخرج الله تعالى من

جهنم حية يقال لها شجاع تتلمظ فتطوق به . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : استوصوا بالنساء [1] فإن المرأة خلقت من ضلع ، أى خلقت حواء من ضلع آدم اليسرى ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج . وفى رواية فدارها تعش بها ؛ رلذلك أمر الرجال بالعدل بين النساء ، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط . حتى عد ذلك ابن حجر من الكبائر ، وعد منها أيضاً إفشاء أحدهما سر صاحبه ، فقد أخرج مسلم وأبو داود عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه . وروى أبو داود : ألا عسى أحدكم أن يخلو بأهله يغلق بابا ثم يرخى ستراً ثم يقضى حاجته ، ثم إذا خرج حدث أصحابه بذلك ، ألا عسى إحداكن أن تغلق بابها وترخى سترها فإذا قضت حاجتها حدثت صواحبها ، فقالت امرأة : يا رسول الله ، إنهن ليفعلن ، وإنهم ليفعلون ، قال : فلا يفعلوا ؛ فإن ذلك مثل شيطان لقى شيطانة على قارعة الطريق فقضى حاجته ثم انصرف وتركها .

وكذلك من الكبائر أن يجامع الرجل حليلته بحضرة امرأة أجنبية أو رجل ، وكذا من الكبائر لبس المرأة ثوباً رقيقاً يصف بشرتها وميلها وإمالتها ، فقد أخرج مسلم وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا . والمراد كاسيات صورة عاريات معنى ، بأن يلبسن ثوباً رقيقاً، روى ابن حبان : يكون فى آخر أمتى رجال يركبون علي سرج كأشباه الرجال، ينزلون علي أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيأت عاريات على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف ، العنوهن فإنهن ملعونات . وعن عائشة رضى الله تعالي عنها أن أختها أسماء دخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعليها ثياب

---

(١) وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ا هـ منه .

رقاق فأعرض عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت زمن الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا ، وأشار إلى وجهها وكفيها .

ومن الكبائر أيضاً ما تستعمله من الرقى [1] وتعليق التمائم والخرز ، فقد روى عن عقبة قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا ودع الله له ، وعن أبى مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرقى والتمائم والتولة شرك ، والتولة شىء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن ، فاعتقاد ذلك حرام ؛ لأنه من السحر ، ويعتقدون أنها تجلب نفعاً أو تدفع ضررا ، لكن تعليق الآيات القرآنية جائز، وكذلك جعلها رقية لمريض أو لديغ لأنها شفاء ورحمة بخلاف الألفاظ التى لا يعرف معناها من غير اللغة العربية ، فإنه لا تجوز قراءته ولا التعوذ به كما هو مفصل فى الكتب الشرعية .

ومن الكبائر أيضاً الوشم وإيصال الشعر ، ونحو ذلك . فقد روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما أنها قالت : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله إن لى ابنة عروساً وأنه أصابها حصب فتمزق شعرها وسقط ، أفأصله ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة ، والمتفلجة للحسن المغيرة خلق الله . قال العلماء: والنامصة ناتفة الشعر من الوجه، والواشرة التى تنشر الأسنان. حتى تكون محدودة رقيقة

---

(١) وليعلم أن الرقى بالآيات القرآنية والآيات الشرعية واردة فى الأحاديث النبوية ، ومنها على ما فى زاد المعاد ما هو لعسر الولادة ، قال عبد الله ابن الإمام أحمد : رأيت أبى يكتب للمرأة إذا تعسر عليها ولادتها فى جام أبيض أو شىء نظيف ، حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنه ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها . ويروى أنه كان يكتبه أيضاً بزعفران ، وعن ابن عباس قال : مر عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام على بقرة قد اعترض ولدها فى بطنها فقالت : يا كلمة الله ادع لى أن يخلصنى الله مما أنا فيه ، فقال : يا خالق النفس من النفس ، ويا مخلص النفس من النفس ، ويا مخرج النفس من النفس ، خلصها . قال : فرمت بولدها فإذا هى قائمة تشمه . قال : فإذا عسر على المرأة ولدها فاكتبه لها ا هـ ، وقد ذكرنا رواية أخرى فى هذا الكتاب فتذكر ا هـ منه .

تفعله المرأة الكبيرة تشبيهاً بالحديثة السن ، والواشمة التى تغرز اليد أو نحوها بإبرة ، ثم تحشى بالكحل أو بدخان الشحم حتى يخضر ، لكن لا بأس بالخضاب ، فقد كانت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول للنساء : ليس عليكن بأس فى الخضاب بالحناء بين كل حيضتين أو عند كل حيضة . فإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يكره الرجلة من النساء . ورأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم امرأة أظفارها بيض فأمرها أن تخضبها بالحناء ، وقالت عائشة : دخل علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعندنا امرأة في خباء فأخرجت يدها من تحت الستارة تسلم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : كأن كفها كف سبع ، لتخضب إحداكن يديها ولا تتشبه بالرجال . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر أهل العروس بإصلاح أمرها للدخول ، وأن يكثروا عليها من الطيب بعد غسل رأسها وبدنها ، وأن يلبسوها الحلى ، وكذلك كان يأمر أهل الزوج ، لكن ينبغى للمرأة ألا تظهر زينتها للأجانب ، فقد أخرج أبو داود عنه عليه الصلاة والسلام قال : كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى زانية ، وروى ابن ماجه : بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المسجد دخلت امرأة من مزينة ترفل فى زينة لها فى المسجد ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أيها الناس ، انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المسجد ، فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا فى المساجد . وكما يستحب تزين المرأة لزوجها يستحب له أيضاً التزين لها ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم، وكان عطاء رضى الله تعالى عنه يقول : سمعت ابن عباس يقول : إنى أحب أن أتزين لزوجتى كما أحب أن تتزين لى .

واعلموا أن السيوطى قد روى فى كتابه « الأجر الجزل فى الغزل » عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تسكنوهن الغرف ، ولا تعلموهن الكتابة ، وعلموهن الغزل وسورة النور . وقد ورد فى فضل الغزل أحاديث كثيرة منها عن عبد الله بن ربيع قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : علموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونعم لهو المؤمنة فى بيتها الغزل . وعن ابن عباس مرفوعاً : لا تعلموا نساءكم الكتابة ولا تسكنوهن

العالى. وقال : خير لهو المؤمن السباحة ، وخير لهو المرأة المغزل ، وعن سهل قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل ، وعن ابن عباس عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : زينوا مجالس نسائكم بالغزل ، وقال زياد : دخلت على أم سلمة رضى الله تعالى عنها وبيدها مغزل لتغزل به ، فقلت : كلما أتيتك وجدت فى يدك مغزلاً ، فقالت : إنه يطرد الشيطان ، ويذهب حديث النفس ، وإذ بلغنى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن أعظمكن أجراً أطولكن طاقة . والأحاديث كثيرة .

تنبيه يلزم بيانه : لما ذكرنا أن المرأة عورة ويقتضى ألا تبدى زينتها للأجانب .

فنقول : اختلفوا فى حدود العورة فى الصلاة للرجل ، فقال أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه : هى ما بين السرة والركبة ، وقال أحمد فى الأخرى وهى أيضاً رواية عن مالك : القبل والدبر فى الرجل [١] ، واختلفوا فى ركبته ، فقال أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعى : عورة ، وأحمد ومالك : ليست بعورة والسرة بالإجماع ليست بعورة ، واختلفوا فى عورة الحرة ، فقال أبو حنيفة : كلها عورة إلا الوجه والكفين والقدمين ، وقد روى عنه أن القدمين عورة ، ومالك والشافعى ، كلها عورة إلا وجهها وكفيها ، وعن أحمد روايات منها أنها كلها عورة إلا وجهها خاصة ، واختلفوا فى عورة الأمة ، فقال مالك والشافعى : هى كعورة الرجل ، وعن أبى هريرة : كعورة الحرة ، وعن أحمد روايتان إحداهما ما بين السرة والركبة والأخرى القبل والدبر . وقال أبو حنيفة ، عورة الأمة كعورة الرجل ، إلا أنه زاد فقال : جميع بطنها وظهرها عورة ، وهذا بالنسبة إلى الصلاة ، وأما بالنسبة إلى الحرمة فمدارها الشهوة سواء كان ذكراً أم أنثى ، ويجوز النظر إلى العورة لأمور، منها لأجل تحمل الشهادة على الزنا لا للتلذذ ، وكذا نظر القابلة [٢] والخافضة والختان والطبيب والاحتقان والبكارة فى العنة ، والرد بالعيب . وليعلم أن كشف العورة لغير ضرورة حرام ، بل عده كثير من العلماء من الكبائر للأحاديث الواردة بذلك، روى البيهقى: احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قيل:

---

(١) قوله : قال بعضهم ، وهذا عند مالك فى الصلاة فقط ، وأما خارجها وبالنظر إلى النظر فغير القبل والدبر من الفخذين ونحوهما أيضاً عورة عنده ، ويحرم نظره فلا تغفل ا هـ منه .

(٢) قوله : والخافضة أي التى تختن المرأة ا هـ منه .

فإذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : الله أحق أن يستحى منه من الناس . وروى الإمام أحمد : إن الله تعالى حيى ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر .

وروى الديلمى : لا تدخلوا الماء إلا بمئزر ، فإن للماء عينين ، وروى عبد الرزاق وابن جريج قال : بلغنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج فإذا هو بأجير له يغتسل عارياً فقال : لا أراك تستحى من ربك ، خذ إجارتك لا حاجة لنا بك ، قال ابن حجر : وأخرج النسائى والترمذى وصححه الحاكم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام . وروى ابن ماجه وأبو داود : ستفتح عليكم أرض العجم ، وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات ، فلا يدخلها الرجال إلا بالأزر ، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء . وفى رواية : من دخله فليستتر ، وفى رواية : لا تدخله وإن بإزار ودرع وخمار ، وما من امرأة تنزع خمارها فى غير بيت زوجها إلا كشفت الستر فيما بينها وبين ربها . وروى الشيرازى : من دخل الحمام بغير مئزر لعنه الملكان . وروى الطبرانى : شر البيت الحمام تعلو فيه الأصوات وتكشف فيه العورات ، فمن دخله فلا يدخله إلا مستتراً . وروى ابن السنى وابن عساكر : نعم البيت يدخله الرجل المسلم بيت الحمام ، وذلك أنه إذا دخله سأل الله الجنة واستعاذ بالله من النار ، وبئس البيت يدخله الرجل المسلم بيت العروس ، وذلك أنه يرغبه فى الدنيا وينسيه الآخرة .

وروى البيهقى : أول من دخل الحمامات وصنعت له النورة سليمان بن داود ، فلما دخله قال : أوه [١] من عذاب الله قبل أن يكون أوه . وروى ابن عساكر : إذا كان آخر الزمان حرم دخول الحمام على ذكور أمتى بمآزرها ، قالوا : لم ذاك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم يدخلون على قوم عراة ، ألا وقد لعن الله الناظر والمنظور إليه ، وقال زكريا الساجى : لا تجوز شهادة من دخل الحمام بغير مئزر أو وقع فى نهر بغير مئزر . وفى كتاب « نصاب الاحتساب » للشيخ عمر الحنفى : إن المرأة يجوز لها أن تنظر إلى المرأة إلا ما تحت السرة إلى الركبة ، وإنه لا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدى امرأة مشركة إلا أن تكون المشركة أمة لها ا هـ . وفى كتب الأئمة الحنفية رواية عن الإمام الأعظم أن الكافرة بالنسبة إلى النساء المسلمات

---

(١) قوله : أوه ، فيها لغات كثيرة ، كلمة تقال عند الشكاية أو التوجع ، ا هـ منه .

كالرجل فلا يجوز أن يطلعنها على ما لا يحل للرجال رؤيته منهن . وصرح ابن عقيل الحنبلى والحنفية أن خلوة الخصى والمجبوب بالنساء حرام ، وكذا إخصاؤه ، والناس عن جميع هذه المسائل غافلون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

فعليكم عباد الله بتحصين فروجكم ، وستر عوراتكم ، وغض أبصاركم ، وإصلاح أنفسكم ، والعدل بين أزواجكم . والتعليم لأولادكم ، والتزود لآخرتكم، وتفكروا فى صحيفة قد اسودت ، وفى نفس كلما نصحت صدت ، وفى كف المنايا فقد امتدت ، وفى ذنوب ما تحصى لو عدت ، فيا ذاهبا فى شططه ، يا متعرضاً لعقوبة الله وسخطه ، أما تعلم أن الزمان يهدم الأعمار ، ويكفى علمك بأن الموت لا يبقى أحداً فى هذه الدار ، فليتنبه الحى قبل أن يموت ، وليستدرك عمراً فى كل آن يفوت ، فأموالكم بعدكم مواريث ، وأنتم عن قليل أحاديث ، فيا هذا ، تعمر من الحرام قصرك ، والأيام تخرب عمرك ، فهلا عرفت أن عمرك فى مدة حياتك معدود، وأن جسمانك بعد مماتك يأكله الدود ، فتهيأ للموت فكأن لاح وطلع ، ومن أحاطت به أشراك الهوى [1] لا بد أن يقع ، فأين النفوس التى كانت فى طلب المعاصى هائمة ، أقعدتها محن البلاء بعد أن كانت قائمة ، أين عاد وثمود والأمم المتقادمة ، بينا هم فى خطاياهم إذا بلاياهم قادمة ، هجموا على المخالفات فإذا الآفات هاجمة ، أخذوا على ذنوبهم وأسروا بعيوبهم المتراكمة ، ذهب الفرح وجاء الترح فإذا النفوس واجمة ، أصبحت دموعهم إذ تفرقت جموعهم على خدودهم ساجمة ، وأما الصالحون ، الذين هم لهواهم زاجرون ، فهم فى الجنان ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ إذ كانوا فى دياجى الليل يسهرون ، ويصومون وهم على الطعام يقدرون ، ويسارعون إلى ما يرضى مولاهم ويبادرون ، فقد أبدلهم بتعب تلك الطاعات لذة السكون ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ .

يا حسنهم والولدان بهم يحفون ، والملائكة لهم يزفون ، والخدام بين أيديهم يقفون ، وقد أمنوا ما كانوا يخافون ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ وبالحور الحسان هم وأزواجهم يخدمون ، وفى خيام اللؤلؤ يتنعمون ، وعلى أسرة الذهب والفضة يتزاورون ، وبالوجوه الناضرة يتقابلون ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ .

---

(١) نسخة : الهلاك اهـ منه .

فنسألك يا من يقول للشيء كن فيكون ، أن تهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، وأن تجعلنا للمتقين إماماً ، وممن إلى الخيرات يسارعون ، وعلى الأرائك ينظرون ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ولا تجعلنا من الذين لأوزارهم يحملون ، بل اجعلنا يا إلهنا من عبادك الذين يرثون الفردوس وهم فيها خالدون ، على الأرائك ينظرون ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

المجلس الثامن والعشرون
فى التطفيف والربا والبيع والشراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله القديم ولا يقال متى كان ، العظيم فلا يحويه مكان ، أنشأ آدم وأخرج ذريته بنعمان [1] ، ورفع إدريس إلى أعالى الجنان ، ونجى نوحا وأهلك كنعان ، وسلم الخليل بلطفه يوم النيران ، ويوسف من الفاحشة حين البرهان ، وبعث شعيباً إلى مدين فنهى عن البخس والعدوان ، ويناديهم فى ناديهم ولكن صمت الآذان ، وقد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان .

أحمده حمداً يملأ الميزان ، وأصلى على رسوله محمد الذى فاق دينه الأديان ، وعلى صاحبه أبى بكر أول من جمع القرآن ، وعلى الفاروق الذى كان يفرق منه الشيطان ، وعلى زوج الاثنتين عثمان ، وعلى عليٍّ بحر العلوم ومبيد الشجعان ، وعلى بقية آله وأصحابه وذريته وأزواجه ما سمع صوت أذان .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ الآيات .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : اختلف العلماء فى هذه السورة ، فقيل مكية ، وقيل مدنية وقيل نزلت بين مكة والمدينة ، ليصلح الله تعالى أمر أهل المدينة قبل ورود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخرج النسائى والبيهقى فى شعب الإيمان أنه لما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ،

---

(١) قوله : نعمان واد وراء عرفة ، وهو نعمان الأراك ، ا هـ منه .

فأنزل الله تعالى ، ويل للمطففين ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك ، وقال السدى : قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأما ويل فاختلف فيه العلماء ، فقيل : الويل شدة الشر ، وقيل : الحزن والهلاك ، وقيل العذاب الأليم ، وقيل : جبل فى جهنم ، وذهب كثير إلى أنه واد فى جهنم لأن فيه أودية وجبالا ونحو ذلك من النار ، أعاذنا الله تعالى وإياكم منها ، فمنها على ما فى « البحور الزاخرة » ويل ، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبى سعيد عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ويل واد فى جهنم يهوى به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره ، ومنها الغى ، فهو واد فى جهنم خبيث الطعم بعيد القعر يقذف به الذين يتبعون الشهوات ، ومنها أثام ، وهو واد فيه حيات وعقارب ، العقرب مثل البغل ، ومنها الفلق وإن جهنم لتتأذى منه ، ومنها جب الحزن ، فقد روى أبو هريرة: نعوذ بالله من جب الحزن قالوا : وما جب الحزن ؟ قال : واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة ، قيل : يا رسول الله ، من يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم ، ومنها هبهب ، ففى الخبر عن أبى بردة عن أبيه مرفوعاً : إن فى جهنم وادياً ، ولذلك الوادى بئر يقال له هبهب ، حقا على الله أن يسكنها كل جبار متكبر، وأخرج الإمام أحمد : يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار ، حتى يدخلوا سجناً فى جهنم يقال له بولس (١) ، فتعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار . وأخرج ابن أبى الدنيا عن عمر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا يلى أحد من أمر الناس شيئاً إلا أوقفه الله تعالى على جسر جهم فزلزل به الجسر زلزلة فناج أو غير ناج ، لا يبقى منه عظم إلا فارق صاحبه ، فإن هو لم ينج ذهب به فى جب مظلم كالقصر فى جهنم لا يبلغ قعره سبعين خريفاً . وأخرج أبو نعيم أن طارقاً قال لسليمان بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، إن صخرة كانت على شفير جب فى جهنم هوت فيها سبعين خريفاً حتى استقرت ، أتدرى لمن أعدها الله تعالى؟ قال : لا ، ويلك ، لمن أعدها الله تعالى ؟ قال : لمن أشركه الله تعالى فى حكمه فجار ، قال : فبكى لها . ومن جبالها صعود قال تعالى : ﴿ سأرهقه

---

(١) قوله : بولس بضم الباء الموحدة وفتح اللام ا هـ منه .

صعوداً﴾ قال ابن عباس : هو جبل فى النار يزلق الكافر [1] فيه كلما صعده ، وقال ابن السائب : هو جبل من صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها حتى إذا بلغ أعلاها انحدر إلى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها ، فذلك دأبه أبدا ، يجذب من أمامه بسلاسل الحديد ، ويضرب من خلفه بمقامع الحديد ، فيصعدها فى أربعين سنة، ومنها العقبة كما قال تعالى : **﴿فلا اقتحم العقبة﴾** هو جبل زلزال فى جهنم. وأخرج البخارى فى تاريخه عن نفير بن مجيب قال : إن فى جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب ، فى كل شعب سبعون ألف دار ، فى كل دار سبعون ألف بيت ، فى كل بيت سبعون ألف بئر ، فى كل بئر سبعون ألف ثعبان، فى شدق كل ثعبان سبعون ألف عقرب ، لا ينتهى الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله . قال المنذرى : فيه سعيد الحمصى ضعفه ابن معين . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء كالليل المظلم . وقال الضحاك : جهنم سوداء وماؤها أسود وشجرها أسود ، وأهلها سود . وقد دل على سواد أهلها قوله تعالى : **﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** فنعوذ بالله تعالى من جميع ذلك ، ونسأله السلامة فى الدنيا والآخرة من كافة المهالك ، فقد تبين أن ويل واد فى جهنم ، وهو معدود للمطففين **﴿والتطفيف﴾** لغة التقليل ، فالمطفف ، هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن ، قال الزجاج : إنما قيل له مطفف لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان إلا الشىء اليسير الطفيف . وروى أن أهل المدينة كانوا تجارا يطففون ، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة ، فنزلت فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقرأها عليهم ، وقال : خمس بخمس ، قيل : يا رسول الله وما خمس بخمس ؟ قال : ما نقض قوم العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر ، ولولا البهائم لم يمطروا . وأخرج سعيد بن منصور عن سلمان رضى الله تعالى عنه

---

(١) فى نسخة : الفاجر ، ا هـ منه .

قال : إنما الصلاة والمكيال فمن أوفى وفى له ، ومن طفف فقد سمعتم ما قال الله تعالى فى المطففين .

وعن أبى بن كعب : لا تلتمسوا الحوائج ممن رزقه فى رءوس المكاييل وألسن الموازين ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل فى سبيل الله فيقال : أد أمانتك ، فيقول : أى رب كيف وقد ذهبت الدنيا ، قال فيقال : انطلقوا به إلى الهاوية ، فينطلق به إلى الهاوية ، ويمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها فيهوى فى أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه حتى إذا نظر ظن أنه خارج زلت عن منكبيه فهو يهوى فى أثرها أبد الآبدين . ثم قال : الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع. قال ابن حجر رحمه الله تعالى : قال مالك بن دينار رضى الله تعالى عنه: دخلت على جار لى وقد نزل به الموت فجعل يقول : جبلين من نار ، جبلين من نار، قال : فقلت : ما تقول ؟ قال : يا أبا يحيى كان لى مكيالان كنت أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر ، قال يا مالك : فنمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر ، فكلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد الأمر عظماً وشدة ، فمات فى مرضه ، قال : وقال بعض السلف : أشهد على كل كيال بالنار لأنه لا يكاد يسلم إلا من عصمه الله تعالى ، وقال بعضهم : دخلت على مريض قد نزل به الموت ، فجعلت ألقنه الشهادة ولسانه لا ينطق بها ، فلما أفاق قلت له : يا أخى ، مالى ألقنك الشهادة ولسانك لا ينطق بها ؟ قال : يا أخى لسان الميزان على لسانى يمنعنى من النطق بها ، فقلت له : بالله أكنت تزن ناقصاً ؟ قال : لا والله ، ولكنى كنت أقف مدة لا أعتبر صفحة ميزانى . فإذا كان هذا حال من لا يعتبر صفحة ميزانه فكيف حال من يزن ناقصاً ؟ قال ابن حجر : كالكيالين والوزانين التجار إذا شددوا أيديهم فى الذرع وقت البيع وأرخوها وقت الشراء ، وهذا من تطفيف فسقة البزازين والتجار ، وإن العرق يوم القيامة يلجمهم إلى أنصاف آذانهم ثم بعد ذلك إما إلى الجنة وإما إلى النار .

ونحو هذا بل أشد منه تغيير حدود الأرض والسرقة من أرض جارك ، فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين . وروى الإمام

أحمد : أيما رجل ظلم شبرا كلفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ سبع أرضين ثم يطوقه يوم القيامة حتى يقضى بين الناس . وروى الطبرانى : من أخذ من طريق المسلمين شبراً جاء يوم القيامة يحمله من سبع أرضين . نقله فى الترغيب . ويقرب من هذا إكراء شيء من الشوارع والطرق وأخذ أجرته وإن كان حريم ملكه أو دكانه ، حتى عده بعضهم من الكبائر ، قال العلامة ابن حجر : ومن ثم قال الأوزاعى فيما يفعله وكلاء بيت المال فى الشوارع من نحو أخذ أجرة من الجالسين لا أدرى بأى وجه يلقى الله عز وجل من يفعل ذلك . ونحو ذلك بل أضر منه إنفاق الفلوس الزيف وغير الخالصة وضربها يعنى سكها وإعطاؤها للناس ، ولو علم الآخذ ذلك ، حتى قال فى كتاب « نصاب الحسبة » ناقلا عن العلماء : إن إنفاق درهم مزيف أشد من سرقة مائة درهم جياد ؛ لأن سرقتها معصية واحدة منقضية ، وأما إنفاق الزيف وهى القلب سيئة يعمل بها ما بقى ذلك الدهر يدور فى أيدى الناس ، ويكون الإثم على فاعله ومعطيه إلى آخر فنائه ، ومن ألقاه فى البحر أو أذابه فى النار فهو أفضل له من أن يتصدق بمثله ، وأفضل من كثرة الصلاة والصوم النافلتين انتهى . ومثل ذلك فى الاشتراك بالإثم من اشترى مالاً مسروقاً ، فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة فقد أشرك فى عارها وإثمها . رواه البيهقى : وكما أن التطفيف حرام فكذا الغش فى البيع حرام ، فقد روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله ، قال : ألا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال : مر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بطعام وقد حسنه صاحبه ، فأدخل يده فيه فإذا طعام ردىء فقال : بع هذا على حدة ، وهذا على حدة ، فمن غشنا فليس منا . وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تشوبوا اللبن للبيع ، ألا وإن رجلاً ممن كان قبلكم جلب خمراً إلى قرية فشابها بالماء فأضعف أضعافاً فاشترى قرداً فركب البحر حتى إذا لجج فيه ألهم الله تعالى القرد صرة الدنانير فأخذها فصعد الدقل ففتح الصرة وصاحبها ينظر إليه فأخذ ديناراً فرمى به فى البحر وديناراً فى السفينة ، حتى قسمها نصفين . رواه فى الترغيب وغيره عن البيهقى ، وروى الإمام : أحمد المسلم أخو المسلم ، لا يحل لمسلم إذا باع من

أخيه بيعا فيه عيب ألا يبينه . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الدين النصيحة . قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وكذا الاحتكار من الكبائر ، روى عبد الله بن نضلة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من احتكر طعاماً فهو خاطئ ، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه ، وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى . رواه أحمد ، وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الجالب مرزوق والمحتكر ملعون ، من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس . وعن معاذ ابن جبل رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من دخل فى شىء من أسعار المسلمين يغلى عليهم كان حقاً على الله أن يقذفه فى النار رأسه أسفل ، رواه الحسن ، وكذا كره النجش ، وهو أن يزيد فى ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ، أو يمدحها ليروجها ، والبيع على بيع الغير والشراء على شرائه ، وتلقى الجلب لشراء الطعام من خارج البلدة ، وبيع العبد المسلم للكافر ، وكذا المصحف ، وكتب العلم الشرعى له ، وعد بعضهم جميع ذلك من الكبائر .

قلت : ويلحق به بيع الأسلحة والخيل للحربيين ، وعد منها بيع الأمة ووطؤها قبل استبرائها ، وكذلك عد منها أيضاً منع ماء الفحل ، فقد روى البزار عن بريدة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع الفحل (١) ، وكذا كره التفرقة بين الوالدة وولدها بالبيع ، عن أبى أيوب رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة . وروى أبو موسى : لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من فرق بين الوالدة وولدها وبين الأخ وأخيه . وكذا يحرم مطل الغنى ، عن على كرم الله

---

(١) قوله : منع الفحل ، بأن يكون عنده مثلا فرس أو حمار فيأخذ لنزوانه للأنثى دراهم وإلا منعه. فذلك حرام ، اهـ منه .

تعالى وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : لا يحب الله الغنى الظلوم ، وهو الذى يمطل دائنه ، ولا الشيخ الجهول ، ولا الفقير المختال .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى به(١) ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره . رواه البخارى . وكذا يحرم إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، أخرج مسلم والأربعة عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم - ثلاث مرات- قلت : خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال : المسبل إزاره ، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب . وفى رواية : ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : أشيمط(٢) زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته لا يشترى إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه . وروى الشيخان : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً سلعة بعد العصر (٣) فحلف بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وأخذها وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه منها ما يريد وفى له وإن لم يعطه لم يوف له ، وفى رواية : ورجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ، فاليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ، ويقال لها الغموس ؛ لأنها تغمس صاحبها فى النار . عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس ، وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار . قيل : وإن يسيراً؟ قال : وإن سواكا ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من لقى الله لا يشرك به شيئا وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه محتسباً ، وسمع وأطاع فله الجنة ، وخمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله

---

(١) أي عاهد بالله عز وجل ثم غدر ونقض عهده ، ا هـ منه .

(٢) قوله : أشيمط مصغر أشمط ، والشمط محركة بياض شعر الرأس يخالط سواده ا هـ منه .

(٣) لأنه بعد العصر تختم صحيفة أعمال النهار ا هـ منه .

وقتل النفس بغير حق ، وبهت مؤمن ، والفرار من الزحف ، ويمين صابرة يقتطع بها مالاً بغير حق ، رواه أحمد .

وليعلم أن كفارة اليمين إذا حنث الحالف إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة بالاتفاق ، والحالف مخير فى فعل أيها شاء فإن لم يجد انتقل إلى صيام ثلاثة أيام ، والرقبة شرطها أن تكون مؤمنة خلافاً للإمام أبى حنيفة .

واعلم أن الأئمة اختلفوا فى اليمين الغموس ، وهى الحلف بالله تعالى على أمر ماض متعمدا للكذب فيه ، فعند أبى حنيفة ومالك وأحمد فى إحدى روايتيه أنها لا كفارة لها ؛ لأنها أعظم من أن تكفر ؛ لأنها تغمس صاحبها فى النار . وعند الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى أنها تكفر ، أى يلزم فيها الكفارة المذكورة ، وأما اليمين اللغو فعند أبى حنيفة ومالك وأحمد فى إحدى روايتيه هو أن يحلف على أمر يظنه على ما حلف عليه ثم يتبين أنه بخلافه سواء قصده أم لم يقصده فسبق على لسانه سواء كان فى الماضى أم فى الحال ، وقال أحمد : إنه فى الماضى فقط ، وقال الشافعى : لغو اليمين ما لم يعقده كقوله لا والله وبلى والله عند المحاورة والغضب واللجاج من غير قصد ، سواء كان على ماض أم مستقبل ، وهى رواية عن مالك وأحمد أيضاً . واختلفوا فيها فقالت الأئمة الثلاثة : لا إثم فى لغو اليمين ولا كفارة، لقوله تعالى : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم** ﴾ وقال أحمد : إن فيه الإثم ، ولذلك كان الإمام الشافعى يقول : ما حلفت بالله تعالى صادقاً ولا كاذباً ، فتبين أن الأيمان ثلاثة : منعقدة وهى التى فيها الكفارة بالاتفاق ، وهى أن يحلف على شيء أن يفعله أو لا يفعله فيحنث فتلزمه الكفارة المذكورة ، وغموس ، ولغو ، قال العلماء : واليمين التى تلزم فيها الكفارة هى ما كانت بالله تعالى أو بصفاته أو بالقرآن العظيم ، وعند الإمام أحمد فى رواية عنه : لو حلف بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم انعقد يمينه ، فإن حنث لزمته الكفارة ، وأما ما عدا ذلك فلا يجوز به الحلف ولا تجب كفارة . قال الأئمة : وكما أن الحلف بالله تعالى كاذباً حرام كذلك الحلف بغير الله حرام سواء كان صادقاً أم كاذباً . فعن ابن عمر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت . وسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجلاً يحلف بأبيه فقال : لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ومن

حُلف له فليرض ، ومن لم يرض بالله فليس من الله . وعن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقول : لا والكعبة . فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك. وعن عبد الله بن مسعود قال : لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره وأنا صادق ، قال على الرازى : أخاف على من يقول بحياتى وحياتك الكفر .

ولنرجع إلى ما نحن بصدده : ومن الكبائر العظيمة الربا فى البيع والشراء وهو بضع وسبعون بابا وأدناها كمن يقع على أمه ، كما روه البزار . ولنذكر ما يتعلق ببعضه من الآيات والأحاديث والأحكام قال الله تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التى أعدت للكافرين** ﴾ فتأمل هذه الآيات التى اشتملت على عقوبة آكل الربا ، وينكشف ذلك للأحاديث الواردة أيضاً ، فعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه . وقال عليه الصلاة والسلام : إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله تعالى. وروى الإمام أحمد: ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسَّنَة (١) ، وما من قوم يظهر فيهم الرشا(٢) إلا أخذوا بالرعب (٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : إن آكل الربا يعذب من حين يموت إلى يوم القيامة بالسباحة فى نهر أحمر مثل الدم ، وإنه يلقم الحجارة

---

(١) قوله : بالسنة أى : بالقحط ا هـ منه .

(٢) قوله : الرشا جمع الرشوة ا هـ منه .

(٣) قوله : بالرعب أى : بالخوف من الأعداء ا هـ منه .

كلما ألقم حجرا سبح به ثم عاد فاغراً فاه فيلقم حجراً آخر وهكذا إلى البعث . وتلك الحجارة هي نظير المال الحرام الذى جمعه فى الدنيا ؛ ولذلك قال سبحانه : ﴿ يمحق الله الربا ﴾ أى يصير عاقبته إلى الفقر ، ﴿ ويربى الصدقات ﴾ أى يزيدها فى الدنيا بسؤال الملك له أن يعطيه الله عز وجل خلفاً كما جاء فى الأحاديث : إنه ما من يوم إلا وفيه ملك ينادي : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وبأنه يزداد كل يوم جاهه وذكره الجميل وميل القلوب إليه والدعاء الخالص له من قلوب الفقراء .

وروى البيهقى : خطبنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فذكر أمر الربا وعظم شأنه ، وقال : إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله تعالى من ستة وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم ، ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . وروى : أربعة حق على الله ألا يدخلهم الجنة ، مدمن خمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم ، والعاق لوالديه . وروى البخارى : لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم آكل الربا وموكله والمصورين ، ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغى ، وهى الفاجرة . وروى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه: آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتباه إذا علموا به ، والواشمة والمستوشمة للحسن ولاوى الصدقة (١) والمرتد أعرابياً بعد الهجرة، ملعونون على لسان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اجتنبوا السبع الموبقات ، أى المهلكات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . وقال قتادة : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً . قالوا : والدليل على ذلك قوله تعالى فى أكلة الربا : ﴿ لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ أى من أجل مسه له أو من جهة الجنون ، فإنهم يوم القيامة كلما قاموا سقطوا على وجوههم وجنوبهم كالمصروعين ، وسر ذلك أن السحت ربا فى بطونهم حتى أثقلها وزاد عذابهم ا هـ . ومن جملة أبواب الربا ما اعتاده كثير من التجار والمتمولين والدائنين من الدراهم التى يأخذونها ويسمونها نزول الوعدة عن المديونين ، وكذا انتفاع المرتهن بنماء ملك الراهنين ،

(١) قوله : ولاوى الصدقة أى : المماطل فيها ا هـ منه .

وكذا إعطاء دراهم وأخذ غيرها فى غير بلد لسلامة خطر الطريق ، وكذا إعطاء دراهم معروفة [1] عند أربابها لسلامة المال الموضوع فى السفن من غرق وحريق ، وكذا البيوع الفاسدة والعقود الكاسدة فإنه يجب على العاقدين فسخها رعاية وامتثالا لشريعة سيد المرسلين عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلاة المصلين ، وأزكى سلام المسلمين . ومن المحرمات أيضاً على ما قال بعضهم الحيلة فى التخلص من الربا كما يفعله كثير من الربويين من بيع شيء بثمن وفير للمديونين ، فقد أباحه الإمامان أبو حنيفة والشافعى ، وقال الإمام مالك والإمام أحمد بالتحريم ، ونقل ابن حجر فى الزواجر عن بعضهم أن آكله بالحيلة يحشر فى صورة الكلب والخنزير من أجل تحيلهم على أكل الربا ، كما مسخ أصحاب السبت حين تحيلوا فى اصطياد الحيتان التى نهاهم الله تعالى عن اصطيادها يوم السبت ، فحفروا لها حياضاً تقع فيها يوم السبت حتى يأخذوها يوم الأحد ، فلما فعلوا ذلك مسخوا قردة وخنازير ، نعوذ بالله تعالى من ذلك [2] .

تنبيه : أجمعوا على أن الأعيان المنصوص على تحريم الربا فيها سبعة : الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والزبيب والملح . وأجمعوا على أنه لا يجوز بيع الذهب بالذهب منفرداً والورق بالورق منفردا تبرها ومضروبها وحليها إلا مثلا بمثل وزنا بوزن يدا بيد ، ويحرم نسيئة ، واتفقوا على أنه لا يجوز بيع الحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح إذا كان بعيار إلا مثلا بمثل ويدا بيد ، ويجوز بيع التمر بالملح والملح بالتمر متفاضلين يدا بيد ، قاله فى الميزان ، وفى كتب أئمتنا الحنفية : الربا هو فضل مال خال عن عوض شرط لأحد العاقدين فى معاوضة مال بمال وعليه القدر والجنس ، والمراد من القدر الكيل فى المكيلات والوزن فى الموزونات . فحرم بيع الكيلي أو الوزني بجنسه متفاضلا أو نسيئة ، ولو غير مطعوم كالجص والحديد ، وحل متماثلا مع التقابض ، فإن وجد الوصفان حرم الفضل

---

(١) وتسمى الآن سكو سيترو وهى لفظة أفرنجية ا هـ منه .

(٢) ومن أخبث أنواع الربا ما يقامر عليه فى النرد ونحوه فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى دم خنزير ولحمه . قال العلماء : سر هذا التشبيه والله أعلم أن اللاعب لما كان مقصوده أكل المال بالباطل الذى هو حرام كحرمة لحم الخنزير وتوصل إليه بالقمار وظن أنه يفيده حل المال كان كالمتوصل إلى أكل لحم الخنزير بذكاته ا هـ باختصار من كلامهم وسيأتى فى بعض الدروس ا هـ منه .

والنساء ، وإن عدما حلا ، وإن وجد أحدهما فقط حل التفاضل لا النساء . وتفصيل مسائله والاختلاف فى بعضها فى الكتب الفقهية من أرادها فليرجع إليها .

ولنذكر لكم الترغيب فى حسن البيع والشراء وشبه ذلك مما يوجب الثواب فى دار الجزاء ، فمنه المسامحة فيهما ، وروى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : رحم الله عبداً سمحاً إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا اقتضى . وعن عثمان رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أدخل الله عز وجل الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً وبائعا (١) وقاضيا ومقتضيا . وروى : من كان هينا لينا قريبا حرمه الله على النار . رواه مسلم ومنه إنظار المعسر ، عن حذيفة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا فقال له: ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال : ولا يكتمون الله حديثاً ، قال : يا رب ، آتيتنى مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى ، ولذا كان فى بيع السلم الشرعى بركة ، فقد روى ابن عباس عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : ثلاثة فيهن البركة : البيع إلى أجل والمفاوضة وخلط البر بالشعير للأكل لا للبيع . ومنه إقالة النادم وهى من خصال أهل الجنة . فعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من أقال مسلماً بيعته أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة . وفى رواية : من أقال مسلماً عثرته أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة ، وفى رواية : من أقال أخاه بيعا أقال الله عثرته يوم القيامة ، ومنه صدق التجار موجب للنجاة من النار ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء . وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : التاجر الصدوق تحت ظل العرش ، وروى عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن التاجر إذا كان فيه أربع خصال طاب كسبه ، إذ اشترى لم يذم وإذا باع لم يمدح ولم يدلس فى البيع ولم يحلف فيما بين ذلك ، وعن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى

(١) قوله : وقاضياً ومقتضياً ، أى : إذا أعطى دينه وإذا طلب من الناس ا هـ منه .

عليه وسلم : إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإن كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا . وقال : إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى وبر وصدق . رواه الترمذى ؛ لأنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون . ومنه عدم خيانة الشريكين لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يقول الله : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما . وفى رواية : وجاء الشيطان . فعليكم عباد الله بعدم تطفيف الموازين والتجنب عن الربا فإنه منقصة للدين ، وذلة للقاسطين ، فالويل كل الويل لمن لم يسمع كلام رب العالمين ﴿ ويل للمطففين ﴾ فالأسف لمن باع دينه بحبة طعام، وواها لمن طفف الكيل ولم يراقب الملك العلام ، واشترى النار بكسرة لما تحمل من الأوزار والآثام ، ألم يعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴿ ويل للمطففين﴾ ليت شعرى هلا اتعظ آكل الربا بأمثاله ، وتفكر بعاقبة أحواله ، وأبصر نمو الصدقة ومحق الربا لماله ، وينظر إلى من كتب رزقه وهو جنين ﴿ ويل للمطففين﴾ إن آكل الربا كمن جاء أمه ، كما أخبر الصادق نبى الأمة ، وإن الكاذب فى بيعه يسقيه الشجاع الأقرع سمه ، ويحشر يوم القيامة مع المنافقين ﴿ ويل للمطففين ﴾ يقف لسان الميزان بلسانه عند الممات ، فيقول رب ارجعون وهيهات ، فلو كان يعلم هذا حال الحيات ، لما فات منه ما فات ، ولأعطى بدل الحبة حبات للمشترين ﴿ ويل للمطففين ﴾ .

أيها الخائن تذكر يوم القيامة ، يوم لا تنفع الأموال والندامة ، واسلك الآن طريق السلامة ، قبل أن يؤخذ بالوتين ﴿ ويل للمطففين ﴾ .

ويل واد تستغيث منه النار ، ولا يقر للعاصين فيه القرار ، ولا يستطيعون الفرار ، من أبواب غلقت على المعذبين ﴿ ويل للمطففين ﴾ . فتبا للمحتكرين والمقامرين ، وسحقا لمن يقوم فى المحشر كالمجانين ، وخسرانا لمن مسته الشياطين ، ولم يخف ديان يوم الدين ، يوم هم بارزون لرب العالمين ، وبعدا لمن تلقى الجلب ولم يتق النار التى أعدت للكافرين ﴿ ويل للمطففين ﴾ .

لقد جعلوا البيع مثل الربا ، ولم يتقوا بالصدقة لهبا ، وقد أورثهم عز المال ذلا

ونصبا ، وقد خاطبهم فى كتابه المبين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ أيها الناس لا تخسروا الميزان ، واشتروا الجنة بحبة من الديان ، ولا تجعلوا الله عرضة للأيمان ، وسامحوا فى البيع والشراء فقد سمعتم ما قيل فى المسامحين ، إن الله يجزى المتصدقين ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ وتجنبوا الغش والاحتكار ، فهما سبب الهلاك والبوار ، والإفلاس والجذام فى هذه الدار ، ولهم فى العقبى خزى وعار ونار ، وقد رأيتم أموال غيركم كيف قسمت على الوارثين ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ .

وانظروا إلى ما جمعوا من حلال وحرام ، كيف تنعم بها غيرهم من الأنام ، وكتبت عليهم تبعاته والآثام ، وبقوا بذلك السحت للغرماء مطلوبين ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ أما يذكر العاصى أن مأواه اللحود ، وأن جسمه مأكلة للدود ، أما يرى المحتكر قبور الأحبة والآباء والجدود ، فهلا عدل فى الموازين ، ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فليندم آكل السحت على ما أسلف ، وليرجع المطفف إلى المشترى ما طفف ، وليتب عما أجرم وأسرف ، قبل أن تؤخذ حسناته فتعطى للطالبين ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ .

وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا خيراً من ماضيه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما .

* * *

المجلس التاسع والعشرون
فى الصيد والذبائح وما يناسب ذلك

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (١) . . .

الحمد لله الذى خلق آدم وما مسه ، وقمر الكون وشمسه ، واليوم وأمسه ،

---

(١) بهامش نسخة المؤلف خطبة أخرى .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي لم يزل عظيماً عليا ، يخذل عدوا وينصر وليا ، أنشأ الآدمي خلقا سويا ، ثم قسمهم رشيدا وغويا ، رفع السماء سقفا مبنيا ، وسطح المهاد بساطا مدحيا ، ورزق الخلائق برياً وبحرياً ، كم أجرى لعباده سريا ، أخرج منه لحما طريا ، كم أعطى ضعيفاً ما لم يعط قويا ، فبلغه على الضعف ضعف المراد ، ووهب له على الكبر الأولاد ، كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

أحمده إذ أفضل وأعطى شبعا وريا ، وأصلى على رسوله محمد أفضل من امتطى سريا ، وعلى =

عرفه الموحد فنزه قدسه ، وجهل المشبه فاستفتى حسه ، فقاس الخالق بالأشياء المحسة ، كم عثر مبتدع والسنة تصيح به تعسه ، وسيحضر يوم الحساب ويرى جزاء ما افترى ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾ .

أحمده حق حمده وأنى وليت ، وأقر بأنه يخرج الحى من الميت ، ويكثر لسانى الصلاة على نبيه وأنادى ما وفيت ، وعلى صاحبه أبى بكر المقدم وإن أبيت ، وعلى عمر الذى كسر كسرى وقد رأيت ، وعلى عثمان ذى النورين وإن تعاميت ، وعلى على الذى لا يبغضه إلا منافق خرب البيت ، وعلى بقية الآل والصحابة وأهل البيت .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى كتابه المبين : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم * يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب * اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾ الآية . .

فنقول وبالله تعالى التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق : هذه الآيات الجليلة من سورة المائدة ، وهى مدنية بالإجماع على ما قاله القرطبى ، وعن محمد بن كعب أنها نزلت فى حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة ، وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : المائدة من آخر القرآن تنزيلا

= أبى بكر الذى أنفق وما قلل حتى تخلل ويكفى زيا ، وعلى عمر الذى كان مقدما فى الجد جريا ، وعلى عثمان الذى لم يزل عفيفا حييا ، وعلى على أشجع من حمل خطيا ، ومن خص بالأخوة فهنيئاً مريا ا هـ منه .

فأحلوا حلالها وحرموا حرامها ، وقال ميسرة : إن الله تعالى أنزل فى هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها فى غيرها من سور القرآن . قلت : ولعلها لهذا افتتحت هذه السورة بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، والمراد بها على ما قال غير واحد ما عقده الله تعالى على عباده وألزمهم به من الأحكام ، ونحن إن شاء الله تعالى سنبين لكم فى هذا الدرس بعض تلك الأحكام لتعرفوا الحلال منها والحرام ، فمنها حرمة أكل الميتة ، قال العلماء : وإنما حرمها الله تعالى إلا حالة الاضطرار ؛ لأن الدم جوهر لطيف فإذا مات الحيوان احتبس الدم وتعفن فيحصل منه مضار . ويستثنى من ذلك السمك والجراد لقوله عليه الصلاة والسلام : أحلت لكم ميتتان ودمان ، أما الميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال ، وكذا يستثنى الجنين لأن ذكاته ذكاة أمه عند الإمام الشافعى ، ومنها الدم، وسبب تحريمه نجاسته ، وكانوا يملئون المعى منه يشوونه ويطعمونه الضيف فحرم الله تعالى ذلك ، واتفق العلماء على تحريمه ونجاسته ، قال ابن حجر : نعم يعفى عما يبقى فى العروق وعلى اللحم ، على أنه خرج بالمسفوح فى الآية الأخرى ، كالكبد والطحال . ومنها الخنزير ، وسبب تحريمه نجاسته أيضاً ، قال العلماء : ولأن غذاء الحيوان يصير جوهراً من بدنه ويورثه أخلاقاً وصفات من جنس ما كان حاصلاً فى الغذاء ، والخنزير مطبوع على أخلاق ذميمة جداً ، منها الحرص الفاحش والرغبة الشديدة فى المنهيات ، وعدم الغيرة ، فحرم أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفيات ، ألا ترى من واظب على أكله كيف أورثه حرصاً عظيماً على المنهيات وعدم غيرة ، فإنه يرى الذكر من جنسه ينزو على أنثاه ولا يمنعه ، بخلاف الغنم وسائر الحيوانات ، قال ابن حجر : وجملة الخنزير محرمة إلا شعره فيجوز الخرز به، وخنزير الماء مأكول عندنا . انتهى . ومنها ما أهل به لغير الله ، أى ذبح على اسم الصنم ، إذ الإهلال رفع الصوت ، ومنه فلان أهل بالحج إذا لبى ، وكانوا يقولون عند الذبح باسم اللات والعزى ، فحرم عليهم ، فمعنى وما أهل لغير الله به ما ذبح للطواغيت والأصنام ، قاله جمع . وقال آخرون : يعنى ما ذكر عليه غير اسم الله . ونقل ابن حجر فى الزواجر عن العلماء أنه لو ذبح مسلم ذبيحة للتقرب[1] بها إلى غير الله عز وجل

---

(١) ومما يقرب من ذلك الذبح للقادم عند قدومه كما صرح به الفقهاء فينبغى التحرى عند الذبح وأن ينوى أنه لله سبحانه وتعالى وصدقة للفقراء ، والناس عنه غافلون كما سيأتى تفصيله ا هـ منه .

صار مرتدا وذبيحته ذبيحة مرتد لا تؤكل . ونقل ابن عطية عن بعضهم أنه استفتى عن امرأة مترفة نحرت جزوراً للكعبة فأفتى بأنه لا يحل أكلها لأنها ذبحت لصنم .

قلت : ونحو ذلك ما يفعله الآن كثير من الجاهلين عند قبور الأولياء المتقين من النذور وتعليق الرايات ، وشبه هذا من البدع السيئات التى هى للساعة من أعظم الأمارات ، فإنا لله ولا حول ولا قوة إلا بالله . ومنها المنخنقة وهى التى تموت خنقا بأن يحبس نفسها بفعل آدمى أو كغيره إلى أن تموت ، وكانت الجاهلية يخنقون الحيوان فإذا مات أكلوه ، ومنها الموقوذة وهى التى وقذت أى ضربت حتى استرخت وماتت ، ونحوها المقتولة بالبندق فهى فى معنى الميتة والمنخنقة لأنها ماتت ولم يسل دمها ، ومنها المتردية وهى الساقطة من علو كجبل أو شجر أو فى بئر فهلكت وماتت، ومنها النطيحة ، وهى التى نطحتها أخرى فهى أيضاً ميتة لفقد سيلان الدم، ومنها ما أكل السبع ، قال قتادة : كان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئاً فقتله وأكل بعضه أكلوا ما بقى ، ففى الآية حذف والتقدير وما أكل منه السبع ، وقوله تعالى : ﴿ إلا ما ذكيتم ﴾ أي إلا ما وجدتم فيه الحياة من المنخنقة وما بعدها أو مما أكل السبع فقط فذكيتموه فهو حلال ، وإلا فلا ، وقيل : إنه استثناء منقطع من المحرمات المذكورة ، كأنه قيل : لكن ما ذكيتم من غير هذا فحلال ، ومنها وهو عاشرها ما ذبح على النصب ، أى تذبح للأصنام على اعتقاد تعظيمها ، أو على حجر منصوب حول الكعبة يذبحون عليها للأصنام ويلطخونها بدمها ، قال مجاهد وقتادة : كان حول الكعبة ثلثمائة وستون حجرا منصوبة يعبدها أهل الجاهلية ويعظمونها ويذبحون لها وليست بأصنام ، وإنما الأصنام هى المصورة المنقوشة ، وكانوا يلْطخونها بتلك الأدْمِيَةِ ويضعون اللحم عليها ، فقال المسلمون : يا رسول الله ، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه ، فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى نزل عليه قوله تعالى : ﴿ لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ ومعنى قوله تعالى وأن تستقسموا بالأزلام النهى عما كان يفعله الجاهلية من أن من أراد منهم سفراً أو حاجة أى حاجة كانت جاء إلى سادن الكعبة وكان عنده سبعة قداح أى عيدان مسواة من شوحط ، وسميت بالأزلام لأنها زلمت أى سويت، وكان مكتوبا على واحد منها نعم وعلى الآخر لا . وقيل مكتوب على بعضها أمرنى ربى وعلى بعضها نهانى ربى ، وتركوا بعضها غُفلا أى خاليا ، فإذا أرادوا أمراً أو

اختلفوا فى نسب جاءوا إلى هبل وهو عظيم أصنامهم بدراهم وجزور أو نحوه لصاحب القداح حتى يجليها لهم ، فمعنى الاستقسام طلب معرفة الخير والشر بواسطة القداح . ووجه ذكرها مع هذه المطاعم أنها كانت ترفع عند البيت معها ، قال العلماء : ونظير هذا الذى حرمه الله تعالى قول المنجم للمسافر : لا تخرج من أجل اقتران نجم كذا بكذا مثلاً ونحوه من إخباره بالمغيبات ، حتى ورد قوله عليه الصلاة والسلام : من أتى كاهناً أو منجماً وصدقه فقد كفر ، ونحو ذلك ما يفعله كثير من الجهلة من الاستقسام بالصخر الصغار وحبات السبحة ونعيق الغراب أو أخذه عند طيرانه ميمنة أو ميسرة . ولذا ورد أنه عليه الصلاة والسلام كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، ولقد أحسن من قال :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ... ولا زاجــرات الطير ما الله صانع

وقال جماعة من المفسرين : المراد بالآية القمار ، وقال ابن جبير : الأزلام حصى كانوا يضربون بها ، وقال مجاهد : هى كعاب فارس والروم التى يتقامرون بها ، وقال الشعبى : الأزلام للعرب والكعاب للعجم .

واعلموا أن القمار أيضاً من جملة الكبائر ، قالوا: والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : إن رجالاً يخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار . وروى البخارى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : من قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق ، قال العلماء : فما ظنك إذا باشر القمار الذى هو الميسر ، قال العلماء : ولا قمار بالمسابقة بالخيل ونحوها كما قال فى المنهاج ، ويجوز شرط المال من غيرهما ويجوز شرطه من أحدهما فيقول : إن سبقتنى فلك على كذا أو سبقتك فلا شىء لى عليك إذ لا قمار ، فإن شرط أن من سبق منهما فله على الآخر كذا لم يصح لتردد كل بين أن يغنم أو يغرم وهو القمار المحرم . انتهى .

واعلم أن من جملة أنواع الميسر والقمار اللعب بالشطرنج والنرد حتى عدا من الكبائر أيضاً ، فقد روى أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى

الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله . وروى مسلم : من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده فى لحم خنزير ودمه ، وروى الإمام أحمد أنه عليه الصلاة والسلام قال : مثل الذى يلعب النرد ثم يقوم يصلى مثل الذى يتوضأ بالقيح ودم الخنزير . ثم يقوم ويصلى ، أى فلا تقبل له صلاة ، وأخرج الديلمى : إذا مررتم بهؤلاء الذين يلعبون بهذه الأزلام والشطرنج والنرد وما كان من هذه ، أى وما شابه ذلك من لهو محرم ، فلا تسلموا عليهم ، وإن سلموا عليكم فلا تردوا عليهم . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إذا مررتم بهؤلاء الذين يلعبون بهذه الأزلام النرد والشطرنج وما كان من اللهو فلا تسلموا عليهم ، وقال عليه الصلاة والسلام : أشد الناس عذاباً يوم القيامة صاحب الشاه يعنى صاحب الشطرنج ، ومر على كرم الله تعالى وجهه على قوم يلعبون الشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، لأن يمس أحدكم جمراً خير من أن يمسها . ثم قال : والله لغير هذا خلقتم، وقال أيضاً رضى الله تعالى عنه : صاحب الشطرنج أكثر الناس كذبا ، يقول قتلت وما قتل ومات وما مات . وعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن لله عز وجل في كل يوم ثلثمائة وستين نظرة إلى خلقه ليس لصاحب الشاه فيها نصيب . وقال سفيان فى قوله تعالى : ﴿ **وأن تستقسموا بالأزلام** ﴾ هى الشطرنج ، وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه : ما من ميت يموت إلا مثل له جلساؤه الذين يجالسهم ، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج فقيل له : قل لا إله إلا الله فقال : شاه ، ثم مات ، وهذا مصداق الحديث : يموت كل إنسان على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه . ونقل ابن حجر عن فتاوى النووى : الشطرنج حرام عند أكثر العلماء ، وكذا عندنا إن فوت به الصلاة عن وقتها أو لعب به على عوض ، فإن انتفى ذلك كره عند الشافعى وحرم عند غيره .
وقال أيضاً فى الزواجر قال الشافعى رضى الله تعالى عنه : وأكره اللعب بالحزة والقرف ، انتهى ، والحزة بحاء مهملة وزاى مشددة قطعة من خشب يحفر فيها حفر ثلاثة أسطر ويجعل فيها حصيات صغار يلعب بها قد تسمى الأربعة عشر ، وهى المسماة فى مصر بالمنقلة ، وفسرها سليم فى تقريبه بأنها خشبة يحفر فيها ثمانية وعشرون حفرة أربعة عشر من جانب وأربعة عشر من الجانب الآخر ويلعب بها فلعلها نوعان ، والقرف بكسر القاف وسكون الراء ، وحكى الرافعى عن خط

القاضي الروياني فتحها ويسمى شطرنج المغاربة بأن يُخط على الأرض خط مربع ويجعل في وسطه خطان كالصليب ويجعل على رأس الخطوط حصى صغار يلعب بها ، قال الرافعي : هو كالنرد . وعن الشيخ أبي حامد أنه كالشطرنج ، وأما اللعب بالخاتم فكلام الرافعي يقتضي جوازه ، انتهى . وفي « نصاب الاحتساب » قال عطاء رحمه الله : الميسر كل قمار حتى لعب الصبيان بالكعاب . قلت : ومنه المقامرة بالبيض والجوز ، والبيع الذي يسمونه يا نصيب ، وشبه ذلك فلا تغفل .

وبقي في البحث تفصيلات واختلافات من أرادها فليرجع إلى الكتب المفصلات .

ولنرجع إلى ما نحن بصدده من بيان أحكام الذبائح والأطعمة والصيد ، فليعلم أنه لا يحل أكل شيء من الحيوانات التي تؤكل إلا بالذبح أو بجرح الكلب المعلم له كما سنفصله إن شاء الله تعالى . ففي كتاب « الأطعمة والصيد والذبائح » من الميزان، ما ملخصه : أجمعوا على أن الذبائح المعتد بها ذبيحة المسلم العاقل الذي يتأتى منه الذبح سواء الذكر والأنثى ، وأجمعوا على تحريم ذبائح الكفار غير أهل الكتاب ، وعلى أن الزكاة تصح بكل ما أنهر الدم وحصل به قطع الحلقوم والمريء من سكين وسيف وزجاج وحجر وقصب له حد يقطع كما يقطع السلاح المحدد . واتفقوا على أنه لو أبان الرأس لم يحرم ذلك المذبوح خلافاً لسعيد بن المسيب . واتفقوا على أن السنة أن تنحر الإبل قائمة معقولة ، وعلى أن تذبح البقر والغنم مضطجعة . واتفقوا على جواز الاصطياد بالجوارح المعلمة كالكلب والفهد والصقر والشاهين والبازي إلا الكلب الأسود عند الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه . وعن ابن عمر ومجاهد أنه لا يجوز إلا بالكلب فقط . واتفق الأربعة على أنه لو رمى (١) طائراً فجرحه فسقط إلى الأرض فوجده ميتا حل ، وأما ما أجمعوا عليه في الأطعمة فقد أجمعوا على أن لحوم النعم حلال ، واتفقوا على أن كل طير لا مخلب له فهو حلال ، واتفقوا على أن الأرنب حلال ، وعلى أن الحلال من حيوان البحر هو السمك . واتفقوا على أن الجلالة إذا حبست وعلفت طاهراً حتى زالت رائحة النجاسة حلت عند أحمد ، وزالت الكراهة عند من لا يقول بتحريمها كالأئمة الثلاثة . قالوا : ويحبس البعير والبقرة أربعين يوماً والشاة سبعة أيام والدجاجة

---

(١) قوله : لو رمى أي بآلة جارحة ا هـ منه .

ثلاثة أيام ، وأما ما اختلفوا فيه فمن ذلك قول الأئمة الثلاثة أنه لا تجوز الذكاة بالسن والظفر مع قول أبى حنيفة تصح إذا كانا منفصلين ، يعنى عن الذابح ، ومن ذلك قول مالك : يجب قطع هذه الأربعة ، وهى الحلقوم وهو مجرى النفس والمرىء بالهمز كأمير وهو مجرى الطعام والشراب والودجان تثنية ودج بفتحتين عرقان عظيمان فى جانبى قدام العنق بينهما الحلقوم والمرىء ، مع قول الشافعى أنه يجب قطع الحلقوم والمرىء فقط ، ومع قول أبى حنيفة أنه يجب قطع ثلاثة من الحلقوم والمرىء والودجين ، ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى أنه لو ذبح الحيوان من قفاه وبقى فيه حياة مستقرة عند قطع الحلقوم حل وإلا فلا ، وتعرف الحياة المستقرة بالحركة الشديدة مع خروج الدم ، وقال مالك وأحمد : لا تحل بحال . وعن ذلك قول الأئمة الثلاثة أنه لو نحر ما يذبح أو ذبح ما ينحر حل مع الكراهة مع قول مالك أنه لو ذبح بعيراً أو نحر شاة من غير ضرورة لم يؤكل . وحمله بعض أصحابه على الكراهة . ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة أنه لو ذبح حيواناً مأكولا فوجد فى جوفه جنيناً ميتا حل أكله مع قول أبى حنيفة أنه لا يحل . ومن ذلك قول الشافعى باستحباب التسمية عند إرسال الكلب المعلم أو نحوه على الصيد وأنه لو تركها ولو عامداً لم يحرم مع قول أبى حنيفة أنها شرط فى حال كونه ذاكراً فإن تركها ناسياً حل أو عامداً فلا . ومع قول مالك أنه إن تعمد تركها لم يحل ، وإن نسى ففيه روايتان ، ومع قول أحمد فى أظهر روايتيه أنه إن تركها عند إرسال الكلب أو الرمى لم يحل الأكل من ذلك الصيد على الإطلاق عمداً كان الترك أو سهوا .
ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى فى أرجح قوليه وأحمد أن الكلب المعلم لو أكل من الصيد حرم وكذا ما صاده قبل ذلك مما لم يأكل منه ، مع قول مالك والشافعى فى القول الآخر أنه يحل . ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة أنه لو نصب أحبولة فوقع فيها صيد ومات لم يحل مع قول أبى حنيفة أنه إن كان فيها سلاح فقتله بحده حل ، ومن ذلك قول الثلاثة أنه لو توحش إنسى فلم يقدر عليه فذكاته حيث قدر عليه كذكاة الوحشى مع قول مالك (١) إن ذكاته فى الحلق واللبة . ومن ذلك قول الإمام

---

(١) وفى شرح الدردير على مختصر خليل المالكى أن المباح البحرى بأنواعه ولو آدمية وخنزيرة وإن ميتاً وطيرا بجميع أنواعه ، ولو ذا مخلب ، وهو للطائر والسبع بمنزلة الظفر للإنسان كالباز والعقاب والرخم إلا الوطواط فيكره أكله على الراجح ، وكذا من المباح اليربوع والخلد ، وهو فأر أعمى لا يصل للنجاسة ، وكذلك الفأر المعهود مباح حيث لا يصل للنجاسة وما يصل إليها كفأر البيوت يكره على=

الشافعى وأحمد وأبى يوسف ومحمد : يحل أكل لحم الخيل ، مع قول مالك بكراهته ، وقول أصحابه بحرمته ، وهو قول أبى حنيفة . ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة بتحريم أكل لحم البغال والحمير الأهلية مع قول مالك بكراهته كراهة مطلقة . وقال محققو أصحابه أنه حرام ، ومع قول الحسن يحل أكل لحم البغال ، وقال ابن عباس : يحل أكل لحوم الحمر الأهلية ، ومن ذلك اتفاق الأئمة الثلاثة على تحريم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير يعدو به على غيره كالعقاب والصقر والبازى والشاهين ، وكذا ما لا مخلب له إذا كان يأكل الجيف كالنسر والرخم والغراب الأبقع والأسود غير غراب الزرع ، مع قول مالك بإباحة ذلك كله على الإطلاق ، فالأول مشدد ، وقول مالك فيه تخفيف فرجع الأمر إلى مرتبتى الميزان ، ووجه الأول أنه غير مستطاب لأهل الطباع السليمة ؛ ولأن فيه قسوة من حيث إنه يقسر غيره ويقهره من غير رحمة بذلك الحيوان المقسور فيسرى نظير تلك القسوة فى قلب الآكل له . وإذا قسا قلب العبد صار لا يحن قلبه إلى موعظة وصار كالحمار . ومن هنا ورد النهى عن الجلوس على جلود النمار والسباع لأنه يورث القسوة فى القلب كما جرب ، ووجه تحريم ما يأكل الجيف أنه مستخبث ، ووجه قول مالك إن بعض الناس يستطيبه فيباح له أكله فإن العلة فى تحريم غير المستطاب إنما هى من جهة الطب ، وذلك لأن أكل كل ما لا تشتهيه النفس يكون بطىء الهضم فيورث الأمراض عكس أكل الإنسان ما تشتهيه نفسه فإنه يكون سريع الهضم ، وكلما اشتدت الشهوة إليه كان أسرع ، فافهم .

ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة فى المشهور عنهم أنه لا كراهة فيما نهى عن قتله كالخطاف والهدهد والخفاش والبوم والببغاء والطاوس مع قول الشافعى فى أرجح القولين إنه حرام . ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة بتحريم أكل كل ذى ناب من السباع

= المشهور . وكذا من المباح الأرنب والقنفذ والحية إن ذكيت وأمن من سمها ، وكذا خشاش الأرض وهو كعقرب وخنفساء وبنات وردان وجندب ونمل ودود وسوس إلى أن قال : والمكروه أكله سبع وضبع وثعلب وذئب وهر ، وإن وحشياً ، وقيل وفهد ودب ونمر وكلب ماء وخنزيره ، والمعتمد أنهما من المباح ، والمعتمد أيضاً أن الكلب الإنسى مكروه وقيل حرام ولم يرد قول بإباحته وفى كره القرد قولان أرجحهما الكراهة ، وقيل : بل مباح . انتهى باختصار ، ويعرف منه ما فى الميزان فلا تغفل ، اهـ منه .

يعدو به على غيره كالأسد والنمر والذئب والفيل والدب والهرة إلا مالكا فإنه أباح أكل ذلك مع الكراهة ، ومن ذلك قول صاحب التعجيز بتحريم أكل الزرافة مع قول السبكي في الفتاوى الحلبية إن المختار حل أكلها . ومن ذلك قول الشافعي وأحمد : بحل الثعلب والضبع مع قول مالك بكراهة أكل لحمها ، ومع قول أبي حنيفة بتحريمها . ومن ذلك قول مالك والشافعي بإباحة لحم الضب واليربوع مع قول أبي حنيفة بالكراهة ، ومع قول أحمد بإباحة لحم الضب وفي اليربوع روايتان . ومن ذلك قول الثلاثة بتحريم أكل جميع حشرات الأرض كالفأر والذباب والدود مع قول مالك بكراهته ، ومن ذلك قول الثلاثة إن الجراد يؤكل ميتاً على كل حال مع قول مالك أنه لا يؤكل منه ما مات حتف أنفه من غير سبب يصنع به ، ومن ذلك قول مالك والشافعي : يحل أكل القنفذ مع قول أبي حنيفة وأحمد بتحريمه ، ومع قول مالك لا بأس بأكل الخلد والحيات إذا ذكيت ، والخلد دابة عمياء تشبه الفأر ، ومن ذلك قول أبي حنيفة وأحمد والشافعي في أصح قوليه أنه يحرم أكل ابن آوى مع قول مالك أنه مكروه . ومن ذلك قول أبي حنيفة والشافعي في أصح قوليه أنه يحرم أكل ابن آوى مع قول مالك أنه مكروه . ومن ذلك قول أبي حنيفة والشافعي في أصح قوليه إن الهرة الوحشية حرام مع قول مالك إنها مكروهة فقط ، وعن أحمد روايتان الإباحة والحرمة . ومن ذلك قول أبي حنيفة : لا يؤكل من حيوان البحر إلا السمك وما كان من جنسه خاصة مع قول مالك أنه يجوز أكل غير السمك من السرطان وكلب الماء والضفدع وخنزيره ، لكن الخنزير مكروه عنده ، وروى أنه توقف فيه ، ومع قول أحمد : يؤكل جميع ما في البحر إلا التمساح والضفدع والكوسج ، ويفتقر غير السمك عنده إلى الذكاة كخنزير البحر وكلبه وإنسانه ، ومع قول بعض أصحاب الشافعي وهو الأصح عندهم أنه يؤكل جميع ما في البحر . وقال بعضهم: لا يؤكل إلا السمك ، وقال بعضهم : لا يؤكل كلب الماء ولا خنزيره ولا فأرته ولا عقربه ولا حيته وكل ماله شبه في البر لا يؤكل ، ورجح بعض الشافعية أن كل ما في البحر حلال إلا التمساح والضفدع والحية والسرطان والسلحفاة . ومن ذلك قول الثلاثة بكراهة أكل لحم الجلالة من بقر وشاة وغيرهما مع قول أحمد بتحريم أكل لحمها ولبنها وبيضها ، ومن ذلك اتفاق الأئمة الأربعة على تعذر تطهير الدهن المائع إذا تنجس وأن ثمنه حرام مع قول بعضهم إن الدهن يطهر بغسله ، قلت : وقد صرح أئمتنا الحنفية بأنه يغلى مع الماء ثلاث مرات فيطهر . وكذلك اتفقوا على جواز

الاستصباح به مع قول الشافعى لا يجوز الاستصباح به ، قلت : والذى يخطر ببالى أنهم خصوه فى غير المسجد ، وأما فيه فلا يجوز ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة باستحباب ضيافة المسلم للمسلم إذا مر على قريته ولم تكن ذات سوق ولم يكن به ضرورة دون الوجوب ، مع قول أحمد بوجوب الضيافة المذكورة ، لكن الوجوب ليلة واحدة والثلاث مستحبة ، ومتى امتنع من الواجب صار عليه دينا ، ومن ذلك قول أبى حنيفة والشافعى فى أحد قوليه أنه لا يجوز للمضطر إلى أكل الميتة ونحوها الشبع وإنما يأكل ما يسد الرمق مع قول مالك وأحمد فى إحدى روايتيه أنه يشبع ا هـ باختصار .

ولنذكر من كلام أئمتنا الحنفية فى بحث الذبائح تتميماً للفائدة فأقول : قال فى الدر وحاشيته : حرم حيوان من شأنه الذبح ما لم يذك ، وذكاة الضرورة جرح الصيد غير مستأنس فى أى موضع وقع من البدن ، وذكاة الاختيار ذبح بين الحلق واللبة وعروقه الحلقوم وسطه أو أعلاه أو أسفله والمرىء والودجان ، وحل بقطع أى ثلاث منها وبكل ما أفرى الأوداج وأنهر الدم ولو بنار أو ليطة أو حجر كالسكين ، إلا سنا وظفراً قائمين ، ولو كانا منزوعين حل مع الكراهة لما فيه من الضرر بالحيوان كذبحه بشفرة كليلة . وندب إحداد شفرته قبل الاضجاع وكره بعده كالجر برجلها إلى المذبح لأنها تعرف ما يراد بها كما جاء فى الخبر : أبهمت البهائم إلا عن أربعة : خالقها ورازقها وحتفها وسفادها ، وكره ذبحها من قفاها إن بقيت حية حتى تقطع العروق وإلا لم تحل لموتها بلا ذكاة . ويكره النخع وهو إبلاغ السكين النخاع ، وهو عرق أبيض فى جوف عظم الرقبة ، ويكره أن يمد رأسه حتى يظهر مذبحه ، وكره كسر عنقه قبل أن يسكن عن الاضطراب ، وكره أيضاً كل تعذيب بلا فائدة مثل قطع الرأس والسلخ قبل أن تبرد ، وكره ترك التوجه إلى القبلة لمخالفته السنة ، وشرط كون الذابح مسلماً أو كتابيا ذميا أو حربيا إلا إذا سمع منه عند الذبح ذكر المسيح . وذبح الشاة يجوز من محرم وغيره ولو فى الحرم ، ولا تحل ذبيحة وثنى ومجوسى ومرتد ، قيل وجهمى ونحوه ، وهو قول ضعيف مردود ، ولا تحل ذبيحة من تعمد ترك تسمية (١) مسلماً أو كتابياً لقوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾

---

(١) وفى الميزان أن الذبيحة إن ترك التسمية عليها عمدا لم يجز أكلها عند الإمام أحمد وإن ناسياً ففيه روايتان، وبذلك قال مالك، وقال الشافعى بالجواز مطلقاً ، والإمام أبو حنيفة بالنسيان ، وتمام =

خلافا للشافعي ، وهو خلاف الإجماع ، وأما ما استدل به من قوله عليه الصلاة والسلام : المسلم يذبح على اسم الله سمى أو لم يسم فمحمول على حالة النسيان، وتشترط التسمية من الذابح حال الذبح أو الرمى لصيد ، أو الإرسال لكلب أو نحوه، وكفى جرح بقر وغنم توحش فيجرح كصيد ، أو تعذر ذبحه كأن تردى فى بئر أو ند، أى نفر ، أو صال حتى قتله المصول عليه مريداً ذكاته حل إذا كان سمى عند جرحه مريداً ذكاته ، والجنين لا بد من تذكيته ، ولو ذبح شاة مريضة فتحركت أو خرج الدم حلت وإلا لا إن لم تدر حياته عند الذبح ، وإن علم حياته حلت مطلقاً، أى وإن لم يتحرك ولم يخرج الدم . ولو ذبح لقدوم الأمير ونحوه يحرم وإن ذكر اسم الله تعالى عليه ، ولو ذبح للضيف لا يحرم ، وإن قصد التعظيم لغير الله تعالى قيل : يكفر ، والعضو المنفصل من الحى حكمه كميتته إلا من مذبوح قبل موته فيحل أكله لو من الحيوان المأكول لكنه مكروه ا هـ .

وفى كتاب الزواجر أن من جملة الكبائر المثلة بالحيوان بقطع شىء من نحو أنفه أو أذنه أو وسمه فى وجهه أو اتخاذه غرضاً أو قتله لغير الأكل أو عدم إحسان ذبحه ، فقد أخرج أحمد بن حنبل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من مثل بذى روح ثم لم يتب مثل الله به يوم القيامة . وأخرج مسلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر بحمار وقد أشعر فى وجهه فقال : لعن الله الذى وسمه . وصح نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الضرب فى الوجوه وعن الوسم فيه . وروى ابن عمر : لعن الله من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً ، وهو بالغين المعجمة ما ينصبه الرماة يقصدون إصابته . وأخرج النسائى وابن حبان : من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول إن فلاناً قتلنى عبثاً ولم يقتلنى منفعة . وروى الحاكم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرته وهى تلحظ إليه ببصرها قال : أفلا قبل هذا ، تريد أن تميتها موتات ، هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها . وفى الصحيحين أن امرأة دخلت النار بهرة حبستها . وقال عليه الصلاة والسلام: من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله لن تؤمنوا حتى تراحموا، ارحموا

= البحث فيه ، وأما الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند الذبح فقال الشافعى باستحبابها، وأحمد بعدم مشروعيتها ، وأبو حنيفة ومالك رضى الله تعالى عنهما بكراهتها إذ ذاك فلا تغفل ا هـ منه .

ترحموا ، واغفروا يغفر لكم . ومن الكبائر أيضاً الذبح لغير الله تعالى لا على وجـ التعظيم والعبادة فإن كانت على وجههما فذلك كفر . قال ابن حجر : وجعل أصحابنا مما يحرم الذبيحة أن يقول باسم الله واسم محمد ، أو ومحمد رسول الله أو أن يذبح كتابى لكنيسته أو للصليب أو لموسى أو لعيسى ، أو ذبح مسلم للكعبة أ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو تقرباً لسلطان أو غيره ، أو للجن فهذا كل ميتة ، بخلاف ما لو قصد الفرح بقدومه أو شكر الله تعالى عليه أو لله تعالى ليدفع عنه شر الجن . ومن الكبائر أيضاً تسييب السوائب كما قال تعالى : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام** ﴾ وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة عشرة أبطن شقوا أذنها فيسيبونها فلا تركب ولا يحمل عليها ، وهى البحيرة ، وأما السائبة فهى التى تركت حيث شاءت ، وقيل : كان الرجل إذا مرض أو قدم من سفر سيب بعيره شكراً ، وقال ابن عباس : هى التى تسيب للأصنام . وأما الوصيلة فهى إذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، وأما الحام فيقال حماه يحميه إذا حفظه ، قال السدى هو الفحل الذى يضرب فى الإبل عشر سنين فيخلى ، وقيل إن الفحل إذا ركب ولد ولده ، قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى حتى يموت . ثم قال : وقال أصحابنا : من ملك صيدا ثم سيبه أثم.

فيا إخوانى عليكم بأكل الطيبات ، والرحمة على كافة المخلوقات ، وامتثال ما أمر به سيد الرسل الكرام ، والاجتناب عما نهى من الآثام ، فقد أعذرت إليكم الأيام، بمن سلبت من الأنام ، وأيقظت الخطوب من غفل ونام ، أما علمتم أن هذه الدنيا غدارة ، أما برد لذاتها ينقلب حرارة ، أما ربحها على التحقيق خسارة ، أما ينقص الدين كلما ازدادت العمارة ، رحل الإخوان ومروا على جدد ، هذه ديارهم سلوها ما بقى أحد ، مضت والله الخيل بفرسانها ، وتهدمت الحصون على سكانها ، فجز عليها ، واعتبر بشأنها ، فتنبه لنفسك أيها الظلوم ، وتيقظ من رقادك إلى كم يا نؤوم، وحصل شيئاً ترض به الخصوم ، قتلتك هموم الدنيا وبئس الهموم ، أتلعب بالزنابير ولم تشرب درياق السموم ، قد بقى القليل فبادر تحصيل المروم ، وهذا هاجم الموت قد تهيأ للهجوم .

أين الذين كانوا فى اللذات يتقلبون ، ويتجبرون على الخلق ولا يغلبون ، مزجت

لهم كئوس المنايا فباتوا يتجرعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ مدوا أيديهم إلى الحرام ، وأكثروا من الزلل والآثام ، وكم وعظوا بمنثور ومنظوم من الكلام ، لو أنهم يسمعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ حمل كل منهم إلى كفن ، إلى بيت البلا والعفن ، وما صحبهم غيره من الوطن ، من كل ما كانوا يجمعون ، ضمهم والله التراب ، وسد عليهم فى ثراهم الباب ، وتقطعت بهم الأسباب والأحباب يرجعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ أين أموالهم والذخائر ، أين أصحابهم والعشائر ، دارت على القوم الدوائر ، ففيم أنتم تطمعون ، شغلوا عن الأهل والأولاد ، وافتقروا إلى يسير من الزاد ، وباتوا من الندم على أخشن مهاد ، وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزعمون ، أين الجنود والخدم ، أين الحرم والحرم ، أين النِّعم والنَّعم ، بعد ما كانوا يرتعون فيما يرتعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ لو رأيتهم فى حلل من الندامة ، إذ برزوا يوم القيامة ، وعليهم للعقاب علامة ، يساقون إلى الذل لا بالكرامة ، إلى النار فهم يوزعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ يا معشر العاصين قد بقى القليل ، والأيام تنادى دنا الرحيل ، وقد صاح بكم إلى الهدى إن كنتم تسمعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

اللهم يا من فاز بطاعته المفلحون ، ورجا مغفرته العاصون ، اجعلنا ممن بالمواعظ يتعظون ، وجد علينا يا رب بأفضل ما سألك السائلون ، وكن لنا يا رب فى الحركة والسكون ، وارحمنا إذا نزلت بنا المنون ، وأنلنا ما ناله عبادك الصالحون ، إنك على كل شىء قدير .

* * *

المجلس الثلاثون
فى زكاة الفطر وتفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله المنزه عن الأشباه فى الأسماء والأوصاف ، المقدس عن الجوارح والآلات والأطراف ، خضعت لعزته الأكوان وأقرت عن اعتراف ، وانقادت له القلوب وهى فى انقيادها تخاف ، أنزل القطر فمنه الدر تحويه الأصداف ، ومنه القوت البذر ويربى الضعاف ، كشف للمتقين اليقين فشهدوا ، وأقامهم فى الليل فسهروا ، فأراهم عيب الدنيا فرفضوا وزهدوا ، وقالوا نحن أضياف ، وقضى على

المخالفين بالبعاد ، فأفاتهم التوفيق والإسعاد ، فكلهم هام فى الضلال وما عاد ، واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف .

أحمده على ستر الخطايا والاقتراف ، وأصلى على رسوله محمد الذى أنزل عليه ق، وعلى صاحبه أبى بكر مقدم الأشراف ، وعلى عمر صاحب العدل والإنصاف ، وعلى عثمان الصابر على الشهادة صبر النظاف ، وعلى علىٍّ محبوب أهل السنة الظراف ، وعلى بقية آله وأصحابه وزوجاته المتصفين بالعفاف ، وسلم تسليما .

أما بعد : فقد قال الله تبارك وتعالى : بسم الله الرحمن الرحيم **﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى * سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى * ونيسرك لليسرى * فذكر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى* الذى يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى * قد أفلح من تزكى* وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى ﴾** .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : تسمى هذه السورة سورة الأعلى ، وسورة سبح، والجمهور على أنها مكية ، وقيل إنها مدنية لذكر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يحبها ، فقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل عن على كرم الله تعالى وجهه قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب هذه السورة سبح اسم ربك الأعلى ، وجاء فى حديث أخرجه أبو عبيدة أنه عليه الصلاة والسلام سماها أفضل المسبحات ، وأخرج أبو داود والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله تعالى عنها : كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ فى الوتر الركعة الأولى : سبح ، وفى الثانية : قل يا أيها الكافرون ، وفى الثالثة : قل هو الله أحد والمعوذتين، وأخرج الإمام أحمد ومسلم وابن أبى شيبة عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة سبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق العيد يوم جمعة قرأهما جميعاً، وأخرج الطبرانى عن عبد الله بن الحرث قال : آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المغرب فقرأ فى الركعة الأولى بسبح اسم ربك الأعلى وفى الثانية بقل يا أيها الكافرون ، وقوله سبحانه وتعالى سبح اسم ربك الأعلى كما

قال الوالد عليه الرحمة فى تفسيره روح المعانى ، أى نزه أسماءه تعالى عما لا يليق، فلا تؤول مما ورد منها اسماً من غير مقتض ولا تبقه على ظاهره إذا كان ما وضع له مما لا يصح له تعالى ، ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلاً إذا كان مختصاً كالاسم الجليل ، أو على وجه يشعر بأنه تعالى والغير فيه سواء ، إذا لم يكن مختصا فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلا هذا راقى على وجه الخشوع والتعظيم ، وربما يعد مما لا يليق ذكره عند من يكره سماعه من غير ضرورة إليه ، وعن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه أنه كان إذا لم يجد ما يعطى السائل يقول ما عندى ما أعطيك أو ائتنى فى وقت آخر أو نحو ذلك ، ولا يقول نحو ما يقول الناس يرزقك الله تعالى ، أو يبعث الله تعالى لك ، أو يعطيك الله تعالى أو نحوه ، فسئل عن ذلك فقال : إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسئول له ما يفيده رده وحرمانه ، فأنا أجل اسم الله سبحانه وتعالى من أن أذكره لمن يكره سماعه ولو فى ضمن جملة، وهذا منه رضى الله تعالى عنه غاية فى الورع ، وما ذكر من التفسير مبنى على الظاهر من أن لفظ اسم غير مقحم ، وذهب كثير إلى أنه مقحم أى زائد لضرب من التعظيم على سبيل الكناية ، ومنه قول لبيد * إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * فالمعنى نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف ، واستدل لهذا بما أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اجعلوها فى ركوعكم . فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها فى سجودكم ، ومن المعلوم أن المجعول فيهما سبحان ربى العظيم وسبحان ربى الأعلى ، وبما أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربى الأعلى ، وروى عبد بن حميد وجماعة أن علياً كرم الله تعالى وجهه قرأ ذلك فقال سبحان ربى الأعلى وهو فى الصلاة فقيل له أتزيد فى القرآن قال : لا إنما أمرنا بشيء فنفعله . والأعلى صفة للرب ، وأريد بالعلو العلو بالقهر والاقتدار لا بالمكان لاستحالته عليه سبحانه ، والسلف وإن لم يؤولوه بذلك لكنهم أيضاً يقولون باستحالة العلو المكانى عليه عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ **الذى خلق فسوى** ﴾ أى خلق كل شيء فجعله متساوياً أى كما تقتضيه حكمته سبحانه ، وقيل أى فجعل الأشياء سواء فى باب الإحكام والإتقان لا أنه سبحانه وتعالى أتقن بعضا دون بعض، وقال الزجاج : خلق الإنسان متساويا لم يجعله منكوسا كالبهائم ، وقال

الكلبى : خلق كل ذى روح فسوى بين يديه وعينيه ورجليه ، وقيل خلق الأجساد فسوى الأفهام ، وقيل خلق الإنسان وهيأه للتكليف والقيام بأداء العبادات . وقيل خلق فى أصلاب الآباء وسوى فى أرحام الأمهات . وقيل غير ذلك وقوله تعالى : ﴿ **والذى قدر فهدى** ﴾ صفة أخرى للرب ، قرأ على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه والكسائى قدر بالتخفيف من القدرة أو التقدير ، وقرأ الباقون مشددا ، والمعنى: قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له، وبسره لما خلق له وألهمه إلى أمور دينه ودنياه. وقال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها ، وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة . وروى عنه أيضاً أنه قال : قدر السعادة والشقاوة ، وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الأنعام لمراعيها . وقيل قدر أرزاقهم وأقواتهم وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسا ولمراعيهم إن كانوا وحشا ، وقال عطاء جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل خلق المنافع فى الأشياء وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها . وقال السدى قدر مدة الجنين فى الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر ثم هداه للخروج من الرحم . قال الفراء أى قدر فهدى وأضل فاكتفى بأحدهما ، وقيل غير ذلك ، ولما ذكر سبحانه ما يختص بالناس أتبعه بما يختص بالحيوان فقال : ﴿ **والذى أخرج المرعى** ﴾ أى أنبت سبحانه العشب وما ترعاه الدواب من النبات الغض الرطب الأخضر ﴿ **فجعله غثاء أحوى** ﴾ هو ما يقذف به السيل على جانب الوادى من الحشيش والنبات ، أى جعل النبات الأخضر يابسا ﴿ **أحوى** ﴾ أى أسود ، وفى الصحاح : الحوة السمرة ، فالمراد بأحوى أسود أو أسمر ، ولا تنافى بينهما ، وقوله : ﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ بيان لهدايته تعالى شأنه الخاصة برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إثر بيان هدايته عز وجل العامة لكافة مخلوقاته سبحانه وتعالى ، وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحى وحفظ القرآن ، الذى هو هدى للعالمين ، وتوفيقه صلى الله تعالى عليه وسلم لهداية الناس أجمعين . وقوله تعالى : فلا تنسى فيه أقوال ، قيل : لا نافية وهو الظاهر ، وقيل : لا ناهية والألف لمراعاة الفاصلة ، كما فى قوله تعالى : فأضلونا السبيلا ، وإسناد الإقراء إليه تعالى مجازى أى سنقرئك بالوحى إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام الواسطة فى ذلك ، قال مجاهد والكلبى : كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل

من آخر الآية حتى يتكلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأولها مخافة أن ينساها فنزلت هذه الآية فلم ينس شيئاً بعد ذلك . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ، كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى فقيل له قد كفيناك ذلك ، ونزلت هذه الآية ، وهذه الآية تدل على نبوته عليه الصلاة والسلام فإنه كان أمياً أى لا يقرأ ولا يكتب كما هو الصحيح ، فحفظه للقرآن العظيم من غير دراسة ولا تكرار من أعظم المعجزات الخارقة للعادات . وقوله تعالى : ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، أى لا تنسى مما تقرؤه شيئا من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه ، قال الفراء وهو سبحانه لم يشأ أن ينسى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم شيئاً وهذا كقوله تعالى : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء الله ، وبقى فيها وجوه أخر لا يسع المقام ذكرها ، ومن أرادها فليرجع إلى روح المعانى ، وقوله تعالى : ﴿ **إنه يعلم الجهر وما يخفى** ﴾ تعليل لما قبله ، أى يعم ما ظهر وما بطن والإعلان والإسرار ، أى أنه تعالى يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور التى من جملتها حالك وحرصك على حفظ ما يوحى إليك بأسره ، فيقرئك ما يقرئكه ويحفظك عن نسيان ما شاء منه وينسيك ما شاء منه مراعاة لما نيط بكل من المصالح والحكم التشريعية ، وقيل : توكيد لجميع ما تقدمه وما بعده ، وقوله تعالى: ﴿ **ونيسرك لليسرى** ﴾ أى نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى فى كل باب من أبواب الدين علماً وتعليماً ، فيندرج فيه تيسير تلقى طريقى الوحى والإحاطة بما فيه من الأحكام . وقيل غير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ **فذكر إن نفعت الذكرى** ﴾ أى عظ الناس يا محمد بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير ، واهدهم إلى شرائع الدين ، وقال الفراء والنحاس : الكلام على الاكتفاء ، والأصل فذكر إن نفعت الذكرى ، وإن لم تنفع كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد ، قال الواحدى لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث مبلغاً فعليه التذكير فى كل حال ، وقيل غير ذلك . ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال سبحانه : ﴿ **سيذكر** ﴾ أي سيتعظ بوعظك ﴿ **من يخشى** ﴾ الله فيزداد بالتذكير خشية وصلاحا ﴿ **ويتجنبها** ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها فلا يقبلها ﴿ **الأشقى** ﴾ من الكفار لإصراره على الكفر ، وانهماكه فى المعاصى . وقيل المراد به الكافر المتوغل فى عداوة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ، وقد روى أن الآية نزلت فيهما ، ثم وصف سبحانه الأشقى فقال : ﴿ **الذى يصلى النار**

الكبرى ﴾ هى الطبقة السفلى من أطباق النار ، وقال الحسن : الكبرى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا ، وقد روى الإمام أحمد مرفوعا : إن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم أجارنا الله تعالى وإياكم منها ﴿ **ثم لا يموت فيها** ﴾ ذلك الشقى فيستريح ﴿ **ولا يحيى** ﴾ حياة تنفعه وقيل : إن روح أحدهم تصير فى حلقه فلا تخرج فيموت ولا ترجع إلى موضعها من الجسد فيحيا ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياة لها طعم

قال الوالد عليه الرحمة : اعلم أن عدم الموت فى النار مخصوص بالكفرة ، وأما عصاة المؤمنين فيموتون فيها ، واستدل لذلك بما أخرجه مسلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أما أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتهم الله تعالى إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن فى الشفاعة فجىء بهم ضبائر ضبائر [1] فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل . ولما ذكر سبحانه وعيد من أعرض عن النظر فى دلائل ألوهيته أتبعه بالوعد لمن آمن بربوبيته وصدق بنبيه وأتى بأحكام شريعته فقال : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ أي نال الفوز من تطهر من الشرك فآمن بالله ووحده وصدق رسوله ، فقد أخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى ذلك : من شهد أنه لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أنى رسول الله ، واعتبر بعضهم أمرين فقال أى تطهر من الكفر والمعصية ، وقيل : من تزكى أى تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النمو ، ونحوه قوله تعالى حكاية عن عيسى : ﴿ **وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً** ﴾ وقيل : تطهر للصلاة ، وقيل : أعطى الزكاة ، وعن على ، كرم الله تعالى وجهه : تزكى أى تصدق صدقة الفطر ﴿ **وذكر اسم ربه** ﴾ كبر يوم العيد ﴿ **فصلى** ﴾ صلاة العيد ، وعن جماعة من السلف ما يقتضى ظاهره ذلك ، فعن عطاء وقتادة وأبى العالية أنها نزلت فى صدقة الفطر ، وعن عوف عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد ، ويتلو هذه الآية ، أخرجه ستة من أصحاب السنن ، وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى

---

(١) قوله : ضبائر ضبائر أى : جماعات جماعات ا هـ منه .

عنه ، كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر .

ولنذكر إن شاء الله تعالى فى هذا الدرس ما ورد فى فضائل زكاة الفطر من الآثار وأحكامها الفقهية من كتب الأئمة الأخيار ، فأقول : قال فى الدر المختار : واجبات الإسلام سبعة : الفطرة ونفقة ذى رحم ووتر وأضحية وعمرة وخدمة أبويه والمرأة لزوجها . وروى ناصر السنة ابن الجوزى فى التبصرة عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر . وروى أبو داود عن ابن عباس أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة فهى صدقة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات . وفى الدر وحاشيته أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يخطب قبل الفطر بيوم أو يومين ، فيقول أدوا صاعا من بر أو قمح بين اثنين أو صاعا من تمر أو شعير عن كل حر أو عبد صغير أو كبير ، قالوا : وهو واجب على كل مسلم ولو صغيراً أو مجنوناً ذى نصاب فاضل عن حاجته الأصلية ، وإن لم يتم ذلك النصاب، والصاع ما يسع ألفا وأربعين درهما وهو أربعة أمداد والمد رطلان والرطل نصف منٍّ والمنُّ بالدراهم مائتان وستون درهما ، وبالإستار أربعون والإستار بكسر الهمزة بالدراهم ستة ونصف وبالمثاقيل أربعة ونصف ، فالمد والمن سواء كل منهما ربع صاع رطلان بالعراقى والرطل مائة وثلاثون درهما ، وفى الزيلعى : اختلف فى الصاع فقال الطرفان ثمانية أرطال بالعراقى وقال الثانى خمسة أرطال وثلث ، وقيل : لا خلاف لأن الثانى قدره برطل المدينة ، وعند الأئمة الثلاثة الصاع ما يسع خمسة أرطال وثلثا بالعراقى ، ثم اعلم أن الدرهم الشرعى أربعة عشر قيراطاً والمتعارف الآن ستة عشر ، فإذا كان الصاع ألفا وأربعين درهما شرعيا يكون بالدرهم المتعارف ستمائة وعشرة ، وتجب زكاة الفطر موسعا فى العمر وقيل مضيقاً فى يوم الفطر ، لقوله عليه الصلاة والسلام : أغنوهم - يعنى الفقراء - عن المسألة فى هذا اليوم ، وجاز دفع كل شخص فطرته إلى مسكين أو مساكين كما جاز دفع صدقة جماعة إلى مسكين واحد ، ويكره أن يدفعها إلى ذمى ، وعند الشافعى وإحدى الروايتين عن أبى يوسف أنه لا يجوز ، والفتوى على قوله . انتهى . وقال الشعرانى فى الميزان :

زكاة الفطر واجبة باتفاق الأئمة الأربعة ، وقال الأصم وإسماعيل ابن علية : هى مستحبة، واتفقوا أن كل من لزمته زكاة الفطر لزمته زكاة أولاده الصغار ومماليكه المسلمين ، كما اتفقوا على وجوبها على الصغير والكبير ، وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنها تجب على كل من أطاق الصلاة والصوم . وعن سعيد بن المسيب أنها لا تجب إلا على من صام وصلى ، واتفقوا على أنه يجوز تعجيل الفطر قبل العيد بيومين ، واتفقوا على أنها لا تسقط بالتأخير بعد الوجوب ، بل تصير ديناً حتى تؤدى ، وأما ما اختلفوا فيه فمن ذلك قول مالك والشافعى والجمهور أن زكاة الفطر فرض واجب بناء على أن الفرض هو الواجب والواجب هو الفرض ، مع قول أبى حنيفة أنها واجبة وليست بفرض ؛ لأن الفرض عنده آكد من الواجب . ومن ذلك قول الثلاثة أنها تجب على الشريكين فى العبد المشترك ، وفى رواية لأحمد أن كلا من الشريكين يؤدى عن حصته صاعا كاملا ، مع قول أبى حنيفة أنها لا تجب على الشريكين عنه . ومن ذلك قال الأئمة الثلاثة أنه يجب على الزوج فطرة زوجته كما يجب عليه نفقتها مع قول أبى حنيفة أنه لا تجب عليه فطرتها ، ومن ذلك قول مالك والشافعى وأحمد أنه لا يعتبر فى وجوب زكاة الفطر أن يكون المخرج يملك نصابا من الفضة وهو مائتا درهم ، بل قالوا : إن كل من فضل عن قوته وقوت من تلزمه نفقته يوم العيد وليلته شيء قدر زكاة الفطر وجبت عليه ، مع قول أبى حنيفة : أنها لا تجب إلا على من ملك نصاباً كاملاً فاضلاً عن مسكنه وعبده وفرسه وسلاحه. ومن ذلك قول أبى حنيفة : أنها تجب بطلوع فجر أول يوم من شوال مع قول أحمد: أنها تجب بغروب الشمس ليلة العيد ، ومع قول مالك والشافعى : أنها تجب بغروب شمس ليلة العيد على الراجح من قوليهما . ومن ذلك اتفاقهم على أنه لا يجوز تأخيرها عن يوم العيد ، قال أحمد : أرجو ألا يكون به بأس ، ومن ذلك قول الثلاثة : أنه يجوز إخراجه من خمسة أصناف البر والشعير والتمر والزبيب والأقط ، وهو لبن يابس مجفف يطبخ به إذا كان قوتا مع قول أبى حنيفة : أنها لا تجزئ فى الأقط بنفسه وتجزئ بقيمته .

وقال الشافعى : كل ما يجب فى العشر فهو صالح لإخراج زكاة الفطر منه كالأرز والذرة والدخن ونحوه ، قلت : ونقل فى الدرر واللآلئ عن الشيخ ابن تيمية الحنبلى أنه يجزئ قوت بلده مثل الأرز وغيره ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ من

أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ ومن ذلك قولهم إن القيمة لا تجزئ مع قول أبى حنيفة أنها تجزئ ، ومن ذلك قول مالك وأحمد : إن إخراج التمر أفضل مع قول الشافعى إن البر أفضل ، ومع قول أبى حنيفة إن أفضل ذلك أكثره ثمنا ، ومن ذلك قول الثلاثة إن الواجب صاع بصاع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من كل جنس من الأجناس الخمسة السابقة ، مع قول أبى حنيفة إنه يجزئ من البر نصف صاع ، ومن ذلك قول الشافعى وجمهور أصحابه إن مصرف الفطرة يكون إلى الأصناف الثمانية كما فى الزكاة وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ، وهم المكاتبون ، والغارمون ، وهم المدينون ، وفى سبيل الله وهم الغزاة ، وابن السبيل وهو المسافر ، مع قول الإصطخرى منهم يجوز صرفها إلى ثلاثة من الفقراء والمساكين ، ومع قول مالك وأبى حنيفة وأحمد بجواز صرفها إلى فقير واحد فقط . قالوا : ويجوز صرف فطرة جماعة إلى مسكين واحد ، واختاره ابن المنذر وأبو إسحاق الشيرازى ، ومن ذلك قول أبى حنيفة أنه يجوز تقديم زكاة الفطر على شهر رمضان مع قول الشافعى أنه لا يجوز تقديمها إلا من أول شهر رمضان ، ومع قول مالك وأحمد أنه لا يجوز التقديم عن وقت الوجوب . ا هـ .

أقول : وقول أبى حنيفة أوسع فى مسألة دفع القيمة أو دفعها إلى فقير واحد فمن أراد تقليد الإمام أبى حنيفة من أتباع سائر المذاهب فعليه بالتقليد فى هذه المسألة فإن تقليد المذهب المخالف جائز من غير تلفيق كما صرحت به أئمة المذاهب الأربعة .

فيا إخوانى إن شهر رمضان قد قرب رحيله ، وأزف تحويله ، وهو ذاهب عنكم بأفعالكم ، وشاهد عليكم غدا بأعمالكم ، فيا ليت شعرى ماذا قد أودعتموه ، وبأى الأعمال ودعتموه ، أتراه يرحل حامدا صنيعكم ، أو شاكيا تضييعكم ، ما كان أعظم ساعاته ، وما كان أحلى جميع طاعاته ، كانت لياليه عتقا ومباهاة ، وأسحاره أوقات خدمة ومناجاة ، ونهاره زمان قربة ومصافاة ، وساعاته أحيان اجتهاد ومعاناة ، فبادروا البقية بالتقية ، قبل فوات البر ونزول البلية ، أين المخلص المتعبد ، أين الراهب المتزهد ، أين المنقطع المتفرد ، أين العامل المجود ، هيهات بقى عبد الدنيا ومات السيد ، وهلك من خطاياه خطأ وعاش المتعمد ، وصار مكان الخاشعين لكل منافق متمرد ، رحل عنك شهر الصيام ، وودعك زمان القيام ، وبح النصيح وقد لام ، فاستدرك ما بقى من الأيام ، أسفا لمن ضيع الأوقات وقد عرفها ، وسلك

بنفسه طريق الهوى فأهلكها ، أنس بالدنيا كأنه خلق فيها لها ، وأمله لا ينتهى وأجله قد انتهى ، عجبا لعين أمست بالليل هاجعة ، ونسيت أهوال يوم الواقعة ، كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب ، وكم ظلام أسبل ستره وأنت فى عصيان وعجائب ، وكم صحيفة ملأها بالذنوب عليك الكاتب ، وكم ينذرك فراق رفيقك وأنت لاعب، يا من يأمل الإقامة وقد زمت الركائب ، أفق من سكرتك قبل حسرتك على المعائب، وتذكر نزول حفرتك وهجران الأقارب :

تبكى وتندب آثار الذين مضوا ... وسوف تلحق آثار بآثار

طالت عمارتنا على الدنيا غرر ... ونحن نعلم أنا غير عمار

اترك مفاخر فى الدنيا وزينتها ... يوم القيامة يوم الفخر والعار

لقد أبانت الدنيا للناظر عيوبها ، وكشفت للبصائر غيوبها ، وعددت على المسامع ذنوبها ، وما مرت حتى أمرت مشروبها ، فلذتها مثل لمعان برق ، ومصائبها واسعة الخرق ، ساوت عواقبها بين سلطان الغرب والشرق ، وبين عبد حقير وسيد خطير ولا فرق ، فما نجى منها ذو مال وعدد ، ولا سلم فيها صاحب عدد وولد ، فرقت والله الكل بكف البدد ، ثم ولت ولا ألوت على أحد ، وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا وحالكم خيرا من ماضيه ، وختم لنا بصالح الأعمال، وأعادنا وإياكم على هذا الشهر فى أحسن حال ، ورحمنا وكافة المسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس الحادى والثلاثون
فى صلاة عيد الفطر وشوال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله موفر الثواب للأحباب ومكمل الأجر ، وباعث ظلام الليل ينسخه نور الفجر ، المحيط علماً بخائنة الأعين وخافية الصدر ، ويعلم الإنسان ما لم يعلم ولم يدر ، المتعالى عن إدراك خواطر النفس وهواجس الفكر ، الموالى برزقه فلم ينس النمل فى الرمل والفرخ فى الوكر ، جل أن تناله يد الحوادث على مرور الدهر ، أغنى وأفقر وأجاع وأشبع ، وأصم وأسمع ، فبإرادته وقوع الغنا والفقر ، وبمشيئته

إدراك السمع ومنع الوقر ، أبصر فلم يخف عليه دبيب الذر فى البر ، وسمع فلم يعزب عن دعاء المضطر ، وقدر فلم يحتج إلى معين يمده للإعانة والنصر ، وخصنا من بين الأمم بشهر الصيام والصبر ، وغسل به ذنوب الصائمين كغسل الثوب بماء القطر ، فله الحمد إذ رزقنا إتمامه ومَنَّ علينا بعيد الفطر ، أحمده حمداً لا منتهى لعدده ، وأشكره شكراً لا يحصى موصول مدده ، وأتوكل عليه توكل عبد على سيده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة مخلص فى معتقده ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى نبع الماء من أصابع يده ، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وتابعى مقصده ، ولا سيما على أبى بكر الصديق التارك لحبه طيب وطنه ، وعزيز ولده ، وعلى عمر بن الخطاب ناصر الإسلام ومقوم أوده ، وعلى عثمان بن عفان الصابر من مر البلاء على أشده ، وعلى ابن عمه على بن أبى طالب الفائق على الأصحاب بشجاعته وعلمه ورشده ، وعلى بقية الصحابة والقرابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى كلامه جل وعلا : ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ الآيات .

ونقول ، وبالله تعالى الاستعانة ، ومنه عز شأنه الإعانة : قد تقدم الكلام فى الدرس الماضى على هذه السورة إلى قوله تعالى : ﴿ **من تزكى** ﴾ ، ولنذكر فى هذا الدرس إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذكر اسم الرب جل جلاله صلاة العيد وما يلتحق بذلك ، سالكين إن شاء الله تعالى أوضح المسالك ، فليعلم أن فى هذه الآية أقوالاً : فقيل المعنى ذكر اسم ربه بالخوف وعبده وصلى له ، وقيل : ذكر اسم ربه بلسانه وكبر للافتتاح ، فصلى أى فأقام الصلوات الخمس ، وقيل ذكر موقفه ومعاده فعبده ، وقيل ذكر اسم ربه بالتكبير أى قال : الله أكبر فى أول الصلاة ، وعن على كرم الله تعالى وجهه : تزكى ، أى تصدق صدقة الفطر ، وذكر اسم ربه كبر يوم العيد فصلى صلاة العيد ، وعلى ذلك جماعة من السلف كما قدمناه لك ، وفى كتاب الميزان للشعرانى أن الأئمة اختلفوا فى باب صلاة العيد فى مسائل ، فمنها قول أبى حنيفة فى إحدى روايتيه أن صلاة العيد واجبة على الأعيان كالجمعة ، مع قول مالك والشافعى أنها سنة ، ومع قول أحمد أنها فرض على الكفاية ، وقد قال كثير

من العلماء أنه أفضل من فرض العين لكونه أسقط الحرج عن صاحبه وعن غيره ، ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد أن من شرائط صلاة العيدين العدد والاستيطان وإذن الإمام فى إحدى الروايتين عن أحمد كما فى الجمعة ، وزاد أبو حنيفة : وأن تقام فى مصر أو فنائه ، مع قول مالك والشافعى إن ذلك كله ليس بشرط ، وأجازا صلاتهما فرادى لمن شاء من الرجال والنساء ، ومن ذلك قول أبى حنيفة أنه يستحب أن يكبر بعد تكبيرة الإحرام ثلاث تكبيرات فى الركعة الأولى وثلاثاً فى الثانية ، مع قول مالك وأحمد أنه يكبر ستا فى الأولى وخمسا فى الثانية ، ومع قول الشافعى يكبر سبعاً فى الأولى وخمسا فى الثانية ، ثم قال الشافعى وأحمد أنه يستحب الذكر بين كل تكبيرتين خلافاً لأبى حنيفة ومالك ، ومن ذلك قول مالك والشافعى أنه يقدم التكبير على القراءة فى الركعتين ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، مع قول أبى حنيفة وأحمد فى الرواية الأخرى أنه يغاير بين القراءتين فيكبر فى الأولى قبل القراءة، وفى الثانية بعد القراءة ، ومن ذلك قول أبى حنيفة ومالك أن من فاتته صلاة العيد مع الإمام لا يقضيها ، مع قول أحمد والشافعى فى أحد قوليه أنها تقضى فرادى ، وعن أحمد ثنتين أو أربعاً ، ومن ذلك قول الأئمة أن فعلها بالصحراء بظاهر البلد أفضل من فعلها فى المسجد ، مع قول الشافعية بأن فعلها فى المسجد أفضل إذا كان واسعاً، ومن ذلك قول أبى حنيفة أنه لا يجوز التنفل قبلها وأما بعدها فيجوز ، ومع قول الشافعى بأنه يتنفل قبلها وبعدها فى المسجد وغيره إلا الإمام ، ومع قول أحمد لا يتنفل قبلها ولا بعدها مطلقا .

ومن ذلك قول الشافعى فى أرجح القولين أنهم لو شهدوا يوم الثلاثين من رمضان بعد الزوال برؤية الهلال قضيت موسعاً ، مع قول مالك أنها لا تقضى وهو مذهب أحمد ، فإن لم يمكن جمع الناس فى ذلك اليوم صليت من الغد عن الشافعى ، ومن قال بقوله ، وقال أبو حنيفة : صلاة عيد الفطر تقضى اليوم الثانى والثالث ، ومن ذلك اتفاقهم على أن التكبير فى عيد النحر مسنون ، وكذلك فى عيد الفطر إلا عند أبى حنيفة مع قول داود بوجوبه .

قال ابن هبيرة : والصحيح أن تكبير الفطر آكد من يوم النحر لقوله تعالى : ﴿**ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾ ومن ذلك قول

مالك أنه يكبر بوم عيد الفطر دون ليلته ، وانتهاؤه عنده إلى أن يخرج الإمام إلى المصلى ، وفى قول له إلى أن يحرم الإمام بصلاة العيد وهو الراجح من قولى الشافعى ، والثالث إلى أن يخرج منها ، وأما ابتداؤه فمن حين يرى الهلال وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وأما انتهاؤه ففيه روايتان له إحداهما إذا خرج الإمام ، والثانية إذا فرغ من الخطبتين ، ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد أنه يشفع التكبير فى أوله وآخره ، فيقول الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، مع قول مالك فى رواية له إن شاء كبر ثلاثا وإن شاء مرتين ، ومع قول الشافعى أنه يكبر ثلاثا نسقا فى أوله وثلاثا فى آخره ، واختار أصحابه أن يكبر ثلاثا فى أوله ويكبر ثنتين فى آخره ، ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد أن ابتداء التكبير فى عيد يوم النحر من صلاة الفجر يوم عرفة إلى أن يكبر لصلاة العيد من يوم النحر ، وقال مالك والشافعى فى أظهر القولين أنه يكبر من ظهر النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق وهو رابع يوم النحر ، سواء كان محلاً أو محرماً عندهما ، والعمل عند أصحاب الشافعى على أن ابتداء التكبير فى غير الحاج من صبح يوم عرفة إلى أن يصلى عصر آخر أيام التشريق . ومن ذلك قول أبى حنيفة وأحمد فى إحدى روايتيه أن من صلى منفرداً فى هذه الأوقات من محل ومحرم لا يكبر مع قول مالك والشافعى وأحمد فى روايته الأخرى أنه يكبر ، وأما خلف النوافل فاتفقوا على أنه لا يكبر عقبها إلا فى القول الراجح للشافعى . انتهى باختصار .

وليعلم أنه روى الترمذى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن هذا يوم جعله الله عيدا للمسلمين فاغتسلوا ، ومن كان عنده طيب فلا يضره أن يمس منه ، وعليكم بالسواك . وقال فى كشف الغمة أيضاً : كانت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يحثون على غسل العيدين ، وكانوا يغتسلون قبل أن يذهبوا إلى المصلى . وقال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحث على التجمل بالثياب الحسنة فى العيد ، ويكره لبس السلاح فى يومه إلا لخوف من عدو ، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم بردة حبرة يلبسها فى كل عيد ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج إلى الصحراء يوم العيد ماشياً ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يخرج فى عيد الفطر حتى يأكل شيئاً من تمر ونحوه ، فكان يأكل ثلاث تمرات ولا يأكل فى عيد الأضحى حتى يرجع ، وكان صلى الله تعالى

عليه وسلم يأمر بإخراج العواتق والحُيَّض وذوات الخدور حتى لا يدع صلى الله تعالى عليه وسلم أحدا من أهل بيته إلا أخرجه ، وكان الحيض يعتزلن الصلاة والمصلى فيكبرن خلف الناس ويشهدن الخير ودعوة المسلمين . ولما أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم النساء بالخروج قالت امرأة : يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب ، فقال : لتلبسها أختها من جلبابها .

قلت : وهذا بخلاف نساء زماننا فإنهن يخرجن لغير الصلاة والدعاء فلا تغفل ، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما إذا طلعت الشمس غدا إلى المصلى ، وكان يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى يأتى المصلى ثم يكبر بالمصلى حتى إذا جلس الإمام ترك التكبير . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يرجع من مصلى العيد فى غير الطريق الذى خرج منه ، وفى بعض الأوقات كان يرجع فيما جاء منه ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يعجل صلاة الأضحى ، واعتباره من ارتفاع الشمس قدر رمح، ويؤخر صلاة الفطر إلى قريب من وقت الضحى . قال أنس رضى الله تعالى عنه : كانت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يقولون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا انصرفوا من صلاة العيد : تقبل الله منا ومنك يا رسول الله ، فيقول: نعم، تقبل الله منا ومنكم . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحث على الذكر والطاعة فى ليلتى العيدين وعلى التكبير ليلة الفطر ، ويقول : من أحيا ليتلى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب ، وكان ربما يضرب له بالدف يوم الفطر ولا ينهى ، انتهى .

وليعلم أنه إنما سمى العيد عيداً قيل لعوده فى السنين ، وقال شهاب الدين أحمد فى كتابه عقد الدرر واللآلى : لأن الله تعالى يعيد إلى عباده الفرح والسرور فى يوم عيدهم . وقيل : إنما سمى عيداً لأن فيه عوائد الإحسان من الله عز وجل وفوائد الامتنان . وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إذا كان يوم عيد الفطر وخرج الناس إلى الجبانة اطلع الله تعالى عليهم فيقول : عبادى لى صمتم ولى صليتم انصرفوا مغفورا لكم . وفى رواية أنس : ارجعوا مغفورا لكم . وقيل : إنما سمى عيداً لأنه يعود العبد فيه إلى التضرع والبكاء ، ويعيد الرب فيه الهبة والعطاء . وفى حديث ابن عباس المرفوع : إذا كان يوم الفطر هبطت الملائكة فيقومون على أفواه السكك ينادون بصوت يسمعه جميع من خلقه الله عز وجل إلا الجن والإنس ،

يقولون : يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يعطى الجزيل ويغفر الذنب العظيم ، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله عز وجل للملائكة : يا ملائكتى ، ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ فيقولون : إلهنا وسيدنا جزاؤه أن يوفى أجره ، فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فمن وفى ما عليه من العمل كاملا وفى له الأجر كاملا ، ومن نقص من العمل الذى عليه نقص من الأجر بحسب نقصه فلم يلم إلا نفسه ، وقيل: معناه العود من طاعة الله تعالى إلى طاعة الرسول ، ومن الفريضة إلى السنة ، ومن صوم رمضان إلى صوم ستة أيام من شوال ، وقد ثبت فى صحيح مسلم رحمه الله قال : حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر عن إسماعيل ابن جعفر : أخبرنى سعيد بن قيس عن عمر بن ثابت بن الحرث الخزرجى عن أبى أيوب الأنصارى أنه حدثه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من صام رمضان وأتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر ، قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم : فى هذا الحديث دلالة ظاهرة لمذهب الشافعى وأحمد وداود وموافقيهم فى استحباب صوم الستة . وقال مالك وأبو حنيفة : يكره ذلك ، قال مالك فى الموطأ : ما رأيت أحداً من أهل العلم يصومها ، قال : فيكره لئلا يظن وجوبها انتهى .

وقال المناوى : وفيه ندب صوم الستة المذكورة وهو مذهب الشافعى ، قال الزاهدى : وصومها متتابعاً أو متفرقاً يكره عند أبى حنيفة ، وعن أبى يوسف : يكره متتابعاً لا متفرقاً ، وعن مالك يكره مطلقاً ، انتهى .

قلت : وهذا العزو إلى إمامنا الأعظم لم يصححه شيخ مشايخنا العلامة ابن عابدين ، وصحح أن الإمام الأعظم أيضاً قال بسنية ستة شوال ، ورد قول من روى عنه خلاف ذلك ، وقد تبين أن من نقل عنه الكراهية فهو غير مطلع على مذهبه فليحفظ ، وقال فى عقد الدرر : الذين استحبوا صيام ستة من شوال على ثلاثة أقوال ، أحدها أنه يستحب صيامها من أول الشهر متتابعة وهو قول الشافعى وابن المبارك ، والثانى أنه لا فرق بين أن يتابعها أو يفرقها من الشهر كله وهما سواء وهو قول وكيع وأحمد . والثالث أنه لا تصام عقب يوم الفطر فإنها أيام أكل وشرب ولكن تصام ثلاثة أيام قبل أيام البيض وبعدها ، وهذا قول معمر والزهرى وعبدالرزاق . وأكثر العلماء أنه لا يكره ثانى الفطر ، قال العلماء وإنما كان صيام رمضان وإتباعه ستّاً من شوال يعدل صيام الدهر لأن الحسنة بعشر أمثالها ، وقد جاء

ذلك مفسراً من حديث ثوبان عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: صيام رمضان بعشرة أشهر وصيام ستة أيام بشهرين فذلك صيام سنة يعنى رمضان وستة أيام بعده ، أخرجه الإمام أحمد ، ومنها أن صيام شوال وشعبان كصلاة السنن الرواتب قبل الصلاة المفروضة وبعدها فيكمل بذلك ما حصل فى الفروض من زلل ونقص ، انتهى .

فينبغى للعبد أن يجد فى العمل الصالح فيما بعد رمضان كما كان يعمل فيه فإن الله تعالى إذا تقبل عمل عبد وفقه لعمل صالح بعده ، كما قالوا ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة كان ذلك علامة عدم قبولها ، وقيل لبشر الحافى : إن قوماً يتعبدون فى رمضان دون غيره فقال : هم بئس القوم ، لا يعرفون لله عز وجل حقاً إلا فى شهر رمضان .

وقالوا : ينبغى للإنسان أن يكون ممتثلاً لقوله تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير** ﴾ وهذه هى الآية التى شيبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال ابن عباس : ما نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم آية فى القرآن أشد ولا أشق من هذه حتى قال أصحابه له : لقد أسرع فيك الشيب ، فقال عليه الصلاة والسلام : شيبتنى هود ، يعنى هذه الآية . وورد فى الحديث الصحيح أن أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قَلَّ ، وفى عقد الدرر روى عن كعب الأحبار أنه قال : من صام رمضان وهو يحدث نفسه إنه إذا أفطر عصى ربه فصومه عليه مردود ، ويكون مثال من عمل صالحاً فى شهر رمضان وعاد بعده إلى الفسوق والعصيان . كما قال تعالى: ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا** ﴾ أى من بعد إبرامه وإحكامه ، قال الكلبى ومقاتل فى امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها ريطة بنت عمر وتلقب بجعواء وكانت بها وسوسة ، كانت قد اتخذت مغزلا قدر ذراع ، وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر وتأمر جواريها بذلك فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار ، فإذا انتصف النهار أمرتهن أن ينقضن ما غزلن ، كان ذلك دأبها ، وضرب الله سبحانه ذلك مثلا لنقض العهد . كذلك يخشى على من كان فى رمضان متشبها بالصالحين بعلمه ثم يعود بعده إلى أقبح المعصية بجهله ، وأشد الظلمة ما يتقدمها نور ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **أيود أحدكم أن تكون**

له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ مثل لعمل رجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يوسوس له الشيطان فيعمل بالمعاصى حتى تحترق أعماله الصالحة ، فكذلك يخاف على المتشبه بالصالحين فى رمضان إذا ترك الطاعات وعاد بعده إلى العصيان . كما أخرج ابن أبى الدنيا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لرجل : إنك تبنى وتهدم ، يعنى تعمل الحسنات ثم السيئات فقال : يا رسول الله سوف أبنى ولا أهدم . فينبغى للعاقل أن يتبع الحسنة بحسنات ويمتثل قوله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ .

واعلموا أن الأعياد للمؤمنين خمسة ، كما قال بعض العارفين ، الأول اليوم الذى يمر على المؤمن ولا يعمل فيه معصية فيكتب عليه ذنب ، والثانى يوم خروجه من الدنيا مع الإيمان بالله ورسوله وبجميع ما جاء عنهما ، والثالث وقت مجاوزته الصراط وسلامته من النيران ، والرابع وقت دخوله الجنان ، والخامس اليوم الذى ينظر فيه إلى الرحمن فهو العيد الأكبر ، كما قال تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ ، وقال بعض العارفين : إن من جملة حكم عيد الدنيا تذكيره لعيد الآخرة فإذا رأى الناس بين ماش وراكب ولابس وعريان واختلاف ملابسهم وحشمهم وأتباعهم تذكر العاقل تفاوت الناس يوم القيامة ، وما ذلك إلا بصالح الأعمال والصدقات من المال الحلال ، أنالنا الله تعالى وإياكم الخير والعافية فى البدء والمآل .

ولنرجع إلى تفسير بقية السورة الكريمة فنقول : قال الله عز وجل : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق ، وينساق إليه الكلام ، أى أنتم لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية العاجلة الكائنة فى الدنيا على الدار الآخرة الآجلة الباقية ، فلا تفعلون ما به تفلحون . قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب للكفار أو لمطلق الناس ، ويؤيدها قراءة أبى : بل أنتم تؤثرون ، وقرئ بالتحتية على الغيبة والضمير راجع للأشقى ، قيل المراد بالآية الكفرة . وبالإيثار للحياة الدنيا هو الرضا بها والإعراض عن الآخرة بالكلية ، وقيل المراد بها المؤمن والكافر ، والمراد بإيثارها ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من

الاهتمام بها اهتماما زائدا على اهتمامه بالطاعات ، ويؤيده أن ابن مسعود قرأها مرة فأقبل على أصحابه فقال : آثرنا الدنيا على الآخرة فإنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ﴿ **والآخرة خير وأبقى**﴾ أى والحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل وأدوم من الدنيا لأنها تشتمل على السعادة الأبدية الجسمانية والروحانية ، الخالية عن كافة الآلام ، والدنيا لذاتها كأضغاث أحلام ، وهى مقرونة بالانصرام والآلام ، قال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى :

جبلت على كدر وأنت تريدها   صفوا من الأقذاء والأكدار

وقوله تعالى : ﴿ **إن هذا لفى الصحف الأولى** ﴾ أى جميع ما فى هذه السورة ثابت فى صحف إبراهيم وموسى ، قال الوالد عليه الرحمة : وكانت صحف إبراهيم عشرة وصحف موسى عليه السلام عشرة ، والمراد بها ما عدا التوراة ، أخرج عبد بن حميد عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله كم أنزل الله تعالى من كتاب ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، قلت : يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : أمثال كلها . . أيها الملك المتسلط على المبتلى المغرور، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث ساعات ، ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ويتذكر فيما صنع ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فإن فى هذه الساعة عونا لتلك الساعات واستجماعا للقلوب وتفريقا لها ، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلا فيما يعنيه . وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث : حرفة لمعاش ، وتزود لمعاد ، وتلذذ من غير محرم . قيل : يا رسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عبراً : عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح ، ولمن أيقن بالنار ثم يضحك ، ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها ، ولمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، ومن أيقن بالحساب

ثم لا يعمل . قيل : يا رسول الله ، هل أنزل عليك شيء مما كان فى صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : يا أبا ذر ، نعم . قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ، والله تعالى أعلم بصحة الحديث .

فعليكم إخوانى بالتوبة النصوح ، ومداومة العمل غير المرجوح ، وتوالى الحسنات، والتجنب عن مثوى السيئات ، فكم من الناس السالفين ، صلوا فى هذا الشهر صلاة التراويح ، وأوقدوا للأجر المصابيح ، وملئوا بالعبادة المكان الفسيح ، اقتنصتهم فى آخره المصائد ، وأسرتهم الحصائد ، أدارت عليهم المنون رحاها ، وحلت وجوههم فى الثرى فمحاها ، أعدمتهم صوماً وفطراً ، وأصبح كل منهم فى اللحد شطراً ، وهذا حالك عن قريب فتيقظ ، ومآلك عن قريب مثل ما لهم فاجتهد وتحفظ ، فيا مشغولاً بلهوك ، أأعددت عدة حازم لقبرك ، أحصلت عملاً ينجيك فى حشرك ، أحفظت حدود صومك فى شهرك ، كم من صوم بالغيبة فسد، وكم من عمل بالرياء تعطل فكسد ، فيا ليت شعرى من المقبول منا والمردود ، أما سمعتم ما قاله سيد البشر ، رب صائم ما حظه من صيامه إلا الجوع والعطش ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر ، فبادروا رحمكم الله تعالى ساعات أعماركم الباقية فإنها مغتنم ، واستدركوا ما مضى بالاستغفار والندم ، فليس العيد لمن لبس الجديد ، بل العيد لمن حسناته تزيد ، وعمل للقاء يوم الوعيد ، فيا معرضا عن الهدى لا يسعى فى طلبه ، يا مشغولا بلهوه مفتوناً بلعبه ، يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه ، من يعمل سوء يجز به ، جز على قبر الصديق ، وتلمح آثار الرفيق ، تخبرك عن حسنه الأنيق ، أنه استلب بكف التمزيق ، هذا لحده وغدا أنت به ، من يعمل سوء يجز به ، كم نهى عن خطأ فما انتهى ، وكم زجرته الدنيا ثم سعى لها، هذا ركنه القوى قد وهى، وها أنت فى سلبه ، من يعمل سوء يجز به.

أين من عتا وظلم . ولقى الناس منه الألم ، اقتطعه الردى اقتطاع الجلم (١) ، فما نفعه ما جمع لا والله ولا لم ، ولم يدفع عز منصبه ، من يعمل سوء يجز به . بات فى لحده أسيرا ، ولا يملك من الدنيا نقيرا ، بل عاد بوزر ذنبه عقيرا ، أصبح من ملكه فقيرا على عز نسبه ، وكثرة نشبه ، من يعمل سوء يجز به .

---

(١) قوله : الجلم المقص ا هـ منه .

اللذات عن قليل تفنى وتمر ، وآخر الهوى الحلو مر ، وليس فى الدنيا شىء يسر، إلا ويغر ويضر ، ثم يخلو الزانى وشارب الخمر ، وآكل الحرام بمكتسبه ، من يعمل سوء يجز به ، الكتاب يحوى حتى النظرة ، والحساب يأتى على الذرة ، وخاتمة كأس اللذات مرة ، والأمر جلى للفهوم ما يشتبه ، من يعمل سوء يجز به ، تقوم أيها المغتاب فى حشرك ذليلا ، وتبكى أيها الظالم للعباد على الذنوب طويلا ، وتحمل أيها النمام والعاق على وزرك وزرا ثقيلا ، فويل لتارك الصوم والصلاة والحج والزكاة وقبح منقلبه ، من يعلم سوء يجز به .

يجمع الخلائق كلهم فى صعيد ، وينقسمون إلى شقى وسعيد ، فقوم قد حل بهم الوعيد ، وقوم قيامهم نزهة وعيد ، وكل عامل يغرف من مشربه . من يعمل سوء يجز به . إنما يقع الجزاء على أعمالك ، وإنما تلقى فى غد غب أفعالك ، قد نصحناك نقصد إصلاح حالك ، فإن كنت متيقظاً فاعمل بذلك ، وإن كنت نائماً فانتبه ، من يعمل سوء يجز به .

نسألك اللهم باسمك الأعظم ، وأسمائك الحسنى ما نعلم منها وما لم نعلم ، وبحبك لنبيك الأكرم ، وجاهه الملتزم ، أن تختم لنا هذا الشهر بغفرانك ، وتعمنا وكافة الموحدين بألطافك وإحسانك ، وتجعلنا ممن قبلت صيامه وصلاته وصدقاته ، وبدلت سيئاته بحسناته ، وأن تحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وتجيرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، وأن تتغمدنا والجماعة الحاضرين وآباءنا وأمهاتنا ، وأقاربنا ، برحمتك الباطنة والظاهرة ، وأن تجعل شهرنا هذا شاهدا لنا بأداء فرضك ، ولا تخزنا بقبائح أعمالنا يوم عرضك ، ولا تجعلنا ممن تعب واجتهد فلم يرضك ، اللهم ألهمنا الشكر على صيام الأيام الماضية ، وأعد شهر رمضان علينا بالخير أعواماً متوالية، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا عاصيا إلا هديته، ولا صالحاً إلا تقبلته ، اللهم أصلح أمراءنا ، وولِّ أمورنا أخيارنا ، واحفظ أولادنا ، ووفقهم لما فيه رضاك ، وانصر سلطاننا وعساكره على من عاداك ، وارفع منازلنا ومنازل آبائنا وأمهاتنا وأعمامنا وإخواننا وأقاربنا ومشايخنا فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، واجعلنا ممن ينادى غدا فى الدار الباقية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

خاتمة مقتصرة من الغنية يقرؤها من أرادها فى آخر رمضان المبارك ، وهى :

اعلموا رحمكم الله تعالى إن ليلتكم هذه ليلة الوداع لشهركم الذى شرفه الله وعظمه ، ورفع قدره وكرمه ، بالصيام والقيام ، وتلاوة القرآن ، ونزول الرحمة فيه عليكم من الله تعالى والرضوان ، جعله الله مصباح العام ، وواسطة النظام ، وشرف قواعد الإسلام المشرقة بأنوار الصيام ، والقيام ، أنزل الله تعالى فيه كتابه ، وفتح فيه للتائبين أبوابه ، فلا دعاء فيه إلا مسموع ، ولا خير ولا ضر إلا مدفوع ، ولا عمل إلا مرفوع ، الظافر الميمون من اغتنم أوقاته . والخاسر المغبون من أهمله ففاته . شهر جعله الله لذنوبكم تطهيرا ، ولسيآتكم تكفيرا ، ولمن أحسن منكم صحبته ذخيرة ونورا ، ومن وفى بشرطه وقام بحقه فرحا وسرورا ، فرحم الله امرءا مهد فيه لنفسه ، قبل حلول رمسه ، واشتغل بيومه عن غده وأمسه ، وتزود من بقية زاده ، ففى نفاده نفاد عمره ، وأظهر لفراقه جزعه . وسلم على شهره وودعه .

وقال : السلام عليك يا شهر رمضان ، السلام عليك يا شهر الصيام والقيام ، وتلاوة القرآن ، السلام عليك يا شهر التجاوز والغفران ، السلام عليك يا شهر البركة والإحسان ، السلام عليك يا شهر التحف والرضوان ، السلام عليك يا شهر النسك والتعبد ، السلام عليك يا شهر الصيام والتهجد ، السلام عليك يا شهر التراويح ، السلام عليك يا شهر الأنوار والمصابيح ، السلام عليك يا أنس العارفين، السلام عليك يا روضة العابدين ، فيا شهرنا غير مودع ودعناك . وغير مقلى فارقناك، كان نهارك صدقة وصياما ، وليلك قراءة وقياما ، فعليك منا تحية وسلاما ، أتراك تعود بعدها علينا ، أو يدركنا المنون فلا تئول إلينا ، مصابيحنا فيك مشهورة ، ومساجدنا فيك معمورة ، فالآن تنطفئ المصابيح ، وتنقطع التراويح ، ونرجع إلى العادة ، ونفارق شهر العبادة ، فيا ليت شعرى من المقبول منا فنهنيه ، ومن المطرود بسوء عمله فنعزيه ، فيا أيها المقبول هنيئا لك بثواب الله عز وجل وغفرانه ، وتعساً لك يا مطرود بإصرارك على عصيانه ، لقد عظمت مصيبتك ، فأين دمعتك وتوبتك، فلأى يوم أخرت توبتك ، ولأى عام ادخرت عدتك ، أإلى عام قابل ، وحول حائل ، كلا فما إليك مدة الأعمار ، ولا معرفة المقدار ، فكم من مؤمل أمل بلوغه فلم يبلغه ، وكم من مدرك له ولم يختمه ، وكم من أعد طيبا لعيده ، جعل فى تلحيده ، وثيابا لتزيينه صارت لتكفينه، ومتأهب لفطره ، صار مرتهنا فى قبره . وكم من لا يصوم بعده سواء ، وهو يطمع فى غيره أن يراه ، فاحمدوا الله على بلوغ اختتامه، وسلوه قبول صيامه وقيامه، وراقبوه بأداء حقوقه، واعتصموا بحبل الله وتوفيقه .

ويا عباد الله ، من كان منع نفسه من الحرام فى رمضان فليمنعها فيما بعده من الشهور والأعوام ، فإن إله الشهرين واحد ، وهو على الزمانين مطلع شاهد ، جزانا الله تعالى وإياكم على فراق شهر البركة ، وأجزل أقسامنا وأقسامكم من رحمته المشتركة ، وبارك لنا ولكم فى بقيته ، وسلك بنا وبكم طريق هدايته ، برحمته وفضله ومنته ، اللهم وما قسمت فى هذه الليلة من عتق وغفران ، ورحمة ورضوان، وعفو وامتنان ، وكرم وإحسان ، ونجاة من النيران ، وخلود فى نعيم الجنان ، فاجعل لنا منه وافر الحظ ، وأجزل الأقسام برحمتك يا أرحم الراحمين . اللهم فكما بلغتنا شهر الصيام ، فاجعل عامه علينا من أبرك الأعوام ، وأيامه من أسعد الأيام ، وتقبل منا ما قدمناه فيه من الصيام والقيام ، واغفر لنا ما اقترفنا فيه من الآثام ، وخلصنا من مظالم الأيام ، يوم لا يرجى فيه سواك يا أرحم الراحمين . اللهم إنا قد تولينا صيام شهرنا وقيامه على تقصير ، وأدينا فيه من حقك قليلا من كثير ، وقد أنخنا ببابك سائلين ، ولمعروفك طالبين ، فلا تردنا خائبين ، ولا من رحمتك آيسين ، فنحن الفقراء إليك ، الأسراء بين يديك ، إليك توجهنا ، ولمعروفك تعرضنا ، ولبابك قرعنا ، ومن رحمتك سألنا ، فارحم خضوعنا ، واجبر قلوبنا ، واستر عيوبنا ، واغفر ذنوبنا ، وأقر فى القيامة عيوننا ، ولا تصرف وجهك الكريم عنا ، واجعل عملنا مقبولا ، وسعينا مشكورا ، وحظنا فى هذه الليلة موفورا ، اللهم إن كان فى سابق علمك أن تجمعنا فى مثله فبارك لنا فيه ، وإن قضيت بقطع آجالنا وما يحول بيننا وبينه فأحسن الخلافة على باقينا ، وأوسع الرحمة على ماضينا ، وعمنا جميعاً برحمتك وغفرانك ، واجعل الموعد بحبوح جنتك ورضوانك ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقاً. برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم يا عالم الخفيات ، ويا دافع البليات ، ويا مجيب الدعوات ، ويا كاشف الكربات ، صلِّ على سيدنا محمد وآله أفضل الصلوات ، واغفر لنا ذنوبنا ، ولآبائنا وأمهاتنا ، وقراباتنا وأصدقائنا ، ومشايخنا ومعلمينا ، ومن تعلم منا ومن أحبنا فيك وأحببناه ، ولا تدع لنا فى هذه الليلة الشريفة ذنباً إلا غفرته ، ولا همّاً إلا فرجته ، ولا كرباً إلا كشفته ، ولا مبتلى إلا عافيته ، ولا حقاً إلا استخلصته ، ولا غائباً إلا بالخير رددته ، ولا عاصياً إلا هديته ، ولا حاسداً إلا خيبته ، ولا عدوا إلا

صرفته ، ولا سعراً إلا رخصته ، ولا خوفاً إلا أزلته ، وأحينا اللهم على حب الآل والصحابة الأخيار ، واجمع بيننا وبينهم فى دار القرار ، واجعلنا وإياهم فى شفاعة نبيك المختار ، وبارك لنا فى كل ما أعطيتنا ، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وارحمنا وكافة الأمة المحمدية ، واجعلنا وإياهم فى عيشة مرضية ، وصل على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . وسلم تسليما ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المجلس الثانى والثلاثون
فى الأئمة الأربعة المجتهدين رضوان الله تعالى عليهم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى إذا لطف أعان ، وإذا عطف صان ، أكرم من شاء كما شاء وأهان، أخرج الخليل من آزر ومن نوح كنعان ، يميت ويحيى ، ويفنى ويبقى ، كل يوم هو فى شان ، يزين بموهبة العلم فإذا لم يعمل به شان ، خلع خلعة العلم على بلعام فلم يصنها ، ومال بهواه إلى ما عنه ينهى ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان** ﴾ .

أحمده فى السر والإعلان ، وأصلى على محمد الذى انشق ليلة ولادته الإيوان ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر أول من جمع القرآن ، وعلى الفاروق الموصوف بالعدل وكذلك كان ، وعلى عثمان التقى الحيى الذى تستحى منه ملائكة الرحمن ، وعلى علىّ سيد العلماء والشجعان ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة تامة على ممر الزمان ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : اختلف المفسرون فى معنى هذه الآية فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد فى الآيات المتقدمة ، وكان المسلمون إذا بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سرية إلى الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم سبحانه بأن ليس لهم ذلك ، وقال تعالى : فلولا أي فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، أى جماعة ، ويبقى ما عدا هذه الطائفة النافرة ،

وليتفقهوا فى الدين ، أى الفرقة الباقية لأجل طلب العلم ، ولينذروا قومهم أى يعلموهم ، ففيه إشارة إلى أنه ينبغى للمتعلم العمل وتبليغ الشريعة ، وذهب آخرون إلى أن هذه الآية حكم مستقل بنفسه ، فى مشروعية الخروج لطلب العلم إذا لم يجد من يعلمه فى بلدته . والفقه هو العلم بالأحكام الشرعية فيجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم العلم ، ويجب على العلماء التعليم كما قدمنا بعض ما يتعلق بذلك فى الدروس الماضية ، وتعلم العلم وتعليمه من أفضل العبادات ، وأجل الطاعات ، وقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ قال ابن عباس : درجات العلماء فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين خمسمائة عام ، ولو لم يكن من فضيلة العلم إلا آية ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ فبدأ الله تعالى بنفسه ، وثنى بملائكته وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفاً . والعلماء ورثة الأنبياء كما ثبت بالحديث ، وإذا كان لا رتبة فوق النبوة فلا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وغاية العلم العمل ؛ لأنه ثمرته وفائدة العمر وزاد الآخرة ، فمن ظفر به سعد ومن فاته خسر ، وقد نال هذه الرتبة العالية ، والحسنة الباقية ، أكثر علماء المسلمين ، والفقهاء والمحدثين ، ولا سيما الأئمة الأربعة المجتهدين ، فقد أحكموا الأحكام الشرعية ، وبينوا المسائل الخفية ، وأسسوا الأصول والمبانى ، ونقحوا الفروع والمعانى ، فنعطر مجلسنا هذا بطيب ذكرهم ، ولنسمعكم بعضا من جليل قدرهم ، فأولهم الإمام الصفى ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ، عليه الرحمة والرضوان ، هو النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان من أبناء فارس ، قال حفيده إسماعيل بن حماد : ولد جدى أبو حنيفة سنة ثمانين ، وذهب ثابت إلى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وهو صغير ، فدعا له بالبركة فيه وفى ذريته، ونحن نرجو أن يكون الله تعالى قد استجاب لعلى فينا . وقد توفى سنة مائة وخمسين وعمره سبعون سنة ، وقبره فى بغداد مشهور ، وقد وردت أحاديث صحيحة تشير إلى فضل إمامنا الأعظم ، منها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه والطبرانى عن ابن مسعود أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس . ورواه أبو نعيم عن قيس بن سعد بن عبادة بلفظ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لو كان العلم معلقا عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس . وفى

رواية مسلم : لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله . وفى رواية للشيخين : والذى نفسى بيده لو كان الدين معلقا بالثريا لتناوله رجل من فارس ، وليس المراد بفارس البلاد المعروفة ، بل جنس من العجم وهم الفرس ، لخبر الديلمى : خير العجم فارس ، وقد كان جد أبى حنيفة من فارس على ما عليه الأكثرون . قال الحافظ السيوطى : هذا الحديث الذى رواه الشيخان أصل صحيح يعتمد عليه فى الإشارة لأبى حنيفة ، وهو متفق على صحته .

ومناقب الإمام أبى حنيفة أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تذكر ، وقد صنف العلماء فيها كتبا كثيرة ، ورسائل وفيرة ، وقد كان فى فقهه وزهده وورعه وعبادته وعلمه وفهمه غير مشارك ، ولذا قال فيه عبد الله بن المبارك رضى الله عنه :

لقد زان البـــلاد ومن عليهـــا ... إمـــام المسلميـــن أبو حـــنيفه
بـــأحـــكام وآثـــار وفقـــه ... كآيـــات الزبـــور على صحيفه
فمـــا فى المشـــرقين لـــه نظير ... ولا فـــى المغربيـــن ولا بكوفه
يبيـــت مشمـــرا سهـر الليالى ... وصـــام نهـــاره لله خـــيفه
فمـــن كأبى حـــنيفة فى عـــلاه ... إمـــام للخـــليقة والخـــليفه
وقد قـــال ابـــن إدريس مقالا ... صـــحيح النقل فى حكم لطيفه
بـــأن النـــاس فـــى فقه عيال ... على فقـــه الإمـــام أبى حنيفـه
وصـــان لسانـــه عـن كل إفك ... ومـــا زالت جـــوارحـه عفيفه
يعـــف عـــن المحـارم والملاهى ... ومرضـــاة الإلـــه لـــه وظيفه

قال الحافظ الذهبى : قد تواتر قيامه بالليل وتهجده وتعبده ، ومن ثم كان يسمى الوتد لكثرة قيامه بالليل بل إحيائه بقراءة القرآن فى ركعة ثلاثين سنة ، وكان يُسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه . وقال ابن المبارك : صلى خمسا وأربعين سنة الخمس صلوات بوضوء واحد ، وكان يجمع القرآن فى ركعة ، ولما غسله الحسن ابن عمارة قال : رحمك الله وغفر لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، وأتعبت من بعدك ، وفضحت القراء ، وكان هيوبا لا يتكلم إلا جوابا ولا يخوض فيما لا يعنيه، ولا يستمع إليه ، وقال الحسن بن صالح : كان شديد الورع هائبا للحرام ، تاركا لكثير من الحلال مخافة الشبهة ، ما رأيت فقيها أشد منه صيانة لنفسه ، قالوا : ولذا امتنع عن القضاء ، وقد ضرب وحبس لذلك فى أيام المُنصور وغيره ، وقد كان فى

علم الحديث على جانب عظيم ، وكان إماماً فيه ؛ فإنه أخذ الحديث عن أربعة آلاف شيخ من أئمة التابعين وغيرهم ، ومن ثم ذكره الذهبى وغيره فى طبقات الحفاظ من المحدثين ، وروى الخطيب عن إسرائيل بن يونس .أنه كان يحفظ كل حديث فيه فقه وأشد فحصه عنه ، وروى عن الإمام الشافعى أنه قال : من أراد أن يتبحر بالفقه فهو عيال على أبى حنيفة إنه ممن وفق له الفقه . وروى الربيع عنه : الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة ، ما رأيت ، أي ما علمت أحداً أفقه منه . وجاء عنه أيضاً : من لم ينظر فى كتبه لم يتبحر فى العلم ولم يتفقه ، ونقل عن الشافعى أنه صلى الصبح عند قبره فلم يقنت ، فقيل له : لم ؟ قال : تأدباً مع صاحب هذا القبر . وزاد بعضهم إنه لم يجهر بالبسملة ، نقله فى رد المحتار ، وقال سفيان الثورى : أبو حنيفة أفقه أهل الأرض ، ومن مناقبه أن امرأة جاءته وهو فى الدرس فألقت إليه تفاحة نصفها أحمر ونصفها أصفر ، فأخذها وكسرها وأعادها إليها ففهمت المرأة الجواب ، فسئل عن ذلك فقال : قالت : إنها ترى الحمرة والصفرة فمتى أغتسل ، فقال لها : حتى ترى الطهر الأبيض كبياض التفاحة ، ومما أنشدنيه الفاروقى عليه الرحمة لنفسه قوله فى الإمام الأعظم من قصيدة :

يا من علا فى الاجتهــاد منــاره	وبدر مذهبــه غــلا مقــداره
لله درك مــن إمـــام أعظـــم	يعـــزى إلى كسرى الملوك نجاره
أنت الإمــام المهتـــدى والمقتدى	والمجـتبى والمرتضـــى أطــواره
صــــلى فريضة صـبحه بوضوئه	وقت العشـــا حـينا وذاك شعاره
قد كلفـــوه للقضـــا فأبـى ونـم	يرضـــى وطـال بسجنه استمراره
فقضـــى شهـــيدا لا عليه ولا له	من أمـــره شـــىء يدنس عــاره
لا زال نـــوء اللطـف من بركاته	يروى ضـــريحك بالرضا مدراره

وثانيهم السالك أحسن المسالك ، إمام دار الهجرة مالك بن أنس بن عامر التيمى، وكنيته أبو عبد الله الأصبحى ، أحد الأعلام ، الذين شيدوا الإسلام ، قال السفيرى : ولد فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة أربع ، وقيل سنة ثلاث وتسعين، ومناقبه جمة أفردت بالتأليف ، وثناء الناس عليه مشهور معروف ، أخذ الرواية من تسعمائة شيخ منهم ثلثمائة من التابعين ، وستمائة ممن تابعهم ممن اختاره وارتضى

دينه وفقهه وقيامه بحق شروطها ، وسكنت النفس إليه . ومن أجلِّ مناقبه أنه العالم الذى بشر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله : ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة ، رواه الترمذى وغيره ، وفى حديث آخر : ليس على ظهر الدنيا أعلم منه فتضرب الناس إليه أكباد الإبل ، وفى لفظ آخر : يوشك أن يضرب الناس آباط الإبل فى طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة . فالمراد بعالم المدينة فى الأحاديث المذكورة هو الإمام مالك كما قاله التابعون وتابعوهم ، ولم يعرف أن أحداً ضربت إليه أكباد الإبل مثل ما ضربت إليه ، قال أبو مصعب : كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم ، وقال يحيى بن شعبة : دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ، ومالك أسود الرأس واللحية ، والناس حوله سكوت لا يتكلم أحد منهم هيبة له ، ولا يفتى أحد فى مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غيره ، فجلست بين يديه فسألته فحدثنى فاستزدته فزادنى ، ثم غمزنى أصحابه فسكت .

ومن مناقبه أن امرأة غسلت امرأة بالمدينة فى زمنه رضى الله تعالى عنه فوضعت الغاسلة يدها على فرجها - أى فرج الميتة - وقالت : طالما عصى هذا الفرج ربه ، فالتصقت يد الغاسلة فى فرجها ، فسألوا علماء المدينة عن أمرها فبعضهم قال : تقطع يد الغاسلة ، وبعض آخر تحير فى أمرها ، فاستفتى الإمام مالك ، فقال : اسألوا الغاسلة ما قالت فى حق الميتة لما وضعت يدها على فرجها ، فسألوها فقالت: قلت : طالما عصى هذا الفرج ربه فقال مالك : هذا قذف اجلدوها ثمانين جلدة تخلص يدها ، فجلدوها ذلك فتخلصت يدها ، فمن ثم قيل : لا يفتى ومالك فى المدينة . ومنها ما قاله عبد الله بن المبارك قال : كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما تفرق الناس عنه قلت : يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً . قال : نعم صبرت إجلالا لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ ولذا روى أنه كان إذا أراد أن يحدث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اغتسل وتبخر وتطيب، فإذا رفع أحد صوته قال : اخفض صوتك فإن الله تعالى يقول : ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ فمن رفع صوته عند حديثه فكأنما رفعه عند صوته .

ووجه هرون الرشيد إليه ليحدثه فقال مالك : إن العلم يُؤتَى ، فصار الرشيد إلى منزله، واستند إلى الجدار فقال مالك : يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إجلال العلم ، فقام وجلس بين يديه فحدثه ، وبعث الرشيد إلى سفيان بن عيينة فأتاه سفيان فقعد بين يديه فحدثه وبحث ، فكان الرشيد يقول : يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به ، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به . وكان لا يركب دابة فى المدينة ويقول : أنا أستحى من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحافر دابتى ، وقد سعى به الحساد عند بنى العباس لقوله بعدم طلاق المكره . فدعاه جعفر بن سليمان وقد غضب عليه ثم جرده وضربه ، ولما حضرته الوفاة تشهد ثم قال : لله الأمر من قبل ومن بعد ، فتوفى رضى الله تعالى عنه سنة تسع وسبعين ومائة بالمدينة الشريفة . وعمره خمس وثمانون سنة ، ودفن ببقيع الغرقد (١) . نفعنا الله تعالى وإياكم بعلومه ، آمين .

وثالث الأئمة محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف الشافعى القرشى ، ولد بمدينة غزة ، وقيل بعسقلان ، وقيل باليمن سنة خمسين ومائة ، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأذن له الإمام مالك بن أنس بالفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة ، وكان كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين ، اجتمعت فيه من العلوم بالكتاب والسنة وكلام الصحابة واختلاف أقاويل العلماء ومعرفة اللغة والعربية ما لم يجتمع فى غيره .

قال بعض العلماء : وقد أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال : لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علما . وقد حمله كثير منهم على الإمام الشافعى ، وحمله بعضهم على ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . قال السفيرى : والشافعى مجدد رأس المائة الثانية المشار إليه فى حديث أبى داود : يبعث الله على كل رأس مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها ، فإنه مات سنة أربع ومائتين . وكان رضى الله تعالى عنه يختم القرآن فى كل يوم مرة ، وكان يختمه فى رمضان ستين مرة ، كل ذلك فى الصلاة ، وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل لأبيه يوماً : يا أبت أراك تكثر الثناء والمدح للإمام الشافعى، وتكثر الدعاء له ، أى رجل كان الشافعى ؟

---

(١) الغرقد : بالغين المعجمة العوسج اهـ منه .

قال له : يا بنى كان الشافعى كالشمس للنهار ، وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين من خلف ، أو عنهما عوض . وكانت للإمام أحمد ابنة صالحة تقوم الليل وتصوم النهار وتحب أخبار الصالحين ، ومناقب الأولياء الورعين ، وتود أن ترى الشافعى فاتفق أن مبيت الشافعى عند أبيها فى بغداد ففرحت البنت بذلك طمعاً أن ترى أفعاله وتسمع مقاله ، فلما كان الليل قام أبوها الإمام أحمد إلى وظيفته من صلاة وتهجد، وذكر والإمام الشافعى مستلقٍ على ظهره والبنت ترقبه إلى الفجر ، فقالت لأبيها : يا أبت أنت تعظم الشافعى وما رأيت له فى هذه الليلة لا صلاة ولا ذكرا ولا وردا ، فبينما هما فى الحديث إذ قام الإمام الشافعى فقال له الإمام أحمد : كيف كانت ليلتك ، فقال : ما بت ليلة أطيب ولا أبرك ولا أربح منها . فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأنى رتبت فى هذه الليلة مائة مسألة وأنا مستلقٍ على ظهرى ، والكل فيما ينفع المسلمين ، ثم ودعه ومضى ، فقال الإمام أحمد لأبنته : هذا عمله الليلة وهو نائم أفضل من الذى عملته وأنا قائم . وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة فأقام بها سنتين ثم خرج إلى مكة ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر ، ولم يزل بها إلى أن توفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، ودفن بالقرافة الصغرى بمصر المحروسة ، وقبره مشهور وعلى قبره قبة وعلى القبة هيئة سفينة من نحاس ، وقد قال فيها بعض الأفاضل :

أتيـــت لقبـــر الشـافعى أزوره ... فعارضنى فلك وما عنده بحـــر
فقلــت تعــالى الله تلك إشارة ... إلى أن هذا البحر قد طمه القبر

ولقد أحسن ابن دريد فى مرثيته حيث يقول :

ألم تر آثـــار ابن إدريس بعـده ... دلائلهـــا فى المشكـلات لوامع
معـــالم يفنى الدهر وهى خوالد ... وتنخـــفض الأعلام وهى روافع
لرأى ابـن إدريس ابن عم محمد ... ضياء إذا ما أظلم الخطب ساطع
أبـــى الله إلا رفعــــه وعلـــوه ... وليس لما يعليه ذو العرش واضع
ســـلام على قبر تضـــمن جسمه ... وجــادت عليه المدجنات الهوامع
لئـــن فجـعتنا الحادثات بشخصه ... لهـــن لمـــا حـكمن فيه فواجع
فأحـــكامـــه فينـــا بدور زواهر ... وآثـــاره فينـــا نجـــوم طوالع

ورابع الأئمة المجتهدين الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المتصل نسبه

بعدنان الشيبانى ، المروزى الأصل ، خرجت أمه من مرو وهى حامل به فولدته فى بغداد فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، وقيل إنه ولد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع ، وتوفى أبوه وهو طفل ، ونشأ ببغداد وطلب بها العلم والحديث من شيوخها ، ثم رحل بعد ذلك فى طلب العلم للبلاد كالكوفة والبصرة والمدينة والشام واليمن والجزيرة ، وكتب عن علماء كل بلد ، وقال : أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف ، ومشايخه كثيرون ، ومن أجلهم الإمام الشافعى ، ومما ينسب له فيه :

قالـــوا : يزورك أحـــمد وتزوره ... قلت : الفضائل ما تعدت منزلــه

إن زارنـــى فبفضـــله ، أو زرته ... فلفضله ، فالفضل فى الحالين له

قال الدميرى : وحكى أن الشافعى رحمه الله تعالى لما حضر فى مصر رأى فى المنام سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يقول له : بشر أحمد بن حنبل بالجنة على بلوى تصيبه فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجيب إلى ذلك ، بل يقول : هو منزل غير مخلوق ، فلما أصبح الشافعى رضى الله تعالى عنه كتب صورة ما رأى فى منامه وأرسله مع الربيع إلى بغداد إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، فلما وصل بغداد قصد منزل أحمد واستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه قال له : هذا كتاب أخيك الشافعى ، فقال له : هل تعلم ما فيه قال : لا . ففتحه وقرأه وبكى ، وقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ثم أخبره بما فيه ، فقال : الجائزة، وكان عليه قميصان أحدهما على جسده والآخر فوقه فنزع الذى على جسده ودفعه إليه فأخذه ورجع إلى الشافعى ، فقال له الشافعى : ما أجازك ؟ قال : أعطانى القميص الذى على جسده ، فقال له : أما أنا فلا أفجعك فيه ولكن اغسله وائتنى بمائه فغسله وأتاه بالماء فأفاضه على سائر جسده ، اهـ .

وقال حرملة بن يحيى : سمعت الشافعى يقول : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أحدا أروع ولا أتقى ولا أفقه ، وأظنه قال ولا أعلم ، من أحمد بن حنبل ، وقال على بن المدينى : إن الله عز وجل أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة ، قال أبو زرعة : كان أحمد يحفظ ألف ألف حديث ، وقال الإمام أحمد : ما كتبت حديثاً عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلا وقد عملت به ، وقد دعى إلى القول بخلق القرآن فلم

يجب ، وضرب وحبس وهو مصر على الامتناع ، وقد أخذ عنه جماعة من الأماثل، والمحدثين الأفاضل ، منهم محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى . وقال غير واحد من العلماء : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة ، ومن ذكره بسوء فهو صاحب بدعة وسوء عقيدة ، وفى ذلك قال مزاحم :

لقد صـــار فى الآفاق أحمد محنة ... وأمـــر الـــورى فيها فليس بمشكل

ترى ذا الهوى جهلا لأحمد مبغضاً ... وتعـــرف ذا التقوى بحب ابن حنبل

وقال ابن أعين :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة ... وبحـــب أحمد يعرف المتنسك

وإذا رأيـــت لأحـــمد متنقصا ... فاعلـــم بـــأن ستـــوره ستهتك

وقد توفى ضحوة نهار الجمعة لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين ببغداد . ودفن بمقبرة دار حرب ، وقد استولت دجلة على جميع هذه المقبرة بحيث لم يبق لها أثر الآن ، وقد حضر جنازته من الرجال ألوف كثيرة ، وكذلك من النساء ، وأسلم يوم موته عدد كثير من النصارى واليهود والمجوس . ورؤى بعد موته برؤيات عديدة تدل على حالة حميدة ، نفعنا الله تعالى وإياكم بعلومه الشريفة ، وجعلنا من المتبعين لأقوال الأئمة ، ولا سيما أقوال أبى حنيفة ، فإن هؤلاء المجتهدين هم الذين أوصلوا إلينا أقوال سيد المرسلين ، عليه أفضل صلاة المصلين ، فليس لأحد الآن غنى عن اتباع أقوالهم ، والتمسك بأسبابهم، والتقليد لما نقحوه ، والاتباع لما رجحوه ، فجزاهم الله تعالى عن الإسلام وأهله خير الجزاء ، وحشرنا وإياهم تحت لواء خاتم الأنبياء ، وعليكم إخوانى بالحذر من الزلل ، والاحتقار للعمل ، فلو رأيتم أرباب القلوب والأسرار ، وقد أخذوا أهبة التعبد فى الأسحار ، وقاموا فى مقام الخوف على قدم الانكسار **﴿يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾** عقدوا عزم الصيام وما جاء النهار ، وسجنوا الألسنة فليس فيهم مهذار ، وغضوا أبصارهم ولازموا غض الأبصار ، فانظر مدحهم إلى أين انتهى وصار **﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾** أحزانهم أحزان ثكلى مالها اصطبار ، ودموعهم لولا التحرى لقلبت الأنهار ،

ووجوههم من الخوف قد علاها الصفار ، والقلق قد أحاط بالقوم ودار ﴿ **يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ وجدوا فى انطلاقهم إلى خلاقهم ، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم ، فإذا بهم قد أذابهم كرب اشتياقهم ، أتدرى ما الذى حبسك عن لحاقهم ، حب الدرهم والدينار ، يا غافلا طول دهره عن مر يومه وشهره ، يا موعظا فى سره وجهره ، بجاف النبات وزهره ، يا عصفورا لا بد من ذبحه وتخريب وكره ، ثم لا يجول ذلك على فكره ، متى يفيق سكران الهوى من سكره ، فلو تفكر حق التفكر فى نشره ، لم يبع ثوبا ولم يشره ، مضى الزمان فى مد اللهو وضرره ، وما حظى المقصر المفرط بغير وزره :

حياة وموت وانتظار قيامة   ثــلاث أفادتنا ألوف معان

إخوانى أيامكم قلائل ، وأهواؤكم قواتل ، فليعتبر الأواخر بالأوائل ، أين من يوقن أنه لا شك راحل ، وماله زاد ولا رواحل ، هلا تنبهت من رقاد شامل ، وحضرت المواعظ بقلب قابل ، وقمت فى الدجى قيام عاقل ، وكتبت بالدموع سطور الرسائل ، وبعثتها فى سفينة سائل ، لعلها ترسى بساحل ، هل من سائل ، فأفق من سكرتك قبل حسرتك ، وتذكر نزول حفرتك وهجران قرابتك ورفقتك ، فبادر إلى تحصيل العفو قبل فوت المطالب ، وانهض عن بساط الونى وقل إلهى أنا تائب :

إلى الله تــب قبل انقضاء العمر   أخى ولا تأمن مســاررة الدهــر
لقد حــدثتك الحــادثات نزولها   ونادتــك إلا أن سمعــك ذو وقر
تنــوح وتبكــى للأحبة إذ مضوا   ونفسك لا تبكى وأنت على الأثر

فيا حاملا من الذنوب أثقالا ، يا مرسلا عنان لهوه ، فى ميدان زهوه إرسالا ، قف وقوف المنكسرين وتبتل واستشعر الخضوع ، واستجلب الدموع ، واحتل واغسل بمياه الحسرات أنجاس الخطيئات ، واعتذر إلى مولاك ، وتب من خطاياك ، واحذر سهم الغضب أن يصيب المقتل ، والجأ إلى مولاك فى خلاصك واسأل :

أيــا ســيدى ما هفوتى بغريبة   إليك ولا غفرانهــا بطــريف
فإن تقبل العبد الضعيف تطولا   فإن رجــائى فيك غير ضعيف

اللهم وفقنا للتوبة والإنابة ، وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة ، يا من إذا سأله

المضطر أجابه ، اللهم أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود فى كل آن ، أنت قلت : ادعونى أستجب لكم ، فها نحن متوجهون إليك فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا ، اللهم أذقنا برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك ، ونزه قلوبنا عن التعلق بمن دونك ، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك ، وأعطنا ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اللهم اعصمنا من شر الفتن ، وعافنا فى الدارين من جميع المحن ، وأصلح منا ما ظهر وما بطن ، وألحقنا بالصالحين ، وارحم كافة المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين .

* * *

المجلس الثالث والثلاثون
فى التقوى والمودة بين المسلمين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله خالق الجامد والحساس ، ومبدع الأنواع والأجناس ، القوى فى سلطانه الشديد الباس ، المنزه عن السِّنَة والنعاس ، المخرج رطب الثمار من يابس الأغراس، نفذ قضاؤه فلم يمنع باحتراس ، لا يعزب عن سمعه ما تجترحه الحواس ، ولا دبيب ذر بالليل فى مطاوى قرطاس ، نفذت مشيئته فكم مجتهد عاد بالياس ، يفعل ما يريد لا بمقتضى تدبير الخلق والقياس ، قدم نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على كل نبى دبر وساس ، فسبحان من أجزل له العطاء وجعله خير نبى حارب وسطا ، وقال لأمته : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

أحمده حمداً يدوم بدوام اللحظات والأنفاس ، وأصلي على رسوله محمد الذى شرعه مستقر ثابت الأساس ، وعلى صاحبه أبى بكر الثابت العزم وقد ارتد الناس ، وعلى عمر قاهر الجبابرة الأشراس (١) ، وعلى عثمان الصابر يوم الشهادة على مرير الكاس ، وعلى علىٍّ أهدى الجماعة إلى نص أو قياس ، الواجبة طاعته على العين والراس .

أما بعد : فقد قال الله فى كتابه الكريم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة

(١) الأشرس : الجرىء فى القتال والأسد كالشريس ، قاله فى القاموس ا هـ منه .

الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم* يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين * ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور * كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : الكلام على هذه الآيات الكريمات يشتمل على فصول :

الفصل الأول قوله تعالى : حق تقاته من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ، إذ الأصل اتقوا الله التقاة الحق أى الثابتة ، وتقاة مصدر ، والتقاة الحق التقوى التى تحق له تعالى ، وهى ألا يترك العبد شيئاً مما يلزمه فعله ولا يفعل شيئاً مما يلزمه تركه، ويبذل فى ذلك جهده ومستطاعه . وفى روح المعانى : روى غير واحد عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا : هو أن يُطاع فلا يُعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . وادعي كثير نسخ هذه الآية ، فعن سعيد بن جبير قال : لما نزلت اشتد على القوم العمل قاموا حتى ورمت عراقيبهم (١) ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ فنسخت الأولى ، وفي إحدى الروايتين عن ابن عباس أنه قال : لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله سبحانه بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم .

وفي تحفة الإخوان : التقوى امتثال الأوامر واجتناب المناهى ، ولها ثلاث مراتب:

---

(١) العرقوب بالضم : عصب غليظ فوق عقب الإنسان ، وجمعه عراقيب ا هـ منه .

الأولى التوقى من العذاب المخلد بالتبرى من الشرك ، وعليه قوله تعالى : **﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾** ، والثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم ، وهذا التجنب هو المتعارف بالتقوى فى الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى : **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾** وعلى هذا قول عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه : التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله ، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير . الثالثة أن يتنزه عما يشغل سره عن الله تعالى ، وهذه هى التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾** وقال ابن عمر : التقوى ألا ترى نفسك خيراً من أحد ، وقد بين الله تعالى أن التقوى خير لباس ، فقال تعالى : **﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾** وقال الشاعر :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى ... تقلـــب عريانـا ولو كان كاسيا

فخـــير خصـال العبد طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيـــا

وقال تعالى : **﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله﴾** قال بعض المفسرين : الذرية الضعاف هن البنات ، فتقوى الأصول تنفع الفروع كما قال تعالى : **﴿وكان أبوهما صالحا﴾** قيل : كان عاشر جد لأم ، انتهى . وقوله تعالى : **﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** أى مخلصون نفوسكم لله عز وجل لا تجعلون فيها شركة لسواه أصلا ، وقرأ أبو عبد الله مسلِّمون بالتشديد ، ومعناه مستسلمون لما أتى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منقادون له ، وقوله تعالى : **﴿واعتصموا بحبل الله﴾** إلخ ، قال الوالد عليه الرحمة : أى القرآن ، وروى بسند صحيح عن ابن مسعود ، وأخرج غير واحد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض . وأخرج أحمد عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إنى تارك فيكم خليفتين : كتاب الله عز وجل ممدودا ما بين السماء والأرض ، وعترتى أهل بيتى ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض . وورد بمعنى ذلك أخبار كثيرة . وقيل : المراد بحبل الله الطاعة والجماعة ، وقيل : إنه الإخلاص لله تعالى وحده ، وقوله تعالى : **﴿ولا تفرقوا﴾** أى بعد الإسلام كما تفرقت اليهود والنصارى ، أو كما كنتم فى الجاهلية متدابرين ، وقيل : لا تتخذوا ما يكون عنه التفرق ، ويزول معه الاجتماع . وقد نهى سبحانه

وتعالى عن التفرق فى الدين ، وعن التدابر والتنازع بين المسلمين ، فى آيات كثيرة من كتابه المبين ، فقال عز من قائل : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾ ، وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك ، قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : افترقت اليهود على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة ، والذى نفسى بيده لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار ، قيل : يا رسول الله ، من هم ؟ ، قال : الجماعة ، وفى رواية قيل له : ماالواحدة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابى ، ثم إن هذا الاختلاف المذموم محمول كما قيل على الاختلاف فى الأصول دون الفروع ، واستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: اختلاف أمتى رحمة (١) . وبقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : مهما أوتيتم من كتاب الله تعالى فالعمل به لا عذر لأحد فى تركه ، فإن لم يكن فى كتاب الله تعالى فسنة منى ماضية فإن لم يكن سنة منى فما قال أصحابى ، إن أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء فأيما أخذتم به اهتديتم ، واختلاف أصحابى لكم رحمة . وأراد بهم صلى الله تعالى عليه وسلم خواصهم البالغين رتبة الاجتهاد . وفى حديث العرباض المتقدم فى بعض الدروس الماضية : فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

وليعلم أنه سبحانه وتعالى قد أمر أيضاً فى آيات وفيرة على اتفاق المسلمين وعدم شقاقهم ، وحض على موالاة بعضهم لبعض ، وكذا نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم . فقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ (٢) ، وقال عليه الصلاة

---

(١) لكن قال الإمام السبكى : إن اختلاف أمتى رحمة ليس معروفاً عند المحدثين ، ا هـ منه .

(٢) وفى الجامع الصغير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تمار أخاك ، أى لا تخاصمه ولا تمازحه ، أى بما يتأذى به ، ولا تعده موعداً فتخلفه ، انتهى . وروى أيضاً عن أنس : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وفى رواية أخرى لمسلم : حتى يحب لجاره ، ا هـ منه .

والسلام : لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا . وفى الأثر : إن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ قال العلماء : فينبغى للمسلمين ويجب على الموحدين أن تتحابب قلوبهم ، وتتفق كلمتهم ، وتتحد فرقهم لإعلاء كلمة الله، وأن يجتمعوا على طاعة خليفة رسول الله ، وأن يطيعوا سلطان المسلمين ، وينقادوا لأمير المؤمنين ، قلت : ولا سيما فى هذا الزمن ، الذى كثرت فيه على المسلمين البلايا والمحن ، فالواجب على كافة أهل الإسلام اتحادهم فى طاعة ولى الأنام ، وظل الله على الخاص والعام ، حضرة مولانا أمير المؤمنين السلطان الأعظم، شمس سماء بنى عثمان ، السلطان عبد الحميد خان ، ابن السلطان المبرور عبد المجيد خان، وفقه الله تعالى للخير الأتم ، وأيده بنصره الأعظم ، وأدام دولته ، وأعز رعيته ، وجعل ملوك الأرض كلهم تحت لوائه ، وأظهره على حساده وأعدائه ، آمين .

الفصل الثانى : قد أمر سبحانه وتعالى فى هذه الآيات بالدعاء إلى الخير ، وهو ما فيه صلاح دينى ودنيوى ، فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه فى قوله سبحانه : ﴿ **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ من باب عطف الخاص على العام . كما قيل : وقد وردت أحاديث كثيرة فى الحث على ذلك ، فلنذكر بعض ما يتعلق بما هنالك ، قال العلماء رحمهم الله تعالى : من الكبائر ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لقوله تعالى : ﴿ **لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾ وروى مسلم وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان .

وأخرج الإمام أحمد أبو يعلى عن درة بنت أبى لهب قالت : سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من خير الناس ؟ قال : آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم . وفى روح المعانى : روى الحسن : من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله ، وخليفة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخليفة كتابه . وروى لتأمرُن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن

الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم ، وتستنصرون فلا تنصرون . وروى في تبيين المحارم عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليه فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم بعذاب من عنده . وفى رواية : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم بعقاب من عنده . رواه أبو داود وغيره ، وقال عليه الصلاة والسلام : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل** ﴾ الآية . وروى الأصبهانى أنه عليه الصلاة والسلام قال : يا أيها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم ، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم ، إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يدفع رزقا ولا يقرب أجلا ، وإن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ، ثم عموا بالبلاء . وروى الأصبهانى أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها . قالوا : يا رسول الله وما الاستخفاف بحقها ؟ قال : يظهر العمل بمعاصى الله فلا ينكر ولا يغير . وروى أبو ثعلبة الخشنى أنه سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى : ﴿ **لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ فقال : يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام.
قال : وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون : إنى مهلك من قريتك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم ، فقال : يا رب ، هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبى وآكلوهم وشاربوهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** ﴾ وليعلم أن العلماء اتفقوا على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ، وقيل : من فروض الأعيان ، وله شروط منها يلزم أن يكون ذلك إيماناً واحتساباً لا لسمعة ولا رياء ولا لغرض نفسانى.
ومنها العدالة فقد اعتبرها قوم ولم يعتبرها آخرون ، وربما استدل الأولون بقوله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ وبقوله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين**

آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى ينشد فى مجالسه :

مواعـــظ الواعظ لن تقبلا ... حـــتى تعيهـــا نفسه أولا
يا قوم من أظلم من واعظ ... خـــالف ما قد قاله للملا
أظهـــر بين الناس إحسانـه ... وبارز الرحـــمن لما خـــلا

وأنشد آخر :

وغيـــر تقى يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوى الناس وهو سقيم

وأنشد آخر :

يا أيهـــا الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليـم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت إذن فأنت حكيم

وفى هذا الباب أخبار كثيرة ، ومطالب غزيرة ، من أرادها فليرجع إلى محلها .

الفصل الثالث : قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ الآية ، قال المفسرون رحمهم الله تعالى : هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة فى الفضل على غيرها من الأمم ، سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير ، وكان ، قيل : تامة ، أي خلقتم ، وقيل : ناقصة ، أى كنتم فى علم الله خير أمة ، وقيل : كنتم مذكورين فى الأمم الماضية خير أمة ، وقيل : كنتم بمعنى أنتم ، ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ أي عدولا خيارا كما قال تعالى : ﴿ **قال أوسطهم** ﴾ أي خيرهم وأعدلهم ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ أى لتكونوا شهداء يوم القيامة لأنبيائهم على أممهم ، قال ناصر السنة ابن الجوزى فى الكلام على هاتين الآيتين فى تبصرته ما نصه : روى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقال لنوح : من يشهد لك فيقول محمد وأمته، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ قال : الوسط العدول، قال : فيدعون فيشهدون له بالبلاغ ، قال : ثم أشهد عليكم . روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : نحن الآخرون السابقون يوم القيامة الحديث . وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : مثلكم ومثل اليهود والنصارى

كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين ، ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضبت اليهود والنصارى ، فقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء ، قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً قالوا : لا قال : فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء . واعلم أن فضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة وإن كان ذلك باختيار الحق لها وتقديمه إياها إلا أنه جعل لذلك سبباً كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم علمه بما جهلوا ، فكذلك جعل لتقديم هذه الأمة شيئاً هو الفطنة والفهم واليقين وتسليم النفوس ، واعتبر حالهم بمن قبلهم، فإن قوم موسى رأوا قدرة الخالق فى شق البحر ثم قالوا اجعل لنا إلها ، ثم مال كثير منهم إلى عبادة العجل ، وعرضت لهم غزاة فقالوا اذهب أنت وربك فقاتلا ، ولم يقبلوا التوراة حتى نتق عليهم الجبل ، وأمروا بقول حطة فقالوا حنطة ، وقيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا زحفا ، وقالوا : عن نبيهم هو آدر (١) ، ومن مذهبهم التشبيه والتجسيم، وهذا من أعظم التعطيل، لأن الجسم مؤلَّف ولا بد للمؤلَّف من مؤلِّف، ومن غفلة النصارى اعتقادهم أن الله تعالى جوهر (٢) والجواهر تتماثل ولا مثل للخالق. ثم يقولون عيسى ابنه، وقد علم أن الابن بعض، والخالق لا يتجزأ ،

---

(١) قوله آدر الآدر هو منتفخ الخصيتين ا هـ منه .

(٢) وليعلم أن النصارى زعموا أن الإله جوهر ثلاثة أقانيم ، أب وابن وروح القدس ، كل واحد منها إله تام والكل إله واحد ، ثم قالوا : بأن الذى هو أحد الأقانيم وثانيها نزل إلى الأرض وتجسد من مريم ومن روح القدس ، وولد ونشأ وكبر إلى أن بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة وشهورا ، ثم إن اليهود صلبوه ومات وقبروه ثم قام من قبره فى اليوم الثالث ، وأكل السمك وشرب الماء ، وظهر للحواريين ثم ارتفع إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب وهو فى هذه الأحوال كلها إله تام ، وإنسان تام، ولهم فى الأقانيم تسعة أقوال مذكورة فى كتاب « مثير الغرام » والأقنوم لفظة سريانية معناها الشخص ، ورد هذا القول أظهر من أن يذكر ، فإن جنة قائله لا تخفى على عاقل ، وأما اليهود فأقوالهم السخيفة كثيرة ، منها تحريفهم للتوراة وتبديلها ، ومنها أن الإله سبحانه وتعالى مساحة جبهته خمسة آلاف ذراع ، وتاج رأسه ألف قنطار ، وفص خاتمه تضىء منه الشمس والنجوم ، وقالوا : إن موسى هو الذى قتل أخاه هارون لميل بنى إسرائيل إليه ، ومنها أن سليمان بنى لنسائه بيوت الأوثان وأباح لهن عبادتها ، ومنها قولهم إن داود زنى بامرأة أوريا وابنه سليمان منها ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، وليعلم أيضاً أنه قد ورد فى التوراة والإنجيل ما يدل على نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، منها قول الله تعالى مخاطبا لموسى عليه الصلاة والسلام : سأقيم لهم نبياً مثلك من إخوانك =

ثم هم قد علموا ألا يقوم إلا بالطعام والإله هو من قامت به الأشياء لا من قام بها، وقد عرفنا يقين أمتنا ، وبذلهم أنفسهم في الحروب ، وطاعة الرسول وحفظهم للقرآن ، وأولئك كانوا لا يحفظون كتابهم ، فلهذا فضلوا ، فهم أول أمة يدخلون الجنة ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : أهل الجنة مائة وعشرون صفا أمتي منهم ثمانون صفا ، وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه قال : ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى ، روى أبو موسى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاء ، فاطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق ، أخرجاه في الصحيحين . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : فما ندمه يا رسول الله ؟ قال : إن كان محسناً ندم ألا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون نزع . وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره ، فإن قيل : هذا يوجب تردداً في تفضيل الصحابة ، فالجواب أنه أراد تقريب آخر أمته إلى أولها في الفضل ، كما تقول : لا أدرى أوجه هذا الثوب خير أو مؤخره ، وقد علم أن وجهه أفضل لكنك تريد تقريب مؤخره من وجهه من الجودة . ذكره ابن قتيبة ، فأما فضل الصحابة رضى الله تعالى عنهم فلا شك فيه إذ لهم صبر على الحق لا يشاركهم فيه أحد ، كان بلال رضى الله تعالى عنه يعذب في الرمضاء ويقولون له : قل اللات والعزى ، وهو يقول : أحد أحد . وكان عم الزبير يعلقه ويدخن عليه بالنار، ويقول: ارجع إلى الكفر فيقول: لا أرجع، ولقد جاء من بعد الصحابة سادات

= أجعل كلامي على فمه ، وفي موضع آخر منها : جاء الله من طور سيناء وظهر بساعير وعلن بفاران، والمراد بالمجيء مجيء الشرائع والسنن ، والأنبياء ، لأن الله تعالى منزه عن المجيء ، وجبل الطور معلوم ، وكان مبدأ ظهور موسى منه ، وساعير جبل القدس ، ومنه مبدأ ظهور عيسى ، وفاران جبل مكة أو الحجاز ، ففي التوراة : وإسماعيل سكن برية فاران ونشأ بها ، ومن أراد تفصيل أقوالهم الباطلة فعليه بالمطولات الكافلة اهـ منه .

برزوا فى العلم والعمل ، كان أبو مسلم الخولانى قد علق فى مسجده سوطا يؤدب به نفسه كلما فتر ، ويقول : أيظن الصحابة أن يستأثروا بمحمد دوننا ، والله لأزاحمنهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا رجالا . وكان عامر بن قيس يصلى كل يوم ألف ركعة ، وكان كهمس بن الحسن يختم فى الشهر تسعين ختمة ، وصلى سليمان التيمى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، وكان سفيان الثورى غاية فى العلم والعمل ، فغلبه الخوف فصار يبول الدم ، وحمل ماؤه إلى الطبيب فقال : هذا لا يشبه بول المسلمين ، هذا ماء الرهبان ، هذا الرجل قد فتت الخوف كبده ، وحمل ماء سرى السقطى إلى الطبيب فلما نظر إليه قال : هذا بول عاشق ، قال حامله : فصعقت وغشى على ، ثم رجعت إلى سرى فأخبرته فقال : قاتله الله ما أبصره . قال الشبلى : جزت براهب فقلت له : لمن تعبد ، فقال : عيسى ، قلت: ولم ؟ قال : بقى أربعين يوماً لم يأكل ، قلت : فعدَّها علىَّ فأقمت تحت صومعته أربعين يوما لم آكل ، فأسلم ، وكان أبو عبيدة الخواص يقول : وا شوقاه إلى من يرانى ولا أراه .

وفى الحديث عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : اشتاقت الجنة إلى على وعمار وسلمان ، قال بعض الصالحين : لقيت غلاماً فى طريق مكة يمشى وحده فقلت : ما معك مؤنس ؟ قال : بلى ، قلت : أين هو ؟ قال : أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى . قلت : أما معك زاد ؟ قال : بلى . قلت : أين هو ؟ قال : الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل . قلت : هل لك فى مرافقتى؟ فقال : الرفيق يشغل عن الله ولا أحب أن أرافق ما يشغلنى عنه طرفة عين، قلت : أما تستوحش فى هذه البرية ؟ قال : إن الأنس بالله قطع عنى كل وحشة ، فلو كنت بين السباع ما خفتها ، قلت : لك حاجة ؟ قال : نعم إذا رأيتنى فلا تكلمنى . قلت : ادع لى . قال : حجب الله طرفك عن كل معصية وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه . قلت : حبيبى ، أين ألقاك ؟ قال : أما فى الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائى ، وأما فى الآخرة فإنها مجمع المتقين ، فإن طلبتنى هناك فاطلبنى فى زمرة الناظرين إلى الله عز وجل . قلت : وكيف علمت ؟ قال : بغض طرفى له عن كل محرم واجتنابى فيه كل منكر ومأثم ، وقد سألته أن يجعل جنتى النظر إليه ، ثم صاح وأقبل يسعى حتى غاب عن بصرى .

إخوانى ، إن من كان من أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم خير الخلق وأفضلهم، كانت أمته خير الأمم وأفضلها وأقدمها وأكرمها ، فما يحسن بمن كان خيراً من الأمم الماضين ، ومتبعا لسيد المرسلين ، إلا أن يكون متصفا بصفات الخير، متجنبا لصفات الشر ، المعقبة للضير ، ولا يرضى لنفسه أن يكون من شر الناس مع انتسابه إلى خير الأمم ، ورسوله خير الرسل الكرام ، ولما تمسك رسول الله عليه الصلاة والسلام بعروس الإسلام وأبرزها للبصائر من خدرها ، أخرج أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ماله كله نثارا لهذه العروس ، ونثره على الرءوس، ثم أخرج عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه النصف موافقة له ، فقام عثمان رضى الله تعالى عنه بوليمة ذلك العرس فجهز جيش العسرة ، وقام على كرم الله تعالى وجهه إلى الدنيا الدنية ، لما علم أنها ضرة لهذه العروس البهية ، وأنهما لا يجتمعان، وفى قلب واحد لا يسكنان ، ثَلَّث طلاقها ، واختار فراقها ، راضيا بضرتها الباقية ، المشفقة الوافية ، طاردا للفانية ، الغدارة العاتية ، فالحمد لله الذى خصنا بهذه الرحمة ، وأسبغ علينا هذه النعمة ، وأعطانا ببركة نبينا المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الفضائل الجمة ، فقال : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ فمن أين للأمم مثل أبى بكر الصديق ، أو عمر الذى ما سلك طريقا إلا هرب الشيطان من ذلك الطريق ، أو عثمان الذى صبر على مر المضيق ، أو علىّ بحر العلم الخضم العميق ، أو مثل العمَّين الحمزة والعباس ، ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ ، أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين ، أو سعد وسعيد هيهات من أين ، أو السَّجاد وجعفر ذى الجناحين ، أو مثل عوف وأبى عبيدة ومن مثل الاثنين ، إن شبهتهم بهم فقد أبعدت فى القياس ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ .

هل شجرة الرضوان فى أشجارهم ، هل وقعة بدر من أثمارهم ، إنما عرضت لهم غزاة فى جميع أعمارهم ، وجهادنا مع الأنفاس . كنتم خير أمة أخرجت للناس. غمرهم التغفيل وتناهى ، واعتقدوا للخالق أشباها ، فقالوا فى اليم اجعل لنا إلها ، وما فى عقائدنا نحن التباس . كنتم خير أمة أخرجت للناس . أعند رهبانهم كزهد أويس ، أو فى عابديهم كعامر بنى قيس ، أو فى خائفيهم كالفضيل هيهات ليس ضوء الشمس كالمقباس ، كنتم خير أمة أخرجت للناس ، أفيهم مثل بشر ومعروف ، أفى زهادهم كابن أدهم موصوف ، أو فى طوائفهم طائفة صلت

ورنت الأقواس . كنتم خير أمة أخرجت للناس . أفيهم مثل أبى حنيفة ومالك ، أو كالشافعى الهادى إلى المسالك ، كيف نمدحهم وهم أجل من ذلك ، ما أحسن بنيانهم والأساس ، كنتم خير أمة أخرجت للناس . أفيهم أعلى من الحسن البصرى وأنبل ، أو ابن سيرين الذى بالورع تبتل ، أو سفيان الذى بالعلم والخوف تسربل ، أو كأحمد الذى بذل نفسه للحق وسبل ، تالله ما فيهم مثل ابن حنبل ، ارفع صوتك بهذا ولا باس ، كنتم خير أمة أخرجت للناس .

اللهم إنا نسألك الثبات على دينك ، وشكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، ونسألك لسانا صادقا وقلبا سليما ، وفؤادا حليما ، ونسألك من خير ما تعلم ونستغفرك مما تعلم ، اللهم لك أسلمنا وبك آمنا ، وبجميع ما جاء به نبيك المصطفى صدقنا ، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وبك خاصمنا ، اللهم إنا نعوذ بك من عذاب القبر ، ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم وارحم آباءنا وأمهاتنا وأقاربنا وكافة المسلمين . والحمد لله رب العالمين .



المجلس الرابع والثلاثون
فى التفكر وعجائب المخلوقات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله القديم السابق ، العظيم الخالق ، الكريم الصادق ، الرحيم الرازق ، رافع السبع الطوابق ، بلا عمد ولا علائق ، ومثبت الأرض بالشم الشواهق ، مزينة بالأشجار والحدائق ، المتعرف إلى خلقه بالبراهين والحقائق ، المتكفل بأرزاق جميع الخلائق ، خالق الحيوان الناطق ، من ماء دافق ، رب السموات السبع وما بينهما ورب المشارق ، أحمده ما سكت ساكت ونطق ناطق ، وأقر بوحدانيته إقرار مخلص لا منافق . وأصلى على رسوله محمد الذى عمت دعوته الحضيض والشاهق ، وعلى صاحبه أبى بكر القائم يوم الردة بالحزم اللائق ، وعلى عمر مدوخ الكفار وفاتح المغالق ، وعلى عثمان الذى ما استحل حرمته إلا مارق ، وعلى علىٍّ الذى

كان يدخل بالشجاعة المضائق ، وعلى سائر آله وأصحابه ما أضاء صبح وذر شارق، وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قال المفسرون : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار** ﴾ المراد ذات السموات والأرض وصفاتهما وما فيهما من العجائب ، والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما بالمجىء والذهاب ، وزيادة أحدهما ونقصان الآخر ، وتفاوتهما طولا وقصراً وحراً وبرداً ، وقوله تعالى : ﴿**لآيات** ﴾ أى دلالات واضحة وبراهين بينة لأهل العقول الصحيحة على الخالق سبحانه وتعالى :

وفى كل شىء له آية   تـدل على أنه واحد

وقوله تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله** ﴾ الآية ، اختلف فى المراد بالذكر ، فقيل ذكره سبحانه وتعالى فى هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها ، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة وبه قال على وابن عباس رضى الله تعالى عنهم : أى لا يضيعونها فى حال من الأحوال فيصلونها ﴿**قياما** ﴾ مع عدم العذر ﴿ **وقعودا وعلى جنوبهم** ﴾ مع العذر ، وقوله تعالى . ﴿**ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ أى فى بديع صنعهما ، وإتقانهما مع عظم أجرامهما ، فإن هذا الفكر إذا كان صادقاً أوصلهم إلى الإيمان به سبحانه ، وعن عائشة مرفوعا : ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها . وقد مدح الله تعالى المتفكرين ووردت آثار [1] فى استحباب التفكر كما سنذكر ذلك ، وقوله : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا** ﴾ أى عبثا بل خلقته دليلا على حكمتك ووحدانيتك وقدرتك .

واعلم أن التفكر معناه أن يحضر الإنسان فى قلبه معرفتين ليستثمر منهما معرفة

---

(١) سئل أعرابى : بم عرفت الله سبحانه وتعالى ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ، أفلا يدلان على السميع البصير ، ا هـ منه .

ثالثة فإذا تفكر فى السموات والأرض علم أنها مخلوقة وعلم أنه لا بد لها من خالق فأثمرت المعرفتان معرفة ثالثة وهى طاعته ولزوم أمره ، وكذلك إذا علم أن الباقى أولى من الفانى ، ثم علم أن الآخرة أبقى حصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهى أن الآخرة أولى بالإيثار ، وثمرة الفكر العلوم والأحوال ، ومتى حصل العلم فى القلب تغير حال القلب فتغيرت أعمال الجوارح ، فالفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، فإنه إذا تفكرنا فعلمنا أن الآخرة خير من الدنيا تغيرت القلوب عن الرغبة فى الدنيا فرغبت فى الآخرة ، قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى الإحياء : قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ الآية ، وقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن قوماً تفكروا فى الله عز وجل ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره ، وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ما لكم لا تتكلمون ؟ فقالوا : نتفكر فى خلق الله عز وجل . قال : فذلك فافعلوا تفكروا فى خلقه ، ولا تتفكروا فيه ، فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين . قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان منهم ، قال : ما يدرون خُلق الشيطان أم لا . قالوا : ومن ولد آدم ؟ قال: لا يدرون خلق آدم أم لا . وعن الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل. وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة ... ففى كل شىء له عبرة

وعن طاوس قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : يا روح الله ، هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم ، من كان منطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة ، فإنه مثلى . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو ، وفى قوله تعالى : ﴿**سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾ قال : أمنع قلوبهم عن التفكر فى أمرى . وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى

الله تعالى عليه وسلم : أعطوا أعينكم حظها من العبادة . فقالوا : يا رسول الله ، وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه. وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة ، وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكر ، والثانية العفة وقوامها فى الشهوة ، والثالثة القوة وقوامها فى الغضب ، والرابعة العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس . وليعلم أن التفكر يلزم فى أنواع عديدة ، منها : ينبغى للعاقل أن يفتش صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة ، هل هو فى الحال ملابس لمعصيته بها فيتركها ، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ، أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ، فينظر مثلا فى اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والممازحة والخوض فيما لا يعنيه ، فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ، ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر فى أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ويتفكر مالا فائدة له فى ذلك ، ثم يتفكر كيف يحترز من هذه المهالك ، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة أو بألا يجالس إلا صالحاً وعالماً تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله تعالى ، وإلا فيضع قوله تعالى : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها * ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا** ﴾ ولنذكر لكم تفسير هذه الآيات ثم نرجع إلى ما نحن بصدده إن شاء الله تعالى .

قال العلماء رحمهم الله تعالى : ﴿ **ولا تقف** ﴾ أى لا تتبع ما لا تعلم ، لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم ، وقال ابن عباس : لا تذم أحدا بما ليس لك به علم ، وقال محمد ابن الحنفية : هى فى شهادة الزور ، وقيل هى فى القذف ، وقيل : معناها لا تتبع الحدس والظنون ، وقوله تعالى : ﴿ **إن السمع** ﴾ الآية أى كل واحد من الحواس الثلاثة يسأل عنه ، وقيل : إن الله سبحانه

ينطق هذه الأعضاء عند سؤالها لتخبر عما فعله صاحبها . والفؤاد هو القلب ، وله إطلاقان ، تارة يطلق على الجسمانى الذى فى الصدر وتارة على غيره . قال فى التبصرة: اعلم أن القلب إذا أطلق أريد به الجسمانى الذى فى الصدر ، وليس المراد به هذا فى قوله عز وجل : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ لأن الحيوان البهيمى يشارك الآدمى فى ذلك ، وإنما اللطيفة التى هى فى الآدمى حقيقة تارة تسمى بالقلب وتارة بالروح وتارة بالنفس وتارة بالعقل . قال الزجاجي : ومعنى الآية إن فى ذلك لذكرى لمن صرف قلبه إلى التفهم أو ألقى السمع ، أي استمع ولم يشغل قلبه بغير ما استمع وهو شهيد ، أى وقلبه حاضر غير غائب ، ثم اعلم أن القلب أمير البدن والجوارح خدمه ، وقد ركب فى الآدمى ما ركب فى الملك من العلم والعمل بمقتضاه ، وركب فيه ما ركب فى البهيمة من الحرص والحسد والشهرة والشهوات ، فالعلوم تحركه إلى الأخلاق الرفيعة ، والشيطان يدعوه إلى الأخلاق البهيمية ، فإن مال إلى التقى فر الشيطان من ظله ، وإن مال إلى الشهوات تمكن الشيطان منه وربما قبض عليه فقتله .

وعن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب . أخرجاه فى الصحيحين . ولما اكتنف القلب صفات الخير وصفات الشر كان كلما تشبثت به صفة أثرت فيه ، وهذا معنى تقلب القلوب . عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كثيراً ما يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، واعلم أن القلب يمرض من الخطايا كما يمرض البدن من التخليط ، فالمتقون يستعملون الحمية بالتقوى قبل الوقوع فى المرض . ومنهم من تزل قدمه بزلة فيتنبه لها فيرفع الخلل بالاستغفار . ومنهم من يتوانى فى الإصلاح فيعظم فساد القلب فيقسو ويظلم ويصدأ. انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ أى مختالا فخورا ، وقيل : هو شدة الفرح ، وقيل : التكبر فى المشى ، وقرئ مرحا بكسر الراء على أنه اسم فاعل، ثم علل سبحانه هذا النهى فقال : ﴿ **إنك لن تخرق الأرض** ﴾ أى لن تقطعها فى المسافة أو تنقبها وفيه تهكم بالمختال المتكبر ﴿ **ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾ أى

ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أصغر وأحقر من كل واحد من الجمادين ؟ وأنت تفنى وتهلك قبل هذين ، فكيف يليق بك الكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا　　فكـــم تحتها قوم همو منك أرفع

فإن كنت فى عـــز وحـــرز ومنعة　　فكم مات من قوم همو منك أمنع

وقوله تعالى : ﴿ **كل ذلك** ﴾ أى جميع ما تقدم أو ما نهى عنه ﴿ **كان سيئه** ﴾ وقرأ أبى كان سيئاته وقرأ نافع سيئة على أنها واحدة السيئات ﴿ **عند ربك مكروها** ﴾ والمكروه ، هو الذى يبغضه ولا يرضاه سبحانه ، وقوله تعالى : ﴿ **ملوما مدحورا** ﴾ أى تلوم نفسك مبعداً مطرودا من رحمة الله .

ولنرجع إلى ما نحن بصدده من بحث التفكر ، فليعلم أنه ينبغى للعاقل أيضاً أن ينظر أولاً فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير ، وكيف يصونها عن ترك الطمأنينة والرياء ، وكيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ، ثم يرجع إلى عضو عضو من أعضائه فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق به مما يحب الله تعالى ، فيقول مثلا : إن العين لم تخلق لرؤية المحرمات بل خلقت للنظر فى ملكوت الأرض والسموات ، وغير ذلك من الطاعات ، وكذلك يقول فى سمعه: إن سمعى لم يخلق لسماع الغيبة والنميمة فيقول إنى قادر على استماع مظلوم وكلام ملهوف أو استماع علم أو قراءة ووعظ وذكر . فما لى أعطله وقد أنعم الله تعالى على به ، وأودعنيه لأشكره ، فما لى أكفر نعمة الله تعالى فيه بتضييعه وتعطيله. وكذلك يتفكر فى فرجه وبطنه وأنهما لماذا خلقا ، وفى بقية أعضائه ، وهكذا يفتش عن جملة بدنه وأولاده وأمواله وغلمانه ودوابه بأن ينظر أن الله تعالى أعطاه ذلك ليستعين به على طاعته لا على معاصيه ، وقوله تعالى : ﴿ **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ الآية . قال العلماء : إن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة موصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله تعالى ووحدانيته وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن ، ولكنا نشير إلى بعض منه ليكون كالمثال لما عداه .

فنقول : الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصله فلا يمكننا التفكر فيه ، وكم من الموجودات ما لا نعلمه كما قال تعالى : ﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ وإلى ما

يعرف أصله ولا يعرف تفصيله ، وإلى ما ندركه بالبصر وما لا ندركه بالبصر ، أما الذى لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك ، ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهى المدركات بالبصر ، وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما ، فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركاتها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وأشجارها وحيوانها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومه وأمطاره وثلوجه ، ورعده وبرقه وصواعقه ، وعواصف رياحه ، وفى جميع ذلك حكم عظيمة لا يعلم عددها إلا الله سبحانه وتعالى ، ومن جملة تلك الآيات الإنسان المخلوق من النطفة وأقرب شىء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره ، وأنت غافل عنه ، فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك ، وقد أمرك سبحانه وتعالى بالتدبر فى نفسك حيث قال عز وجل : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة ، فقال : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره * من أى شىء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ فتكرير ذكر النطفة فى القرآن العظيم ليس ليسمع لفظها فقط ، بل ليتفكر فى المعنى ، فانظر الآن إلى النطفة وهى قطرة من ماء الذكر والأنثى قذرة لو تركت ساعة فى الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وجعل بينهما مودة ورحمة ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، واستجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ثم خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء وجعلها مضغة [1] ، ثم كيف قسمها وهى متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ودور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم

---

(١) أى قطعة لحم ا هـ منه .

رءوسها بالأصابع ، وجعل فيها مفاصل وأظافر ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء . كل واحد على شكل مخصوص ، وانظر كيف ركب العين من سبع طبقات لو فقدت طبقة منها انقطعت عن الرؤية ، وانظر كيف شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها ، وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستنشق روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا عما فى القلب ، وزين الفم بالأسنان وبيض لونها ورتب صفوفها فأحكم أصولها وحدد رءوسها لتكون آلة الطحن والقطع، وخلق الشفتين ليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والطول والقصر ، حتى تختلف بها الأصوات كما اختلفت الصور، ثم انظره إنه لما ضاق الرحم عن الجنين لما كبر كيف هداه السبيل حتى تحرك وتنكس وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ ، كأنه عاقل بصير ، ثم لما كان بدنه لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف خلق له اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث (١) والدم سائغا خالصا ، وكيف هداه لالتقام الثدى ولا سيما سائر الحيوانات ، وكيف أنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصغير ، ثم فتح فى حلمته فتقا ضيقا حتى لا يخرج منه اللبن إلا تدريجا ، ثم انظر كيف خلق الأسنان عند احتياجه إلى الطعام ، ثم انظر كيف جعل الرحمة فى قلب والديه ، ثم انظر كيف رزقه العقل والقدرة تدريجا ، والتمييز والهداية حتى بلغ وتكامل وصار شابا ثم كهلا ثم شيخا، إما كفورا أو شكورا ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فهذه عشر عشير من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك ، وأجلى شاهد على وجود خالقك ، وعظمته وقدرته وحكمته ، وأنت غافل عن ذلك ، مشغول ببطنك وفرجك ، لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع وتنام ، وتشتهى فتجامع ، وتغضب فتقاتل ، والبهائم تشاركك فى معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عن كمالها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وعجائب الآفاق والأنفس ، إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ، ويحشر فى زمرة الصديقين ، فإذا رضى الإنسان بشهوات

---

(١) وهو ما فى معدة الإنسان ا هـ منه .

البهائم فإنه شر منها ، قال الله تعالى : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ ، وإذا عرفت طريق فكرك فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هى مقرك ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات ، أما الأرض فانظر إليها وهى ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت عجائب النبات لكل نبت طعم ولون وريح يخالف الشكل الآخر ، وانظر اختلاف منافعه وأذيته ، فهذا يغذى وهذا يقوى ، وهذا يحيى وهذا يقتل ، وهذا يبرد وهذا يسخن ، وهذا ينوم وهذا يسهر ، وبعضه يخرج من نواة وبعضه من حبة ، ولو أردنا أن نذكر عجائب النباتات لانقضت الأيام فى وصف ذلك ولقد أحسن القائل :

تأمل فى رياض الأرض وانظر　　إلــى آثـــار ما صـــنع المليك
عيـــون من لجـــين شاخصات　　على أحـــداقهـــا ذهب سبيك
على قصـــب الزبرجد شاهدات　　بأن الله ليس لـــــه شـــريــــك

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض ، والعيون النابعة فيها ، والمعادن الخارجة منها ، كالنفط والكبريت والقار والملح وغير ذلك .
ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وما يمشى ، وإلى ما يمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة ، ثم انظر إلى انقسامها فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع ، تر فيها من العجائب التى لا تستقصى ما لا تشك معه فى عظمة خالقها ، وقدرة رازقها ، ولو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات لضاقت عن بعضها مجالسنا ، ومن أراده فليرجع إلى كتاب « مفتاح دار السعادة » للعلامة شمس الدين محمد الشهير بابن قيم الجوزية .

ومن آياته عز وجل البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، فانظر إلى سعتها وعجائب ما فيها من الحيوانات والجواهر ، ففيها من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل عليها الناس ، فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ، وما من صنف من أصناف البر إلا وفى البحر مثاله . وانظر كيف خلق الله اللؤلؤ فى الأصداف ، وأنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وتأمل العنبر ونحوه كيف يقذفه البحر ، وانظر إلى السفن كيف أمسكها الله على الماء ثم أرسل الرياح لتسوقها ولم تغرق مع ثقل جسمها ولطافة الماء ، ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود ، والبروق والأمطار والثلوج ، والشهب

والصواعق ، فهى عجائب ما بين السماء والأرض المشار إليها فى **قوله تعالى :** ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين**﴾ فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف اجتمع فى جو صاف ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل إلى أن يأذن الله سبحانه فى إرساله وتقطيع قطراته إلى من يشاء ، فتعسا للجاهل المغرور ، حيث يزعم أن ذلك إنما هو بطبعه لثقله ، ولم ينظر إلى الماء فى أسافل الشجر كيف ترقى إلى أعالى الأشجار شيئا فشيئا ، وينتشر فى جميع أطراف الأوراق والفواكه فيغذيها وينميها ، فلو كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل لما وصل الماء من عروق الشجر إلى أعلاها ، وما ذاك إلا بقدرة الحكيم القدير.

ومن آياته عز وجل ملكوت السموات وما فيها من الكواكب وهو الأمر كله ، ومن أدركه الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا ؛ لأن الأرض وما فيها والبحار بالنسبة إلى السموات كقطرة فى بحر ؛ ولذا عظمها سبحانه فى كتابه ، وأقسم بها بقوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات البروج * واليوم الموعود** ﴾ ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾ وكقوله عز وجل : ﴿**والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها**﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها** ﴾ فانظر إلى الملكوت ، لترى عجائب العز والجبروت ، ولا تظن أن معنى النظر ، رؤية زرقة السماء والكواكب بالبصر ، فإن البهائم تشاركك فى ذلك ، بل المراد استدلالك بها على قدرة وحدانية المالك ، فارفع رأسك أيها الأخ العاقل إلى السماء، وانظر فيها وفى كواكبها ، وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها ، وفى دوام حركتها ، وفى جريها فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص ، إلى أن يطويها سبحانه طى السجل للكتاب . وتدبر عدد كواكبها وكثرتها ، واختلاف ألوانها وكيفية أشكالها ، فبعضها على هيئة العقرب ، وبعضها على صورة الجمل والثور والإنسان ، وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها ، وإيلاج الليل فى النهار ، وكيف جعل الله الليل لباسا ، والنوم سباتا للاستراحة ، والنهار معاشا ،

وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، ومن الكواكب ما يزيد على مائة مرة من الأرض ، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها ، ولقد أحسن القائل :

والنجـــم تستصـــغر الأبصـــار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

وفى الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى فى مسيرة خمسمائة عام ، فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافا فانظر إلى كثرة الكواكب مركوزة فيها ، وإلى عظمها وسرعة حركتها ، وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، وانظر إلى عظم شخصها وخفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم ، كيف أثبت صورتها العظيمة فى حدقة أعيننا الصغيرة ، فسبحان من خلقها وخلقنا ، ثم خاطبنا بقوله : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

فيا عجبا لنفس تنكر البعث ما أعماها ، أما أظهر الأدلة لها وجلاها ، من الذى مد الأرض ودحاها ، وابتعث الغمام فسقاها ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها** ﴾ أما فى هذا دليل لها فما أشقاها ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها** ﴾ إله عظيم لم يزل إلها ، وملك كبير لا يتناهى ، يسمع صريف الأقلام ومجراها ، ولا تخفى عليه خافية ممن أخفاها ، يقسم الأرزاق فما يترك ذرة ولا ينساها ، أحكم الأمور كلها وقضاها ، وعلى ما سبق علمه بها أمضاها ، سواء أسخط النفوس أو أرضاها ، وكما قدر مبدأها قدر منتهاها ، أحاط الأجسام بمصالحها ورعاها ، ولطف بالنفوس فى التكليف وراعاها ، وفتح باب الكرم ثم استدعاها ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها . من جاء بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، من أهلك ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، من رتب الطلع فى الجف [1] ، من صف حب الرمان إذ صف ، من أنشأ ذوات الظلف والخف ، من الذى تعلقت بفضله الأكف ، فكفها بالغرض وكفاها ، من أخرج الأصول لا من أصول ، من بقدرته يبطش ويصول ، ويقول للشئ كن فيكون ، كما يقول . لا يمتنع عن الإرادة ولا يأباها . يقول للأشياء عودى فتعود ، وترجع مخضرة بعد يبس العود ، ويقضى لأقوام بالشقاء ولأقوام بالسعود ، واها لذلك اليوم واها . خلق

(١) الجف بضم الجيم وعاء الطلع أو غشاؤه ا هـ منه .

آدم من طين جامد ، وحواء من ضلع واحد ، وعيسى من أم بلا والد ، ذاك القادر على إعادة البائد ، فما أجهل النفوس المنكرة وما أجفاها . من نقل المنى إلى علقة ، من خلق الأنف وشق الحدقة ، من أخرج من يابس الغصن الورقة ، وقد كان عريانا فاكتساها ، تخلو الأبدان من أرواحها وتفرغ ، ثم تطلع شمس الحياة عليها وتبزغ ، فتصعد قلوب الكافرين إلى الحناجر وتبلغ ، وتبلغ نفوس المؤمنين مناها ، يوم عظيم، كم فيه من عذاب أليم ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، يجثو فيه الخليل والكليم، ويشفع صاحب طه . يا هذا تفكر فى أمرك ، وانقضاء عمرك ، وإخراجك من قصرك ، والوزر على ظهرك ، ومحاسبتك على سرك وجهرك ، تفكر فى إثبات أعمالك ، وخيبة آمالك ، ووقوفك وسؤالك ، وربما كنت الهالك .

وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه . وجعلنا ممن يتفكر فى نفسه وظاهره وخافيه ، اللهم أسلمنا وجوهنا إليك ، وفوضنا أمورنا إليك ، وألجأنا ظهورنا إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولامنجا منك إلا إليك ، اللهم آمنا بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ، اللهم اجعل فى قلوبنا نوراً نهتدى به إليك ، ووفقنا للأعمال الصالحة المقربة لديك ، وعاملنا بفضلك وكرمك ولا تفضحنا يا سيدنا يوم العرض بين يديك ، واغفر لنا ولوالدينا وأقاربنا ومشايخنا وللجماعة الحاضرين ، ولجميع أموات المسلمين ، وارحمنا إذا عدنا إليهم برحمتك يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس الخامس والثلاثون
فى الغيبة والنميمة وشبههما من الكبائر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى سير بقدرته الفَلَك والفُلْك ، ودبر بصنعه الضوء والحلك ، اختار آدم فحسده إبليس وغبطه الملك ، وافتخر بالتسبيح والتقديس ، فأما إبليس فهلك ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ .

أحمده وهو بالحمد جدير ، وأقر بأنه مالك التصوير والتصيير ، تعالى عن نظير ،

وتنزه عن وزير ، قبل من خلقه اليسير ، وأعطى من رزقه الكثير ، أنشأ السحاب يحمل الماء النمير ، ليعم عباده بالخير ويمير ، فكلما قصر القطر فى الوقع صاح الرعد بصوت الأمير ، وكلما أظلمت مسالك الغيث لاح البرق يوضح وينير ، فقامت الورق على الورق ، وتصدح وتمدح على جنبات الغدير ، فالجماد ينطق بلسان حاله ، والنبات يتكلم بحركاته وأشكاله ، والكل إلى التوحيد يشير . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأصلى وأسلم على رسوله محمد البشير النذير ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الكبير ، وعلى عمر ذى العدل الغزير ، وعلى عثمان الذى جهز جيش العسرة فى الزمان العسير ، وعلى على المخصوص بالموالاة يوم الغدير ، وعلى بقية الآل والأصحاب ما ذكر التهليل والتكبير .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون * يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : اختلف المفسرون فى سبب نزولها على أقوال ، أولها الذى عليه الجمهور أن ثابت بن قيس بن شماس كان فى أذنيه وقر ، وكان إذا لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول ، فجاء يوما وقد أخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا تفسحوا فقال له رجل : قد أصبت مجلسا فاجلس ، فجلس ثابت مغضبا ، ثم قال للرجل : يا فلان ابن فلانة ، يريد إنه كان يعير بها فى الجاهلية ، فسكت الرجل استحياء فنزلت ، ثانيها إنها نزلت فى كعب بن مالك قال لعبد الله : يا أعرابى ، فقال له عبد الله : يا يهودى ، ثالثها أنها نزلت فى جماعة استهزءوا بالفقراء ، وأما قوله تعالى : ﴿ **ولا نساء من نساء** ﴾ قيل فى عائشة رضى الله عنها : وقد عابت أم سلمة بالقصر ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن صفية بنت حيى أتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت : إن النساء يعيرننى ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

هلا قلت إن أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد ، وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم** ﴾ أى أحد من أحد ، والسخرية هى الاستهزاء ، ومعنى الآية النهى عن الاستهزاء ، فإنه من الكبائر على ما قيل : وقد يكون كفراً والعياذ بالله تعالى على ما صرح به الفقهاء الحنفية ، كما إذا استهزأ إنسان بواعظ أو خطيب أو قاض أو نحو ذلك وتزيا بزيهم ليضحك الحاضرين كما قدمناه فى بعض الدروس الماضية ، وقوله تعالى : ﴿ **عسى أن يكونوا خيراً منهم** ﴾ تعليل للنهى ، أى عسى أن يكون المسخور منهم خيرا عند الله تعالى من الساخرين ، فرب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله تعالى لأبره ، وجوز أن يكون المعنى لا يحتقر بعض بعضا عسى أن يصير المحتقر ذليلا والمحتقر عزيزا فينتقم منه فهو نظير قول الشاعر :

لا تهـــين الفقير علــك أن　　　تركع يوما والدهر قد رفعه

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أى لا يعب بعضكم بعضا بقول وإشارة لأن المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ وقيل : اللمز مخصوص بما كان من السخرية على وجه الخفية ، كالإشارة ، وقال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان ، والإشارة والهمز لا يكون إلا باللسان ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ .

وقال الضحاك : لا يلعن بعضكم بعضا ، وقد ورد : سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر ، قالوا : ولا ينبغى كل ذلك للمؤمنين ، حتى قال ابن مسعود : لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا ، وقوله تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ أى لا يدعو بعضكم بعضا باللقب القبيح ، والنبز اللقب وجمعه أنباز ، قال المفسرون : وذلك مثل أن يقول لأخيه المسلم يا فاسق يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى أو يا خنزير . وعن ابن عباس : التنابز أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها فنهى الله تعالى أن يعير بما سلف . قيل : والتلقيب المنهى عنه هو ما يتداخل المدعو به كراهة . فأما ما يحبه فلا بأس . وقوله تعالى : ﴿ **بئس الاسم الفسوق** ﴾ أي بئس الاسم أن يذكر بالفسق ، والاسم هنا على ما قال بعض أجلة المفسرين ليس المراد به ما يقابل اللقب والكنية ، ولا ما يقابل الفعل والحرف ، بل المراد به الذكر المرتفع لأنه من السمو من قولهم طار اسمه فى الناس بالكرم ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يذكروا بالفسق ﴿ **بعد** ﴾ دخولهم فى ﴿ **الإيمان** ﴾ استقباح للجمع بين الإيمان والفسق ، وقيل : المعنى أن من

فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق ﴿ **ومن لم يتب** ﴾ عما نهى الله عنه ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ لأنفسهم ولمن لقبوه ولمزوه وسخروا به انتهى ملخصا .

فتبين من سبب النزول أن الغضب إذا لم يكن لله فإنه غير محمود ، وإن الصفح أمر محبوب ، والعفو وكظم الغيظ أعز مطلوب ، فعن ابن عمر رضى الله تعالى عنه أنه سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما يباعدنى من غضب الله عز وجل ؟ قال : لا تغضب . وروى أن رجلا قال : يا رسول الله قل لى قولا وأقلل لعلى أعيه ، قال : لا تغضب ، فأعاد عليه مرارا ، كل ذلك يقول : لا تغضب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ثلاث من كن فيه آواه الله فى كنفه ، وستر عليه برحمته ، وأدخله فى محبته : من إذا أعطى شكر ، وإذا قدر غفر ، وإذا غضب فتر . وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع . وروى أيضاً أن الوضوء وقولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم مذهب له أيضاً ، وقد وردت أيضاً فى كظم الغيظ بعض الآيات الجليلة ، منها قوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ وفى الحديث عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : والعفو لا يزيد العبد إلا عزا فاعفوا يعزكم الله .

وروى الطبرانى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ينادى مناد يوم القيامة : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل : من هم ؟ قال : العافون عن الناس، قال غير واحد من العلماء : إن السخرية والتنابز من الكبائر ، ونحو ذلك التهاجر والتشاحن والتلاعن ونحوه . ولنذكر بعض الأحاديث المتعلقة بذلك ؛ ليتجنب كل منا عن الوقوع فى المهالك ، ففى كتاب « الترغيب والترهيب » أن البخارى روى عن أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث . زاد الطبرانى : يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا والذى يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة . وعن جابر بن سليم رضى الله تعالى عنه قال: رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئا إلا صدروا عنه ، قلت : من هذا ؟ قالوا : رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قلت : عليك السلام يا رسول الله. قال : لا تقل عليك السلام تحية الميت ، قل السلام عليك ، قال : قلت : أنت رسول الله ؟ قال : أنا رسول الله الذى إذا أصابك ضر فدعوته كشفه الله تعالى

عنك ، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء وفلاة فضلّت راحلتك فدعوته ردها عليك ، قال : قلت : اعهد لى . قال : لا تسبن أحدا . فما سببت بعده حرا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شاة، قال : ولا تحقرن شيئا من المعروف ، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك فإن ذلك من المعروف ، وارفع إزارك إلى نصف الساق وإن أبيت فإلى الكعبين ، وإياك وإسبال الإزار فإنه من المخيلة [1] ، وإن الله تعالى لا يحب المخيلة ، وإن امرؤ شاتمك أو عيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه ، فإنما وبال ذلك عليه . رواه أبو داود والترمذى ، وعن ابن عمر قال صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه . قيل : يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه فيسب أمه فيسب أمه . وقال : إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينا وشمالا فإن لم تجد مساغا رجعت إلى الذى لعن إن كان أهلا ، وإلا رجعت إلى قائلها .

ولنرجع إلى الكلام على بقية الآيات فنقول قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن** ﴾ الآية ، يقال : جنبه الشر إذا أبعده عنه ، كما قال تعالى : ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام** ﴾ والظن هنا مجرد التهمة التى لا سبب لها ، كمن يتهم غيره بشىء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، وأمر سبحانه باجتناب الكثير وأبهم ليفحص المؤمن عن كل ظن يظنه حتى يعلم وجهه ، قال الزجاج : هو أن يظن بأهل الخير سوءا فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظن بهم مثل الذى ظهر منهم . قيل : ولا بأس به ما لم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم . ونقل ابن الجوزى عن بعض العلماء أنه يأثم بنفس الظن وإن لم ينطق به ، قال : وأما ما ورد فى الحديث من قوله : احترسوا من الناس بسوء الظن ، فالمراد الاحتراس بحفظ المال، مثل أن يقول : إن تركت بابى مفتوحا خشيت السارق. انتهى . قال الغزالى : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . وهذا الظن يلقيه الشيطان ، وروى أبو هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : إياك والظن فإن الظن أكذب الحديث . وقال العلامة أبو السعود : من الظن ما يجب

(١) المخيلة التكبر والعجب بنفسه ا هـ منه .

اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات ، وحسن الظن بالله تعالى ، ومنه ما يحرم كالظن فى الإلهيات والنبوات ، وحيث يخالفه قاطع أى دليل ظاهر ، وظن السوء بالمؤمنين . ومنه ما يباح كالظن فى الأمور المعاشية ، انتهى .

ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ والتجسس بالجيم كما قرأ الجمهور ، وهو البحث عن معايب الناس حتى يطلع عليها بعد أن سترها الله تعالى ، وقرئ بالحاء المهملة ، وهو طلب الإخبار والبحث عنها ، وقيل هما بمعنى ، وروى عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة [(١)] . وروى مسلم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لا يستر عبد عبداً فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ أى لا يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب . بما يسوءه ، ثم ضرب الله تعالى للغيبة مثلا ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا** ﴾ وبيانه أن ذكرك من لا يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك ، فكرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى : فكما كرهتم هذا الأكل فاجتنبوا ذكره بالسوء ، وفى ذلك إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه وهى من الكبائر . وأما ما رواه أبو بكرة رضى الله تعالى عنه قال : بينما أنا أماشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وآخذ بيدى ورجل عن يسارى فإذا نحن بقبرين أمامنا ، فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان بكبير ، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستنزه من البول ، وفى رواية : وما يعذبان إلا فى الغيبة والبول ، فمحمول على أن ذلك ليس بكبير فى زعمهما ، والغيبة هى ذكرك أخاك بما يكره ، فقد روى مسلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . فقيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته. قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله تعالى ، الغيبة والإفك والبهتان فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه ، وأما الإفك فهو أن تقول فيه ما بلغك عنه ، وأما البهتان فهو أن تقول ما ليس فيه . وسنورد إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة بجميع ذك وشبهه ، واعلم أن الغيبة أقسام ، فمن أعظمها غيبة الأولياء نفعنا الله

(١) هى البنت التى كان العرب يقتلونها وهى حية ا هـ منه .

تعالى بهم ، وغيبة العلماء ، حتى قال بعضهم إنه لا فرق فى عدم جواز غيبة العالم بين العامل بعلمه وغيره إكراما لعلمه ، ولقد أحسن القائل :

لحـوم أهل العلم مسمومة ومن يعاديهم سريع الهلاك
فكن لأهل العلم عونا وإن عـاديتهم يوما فخذ ما أتاك

قال الوالد : والأشبه أن يكون حكم من استمع الغيبة كحكم من اغتاب إذا كان له قدرة على دفعها ، ولذا قالوا إن الإنكار على المغتاب واجب ، فقد روى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته إلا أخذله الله تعالى فى مواطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر امرأ مسلما فى موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته . وفى حديث آخر ذكره فى التبصرة أيضاً أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على نصرته فلم ينصره أذله الله على رءوس الخلائق . ونقل الوالد عليه الرحمة عن الغزالى أنه سئل عن غيبة الكافر فقال : هى فى حق المسلم محذورة لثلاثة علل : الإيذاء وتنقيص خلق الله تعالى وتضييع الوقت بما لا يعنيه . والأول يقتضى التحريم . والثانى الكراهة . والثالث خلاف الأولى . وأما الذمى فكالمسلم فيما يرجع إلى المنع عن الإيذاء لأن الشرع عصم عرضه ودمه وماله. وقد روى ابن حبان فى صحيحه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من سمّع يهودياً أو نصرانيا فله النار ، ومعنى سمعه أسمعه ما يؤذيه ، ولا كلام بعد هذا فى الحرمة ، وأما الحربى فغيبته ليست بحرام على الأولى ، وتكره على الثانية ، وخلاف الأولى على الثالثة . وأما المبتدع فإن كفر فكالحربى وإلا فكالمسلم ، وأما ذكره ببدعته فليس مكروها ، وقد تجب الغيبة لغرض شرعى لا يتوصل إليه إلا بها وتنحصر فى ستة أسباب : التظلم عند من له قدرة على الإزالة ، الثانى الاستعانة على تغيير المنكر ، الثالث الاستفتاء ، الرابع تحذير المسلمين من الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين لإفتاء أو إقراء مع عدم الأهلية ، الخامس أن يتجاهر بفسقه ، السادس التعريف بنحو لقب كالأعمش ، ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة بشروطها ، قيل : ومنها أن يستحل من المغتاب ، وأن يكثر الاستغفار ، ولا سيما إذا كان المغتاب غائبا أو ميتا ، وأن يستغفر لهم فإن الله هو التواب الغفور .

ولنذكر بعض الأحاديث فى الغيبة وشبهها مما وعدنا بذكرها ، فمن ذلك ما رواه

البراء رضى الله تعالى عنه ، قال : خطبنا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أسمع العواتق [1] ثم قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته . وعن جابر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الغيبة أشد من الزنا . قالوا : يا رسول الله، كيف ؟ قال : إن الرجل يزنى فيتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ، وذكر رجل رجلاً عند معروف الكرخى فجعل معروف يقول له : اذكر القطن إذا وضعوه فى عينيك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : كفى بالمرء عيبا أن يستبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه ، ويمقت الناس على ما يأتى به . وقيل للربيع : ما نراك تذم أحدا . فقال : ما أنا على نفسى براض فأتفرغ من عيبها إلى غيرها ، إن الناس خافوا الله تعالى على ذنوب العباد وآمنوه على ذنوبهم ، ولقد أحسن القائل :

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكـلك عورات وللناس ألسن

وكذا القائل :

يمنعنى من عيب غيرى الذى ... أعرفه فىَّ من العيب
عيبى لهم بالظن منى لهم ... ولست من عيبى فى ريب
إن كان عيبى غاب عنهم فقد ... أخفى عيوبى عالم الغيب

وأما البهتان فهو أيضاً من الكبائر ، قال تعالى : ﴿ **ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا** ﴾ وروى أبو داود عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : من قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله فى ردغة الخبال حتى يخرج مما قاله. وردغة الخبال عصارة أهل النار ، ونحو ذلك شهادة الزور ، قال الله تعالى : ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ فقد قرن سبحانه قول الزور بالشرك . وروى البخارى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وكان متكئا فجلس - فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يقول حتى قالوا لا يسكت . وكذا النميمة محرمة ، بل

---

(١) أى النساء ا هـ منه .

هى من الكبائر ، ففى الصحيحين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: لا يدخل الجنة قتات ، وفى لفظ نمام . وقال عز وجل : ﴿ **ولا تطع كل حلاف** ﴾ أى كثير الحلف بالباطل ﴿ **مهين** ﴾ أى كذاب أو مكثار فى الشر ، ﴿**هماز**﴾ أى مغتاب للناس أو عياب لهم ﴿ **مشاء بنميم** ﴾ وهو الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، ﴿ **مناع للخير** ﴾ أى بخيل ، وقيل هو الذى يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام ﴿ **معتد** ﴾ أى متجاوز الحد فى الظلم ﴿ **أثيم** ﴾ أى كثير الآثام ﴿ **عتل** ﴾ قال الفراء هو شديد الخصومة فى الباطل ، وقيل : هو الشديد الخلق الفاحش ، وقيل : هو قاسى القلب ﴿ **بعد ذلك زنيم** ﴾ أى بعد ما عد من معايبه الثمانية هو مستلحق بالقوم وليس هو منهم ، وقيل هو من يمر على القوم فيقولون هو رجل سوء ، وقوله تعالى فى تتمة هذه الآية : ﴿ **أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * سنسمه على الخرطوم** ﴾ والخرطوم الأنف ، والمراد به هنا الوجه ، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخوله النار ، والعياذ بالله تعالى .

واعلم أن العلماء قالوا : إن أعظم أسباب هذه الأخلاق الذميمة هو الحسد ، وقد ورد فى التحذير عنه آيات وأحاديث كثيرة ، فمنها قوله تعالى : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ ومنها ما رواه ابن ماجه : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، والصلاة نور المؤمن ، والصيام جنة من النار . وفى الصحيحين من حديث أنس عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا . وروى الترمذى فى النهى عن الشماتة أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام : لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله تعالي ويبتليك ، قال العلماء فى الكلام على قوله عليه الصلاة والسلام : دب فيكم داء الأمم قبلكم الحسد والتباغض: إن أعظم الحسد بين العلماء ، فلذا لا يقبل قول بعضهم فى بعض إلا ببراهين واضحة . وعلى ذلك ما روى من قوله عليه الصلاة والسلام أنهم يدخلون النار قبل الحساب بسنة ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : الأمراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين (1) بالتكبر ، والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة، والعلماء بالحسد ، ولله تعالى در القائل :

---

(1) فى القاموس : الدهقان بالكسر والضم التاجر وزعيم فلاحى العرب ، ورئيس الأقاليم معرب ا هـ منه.

إن يحســـدونـــى فإنـــى غير لائمهم قبلى من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فــدام لـــى ولهـــم ما بى وما بهـــم ومـــات أكثـــرنـــا غيظـــا بما يجـــد

ولنذكر قصة مذكورة فى الزواجر ، ليعتبر بالأوائل الأواخرُ ، قال : كان بعض الصلحاء يجلس إلى جانب ملك ينصحه ويقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسيء تكفيه إساءته ، فحسده على قربه من الملك بعض الجهلة ، وأعمل الحيلة على قتله ، فسعى به للملك فقال له : إن فلانا يزعم أنك أبخر (١) وأمارات ذلك أنك إذا قربت منه يضع يده على أنفه لئلا يشم رائحة البخر ، فقال له : انصرف حتى أنظر، فخرج فدعا ذلك الحاسد الرجل الصالح إلى داره وأطعمه طعاما فيه ثوم وجاء للملك وقال له مثل الأول فجاء الصالح فقال مثل قوله السابق : أحسن إلى المحسن إلخ ، فقال له : ادن منى فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم ، فقال الملك فى نفسه : ما أرى فلاناً إلا صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا لجائزة أو صلة فكتب له بخطه لبعض عماله أنه إذا أتاك صاحب كتابى هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبنا ، وابعث به لى . فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الذى سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ فقال : خط الملك لى بصلة فقال : هبه منى ، فقال: هو لك ، فأخذه ومضى إلى العامل فقال العامل : فى كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال : إن الكتاب ليس هو لى ، الله الله فى أمرى حتى أراجع الملك ، قال : ليس لكتاب الملك مراجعة ، فذبحه وسلخه وحشى جلده تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته، وقال له مثل قوله، فعجب الملك، وقال: ما فعلت بالكتاب، فقال : لقينى فلان فاستوهبه منى فدفعته له ، فقال له الملك : إنه ذكر لى أنك تزعم أنى أبخر ، قال : ما قلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فمك ، قال : أطعمنى ثوما فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت فقد قتل وكفى المسيء إساءته ، فإذا برأسه قد أتى به إلى الملك ، ولذا قيل : لله در الحسد ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله، وقد تبين لكم مما تلوناه عليكم من الآيات البينات ، والأحاديث النبويات ، أن اللسان سبب فى أكثر المهالك ، وسالك بصاحبه إن لم يصنه فى أسوأ المسالك :

تعاهد لسانك إن اللسان سريع إلى المرء فى قتله
وهذا اللسان بريد الفؤاد يدل الرجـال على عقله

وقد ورد فيه جملة أحاديث ، حديث معاذ : وهل يكب الناس فى النار على

---

(١) البخر تغير ريح الفم ا هـ منه .

مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، وروى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ، ومن آفات اللسان أيضاً الكلام فيما لا يعنيه ، وفى الحديث الصحيح : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . قالوا : ومن جملة المزاح والمدح بما لا يصلح ، ولذا قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : ما شىء أحوج إلى طول سجن من لسانك ، وقال الفضيل : كان بعض أصحابنا يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة ، ولقد أحسن القائل:

اغتنـــم ركعتيــــن زلفى إلى الله   إذا كنت فارغـــاً مســـتريحـــا
وإذا ما هممــــت بالنطق فى البا   طل فاجـــعل مكـــانه تسبيحـــا
فاغتنــام السكوت أفضل من خو   ض وإن كنت فى الحديث فصيحا

فيا مطلقاً لسانه فيما يؤذيه ، يا غافلا عن الكلام وله من يحصيه ، إن أردت قولا فانظر قبل النطق فيه ، فالسعيد من وقف على قدم التيقظ حارساً على فيه :

يـــا غـــافلا يتمادى   غدا عليك ينـــادى
هذا الذى لم يقدم   قبـــل الترحل زادا
هـــذا الذى وعظوه   وخـــوفوه المعـــادا
فلـــم يكـــن لمناديه   طـــائعا منـــــقادا

فأين علامة الإيمان يا من يدعيه ، أين تأثير الوعظ يا من يسمعه ويعيه ، أين اعتبارك بمن حوى الدنيا فأصبح اللحد يحويه ، وأين بكاؤك على ذنوبك ، وحزنك على كثرة عيوبك ، وأين عقلك الذى غطى عليه زخرف التمويه ، وأين أسفك على فوت مطلوبك يا مسئولا عما يره ويبديه ، يا من نفسه في الحقيقة أكبر أعاديه ، يا سكران الهوى ومنادى الهدى يناديه ، يا من لا يفيق حتى يحل الموت بناديه قل لنفسك الجهولة الأمارة ، أما للصلاح عندك أمارة ، كم يمين ولا حنث ولا كفارة ، وطريق خوف ولا لك خفارة ، ولا تحقر فى شيئاً فقد تحرق شرارة ، احذر الدنيا فإنها مكارة ، لا تثق بأيمانها فإنها غدارة ، لا تغتر بها فإنها سحارة ، بينما هى عقدت هدنة قد شنت غارة ، تنشف صافى الكأس وتبقى الكدارة ، ثم تنتقل إلى اللحد بلا عمارة ، ثم تقوم نادماً وفى الدموع غزارة ، ثم تعاين ناراً شديدة الحرارة،

وقودها الناس والحجارة ، دار قد خص أهلها بالبعاد ، وحرموا لذة المنى والإسعاد ، بدلت وضاءة وجوههم بالسواد ، وضربوا بمقامع أقوى من الأطواد ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد** ﴾ لو رأيتهم فى الحميم يسرحون ، وعلى الزمهرير يطرحون ، وحزنهم دائم فما يفرحون ، مقامهم محتوم فما يبرحون أبد الآباد ، عليها ملائكة غلاظ شداد .

تعس كل منهم فما انتعش ، وا أسفا قد قتلهم الحر والعطش ، والمصيبة أن القدر بهم قد بطش . ومن يضلل الله فما له من هاد . وعذابهم طريف بديع ، قد حرس عليها ملائكة غلاظ شداد ، توبيخهم أعظم من العذاب ، تأسفهم أقوى من المصاب، يبكون على تضييع أوقات الشباب ، وكلما جاء البكاء زاد ، عليها ملائكة غلاظ شداد .

أين كسبهم للحطام ، أين سعيهم فى النميمة بين الأنام ، كأنه كان أضغاث أحلام، عندما احترقت تلك الأجسام ، وكلما أهلكت تعاد . عليها ملائكة غلاظ شداد . ويحك ، انتبه وأصلح قلبك ، وتيقظ وافهم عيبك ، ويحك ، تب من استهزائك بالناس وراقب ربك ، إن ربك لبالمرصاد . قد بقى القليل وتنقل ، وإلى دار الجزاء تحمل ، كم أعلمك وتجهل ، وكم أقول لك ولا تقبل ، أنا في واد وأنت فى واد .

اللهم أعتقنا من النار ووفقنا لسلوك سبيل الأخيار ، واحفظ من الحسد والغيبة والنميمة وبين أخلاق الأشرار ، وأدخلنا ووالدينا دار كرامتك مع الأبرار والزهاد . وصل على سيدنا محمد وآله الأمجاد .

* * *

المجلس السادس والثلاثون
فى اتباعه واتباع سننه عليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١) . . .

الحمد لله قاهر المتجبر ومذله ، ورافع المتواضع ومجله ، القريب من عبده فهو

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله خالق المخلوق ومتقن صنعه ، المقدر ما شاء فمن الذى يستطيع دفعه ، علم إخلاص النية من الرياء والسمعة ، وسمع فلم يمنع اختلاف اللغات سمعه ، وأبصر حتى جوف الجوف وجريان الدمعة ، ومنع فمن يعطى ما قدر منعه ، صفاته كذاته وما تشبه الصانع الصنعة ، الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان واجب والسؤال عنه بدعة . أحمده حمدا يدوم ما دامت الأيام السبعة ، وأشهد أنه فالق الحب من الطلعة ، وأصلى على رسوله محمد المبعوث بأفضل شرعة ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر أول من جمع هذه الربعة ، وعلى عمر فتاح الأمصار فكم قلع قلعة ، وعلى عثمان الصابر على تلك الصرعة ، وعلى على الذى حاز أشرف رتبة وأكرم رفعة ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين مدائحهم أنفق كل سلعة . وسلم تسليما ا هـ منه .

أقرب من ظله ، هو عند المنكسر لأجله حال ذله ، لا يعزب عن سمعه وقع القطر فى أضعف طله ، ولا بغام ظبى البر وكشيش صله ، ولا يغيب عن بصره فى الدجى دبيب نمله ، رفع من شاء بإعزازه كما حط من شاء بذله ، اختار محمدا من الخلق فكان الكل خلقوا من أجله، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

أحمده على أجل الأنعام وأقله ، وأشهد بوحدانيته شهادة مصدق فى قوله بفعله ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله لنقض الكفر وحله ، وقام معجزه ينادى فأتوا بسورة من مثله ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وعلى أبى بكر واصل حبله ، وعلى عمر الذى كان يفرق الشيطان من ظله ، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة وعاقد شملة شمله ، وعلى على أخيه وابن عمه ومقدم أهله ، وعلى بقية آله وأصحابه السابقين لأمره وقوله ، وسلم تسليما .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية ، فقال الحسن البصرى : زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يحبون الله فقالوا : يا محمد إنا نحب ربنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وقف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قريش فى المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف، وهم يسجدون لها ، فقال : يا معشر قريش ، لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ، ولقد كانا على الإسلام ، فقالت قريش : يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله تعالى لتقربنا إلى الله زلفى ، فأنزل الله تعالى : قل إن كنتم ، الآية ، وفى رواية أبى صالح أن اليهود لما قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه نزلت ، فعرضها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على اليهود فأبوا أن يقبلوها ، وروى محمد ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : نزلت فى نصارى نجران ، وذلك أنهم قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده حبا لله وتعظيما له ، فأنزلها سبحانه ردا عليهم، نقل جميع ذلك فى روح المعانى ، واختلفوا فى محبة العبد لله سبحانه فقيل: المراد إن كنتم تحبون طاعة الله تعالى وثوابه فاتبعونى ، وقال الأزهرى : محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ، ومحبة الله تعالى للعباد إنعامه عليهم بالغفران.

وقال كثير من عارفى أهل السنة والجماعة : المحبة تتعلق حقيقة بذات الله تعالى ، وينبغى للكامل أن يحب الله سبحانه لذاته ، وأما محبة ثوابه فدرجة نازلة ، وقد

ذكرنا فى بعض مجالس الكتاب الآتية أن الحب فى الله والبغض فى الله أيضاً من متعلقات حب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشعب الإيمان .

وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم عن عائشة رضى الله تعالى عنهما قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور ، وتبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض فى الله ، قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله** ﴾ الآية فيها حث عظيم على اتباع أقواله وأفعاله عليه الصلاة والسلام ؛ ولذا ورد فى الأحاديث الصحيحة الحث على ذلك كحديث : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . وحديث : من رغب عن سنتى فليس منى . ولنبين فى هذا الدرس جملة من سننه عليه الصلاة والسلام ، وبعضا من هديه للأنام . ليكون تعلمه والعمل به سببا للفوز بدار السلام ، ومكفرا للذنوب والآثام ، فمنها صلاة التسبيح، روى أبو داود عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال للعباس رضى الله عنه : يا عباس ، يا عماه ، ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أصلك ألا أجعل لك ، عشر خصال ، إن أنت فعلت ذلك غفر الله ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه ، خطأه وعمده ، صغيره وكبيره ، سره وعلانيته ، أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا ، ثم تهوى ساجدا فتقولها وأنت ساجد عشرا ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا ، ثم تسجد فتقولها عشرا ، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرا ، فذلك خمس وسبعون مرة فى كل ركعة ، تفعل ذلك فى أربع ركعات ، إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة وقال العلامة ابن عابدين : يفعلها فى كل وقت لا كراهة فيه أو فى كل يوم أو ليلة مرة وإلا ففى كل أسبوع أو جمعة أو شهر أو العمر ، وفضلها عظيم ، ولا يتركها إلا متهاون فى الدين ، وهى أربع بتسليمة أو تسليمتين ، يقول فيها ثلثمائة مرة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وفى رواية : زيادة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، يقول ذلك فى كل ركعة خمساً وسبعين مرة بعد الثناء خمسة عشر ، ثم القراءة ، وفى ركوعه والرفع منه وكل من السجدتين وفى الجلسة بينهما عشرا عشرا بعد تسبيح الركوع والسجود ،

وهذه الرواية هى التى رواها الترمذى . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن يقال فيها بعد التشهد قبل السلام : اللهم إنى أسألك توفيق أهل الهدى ، وأعمال أهل اليقين ، ومناصحة أهل التوبة ، وعزم أهل الصبر ، وجد أهل الخشية ، وطلب أهل الرغبة ، وتعبد أهل الورع ، وعرفان أهل العلم ، حتى أخافك . اللهم إنى أسألك مخافة تحجزنى عن معاصيك حتى أعمل بطاعتك عملا أستحق به رضاك ، وحتى أناصحك بالتوبة خوفا منك ، وحتى أخلص لك النصيحة حبا لك .

ولنذكر لكم جملة من سنن الصلاة فإن كثيرا من الناس لأكثرها جاهلون ، والغالب منهم فى تركها متهاونون ، فمنها صلاة الوتر وهى ثلاث ركعات بتسليمة عند إمامنا الأعظم ، وقد قال بوجوبها والقنوت فيها وقضائها إذا فاتت ، وقالت بقية المذاهب بسنيتها ، وإليها ذهب الصاحبان أبو يوسف ومحمد ، والأحاديث فى فضلها كثيرة ، ودعاء القنوت فيها أن يقول : اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوب إليك ، ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق - ونحفد بالدال المهملة وفاء مكسورة بمعنى نسرع - والجد بكسر الجيم بمعنى الحق ، وملحق بكسر كالحاء وبفتحها بمعنى لاحق ، قيل : والأولى أن يضم إليه أيضاً : اللهم اهدنى فيمن هديت إلى آخر الدعاء المشهور ، وروى عن ابن عمر أنه كان يقول بعد : إن عذابك الجد بالكفار ملحق : اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات، وألف بين قلوبهم ، وأصلح ذات بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، اللهم العن كفرة الكتاب الذين يكذبون رسلك ، ويقاتلون أولياءك، اللهم خالف بين كلمتهم ، وزلزل أقدامهم ، وأنزل عليهم بأسك الذى لا يرد عن القوم المجرمين.

وأخرج الترمذى وغيره أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول فى آخر وتره : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لاأحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . قال ابن عابدين : وله أن يدعو بغير ذلك من الأدعية التى لا تشبه كلام الناس ، ومن لا يحسن القنوت يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة الآية ، وقال أبو الليث : يقول اللهم اغفر لى ويكررها ثلاثا ، وقيل : يقول : يا رب ثلاث مرات ، وإذا نسى القنوت سجد للسهو ، ومن سنن الصلوات المؤكدة أربع قبل الظهر وأربع قبل الجمعة وأربع بعدها بتسليمة ، وركعتان قبل الصبح، وقيل : بوجوبها ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : من ترك أربعا قبل الظهر

لم تنله شفاعتى ، أى الشفاعة الخاصة بزيادة الدرجات . وروى مسلم : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها . وروى أبو داود : لا تدعوا ركعتى الفجر ولو طردتكم الخيل ، ومن السنن ركعتان بعد الظهر والمغرب . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يدعهما سفرا ولا حضرا ، وركعتان بعد العشاء ، ويستحب أربع قبل العصر وقبل العشاء وبعدها بتسليمة ، وإن شاء ركعتين ، وكذا بعد الظهر لحديث الترمذى : من حافظ على أربع قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار ، وست بعد المغرب ؛ ليكتب من الأوابين ، جمع أواب أى كثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار ، فإن شاء صلاها بتسليمة أو ثنتين أو ثلاث ، وقال فى « مراقى الفلاح » أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من صلى بعد المغرب ست ركعات كتب من الأوابين ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **إنه كان للأوابين غفورا** ﴾ والأواب هو الذى إذا أذنب ذنبا بادر إلى التوبة ، وعن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: من صلى بعد المغرب ست ركعات غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر . وفى رواية ابن عمر : بعد المغرب قبل أن يتكلم غفر له بها ذنوب خمسين سنة . وقد اختلف فيها فقيل الست غير الثنتين المؤكدتين ، وقيل الست بثلاث تسليمات ، وقيل بتسليمتين ، وقيل بتسليمة واحدة ا هـ .

ويسن تحية رب المسجد وهى ركعتان وأداء الفرض أو غيره ينوب عنها ، وندب ركعتان بعد الوضوء قبل الجفاف ، لحديث مسلم : ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين يقبل بقلبه ووجهه عليهما إلا وجبت له الجنة . قالوا : ومثل الوضوء الغسل ، ويقرأ فيهما الكافرون والإخلاص ، وندب أربع فصاعدا للضحى، وفى المنية أقلها ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ؛ لما رواه النسائى بسند فيه ضعف أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من صلى الضحى اثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصرا من ذهب فى الجنة ، وقيل أكثرها ثمانية ، ونسب إلى الإمام أحمد . ومن المندوبات ركعتا السفر ، والقدوم منه ، فقد روى مطعم بن المقدام عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفرا ، رواه الطبرانى ، وروى مسلم عن كعب بن مالك : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يقدم من السفر إلا نهارا فى الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه ، ومفاده اختصاص صلاة ركعتى السفر بالبيت وركعتى القدوم منه بالمسجد ، وبه صرح الشافعى . ومنها صلاة الليل، وفى « الجوهرة » أنها أفضل من صلاة النهار ، وقد صرحت الآيات والأحاديث

بفضلها والحث عليها ، قال تعالى : ﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ وروى مسلم مرفوعا : أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل . وروى الطبرانى مرفوعا : لا بد من صلاة بليل ولو حلب شاة، وروى أبو أمامة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وهو قربة لكم إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم . وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : ثلاثة يضحك الله إليهم . . الرجل إذا قام بالليل يصلى ، والقوم إذا صفوا فى الصلاة ، والقوم إذا صفوا فى قتال العدو . وروى أصحاب السنن أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام ، قال بعض العلماء : ما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل ولو قبل النوم ، وقيل : لا بد أن تكون بعد النوم ، ولو نوى فى قلبه أن يتهجد ليلا فنام ولم يستيقظ فله أجر ذلك . فقد روى أبو ذر وأبو الدرداء رضى الله تعالى عنهما : من أتى إلى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عينه حتى أصبح كتب له ما نوى ، ومنها إحياء ليلتى العيدين لحديث : من أحيا ليلة العيد أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب ، والدعاء فيهما مستجاب ، ويستحب الإكثار من الاستغفار فيهما ، وفى سائر الأسحار . وسيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . وإحياء النصف من شعبان ، والعشر الأخير من رمضان ، وليال العشر الأول من ذى الحجة ، ومنها ركعتا الاستخارة ، قال شيخ مشايخنا ابن عابدين عن جابر ابن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك

---

(١) أى اقضه لى وهيئه ا هـ منه .

بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال عاجل أمرى وآجله ، فأقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال عاجل أمرى وآجله ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، وأقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به . قال : ويسمى حاجته . رواه أصحاب السنن ، قال ابن عابدين : روى ابن السنى : إذا هممت بأمر فاستخر ربك سبع مرات ثم انظر إلى الذى سبق إلى قلبك فإن الخير فيه ، ولو تعذرت عليه الصلاة استخار بالدعاء ، وعن بعضهم : ينبغى أن ينام على طهارة مستقبل القبلة بعد قراءة الدعاء المأثور ، فإن رأى فى منامه بياضا أو خضرة فذلك الأمر خير ، وإن رأى فيه سواداً أو حمرة فهو شر ينبغى أن يجتنب ، اهـ .

ومنها أربع صلاة الحاجة ، وقيل ركعتان ، وقيل إنها اثنتا عشرة بسلام واحد . وأخرج الترمذى عن عبد الله بن أبى أوفى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضأ ، وليحسن الوضوء ثم ليصل ركعتين ثم ليثن على الله تعالى ، وليصل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم ليقل : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، لا تدع لى ذنبا إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين . ومنها أن يصلى المسافر ركعتين فى كل منزل قبل أن يقعد كما كان يفعل صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنها صلاة التوبة ، قال المنذرى فى كتاب « الترغيب والترهيب » عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله** ﴾ إلخ ، وعن الحسن رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أذنب عبد ذنبا ثم توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى ركعتين واستغفر الله تعالى من ذلك الذنب إلا غفر الله له . ومنها صلاة

الوالدين وصلاة ركعتين عند نزول الغيث ، وركعتين فى السر لدفع النفاق ، والصلاة حين يدخل بيته ويخرج توقيا عن فتنة المدخل والمخرج ، ومنها صلاة ركعتين بعد سنن العشاء يصليها وهو جالس ، أو بعد صلاة الليل على ما قال بعضهم ، وفيهما خلاف مشهور .

وليعلم أن الأفضل فى النفل غير التراويح المنزل إلا لخوف شغل عنها ، والأصح أفضلية ما كان أخشع وأخلص ، واستثنى بعضهم تسعة فنظمها بقوله :

نوافلنا فى البيت فاقت على التى نقوم لهـــا فى مسجد غير تسعة

صـــلاة تراويح كسوف تحـــية وسنة إحـــرام طـــواف بكعـبة

ونفل اعتكـــاف أو قدوم مسافر وخائف فـــوت ثم سنـــة جمعة

أقول : وأما صلاة خسوف القمر فهى فى البيت أيضاً بخلاف صلاة كسوف الشمس فإنها فى المسجد ، وكذا صلاة الاستسقاء عند من قال بسنيتها فإنها بالصحراء. ومنها الصلاة على الدابة متنفلا خارج المصر . قال العلماء : يقعد مصلى النفل إن أراد كما يجلس فى التشهد ، ويتنفل المقيم راكبا خارج المصر ، فلا تجوز صلاة الماشى ولا من فى المصر خلافا لهما ، وعندهما يجوز فى المصر لكن بكراهة عند محمد لأنه يمنع من الخشوع ، وتنفل الراكب بالإيماء لا بالسجود على السرج إلى أى جهة توجهت دابته ، ولو ابتداء عند الحنفية . وقال الشافعى : يشترط أن يتوجه أولا ابتداء إلى القبلة ثم إلى غير جهتها ، وإذا حرك رجله أو ضرب دابته بعمل يسير فلا بأس به ، ولو افتتح النفل راكبا ثم نزل بنى وفى عكسه لا يبنى لأن الأول أدى أكمل مما وجب عليه ، والثانى بعكسه .

ولنذكر شيئاً من سننه عليه الصلاة والسلام الخارجة عن الصلاة فمنها أنه كان يكتحل عليه الصلاة والسلام عند النوم ثلاثا فى كل عين بالإثمد ، ومنها أنه كان يحمل العصا ، وكان له محجن قدر ذراع أو أطول يمشى به ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيره ، ومخصرة وتسمى العرجون ، وقضيب من الشوحط يسمى الممشوق. قيل وهو الذى كان تداوله الخلفاء ، ومنها أنه عليه الصلاة والسلام كان له قدح من قوارير وقدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه بالليل ، ومنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يدهن ويمتشط . قيل ، وكان المشط من عاج ، وكانت له مرآة

ينظر بها . وقد ورد فى الأثر أن الرائى يقول : اللهم حسن خُلقى كما حسنت خلقتى ، وحرم وجهى على النار . ومنها أنه كان عليه الصلاة والسلام يحمل السيف، قال العلامة ابن القيم فى « زاد المعاد » ومن حديث ابن عباس : كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيف قائمته من فضة وقبيعته من فضة ، وكان يسمى ذا الفقار . وكانت له قوس تسمى السداد ، وكان له درع موشح بالنحاس ، يسمى ذات الفضول ، وكان له حربة تسمى البيضاء ، وترس أبيض يسمى الموجز ، وكان له بغلة شهباء تسمى دلدلا ، وكانت له ناقة تسمى القصواء ، وكان له حمار يسمى يعفورا ، وكان له عنزة [عصاة] تسمى القمر .

ومنها على ما قال ابن القيم أنه عليه الصلاة والسلام سابق بنفسه على الأقدام ، وصارع وخصف نعله بيده ، ورقع ثوبه بيده ، ورقع دلوه وحلب شاته وفلى ثوبه ، وخدم أهله ونفسه ، وحمل معهم اللبِن [الطوب النيء] فى بناء المسجد ، وربط على بطنه الحجر من الجوع تارة ، وشبع تارة ، وضاف وأضاف ، واحتجم فى وسط رأسه وعلى ظهر قدمه وما بين الكتفين ، وتداوى وكوى ولم يكتو ، ورقى ولم يسترق ، وحمى المريض مما يؤذيه .

وروى ابن عباس عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : الشفاء فى ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى . وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن رهطا قدموا المدينة فأصابهم مرض فشكوا ذلك إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها ، ففعلوا فصحوا ، قيل : كان مرضهم استسقاء . ومنها أنه عليه الصلاة والسلام أمر بغمس الذباب إذا وقع فى الإناء ، ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فامقلوه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء . وفى رواية أبى سعيد : أحد جناحى الذباب سم والآخر شفاء ، فإذا وقع فى الطعام فامقلوه فإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء ، ومنها الخضاب بالكتم والحناء . وقد اختلف العلماء فى خضابه عليه الصلاة والسلام ، فالإمام أحمد بن حنبل أثبت خضاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه جماعة من المحدثين . وإمام دار الهجرة مالك أنكره . روى البخارى فى صحيحه عن عثمان بن عبد الله قال : دخلنا على أم سلمة رضى الله

تعالى عنها فأخرجت إلينا شعرا من شعر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإذا هو مخضوب بالحناء والكتم . والكتم غير الوسمة . ففى الصحاح : الكتم بالتحريك نبت يخلط بالوسمة يخضب به . وفى سنن أبى داود عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : مر على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجل قد خضب بالحناء فقال: ما أحسن هذا ، فمر آخر قد خضب بالحناء والكتم ، فقال : هذا أحسن من هذا ، فمر آخر قد خضب بالصفرة فقال : هذا أحسن من هذا كله . وفى السنن الأربعة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم . وفى الصحيحين أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه اختضب بالحناء والكتم . وثبت فى حديث مسلم النهى عن الخضاب بالسواد ، لكن صح عن الحسن والحسين أنهما كانا يخضبان بالسواد . قال ابن القيم : إن الخضاب بالسواد المنهى عنه خضاب التدليس كخضاب شعر الجارية والمرأة الكبيرة تغر الزوج والسيد بذلك ، وخضاب الشيخ يغر المرأة بذلك ، فإنه من الغش والخداع ، فأما إذا لم يتضمن تدليسا ولا خداعا فلا بأس به ، وهذا البحث طويل فليرجع إلى الكتب المطولة من أراد التفصيل . ومنها أمره عليه الصلاة والسلام أمته إذا سمعوا نهيق الحمار أن يتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم ، وإذا سمعوا صياح الديك أن يسألوا الله من فضله ، وأمره بالتكبير عند الحريق ، فإن التكبير يطفئه ، ومنها التكبير فى البحر، وجعله السمهودى مما يغفر الذنوب ، قال : روى أبو الحسن الربعى : من عدا فى البحر أربعين درجة وهو يكبر غفر الله تعالى له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، وإن الأمواج لتحت الذنوب حتا ، ومنها أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا رأى ما يحب قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى ما يكره قال : الحمد لله على كل حال . ومنها ذكر الله تعالى فى آخر المجلس فقد قال عليه الصلاة والسلام: من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك . وفى سنن أبى داود أنه عليه السلام كان يقول ذلك .

فطوبى لمن تتبع سنن النبى المختار ، وواظب عليها آناء الليل وأطراف النهار ، ونظر إلى الدنيا بعين الاعتبار ، فباعها واشترى بها دار القرار ، إذا انهمك أهلها فى شهواتها صام النهار ، وإذا نام الغافلون فله عن النوم نفار ، فسبحان من وفق المتبعين للسنن إلى أعظم الخيرات ، وأيقظهم من سنة الغفلات ، أترجو لحاقهم من

غير أعمالهم هيهات ، عاملوا مولاهم وانفردوا ، وقاموا فى الدياجى فركعوا وسجدوا ، وساروا وخلفت ففاتك ما وجدوا ، وبقيت فى أعقابهم فإن لم تلحق بعدوا .

يا أيهـــا الراقد كـــم تـــرقد قم يا حــبيبى قد دنا الموعـــد
وخـــذ من الليــل وساعاتــه حــظا إذا ما هجــع الرقــد
من نـــام حـــتى ينقضى ليله لم يبلـــغ المنـــزل أو يجـهد
قل لـذوى الألباب أهل التقى قنطـــرة العـــرض لكم موعد

فيا من يبارز مولاه بما يكره ، ويخالفه فى أمره آمنا مكره ، وينعم عليه فهو ينسى شكره ، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة ، يا من قبائحه ترفع عشاء وبكرة ، يا قليل الزاد ما أطول السفرة ، والنقلة قد دنت والمصير الحفرة ، متى تعمل فى قلبك المواعظ ، متى تراقب العواقب وتلاحظ ، أما تحذر من أوعد أو هدد ، أما تخاف من أنذر وشدد ، متى تضرم نار الخوف فى قلبك وتتوقد ، إلى متى بين القصور والتوانى تتردد ، متى تحذر يوما فيه الخلود تشهد ، متى تترك ما يفنى رغبة فيما لا ينفد ، فالبدار البدار إلى صالح الأعمال، والحذار الحذار من قبيح الأقوال والأفعال.

اغتنـــم ركعتين زلفى إلـــى الله إذا كنـــت فارغـــا مستريحـــا
وإذا ما هممت أن تفعل البا طـــل فاجعل مكانه تسبيحا

فاعتبروا بمن مضى من الأقران ، وتفكروا فيمن بنى كيف بان ، تقلبت والله بهم الأحوال . ولعبت بهم أيدى البلبال ، وعانقوا التراب وفارقوا المال ، فكم مأخوذ على الزلل ، ختم له بسوء العمل ، نزل به الموت فيا هول ما نزل ، وهذا مصير العاقل لو عقل ، وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا وحالكم خيرا من ماضيه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين .

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى ما نعلم منها وما لم نعلم ، وبالقرآن العظيم وبحبك لنبيك الشفيع المقدم ، أن تثبت قلوبنا على الإيمان الكامل ، وأن تعمنا ووالدينا فى الدارين بلطفك الشامل ، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، واغننا بفضلك عمن سواك، واجعلنا موالين لأوليائك ومعادين لعداك، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف

رحيم. ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وأسكنا الجنة وكافة المؤمنين الأخيار.

* * *

المجلس السابع والثلاثون

فى أول بدء الوحى به عليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى أنشأ الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم عجائب حكمته ، ودل بإرشاده على وحدانيته ، فقضى على العاصى بمخالفته ، ثم مَنَّ عليه بقبول توبته ، واختص المخلص بصدق معاملته ، ثم شغله عن الدارين بمحبته ، فاقبلوا من نصيحكم وأقبلوا على خدمته ، يؤتكم كفلين من رحمته .

أحمده على سبوغ نعمته ، وأشكره على توفيقه وهدايته ، وأشهد أنه لا شريك له فى صنعته ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله إلى جميع بريته ، بشيرا بجنته ونذيرا بنقمته ، صلى الله تعالى عليه وعلى خليفته فى أمته ، أبى بكر السابق بمرافقته ونفقته، وعلى عمر العادل فى أقضيته ، وعلى عثمان المتزوج بابنة الرسول بعد ابنته، وعلى على المخصوص دونهم بأخوته ، وعلى سائر آله وأصحابه وقرابته وسلم تسليما .

أما بعد : فنروى بسندنا إلى الإمام الهمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزبَهْ الجعفى البخارى ، عليه رحمة الملك البارى ، قال : حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد ، الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية ،

حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم** ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، قالت له خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى . قال ابن شهاب : وأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر** ﴾ إلى قوله : ﴿**والرجز فاهجر**﴾ فحمى الوحى وتتابع .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : راوية هذا الحديث عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وهى لم تدرك زمان وقوع هذه القصة فروتها إما سماعا من النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو الظاهر كما قال الطيبى ، أو من صحابى آخر ، وليعلم أن عائشة هى الصديقة بنت الصديق ، تزوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين ، وهى بنت ست سنين ، فى شوال ، وبنى بها فى المدينة بعد منصرفه من بدر فى شوال أيضاً ، سنة اثنتين من الهجرة ، وهى بنت تسع سنين ،

والأحاديث فى فضلها مشهورة كثيرة ، منها قوله عليه الصلاة والسلام : خذوا ثلثى دينكم عن الحميراء . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام . ومن فضائلها وخصائصها على ما نقل السفيرى عن الترمذى أن خديجة رضى الله تعالى عنها لما ماتت اغتم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءه جبريل بصورة عائشة فى خرقة حرير خضراء ، وقال : هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة . وقيل : جاء بورقة من الجنة منقوش عليها صورة عائشة، وقال : يا محمد ، الجبار يقرئك السلام ، ويقول : إنى زوجتك البكر التى تشبه هذه الصورة فى السماء فتزوجها أنت فى الأرض ، فدعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الدلالة وقال : هل تعرفين بمكة بكرا تشبه هذه الصورة ، قالت : نعم ، بنت أبى بكر تشبه هذه الصورة ، فدعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر ، وقال : إن لك بنتا تسمى عائشة زوجنى الله بها فى السماء وأمرك أن تزوجنى بها فى الأرض ، قال : إنها صغيرة ، فقال : لو لم تكن صالحة لما زوجنيها الله ، فعقد النكاح ، ورجع أبو بكر إلى منزله وأرسل مع عائشة طبقا من التمر ، وقال قولى له: هذا الذى سأل عنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا أدرى هل يصلح ، فأتت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال : قبلنا ثم قبلنا .

ومنها أنها قالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر، فرفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ، وقال : اللهم اغفر لعائشة بنت أبى بكر مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا ولا تُكتب بعدها خطيئة ولا إثم ، ومنها أن الله تعالى أنزل براءتها من السماء لما تكلم فيها أهل الإفك ، وقال عز وجل : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم** ﴾ الآيات العشرة ، فلذا يكون قاذفها كافراً لأنه مكذب للآيات، ومنها أنها كانت أعلم الناس بالقرآن وبالحديث وبالشعر على ما قال عروة ، واستقلت بالفتوى فى زمن الخلفاء الراشدين ، وروى عنها ألف حديث وعشرة أحاديث اتفق البخارى ومسلم على مائة وأربعة وخمسين حديثا ، وانفرد مسلم بثمانية وستين والبخارى بأربعة وخمسين .

ماتت رضى الله تعالى عنها سنة ثمان وخمسين وهى بنت ست وستين سنة ،

ودفنت ليلا بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة ، أقامت فى صحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثمانية أعوام وخمسة أشهر وتوفى عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة . واختلف العلماء فى أفضليتها على خديجة وفاطمة ، والذى رجحه جماعة من المتأخرين أن خديجة أفضل من عائشة ، وكذا فاطمة أفضل من عائشة ، قال السبكى: الذى نختاره وندين الله به أن فاطمة أفضل ثم أمها خديجة ثم عائشة ، قيل : ثم حفصة ، وكذا اختلف فى أفضلية فاطمة على مريم فإن لم تكن مريم نبية ففاطمة أفضل منها ، وقيل : هى أفضل مطلقا ، واستدل القائل بما رواه النسائى عن حذيفة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : هذا ملك من الملائكة استأذن ربه ليسلم على ، وبشرنى أن حسنا وحسينا سيدا شباب أهل الجنة وأمهما سيدة نساء أهل الجنة .

ونقل السفيرى عن الإمام مالك أنه قال : لا أفضِّل على بضعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحداً .

ولنرجع إلى ما يتعلق بحديثها ، قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة ، إلخ ، بدئ بضم الموحدة وكسر الدال، وفى الحديث دلالة أن الرؤيا من أقسام الوحى فمن للتبعيض ، قال السفيرى: وهذا متفق عليه أى لأنه لا مدخل للشيطان فيها ، ونقل القسطلانى عن أبى عبد الله القزاز أن الرؤيا ليست من الوحى ، ومن لبيان الجنس اهـ ، وإنما بدئ صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى فى المنام قبل جميع أقسام الوحى السبعة ؛ ليكون تمهيداً لمجيء الملك إليه فى اليقظة لئلا يفجأه الملك ويأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية . ولقد أحسن البوصيرى حيث يقول :

لا تنكر الوحى من رؤياه إن له قلبـــا إذا نامت العينان لم ينم

قال العلماء : الرؤيا على قسمين ، صالحة وتسمى صادقة ، وهى بشارة من الله تعالى يبشر بها عباده ليكثر شكره ، وكاذبة وتسمى بالحلم وبأضغاث أحلام ، وهى من الشيطان يريها الإنسان ليحزنه ويقل حظه من الشكر ، ولذلك أمر بالتعوذ من شره ، وينفث أى ينفخ عن يساره ثلاث مرات ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره . وقد ورد فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . وفى رواية : رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . وفيه غموض عن كثير من الناس ، وإيضاحه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم عاش ثلاثا

وستين سنة على الصحيح ، ومدة نبوته منها ثلاث وعشرون سنة لأنه نبئ على رأس الأربعين ، وكان نصف سنة يرى الوحى فى المنام ثم رأى الملك فى اليقظة ، ونسبة نصف السنة التى رأى الوحى فيها فى المنام إلى المدة التى رآه فيها فى اليقظة كانت نصف جزء لها وجه ، ومن أراد استيفاء بحث الرؤيا فعليه بروح المعانى وشرح السفيرى وغيرهما ، وقولها : ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء [1] أى حبب الله لحبيبه عليه الصلاة والسلام الخلوة ، أى بأن ألهمه ذلك ، والخلوة شأن الصالحين وعباد الله تعالى العارفين ، لأنها تريح القلب من أشغال الدنيا وتفرغه لله تعالى فيتفجر منه ينابيع الحكمة .

قال القسطلانى : والخلوة أن يخلو عن غيره ، بل وعن نفسه ، بربه عز وجل ، وعند ذلك يصير خليقا بأن يكون قالبه ممرا لواردات علوم الغيب ، وقلبه مقرا لها . وخلوته عليه أفضل الصلاة والسلام إنما كانت لأجل التقرب لا على أن النبوة مكتسبة ، قال السفيرى عليه الرحمة : لا بد لمن يقصد الخلوة من إذن شيخه له فى ذلك ولا ينبغى له أن يقصد بدخوله أن يصير مكاشفا أو ذا كرامة عيانية ، فإن من دخل على هذا القصد ولم يخلص فى دخوله تصرف فيه الشيطان وأراه الأشياء الباطلة فى صورة الحق ، فنعوذ بالله تعالى من الخذلان .

وغار حراء بكسر كالحاء وتخفيف الراء نقب فى جبل بينه وبين مكة شرفها الله تعالى نحو ثلاثة أميال عن يسارك إذا سرت إلى منى . وقولها فيتحنث فيه بالحاء المهملة وآخره مثلثة ، والضمير المنفصل عائد إلى مصدر يتحنث [2] وهو من الأفعال التى معناها السلب ، أى اجتناب فاعلها لمصدرها . مثل تأثم وتحوب ، إذا اجتنب الإثم والحوب ، أو هى بمعنى يتحنف بالفاء أى يتبع الحنيفية دين إبراهيم ، والفاء تبدل ثاء ، وقوله : وهو التعبد الليالى ذوات العدد . قال القسطلانى : هذا التفسير للزهرى أدرجه فى الخبر ، والليالى نصب على الظرفية متعلق بقوله يتحنث لا بالتعبد ؛ لأن التعبد لا تشترط فيه الليالى ، وذوات نصب بالكسر صفة الليالى ، والمراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يتعبد بعض الليالى مع أيامهن ، ووصفها بذوات

---

(١) وفى حراء لغات يمنع ويصرف ، ويمد ويقصر ، ا هـ منه .

(٢) وأصل التحنث : التجنب عن الحنث أى الإثم ، فكأن المتعبد يلقى الإثم عن نفسه بالعبادة ا هـ منه .

العدد لإرادة التقليل كما فى قوله تعالى : ﴿ دراهم معدودة ﴾ وأبهم العدد لاختلافه بالنسبة إلى المدد التى يتخللها مجيئه إلى أهله ، وكان أكثرها فى شهر رمضان فى كل سنة ، وأقل الخلوة ثلاثة أيام ، فالأول للتكفير ، والثانى للتطهير ، والثالث للتنوير. ثم سبعة أيام ثم شهر ، ولم يصح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر منه . نعم روى الأربعين سوار بن مصعب ، وهو متروك الحديث .

فإن قلت : لم خص حراء بالتعبد دون غيره ، قال ابن أبى جمرة : لمزيد فضله على غيره ؛ لأنه منزوٍ مجموع لتحنثه ، وينظر منه الكعبة المعظمة والنظر إليها عبادة، فكان له عليه الصلاة والسلام فيه ثلاث عبادات : الخلوة ، والتحنث ، والنظر إلى الكعبة . وليعلم أنهم اختلفوا فى تعبده ، فقيل : كان يتعبد بالتفكر ، وقيل : بشريعة إبراهيم ، وقيل : بشريعة موسى ، وقيل : بشريعة عيسى ، وقيل : بشريعة نوح ، وقيل : بشريعة آدم عليهم السلام . وقولها رضى الله تعالى عنها : قبل أن ينزع إلى أهله ، أى كان تعبده فى الغار قبل أن يحن إلى أهله ويشتاق إليهم ويرجع إليهم ، فينزِع بفتح أوله وكسر الزاى ، وقولها ويتزود لذلك مرفوعا عطفا على فيتحنث ، وذلك إما إشارة إلى الخلوة وإما إلى التعبد ، أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم يتعبد فى غار حراء ويتزود لمدة خلوته وتعبده . والتزود اتخاذ الزاد ، والمراد هو الطعام الذى يستصحبه المسافر ، وقولها : ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، أى كان بعد الفراغ من التعبد فى هذه الليالى يرجع إلى خديجة فإذا جاء وقت تلك الليالى يتزود لمثلها ، أى يصحب معه زاداً يكفيه لمثل تلك الليالى . وقولها : حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، أى الوحى ، فجاءه الملك وهو جبريل عليه السلام ، وهذه الفاء تسمى بالفاء التفسيرية كقوله تعالى : ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم** ﴾ إذ القتل نفس التوبة ، وهنا مجىء الملك هو عبارة عن مجىء الحق ، قال القسطلانى : فجاءه جبريل عليه السلام يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان ، وهو ابن أربعين سنة ، وقوله عليه الصلاة والسلام : ما أنا بقارئ، وفى رواية ما أحسن أن أقرأ ، فما نافية واسمها أنا وبقارئ خبرها والباء زائدة لتأكيد النفى ، وقيل استفهامية بدليل رواية أبى الأسود قال : كيف أقرأ ، وفى رواية : ماذا أقرأ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : فأخذنى ، أى جبريل فغطنى - بالغين المعجمة ثم المهملة - أى ضمنى وعصرنى ، وعند الطبرى فغتنى ، بالمثناة

الفوقية بدل الطاء وهو حبس النفس ، وقوله عليه الصلاة والسلام : حتى بلغ منى الجهد ، بفتح الجيم ونصب الدال ، أى بلغ الغط منى الجهد أى غاية وسعى ، فهو مفعول حذف فاعله ، ويروى الجهد بالضم والرفع أى بلغ منى الجهد مبلغه فهو فاعل بلغ ، وقوله: ثم أرسلنى أى أطلقنى من العصر ، فقال : اقرأ . قلت : وفى رواية فقلت: ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، وهذا الغط ليفرغه عن النظر إلى أمور الدنيا ويقبل بكليته إلى ما يلقى إليه ، وكرره للمبالغة ، واستدل به على أن المؤدب لا يضرب صبيا أكثر من ثلاث ضربات ، وقيل الغطة الأولى ليتخلى عن الدنيا ، والثانية ليتفرغ لما يوحى إليه ، والثالثة للمؤانسة ، وعد بعضهم هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء أنه جرى له عند ابتداء الوحى إليه مثله . وقوله : فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، إلخ . أى اقرأ يا محمد يا يوحى إليك من القرآن مبتدأ أو مفتتحا باسم ربك ، أى قل باسم الله ، ثم اقرأ ، واستدل بذلك على أن البسملة جزء من كل سورة ، وفيه بحث ، وقوله خلق الإنسان من علق ، يعنى بنى آدم ، والعلق الدم الجامد وإذا جرى فهو المسفوح ، وقوله : اقرأ وربك الأكرم ، أى الزائد فى الكرم على كل كريم . وقال الكلبى : الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم . ونقل فى الفتح عن أبى حيان أنه قال فى البحر : ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التى هى صفة الله تعالى يسمون الأكرم والرشيد وفخر السعداء ، وسعيد السعداء فى ديار مصر ، ويدعونهم بها المسلمون ، ويزيدون عليه على سبيل التعظيم الشيخ الأكرم ، والشيخ الأسعد والشيخ الرشيد ، فيا لها من خزى يوم عرض الأقوال والأفعال على الله تعالى ا هـ . وليعلم أن فى هذا دليلا للجمهور أنه أول ما نزل ، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أول شيء نزل من القرآن خمس آيات ، إلى مالم يعلم . يعنى اقرأ باسم ربك الذى خلق ، وروى عن مجاهد : أول ما نزل من القرآن :اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم . وعن جابر بن عبد الله أنه يا أيها المدثر ، وقيل الفاتحة ، وقال بعضهم : أول ما نزل اقرأ ثم ن ، ثم يا أيها المزمل ثم يا أيها المدثر ثم الفاتحة، وقولها : فرجع بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يرجف فؤاده ، أى رجع عليه الصلاة والسلام بالآيات التى علمه جبريل إياها ، وهى اقرأ إلى قوله تعالى ما لم يعلم ، حالة كونه قاصدا بيت خديجة ، وحال كونه يرجف بضم الجيم

أى يخفق فؤاده ، أى قلبه لما فجأه من الأمر المخالف للعادة والمألوف ، فنفر طبعه البشرى ، وهاله ذلك ولم يتمكن من التأمل فى تلك الحالة لأن النبوة لا تزيل الطباع البشرية كلها ، فدخل عليه الصلاة والسلام على خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها فقال : زملونى زملونى ، بفتح الزاى المعجمة وكسر الميم أى دثرونى ، كما جاء فى رواية أخرى : دثرونى ، وصبوا على ماء باردا ، رواها السفيرى ، وقال عليه الصلاة والسلام ذلك لشدة ما لحقه من الهول ، والعادة جارية بسكون الرعدة بالتلفف ، قالت : فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، بفتح الراء، أى الفزع ، فقال عليه الصلاة والسلام لخديجة رضى الله تعالى عنها وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى ، أى خفت عليها ، وهو جواب قسم محذوف أى والله لقد خشيت على نفسى الموت من شدة الرعب أو المرض ، وقيل غير ذلك ، وليس معناه الشك ، قالت له خديجة : كلا أى لا تقل ذلك أو لا خوف عليك ، والله ما يخزيك الله أبدا - بضم المثناة التحتية وبالخاء المعجمة الساكنة والزاى المكسورة وبالمثناة التحتية الساكنة - أى ما يفضحك الله ، وعن الكشميهنى : ما يحزنك الله بالحاء المهملة من الحزن ، وقولها : إنك لتصل الرحم أى لتحسن إلى أقاربك ، وتحمل الكل - بفتح الكاف وتشديد اللام - وهو الذى لا يستقل بأمره ، أو الثقل - بكسر المثلثة - وإسكان القاف ، وتكسب المعدوم - بفتح المثناة الفوقية - أى تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك ، وتقرى الضيف - بفتح أوله بلا همز ، وسمع بضمها - أى تهيئ له طعامه ونزله ، وتعين على نوائب الحق ، أى حوادثه ، وإنما قالت : نوائب الحق ؛ لأنها تكون فى الحق والباطل ، قال لبيد :

نـــوائب من خير وشر كلاهما فلا الخير ممدود ولا الشر لازب

قال السفيرى : ومعنى كلام خديجة : إنك لا يصيبك مكروه لما جعله الله فيك من مكارم الأخلاق وجميل الصفات ، فإن فى خصال الخير سببا للسلامة من مصارع السوء ، والمكارم سبب لدفع المكاره ، وفى هذا دليل على جواز مدح الإنسان فى وجهه نظرا لمصلحة ، وأما قوله عليه الصلاة والسلام : احثوا على وجوه المداحين التراب ، فهو محمول على المدح بباطل ، أو يؤدى إلى باطل ، وفيه دليل على أنه ينبغى لمن حضر عند من حصل له مخافة من شىء أن يذكر له أسباب السلامة ، وأن يذكر ما فيه من الفضائل كما فعلت خديجة ، مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم،

وفيه أبلغ دليل على كمال خديجة ، وجزالة رأيها ، وقوة نفسها ، وعظيم فهمها ، إذ جمعت رضى الله تعالى عنها جميع أنواع المكارم وأمهاتها فيه ؛ لأن الإحسان إما إلى الأقارب وإما إلى الأجانب ، وإما بالبدن وإما بالمال ، وإما على من يستقل بأمره وإما على غيره ، ويدل على كمال عقلها وقوة معرفتها ما ذكره ابن سيد الناس أنها قالت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أى ابن عمى ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك الذى يأتيك إذا جاءك ، قال : نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به ، فجاءه جبريل فقال عليه الصلاة والسلام : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى ، قالت: قم يا ابن عمى فاجلس على فخذى اليسرى ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجلس عليها قالت : هل تراه . قال : نعم ، قالت : فتحول فاقعد على فخذى اليمنى فتحول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقعد على فخذها اليمنى فقالت : هل تراه ، قال : نعم ، قالت : فتحول فاجلس فى حجرى فجلس فى حجرها ثم قالت : هل تراه . قال : نعم ، ثم حسرت فألقت خمارها وهو جالس فى حجرها . وقالت : هل تراه . قال : لا . قالت : فاثبت ، وأبشر إن هذا ملك وما هو بشيطان ا هـ .

وقول عائشة رضى الله تعالى عنها : فانطلقت به خديجة ، حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وورقة - بفتح الراء ، وإنما كان ابن عم خديجة لأنها بنت خويلد بن أسد وهو ورقة بن نوفل بن أسد المذكور ، وكان من علماء قريش وشعرائهم ، وكان يعرف اللسان العربى والعبرانى ، وكان امرأً تنصر فى الجاهلية ، وذلك أنه خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها طريق الجاهلية إلى الشام وغيرها ، يسألان عن الدين ، فأعجب ورقة النصرانية للقيه من لم يبدل شريعة عيسى عليه السلام ، وكان ورقة أيضاً يكتب الكتاب العبرانى ، وفى رواية مسلم : يكتب الكتاب العربى. قال النووى : إنه يكتب بالعربية والعبرانية ، وهى بكسر العين نسبة إلى العبرى بكسر العين وإسكان الموحدة ، زيدت الألف والنون فى النسبة على غير قياس ، قيل : سميت بذلك لأن الخليل عليه السلام تكلم بها لما عبر الفرات فارا من نمروذ . وقال القسطلانى : قيل : إن التوراة عبرانية والإنجيل سريانى ، وعن سفيان : ما نزل من السماء وحى إلا بالعربية ، وكانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تترجمه لقومها ، ا هـ . قالت عائشة : وكان شيخاً

كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن العم ، وفى رواية مسلم يا عم ، وهى مجاز للاحترام ، اسمع من ابن أخيك ، تعنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأن الأب الثالث لورقة هو الأخ للأب الرابع لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .أو قالته على سبيل الاحترام ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس ، بالنون والسين المهملة ، وهو لغة صاحب سر الخير ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والمراد بذلك جبريل عليه السلام ، وأهل الكتاب يسمونه الناموس الأكبر ، وقوله الذى نزل الله على موسى ، وفى رواية على عيسى ، قال القسطلانى : نزل بحذف الهمزة يستعمل فيما نزل نجوما ، وفى رواية : أنزل ويستعمل فيما نزل جملة ، ثم قال ورقة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : يا ليتنى فيها أى يا محمد ليتنى أكون فى أيام الدعوة جذعا بفتح الجيم والذال المعجمة ، هو الصغير من البهائم ، واستعير للإنسان ، أى ليتنى كنت شابا قويا حتى أبالغ فى نصرتك . ثم قال ورقة : ليتنى ، وفى رواية ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، أى من مكة ، واستعمل إذ فى المستقبل كإذا على حد قوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر** ﴾ وذلك لتنزيل المستقبل المقطوع بوقوعه منزلة الماضى الواقع ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو مخرجىَّ هم - بفتح الواو وتشديد الياء مفتوحة ؛ لأن أصله مخرجونى جمع مخرج من الإخراج ، وتعليل هذه الكلمة فى الكتب النحوية والحديثية ، والهمزة للاستفهام الإنكارى على وجه التفجع والتألم ، وكأنه عليه الصلاة والسلام استبعد إخراجه عن الوطن ولا سيما حرم الله وبلد أبيه إسماعيل من غير سبب يقتضى ذلك ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جامعاً لأنواع المحاسن المقتضية لإكرامه وإنزاله منهم محل الروح من الجسد ، ثم قال له ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به من الوحى إلا عودى ، يعنى أن أهل الحق يعاديهم أهل الباطل ، وأن أهل الفضل محسودون ولا سيما الجاهلية فإخراجهم عن طريقهم المألوف موجب لعداوتهم ولله تعالى در القائل :

إن العــرانين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حسادا

ثم قال ورقة : وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، أى إن أبقيت إلى يوم انتشار نبوتك ، أو يوم يخرجك قومك أنصرك نصرا قويا بليغا ، فمؤزرا ، بضم

الميم وفتح الزاى المشددة آخره وراء مهملة مهموزا - قالت عائشة : ثم لم ينشب بفتح المثناة التحتية والمعجمة ، أى لم يلبث ورقة أن توفى ، بفتح الهمزة وتخفيف النون ، أى لم تتأخر وفاته عن هذه القصة ، واختلف فى وقت موته ، فقال الواقدى : أنه خرج إلى الشام فلما بلغه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بالقتال بعد الهجرة أقبل يريده حتى إذا كان ببلاد لخم وجذام قتلوه ، قال القسطلانى: وهذا غلط فإنه مات بمكة بعد المبعث بقليل جدا ، وكذا اختلف فى إيمانه فقال الكرمانى : لا شك أنه كان مؤمنا بعيسى . وقال البرماوى : علم من هذا الحديث أنه آمن ، بل هو أول المسلمين من الرجال . وقد روى الحاكم فى المستدرك عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين. وفى حديث آخر: رأيته وعليه حلة خضراء يرفل فى الجنة . وروى أنه خاطب خديجة رضى الله تعالى عنها حين أتته بقوله :

فــإن يك حقا يا خديجة فاعلمى   حـــديثك إيانا فأحـــمد مرسـل

وجــبريل يأتيـــه وميكال معهما   مـن الله وحى يشرح الصدر منزل

قوله قال ابن شهاب إلخ ، هذا هو الزهرى ، وهو الإمام أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحرث بن زهرة بن كلاب ابن مرة ، وهو تابعى كبير سمع عشرة من الصحابة ، قال الليث : ما رأيت عالما أجمع من الزهرى ولا أكثر علما منه . وقال الشافعى : لولا الزهرى ذهبت السنن من المدينة ، توفى بالشام سنة أربع وعشرين ومائة ، وهو ابن اثنين وسبعين سنة ، وأوصى بأن يدفن على الطريق بقرية يقال لها شغب ، ولله در القائل :

بقارعة الطريق جعلت قبرى   لأحظى بالترحم من صديقى

فيا مولى الموالى أنت أولى   برحمة من يموت على الطريق

وقوله : وأخبرنى سلمة بن عبد الرحمن ، هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة . وقوله أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : أى جابر، وهو يحدث عن فترة الوحى ، أى فى حال التحديث عن احتباس الوحى عن النزول . واعلم أن العلماء اختلفوا فى المدة ، بل المراد بها عدم نزول القرآن عليه فيها فقط ، وأما جبريل فإنه كان يتراءى له فى هذه المدة ، كما ذكر البخارى فى

الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام حين فتر الوحى كان يأتى شواهق الجبال يهم بأن يلقى نفسه ، فكان جبريل عليه السلام يتراءى له بين السماء والأرض ، فيقول له : يا محمد ، أنت رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه .

قال العلماء : وإنما فتر الوحى وانقطع نزول القرآن هذه المدة ليذهب ما حصل له صلى الله تعالى عليه وسلم من الخوف والفزع عند نزول جبريل فى غار حراء ، ويتشوق إلى عود الوحى إليه ، ثم بعد مضى الفَترة نزل عليه جبريل بالقرآن كما أشار بذلك البخارى بقوله : فقال : أى جابر بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت بضم الراء وكسر العين المهملة ، وفى رواية : بفتح الراء وضم العين ، أى فزعت منه فرجعت إلى أهلى بسبب الرعب ، فقلت : زملونى زملونى . وفى رواية دثرونى، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر** ﴾ فحمى الوحى وتتابع ، أى كثر نزوله بعد ذلك ، وحمى - بفتح الحاء المهملة وكسر الميم - وفى تفسير ابن عادل أن جبريل نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة وعشرين ألف مرة . وعلى آدم اثنتى عشرة مرة ، وعلى إدريس أربعاً وعلى نوح خمسين وعلى إبراهيم اثنتين وأربعين مرة . وعلى موسى أربعمائة ، وعلى عيسى عشرة . انتهى .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يعانى التعب والكرب عند نزوله لأنه أمر طارئ على الطباع البشرية . قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيقلع عنه وإن جبينه ليتفصد ، أى يسيل ، عرقا . واعلم أن مراتب الوحى عديدة كما قال ابن القيم وغيره ، إحداها الرؤيا الصادقة . الثانية ما يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال عليه الصلاة والسلام: إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، الثالثة كان يتمثل له رجلا فيخاطبه فيعى منه ما يقول ، الرابعة كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، الخامسة أن يرى الملك فى صورته التى خلق عليها له ستمائة جناح فيوحى إليه ، وهذا وقع له مرتين كما فى سورة النجم ، السادسة ما أوحاه الله تعالى إليه وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها،

السابعة كلام الله تعالى له منه إليه كما كلم موسى . وزاد بعضهم ثامنة وهو تكليمه سبحانه بغير حجاب ، وزاد بعضهم نزول إسرافيل إليه بكلمات من الوحى قبل جبريل عليهما السلام ، وزاد بعضهم كلامه تعالى له فى المنام ، وزاد بعضهم العلم الذى يلقيه فى قلبه وعلى لسانه على الاجتهاد فى الأحكام ، وبقيت أبحاث أخر من أرادها فليرجع إلى محلها .

فعليكم أيها المؤمنون بالإيمان بما جاء به الأمين المأمون ، وتزودوا للدار الآخرة قبل الفوات ، وامحوا السيئات بالحسنات ، فالدنيا ظل زائل ، وخال حائل ، وركن مائل ، ورفيق خاذل ، ومسئول باخل ، وغول غائل ، وسم قاتل ، كم تعد الدنيا وتماطل ، كل وعدها غرور باطل ، تالله ما فرح بها عاقل ، كم ظالم تعدى وجار، فما راعى الأهل والجار ، بينما هو يعقد عقد الإصرار ، حل به الموت فحل من حليه الأزرار ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، يا سكران الهوى متى تصحو ، يا كثير الذنوب متى تمحو ، إلى كم تهفو ونعفو ، وتتكدر ونعمنا تصفو ، ابك لما بك، واندب فى شيبك على شبابك ، وتأهب لسيف المنون فقد علق الشبا بك ، فتأملوا عواقب الدنيا فقد أبانت للنواظر عيوبها ، وكشفت للبصائر غيوبها ، وعددت على السامع ذنوبها ، وما مرت حتى أمرت مشروبها ، فلذتها مثل لمعان برق ، ومصيبتها واسعة الخرق ، سوت عواقبها بين أهل الغرب والشرق ، وعبد وحر ولا فرق ، فما نجا منها ذو عَدد ، ولا سلم عليها صاحب عُدد ، مزقت والله الكل بكف البدد ، ثم ولت وما التوت على أحد :

إلام تغر بالأمـــل الطـــويـــل وليس إلى الإقامـــة من سبيـــل
فـــدع عنـك التعـــلل بالأمانى فمـا بعد المشيب سوى الرحيل
أترجـــو أن تـــدوم لك الليالى وكـــم أفنيـــن قبلك من خليل
وما زالت بنـــات الدهـــر تفنى بَنِـــى الأيـــام جـيلا بعد جيل

فطوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة ، ورجع عن الخطايا قبل فوت الأوبة ، وبادر الممكن قبل ألا يتمكن ، لله در أقوام تركوا الدنيا فأصابوا ، وسمعوا منادى الحق يدعو فأجابوا ، وحضروا مشاهدة التقى فما غابوا ، واعتذروا مع التحقيق ثم تابوا، وقصدوا باب مولاهم فما ردوا ولا خابوا ، سبحان من وفق للتوبة أقواما ، وثبت

لهم على صراطها أقداما ، كفوا الأكف عن المحارم احتراما ، وأتعبوا فى استدراك الفارط عظاما ، فكفر عنهم ذنوبا وآثاما ، ونشروا لهم بالثناء على ما عملوا أعلاما، فهم على رياض المدائح ، بترك القبائح ، يتقلبون . التائبون العابدون ، كشف لهم سجف الدنيا فرأوا عيوبها ، وألاح لهم الأخرى فتلمحوا غيوبها ، وبادروا شمس الحياة يخافون غروبها ، واشتغلوا بالطاعات فحصلوا مرغوبها ، وحثهم الإيمان على الخوف فما يأمنون ، التائبون العابدون ، نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار ، فعلموا أنها لا تصلح للقرار ، وتأملوا أساسها فإذا هى على شفا جرف هار ، فرفضوا بالصيام لذة الهوى بالنهار ، وبالأسحار هم يستغفرون ، فهجروا المنازل الأنيقة ، وقصموا عرى الهوى الوثيقة ، وطلبوا الآخرة والله على الحقيقة ، هكذا يكون التائبون العابدون ، أبدانهم تلقى من الجوع الضرر ، وأجفانهم قد حالفت فى الليل السهر ، ودموعهم تجرى دائمة كما يجرى المطر ، والقوم تأهبوا فهم على أقدام السفر ، عبروا عليكم ومروا لديكم وما عندكم خبر ، وترنمت حداتهم لو أنكم تسمعون ، التائبون العابدون .

اللهم إنا آمنا برسولك الذى أرسلت ، وبكتابك الذى أنزلت ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء ، اللهم إنا نعوذ بك من الكسل والجبن والبخل ونعوذ بك من الهرم والقسوة والغفلة والذلة والقلة والمسكنة ، ونعوذ بك من الجنون والبرص والجذام وسيئ الأسقام وشماتة الأعداء ، ونعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى الدارين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين .

* * *

المجلس الثامن والثلاثون
فى يوم عرفة وعيد الأضحى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله المعروف بدليله ، الهادى إلى سبيله ، الصادق فى قيله ، المشكور على كثير الإنعام وقليله ، الذى تسبحه الأصوات إذا عجت ، والسحائب إذا ثجت ،

والمياه إذا سكنت أو ارتجت ، والقلوب إذا صبرت على البلايا أو ضجت ، رافع السماء وبانيها ، وساطح الأرض وداحيها ، ومثبتها بالأطواد فى نواحيها ، العالم بما يحدث فى أقاصيها وأدانيها ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها .

أحمده على فضله الشامل ، وأشكره على إحسانه الكامل ، وأومن به إيمان مخلص معامل ، وأعترف له بنعم لا أحصيها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ظهر نورها ولاح ، وغدا برهانها وراح ، وأشرق هداها فى المساء والصباح ، واكتسب قائلها شرفا وتيها . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أرسله والحق داثر ، وقدم الصواب عاثر ، والحق مندرس والباطل ظاهر ، فقمع الباطل بالحق الطاهر ، ونسخ ظلمات الجهالة بنور العلم الظاهر ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله صلاة يمتد على ممر الزمان تواليها ، وعلى صاحبه فى الضيق ، أبى بكر الصديق ، الصابر على الشدة ، والثابت على البلايا بنفس مستعدة ، القائم فى مقام الوحدة وحده يوم الردة ، المخصوص بفضيل الغار فمن ذا يدانيها . وعلى الفاروق عمر بن الخطاب المنفرد فى شدته من بين الأصحاب ، الموفق يوم بدر لإصابة الصواب ، المتكلم بلسان الغيرة حتى ضرب الحجاب ، الذى شاد أركان السنن بعدله وعمر مبانيها ، وعلى عثمان شهيد الدار ، القائم فى الأسحار ، الصائم فى النهار ، المخلص فى الأذكار ، جامع سور القرآن وحاويها ، وعلى على ابن أبى طالب ذى العلم والزهادة ، الحريص على طلب السعادة ، جامع العلم والعمل والشهادة ، المطلع على دقائق العلوم ومعانيها . وعلى التابعين لهم فى إخلاص الأعمال وصفاء القلوب ، ما ترددت الشمس بين الطلوع والغروب ، واستترت النجوم وبدا باديها ، وشرف وكرم ومجد .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه ومبين خطابه ﴿ **والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل فى ذلك قسم لذى حجر * ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ الآيات .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق وبيده تعالى أزمَّة التحقيق : قال المفسرون رحمهم الله تعالى : أقسم سبحانه بالصبح كما روى عن على كرم الله تعالى وجهه ، أو فلقه كقوله تعالى : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ أو بصلاته كما روى ذلك عن ابن عباس ،

وقال مجاهد : هو فجر يوم النحر خاصة ، وقال الضحاك : فجر أول يوم من ذى الحجة ، وقال قتادة : أول يوم من المحرم ، لأنه تنفجر منه السنة ، وقوله تعالى : ﴿ **وليال عشر** ﴾ قرئ بتنوين ليال وبإضافتها فلا تنوين ، فيكون المراد بالعشر الأيام، وهى عشر ذى الحجة كما رواه ابن عطية عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ومسروق وقتادة والضحاك والسدى ، وروى عن ابن عباس أيضاً أنها العشر الأواخر من رمضان ، وقال يمان : العشر الأول من المحرم ، وقوله سبحانه : ﴿ **والشفع والوتر**﴾ قرأ بكسر الواو وفتحها الأكثرون ، وفيهما عشرون قولا ، منها أن الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفة ، كما رواه جابر عن النبى عليه أفضل الصلاة والسلام، وروى عمران بن حصين عنه عليه الصلاة والسلام أنها الصلاة لأنه منها شفعا ومنها وترا ، ومنها عن ابن عباس أن الشفع الخلق كله ، والوتر هو الله عز وجل ، ومنها ما روى عنه أيضاً أن الشفع آدم لأنه شفع بزوجته ، ومنها ما قاله عبدالله بن الزبير أن الشفع يومان بعد يوم النحر ، والوتر اليوم الثالث ، ومنها أن الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب ، وقال الضحاك الشفع عشر ذى الحجة والوتر أيام منى الثلاثة ، وقوله سبحانه : ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ أى إذا يمضى ، كقوله تعالى : ﴿ **والليل إذا أدبر** ﴾ وقال الأخفش : إن المعنى إذا يسرى فيه كما يقال ليل نائم أى نيام فيه ، وقوله تعالى : ﴿ **هل فى ذلك قسم لذى حجر** ﴾ أى لصاحب عقل ، وسمى العقل حجرا لأنه يحجر صاحبه عن القبيح ، وسمى عقلا لأنه يعقله عما لا يحسن ، وسمى النهى أيضاً لأنه ينهى عما لا يحل ، ومعنى الكلام أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء دليل على توحيده وقدرته، وهو حقيق أن يقسم به ، وجواب القسم إن ربك لبالمرصاد ، وهو المكان الذى يترقب فيه الرصد . قال البيضاوى : هو تمثيل لإرصاده العصاة بالعقاب ، انتهى .

ولنذكر لكم ما يتعلق بهذه الأيام العشر ، ولا سيما يوم عرفة من الآيات والأحاديث الطيبة النشر ، كما تكلمنا على الحج فى حديث جبريل عليه السلام ، فنقول بعون الملك العلام . . روى حافظ بغداد ابن الجوزى بسنده إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام ، يعنى أيام العشر ، قيل: يا رسول الله ، ولا الجهاد فى سبيل الله عز وجل ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل

الله إلا رجلا خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء . وأخرج عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر ، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد . وأخرج عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن أفضل أيام الدنيا أيام العشر ، قالوا : يا رسول الله ، ولا مثلهن فى سبيل الله . قال : إلا من عفر وجهه فى التراب . وقد روى فى حديث عن ابن عباس عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : صوم كل يوم من أيام العشر يعد صيام سنة ، وليلة جمع تعدل ليلة القدر . وروى عن أبى هريرة أنه قال فى هذه الأيام : يعدل صيام كل يوم منها صيام سنة ، وقيام ليلة منها كقيام ليلة القدر، قال أبو عثمان النهدى : كانوا يعظمون ثلاث عشرات ، العشر الأول من ذى الحجة ، والعشر الآخر من رمضان ، والعشر الأول من المحرم .

واعلموا رحمنا الله تعالى وإياكم أن عشركم هذا ليس كعشر آخر ، وهو يحتوى على فضائل عشر ، الأولى أن الله عز وجل أقسم به فقال : ﴿ وليال عشر ﴾ والثانية سماه الأيام المعلومات ، قال ابن عباس هى أيام العشر ، والثالثة أن نبينا عليه الصلاة والسلام شهد له بأنه أفضل أيام الدنيا ، والرابعة حث على أفعال الخير فيه ، والخامسة أنه أمر بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل فيه ، والسادسة أن فيه يوم التروية، وفى حديث ابن عباس عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من صام العشر فله بكل يوم صوم شهر ، وله بصوم التروية سنة ، قال الزهرى : وإنما سمى يوم التروية ؛ لأن عرفات لم يكن لها ماء وكانوا يتروون من الماء إليها ، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة ، والسابعة أن فيه يوم عرفة وصومه كسنتين ، كما سنذكر فضائله قريباً إن شاء الله تعالى ، والثامنة أن فيه ليلة جمع وهى ليلة المزدلفة ، وفضلها عظيم ، والتاسعة أن فيها الحج الذى هو ركن من أركان الإسلام ، والعاشرة وقوع الأضحية التى هى علم للملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية ، قال تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ فقد فسرت الصلاة بصلاة العيد ، والنحر بالتضحية ، وقد ورد فى فضلها أحاديث منها ما روته عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها وأن الدم ليقع من الله تعالى بمكان قبل أن يقع على الأرض ، فطيبوا بها نفسا . وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : بكل شعرة حسنة .

وقال لفاطمة رضى الله تعالى عنها : قومى إلى أضحيتك فاشهديها ؛ فإن لك بكل قطرة من دمها أن يغفر لك ما قد سلف من ذنوبك ، فقيل له : هذا لآل محمد خاصة ، قال : بل هو لآل محمد وللناس عامة . وعن أبى جعفر قال : أول قطرة من دم الأضحية كفارة لأربعة آلاف خطيئة .

ومن شرف يوم النحر أن الله سبحانه وتعالى ابتلى فيه الخليل بذبح ولده إسحاق أو إسماعيل ، والقصة لشهرتها لا نذكرها الآن لخوف التطويل فمن أراد أن يضحى ويقتدى بهذا النبى الجليل ، ورسولنا صاحب الجاه العريض الطويل ، فلا يقلم إذا دخلت العشر أظفاره ، ولا يحلق شعره ، ولا يأخذ من بشرته ، فقد روت أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من كان له ذبح ذبحه فإذا أهل هلال ذى الحجة فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئا حتى يضحى ، وبه أخذ الإمام أحمد فقال بكراهة أخذ شىء من ذلك ، وعليه الإمام الشافعى ، وقال بعض أصحاب أحمد أنه يحرم عليه ذلك ، وقال إمامنا الأعظم : لا يكره ذلك .

ولنبين لكم أحكام الأضحية لتكونوا على بصيرة فيها ، قال الإمام القدورى الحنفى فى كتابه المختصر ما نصه : الأضحية واجبة على كل مسلم حر مقيم موسر فى يوم الأضحى عن نفسه وأولاده الصغار ، ويذبح عن كل واحد منهم شاة أو يذبح بقرة أو بدنة عن سبعة ، وليس على الفقير والمسافر أضحية ، ووقت الأضحية يدخل بطلوع الفجر من يوم النحر إلا أنه لا يجوز لأهل الأمصار الذبح حتى يصلى الإمام صلاة العيد ، وأما أهل السواد فإنهم يذبحون بعد الفجر ، وهى جائزة فى ثلاثة أيام يوم النحر ويومين بعده ، ولا يضحى بالعمياء والعوراء والعرجاء التى لا تمشى إلى المنسك ، والعجفاء ، ولا يجوز مقطوعة الأذن والذنب ولا التى ذهب أكثر أذنها فإن بقى الأكثر من الأذن والذنب جاز ، ويجوز أن يضحى بالجماء والخصى والثولاء والجرباء ، والأضحية من الإبل والبقر والغنم يجزئ من ذلك كله الثنى فصاعدا إلا الضأن فإن الجذع [1] منه يجزئ ، ويأكل من لحم الأضحية ويطعم الأغنياء والفقراء ويدخر ، ويستحب ألا ينقص الصدقة من الثلث ، ويتصدق بجلدها

---

(١) فى القاموس الجذع محركة قبل الثنى ، وتقول لولد الشاة فى السنة الثانية ، وللبقر وذات الحافر فى الثالثة ، وللإبل فى الخامسة أجذع . وذكر فى مادة ثنى : الناقة الطاعنة فى الثالثة والبعير ثنى بفتح الثاء ، والفرس الداخلة فى الرابعة والشاة فى الثالثة كالبقرة ا هـ منه .

ويعمل منه آلة تستعمل فى البيت ، والأفضل أن يذبح الأضحية بيده إن كان يحسن الذبح ، ويكره أن يذبحها الكتابى ، وإذا غلط رجلان فذبح كل واحد منهما أضحية الآخر أجزأ عنهما ولا ضمان عليهما .

وقال فى الميزان : أجمع الأمة أن الأضحية مشروعة بأصل الشرع ، وإنما اختلفوا فى وجوبها ، واتفقوا على أن المرض اليسير فى الأضحية لا يمنع الإجزاء ، وعلى أن الكثير يمنع لأنه يفسد اللحم ، وعلى أن الجرب البين يمنع الإجزاء ، وكذا العور . وأجمعوا على أن مقطوعة الأذن لا تجزئ ، وكذا مقطوعة الذنب لفوات جزء من اللحم ، واتفقوا على أنه لا يجوز أن يأكل شيئاً من لحم الأضحية المنذورة ، واتفقوا على أنه لا يجوز بيع شيء من لحم الأضحية والهدى نذرا كان أو تطوعاً . وكذلك بيع الجلد خلافا للنخعى والأوزاعى كما سيأتى ، واتفقوا على أن البدنة والبقرة تجزئ عن سبعة والشاة عن واحد ، وقال إسحاق بن راهويه : تجزئ البقرة عن عشرة ، ومما اختلفوا فيه أن الإمام أبا حنيفة قال : إن الأضحية واجبة على المقيمين من أهل الأمصار إذا كانوا مالكين النصاب ، وقال الثلاثة وصاحباه : سنة مؤكدة ، ومن ذلك قول الشافعى : يدخل وقت الذبح بطلوع الشمس يوم النحر ، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين ، صلى الإمام العيد أو لم يصل ، مع قول الثلاثة : إن شرط الذبح أن يصلى الإمام ويخطب ، إلا أن أبا حنيفة قال : يجوز لأهل السواد أن يضحوا إذا طلع الفجر الثانى . وقال عطاء : يدخل وقت الأضحية بطلوع الشمس فقط . ومن ذلك قول الشافعى : إن آخر وقت التضحية هو آخر أيام التشريق الثلاثة ، مع قول أبى حنيفة ومالك إن آخر وقتها آخر اليوم الثانى من أيام التشريق ، ومع قول سعيد ابن جبير أنه يجوز لأهل الأمصار التضحية فى يوم النحر خاصة ، ومع قول النخعى إنه يجوز تأخيرها إلى آخر شهر ذى الحجة ، ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة : إن الأضحية إذا كانت واجبة لم يفت ذبحها بفوات أيام التشريق ، بل يذبحها وتكون قضاء ، مع قول أبى حنيفة أن الذبح يسقط وتدفع إلى الفقراء حية ، ومن ذلك قول الثلاثة إنه يكره مكسورة القرن مع قول أحمد إنها لا تجزئ ، ومن ذلك قول مالك والشافعى أن العرجاء لا تجزئ مع قول أبى حنيفة : إنها تجزئ ، ومن ذلك قول الشافعى : إنها لا تجزئ مقطوعة شىء من الذنب ولو يسيرا ، مع اختيار جماعة من

متأخرى أصحابه الإجزاء . ومع قول أبى حنيفة ومالك إن ذهب الأقل أجزأ أو الأكثر فلا ، ولأحمد فيما زاد على الثلث روايتان .

ومن ذلك قول الثلاثة إنه يجوز للمسلم أن يستنيب فى ذبح الأضحية مع الكراهة فى ذمى ، مع قول مالك إنه لا يجوز استنابة الذمى ولا تكون أضحية . ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة : إنه لو اشترى شاتا بنية الأضحية لا تصير أضحية بمجرد ذلك ، مع قول أبى حنيفة إنها تصير ، قال الثلاثة : ويستحب أن يقول : اللهم هذا منك ولك فتقبل منى ، وقال أبو حنفية : يكره قول ذلك ، ومن ذلك اتفاق الأربعة على استحباب الأكل من الأضحية المتطوع بها مع قول بعض العلماء بوجوب الأكل ، ومن ذلك اتفاقهم على أنه لا يجوز بيع جلد الأضحية المنذورة أو المتطوع بها خلافا للنخعى والأوزاعى فى بيعها بآلة البيت التى تعار كالفأس والقدر والغربال ونحو ذلك ، ومن ذلك قول الثلاثة أن الإبل أفضل ، ثم البقر ثم الغنم مع قول مالك أن الأفضل الغنم ثم الإبل ثم البقر ، انتهى .

ولنختم درسنا هذا بما ورد فى هذا اليوم الذى سماه الله تعالى وترا ، كما تقدم، فقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ الشاهد والمشهود يوم عرفة ، قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى : ومن فضائله أن الله تعالى أنزل فيه ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فقد روى ابن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر رضى الله تعالى عنه فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرءون آية فى كتابكم لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال : وأى هى ؟ قال قوله : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى** ﴾ قال فقال عمر : والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، عشية عرفة يوم جمعة . أخرجاه فى الصحيحين . ومن فضائله أن الله تعالى يباهى بالحاج فيه ملائكته ، ويعم بالغفران ، وقد أخرج مسلم عن ابن المسيب قال : قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ما من يوم أكثر من أن يعتق الله تعالى فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ وروى ابن الجوزى بسنده عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم: إذا كان يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة ، فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غبرا من كل فج عميق ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فقال رسول الله : فما من يوم أكثر عتقاء من يوم عرفة . وفى رواية أخرى أن عشية عرفة ينزل الله تعالى فيه إلى السماء الدنيا فيقول للملائكة : انظروا إلى عبادى هؤلاء أتونى شعثا غبرا جاءونى من كل فج عميق ضاجين يسألوننى رحمتى ولم يرونى ، ويتعوذون من عذابى ولم يرونى ، فلم ير يوم أكثر عتقاء منه ، ولا يغفر الله تعالى فيه لمختال . وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : لا يبقى أحد يوم عرفة فى قلبه مثقال من إيمان إلا غفر له ، فقال رجل : لأهل معرف يا رسول الله أم للناس عامة . قال : لا بل للناس عامة . وأما ثواب صائمه فقد روى عن أبى قتادة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سئل عن صوم يوم عرفة فقال : كفارة سنتين، وعنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت صيام يوم عرفة ، قال : أحتسب على لله أن يكفر السنة الباقية والماضية ، وفى لفظ : إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده .

واعلموا أن صومه مستحب لغير الحاج ، فأما للحاج فلا يستحب له صومه ؛ ليتقوى على الدعاء ؛ لكونه ضيفا لله عز وجل . وأما ما يختص بالذكر فيه فمنه التكبير عقب الصلوات المفروضات ، وابتداؤه فى حق المحل صلاة الفجر يوم عرفة، وفى حق المحرم صلاة الظهر من يوم النحر ، ويختمان فى صلاة العصر آخر أيام التشريق ، وهذا عند الحنابلة وأبى يوسف ومحمد ، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: أوله عقب صلاة الفجر من يوم عرفة وآخره عقب صلاة العصر من يوم النحر ، وصفة التكبير : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد ، كما ذكرناه أيضا وفصلناه فى عيد الفطر . ومن الأذكار ما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : خير الدعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وكان ابن عمر يحيى ليلة النحر فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : أفضل الأيام عند الله تعالى يوم النحر ثم يوم الفطر . وقد سبق ذكر آداب العيد فتذكر . ومما يفعل فى عيد النحر ألا يأكل حتى يفرغ من الصلاة بخلاف عيد الفطر ، وأن يغتسل

ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه ، وأن يصلى صلاة العيد ثم يضحى ما أمكنه التضحية ، للأحاديث المتقدمة فى ذلك ، وفقنا الله تعالى وإياكم لسلوك أحسن المسالك ، ورزق كل واحد منا ما يتمناه فى أولاه وأخراه .

فيا عباد الله ، تدبروا القرآن المجيد ، فقد دلكم على الأمر الرشيد ، وأحضروا قلوبكم لفهم الوعد والوعيد ، ولازموا طاعة ربكم ولا سيما أيام العيد ، فهذا شأن العبيد ، واحذروا غضبه فكم قصم من جبار عنيد ﴿ **إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد** ﴾ أين من بنى وشاد وطول ، وتأمر على الناس وساد فى الأول ، وظن جهلا منه أنه لا يتحول ، هيهات عاد الزمان عليه سالبا ما خول ، فسقوا كأسا من الموت على إهلاكهم عول ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ ، فيا من أنذره يومه وأمسه ، وحادثه بالعبر قمره وشمسه ، واستلب منه ولده وأخوه وعرسه ، وهو يسعى إلى الخطا مشمرا وقد دنا حبسه ، ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ أما علمت أنك مسئول الزمان ، مشهود عليك يوم تنطق الأركان ، معلوم ما قدمت فى زمن الإمكان ، محاسب على خطوات القدم وكلمات اللسان ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ . ويا من يرى العبر بعينيه ، ويسمع المواعظ بأذنيه ، والنذير قد وصل إليه ، وكلماته تلقى عليه ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ، كأنك بالموت قد اختطفك اختطاف البرق ، ولم تقدر على دفعه عنك بملك الغرب والشرق ، وندمت على تفريطك بعد اتساع الخرق ، وتأسف على ترك الأولى والأخرى أحق ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ ثم ترحلت عن القصور إلى القبور ، على رحائل العيدان والظهور ، وبقيت وحيداً على مر العصور ، كالأسير المأسور ، ﴿ **ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد** ﴾ فحينئذ أعاد الأجسام من صنعها ، وضم شتاتها بقدرته وجمعها ، ونادى بنفخة الصور فأسمعها ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ فيهرب منك الأخ وتنسى أخاك ، ويعرض عنك الصديق ويرفض ولاك ، ويتجافاك الحبيب المعاشر صباحك ومساك ، وتلقى من الهول كل ما أزعجك وساءك ، فتنسى أولادك وتنسى نساءك ﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم**

حديد ﴾ وتجرى دموع الأسف وابلا ورذاذا ، وتنقطع الأكباد من الحسرات **أفلاذا** ، ويهب لهيب النار على الكفار فيجعلهم جذاذا ، ولا يجد العاصى ملجأ وملاذا ﴿**وقال قرينه هذا ما لدى عتيد** ﴾ فيجازى العبد بفعله ولا يظلم ، يأخذ العصاة ويتقدم ﴿ **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد** ﴾ فتقدم الزبانية إلى الكفار فتتبادر ، وتسوقهم سوقا عنيفا وتثب النار وثوب الليث إذا غضب وشاجر ، فيذل عند زفيرها كل من عز وفاخر ﴿ **الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ وينصب الصراط فى أصعب الأماكن ، وتنزعج لوضع الميزان القلوب السواكن ، ويقع الخصام بين البائع والمبتاع فى أعجب المساكن ﴿ **قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ فيقول الرب تعالى قد أزلت المطل واللى ، وفصل هذا الأمر كله إلى، وانتصاف المظلوم من الظالم على ﴿ **قال لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ أما أنذرتكم فيما مضى من الأيام ، أما حذرتكم عواقب المعاصى والآثام، أما أمرتكم بتجنبٍ أجرام الإجرام ، أما وعدتكم بهذا اليوم فى سالف الأيام ﴿ **ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ فيا لهذا المهول ، الذى يحار فيه العاقل والجهول ، وتشخص الأبصار وتذهل العقول ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ ، فذاك يوم ثبور المنافقين ، وسرور الموافقين ، وسلامة الصادقين ، وفوز السابقين ، والنار قد انطبقت على الفاسقين ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ فيا عثرة العاصين لقد صعب تلافيها ، ويا خيرى المخلصين لقد تكامل صافيها ، إذا دخلوا الجنة أشرق ظاهرها واستنار خافيها ﴿ **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ فانظروا عباد الله فرق ما بين الفريقين بحضور قلب ، واستلبوا زمان الصحة بفعل الخير أيما سلب، فاللذات تفنى ويبقى العار والثلب ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ .

وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا وحالكم خيرا من ماضيه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس التاسع والثلاثون
فى عاشوراء وقتل النفس المحرمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى طهر بتأديبه من أهل تقريبه نفوسا ، وسقى أرباب مصافاته من

شراب مناجاته كئوساً ، ورفع كيد الشيطان عن قلوب أهل الإيمان فأصبح عنها محبوسا ، وصرف عن أهل وداده بلطفه وإسعاده أذى وبوسا ، وأذل بقهره من شاء من خلقه أعناقا ورءوسا ، وأعاد ذكر الأصنام بعز التوحيد والإسلام مطموسا ، وجعل عدد السنين بجريان الشمس والقمر للحاسبين محروسا ، وكرم عشر المحرم وكلم فى عاشوراء به موسى .

أحمده على نعم لا تحصى عددا وما أقضى بالحمد حقا ، وأشكره ولم يزل للشكر مستحقا ، وأشهد أنه المالك للرقاب كلها رقا ، كون الأشياء وأحكمها خلقا ، وفتق السماء والأرض وكانتا رتقا ، وقسم العباد فأسعد وأشقى ، وهو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف الخلائق خلقا، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الذى حاز كل الفضائل سبقا ، ويكفيه قول الله فيه : وسيجنبها الأتقى ، وعلى عمر العادل فما يحابى خلقا، وعلى عثمان الذى استسلم للشهادة فما يتوقى، وعلى على بائع ما يفنى ومشترى ما يبقى، وعلى بقية آله وأصحابه وعلماء أمته الذين سارت علومهم غربا وشرقا .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل فى ذلك قسم لذى حجر** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قد تقدم الكلام على شيء من تفسير بعض هذه الآيات ، ولنذكر الآن فى هذا الدرس تكملة الكلام على هذه العشر وأنها على قول كثير العشر الأول من المحرم الحرام ، بفصول مفيدة فى هذا المقام .

الفصل الأول : فى فضائل هذا الشهر ، وما أعد للصائم فيه من الأجر ، فاعلموا أن المحرم من الأشهر الحرم ، وقد قال سبحانه وتعالى فيها : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ والمراد بالشهور الهلالية التى يعتد بها المسلمون فى عباداتهم التى أولها المحرم وآخرها ذو الحجة ، وقوله تعالى : ﴿**فى كتاب الله** ﴾ يعنى اللوح المحفوظ ، وقوله تعالى : ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ هى رجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، واحد فرد وثلاثة سرد ، وقوله تعالى : ﴿**ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ بفعل المعاصى وترك الطاعات ، أو فى الأشهر الحرم إذ الظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن . قال ابن عباس : إن

الحسنات فيها تضاعف كتضاعف السيئات . وقال أبو عبيد : إنما قيل فى المحرم شهر الله لتعظيمه والاعتناء بزيادة شرفه ، وذلك لأنه جعله حراما لا يحل فيه قتال ولا سفك دم ، ولذا ورد فى بعض الأحاديث : شهر الله الأصم ، لأنه لا تسمع فيه قعقعة السلاح ، وإنما لم يطلق ذلك على غيره من الأشهر الحرم لأن فيه ، والله أعلم ، يوم عاشوراء ، ولذا أقسم بفجره ، قال قتادة : أراد بالفجر فجر أول يوم من المحرم، وروى ناصر السنة ابن الجوزى بسنده إلى أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : أفضل الصوم بعد رمضان شهر الله الذى يدعونه المحرم ، وروى أيضاً بسنده عن النعمان بن سعد عن على رضى الله تعالى عنه قال : أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجل ، فقال : يا رسول الله أخبرنى بشهر أصومه بعد رمضان ، فقال : إن كنت صائما شهرا بعد رمضان فصم المحرم فإنه شهر الله ، وفيه يوم تاب فيه على قوم ويتاب فيه على آخرين ، وروى ابن شاهين من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من صام يوما من المحرم فله ثلاثون يوما ، قال ابن الجوزى : ويستحب صيام التاسع والعاشر ، أما التاسع فمذهب ابن عباس أنه هو عاشوراء لأن العرب تقول وردت الإبل عشرا إذا وردت اليوم التاسع ، وأما عاشوراء ففى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدم المدينة فرأى اليهود يصومونه ويقولون هذا يوم عظيم أنجى الله سبحانه وتعالى فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه ، وأمر بصيامه ، وفيهما من حديث سلمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر رجلاً من أسلم أن أذن فى الناس من كان أكل فليصم يعنى بقية يومه ، ومن لم يأكل فليصم فإن اليوم عاشوراء . وعن ابن عباس أنه قال : ما رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صام يوماً يتحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم ، يعنى عاشوراء ، وهذا الشهر يعنى رمضان . وعن أبى قتادة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : صوم يوم عاشوراء يكفر العام الذى قبله ، انفرد بإخراجه مسلم .

وقد روى فى فضائل عاشوراء أحاديث موضوعة فلا فائدة فى ذكرها مثل : من اغتسل ومن اكتحل ومن صافح ، وكله ليس بشىء ، وقال معاوية بن قرة : صام نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء ، وفى الجملة هو يوم عظيم فينبغى أن يفعل

فيه ما يمكن من الخير ، ا هـ . وروى فى الترغيب والترهيب بسنده إلى البيهقى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: من وسع على عياله وأهله يوم عاشوراء وسع الله تعالى عليه فى سائر سنته، قال بعض العلماء : كانوا يعظمون ثلاثة أعشار ، العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة ، وأنه المقسم به فى هذه الآيات ، والعشر الأول من المحرم وأنها هى التى أتم الله تعالى بها ميقات موسى عليه السلام أربعين ليلة ، وأن التكلم كان فى عاشرها . قالوا : وينبغى استفتاح العام بتوبة نصوح تمحو ما سلف من الذنوب السالفة فى الأيام الخالية ، ولقد نصح القائل :

قطعت شهور العام سهوا وغفلة ... ولم تحترم فيمـــا أتيت المحرمـــا
فلا رجـب وفيت فيـــه بحـــقه ... ولا صمت شهر الصوم صوما متمما
ولا فى ليال عشر ذى الحجة الذى ... مضى كنت قواما ولا كنت محرما
فهل لك أن تمحو الذنوب بعبرة ... وتبكى عليهـــا حســـرة وتندمـــا
وتستقبل العام الجـــديد بتوبـــة ... لعلـــك أن تمحـــو بها ما تقدما

الفصل الثانى : إن الله عز وجل اختار هذا اليوم الرفيع القدر لاستشهاد الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما ، وسبب ذلك على ما قال العلامة ابن حجر فى كتابه الصواعق وكثير من المؤرخين أن معاوية رضى الله تعالى عنه لما استقل بالسلطنة فى دمشق الشام بعد نزول الحسن رضى الله تعالى عنه عن الخلافة له بايع لولده يزيد عليه اللعنة ، وجعله ولى عهده من بعده ، ولما توفى معاوية رضى الله تعالى عنه سنة ستين وبايع الناس يزيد أرسل لعامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة على الحسين رضى الله تعالى عنه ، ففر لمكة خوفاً على نفسه فسمع به أهل الكوفة فأرسلوا إليه أن يأتيهم ليبايعوه ويمحو عنهم ما هم فيه من الجور ، فنهاه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وبين له غدرهم وقتلهم لأبيه ، وخذلانهم لأخيه ، ثم قال: فإن أبيت فلا تذهب بأهلك فأبى فبكى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال: وا حبيباه ، وقال له ابن عمر رضى الله تعالى عنهما نحو ذلك فبكى ابن عمر وقبل ما بين عينيه ، وقال : أستودعك الله من قتيل ، وكان قد قال له أخوه الحسن رضى الله تعالى عنه . إياك وسفهاء الكوفة وأن يستخفوك فيخرجوك فتندم ولات حين مناص . وقد تذكر ذلك ليلة قتله فترحم على أخيه الحسن ، ولما بلغ مسيره أخاه محمد ابن الحنفية كان بين يديه طشت يتوضأ فيه فبكى حتى ملأه من دموعه ، ولم يبق بمكة أحد إلا حزن لمسيره . وقدم أمامه مسلم بن عقيل فبايعه من أهل الكوفة اثنا

عشر ألفا ، وقيل : أكثر من ذلك ، وأمر يزيد بن زياد فجاء إليه فقتله وأرسل برأسه إليه فشكره وحذره من الحسين ، وإلى ذلك أشار الفاروقى عليه الرحمة بما أنشدنيه لنفسه :

لو كان فى الكوفة غير مسلم ... مــن مســلم ما قطعوه إربا

ولقى الحسين فى مسيره الفرزدق فقال : بين لى خير الناس ، فقال : أجل على الخبير سقطت يا ابن رسول الله ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء . وسار الحسين رضى الله تعالى عنه وهو على غير علم بما جرى على ابن عمه مسلم بن عقيل حتى كان على ثلاث مراحل من القادسية تلقاه الحر بن يزيد التميمى وقال له : ارجع فما تركت لك خلفى خيراً ترجوه . وأخبره الخبر ، وقدوم ابن زياد واستعداده له ، فهم بالرجوع فقال أخو مسلم : والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل ، فقال : لا خير فى الحياة بعدكم ، ثم سار فلقيه أوائل خيل ابن زياد فعدل إلى كربلاء ثامن المحرم سنة إحدى وستين ، وكان لما شرف الكوفة سمع بها أميرها عبيد الله بن زياد فجهز إليه عشرين ألف مقاتل فلما وصلوا إليه التمسوا منه نزوله على حكم ابن زياد وبيعته ليزيد ، فأبى فقتلوه ، وكان أكثر الخارجين لقتاله الذين كاتبوه وبايعوه ، ثم لما جاءهم أخلفوه وفروا عنه إلى أعدائه إيثارا للسحت العاجل على الخير الآجل ، فحارب أولئك العدد الكثير ، وكان معه من إخوته وأهله نيف وثمانون نفسا ، فثبت فى ذلك الموقف ثباتا باهرا مع كثرة أعدائه وعُدَدهم ، ووصول سهامهم إليه ، ولما حمل عليهم وسيفه مصلت فى يده أنشد يقول :

أنا ابن على الحبر من آل هاشــم ... كفانى بهــذا مفخــرا حين أفخر
وجدى رسول الله أكرم من مشى ... ونحن سراج الله فى الناس نزهر
وفاطمـــة أمى ســــلالة أحـــمد ... وعمـــى يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينـــا كتـــاب الله أنـــزل صادقا ... وفينا الهدى والوحـى والخير يذكر

ولولا ما كادوه به من أنهم حالوا بينه وبين الماء لم يقدروا عليه ، إذ هو الشجاع القرم الذى لا يزول ولا يتحول ، ولما منعوه وأصحابه الماء ثلاثاً قال له بعضهم : انظر إليه كأنه كبد السماء لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً ، فقال له الحسين : اللهم اقتله عطشا ، فلم يرو مع كثرة شربه الماء حتى مات عطشا . ودعا الحسين بماء يشربه فحال رجل بينه وبينه بسهم ضربه فأصابه فى حنكه ، فقال : اللهم أظمئه ،

فعاد يصيح الحر فى بطنه والبرد فى ظهره ، وبين يديه الثلج والمراوح وخلفه الكافور وهو يصيح : العطش ، فيؤتى بسويق وماء ولبن لو شربه خمسة لكفاهم فيشربه ثم يصيح فيسقى كذلك إلى أن انقد بطنه ، ولما استحر القتل بأهله فإنهم ما زالوا يقتلون منهم واحدا بعد واحد حتى قتلوا ما يزيد على الخمسين ، وصاح الحسين رضى الله تعالى عنه : أما ذاب يذب عن حريم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحينئذ خرج الحر بن يزيد بن الحرث الرياحى من عسكر أعدائه راكبا فرسه ، وقال: يا ابن رسول الله ، لئن كنت أول من خرج عليك فإنى الآن من حزبك لعلى أنال بذلك شفاعة جدك ، ثم قاتل بين يديه حتى قتل رحمه الله ، فلما فنى أصحابه وبقى بمفرده حمل عليهم وقتل كثيرا من شجعانهم ، فحمل جمع كثيرون منهم فحالوا بينه وبين حريمه فصاح : كفوا سفهاءكم عن الأطفال والنساء ، فكفوا ، ثم لم يزل يقاتلهم إلى أن أثخنوه بالجراح وسقط إلى الأرض فحزوا رأسه رضى الله تعالى عنه يوم عاشوراء عام إحدى وستين ، ووضع بين يدى عبيد الله بن زياد وأنشد قاتله :

املأ ركـــابى فضـــة وذهبـــا   فقد قتلت الملــك المحجبـــا
ومن يصلى القبلتين فى الصبا   وخـــيرهم إذ يذكـــرون نسبا
قتلــت خـــير النـاس أما وأبا

فغضب ابن زياد من قوله ، وقال : إذا علمت ذلك فلم قتلته ، والله لا نلت منى خيرا ولألحقنك به ، ثم ضرب عنقه ، وقتل معه من إخوته وبنيه وبنى أخيه الحسن ومن أولاد جعفر بن أبى طالب وأخيه عقيل تسعة عشر رجلاً ، وقيل أحد وعشرون، وما أشجى ما أنشدنيه الفاضل السرى عبد الباقى أفندى العمرى رحمه الله تعالى لنفسه من قصيدة :

قضى نحـــبه فى كربـلاء ابن حاشر   ولـم ينقضى نحـــبى عليه إلى الحشر
قضى نحـبه فى يوم عاشور من غدت   عليه العقول العشر تلطـــم بالعشـر
قضى نحـــبه فى نينـــوى وبها ثوى   فعطـــر منـــه الكائنـــات ثرى القبر
قضى نحـبه فى الطف من فوقه طفا   نجـــيع كســا الآفاق بالحلل الحـــمر
قضى نحـــبه فى حاثـــر فتحـــدرت   دمـــوع بكـا الدنيا على وجنة الدهر
قضى نحـبه من راح للحرب خائضا   ببحـــــر دم فانصب بحر على بحر

قضـــى نحـــبه والشمس فوق جبينه تحـــرر بالأنـــوار ســـورة والفجـر
قضـــى نحـــبه والحـــور محدقة به كما أحـــدقت فى بدرها هالة البدر
قضـــى نحـــبه والدين أصبح بعده إلى الله يشـــكو ما علاه من الضر
قضـــى نحـــبه ريحانة المصطفى التى تفوح ليـــوم النشـــر طيبة النشـــر
قضـــى نحبه ابن الأنزع البطل الذى أذاق الردى عمرا وأعرض عن عمـرو
قضـــى نحبه ابن الطهر سيدة النسا سليلـــة فخـــر الكائنـــات أبى الغر
قضـــى نحبه الفرد الذى هو خامس لأهل الكسا منه اكتسى الفخر بالفخر
قضـــى نحـــبه فى جنة الخلد ثاويا ومتكئـــا فيهـــا على رفرف خضـــر

ولما حمل رأسه رضى الله تعالى عنه لابن زياد لعنه الله تعالى جعله فى طست وجعل يضرب ثناياه بقضيب ، ويقول : ما رأيت مثل هذا حسنا . وروى أنه كان حاضرا عنده زيد بن أرقم فقال له : ارفع قضبتك فوالله لطالما رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل ما بين هاتين الشفتين ، ثم جعل زيد يبكى ، فقال ابن زياد : أبكى الله عينيك ، لولا أنك كبير قد خرفت لضربت عنقك ، فنهض وهو يقول : أيها الناس ، أنتم العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة رضى الله عنهما ، وأمَّرتم ابن مرجانة ، والله ليقتلن خياركم ويستعبدن أشراركم ، فبعدا لمن رضى بالذل والعار ، ثم قال : يا ابن زياد ، لأحدثنك بما أغيظ عليك من هذا ، رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقعد حسنا على فخذه اليمنى وحسيناً على فخذه اليسرى ثم وضع يده صلى الله تعالى عليه وسلم على نافوخيهما فقال : اللهم إنى أستودعك إياهما وصالحى المؤمنين ، فانظر كيف كانت وديعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندك يا ابن زياد . ثم إن ابن زياد عليه اللعنة جهز رأس الحسين مع السبايا من نسائه وبقية أطفاله وأهل بيته إلى يزيد اللعين فجمع أهل الشام عند وصولهم إليه ووضع الرأس بين يديه وجعل ينكته بقضيب خيزران وينشد أبياتا إن صحت عنه فليس فى كفره خلاف منها :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحى نزل

ومما يشجى أيضاً فى هذا المقام تخميسَ الفاروقى المتقدم ذكره لقصيدة البوصيرى فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام :

آل صخـر والصخر لا شك ألين   من قلـوب فيهـا النفاق تمكن
أظهـروا من أضغانهم ما تبطن   وقسـت منهـم قلوب على من
بكت الأرض فقدهم السماء
لحماهـم يا ناظـرى سل سبيلا   واسقه من محـاجـرى سلسبيلا
إن تـرم بالدمـوع سبحا طويلا   فابكهـم ما استطعت إن قليـلا
فى عظيم من المصاب البكاء
فتباريـح سبيهـم برحـت بى   والأسـى مشـعر بإيجاب سلبى
وبشـرق إذا أقمـت وغـرب   كل يـوم وكل أرض لكربـى
منهـم كربـلاء وعاشوراء
فسـرورى محـرم حيث حـلا   شهـر ذبـح الحسين والحزن حلا
لست أسلـو والهـم للعزم حلا   غيـر أنى فوضت أمرى إلى اللـ
ـه وتفويضـى الأمـور براء
آل طـه بمـدحـكم أتطـاول   ومع الورق بالرثـا أتسـاجـل
لـذ قلبـى لعزمكـم كلما ذل   آل بيت النبى طـبتم فطـاب الـ
مدح لى فيكم وطاب الرثاء

وقال ناصر السنة ابن الجوزى عليه الرحمة فى كتابه التبصرة عن ابن أبى نعيم قال: جاء رجل إلى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وأنا جالس فسأله عن دم البعوض فقال له : ممن أنت ؟ فقال : من أهل العراق ، قال : انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وقد سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : هما ريحانتاى من الدنيا ، يعنى الحسن والحسين ، وفى حديث آخر صححه الترمذى : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وفى حديث آخر : هذان ابناى فمن أحبهما فقد أحبنى ، وروى أيضاً بسنده عن شهر بن حوشب عن أم سلمة زوج النبى رضى الله تعالى عنها قالت: كان جبريل عند النبى عليه الصلاة والسلام وحسين معى فبكى فتركته ، فأتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخذته فلما أخذته بكى فأرسلته فذهب إليه ، فقال

له جبريل : أتحبه يا محمد ؟ فقال : نعم ، فقال : إن أمتك ستقتله فإن شئت أريتك تربة أرضه التى يقتل بها ، فبسط جناحيه إلى الأرض التى يقتل بها ، يقال لها : كربلاء ، وأخذه بجناحيه فأراه إياه . قال حماد : إن الحسين رضى الله تعالى عنه لما نزل كربلاء شم الأرض وسألهم عن اسمها فقالوا : كربلاء ، فقال كرب وبلاء، فقتل بها .

وروى عبد الله بن لحى عن أبيه أنه سار مع على كرم الله تعالى وجهه ، وكان صاحب مطهرته ، فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين نادى على : اصبر أبا عبد الله اصبر أبا عبد الله ، بشاطىء الفرات تقتل ، قلت : وماذا ؟ قال : دخلت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم وعيناه تفيضان ، قلت : يا نبى الله أغضبك أحد ، ما شأن عينيك تفيضان ، قال : قام من عندى جبريل ، قبل ، فحدثنى أن الحسين يقتل بشاطئ الفرات . وقال لى : هل لك أن أشمك من ترتبه ؟ قلت : نعم ، فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عينى أن فاضتا .

وروى عمار بن أبى عمار عن ابن عباس قال : رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنام نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه ويتتبع فيها شيئاً ، قلت : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : دم الحسين وأصحابه لم أزل أتتبعه منذ اليوم ، قال عمار : فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قتل ذاك اليوم ، قال ابن الجوزى عليه الرحمة : أخبرنا على بن عبيد الله حدثنا على بن أحمد البسرى حدثنا أبو عبد الله ابن بطة حدثنا أبو حامد محمد بن هارون الحضرمى حدثنا هلال بن بشر ، حدثنا عبد الملك بن موسى عن هلال بن ذكوان قال : لما قتل الحسين رضى الله تعالى عنه مطرنا مطرا بقى أثره فى ثيابنا مثل الدم .

قلت : لما كان الغضبان يحمر وجهه فيبين بالحمرة أثر غضبه ، والحق سبحانه ليس بجسم أظهر أثر غضبه بحمرة الأفق حين قتل الحسين رضى الله تعالى عنه ، وبالإسناد قال ابن بطة : وحدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدثنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن هشام عن محمد بن سيرين قال : لم نر هذه الحمرة فى السماء حتى قتل الحسين ، قال ابن بطة : وحدثنا أبو ذر الباغندى حدثنا حماد ابن الحسن الوراق قال : سمعت على ابن أخى شعيب بن حرب يقول : ناحت الجن على الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ، فقالت جنية : جئن نساء الجن

يبكين شجيات ، ويلطمن خدودا كالدنانير نقيات ، ويلبسن ثياباً بعد العصبيات . وفى حديث أنه حفظ من قول الجن :

مســـح النبى جبينه	فله بريق فى الخدود
أبـــواه من عليـــا قريش جـــده خير الجدود

وقالت :

أبكـــى قتيـــلا بكربـــلاء	مضـــرج الوجـــه بالدمـــاء
أبكـــى قتيـل الطغاة ظلما	بغيـــر جـــرم سوى الوفاء
أبكـــى قتيـــلا بكى عليه	حـزنا بنو الأرض والسماء
هتـــك أهـــلوه فاستحلوا	ما حـــرم الله فى الإمـــاء
يا بـــأبى جسمـــه المعرى	إلا مـــن الديـــن والحـياء
كـــل الرزايـــا لهـــا عزاء	وما لـــذا الـرزء من عزاء

وروى أن صخرة وجدت قبل مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بثلثمائة سنة وعليها مكتوب باليونانية :

أيرجو معشر قتلوا حسينا	شفاعة جده يوم الحساب

ويح قاتل الحسين كيف حاله مع أبيه وجده :

لا بـــد أن تـــرد القيامة فاطم	وقميصهـــا بدم الحسين ملطخ
ويـــل لمن شفعـــاؤه خصماؤه	والصور فى نشر الخلائق ينفخ

إخوانى ، بالله عليكم من قبح على يوسف بأى وجه يرى يعقوب ، لما أسر العباس يوم بدر سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنينه فما نام ، فكيف لو سمع أنين الحسين . لما أسلم وحشى قال له : غيب وجهك عنى ، هذا والله والمسلم لا يؤاخذ بما كان فى الكفر ، فكيف يقدر الرسول أن يبصر من قتل الحسين . اهـ .

الفصل الثالث : فى قتل النفس بغير حق وإن ذلك من الكبائر والعياذ بالله تعالى. قال الله عز وجل : ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ وقال سبحانه

وتعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما * ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ وبهذه الآية ونحوها من الأحاديث استدل من جوز لعن يزيد كالقاضى أبى الحسين وابن الجوزى والوالد عليهم الرحمة ومن وافقهم ، ونسبوا ذلك إلى الإمام أحمد بن حنبل عليه الرحمة ، فالقتل العمد فيه القصاص والعذاب ، والقتل الخطأ فيه الدية والكفارة ، كما هو مفصل فى الكتب الفقهية ، وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أبى بكرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال يوم النحر بمكة : دماؤكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض .

وروى عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء . وروى ابن عمر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لن يزال المرء فى فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما ، وعن ابن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لقتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا ، وكذلك من الكبائر أن يقتل الإنسان نفسه والعياذ بالله تعالى ، أخرج الشيخان عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالدا مخلداً فيها أبدا ، أى يضرب بها نفسه .

قلت : والنساء الحوامل اللواتى يشربن الدواء لإسقاط الجنين يلتحقن بما نحن فيه، وكذا ساقيهن يلتحق بالمعين إذ الإعانة أيضاً من الكبائر ، أخرج الأصبهانى وابن ماجه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة لقى الله مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمة الله . وروى الطبرانى والبيهقى : لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على

من حضره حيث لم يدفع عنه . حتى إن ترويعه أيضاً من الكبائر . فقد أخرج البزار وابن حبان عن عامر بن ربيعة رضى الله عنه أن رجلاً أخذ نعل رجل فغيبها وهو يمزح فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة : لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم . وأخرج الطبرانى : من أخاف مؤمناً كان حقاً على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة . وروى الطبرانى : من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله تعالى يوم القيامة . وروى الشيخان : لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار ، ومعنى ينزع يرمى ويفسد ، فإذا كان هذا حال من أخاف المسلم وروعه أو أعان على قتله فكيف حال من قتل بضعة الرسول ، وقرة عين فاطمة البتول ، وسبى عسكره والأطفال ، وقتلوا الآل الذين هم خير آل ، فلقد جمعوا فى ظلم الحسين ما لم يجمعه أحد ، ومنعوه أن يرد الماء فيمن ورد ، أو أن يرحل عنهم إلى غير بلد ، وسبوا أهله فقتلوا الولد ، وما هذا إلا عن سوء معتقد ، نبع الماء من بين أصابع جده ، فما سقوه منه قطرة ومنعوه عن ورده ، كان الرسول من حب الحسين يقبل شفتيه ، ويحمله كثيراً على كتفيه ، ولما مشى طفلاً بين يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو على المنبر نزل إليه ، فلو رآه ملقى على أحد جانبيه ، شديد العطش والماء حاضر لديه ، وأطفاله يضجون بالبكاء من جانبيه ، والسيوف تأخذه والأعداء حواليه ، والخيل قد وطأت صدره ومشت عليه ، ودماؤه تجرى بعد دموع عينيه ، لضج الرسول مستغيثا ويعز عليه :

يا رسـول الله لو عاينتهـم ... وهـم مـا بيـن قتل وسبا
من رميـض يمنع الظل ومن ... عاطـش يسقى أنابيب القنـا
لـرأت عينـاك منهـم منظرا ... للحـشا شجوا وللعين قذى
ليس هـذا لرسـول الله يا ... أمـة الطـغيان والغى جزا
غارس لم يأل فى الغرس لهم ... فأذاقـوا آلـه مـر الجـنا
جـزروا جزر الأضاحى نسله ... ثم سـاقوا أهلـه سوق الإما

فسبحان من رفع للحسين بقتله مكانا ، ودمغ من عاداه فعاد بعد العز مهانا ، ما ضره حين الشهادة من أوسعه خذلانا ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ،

هلك أهل الزيغ والعناد ، وكأنهم ما ملكوا البلاد ، وعاد عليهم ما عاد على عاد ، أين يزيد وأين ابن زياد ، كأنهما ما كانا لا كانا ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا . تمتعوا أياما يسيرة ، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة ، وبقيت سيرة الحسين أحسن سيرة ، ومن عزت عاقبته والسريرة ، فكأن لم يلق هوانا . مزقوا والله كل ممزق ، وتفرقوا بالشتات أى متفرق ، وظنوا رفو ما جنوا فتخرق ، إن ناصر المظلوم لم يتوانى ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، تعززوا على مثل الحسين وطالوا ، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا ، وكيل لهم من الذم أضعاف ما كالوا ، وعجل قلعهم من السلطنة فزالوا سلطانا سلطانا ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، ويلهم لو دبروا أمرهم ، لرفعوا بطاعة الحسنين قدرهم ، ملكوا أياما ثم بقى الخزى دهرهم ، إخوانى اشتغلوا اليوم بتسبيحكم ودعوا ذكرهم هوانا . اللهم يا من إلى سبل الإسلام هدانا ، وببركة هذا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الضلال حمانا ، هب لنا أدبا معه ولأوامره إذعانا ، وارزقنا أمنا شاملا ومن النار أمانا ، إنك على كل شيء قدير . وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وأهل بيته الطيبين ، وذريته الأكرمين ، وأصحابه أجمعين .

* * *

المجلس المتمم الأربعين

فى آية المباهلة وفضائل أهل بيته عليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى أصبحت له الوجوه ذليلة عانية ، وحذرته النفوس مجدة ومتوانية، وعظ من قدم الدنيا الحقيرة الفانية ، وشوق إلى جنة قطوفها دانية ، وخوف عطاش الهوى أن يسقوا من عين آنية ، أحمده على تقويم شانيه ، وأستعيذه من شر شان وشانية ، وأصحح بتحقيق التوحيد إيمانيه ، وأصلى على رسوله محمد صلاة ممهدة لعز بانيه ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر السابق فى الوفاق والإنفاق والدار والغربة فى الغار ، أربع للفخر بانية ، وعلى عمر مقيم السياسة على كل نفس جانية، وعلى عثمان الذى اختاره الرسول بعد موت ابنته الثانية ، وعلى على المنزل فيه ، الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين نفوسهم من كل خير دانية ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين* فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين** ﴾ فنقول وبالله تعالى التوفيق : قال الوالد عليه الرحمة فى تفسيره روح المعانى : ذكر غير واحد أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مالك تشتم صاحبنا ، يعنون عيسى عليه السلام ، قال : ما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد الله ، قال : أجل هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب ، فإن كنت صادقا فأرنا مثله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأخرج البيهقى فى الدلائل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان (١) : باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران ، إن أسلمتم فإنى أحمد الله إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أما بعد فإنى أدعوكم إلى عبادة الله تعالى من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله تعالى من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتم الحرب والسلام . فلما قرأ الأسقف الكتاب فظع به وذعر ذعرا شديدا ، فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة فدفع إليه كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقرأه ، فقال له الأسقف : ما رأيت ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله تعالى إبراهيم فى ذرية إسماعيل من النبوة ، فما يؤمن أن يكون هذا الرجل نبياً ، وليس لى فى النبوة رأى ، لو كان أمر من أمور الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك. ، فبعث الأسقف إلى واحد من أهل نجران فكلهم قال مثل قول شرحبيل ، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل وعبد الله بن شرحبيل وحيار بن قنص فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألوه وسألهم ، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا : ما تقول فى عيسى ابن مريم ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما عندى فيه شىء يومى هذا ، فأقيموا حتى أخبركم

---

(١) قوله : طس سليمان يعنى قبل أن ينزل عليه إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . اهـ منه .

بما يقال لى فى عيسى صبح الغداة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ **إن مثل عيسى** ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ **فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ ، فأبوا أن يقروا بذلك ، فلما أصبح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن والحسين فى خميلة له وفاطمة تمشى عند ظهره ، للملاعنة ، وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبيه : إنى أرى امرءًا مقبلاً إن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فتلاعناه لا يبقى على ظهر الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك ، فقالا له : ما رأيك؟ فقال : رأيى أن أحكمه فإنى أرى رجلاً لا يحكم شططا أبدا ، فقالا له : أنت وذاك، فتلقى شرحبيل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إنى رأيت خيراً من ملاعنتك . قال : وما هو ؟ قال : حكمك اليوم إلى الليل وليلك إلى الصباح فما حكمت فينا فهو جائز ، فرجع رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يلاعنهم وصالحهم على الجزية . وعن ابن عباس أن ثمانية من أساقفة أهل نجران قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم العاقب والسيد فأنزل الله تعالى : ﴿ **قل تعالوا** ﴾ الآية ، فقالوا : أخرنا ثلاثة أيام ، فذهبوا إلى بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فاستشاروهم فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه ، وقالوا : هو النبى الذى نجده فى التوراة ، فصالحوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ألف حلة فى صفر وألف فى رجب ودراهم . وروى أنهم صالحوه على أن يعطوه فى كل عام ألفى حلة وثلاثا وثلاثين درعا وثلاثة وثلاثين بعيرا وأربعة وثلاثين فرسا . وأخرج فى الدلائل أيضاً من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : إن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، منهم السيد وهو الكبير والعاقب وهو الذى يكون بعده ، وصاحب رأيهم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أسلما ، قال : أسلمنا قال : ما أسلمتما قالا : بلى قد أسلمنا قبلك ، قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما ، عبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، وزعمكما أن لله ولدا. ونزل : إن مثل عيسى ، الآية ، فلما قرأها عليهم قالوا : ما نعرف ما تقول، ونزل فمن حاجك الآية ، فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله قد أمرنى إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم فقالوا : يا أبا القاسم ، بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك فخلا بعضهم ببعض ، وتصادقوا فيما بينهم ، قال السيد للعاقب : قد والله علمتم أن الرجل نبى مرسل ، ولئن لاعنتموه إنه لاستئصالكم ، وما لاعن

قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، فإن أنتم لن تتبعوه وأبيتم إلا إلف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم . وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ومعه على والحسن والحسين وفاطمة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن أنا دعوت فأمنوا أنتم ، فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية ، وعن الشعبى فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لقد أتانى البشير بهلكة أهل نجران حتى الطير على الشجر لو تموا على الملاعنة .

وعن جابر : والذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر الوادى عليهما نارا ، وروى أن أسقف نجران لما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مقبلا ومعه على وفاطمة والحسنان رضى الله تعالى عنهم قال : يا معشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا وتهلكوا ، هذا ، وإنما ضم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى النفس الأبناء والنساء مع أن القصد من المباهلة تبين الصادق من الكاذب ، وهو يختص به وبمن يباهله ؛ لأن ذلك أتم فى الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه ، وأكمل نكاية بالعدو ، وأوفر إضرارا به لو تمت المباهلة . وفى هذه القصة أوضح دليل على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإلا ما امتنعوا عن مباهلته ، ودلالتها على فضل آل الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم مما لا يمترى فيها مؤمن[1]، انتهى .

ولنذكر تفسير هذه الآيات ثم نرجع إن شاء الله تعالى إلى ذكر مناقب أهل البيت الطاهرين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، قال تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى** ﴾ أى صفته العجيبة وشأنه الغريب ﴿ **عند الله** ﴾ أى فى تقديره وحكمه ﴿ **كمثل آدم** ﴾ أى فى صفته وحاله العجيبة فى الخلق والإنشاء ، وتشبيه عيسى بآدم عليهما السلام فى كونه مخلوقا بغير أب كآدم ﴿ **خلقه من تراب** ﴾ أى إن آدم عليه السلام لم يكن له أب ولا أم بل خلق الله قالبه من هذا الجنس ، وبقى ملقى على باب الجنة أربعين سنة لم تنفخ فيه الروح ﴿ **ثم قال له كن** ﴾ بشرا أى أنشأه خلقا بالكلمة ﴿ **فيكون** ﴾ أى فكان بشرا ، وكذلك عيسى أنشأه خلقا بالكلمة ، ففى هذه الآية دفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب وأم وهو أغرب ، وحكى أن بعض العلماء أسر فى بعض بلاد الروم فقال لهم : ولم تعبدون عيسى ؟ قالوا : لأنه لا أب له ، قال : فآدم أولى لأنه لا أب له ولا أم . قالوا : وكان

يحيى الموتى ، فقال : حزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل أربعة آلاف ، قالوا : وكان يبرئ الأكمه والأبرص ، قال : فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سليما ، وقوله تعالى : ﴿ **الحق من ربك** ﴾ أى جاءك الحق ، أوهو الحق ، يعنى الذى أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم ، ﴿ **فلا تكن من الممترين** ﴾ الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس ، أى لا يكن أحد منكم ممتريا ، أى شاكا، أو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويكون النهى له لزيادة التثبيت ، وهو نور على نور ﴿ **فمن حاجك فيه** ﴾ أى جادلك من وفد نصارى نجران فيه ، أى فى عيسى ، وقيل فى الحق ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ أى الآيات البينات الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله ﴿ **فقل تعالوا** ﴾ أى أقبلوا بالرأى والعزيمة ﴿ **ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم** ﴾ أى يدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه للمباهلة ﴿ **ثم نبتهل** ﴾ أى نتضرع إلى الله تعالى ، وأصل الابتهال الاجتهاد فى الدعاء ، باللعن وغيره ، يقال : بهله أي لعنه ﴿ **فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ يعنى منا ومنكم ، بأن نقول اللهم العن الكاذب فى شأن عيسى عليه السلام ، أى الذى يقول أنه ابن الله ، أو يقول إنه إله ، ويقول بالأقانيم الثلاثة .

وفى الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة نبوة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه لم ير واحد من موافق ومخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة ؛ لأنهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها فى التوراة والإنجيل . وفى هذه الآية أيضاً برهان واضح على فضل أصحاب الكساء ، وبضعة سيد الأنبياء ، وعترة الزهراء سيدة النساء ، ولنعطر مجلسنا بما ورد فيهم من الآيات الكريمة والأحاديث العظيمة . قال ابن حجر عليه الرحمة فى كتابه « الصواعق » قال الله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ الرجس الإثم والذنب ، وقيل : الشك . وقيل : السوء . وقيل : عمل الشيطان ، قال أكثر المفسرين : إنها نزلت فى على وفاطمة والحسن والحسين ، لتذكير ضمير عنكم ، وقال غير واحد من المفسرين : إنها نزلت فى نساء النبى عليه الصلاة والسلام ؛ لقوله تعالى بعدها : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا** ﴾ وقوله تعالى قبلها : ﴿ **وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾ ونسب هذا القول لابن عباس ، وذهب الثعلبى أن المراد فى الآية جميع بنى هاشم ، وقيل : هم من تحرم عليه الصدقة ، وقد روى فى التفسير الأول أحاديث ، فقد أخرج الإمام أحمد عن

أبى سعيد الخدرى أنها نزلت فى خمسة : النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى وفاطمة والحسن والحسين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وأخرج الترمذى وابن المنذر والبيهقى عن أم سلمة قالت : فى بيتى نزلت إنما يريد الله الآية ، وفى البيت فاطمة وعلى والحسن والحسين فجللهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وفى رواية أن أم سلمة قالت له : ألست من أهلك ، قال : بلى . وفى رواية أنها قالت: وأنا معهم، قال : إنك على خير . وفى رواية أنه قال بعد تطهيرا : أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم . وفى رواية : ألا من آذى قرابتى فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى . وفى أخرى : والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد بى حتى يحبنى ، ولا يحبنى حتى يحب ذوى قرابتى ، فأقامهم عليه الصلاة والسلام مقام نفسه ، ومن ثمة صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب الله وعترتى . ولما نزل قوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ قال كعب بن عجرة قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك؟ فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، ويروى لا تصلوا على الصلاة البتراء ، قالوا : وما الصلاة البتراء ؟ قال : تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون بالقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . وصح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ؛ ولذا روى عن الشافعى أنه قال بوجوب الصلاة على الآل فى التشهد الأخير ، وروى له قوله :

يا أهـــل بيت رسـول الله حبكم فرض من الله فى القرآن أنزلـــه
كفاكـــم من عظيـــم القدر أنكم من لا يصلى عليكم لا صلاة له

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **سلام على إل ياسين** ﴾ فقد نقل عن ابن عباس أن المراد بذلك سلام على آل محمد ، وقال تعالى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون** ﴾ فقد روى الواحدى ، أى عن ولاية على وأهل البيت . وقال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ فقد أخرجه الثعلبى عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أنه

قال : نحن حبل الله الذي قال تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . ونقل القرطبي عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : فى قوله تعالى : **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** رضى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يدخل أحد من أهل بيته النار ، وأخرج الطبرانى والدارقطنى : أول من أشفع له من أمتى أهل بيتى ثم الأقرب فالأقرب من قريش ثم الأنصار ثم من آمن بى واتبعنى ثم اليمن ثم سائر العرب ثم الأعجام ، ومن أشفع له أولاً أفضل . وعند البزار والطبرانى وغيرهما : أول ما أشفع له من أمتى أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف ، ويجمع بينهما على ما قال ابن حجر بأن ذلك فيه ترتيب من حيث القبائل، وهذا فيه ترتيب من حيث البلدان ، وأخرج الغسانى : إن ابنتى فاطمة حوراء آدمية لم تحض ولم تطمث[1] ، وإنما سميت فاطمة ؛ لأن الله تعالى فطمها وذريتها ، وفى رواية ومحبيها ، من النار . وأخرج الطبرانى عن زين العابدين السجاد رضى الله تعالى عنه أنه لما جيء به أسيرا عقب مقتل أبيه الحسين رضى الله تعالى عنه إلى دمشق الشام قال بعض جفاة أهل الشام : الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم ، وقطع قرن الفتنة ، فقال له : ما قرأت قوله تعالى : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾** قال : وأنتم هم ، قال : نعم .

أقول : وفى هذه الآية ثلاثة أقوال : أحدها ، أن قوله تعالى : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾** أى قل يا محمد لقريش أو لجميع العرب لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا ولا نفعا إلا مودتكم ، أى أن تودونى لقرابتى منكم ، وتحفظونى بها. ثانيها أن القربى آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . ثالثها أنها منسوخة ، وهو قول مردود . وأخرج الديلمى مرفوعاً . من أراد التوسل إلىَّ وأن يكون له عندى يد أشفع له بها يوم القيامة فليصل أهل بيتى ويدخل السرور عليهم : وورد عن عمر رضى الله عنه أنه قال للزبير : انطلق بنا نزور الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما، فتبطأ عليه ، فقال : أما علمت أن عيادة بنى هاشم فريضة وزيارتهم نافلة . وأخرج الخطيب مرفوعا : يقوم الرجل للرجل إلا بنى هاشم فإنهم لا يقومون لأحد، وأخرج الديلمى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم وحب أهله بيته ، وعلى قراءة القرآن ، ولذا كان بغض أهل

---

(١) قوله : ولم تطمث الطمث الحيض والمس والدنس ، وطمثت حاضت ا هـ منه .

البيت من الكبائر . فقد روى الطبرانى والبيهقى بألفاظ متقاربة أن بنت أبى لهب قدمت المدينة مسلمة مهاجرة ، فقيل لها : لا تغنى عنك هجرتك ، أنت بنت حطب النار ، فذكر ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاشتد غضبه ، ثم قال على منبره : ما بال أقوام يؤذوننى فى نسبى وذوى رحمى ، ألا ومن آذى نسبى وذوى رحمى فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى .

وأخرج الإمام أحمد مرفوعاً : من أبغض أهل بيتى فهو منافق . وفى رواية : والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله تعالى النار . ا هـ .

ولنذكر ما ذكره العلامة ناصر السنة ابن الجوزى فى شأن على كرم الله تعالى وجهه إذ هو مقدمة أهل البيت ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين . قال : اعلم أن عليا رضى الله تعالى عنه لا يزاحم فى قرب النسب ، وقد أقر الكل بعلمه وفضله ، وبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ابن سبع سنين فتبعه ، ولم يزل معه يكشف الكروب عن وجهه ، وصعد على منكب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرمى صنماً ، كما روى أبو مريم رضى الله تعالى عنه قال : انطلقت أنا ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أتينا الكعبة فقال : اجلس ، وصعد على منكبى فذهبت لأنهض به فرأى منى ضعفاً فنزل ، وجلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : اصعد على منكبى فصعدت على منكبه ، قال : فنهض بى ، قال : وإنه يخيل لى أنى لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس ، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله ، وبين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استمكنت منه قال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اقذف به ، فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير ، ثم نزلت ، فانطلقت أنا ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس . وروى الترمذى فى صحيحه بسنده عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال: لما آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين صحابته رضى الله تعالى عنهم جاء على وعيناه تدمعان ، فقال : يا رسول الله ، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد ، فسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : أنت أخى فى الدنيا والآخرة ، قال الوالد : وهذه من غرر فضائل الأمير كرم الله تعالى وجهه ، لم يشاركه فيها أحد ، وقد أكدها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما

صح من قوله : أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى . وعلى ذلك قول العمرى عليه الرحمة :

أخاك ، من عز قدرا أن يكون له　　　أخ ســـواك إذا داعى الإخاء دعا

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يوم فتح خيبر : لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، قال : فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين على بن أبى طالب . فقيل : هو يشتكى عينيه ، ودعا له فبرئ (١) كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال على : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لئن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم ، وكان الخلق يحتاجون إلى علم على رضى الله تعالى عنه حتى قال عمر رضى الله تعالى عنه : آه من معضلة ليس فيها أبو الحسن . فلما ولى الخلافة لم يتغير عن الزهد فى الدنيا ، وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول : إن عليا ما زانته الخلافة بل هو زانها :

ما زانــه الملك إذ حواه　　　بــل كل شىء به يزان
جرى ففاق الملوك سبقا　　　فليــس قدامـــه عنان

وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه** ﴾ الآيات فى سورة « هل أتى » أنها نزلت فى على بن أبى طالب، آجر نفسه يسقى نخلا بشىء من شعير ليلة حتى أصبح فلما قبض الشعير طبخوا ثلثه وأصلحوا منه ما يأكلون فلما استوى رأى مسكينا فأخرجه إليه ، ثم عملوا الثلث الثانى فلما تم أتى يتيم فأطعموه ثم عملوا الباقى فلما تم أتى أسير من المشركين

---

(١) ولله در البوصيرى حيث يقول :

وعلى لمـــا تفلـــت بعينيـــه وكلتاهمـــا معـــاً رمداء
فغــدا ناظرا بعينى عقاب　　　فى غزاة لها العقاب لواء

ا هـ منه .

فأطعموه وطووا ، أي باتوا جياعا ، فنزلت هذه الآية ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا** ﴾ ولله در القائل :

إلام ألام وحـــتى مـــتى … أعنف فى حـــب هذا الفتى

فهـــل زوجت فاطم غيره … وفى غيره هل أتى هل أتى

وكذا القائل :

أهـــوى عليـــا وإيمانى محبتـــه … كم مشرك دمه من سيفـــه وكفا

إن كنـت ويحك لم تسمع مناقبه … فاسمع مناقبه من هل أتى وكفى

وروى الكلبى عن أبى صالح قال : قال معاوية رضى الله تعالى عنه لضرار بن ضمرة : صف لى عليا ، فقال : أو تعفينى ، قال : بل تصفه ، قال : أو تعفينى ، قال : لا أعفيك ، قال : أما إذ لا بد فإنه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يتوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب (١) ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته ، ولا نبتديه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد بالله لرأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم(٢) ويبكى بكاء الحزين ، وكأنى أسمعه وهو يقول : يا دنيا ألى تعرضت ، أم إلى تشوفت ، هيهات هيهات غرى غيرى ، وقد بتتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق ، قال : فذرفت عيون معاوية فما يملكها ، وهو ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء ، فقال معاوية : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح ولدها فى حجرها ، فلا ترقأ عبرتها ،

---

(١) قوله : جشب أى غلظ أو بلا أدم ا هـ منه .

(٢) السليم اللديغ ا هـ منه .

ولا تسكن حسرتها اهـ . بزيادة . وذكر الوالد عليه الرحمة فى شرحه لعينية الفاروقى المبرور عبد الباقى لقوله :

أنت العلى الذى فوق العلا رفعا   ببطـن مكة وسط البيت إذ وضعا

وفى كون الأمير كرم الله تعالى وجهه ولد فى البيت أمر مشهور ، فعن على بن الحسين قال : كنا عند الحسين فى بعض الأيام وإذا بنسوة مجتمعات فأقبلت امرأة منهن علينا فقلت لها : من أنت ؟ فقالت : زيدة بنت العجلان من بنى ساعدة . فقلت: هل عندك شيء تحدثينا به ؟ قالت : أى والله ، حدثتنى بنت أم عمارة بنت عبادة بن نضلة أنها كانت ذات يوم فى نساء العرب إذ أقبل أبو طالب كئيباً حزيناً فقالت له : ما شأنك قال : إن فاطمة بنت أسد فى شدة من الطلق ، ثم إنه أخذ بيدها وجاء بها إلى الكعبة فدخل بها فأجلسها فطلقت طلقة واحدة فولدت عليا كرم الله وجهه ، غلاماً نظيفا لم أر أحسن منه وجهاً وسماه عليا وأنشده :

سميتـــه بعلى كى يدوم له   من العلو وفخر العز أدومه

وجاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وحمله إلى منزل أمه ، ذكر ذلك فى الفصول المهمة ، وقد توفى رضى الله تعالى عنه سنة أربعين من الهجرة ، قال محمد بن عبدون فى قصيدته :

وأجرزت سيف أشقاها أبا حسن   ومكنت من حســين راحتى شمر

وليتهـــا إذ فدت عَمْرا بخــارجة   فدت عليا بمن شــاءت من البشر

قال الشارح : أشقاها هو عبد الرحمن بن ملجم ، وسماه بذلك لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا على ، أشقاها الذى يخضب هذه من هذه ، وأشار إلى لحية على ورأسه ، وكان سبب قتله لعلى كرم الله تعالى وجهه على ما ذكر أن الخوارج قالت : إن عليا ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة فلو قتلناهما لعاد الأمر إلى خفة ، فقال رجل : والله ما عمرو بدونهما وإنه لأصل هذا الفساد ، فقال ابن ملجم : أنا أقتل عليا ، وقال الحجاج بن عبد الله : أنا أقتل معاوية ، وقال رادويه : أنا أقتل عمرو بن العاص ، فأجمعوا رأيهم على أن يكون قتلهم لهم ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان ، وخرج كل واحد منهم إلى ناحية صاحبه وخرج ابن ملجم تلك الليلة ووقف على باب المسجد فى الكوفة وكان على يدخل مغلسا

فيوقظ الناس للصلاة ، فلما أراد الدخول ضربه ابن ملجم على وسط رأسه ، وأخذ ابن ملجم عليه اللعنة ، ثم مات رضى الله تعالى عنه فى اليوم الثلاث ، ثم قتل الحسن رضى الله تعالى عنه ابن ملجم ، قيل : بعد أن قطعت يداه ورجلاه ولسانه ، وكان عمر على رضى لله تعالى عنه ثلاثا وستين سنة ، وقد اختلف فى محل دفنه ، فمنهم من قال إنه دفن بمسجد الكوفة ، ومنهم من قال : إنه حمل إلى المدينة وقبره عند قبر فاطمة رضى الله عنها ، وقيل : غير ذلك ، والمشهور أنه فى النجف .

وحكى أبو بكر بن الأصبغ قال : قدم علينا شيخ كبير شديد البياض يشبه بياضه بياض البرص ، يقال له : ابن الماء وكان غريبا ، فذكر أنه كان نصرانيا سنين وأنه كان يتعبد فى صومعته ، فبينا هو ذات يوم فى صومعته إذ جاء طائر كالنسر أو كالكركى فوقف عند الصومعة فتقيأ بضع لحم ثم نقرها فالتأمت رجلاً ثم نقره فعاد بضعا ثم ابتلعها فطار ، فجاء فى اليوم الثانى ففعل مثل ذلك ، ثم فى اليوم الثالث فلما التأمت رجلا ، قلت : سألتك بالله من أنت ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل على رضى الله تعالى عنه ، قد وكل لله بى هذا الطائر يفعل فىّ ما تراه إلى يوم القيامة ، فسبحان من كسا أهل البيت نورا ، وجعل عليهم خندقا يقى الرجس وستورا ، فإذا تلقوا يوم القيامة تلقوا حبورا ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** ﴾ ادخرنا لكم نعيما مقيما ، ومنحناكم فضلا جزيلا عميما ، وجزينا من كان للفقراء رحيما ، أو ليس أطعمتم مسكينا ويتيما ورحمتم مأسورا ، وكان سعيكم مشكورا ، من مثل على من مثل فاطمة ، كم صبرا على أمواج بلايا متلاطمة ، وآثروا الفقراء ونار الجوع حاطمة ، فلهم نضارة الوجوه والأهوال للوجوه خاطمة ، يا سرعة ما انقلب حزنهم سرورا ، وكان سعيهم مشكورا ، كانت فاطمة بنت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحب الناس إليه ، وكان على رضى الله عنه أعز الخلق عليه ، وجعل الله ريحانتيه من الدنيا ولديه ، فإذا أحضرهم الحق غدا عنده ولديه ، أكرمهم إكراما عظيما موفورا ، وكان سعيهم مشكورا .
وا عجبا ذكر فى هذه الآيات نعيم الجنات ، من الملبوس والمشروب والمطعومات ، والأرائك والقصور والعيون الجاريات ، ولم يذكر النساء وهن غاية اللذات ، احتراماً لفاطمة أشرف البنات ، ومن يصف الزهراء لا يذكر حورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ، اللهم خلقتنا مسلمين فسلمنا من عذابك ، وجعلتنا مؤمنين

فآمنا من عقابك ، اللهم اجعلنا فى حزب آل نبيك وتوفنا على كمال حب حبيبك وخليلك ، اللهم إن نظرنا إلى فضلك فالعجب ممن هلك كيف هلك ، وإن نظرنا إلى عدلك فالعجب ممن نجا كيف نجا ، اللهم إن حاسبتنا بفضلك نلنا رضوانك ، وإن حاسبتنا بعدلك لم ننل غفرانك ، اللهم إن كنا قد عصيناك بجهل ، فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربا يغفر الذنوب ولا يبالى ، اللهم أنت العالم بالحال من قبل الشكوى ، وأنت قادر على تحقيق الآمال وكشف البلوى ، اللهم أنت ملاذنا إذا ضاقت الحيل ، وملجؤنا إذا انقطع الأمل ، بذكرك نفتخر ، وإلى جودك نفتقر :

بذكـرك يا مـولى الورى نتنعم ... وقد خاب قوم عن سبيلك قد عموا
شهـدنا يقينـا أن علمك واسع ... فأنت ترى مافى القلوب وتعلـم
إلهـى تحـمَّلنا ذنوبـا عظيمة ... أسـأنا وقصـرنا وجودك أعظم
سـترنا معاصينا عن الخلق غفلة ... وأنت ترانـا ثم تعفـو وترحـم
وحـقك ما فينـا مسـىء يسره ... صـدودك عنه بل يخـاف ويندم
إلهـى فجد واصفح وأصلح قلوبنا ... فأنت الذى تولى الجميل وتكـرم
ألست الذى قربت قوما فوافقوا ... ووفقتهـم حـتى أنابوا وأسلموا
لهم فى الدجا أنس بذكرك دائما ... فهـم فى الليالى ساجـدون وقوم
لك الحـمد عاملنـا بما أنت أهله ... وسامـح وسلمنـا فأنت المسـلم

* * *

المجلس الحادى والأربعون
فى حديث لاعدوى ولا صفر وفى الأيام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى لقدرته يخضع من يعبد ، ولهيبته ولعظمته يخشع من يركع ويسجد ، ولطيب مناجاته يسهر العابد ولا يرقد ، ولطب ثوابه يقوم المصلى ويقعد، يجهل كلامه عن أن يقال مخلوق ويبعد ، فذو التسليم لصفاته مستقيم فمن شبه أو عطل لم يرشد ، ما جاء فى القرآن قبلنا أو فى السنة لم نردد ، أليس هذا اعتقادكم يا أهل الخير ، وكيف لا أتفقد العقائد خوفا من الضير ، فإن سليمان تفقد الطير ،

فقال ما لى لا أرى الهدهد ، أحمده حمد من يرشد بالوقوف ولا يشرد ، وأصلى على رسوله محمد الذى قيل لحاسده فليمدد ، صلى الله تعالى عليه وعلى الصديق الذى فى قلوب محبه فرحات ، وفى صدور مبغضه ترحات لا تنفد ، وعلى عمر الذي لم يزل يقوى الإسلام ويعضد ، وعلى عثمان الذى جاءته الشهادة فلم يردد ، وعلى على الذى ينسف زرع الكفر بسيفه ويحصد ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة دائمة مستمرة لقائلها تعضد ، وسلم تسليما .

أما بعد : فقد روى البخارى ومسلم رحمهما الله تعالى فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، فقال أعرابى : يا رسول الله ، فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فمن أعدى الأول .

فأقول ، وبالله تعالى التوفيق : قد ورد هذا الحديث بروايات متعددة ، ففى المشارق للصغانى رامزاً للبخارى عن أبى هريرة : لا طيرة وخيرها الفأل ، ورامزا للبخارى ومسلم : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا غول . وفى الجامع الصغير للسيوطى رامزا لمسند الإمام أحمد ولمسلم عن جابر بن عبد الله : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا غول ا هـ . وفى كتاب الآثار للطحاوى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : العيافة والطيرة والطرق من الجبت ، أى الشرك ، قال العلماء رحمهم الله تعالى : أما العدوى بفتح العين فاسم من الإعداء ، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره ، فمعناها أن المرض يتعدى من صاحبه إلى من يقاربه من الأصحاء فيمرض بذلك ، وكانت العرب تعتقد العدوى فى أمراض كثيرة منها الجرب؛ ولذلك سأل الأعرابى عن الإبل الصحيحة يخالطها البعير الأجرب فتجرب، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : فمن أعدى الأول ؟ أى إن الأول لم يجرب بالعدوى بل بقضاء الله تعالى وقدره ، فكذلك الثانى وما بعده ، قال الشيخ أحمد الحنبلى الحموى فى كتابه « عقد الدرر » وقد وردت أحاديث أشكل على كثير من الناس بعضها ، حتى ظن بعضهم أنها ناسخة لقوله عليه الصلاة والسلام : لا عدوى ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لا يورد ممرض على مصح ، والممرض صاحب الإبل

المريضة ، والمصح صاحب الإبل الصحيحة . والمراد النهى عن إيراد الإبل المريضة على الصحيحة . ومثله قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : فر من المجذوم فرارك من الأسد ، وقوله عليه الصلاة والسلام فى الطاعون : إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها ، ودخول النسخ فى هذا لا معنى له ، فإن قوله عليه الصلاة والسلام : لا عدوى خبر ، وهو لا يمكن أن يكون ناسخا للنهى فى هذه الأحاديث الثلاثة وما فى معناها فالصحيح الذى عليه الجمهور من العلماء أنه لا نسخ فى ذلك ، واختلفوا فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام : لا عدوى ، على أقوال ، وأظهرها أنها نفى لما يعتقده أهل الجاهلية من أن هذه الأمراض تعدى بطبعها من غير اعتقاد بقدر الله عز وجل لذلك ، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : فمن أعدىٰ الأول ؟ قلت : من الأمراض المعدية ، كما قيل : الجرب والحصبة والبرص والوباء وغيرها مما هو مذكور فى علم الطب ، وأما نهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن إيراد الممرض على المصح ، وأمره بالفرار من المجذوم ، ونهيه عن الدخول إلى موضع الطاعون ، فإنه من باب اجتناب الأسباب التى هى سبب البلاء إذا كان فى عافية منها ، فكما أنه مأمور ألا يلقى نفسه فى الماء أو فى النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت به العادة أنه مهلك فكذلك اجتناب مقاربة المجذوم والقدوم على بلد فيه الطاعون ، فإن هذه كلها أسباب المرض والتلف ، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها ، لا خالق ولا مقدر غيره .

وقد روى أبو داود أنه عليه الصلاة والسلام مر بحائط مائل فأسرع وقال : أخاف موت الفوات ، فإن قلت : روى جابر أن النبى عليه الصلاة والسلام أكل مع مجذوم فما وجهه ، قلنا : حال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقوى من حال الأمم ، فجاز ألا يخاف عليه مما يخاف على غيره من العلل المعدية ، وقد روى أبو داود والترمذى أنه لما أكل قال باسم الله ثقة توكلا على الله ، مع أن الأنبياء معصومون من مثل هذه الأمراض المنفرة ، قالوا : ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه : من شرب السم فهذا لا يصلح إلا للخواص الكامل توكلهم، ومن هذا قول إبراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار فعرض له جبريل عليه السلام فقال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، وأما الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء اسم ما يتشاءم ، كذا فى الصحاح ، وفى النهاية إنه مصدر تطير كما يقال تخير خيرة ،

وقال المناوى: هى التفاؤل بالطير ، وكانوا يتفاءلون بأسمائها وأصواتها ، قال ابن مالك فى شرح المشارق : كان أهل الجاهلية إذا قصدوا إلى حاجة وأتى من الجانب الأيسر طير أو غيره يتشاءم به فيرجع القاصد ، فأبطلها النبى عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث المتقدم . وقال : وخيرها أى خير الطيرة الفأل ، بسكون الهمزة ، وربما يخففها ، فسرها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالكلمة الصالحة المسموعة على قصد التفاؤل كسماع مريض يا سالم ، ولهذا جاء فى الخبر أنه عليه الصلاة والسلام كان يتفاءل ولا يتطير . وكان يحب إذا خرج لحاجة أن يسمع يا راشد ، قال أبو جعفر الطحاوى : فإن قيل قد روى ابن عمر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إنما الشؤم فى ثلاثة : فى المرأة والفرس والدار ، فالجواب أن جماعة رووا أنه قال : إن كانت الطيرة فى شىء ففى المرأة والدار والفرس ، أى لو كانت تكون فى شىء لكانت فى هؤلاء ، فإذا لم تكن فى هؤلاء فليست فى شىء ، وقالت عائشة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك، ا هـ.

فائدة : فى مراسيل أبى داود أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ليس عبد لا يدخل قلبه الطيرة فإذا أحس بذلك فليقل : أنا عبد الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله لا يأتى بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله ، أشهد أن الله على كل شىء قدير . ثم يمضى لوجهه ، وقال النخعى : هذا إن من تطير تطيراً منهيا عنه أو يراه مما يتطير به حتى يمنعه مما يريده من حاجته ، فإنه قد يصيبه ما يكرهه ، فأما من توكل على الله عز وجل ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفا ورجاء وقطعه عن الالتفات إلى هذه الأسباب المخوفة ، وقال ما أمر به من هذه الكلمات ، ومضى فإنه لا يضره ، وأما قوله عليه الصلاة والسلام : ولا هامة بتخفيف الميم على الصحيح ، وحكى أبو زيد تشديدها ، وهى على زعم العرب الجاهلية دابة تخرج من رأس القتيل أو تتولد من دمه ، فلا تزال تصيح حتى يؤخذ بثأره ، وقال المناوى : والهامة طائر كبير ، يضعف بصره بالنهار ويطير بالليل ، ويصوت فيه ، ويقال له بوم ، الناس يتشاءمون بصوته ، ومن زعمات العرب أن روح القتيل الذى لا يدرك ثأره تصير هامة ، وتقول : اسقونى ، فإذا أدرك ثأره طارت ، فأكذبهم الشارع عليه الصلاة والسلام، وأما قوله عليه الصلاة والسلام : ولا غول ، قال المناوى : هو بالفتح مصدر معناه البعد والهلاك ، وبالضم الاسم ، وهو من السِّعال ، وجمعه

أغوال وغيلان ، يحتمل أن يراد به نفيه رأسا أو أن المراد نفيه على الوجه الذى يزعمونه ، فإنهم يقولون هو ضرب من الجن تتغول ، أى تتلون لمن يمشى وحده فى فلاة أو فى الليلة الليلاء ، وتمشى قدامه فيظن الماشى خلفه أنه إنسان فيتبعه فيقع فى الهلاك ا هـ. قال فى شرح المشارق : فإن قيل ما معنى النفى وقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا تغولت الغيلان فعليكم بالأذان ، أجيب بأنه كان فى ذلك الابتداء ثم رفعه الله تعالى عن عباده ، أو يقال إن المنفى ليس وجود الغول بل المنفى تصرفه فى نفسه بزعم الجاهلية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : ولا صفر بفتح الصاد والفاء فقد اختلف فى تفسيره ، فقال كثير من المتقدمين : إن دابة فى البطن يقال إنها دود كبار كالحيات ، وكانوا يعتقدون أنه يعدى فنفى النبى عليه الصلاة والسلام ذلك ، ونسبه فى عقد الدرر إلى الإمام أحمد وابن عيينة وغيرهما ، وقالت طائفة : المراد به شهر صفر ، ثم اختلفوا على قولين ، أحدهما وهو المروى عن مالك أن المراد نفى ما كان أهل الجاهلية يفعلونه فى النسىء كما حكى ذلك عنهم سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله** ﴾ الآية . والنسء لغة التأخير والمراد هنا تأخير شهر إلى شهر آخر ، فقد كانت العرب تعتقد تعظيم الأشهر الحرم ، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام ، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة ، وكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالى ، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر ، ويستحلون المحرم ، والقول الثانى وهو الذى حكاه داود عن محمد بن راشد المكحول : إن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بصفر ويقولون إنه مشئوم فأبطل النبى عليه الصلاة والسلام ذلك .

تتمة : فلنذكر أشياء مما يتشاءم منها الناس أو يلحقهم منها مكروه ، فمن ذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوال فى النكاح فيه خاصة ، وقد قيل إن طاعونا وقع فى شوال فى سنة من السنين فمات فيه كثير من الخلق والعرائس ، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية ، وقد ورد الشرع بإبطاله ، قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : تزوجنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى شوال ، وبنى بى فى شوال ، فأى نسائه كانت أحظى عنده منى ، وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تحب أن تدخل نساءها فى شوال ، وتزوج النبى عليه الصلاة والسلام أم سلمة رضى الله تعالى عنها أيضاً

فى شوال . ومن ذلك تشاؤم الناس فى أيام العجائز ويقال لها العجوز فى آخر الشتاء ، وترك الأسفار ونحوها فيها ، وذلك عند نزول القمر العقرب ، وقد أخرج الخطيب فى التاريخ أن عليا كرم الله تعالى وجهه كره أن يتزوج الرجل أو يسافر فى المحاق أو إذا نزل القمر العقرب ، قال : والمحاق إذا بقى من الشهر يوم أو يومان ، وكذلك السفر يوم الأحد ، وفى الأثر : نعوذ بالله من يوم الأحد فإن له حدا أحد من السيف ، قاله المناوى : وفيه ما سيأتى ، ومن ذلك التشاؤم بيوم الأربعاء ، قال الوالد عليه الرحمة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر** ﴾ ما ملخصه الصرصر الريح الباردة ، وقيل شديدة الصوت ، وفى يوم نحس أى مشئوم عليهم ذلك ، مستمر ذلك الشؤم ؛ لأنهم بعد أن أهلكوا لم يزالوا معذبين فى البرزخ حتى يدخلوا جهنم ، والمشهور أنه يوم الأربعاء وقرأ الحسن : يوم نحس بتنوين يوم وكسر حاء نحس ، وجعله صفة ليوم فيتعين كون مستمر صفة ثانية له ، وأيد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع وابن مردويه والخطيب البغدادى عن ابن عباس مرفوعا : آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر ، قال السخاوى : طرقه واهية ، وضعفوا أيضاً خبر الطبرانى : يوم الأربعاء يوم نحس مستمر . وفى الفردوس عن عائشة رضى الله تعالى عنها مرفوعاً : لولا أن تكره أمتي لأمرتها ألا يسافروا يوم الأربعاء وأحب الأيام إلى الشخوص فيها يوم الخميس، قال الوالد : وهو غير معلوم الصحة عندى . وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس : يوم السبت يوم مكر وخديعة ، ويوم الأحد يوم غرس وبناء ، ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق ، ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس ، ويوم الأربعاء لا أخذ ولا عطاء ، ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان ، والجمعة يوم خطبة ونكاح . وتعقبه السخاوى بأن سنده ضعيف ، وروى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً وخرجه الحاكم من طريقين آخرين : لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء ، وفى بعض الآثار النهى عن قص الأظفار فى يوم الأربعاء ، وأنه يورث البرص ، وكثير من الناس تطير من آخر أربعاء وتركوا السعى لمصالحهم فيه ، ويقولون له : أربعاء لا تدور ، وعليه قول الشاعر :

لقاؤك للمبكر فال سوء   ووجهك أربعاء لا تدور

وكره بعضهم عيادة المرضى فيه ، وعليه قيل :

لم يؤت فى الأربعاء مريض　　إلا دفنـــاه فـــى الخـميس

وقال العلامة ابن عابدين ، فائدة : يتشاءم الناس فى زماننا من العيادة فى يوم الأربعاء فينبغى تركها إذا كان يحصل للمريض بذلك ضرر ، وعلى نحوسته حمل بعضهم بيت البوصيرى :

لو أريدوا فى حال سبت بخير　　كـــان سبتا لديهـــم الأربعـــاء

وكانت الجاهلية تقول : أنه يوم عطارد ، وهو نحس مع النحوس وسعد مع السعود ، وهو قول باطل للمنجمين . وجاء فى بعض الأخبار ما يشعر بمدحه ، ففى شعب البيهقى أن الدعاء يستجاب يوم الأربعاء بعد الزوال . وعن صاحب الهداية أنه ما بدئ شىء يوم الأربعاء إلا وتم ، وهو يوم خلق الله تعالى فيه النور . وروى الديلمى عن جابر مرفوعا : من غرس الأشجار يوم الأربعاء وقال سبحان الباعث الوارث آتته أكلها . وحكى عن بعض العلماء أن التطير مكروه كراهية شرعية إلا أن الشرع أباح لمن أصابه فى آخر أربعاء شىء فى مصالحه أن يدع التصرف فيه لا على جهة التطير واعتقاد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى ، بل على جهة اعتقاد إباحة الإمساك فيه لما كرهته النفس لا اقتفاء للتطير ، ولكن إثباتاً للرخصة فى التوقى فيه لمن يشاء مع وجوب اعتقاد أن شيئاً لا يضر شيئاً ، ونقل عن الحليمى أنه قال: علمنا ببيان الشريعة أن من الأيام نحسا ، ويقابل النحس السعد ، وإذا ثبت الأول ثبت الثانى أيضاً ، فالأيام منها نحس ومنها سعد كالأشخاص منهم شقى ومنهم سعيد ، لكن زعم أن الأيام والكواكب تنحس أو تسعد باختيارها أوقاتا وأشخاصا باطل ، والقول أن الكواكب قد تكون أسبابا للحسن والقبيح والخير والشر ، والكل فعل الله تعالى وحده مما لا بأس به ، ثم قال المناوى : والحاصل أن توقى الأربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم ؛ إذ الأيام كلها لله تعالى لا تنفع ولا تضر بذاتها ، وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه ، ومن تطير حاقت به نحوسته ، ومن أيقن أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شىء من ذلك ، كما قيل :

تعلـــم أنه لا طيـر إلا　　على متطير وهو الثبور

وأقول : كل الأيام سواء ولا اختصاص لذلك بيوم الأربعاء ، وما من شاعة من الساعات إلا وهو سعد على شخص نحس على آخر باعتبار ما يحدث الله تعالى

فيها من الملائم والمنافر والخير والشر ، فكل يوم من الأيام يتصف بالأمرين لاختلاف الاعتبار ، وإن استنحس يوم الأربعاء لوقوع حادث فيه فليستنحس كل يوم ، فما أولج الليل والنهار والنهار فى الليل إلا لإيلاد الحوادث ، وقد قيل :

إلا إنمـــا الأيام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

وتفصيل هذا البحث فى روح المعانى والشرح الكبير للجامع الصغير للمناوى من أراده فليرجع إليهما .

خاتمة : فى فوائد مهمة تتعلق بما نحن فيه ، منها إصابة العين قال الطوفى البغدادى وغيره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة** ﴾ قد خشى يعقوب عليه السلام على أولاده من العين لأنهم كانوا ذوى حسن فخاف عليهم ، وهى الحاجة التى كانت فى نفسه فقضاها ، وقد أثنى الله عز وجل عليه بذلك فقال : ﴿ **وإنه لذو علم** ﴾ الآية ، ووافق ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : العين حق ، فاتفق على ذلك شرعنا وشرع من قبلنا . فتأكد حكمها ، وفى كيفية الإصابة بالعين خلاف ، فقيل : هو سم ينفصل عن العين لخبث فى النفس يتصل بالشىء مع الشعاع البصرى فيغيره ، وقيل : هو قوة نفس ينفعل له الأجسام العنصرية كانفعال الحديد بالمغناطيس والعاشق للمعشوق ، والنجوم لما تؤثر فيه ، على رأى أهلها ، وقيل : هو تغير يحدثه الله عز وجل مقارنا لرؤية الرائى تنبيها له على أن الدار دار تغير وزوال ولا يغتر بما هى عليه من حسن الحال تزهيدا له فيها وترغيبا عنها . وقيل غير ذلك ، وقال الوالد عليه الرحمة فى روح المعانى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ المعنى أنهم من شدة عداوتهم ينظرون إليك شزرا بحيث يكادون يزلقون قدمك فيرمونك ، من قولهم . نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى أو يكاد يأكلنى ، أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله . وقرأ ابن عباس والأعمش : ليزهقونك بالهاء أى ليهلكونك ، أو إنهم يكادون يصيبونك بالعين ، إذ روى أنه كان فى بنى أسد عيانون فأراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت ، وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فيقول : لم أر كاليوم

إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فتسقط طائفة منها وتهلك ، فاقترح الكفار منه أن يصيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأجابهم وأنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيدا   وأخـــال أنـــك ســـيد معيون

فعصم الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنزل عليه هذه الآية ، وقد قيل : إن قراءتها تدفع ضرر العين . وروى ذلك عن الحسن ، وفى كتاب الأحكام إنها أصل فى أن العين حق والأولى الاستدلال على ذلك بما ورد وصح عن عدة طرق : إن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، وبما أخرجه الإمام أحمد بسند رجاله كما قاله الهيثمى ثقات عن أبى ذر مرفوعاً : إن العين لتولع بالرجل بإذن الله تعالى حتى يصعد حلقا ثم يتردى منه ، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة ، وذلك من خصائص بعض النفوس ، ولله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء ، وإضافته إلى العين باعتبار أن النفس تؤثر بواسطتها غالبا ، وقد يكون التأثير بلا واسطتها بأن يوصف للعائن شيء فتتوجه إليه نفسه فتفسده ، ومن قال : إن الله تعالى أجرى العادة بخلق ما يشاء عند مقابلة عين العائن من غير تأثير أصلا فقد سد على نفسه باب العلل والتأثيرات والأسباب والمسببات ، وخالف جميع العقلاء ، قاله العلامة ابن القيم ، وقال بعض أصحاب الطبائع أنه ينبعث من العين قوة سمية تؤثر فيما نظره ، كما فصل فى شرح مسلم ، وهذا لا يتم عندى فيما لم يره ولا فى نحو ما تضمنه حديث أبى ذر المتقدم آنفا ، ولا فى إصابة الإنسان عين نفسه ، كما حكاه المناوى ، فإنه لا يقتل المصل سمه ، ومن ذلك ما حكاه الغسانى قال : نظر سليمان ابن عبد الملك فى المرآة فأعجبته نفسه فقال : كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبياً ، وكان أبو بكر صديقاً ، وكان عمر فاروقا ، وعثمان حييا ، ومعاوية حليما ، ويزيد صبورا ، وعبد الملك سايسا ، والوليد جبارا ، وأنا الملك الشاب ، وأنا الملك الشاب ، فما دار عليه الشهر حتى مات . ومثل ذلك ما قيل أنه من باب التأثير فى القوة المعروفة اليوم بالقوة الكهربائية عند الطبائعيين المحدثين . فقد صح أن بعض الناس يكرر النظر إلى بعض الأشخاص من فرقه إلى قدمه فيصرعه كالمغشى عليه ، وربما يقف وراءه جاعلا أصابعه حذاء نقرة رأسه ، ويوجه نفسه إليه حتى يضعف قواه فيغشاه نحو النوم ويتكلم إذ ذاك بما لم يتكلم به فى وقت آخر ، وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس ، ولا أكيف ذلك ، فالنفس الإنسانية من أعجب

مخلوقات الله تعالى ، وكم طوى فيها أسرار وعجائب تتحير فيها العقول ، ولا ينكرها إلا مجنون أو جهول ، ولا يسعنى أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها على اختلاف الأعصار ، ولا أخص ذلك بالنفوس الخبيثة كما قيل فقد يكون من النفوس الزكية .

والمشهور أن الإصابة لا تكون مع كراهة الشيء وبغضه وإنما تكون مع استحسانه، وإلى ذلك ذهب القشيرى ، وكأنه يشير بذلك إلى الطعن فى صحة الرواية ههنا لأن الكفار كانوا يبغضونه عليه الصلاة والسلام فلا يتأتى لهم إصابته بالعين ، وفيه نظر . وحكم العائن على ما قال القاضى عياض أنه يجتنب وينبغى للإمام حبسه ومنعه عن مخالطة الناس كفا لضرره ما أمكن ويرزقه حينئذ من بيت المال ا هـ ، باقتصار .

وفى زاد المعاد للعلامة محمد بن القيم فى هديه صلى الله تعالى عليه وسلم فى علاج المصاب بالعين فى صحيح مسلم عن أنس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رخص فى الرقية من الحمة والعين والنملة ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن نسترقى من العين ، وأمر عليه الصلاة والسلام العائن بالاغتسال ، قال الزهرى : يأمر الرجل العائن بقدح فيدخل كفه فيه فيتمضمض ثم يمجه فى القدح ويغسل وجهه فى القدح ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى من القدح ثم يدخل يده اليمنى فيصب على ركبته اليسرى ، ثم يغسل داخلة إزاره ولا يوضع القدح فى الأرض ، ثم يصب على رأس الرجل الذى تصيبه العين من خلفه صبة واحدة ، والعين عينان ، عين إنسية ، وعين جنية ، فقد صح عن أم سلمة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فى بيتها جارية فى وجهها سعفة أى نظرة من الجن ، فقال : استرقوا لها فإن بها النظرة ، ومن التعوذات والرقى الإكثار من قراءة المعوذتين ، وفاتحة الكتاب ، وقوله عليه الصلاة والسلام : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، ونحو : أعوذ بكلمات الله من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة ، ونحو أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ فى الأرض ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن . ومنها قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ومنها إذا كان العائن

يخشى ضرر عينه فليدفع شرها بقوله : اللهم بارك عليه ، ومنها رقية جبريل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : باسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ، باسم الله أرقيك . وقال جماعة من السلف : لا بأس بكتابة الآيات من القرآن ثم يشربها، ومنها ما ذكره البغوى أن عثمان رضى الله تعالى عنه رأى صبيا مليحا فقال : دسموا نونته لئلا تصيبه العين ، أى سودوا النقرة التى تكون فى ذقن الصبى ، ومنها ما ذكر عن أبى عبد الله النتاحى أنه كان فى بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة ، وكان فى الرفقة رجل عائن فما نظر إلى شىء إلا أتلفه ، فقيل لأبى عبد الله : احفظ ناقتك من العائن ، قال : ليس له إلى ناقتى سبيل ، فأخبر العائن بقوله فتحين غيبة أبى عبد الله فجاء إلى رحله فنظر إلى ناقته فاضطربت وسقطت ، فجاء أبو عبد الله فأخبر أن العائن قد عاناها ، وهى كما ترى ، فقال : دلونى عليه فدل فوقف عليه وقال باسم الله حبس حابس ، وحجر يابس ، وشهاب قابس ، رددت عين العائن عليه ، وعلى أحب الناس إليه ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، فخرجت حدقة العائن وقامت الناقة لا بأس بها ، ومن هديه عليه الصلاة والسلام فى رقية اللديغ بالفاتحة أخرجا فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى قال : انطلق نفر من أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحى فسعوا له بكل شىء فلم ينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شىء فأتوهم فقالوا : يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء فهل عند بعضكم من شىء ، فقال بعضهم : نعم والله إنى لأرقى ولكن استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشى وما به قلبة ، قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقتسموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنذكر له الذى كان فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فذكروا له ذلك ، فقال: وما يدريك أنها رقية . ثم قال: أصبتم اقتسموا واضربوا لى معكم سهما .

ومن هديه عليه الصلاة والسلام فى علاج لدغة العقرب بالرقية ، روى ابن أبى شيبة من حديث عبد الله بن مسعود قال : بينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى إذ سجد فلدغته عقرب فى أصبعه فانصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : لعن الله العقرب ما تدع نبيا ولا غيره » قال : ثم دعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة فى الماء الملح ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين حتى سكنت ، ففى هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين الطبيعى والإلهى ، ومن هديه عليه الصلاة والسلام فى رقية النملة ، ففى سنن أبى داود عن الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال : ألا تعلمين هذه رقية النملة ، كما تعلميها الكتابة ، النملة قروح تخرج فى الجنبين وهو داء معروف ، وسمى نملة لأن صاحبه يحس مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه . وروى الخلال أنها عرضت رقيتها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت : باسم الله صليت حتى تعود من أفواهها ولا تضر أحداً ، اللهم اكشف الباس رب الناس ، قال : ترقى بها على عود سبع مرات ، ويقصد مكانا نظيفا ويدلكه على حجر بخل خمر حاذق وتطليه على النملة ، ومن هديه صلى الله تعالى عليه وسلم فى رقية القرحة والجرح قد أخرجا فى الصحيحين عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا اشتكى الإنسان أو كانت به قرحة أو جرح وضع سبابته بالأرض ثم رفعها وقال : باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى سقيمنا بإذن ربنا . ومعنى الحديث أنه يمسح به على الجرح ، ومنه هديه صلى الله تعالى عليه وسلم فى علاج الوجع بالرقية روى مسلم عن عثمان بن أبى العاص أنه شكى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجعا يجده فى جسده منذ أسلم فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر ، وفى الصحيحين أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعود بعض أهله يمسح عليه بيده اليمنى ويقول : اللهم رب الناس أذهب الباس ، واشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما . وقد ختم ابن القيم مباحثه الطبية فى وصايا نافعة نذكر بعضها تكميلا للفائدة ، قال ناقلا عن ابن ماسويه : من أكل البصل أربعين يوما فلا يلومن إلا نفسه ، ومن افتصد فأكل مالحا فأصابه البهق والجرب فلا يلومن إلا نفسه ، ومن احتلم فلم يغتسل حتى وطئ أهله فولدت مجنونا

فلا يلومن إلا نفسه ، ومن جامع فلم يصبر حتى يفرغ فأصابه حصاة فلا يلومن إلا نفسه ، ومن نظر فى المرآة ليلا فأصابه لقوة أو داء فلا يلومن إلا نفسه ، وقال بعض الأطباء : احذر أن تجمع بين البيض والسمك ، والحذر من دخول الحمام عقب الامتلاء ، وإياك من إدخال الطعام على الطعام ، وقد أطنب فيما يشبه هذه الأبحاث فعليك به إن أردته . وفى رد المحتار لشيخ مشايخنا ابن عابدين قال : ست تورث النسيان : سؤر الفأرة وإلقاء القملة وهى حية والبول فى الماء الراكد وقطع القطار(١) . ومضغ العلك وأكل التفاح ، ومنهم من ذكره حديثا لكن قال أبو الفرج ابن الجوزى إنه حديث موضوع ، وإطلاق التفاح هنا موافق لما فى كتب الطب من أن أكله مورث للنسيان ، وذكر بعضهم الحديث مقيد بالتفاح الحامض .

تتمة : زاد بعضهم مما يورث النسيان أشياء منها العصيان والهموم والأحزان بسبب الدنيا وكثرة الاشتغال بها ، وأكل الكزبرة الرطبة والنظر إلى المصلوب ، والحجم فى نقرة القفا ، واللحم الملح والخبز الحامى والأكل من القدر ، وكثرة المزح والضحك بين المقابر ، والوضوء فى محل الاستنجاء ، وتوسد السراويل أو العمامة ، ونظر الجنب إلى السماء ، وكنس البيت بالخرق ، ومسح وجهه أو يديه بذيله ، ونفض الثوب فى المسجد ، ودخوله باليسرى ، وخروجه باليمنى ، واللعب بالمذاكير ، أو الذكر حتى ينزل ، والنظر إليه والبول فى الطريق أو تحت شجرة مثمرة أو فى الماء الراكد ، أو فى الرماد ، والنظر إلى الفرج أو فى مرآة الحجام ، والامتشاط بالمشط المكسور وغير ذلك انتهى . وقد ألف بعضهم رسالة فى أشياء تجلب الفقر وأشياء تورث النسيان وأشياء تضر بالأبدان ، فمنها ما تقدم ذكره ، ومنها مما يورث الفقر التهاون فى صلاة الجماعة ، والمشى بين المعز والغنم ، وطول الأظفار وتقليمها بالفم واحتكار الطعام ، وحرق قشر البصل والثوم والنوم عرياناً ، وكثرة النوم والكتابة بالقلم المعقود ، وأكل الجنب ونومه ومشيه قدام شيخه وأبيه ، وندائهما باسمهما وتطيير الحمام على السطوح ، وترك القمامة - وهى - الزبل فى البيت ، فقد ورد: نظفوا أفنيتكم فإن اليهود لا ينظفون أفنيتهم . ومنه بيت العنكبوت والإسراف والتقتير، وشراء كسر الخبز من الفقراء والدعاء على الأهل بالشر ، وتخييط الثوب وهو على البدن. ومما يورث النسيان النظر فى الماء الراكد والمشى بين المرأتين، وقراءة ما

---

(١) قوله القطار ، أى الدواب اهـ .

كتب على القبور وطرح القمل وكثرة السهر ، وأكل لحم المعز ، ولبس النعل الأسود، وبوله فى المستحم . وقيل يورث الوسواس أيضاً . وكثرة شرب الخل[1] وأكل السمك ، ومما يورث الفقر والنسيان الجلوس فى عتبة الدار ونوم الضحى وتجفيف وجهه بذيله ، وتسرول القائم وتعمم القاعد ، ومنها أشياء مضرة بالبدن : الجمع بين البطيخ والعسل والرمان والهريسة ، والغسل ليلا بلا ستر عورة ، والنوم منفردا بالبيت ، وتخليل الأسنان بالقصب ، واستعمال الماء المشمس وطرح السواك بالأرض ، وحك جسمه بمقطوع ظفره قبل أن يغسله ، والحجامة على الشبع أو يوم الخميس أو يوم الجمعة أو يوم السبت أو يوم الأحد . ففى زاد المعاد لابن القيم : روى الترمذى أن خير ما يحتجمون فيه يوم سابع عشر أو تاسع عشر ويوم إحدى وعشرين ، قال ابن القيم : وإذا استعملت عند الحاجة إليها نفعت أى وقت كان ، وفى أثر : الحجامة على الريق دواء وعلى الشبع داء . وقيل : تكره يوم السبت ويوم الأربعاء ، ويقولون يوم الجمعة ، وعن أبى هريرة مرفوعاً : من احتجم يوم الأربعاء أو يوم السبت فأصابه بياض أو برص فلا يلومن إلا نفسه . وروى أن الإمام أحمد سئل عن النورة والحجامة يوم السبت والأربعاء فكرهها . وعن عبد الله بن عمر : لا تحتجموا الخميس ولا الجمعة ولا السبت ولا الأحد ، واحتجموا الاثنين وما كان من جذام ولا برص إلا نزل يوم الأربعاء . وعن نافع : احتجموا الاثنين والثلاثاء ، وقيل : تكره فى الثلاثاء أيضاً انتهى . ومنها عدم كظم الفم عند التثاؤب والالتفات عند العطاس[2] والأكل من غير إحضار الماء عنده ، ومدافعة الأخبثين أى الغائط والبول ، والنوم فى الشمس أو على سطح غير محفوظ ، وذهابه فى البرية مسافرا وحده ، فأسأله تعالى أن يحفظنا من كافة الآلام ، ويجعلنا وإياكم من المتبعين لهدى خير الأنام ، عليه وآله الصلاة والسلام . فيا أيها المتشائم بالطيور والأيام ، تشاءم من خطاياك والآثام ، واترك أفعالك التى هى أفعى لك ، وتجنب الأعمال المذمومة ، فإنها فى الآخرة مشؤمة ، فالأيام لك كالمطايا ، فأين العدة قبل المنايا ، وقد علمت أن سرية الموت لا تشبه السرايا ، وملك الموت لا يقبل الهدايا ، فعجبا

---

(١) عن جابر بن عبد الله وعن عائشة رضى الله تعالى عنهم عنه عليه الصلاة والسلام : نعم الإدام الخل . رواه فى الجامع الصغير ا هـ منه .

(٢) فإن ذلك مُضر طبا كما هو مجرب ا هـ منه .

لمؤثر الفانية على الباقية ، ولبائع البحر الخضم بساقية ، ولمختار دار الكدر على الصافية ، أيها المتوطن بيت غروره تأهب لانزعاجك ، أيها المسرور بقصوره تهيأ لإخراجك ، خذ عدتك وانهض إلى قضاء حاجتك ، قبل فراق أولادك وأزواجك ، ما الدنيا دار مقامك بل حلبة إدلاجك ، أتأمن بطش ذى البطش ، وتبارزه عالما برؤيته ولم تخش ، أنسيت الركوب على ظهر النعش ، أنسيت النزول فى بيداء الدبيب والوحش ، أنسيت الحلول فى لحد خشن الفرش ، يا من لا يصبر للقضاء ولا على خدش ، يا مغتر بزخرف الهوى قد ألهاه النقش ، يا من إذا وزن طفف وإذا باع غش، إذا جنيت على نفسك فعلى من الأرش ، كن متيقظاً فإنك بعين ذى العرش ، يا هذا عليك بالجد والاجتهاد ، وخل هذا الكسل والرقاد ، فطريقك لا بد له من زاد :

انهض إلى المعالى		واجسر ولا تبالى
وخذ من الزمان		حظا فأنت فان
المجد بالمخاطرة		والنصر بالمصابرة
ما للورى فى غفلة		قد خدعوا بالمهلة
ألا لبيب يعقل		ألا جهول يسأل
أأنتم فى ريبة		ما أعظم المصيبة
دنياكم حبيبة		فى حسنها رطيبة
لكنها غدارة		خداعة غراره
ليس لها حبيب		زوالها قريب
كالمومس البغى		تلبس كل زى
ملولة خوانة		ليس لها أمانة
عزيزها ذليل		كثيرها قليل
تفرق الأحبابا		تشتت الأترابا
حرب لمن سالمها		غل لمن لازمها
لقاؤها فراق		وعرسها طلاق
ووصلها صدود		ووعدها وعيد

وصالهـــا عنـــاء	صـــدودهـــا بلاء
شرابهـــا ســراب	نعيمهـــا عـــذاب
إن أقبلـــت ففتنـــة	أو أدبـــرت فمحنة
أخلاقهـــا مذمومة	لذاتـهـــا مسمومة
يحــظى بها الجهال	وينعـــم الأنـــذال
يشـــقى بها اللبيب	ويتعـــب الأديـــب
فخـــل عنها يا فتى	إلى متـــى إلى متى

اللهم إنا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء ، ونسألك الفوز فى القضاء ، وعيش السعداء ، والنصر على الحساد والأعداء ، اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين ، اللهم إنا نسألك إيمانا يباشر قلوبنا ، حتى نعلم أنه لا يصيبنا إلا ما كتب لنا ، ورضنا بما قسمت لنا ، ونسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، وارحمنا والمسلمين ، وصل على محمد وآله أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

المجلس الثانى والأربعون
فى شعب الإيمان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله [(١)] مبلغ الراجى فوق مأموله ، ومعطى اللاجىء زيادة على مسئوله ،

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى لا واضع لما رفع ، ولا رافع لما وضع ، ولا واصل لما قطع ، ولا مفرق لما جمع ، سبحانه من مقدر ضر ونفع ، وحكم فالكل تحت حكمه كيف وقع ، أمرض حتى ألقى على شفا ثم شفى الوجع ، وواصل من شاء ومن شاء قطع ، أحمده على ما أعطى ومنع ، وأشكره أن كشف للبصائر سر الخدع ، وأشهد أنه واحد أحكم ما صنع ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله والكفر علا وارتفع ، ففرق بمجاهدته من شر ما اجتمع ، وأبان به شعب الإيمان لمن اقتنى سبيله واتبع ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر الذى نجم نجم شجاعته يوم الردة وطلع ، وعلى عمر الذى عز الإسلام به وامتنع ، وعلى عثمان المقتول ظلما وما ابتدع ، وعلى على الذى دحض الكفر بجهاده وقمع ، وعلى جميع آله وأصحابه ما سجد مصل وركع ، وسلم تسليما . أما بعد، ا هـ منه .

المنان على التائب بصفحه وقبوله ، خلق الآدمى وأنشأ له دارا لحلوله ، وجعل الدنيا مرحلة لنزوله ، فتوطنها من لم يعرف شرف الدار الأخرى لخموله ، أو ما ترى غربان البين تنوح على طلوله ، ارحلوا عنها بإيمان كامل فرب قفر يخاف من غوله ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، أحمده على نيل الهدى وحصوله ، وأقر بوحدانيته إقرار عارف بالدليل وأصوله ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الذى يبغضه المبتدع بفضوله ، وعلى عمر حامى الإسلام بسيف عزم لا يخاف من فلوله ، وعلى عثمان الصابر على البلاء حين نزوله ، وعلى ابن عمه على بن أبى طالب الصائل بشجاعته قبل أن يصول بنصوله ، وعلى سائر آله وأصحابه الفائزين من الإيمان بشعبه وأصوله ، صلاة وسلاما دائمين ما تردد النسيم بين شماله وجنوبه وقبوله .

أما بعد : فأروى بسندى إلى المولى الهمام ، محدث الإسلام ، أبى عبد الله بن إبراهيم بن إسماعيل بن بردزبه الجعفى البخارى ، لازال صيب الغفران على ضريحه غاديا وسارى ، فإنه قال فى كتابه الصحيح ، الحرى بالترجيح ، باب أمور الإيمان : حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا أبو عامر العقدى قال : حدثنا سليمان بن بلال عن عبد الله بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : الإيمان بضعة وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : قد روى هذا الحديث أيضاً الإمام مسلم فى صحيحه، وفى رواية بضع وسبعون شعبة أعلاها ، وفى رواية أرفعها ، وقوله بضعة، وفى بعض النسخ بضع بكسر الباء ويجوز الفتح ، هو ما بين الثلاثة والتسعة، ولا يستعمل إلا مع العشرة أو العشرين إلى التسعين ، والشعبة بضم الشين غصن الشجرة وفرع كل أصل ، والمراد هنا الخصلة ، قال العلماء : شبه النبى صلى الله تعالى وسلم الإيمان بشجرة ذات أغصان وشعب ، والمعنى أن الإيمان يتشعب من شعب كثيرة كما يتشعب من الشجرة أغصان ، فيقال لا إله إلا الله شعبة ، والصلاة شعبة ، والحياء شعبة ، وهلم جرا ، ولما كان أكثر المؤمنين غافلين عن تعداد هذه الشعب ومعرفتها لزم أن أبينها إن شاء الله تعالى وأعدها ، وأجعلها مع ما يلزم بيانه

كرءوس المسائل ، وأقنع فى كل شعبة بالاستدلال فى آية كريمة ، أو حديث صحيح مختصراً ذلك من كلام الشيخ أبى حفص عمر القزوينى ، الذى اختصره من كتاب شعب الإيمان للإمام أحمد بن الحسين البيهقى ؛ لأن بيان هذه الشعب واجب على العلماء، وتعلمها فرض على الجهلاء ، فاسمع ما نعده عليك ، وهى أمانة سلمتها إليك . الأولى الإيمان بالله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمَنوا آمنوا بالله**﴾، وقال عليه الصلاة والسلام : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله من قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ، وقوله عليه الصلاة والسلام : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ، الثانية الإيمان برسله ، الثالثة الإيمان بملائكته ، الرابعة الإيمان بالقرآن وجميع كتبه المنزلة ، وهذه كلها لحديث جبريل ، وقوله تعالى: ﴿ **والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ الخامسة الإيمان بالقدر خيره وشره من الله عز وجل لقوله تعالى : ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ ولحديث جبريل أيضاً المتقدم فى الدروس الماضية، السادسة الإيمان باليوم الآخر لقوله تعالى: ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** ﴾ قال الحليمى : ومعناه التصديق بأن لأيام الدنيا آخراً وأنها منقضية ، ففى الاعتراف بانقضاء العالم اعتراف بابتدائه ، إذ القديم لا يفنى ، ولا يتقدم ولا يتغير . السابعة الإيمان بالبعث لقوله تعالى : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير**﴾ . الثامنة الإيمان بالحشر بعد البعث من القبور إلى الموقف لقوله تعالى : ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ وفى الحديث : يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه . التاسعة الإيمان بأن دار المؤمنين الجنة ودار الكافرين النار ، للآيات العديدة ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، ويقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة. العاشر الإيمان بوجوب محبة لله عز وجل لقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ ولقوله عليه السلام : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ،

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن توقد له نار فيقذف فيها . وكانت رابعة إذا غلب عليها حال الحب تقول :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه　　هـذا محال فى الفعال بديع

لـو كان حبك صادقاً لأطعته　　إن المحب لمن يحـب مطيـع

الحادية عشرة الإيمان بوجوب الخوف من الله عز وجل لقوله تعالى : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ . الثانية عشرة الإيمان بوجوب الرجاء من الله تعالى لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **يرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ وقوله تعالى : ﴿**قل يا عبادى الذين أسرفوا لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد ، الثالثة عشرة الإيمان بوجوب التوكل على الله عز وجل لقوله تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ وفى الصحيحين فى سؤال أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم له عن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام : هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال : أنت منهم ، ثم قام رجل فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم يا رسول الله ، فقال : سبقك بها عكاشة . ومن جملة التوكل تفويض الأمر إليه عز وجل والثقة به مع ما قدر له من التسبب فلا منافاة بين التوكل وتعاطى أسباب المعيشة، فقد روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال : دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك ولا خير فى امرئ بلا درهم . الرابعة عشرة الإيمان بوجوب حب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لحديث أنس : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين . وقال له رجل : إنى أحب الله ورسوله . فقال : أنت مع من أحببت . الخامسة عشرة الإيمان بوجوب تعظيم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وتبجيله وتوقيره لقوله تعالى : ﴿ **وتعزروه وتوقروه** ﴾ وقوله تعالى : ﴿**لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ .

قلت : وينبغى أن يلحق هنا حب آل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وذريته وزوجاته وصحابته رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ويلتحق بذلك حب العرب ،

قال فى الصواعق : أخرج البيهقى والديلمى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من ذاته ، وأخرج الديلمى وأبو الشيخ ، من لم يعرف حق عترتى والأنصار والعرب فهو لإحدى ثلاث إما منافق وإما ولد زنية وإما امرؤ حملت به أمه فى غير طهر . وأخرج الديلمى : من أحب الله تعالى أحب القرآن ، ومن أحب القرآن أحبنى ومن أحبنى أحب أصحابى وقرابتى . انتهى . وروى السيوطى فى الجامع الصغير عن أنس : حب العرب إيمان وبغضهم نفاق . وفى رواية أخرى : وبغضهم كفر ، فمن أحب العرب فقد أحبنى ومن أبغض العرب فقد أبغضنى ، قال الحليمى : فمن فضل العجم عليهم فقد آذى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن آذاه فقد آذى الله سبحانه وتعالى . السادسة عشرة شح المرء بدينه لحديث أنس : ثلاث من كن فيه ، الحديث المتقدم فى العاشرة . السابعة عشرة طلب العلم وهو علم الدين كالعقائد والفقه والحديث لقوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماءُ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العِلم درجات** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ الثامنة عشرة نشر العلم لقوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** ﴾ التاسعة عشرة تعظيم القرآن المجيد بتعلمه وتعليمه وتجويده وحفظ أحكامه وتبجيل أهله وحفاظه ، قال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ وروى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه : خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، وروى عبد الله بن عمر : لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله هذا الكتاب فقام به آناء الليل والنهار ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل والنهار . العشرون الطهارة لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** ﴾ الآية ، ولحديث أبى مالك الأشعرى : الطهور [1] شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك.

وليعلم أن الوضوء الصحيح هو ألا يبقى لمعة فى أعضاء الوضوء لم يصلها الماء فينبغى للمتوضئ ألا يبقى وسخا فى أظفاره ، وأن يدلك يديه ورجليه ، وأن يتجاوز

---

(١) ولذا قال كثير من العلماء أن من صلى بغير طهارة متعمداً يكفر . ا هـ منه .

غسل المرفقين والكعبين ، لقوله عليه الصلاة والسلام : ويل للأعقاب من النار ، ولقد أحسن القائل :

ستأتى الناس فى العرصات سكرى بـــلا أثر يكـــون لهـــم مزينـــا
وتـــأتى أمـــة المخـــتار غـــرا بآثـــار الوضـــوء محـــجـــلينا

الحادية والعشرون الصلوات الخمس ، لقوله تعالى : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا** ﴾ ولحديث ابن مسعود قال : سألت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : الصلاة لوقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . ولحديث جابر : إن بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة . الثانية والعشرون الزكاة لقوله تعالى : ﴿ **أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ . الثالثة والعشرون الصيام لقوله تعالى : ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام : بنى الإسلام على خمس ، الحديث . الرابعة والعشرون الاعتكاف لقوله تعالى : ﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود** ﴾ ولحديث : من اعتكف فواق ناقة فكأنما أعتق رقبة . الخامسة والعشرون الحج لقوله تعالى : ﴿**ولله على الناس حج البيت** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ ، ولحديث : من لم يحبسه مرض أو حاجة ظاهرة أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانياً . السادسة والعشرون الجهاد لقوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** ﴾ ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله تعالى العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. السابعة والعشرون المرابطة فى سبيل الله ، وهى الإقامة فى وجه العدو مستعدا له لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾ ، ولحديث : رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . الثامنة والعشرون الثبات للعدو وترك الفرار من الزحف لقوله سبحانه : ﴿ **إذا لقيتم فئة فاثبتوا** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿**إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار** ﴾ الآية . الثلاثون العتق لقوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما العقبة * فك رقبة** ﴾ ، ولحديث أبى هريرة : من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه .

الحادية والثلاثون الكفارات الواجبات بالجنايات وهى بالكتاب والسنة أربع كفارات

القتل وكفارة الظهار وكفارة اليمين وكفارة المسيس فى صوم رمضان ، ومما يقرب منها ما يجب باسم الفدية لأنها إما عن ذنب سبق أو يراد بها التقرب إلى الله تعالى بشىء يعفى أثر أمر قد وقع ذنبا كان أو غير ذنب . الثانية والثلاثون الإيفاء بالعقود لقوله تعالى : ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ قال ابن عباس : يعنى ما أحل الله وما حرم ، وما فرض وما حد فى القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان** ﴾ ولحديث ابن عمر فى الصحيحين : أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر . وفى رواية أخرى وإذا ائتمن خان ، الثالثة والثلاثون تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها لقوله تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾ الرابعة والثلاثون حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه من غيبة ونميمة وكذب ونحو ذلك لقوله تعالى : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، الخامسة والثلاثون أداء الأمانة إلى أهلها لقوله تعالى : ﴿**فليؤد الذى ائتمن أمانته** ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام : أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك ، ومنها تولية المناصب والأعمال لأصحابها ، السادسة والثلاثون تحريم قتل النفس والجنايات عليها لقوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه** ﴾ الآية . السابعة والثلاثون تحريم الفروج وما يجب فيها من التعفف لقوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم** ﴾ أى أطهر ، ولحديث الصحيحين : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن . الثامنة والثلاثون قبض اليد عن الأموال المحرمة ، ويدخل فيه تحريم السرقة وقطع الطريق وأكل الربا وأخذ الرشا ، وهدية القضاة ونحوهم من الحكام ، والتطفيف وكل ما لا يستحقه شرعاً لقوله تعالى : ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام : لعن الله الراشى والمرتشى والرائش بينهما . التاسعة والثلاثون وجوب التورع عن المطاعم والمشارب والاجتناب عما لا يحل

منهما كالميتة والخمر والنبيذ والحيوانات التى لا تؤكل ، لقوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية** ﴾ الآية . ولقوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾ ولحديث عائشة : كل شراب أسكر فهو حرام ، ولحديث : من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب منها حرمها فى الآخرة ، وعن عبد الله بن إدريس قوله :

كـــل شـــراب مسكر كثيره ... من تمر أو من عنب عصيره

فــإنـــه محـــــرم يسيــــره ... إنى لكم من شـــره نذيــره

الأربعون تحريم الملابس والزى [(١)] والأوانى وما يكره منها ؛ لحديث أنس : من لبس الحرير ، يعنى فى الدنيا ، فليس يلبسه فى الآخرة ، ولحديث حذيفة : الحرير والديباج وآنية الذهب والفضة لهم [(٢)] فى الدنيا ، ولكم فى الآخرة . الحادية والأربعون تحريم الملاعب والملاهى المخالفة للشريعة ، ومنه التغنى المحظور ومنه ما يفعله المؤذنون فى المساجد ونحوها من التغنى بالأبيات المشتملة على ذكر الولدان والنساء ، ومنه دق الناى والعود وشبههما لقوله تعالى : ﴿ **قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة** ﴾ ولحديث مسلم : من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده فى لحم خنزير ودمه . الثانية والأربعون الاقتصاد فى النفقة وتحريم الإسراف لقوله تعالى : ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** ﴾ ولحديث مسلم : نهى عن ثلاث ، قيل قوال وإضاعة المال وكثرة السؤال . الثالثة والأربعون ترك الغل والحسد لقوله تعالى : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾ قال الحسن : هو أول ذنب كان فى السماء وأول شىء كان فى الأرض من ابنى آدم على ما قيل ، وعن الأحنف بن قيس : خمس هن كما أقول : لا راحة لحسود ولا مروءة لكذوب ، ولا وفاء لملول ، ولا حيلة لبخيل ، ولا سؤدد لسيئ الخلق . وعن المبرد أنه أنشد :

عين الحسود عليك الدهر حارسة ... تبـــدى المساوى والإحسان تخفيه

يلقـــاك بالبشـــر يلقيه مكاشـــرة ... والقلـــب منكتـــم فيه الذى فيه

---

(١) قوله : والزى يعنى على الرجال كما تقدم ، ا هـ منه .

(٢) لهم أى للكفار ا هـ منه .

الرابعة والأربعون تحريم أعراض الناس وما يجب من ترك الوقيعة فيها لقوله تعالى: ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ﴾ ولحديث الصحيحين : لا يرمى رجل رجلاً بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك . الخامسة والأربعون إخلاص العمل لله عز وجل وترك الرياء لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ وعن عيسى عليه السلام : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته (١) وليمسح شفتيه وليخرج إلى الناس حتى كأنه ليس بصائم ، واذا أعطى بيمينه فليخفه عن شماله ، وإذا صلى أحدكم فليسدل ستر بابه فإنه تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

قلت : ولذا ذكر الفقهاء أن صلاة النوافل فى البيوت أفضل . وعن ابن الأعرابى أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

السادسة والأربعون السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة ؛ لحديث جابر : من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن . السابعة والأربعون معالجة كل ذنب بالتوبة لقوله تعالى : ﴿ توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ الثامنة والأربعون القرابين وهى الهدى والأضحية والعقيقة لقوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ والبُدْن جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ ولحديث الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : من ضحى أضحية طيبة بها نفسه محتسباً الأضحية كانت له حجابا من النار ، ولحديث : الولد مرهون بعقيقته . فعليكم إخوانى بالتمسك بهذه الشعب ، فإنها العروة الوثقى عند حسن المنقلب ، فسبحانه من اختار أقواما للإفادة ، فصارت نهمتهم فى تحصيل الاستفادة ، وما زالت بهم الرياضة حتى تركوا العادة ، شغلتهم مخاوفهم عن كل غادة ، وأنالهم المقام الأسنى للذين أحسنوا الحسنى

(١) وهذا فى غير الفرض وإلا فلا رياء فى الفرائض وإنما الأعمال بالنيات ا هـ منه .

وزيادة، كل منهم قد هجر مراده ، وعلت همومهم فطلبوا السيادة ، وعاملوا محبوبهم يرجون وداده ، رفعوا مكتوب الحزن وجعلوا الدمع سداده ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، رفضوا الدنيا شغلا بالدين ، وسلكوا منهاج المهتدين ، وسابقوا سابقى العابدين ، فصاروا أئمة للمريدين ، وقادة لو رأيتهم والليل قد سجى ، وقد أقبلوا إلى باب المرتجى ، فلم يجدوا ذلك الباب [1] مرتجاً ، حلفوا فى ظلام الدجى على سهر الوسادة ، سبحان من أنعم عليهم وأفادهم وأعطاهم مناهم وزادهم ، ما ذاك بإرادتهم بل هو أرادهم ، سبقت إرادتهم تلك الإرادة ، أجرى لهم أجرا لا يوازي ، ووهب لهم في مفازة الخطر مفازاً ، وأنجز موعدهم يوم اللقا إنجازا ، وجازى عباده على سابق للعبادة ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . اللهم يا من سبقت له بالخير والشر الإرادة ، اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ووفقنا للطاعة والعلم والعبادة ، وثبتنا عند الموت على الشهادة ، واجعلنا من الفرقة الناجية التى هى للسنة منقادة ، واحفظنا من بدع أهل الأهواء فإنها بئست العادة ، واحشرنا يوم الفزع الأكبر مع الصالحين والعلماء العاملين من أهل الشهادة .

* * *

المجلس الثالث والأربعون
فى شعب الإيمان أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله المنفرد بالعز والجلال ، المتفضل بالعطاء والإفضال ، مسخر السحاب الثقال ، مربى الزرع تربية الأطفال ، جل عن مثل ومثال ، وتعالى عن الكفر والخيال، قديم لم يزل ولا يزال ، يتفضل بالإنعام فإن شكر زاد ، وإن لم يشكر زال، أحمده على كل حال ، وأشهد أنه الواحد الأحد الكبير المتعال ، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من وعظ وبشر وأنذر وقال ، صلى الله تعالى عليه وسلم على ممر الأيام والليال ، وعلى صاحبه أبى بكر باذل النفس والمال ، وعلى عمر العادل فما جار ولا مال، وعلى عثمان الثابت للشهادة ثبوت الجبال، وعلى أخيه

---

(١) قوله : مرتجاً أى مغلقاً ا هـ منه .

وابن عمه عليّ الذى نزل فيه ويطعمون الطعام فيا له فخر لا ينال ، وعلى بقية القرابة والصحابة والتابعين ، ومن حاز شعب الإيمان من النساء والرجال .

أما بعد : فقد روى فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قد تقدم الكلام فى الدرس الماضى على كثير من هذه الشعب ، وبقى منها شعب يلزم بيانها فى هذا الدرس فسنذكرها لكم إن شاء الله تعالى ، فأما الشعبة التاسعة والأربعون فهى طاعة أولى الأمر لقوله تعالى : ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ قيل : هم أمراء السرايا وقيل : هم العلماء ، ولحديث : من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى . ولحديث أبى ذر : يا أبا ذر اسمع وأطع ولو عبدا حبشيا مجدع الأطراف . الخمسون التمسك بما عليه الجماعة لقوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ ، ولحديث مسلم: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات ميتة جاهلية . الحادية والخمسون الحكم بالعدل لقوله تعالى : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ الثانية والخمسون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ وقوله تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾ الآية ، ولحديث أبى سعيد : من رأى منكم منكراً فلينكره ، أو فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . الثالثة والخمسون التعاون على البر والتقوى لقوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ ولحديث : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . الرابعة والخمسون الحياء لحديث : إن الحياء من الإيمان والإيمان فى الجنة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم لأصحابه : استحيوا من الله قالوا : إنا نستحيى من الله تعالى يا رسول الله والحمد لله ، قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله تعالى حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من

الله تعالى حق الحياء ، قال : ومعنى أن تحفظ الرأس إلخ أى ما حفظه من السمع والبصر واللسان فلا يستعملها إلا فيما يحل ، وقوله والبطن وما حوى يريد **لا يجمع** فيه إلا الحلال ولا يأكل إلا الطيب ، أو يراد بحفظ الفرج والقلب والرجل . وفى صحيح البخارى: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت . الخامسة والخمسون بر الوالدين لقوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير** ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام : أفضل الأعمال الصلاة لوقتها وبر الوالدين .

السادسة والخمسون صلة الأرحام لقوله تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ ولحديث أنس : من أحب أن يبسط له الرزق وينسأ له فى أجله فليصل رحمه . ولحديث جبير : لا يدخل الجنة قاطع ، أى للرحم ، قال أبو حفص القزوينى : ولا فرق بين أن يكون برا أو فاجرا . السابعة والخمسون حسن الخلق ، ويدخل فيه كظم الغيظ ، ولين الجانب والتواضع ، لقوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ ولحديث : خياركم أحسنكم أخلاقا . وفى رواية : إن من أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقا . الثامنة والخمسون الإحسان إلى المماليك لحديث : إن إخوانكم خولكم جعلهم **الله** تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم عليه . التاسعة والخمسون حق السادة على المماليك لحديث ابن عمر أن رسول **الله** صلى **الله** تعالى عليه وسلم قال : إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة **الله** عز وجل فله أجره مرتين، وفى سنن أبى داود : العبد الآبق لا تقبل له صلاة حتى يرجع إلى مولاه . الستون حقوق الأولاد والأهلين ، وهو قيام الرجل على ولده وأهله وتعليمه إياهم من أمور دينهم ما يحتاجون إليه ، لقوله تعالى : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم نارا**﴾ الآية ، قال الحسن : أى مروهم بطاعة **الله** وعلموهم الخير ، وقال على رضى **الله** تعالى عنه : علموهم وأدبوهم ، ولحديث أنس فى مسلم : من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا ، وضم أصبعيه ، وليعلم أنه ينبغى له أن يعلم ولده حرفة وصنعة يكتسب بها معيشته فإن الرجل ينبغى له أن يعمل للدنيا

وللآخرة . الحادية والستون مقاربة أهل الدين ومودتهم وإفشاء السلام [1] بينهم ، والمصافحة لهم ، ونحو ذلك من أسباب تأكيد المودة لقوله تعالى : ﴿ **لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ ولحديث أبى هريرة : والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم . وحديث أبى قتادة قال : قلت لأنس رضى الله تعالى عنه : أكانت المصافحة فى أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : نعم ، وحديث أبى هريرة إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى . الثانية والستون رد السلام لقوله تعالى : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ ولحديث أبى سعيد الخدرى : إياكم والجلوس فى الطرقات ، قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . الثالثة والستون عيادة المريض، لحديث البراء : أمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسبع ونهانا بسبع ، أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، ورد السلام ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعى ، ونهانا عن حلقة الذهب أو قال خاتم الذهب ، وآنية الذهب والفضة . الحديث ، ولحديث ثوبان : عائد المريض فى غرفة الجنة ، قال القزوينى : ولا فرق بين أن يكون برا أو فاجرا لكن ينبسط إلى البر وينقبض عن الفاجر . الرابعة والستون الصلاة على من مات من أهل القبلة لحديث ثوبان : من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان ، القيراط مثل أحد . الخامسة والستون تشميت العاطس لحديث مسلم عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه: إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه ، وإذا لم يحمد الله فاشتموه . السادسة والستون مباعدة الكفار والمفسدين والغلظة على الفاسقين لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم**

---

(١) قوله وإفشاء السلام ، والسلام هو باللسان ، فقد روى فى الجامع الصغير عن جابر : لا تسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليمهم إشارة بالكفوف والحواجب ، قال النووى : وتحية المجوس الانحناء ، فلا يسلم إلا باللسان إلا إذا منع مانع كخرس وصلاة وصمم ، وتمام البحث فى شرح المناوى ا هـ منه .

من الحق ﴾ الآية ، ولحديث أبى هريرة : إذا لقيتم المشركين فى طريق فلا تبدءوهم بالسلام واضطروهم إلى أضيقها ، وحديث أبى سعيد : لا يأكل طعامك إلا تقى ، ولا تصحب إلا مؤمناً ، وليعلم أن مجاوزة الحد الذى حده الشارع عليه الصلاة والسلام ممنوعة ، فعدم موالاتهم وتعظيمهم ومحبتهم لا يستلزم الجور عليهم ، فقد وردت أخبار صحيحة فى عدم أذية أهل الذمة فلا تغفل . السابعة والستون إكرام الجار لقوله تعالى : ﴿ والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ﴾ قيل فى التفسير : ذى القربى الجار الملاصق ، والجار الجنب البعيد غير الملاصق ، والصاحب بالجنب الرفيق فى السفر . وعن ابن عباس ومجاهد : الجار ذى القربى الذى بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب الأجنبى عنك ، والصاحب بالجنب الرفيق فى السفر ، قيل والحضر . وعن على وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما : الصاحب بالجنب المرأة ، ولحديث عائشة رضى الله تعالى عنها : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . الثامنة والستون إكرام الضيف لحديث الصحيحين : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا : وما جائزته ؟ قال : يومه وليلته ، والضيافة ثلاث فما كان وراء ذلك فهو صدقة . التاسعة والستون الستر على أصحاب الذنوب لقوله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم ﴾ ولحديث ابن عمر فى الصحيحين : المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة. السبعون الصبر على المصائب وعما تنزع النفس إليه من لذة وشهوة لقوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ قال مجاهد أراد بالصبر الصوم ، وقوله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ولحديث ابن مسعود : ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حت الله (١) عنه من سيئاته كما تحتُّ الشجرة ورقها . الحادية والسبعون الزهد وقصر الأمل لقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ وقوله تعالى : ﴿وفى السماء

---

(١) فى القاموس حته فركه وقشره فانحت ، وتحات الورق سقطت كانحتت وتحاتت ا هـ منه .

رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .
ولقد أحسن القائل :

خـــبز ومـــاء وظل هذا النعيم الأجـــل
جـــحدت نعمة ربى إن قلت : إنى مقل

الثانية والسبعون الغيرة وترك المذاء [١] لقوله تعالى : **﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا* وقودها الناس والحجارة ﴾** وقوله تعالى : **﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾** ولحديث البخارى : إن الله عز وجل يغار وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عز وجل ، ولحديث أبى سعيد : الغيرة من الإيمان وإن المذاء من النفاق ، قال الحليمى : هو أن يجمع بين الرجال والنساء ثم يخليهم يماذى بعضهم بعضا ، وأخذ من المذى ، وقيل : هو إرسال الرجال مع النساء ، من قولهم مذيت الفرس إذا أرسلته ترعى . الثالثة والسبعون الإعراض عن اللغو لقوله تعالى : **﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون ﴾** وقوله تعالى : **﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾** واللغو هو الباطل الذى لا يعنيه ولا يكون لقائله فيه فائدة، وربما كان وبالا عليه . الرابعة والسبعون الجود والسخاء لقوله تعالى : **﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء ﴾** ولما فى الصحيحين : ما من يوم يصبح العباد إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم ائت ممسكا تلفا . الخامسة والسبعون رحم الصغير وتوقير الكبير ، لحديث مسلم : من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ، وحديث أبى داود من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا ، ولحديث الصحيحين : جعل الله تعالى الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه . السادسة والسبعون إصلاح ذات البين ، لقوله تعالى : **﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً**

---

(١) فى القاموس والمذاء كسماء جمع الرجال والنساء وتركهم يلاعب بعضهم بعضا ، أو هو الدياثة، وأمذى قاد على أهله ا هـ منه .

عظيما ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ ولحديث الصحيحين عن أم كلثوم بنت عقبة : ليس الكذاب الذى يصلح بين اثنين فيقول خيرا أو ينمى خيرا ، قالت : ولم أسمعه عليه الصلاة والسلام يرخص فى شىء مما يقوله الناس كذبا إلا فى ثلاث : الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها . السابعة والسبعون أن يحب الرجل لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ، لحديث جرير بن عبد الله رضى الله تعالى عنه : بايعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم ، قال أبو حفص القزوينى : ويدخل فيه إماطة الأذى عن الطريق المشار إليه فى حديث أبى هريرة المتقدم : أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، ا هـ .

ولنذكر ما يتعلق بهاتين الشعبتين فأما الشعبة الأولى فهى الأصل الراسخ ، والغصن الأعظم الشامخ ، لقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ ولحديث الصحيحين عن أنس قال : كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل فقال : يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار ، قال : يا رسول الله ألا أخبر بها الناس فيستبشرون ، قال : إذاً يتكلوا . فأخبر بها معاذ عند موته تأثما (١) ، وفى الصحيحين عن عتبان بن مالك عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن الله قد حرم النار على من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله ، وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق . قال : وإن زنى وإن سرق ، قالها ثلاثاً ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر ، فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر . وعن أبى ذر أيضاً قال : قلت : يا رسول الله ، علمنى عملاً يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار ، قال : إذا عملت سيئة فاعمل حسنة ، فإنها عشر أمثالها ، قلت : يا رسول الله لا إله إلا هو من الحسنات ، قال : هى أحسن الحسنات ، وهى تمحو الذنوب والخطايا ، وعن أم هانئ عن

(١) تأثماً أى خروجاً من الإثم ، لأنه علم مسألة فلا يكتمها ا هـ منه .

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : لا إله إلا الله لا تترك ذنباً ولا يسبقها عمل، وفى المسند أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأصحابه : جددوا إيمانكم . قالوا : كيف نجدد إيماننا ؟ قال : قولوا لا إله إلا الله . وفى المسند أيضاً أن موسى عليه السلام قال : يا رب علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به ، قال : يا موسى قل لا إله إلا الله ، قال : يا رب كل عبادك يقولون هذا ، قال : قل لا إله إلا الله قال : لا إله إلا أنت إنما أريد شيئاً تخصنى به ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله . وكذلك ترجح بصحائف الذنوب كما فى حديث السجلات والبطاقة ، وقد أخرجه الإمام أحمد والنسائى والترمذى ، ومجمله أنه يؤتى بسجلات شخص يوم القيامة عند وزن الأعمال وليس فيها حسنة ، ثم يؤتى ببطاقة فيها كلمة التوحيد فتوضع فى كفة الميزان فترجح تلك البطاقة على تلك السجلات ، ولها فضائل كثيرة ولقائلها حسنات وفيرة ، فنسأل الله تعالى أن يميتنا على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن يحشرنا عليهما ويجعلهما فى موازين حسناتنا إنه أرحم الراحمين . وأما الشعبة الأخيرة وهى إماطة الأذى عن الطريق فالمراد إزالة كل ما يؤذى المارين كالحجر والشوك والعظم والنجاسة والجيف والقشور ، وزيادة الرش وبيع المأكولات بوضعها فى الطرق والجلوس فيها ونحو ذلك مما يؤذى العابرين ، عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : عرضت على أعمال أمتى حسنها وسيئها فوجدت فى محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ووجدت فى مساوئ أعمالها النخامة تكون فى المسجد لا تدفن ، وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : نزع رجل لم يعمل خيراً قط غصن شوك عن الطريق فشكر الله تعالى ذلك له فأدخل الجنة ، وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس ، قيل : يا رسول الله من أين لنا صدقة فنتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل على حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك .

وفى رواية : وتبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وليعلم أن من جملة إماطة الأذى عن الطريق قتل المؤذيات التى فيها كالكلب الكَلِب والعقور والهوام المؤذية ، كالعقارب والحيات والوزغ وكرفع الجرصونات الخارجة من البيوت بغير وجه شرعى ، والسباطات ، ولا سيما المنخفضة المؤذية المارين ، ولنذكر بعض الأحاديث الواردة بذلك فقد روى عن سائبة رضى الله تعالى عنها أنها دخلت على عائشة رضى الله تعالى عنها فرأت فى بيتها رمحا موضوعاً فقالت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا ، قالت : أقتل به الأوزاغ فإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار لم تكن دابة فى الأرض إلا اطفأت النار عنه غير الوزغ فإنه كان ينفخ عليه فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله ، وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من قتل حية فله سبع حسنات ، ومن قتل وزغا فله حسنة ، ومن ترك حية مخافة عاقبتها فليس منا ، وعن ابن عباس عنه عليه الصلاة والسلام : من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ، ما سالمناهن منذ حاربناهن ، واختلف فى قتل الحيات قبل الإنذار، قال المنذرى : ذهب طائفة إلى قتلها فى الصحارى والبيوت بالمدينة وغيرها، وقالت طائفة : تقتل الحيات أجمع إلا سواكن البيوت ، وقالت طائفة : ينذر سواكن البيوت ، فإن بدين بعد الإنذار قتلن وما وجد منهن فى غير البيوت قتل بلا إنذار ، وقال مالك : يقتل ما وجد منها فى المساجد ، واستدل القائل بالإنذار بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئاً فحرجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه ، أى فإنه شيطان . وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سئل عن حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منهن شيئاً فى مساكنكم فقولوا أنشدكم العهد الذى أخذ عليكم نوح أنشدكم العهد الذى أخذ عليكم سليمان ألا تؤذونا فإن عدن فاقتلوهن ، وقال مالك : يكفيه أن يقول : أحرج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدو لنا ولا تؤذونا ، انتهى ، باختصار . فعليكم عباد الله بالتمسك بشعب الإيمان لتنجوا من النيران ، وتفوزوا بالجنان ، فيا من يؤمر بما يصلحه فلا يقبل، أما الشيب نذير بالموت قد أقبل ، أما أنت الذى عن أفعالك تسأل ، أما أنت تخلو فى اللحد بما تعمل ، ستعلم يوم الحساب عند العتاب من يخجل ، يا مبادرا بالخطأ توقف ولا تعجل ، يا غافلا فى بطالته ، يا من لا يفيق من سكرته ، أين ندمك على ذنوبك ، أين حزنك على عيوبك ، إلى متى تؤذى بالذنب لنفسك ،

وتضيع يومك تضييع أمسك ، لا مع الصادقين لك قدم ، ولا مع التائبين لك ندم ، هلا بسطت فى الدعاء يدا سائلة ، وأجريت فى السحر دمعا سائلة :

خدعتنا زخارف الآمال فلهــينا بها عن الآجال

نحن سفن وإنما أمهلتنا ريثمــا تستعد للترحــال

أسفا لمن إذا ربح العاملون خسر ، وإذا أطلق المتقون أسر ، من له إذا خوصم ينتصر ، ونسى يوم الرحمة فما ذكر ، فالجد الجد أيها الغافل ، فأيام العمر كلها قلائل ، لو رأيت العصاة والكرب يغشاهم ، والندم قد أحاط بهم وكفاهم ، والأسف على ما فاتهم قد أضناهم ، يتمنون العافية وهيهات مناهم ، فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ، نزل بهم المرض فألفاهم كالحرض [1] ، فانكف أملهم وانقبض ، وانعكس عليهم الغرض ، ورحمهم فى صرعتهم من عاداهم . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ، يتمنون عند الموت راحة ، ويشتهون عند الكرب استراحة ، ويناقشون على الخطا ولا سماحة ، وهم كطائر قص جناحه ، فى حبس الفزع والكرب يغشاهم ، فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ، ألم يبد أسفهم أشد ما فى العلة ، وتحسرهم على كل ما مضى من زلة ، وجبل ندمهم قد نتق كأنه ظلة ، فلو رأيتهم بعد التكبر عادوا أذلة ، وتملك أموالهم بعدهم سواهم ، فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم . ما نفعهم ما تعبوا لتحصيله وجالوا ، ولا رد عنهم ما جمعوا واحتالوا ، جاء المرض فأذلهم بعد أن صالوا ، فإذا قال العائد لأهليهم كيف باتوا ، قالوا : إن السقم قد وهاهم ، فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ، فالبدار البدار قبل الفوات ، والحذار الحذار من يوم الغفلات ، قبل أن يقول المذنب رب ارجعون ويقال فات ، ويح الغافلين عنا ما أعماهم ، فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم .

نبهنا الله تعالى وإياكم من هذه الرقدة ، وذكرنا الموت وما بعده ، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد والنبيين وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس الرابع والأربعون
فى ولادته عليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى ألبس المتقين لباس التقوى ، وتولى حفظ ملبسهم ، وآنس

(١) المريض بالهالك اهـ منه .

لعارفين أنسا حلوا فاشتغلوا بمؤنسهم ، وكان مع الصابرين لطيفا فيا طيب مجلسهم، رابتعث محمدا بالفصاحة فعاد قسهم [1] كأخرسهم ، فعارضه مسيلمة فكان فى المعارضة من أنجسهم ، فكادوه وبالغوا فأصبح أبو جهل من أبخسهم ، فرماه كلا المعادين على الدين فعادت عليهم أسهم أقوسهم ، فقلب رؤساءهم فى القليب على رجوههم ورءوسهم ، لقد كانوا يعرفون أصله ونسبته وإنه مذ نشأ فيهم من أنفسهم ، ويكفيهم ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم** ﴾ فصلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر الذى كان فى الانقياد من أسلسهم ، وعلى عمر قاهر الأكاسرة على شدة شوسهم وشرسهم [2] ، وعلى عثمان الذي هو من أرفقهم وأكيسهم ، وعلى على محبوب أهل السنة ومقدسهم ، وعلى سائر آله وأصحابه المجاهدين للكفار والماحين لرجسهم ، وسلم تلسيما .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قال المفسرون : لقد من الله على المؤمنين ، أى أنعم وتفضل عليهم وخصهم بالذكر لكونهم المنتفعين ببعثته ، وإلا فهو رحمة لكافة العالمين ، وقوله تعالى : ﴿ **من أنفسهم** ﴾ أى من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم أو من بنى آدم لا ملكا ولا جنيا ، وقرئ ﴿ **من أنفسهم** ﴾ بفتح الفاء أى من أشرفهم؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم من أشرف القبائل وبطونها ، وهو أمر معلوم ، ينبغى اعتقاده لكل مؤمن ، قال الوالد عليه الرحمة : وقد سئل الشيخ ولى الدين العراقى : هل العلم بكونه صلى الله تعالى عليه وسلم بشرا ومن العرب شرط فى صحة الإيمان أو من فرض الكفاية ؟ فأجاب بأنه شرط فى صحة الإيمان ، ثم قال: قال شخص : أومن برسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلى جميع الخلق لكن لا أدرى هل هو من البشر أو من الملائكة أو من الجن ، أو لا أدرى هل هو من العرب أو من العجم، فلا شك فى كفره؛ لتكذيبه القرآن وجحده ما تلقته قرون

---

(١) قس بن ساعدة الإيادى كان يضرب به المثل فى الفصاحة والبييان .

(٢) قوله شوسهم ، الشوس بالشين المعجمة وبعدها واو وسين مهملة ، النظر بمؤخر العين تكبرا أو تغيظا ، والشرس بالشين المعجمة وبعدها راء وسين مهملتان سوء الخلق وشدة الخلاف ، والأشرس الجرىء فى القتال ، ويقال : جمل لم يشرس ، لم يرض ، وأرض شرساء شديدة ، ا هـ منه .

الإسلام خلفا عن سلف ، وصار معلوما بالضرورة ، ولا أعلم فى ذلك خلافا ، فلو كان ذلك غبياً لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه ، فإن جحده بعد ذلك حكمنا بكفره ، انتهى .

وهل يقاس اعتقاد أنه عليه الصلاة والسلام من أشرف القبائل على ذلك ؟ فيجب ذلك فى صحة الإسلام أو لا يقاس فيه ، تأمل انتهى ، إذا علمت ذلك فهو عليه الصلاة والسلام النبى العربى الأبطحى الهاشمى القرشى سيد العالمين ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، واسمه شيبة الحمد ، أو اسمه عامر بن هاشم ، واسمه عمرو ، وإنما سمى هاشماً لأنه كان يهشم الثريد لقومه ، ابن عبد مناف ، واسمه المغيرة بن قصى ، تصغير قصا أى بعد ، ابن كلاب واسمه حكيم بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر ، واسمه قريش ، وإليه تنسب قريش ، فما كان فوقه فكنانى لا قرشى ، ابن مالك بن النضر واسمه قيس بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بكسر الهمزة أو بفتحه ، ويذكر أنه كان يسمع فى صلبه تلبية النبى عليه الصلاة والسلام بالحج ، ابن مضر بن نزار - بكسر النون - ابن معد بن عدنان ، ولله تعالى در القائل :

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف　　　كمـــا علـــت برسول الله عدنان

وأما أمه عليه الصلاة والسلام فهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، قال فى المواهب اللدنية : إنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية وأعلمه سبحانه بنبوته، وآدم عليه السلام لم يكن إلا بين الروح والجسد . أخرج مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن الله تعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء ، ومن جملة ما كتب فى الذكر ، وهو أم الكتاب ، إن محمداً خاتم النبيين . وروى الإمام أحمد والبيهقى عن العرباض بن سارية عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، أى طريح ملقى فى الأرض قبل نفخ الروح فيه . وعن ميسرة الضبى قال : قلت : يا رسول الله ، متى كنت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد ، أخرجه الإمام أحمد. وقال الحنبلى الحموى : زاد الحافظ البيهقى فى رواية : إن آدم عليه السلام

قال : أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لى ، فقال : إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ما خلقتك ، وهو آخر الأنبياء من ذريتك . وفى ذلك قال ابن جابر :

به قد أجـــاب الله آدم إذ دعا ونجـــى فى بطن السفينة نوح
وما ضرت النار الخليل لنوره ومن أجـــله نال الفداء ذبيح

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنه مرفوعاً : إن الله خلق السموات سبعاً فاختار العليا منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار منهم بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار . وروى الطبرانى عن ابن عمر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن الله اختار خلقه فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختارنى من العرب ، فلم أزل خيارا من خيار ، ألا من أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم . وما أحسن ما أنشدنيه لنفسه الفاضل المرحوم عبدالباقى أفندى الفاروقى الموصلى قوله :

تخـــيــــرك الله مـــن آدم ولـــولاك آدم لـــم يخـــلق
بجـبهـــته كنت نـــوراً مضيئاً كمـــا ضـــاء تاج على مفرق
لذلـــك إبليـــس لمـــا أبـــى سجـــودا لـــه بعد طرد شقى
ومـــع نوح إذ كنت فى فلكه نجـــا وبمـــن فيـــه لم يغرق
وخـــلل نـــورك صلب الخليل فبـــات وبالنـــار لم يحـرق
ومنـــك التقلب فى الساجدين بـــه الذكـــر أفصـــح بالمنطق
بمثلـــك أرحـــامها الطاهرات من النطـــف الغـــر لم تعلق
سواك مع الرسل فى إيليا (١) مـــع الـروح والجسد لم يلتق
فجـــئت مـــن الله فى أخـــذه لك العهـــد منهم على موثق
وفى الحشر للحمد ذاك اللواء على غيـــر رأسـك لم يخفق

(١) قوله فى إيليا أى بيت المقدس ، ا هـ منه .

لقد رمقت بـــك عين العمى　　وفى غير نـــورك لم ترمـــق
فيـــا لاحـــقا قـــط لم يسبق　　ويا ســـابقا قـــط لم يلحـــق
تصـــوبت من صـــاعد هابطا　　إلى صـــلب كـــل تقى نقى
فكـــان هبوطك عين الصعود　　فـــلا زلـــت منحدرا ترتقى

وروى عن على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه أنه قال : لم يبعث الله تعالى نبيا من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لئن بعث وهو حيى ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه . وقيل : إن الله تعالى لما أن خلق نور نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أمره أن ينظر إلى أنوار الأنبياء عليهم السلام فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله تعالى به ، وقالوا : يا ربنا غشينا نوره ، فقال الله تعالى : هذا نور محمد بن عبد الله إن آمنتم به جعلتكم أنبياء، قالوا : آمنا به وبنبوته ، فقال الله عز وجل : أشهد عليكم ، قالوا : نعم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ ، قال الشيخ تقى الدين السبكى: فى هذه الآية الشريفة من التنويه بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وتعظيم قدره العلى ما لا يخفى ، وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه فى زمانهم يكون مرسلا إليهم فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة ، وتكون الأنبياء عليهم السلام وأممهم كلهم من أمته عليه أفضل الصلاة والسلام ، ويكون قوله وبعثت إلى الناس كافة لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة ، بل يتناول من قبلهم أيضاً ، ويتبين بذلك معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد ، ثم قال : إذا عرفت هذا فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم نبى الأنبياء ، ولهذا ظهر ذلك فى الآخرة ، فجميع الأنبياء عليهم السلام تحت لوائه عليه الصلاة والسلام ، وفى الدنيا كذلك ، ففى ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه فى زمنهم لوجب عليه وعلى أممهم الإيمان به ، انتهى .

وروى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، أخبرنى عن أول شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ؟ قال : يا جابر ، إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فجعل ذلك النور يدور

بالقدرة حيث شاء الله تعالى ، ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ، ولا جنى ولا إنسى ، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء ، فخلق من الجزء الأول القلم ، ومن الثانى اللوح ، ومن الثالث العرش ، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أشياء، فخلق من الأول السموات ، ومن الثانى الأرضين ، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ، ومن الثانى نور قلوبهم ، وهى المعرفة بالله ، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الحديث .

وذكر الحافظ بن عبد البر أن عبد المطلب جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بينما هو نائم فى الحجر انتبه مذعوراً ، قال العباس : فتبعته وأنا يومئذ غلام أعقل ما يقال ، فأتى كهنة قريش فقال : رأيت كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهرى ولها أربعة أطراف ، طرف قد بلغ مشارق الأرض ، وطرف قد بلغ مغاربها ، وطرق قد جاوز عنان السماء ، وطرف قد جاوز الثرى ، فبينما أن أنظر إليها عادت شجرة خضراء لها نور فبينا أنا كذلك قام على شيخان فقلت لأحدهما : من أنت ؟ قال : أنا نوح نبى رب العالمين ، وقلت للآخر : من أنت ؟ قال : إبراهيم خليل رب العالمين ، ثم انتبهت ، قالوا : إن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك نبى يؤمن به أهل السموات وأهل الأرض ، ودلت السلسلة على كثرة أتباعه وأنصاره وقوتهم لتداخل حلق السلسلة ، ورجوعها شجرة يدل على ثبات أمره وعلو ذكره ، وسيهلك من لم يؤمن به كما هلك قوم نوح ، وستظهر به ملة إبراهيم ، وعلى هذا وقعت إشارة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوم خيبر حيث قال :

أنـا النبى لا كـذب   أنا ابن عبد المطلب

كأنه يقول : أنا ابن صاحب تلك الرؤية مفتخرا بها ، لما فيها من علم نبوته وعلو كلمته . قال ابن هشام فى سيرته : وزوج عبد المطلب ابنه عبد الله وكان أعز أولاده بآمنة بنت وهب ، فحملت بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت تحدث أنها أتيت حين حملت بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمدا . ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى

من أرض الشام ، ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن توفى ، وأم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حامل به ، واختلف العلماء رضى الله تعالى عنهم كم أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حملا فى بطن أمه ، فقيل تسعة أشهر ، وقيل عشرة ، وقيل ستة ، وقيل سبعة ، وقيل ثمانية ، وتوفى أبوه عبد الله وهو حمل .

وقال الواقدى وكاتبه محمد بن سعد : لا يثبت أنه توفى وهو حمل ، بل توفى بعد ولادته بسبعة أشهر والله تعالى أعلم . وقال العلامة ابن رجب فى اللطائف : واختلفوا فى أى شهر فقيل فى شهر رمضان ، وقيل فى رجب ، ولا يصح ، وقيل فى ربيع الأول وهو المشهور ، وهو قول الجمهور . والصحيح الذى عليه الجمهور أنه ولد يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول ، وهو قول ابن إسحاق وغيره . انتهى . وكان ذلك لعشر مضت من نيسان وقيل فى الحادى [1] والعشرين منه ، وذلك بالعفر من المناهل ولذا قيل :

خير المنازل فى الأبد   بين الزبـــانا والأسد

وهو مولد النبيين .

وروى عن سهل بن عبد الله قال : لما أراد الله عز وجل خلق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى بطن أمه آمنة فى شهر رجب أمر فى تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح باب الفردوس الأعلى وينادى مناد فى السموات والأرض : ألا إن النور المخزون الذى يكون منه النبى الهادى العربى القرشى التهامى محمد فى هذه الليلة يستقر فى بطن أمه آمنة ، فعلى هذا تكون مدة حمله تسعة أشهر ، والله تعالى أعلم . وفى كتاب السنن للقاضى عياض رحمه الله تعالى أن الشفاء قابلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما سقط على يديها سمعت بأذنيها قائلاً يقول : يرحمك ربك، ورأت بعينيها أنه أضاء لها ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى قصور الشام ، وولد عليه الصلاة والسلام مسرورا أى مقطوع السرة ، مختونا ، وقيل : بل ختنه جده عبد المطلب يوم سابعه ، وقيل : ختن يوم شق الملائكة قلبه عند حليمة رضى الله تعالى عنها ، وقال فى عقد الدرر أيضاً : قالت آمنة : ولدته جاثيا على ركبتيه

(١) تأمل هل هو الحادى أو الخامس أو السادس ، وحرر ا هـ .

ينظر إلى السماء ويشير إليها ، ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجداً فغطيته ببرمة لئلا يراه أحد قبل جده ، أو قالت : بإناء ، فانفلق عنه وإذا إبهامه وهو يشخب لبنا ، وسمعت قائلا يقول : أبشرى يا آمنة فقد ولدت سيد هذه الأمة . وذكر القاضى جمال الدين بن أبى الدم رحمه الله تعالى أن آمنة قالت حين ولدت محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم : خرج ساجداً رافعاً رأسه وأصبعه نحو السماء، وخرج معه نور ملأ البيت ، ودنت النجوم منه حتى ظننت أنها تسقط على الأرض ، وقد ولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل فى مكة زادها الله شرفا ، فى أيام كسرى أنوشروان فارتعد ديوانه ، وانشقت منه حيطانه ، وسقطت منه أربعة عشر شرافة بعدد من سيملك منهم من سلطان ، وخمدت نار فارس ، وغاض وادى سماوة ، وغاضت بحيرة ساوة . ولله تعالى در الفاروقى عليه الرحمة حيث يقول فى تخميسه:

فى كتـــاب الزبور نعتك يتلى ... وبلــوح التوراة وصــفك يملى
وبنـــص الإنجيل قد صح نقلا ... ما مضــت فترة من الرسل إلا
بشـرت قومها بك الأنبياء

إن خـــير القرون قرنك ينمو ... منـــه فضل كل الدهــور يعم
بـــك يزهــو عام وشهر ويوم ... تتباهـــى بك العصور وتسمو
بـــك عليـــاء بعدها علياء

جـئت للخلق رحمة يا رحيم ... فحبا الناس منك فضل عميم
كيف يخشى وجدان فقد عديم ... ويـــدا للوجـــود منـك كريم
من كـــريم آبـــاؤه كرماء

كل صـــدر منهــم بنحر علاه ... عقد مجـد فى الجيد ما أحلاه
حســب فاخـــر علينـــا تلاه ... نســـب تحـسب العلا بحلاه
قلدتهـــا نجومها الجوزاء

إن آبـــاءك الســـراة ســـوار ... أنت قطـب وهم عليك سوار
عقدتهـــم سمطـا بنان اقتدار ... حـــبذا عقد سؤدد وفخـــار
أنت فيه اليتيمة العصماء

لك فرق حكى الصباح وضيء　　منك إذ شرف الوجود مجيء

أنت بدر من الخسوف بريء　　ومحيا كالشمس منك مضيء

أسفرت عنه ليلة غراء

نجم مجد بدا بطالع سعد　　فاستوى الليل والنهار بوقد

هل علمتم ما ليلة القدر عندى　　ليلة المولد الذى كان للديـ

ن سرور بيومه وازدهار

حيث جبريل بالسموات مجد　　يعلن البشر فى ولادة أحمد

سمعت أمه : أبشرى بمحمد　　وتوالت بشرى الهواتف أن قد

ولد المصطفى وحق الهناء

روى أن أمه آمنة أرضعته ثلاثة أيام ، وقيل سبعة أيام ، وقيل : أرضعته ثويبة جارية عمه أبى لهب أياما قبل قدوم حليمة ، وفى إسلام ثويبة قولان . وأرضعته أم أيمن ، واسمها بركة جارية أبيه عبد الله . ومن مراضعه خولة بنت المنذر ، فهذه ثلاث مراضع والرابعة المشهورة بالرضاعة التى حصلت لها السعادة بكثرة الرضاعة حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية رضى الله تعالى عنها ، فإنها أسلمت وآمنت به بعد نبوته ، ومن قصتها المشهورة التى ذكرها العلماء من أصحاب المغازى والسير أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم استرضع من حليمة السعدية بعد مولده بسبعة أيام ، قالت حليمة : خرجت من بلدى مع زوجى وابن لى رضيع فى نسوة من بنى سعد ذوات حال فظيع ، نلتمس الرضعاء من ذوات البيوت فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً من القوت ، على أتان لى قمرة أركبها ومعنا شارف لنا من النوق نجذبها قد هزلت من الجوع بعد السمن ، وهى والله ما تبض بقطرة لبن ، حتى قدمنا مكة أشرف البلاد ومأوى العبَّاد من العباد ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها ذو الوجه الوسيم، فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، وحصل منا على العزم الاتفاق ، قلت لصاحبى : لأذهبن إلى أخذ ذلك اليتيم ، فلهو سيد حسيب كريم ، فذهبت إليه راجية خيره ، لأنى لم أجد طفلا غيره ، فلما أخذته ووضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب هو وأخوه وهدأ وسكن ، وشارفنا إذا بها حافل ، ، وقد أخصب ثديها الماحل ، فحلب زوجى منها وشرب ، حتى كدنا من الشبع والرى نضطرب ، وسارت أتانى مسرعة فى العودة ، بخلاف

الصفة المعهودة . فقلن لها : يا ابنة أبى ذؤيب ، أما هذه أتانك التى كانت معنا ؟ فأقول : نعم ، فيقلن : إن لها لشأنا ، وكانت غنمنا تروح شباعا لُبَّناً ، وأغنام الحى تغدو بهزال وعنا ، قالت حليمة : فلم يزل الله تعالى البركة حتى بلغ سنتيه ، وكان يشب شبابا لا تشبه الغلمان ، فلما بلغ السنتين كان غلاماً جفراً ، والجفر كالجذع من الغنم ماله أربع سنين ، وقيل فيه ذلك لأنه كان كمن بلغ تلك السنين .

وروى البيهقى رحمه الله تعالى فى دلائل النبوة عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كانت حليمة تحدث أنها لما فطمت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تكلم قال : فسمعته يقول كلاماً عجيباً سمعته يقول : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا . ويروى عن الشيماء أخته من الرضاعة أنها كانت تحمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وترقصه وتقول : محمد خير البشر ، ممن مضى ومن غبر ، أحسن من وجه القمر ، من كل أنثى وذكر ، وكل منسوب أغر . ويروى أن حليمة ردته صلى الله تعالى عليه وسلم بعد انقضاء سنتيه قالت : فقدمنا على أمه ومكة وبئة ، فقلنا : دعى ابنى عندى حتى يشتد عود شجرته ، فإنى أخشى عليه من وباء مكة وكثرته ، فلم نزل حتى سمحت برده معنا ، رحمة من الله تراد بنا ، فرجعنا به فرحين ، وعدنا مسرورين منشرحين ، قالت : فمكث عندنا بعد عوده شهرين أو ثلاثة . وقال ابن قتيبة : أقام عندهم خمس سنين فبينما هو يلعب مع الغلمان خلف البيوت إذ جاء أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : أدركا أخى القرشى ، فقد جاء رجلان فأضجعاه وشقا بطنه ، فخرجنا نشتد نحوه ، فانتهينا إليه وهو قائم منتقع لونه ، فاعتنقته واعتنقه أبوه ، وقال : مالك يا بنى ؟ قال : أتانى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى ، ووالله ما أدرى ما صنعا . وفى رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال : جاءنى ثلاثة رهط معهم طشت من ذهب قد ملئ ثلجا ، فعمد أحدهم فأضجعنى اضجاعا رفيقا ، ثم شق ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى ، ولم أجد لذلك ألما ثم أخرج أحشاء بطنى فغسلها بماء وثلج فأنعم غسلها ، ثم ردها إلى مكانها ، ثم جاء آخر فأخرج من قلبى مضغة سوداء فرمى بها ، وإذا بيده خاتم النبوة من نور ، فختم به قلبى فامتلأ نورا ، ثم رده إلى مكانه فوجدت برد الخاتم فى قلبى دهرا ، ثم أمرَّ الثالث يده على صدرى فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى ، ثم أخذ بيدى فانتهضنى ثم قال لصاحبه : زنه واجعله

فى كفة واجعل ألفا من أمته فى كفة ففعل وأنا أنظر إلى الألف فرجحت عليهم فانطلقا وهما يقولان ، أو قال : فانطلقوا وهم يقولون : لو أن أمته وزنت به لرجحهم، ثم أقعدونى وقبلوا رأسى وقالوا : يا حبيب الله لا ترع إنك لا تدرى ماذا يراد بك أو منك ، لو علمت لقرت عيناك ، قال : فبينما نحن كذلك وإذا بالحى قد أقبلوا بحذافيرهم ، وإذا بأمى وظئرى ، يعنى حليمة ، تهتف فى أوائلهم وتقول بأعلى صوتها : يا ضعيفاه ، فقال أحدهم : حبذا أنت من ضعيف ، فقالت : يا يتيماه، فقال آخر : حبذا أنت من يتيم ، وأخذتنى وضمتنى إلى صدرها وجعلت تقول : استضعفت من بين أترابك ، وتبكى ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: والذى نفسى بيده إنى لفى حجرها وإن يدى فى بعض يد القوم ، وأنا ألتفت إليهم أظن أن القوم يبصرونهم ، فقال بعض أهل الحى : هذا الغلام قد أصابه لمم ، فانطلقوا به إلى الكاهن لينظر إليه ، فذهبوا بى إلى الكاهن فسألنى عن قصتى فأخبرته فضمنى إلى صدره وصاح بأعلى صوته : يا معاشر العرب اقتلوه واقتلونى معه ، فواللات والعزى لئن تركتموه ليبدلن دينكم ، فصاحت أمى : انظر لنفسك قاتلا غيرنا فإن ولدنا ما به مما قلت شىء ، ولقد شبه عليك ، قالت حليمة : فاحتملناه ورجعنا به ، وقال زوجى : يا حليمة والله ما أرى الغلام إلا قد أصيب فانطلقى لنرده إلى أمه قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه ، فرجعنا إلى أمه فقالت : ما ردكما به وقد كنتما حريصين عليه ؟ فقلنا : كفلنا وأدينا ما علينا من الحق ، ثم خفنا عليه الأحداث ، فقالت : والله ما ذاك بكما فأخبرانى خبره ، فأخبرناها فقالت : أتخوفتما عليه والله إن لابنى هذا شأنا .

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس وعن الزهرى وعن عاصم بن عمر قالوا : لما بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم ، ومعه أم أيمن ، فنزلت به دار النابغة فأقامت عندهم شهرا وتعلم العوم [1] فى بئر بنى عدى بن النجار ، فلما كانت أمه بالأبواء توفيت ، وقد اختلف فى نجاتها والبحث مشهور ، ولقد أحسن الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين الدمشقى حيث قال :

حبى الله النبى مزيد فضل　　　على فضل وكان به رءوفا

---

(١) قوله : العوم أى السباحة ا هـ منه .

فأحـــيا أمـــه وكـــذا أباه　　　لإيمان به فضـــلا لطـــيفا

فســـلم بالقديـــم بذا قدير　　　وإن كان الحديث به ضعيفا

وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه ، وكان يقول عليه الصلاة والسلام لها : أنت أمي بعد أمي ، ثم توفى جده عبد المطلب وله ثمان سنين ، وعمره مائة وعشرون سنة ، وقيل : أكثر ، وكفله أبو طالب عمه واسمه عبد مناف، وكان عبد المطلب قد أوصاه بذلك لكونه شقيق عبد الله ، ولما بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثنتى عشرة سنة خرج معه عمه أبو طالب إلى الشام حتى بلغ بصرى فرآه بحيرة الراهب فعرفه بصفته ، فقال : وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقيل له : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم به من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا ، ولا تسجد إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإنا نجده فى كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده خوفا عليه من اليهود . الحديث . وفيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أقبل وعليه غمامة تظله ، قال ابن الجوزى : وكانت آيات النبوة تظهر عليه قبل النبوة فكان يرى النور والضوء ولا يمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله ، وقال : إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن ، ثم رميت الشياطين بالشهب لبعثه ، ولما بلغ صلى الله تعالى عليه وسلم من العمر خمسا وعشرين خرج مع ميسرة فى تجارة خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها ، ونزل تحت شجرة ورأى نسطورا الراهب وقال : ما نزل تحت هذه الشجر قط إلا نبى ، وقال لميسرة : لا تفارقه فهو خاتم النبيين ، وكان ميسرة إذا اشتد الحر فى الهاجرة يرى ملكين يظلانه . ولما رجع من سفره عليه الصلاة والسلام طلبت خديجة رضى الله تعالى عنها أن يتزوجها لما علمت من أمانته وحسن خلقه وصدق حديثه ، ولما أخبرها ورقة بن نوفل بأنه عليه الصلاة والسلام نبى هذه الأمة للأمارات التى فيه ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام ، وولدت له القاسم ومات ابن سنتين ، وعبد الله ويسمى الطيب ، والطاهر ، وقيل هما غيره ، وزينب وفاطمة الزهراء ورقية وأم كلثوم ، وأما إبراهيم فإنه من مارية ، وكلهم ماتوا قبله إلا فاطمة على أبيها وعليها الصلاة والسلام ، فإنها عاشت بعده ستة أشهر .

ومن مناقب خديجة كما فى الصحيح أن جبريل جاء إلى النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم فقال : هذه خديجة أقرئها من ربها السلام ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب . ولم يتزوج عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ماتت ، ولما أتت عليه أربعون سنة بعثه الله تعالى نبيا ، وجاءه جبريل نجيا ، وأنزل عليه القرآن ، وتوالت معجزاته الظاهرة للعيان ، منها أن الماء نبع من بين أصابعه ، وكثرة الطعام ببركته ، وتكليم الحجر له ، وحنين الجذع وشكاية البعير إليه ، وتكليم الذراع المسموم من الشاة ، والإخبار عن كثير من المغيبات ، وانشقاق القمر والمعراج ، ثم من بعد نحو عشر سنوات هاجر إلى المدينة المنورة ، وبها كانت الوفاة كما هو مفصل فى الكتب المطولات . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم أجود الناس وأصدقهم لهجة ، وأكرمهم عشرة ، وأشجعهم قلبا وأعلاهم لبا ، وأحسنهم خلقا ، وأبهاهم خَلقا ، كأن وجهه القمر ، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، أدعج العينين واضح الجبين ، دقيق العرنين ، أقنى الأنف ، أسيل الخدين، يرى فى الظلماء كما يرى فى الضوء ، فصيح اللسان ، سريع البيان، ولقد أحسن البوصيرى حيث يقول :

فهـــو الذى تم معناه وصورته　　　ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسـم
منـــزه عن شريك فى محاسنه　　　فجوهر الحسن فيه غير منقسم
فمبلـــغ العلـــم فيـــه أنه بشر　　　وأنه خـــير خـــلق الله كلهم

فالحمد لله الذى جعلنا من أتباع هذا النبى الكريم الأمين ، والرسول الرءوف الرحيم ، المرسول رحمة للعالمين ، فطوبى لمن آمن به وصدقه ، وويل لمن كذبه وشاقه ، وسبحان من أيقظ المتقين ، وخلع عليهم خلع اليقين ، وألحقهم بتوفيقه فى السابقين ، فباتوا فى حلبات الجد مسابقين ، كلما أذهب الأعمار طلوعهم وغروبهم، سالت من الأجفان جزعا غروبهم ، وكلما لاحت لهم فى مرآة الفكر ذنوبهم ، تجافت عن المضاجع جنوبهم ، وكلما نظروا فساءلهم مكتوبهم ، وجلت قلوبهم ، دموعهم على الدوام تجرى ، وعزتى لأربحن فى معاملتى تجرى ، عظمت قدرتى فى صدورهم وقدرى ، فاستعاذوا بوصالى من هجرى ، عاملوا معاملة من يفهم ويدرى ، فنومهم على فرش القلق وهبوبهم ، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . أموات عن الدنيا ما دفنوا ، غمضوا عنها عيونهم وحزنوا ، ولو فتحوا أجفان الشره لفتنوا ، باعوها بما يبقى فلا والله ما غبنوا ، تا لله لقد حصل مطلوبهم . إذا ذكر

الله وجلت قلوبهم ، حبسوا النفوس فى سجن المحاسبة ، وبسطوا عليها ألسن المعاتبة ، ومدوا نحوها أكف المعاقبة ، ويحق ذلك لمن بين يديه المناقشة والمطالبة ، فارتفعت بالمعاينة غيوبهم . إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، شاهدوا الأخرى باليقين كرأى عين ، فبايعوا العقار وأخرجوا العين ، وعلموا بمقتَضى الدين أن التقى دين ، فدنياهم خراب وآخرتهم على الزين ، قنعوا بكسرتين وجرعتين ، هذا مأكولهم وهذا مشروبهم . إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .

فنسألك اللهم أن تصلى على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات ، وتقضى لنا بها جميع الحاجات ، وتطهرنا بها من جميع السيئات ، وترفعنا بها عندك أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات ، من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات ، اللهم أحينا على ملته ، وتوفنا على سنته ، وعلى كمال حبك وحبه وحب آله وصحابته ، واجعلنا عند السؤال ثابتين ، وممن يأخذ الكتاب باليمين ، واجعلنا يوم الفزع الأكبر آمنين ، ونجنا بعفوك وحلمك من العذاب الأليم. وأوصلنا وآباءنا وأمهاتنا برحمتك وكرمك إلى جنات النعيم . وارحم اللهم أقاربنا ومشايخنا ومن له حق علينا وكافة المسلمين ، الأحياء والميتين . اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة . اللهم استرنا بسترك الجميل فى الدارين ، وبارك لنا فى جميع ما أعطيتنا وقر برؤيتك فى الجنة منا العين . وصل وسلم على كافة الأنبياء والمرسلين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

المجلس الخامس والأربعون
فى وفاته عليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله مذكر المنهمكين فى شهواتهم بالمقابر ، ومنبه الراقدين فى غفلاتهم بالزواجر ، كاشف العواقب للعقلاء فاللبيب يرى الآخر ، الذى اختار محمدا من الخلق فكأن الكل خلقوا من أجله ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . أحمده على أجل الإنعام وأقله ، وأشهد بوحدانيته شهادة مصدق قوله بفعله ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله لنقض الكفر وحله ، فسبحانه من إله خلق آدم بيد قدرته ، وأسجد له جميع ملائكته وأسكنه فى جنته ، وحكم

بالموت عليه وعلى ذريته ، وقال لنبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يخبره بقضيته ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ فأبلغ فى تسليته ، ونجى نوحا من الطوفان . وأغرق مخالفيه صيانة لأهل الإيمان ، وقضى بالموت على الإنس والجان ، فقال لنبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ واتخذ الله إبراهيم خليلا ، ووفقه وسدده ، وأراه ملكوت السموات والأرض وأشهده ، وفوق إليه سهام الموت المرصدة ، وقال لحبيبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إذ أعلمه بحاله وأيده ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ واختار موسى نجيا وأسمعه كلامه، وبلغه من لذيذ خطابه قصده ومرامه ، وأنفذ فيه من الموت سهامه ، وقال لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ وخلق عيسى من غير أب بلا شك ولا غى ، فابرأ الأكمه والأبرص بإذنه ، وأعاد الميت من قبره حى ، وقال لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم إخبارا عن عيسى عليه السلام ﴿ **يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى** ﴾ واصطفى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم النبى العربى الأمين المأمون ، صاحب الجاه العريض والعرض المصون . ومع هذا القرب والمنزلة التى لا يصل إليها الواصلون ، نعى إليه نفسه الكريمة وأنذره ريب المنون ، وسلاه بمن مات من قبله من المرسلين ، فقال فى كتابه المكنون : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ .

صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الذين قضوا بالحق وبه يعدلون ، ولا سيما على أبى بكر الصديق ، الذى هو فى الغار خير رفيق ، وعلى عمر بن الخطاب ، الذى نزل على لسانه الكتاب ، وعلى عثمان مصابر البلاء ، ومن نال الشهادة العظمى من يد الأعداء ، وعلى ابن عمه على بن أبى طالب ، من نص عليه أنه أقضى المشارق والمغارب ، الشهيد أبى الشهداء ، والأئمة الأمناء ، وعلى جميع الصحابة والقرابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، آمين .

أما بعد : فقد قال الله تبارك وتعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : قال المفسرون : نزلت هذه السورة على رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم أواسط أيام التشريق بمنى ، وهو فى حجة الوداع كما قاله ابن عمر ، وقال ابن عباس : نزلت بالمدينة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعيت إلى نفسى . وفى رواية : وقرب إلى أجلى ، وتسمى سورة التوديع ، وسورة النصر ، وعن أنس رضى الله تعالى عنه إذا جاء نصر الله ربع القرآن ، وهى آخر سوره نزلت جميعاً ، وقوله تعالى إذا جاء نصر الله قيل : إذا بمعنى قد ، وقيل بمعنى إذ ، وقال جملة من المفسرين ، أى إذا جاءك يا محمد وحصل لك نصر الله وإظهاره لك على أعدائك ، وهم قريش أو مطلق من قاتلك من الكفار ، والفتح أى فتح مكة ، وقيل : هو فتح سائر البلاد ، وقيل : هو ما فتح الله عليه من العلوم ، ورأيت الناس من العرب وغيرهم يدخلون فى دين الله الذى بعثك به وهو دين الإسلام أفواجا ، أى جماعات فوجا بعد فوج ، قال الحسن: لما فتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة قال العرب : أما إذا ظفر محمد عليه الصلاة والسلام بأهل الحرم وقد أجارهم الله تعالى من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون فى دين الله جماعات كثيرة ، بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً أو اثنين اثنين ، فصارت القبيلة تدخل بأسرها فى الإسلام ، وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، وذلك أنه ورد منها سبعمائة إنسان وأسلموا ، وعن ابن عباس : بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة إذ قال : الله أكبر الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن . قيل : يا رسول وما أهل اليمن . قال : قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية . وقال عليه الصلاة والسلام فى الثناء عليهم أيضاً : إنى أجد نفس ربكم من قبل اليمن أى تنفيسه سبحانه وتعالى ، وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا ، وقوله تعالى : فسبح بحمد ربك ، أى فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه ، حامدا له جل وعلا ، زيادة فى عبادته والثناء عليه سبحانه ، لزيادة إنعامه عليك . فالتسبيح التنزيه لا التلفظ بكلمة سبحان الله ، والباء للملابسة ، وقيل : أى فقل سبحان الله واستغفره ، أى اطلب منه أن يغفر لك . فعن أم سلمة كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجىء إلا قال : سبحان الله وبحمده ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر من قول سبحان الله وبحمده وأستغفره وأتوب إليه. فقلت : يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقال : أخبرنى ربى سأرى علامة من أمتى فإذا رأيتها أكثرت من قولى سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها إذ جاء نصر الله والفتح ، فتح مكة، ورأيت الناس يدخلون ، إلخ . وأخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن (١) ، قال الوالد : شرع الاستغفار بعد كثير من الطاعات ، منها أنه يشرع لمصلى المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثا ، وللمتهجد فى الأسحار أن يستغفر ما شاء الله تعالى ، وللحاج أن يستغفر بعد الحج ، ولختم الوضوء ، ولختم كل مجلس . وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول إذا قام من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك . واستغفاره صلى الله تعالى عليه وسلم قيل : لأنه كان دائما فى الترقى فإذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما قبلها ، وقيل : مما هو فى نظره الشريف ، خلاف الأولى بمنصبه المنيف ، وقيل : عما كان فى سهو ولو قبل النبوة ، وقيل هو استغفاره لأمته عليه الصلاة والسلام لأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقيل غير ذلك . واعلم أنه قيل : إن المراد بالتسبيح الصلاة لاشتمالها عليه ، ونقله ابن الجوزى عن ابن عباس ، وقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما دخل مكة صلى فى بيت أم هانئ ثمان ركعات ، والقول بأنه صلاها داخل الكعبة ليس بصحيح ، وأيا ما كان فهى صلاة الفتح ، وهى سنة ، وقد صلاها سعد بن أبى وقاص يوم فتح المدائن ، وقيل صلاة الضحى، وقيل : أربع منها للفتح وأربع للضحى ، وقد أخرج ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من حافظ على شفعة الضحى غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ، وأما قوله تعالى : إنه كان توابا، تعليل لأمره سبحانه نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بالاستغفار، وتواب من صيغ المبالغة ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ فى قبول توبة التائبين المذنبين المستغفرين .

---

(١) قوله : يتأول القرآن ، قال القسطلانى فى باب التسبيح والدعاء فى السجود : أي يفعل ما أمر به فيه أى فى قوله تعالى : فسبح بحمد ربك واستغفره ، أى سبح بنفس الحمد لما تضمنه الحمد من معنى التسبيح الذى هو التنزيه وتمام البحث فيه ا هـ منه .

وليعلم أن كثيرا من المفسرين حكى اتفاق الصحابة رضى الله تعالى عنهم على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن ابن عمر أنها نزلت بمنى فى حجة الوداع ، ثم نزل ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فعاش عليه الصلاة والسلام بعدها ثمانين يوما ، وقيل : عاش بعد هذه السورة أقل من ذلك ، وما زال صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض باقتراب أجله فى آخر عمره ، فإنه لما خطب فى حجة الوداع قال للناس : خذوا عنى مناسككم فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، وطفق يودع الناس ، فقالوا : هذه حجة الوداع ، فلما رجع من حجته إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى خما فى طريقه بين مكة والمدينة ، فخطبهم وقال : أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب ، ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته ، قال ابن رجب : وكان ابتداء مرضه صلى الله تعالى عليه وسلم فى أواخر صفر ، وكان فى بيت ميمونة كما فى رواية معمر عن الزهرى وهو المعتمد ، وقيل : فى بيت زينب بنت جحش ، وقيل : فى بيت ريحانة، وذكر الخطابى أنه ابتدئ يوم الاثنين وقيل : يوم السبت وقيل : يوم الأربعاء، واختلف فى مدة مرضه فقيل عشرة أيام وقيل اثنا عشر يوما وقيل أربعة عشر ، والأكثرون على أنها ثلاثة عشر يوما ، وإن ابتداءه فى أواخر صفر . وروى ابن هشام فى سيرته عن أبى مويهبة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: بعثنى رسول الله عليه الصلاة والسلام من جوف الليل ، فقال : إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم أهل المقابر ، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى ، ثم أقبل على فقال : يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، قال فقلت : بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، قال : لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة ، ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف فبدئ برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجعه الذى قبضه الله تعالى فيه ، وقالت عائشة رضى الله عنها : رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من البقيع فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول وا رأساه فقال : بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ، قالت : ثم قال : وما

ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ، قالت : قلت : والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك ، قالت : فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ا هـ . وروى الدارمى أنه خرج صلى الله تعالى عليه وسلم وهو معصوب الرأس بخرقة حتى أهوى إلى المنبر فاستوى عليه فقال : والذى نفسى بيده لأنى لأنظر الحوض من مقامى هذا ، ثم قال: إن عبداً خيره الله تعالى بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده فاختار ما عنده ، فبكى أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وقال : يا رسول الله ، فديناك بآبائنا وأمهاتنا . قال : فعجبنا ، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . قال : فكان رسول الله هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من أمنِّ الناس على فى صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ، لا يبقى فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة [1] أبى بكر . رواه الشيخان . وفى هذا إشارة إلى أنه هو الإمام بعده لاحتياجه إلى سكنى المسجد والاستطراق فيه ، بخلاف غيره ، وفى البخارى قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : لما ثقل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واشتد وجعه استأذن أزواجه رضى الله تعالى عنهن أن يمرض فى بيتى فأذنَّ له ، فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه فى الأرض ، بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر ، قال ابن عباس : هو على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وفى رواية لمسلم : بين الفضل بن عباس ورجل آخر ، وفى أخرى رجلين أحدهما أسامة، ويجمع بينهما بالحمل على تعدد الخروج ، وفى رواية أن المرض تمادى بعد ذلك به صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو مع ذلك يدور على نسائه رضى الله تعالى عنهن ، حتى كان يوم ميمونة وهو فى بيتها فاجتمع رأى من فى البيت على أن يلدوه وتخوفوا أن يكون به ذات الجنب فلدوه ، ثم فرج عنه عليه الصلاة والسلام قال : من صنع هذا ، فهبنه نساؤه ، واعتللن بالعباس مع أنه لم يكن له فى ذلك رأى ، وقالوا : تخوفنا أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : إنها ،

---

(١) الخوخة الباب الصغير ، ا هـ منه .

أى ذات الجنب ، من الشيطان ولم يكن الله عز وجل يسلطه على ولا ليرهبنى بها ، ولكن هذا عمل النساء ، لا يبقى فى البيت أحد إلا لد إلا عمى العباس ، فإنه لم يشهدكم ، فلدوا كلهم ، ولدت ميمونة وكانت صائمة ، ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى بيت عائشة وكان يومها ، قال فى المواهب : اللدود ما يجعل فى جانب الفم من الدواء وهو القسط المذاب بزيت ، قال ابن العربى : إنما أمر بلدهم لئلا يأتوا يوم القيامة وعليهم شيء فيقعوا فى خطيئة عظيمة ، وعنها رضى الله تعالى عنها أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لنسائه : إنى لا أستطيع أن أدور فى بيوتكن فإن شئتن أذنتن لى ، أى فى البقاء عند عائشة . وفى رواية أنهن قلن : يا رسول الله قد وهبنا أيامنا لأختنا عائشة ، وقيل أن فاطمة رضى الله تعالى عنها هى التى خاطبت أمهات المؤمنين بذلك ، فدخل فى بيتها يوم الاثنين وتوفى عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين ، وكان أول مرضه صلى الله تعالى عليه وسلم الصداع ، والظاهر أنه كان معه حمى ، فإنها اشتدت حتى روى عنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت : ما رأيت أحدا كان أشد عليه الوجع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل قد روى أنه عليه الصلاة والسلام كانت عليه قطيفة فكانت الحمى تصيب من يضع يده عليه من فوقها ، فقيل له فى ذلك : فقال إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجور . وعن عبد الله قال : دخلت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يوعك ، فقلت : يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا ، قال : أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم . قلت : ذلك أن لك أجرين ، قال : أجل ذلك كذلك ما من مسلم أوذى بشوكة فما فوقها إلا كفر الله به سيئاته كما تحتُّ الشجرة ورقها ؛ ولهذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم لشدة وجعه يقول : أهريقوا على من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلى أعهد إلى الناس ، قالت عائشة : فأجلسناه فى مخضب لحفصة ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن . ولعل الحكمة أن هذا العدد له خاصية فى دفع ضرر السم والسحر ، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول : ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهرى [1] من ذلك السم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : لما نزلت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾

---

(١) وهو عرق فى القلب ، ا هـ منه .

إلى آخرها قال صلى الله تعالى عليه وسلم : نعيت إلى نفسى ، فأقبل إلى منزل عائشة والحمى عليه ، قال بلال رضى الله تعالى عنه : فلما أصبحت أتيت إلى حجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فناديت : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، الصلاة جامعة ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لفاطمة : مرى بلالا يقرأ أبا بكر السلام ويقول له يصلى بالناس ، قال بلال : فرجعت باكيا وأنادى وا سيداه وا نبياه وا سوء منقلباه ، ليت بلالا لم تلده أمه ، ثم أتيت المسجد فوجدته محتبكا بالناس ، فبلغت أبا بكر السلام والرسالة . ثم ناديت : الصلاة يرحمكم الله ، فأقمت الصلاة ، فلما قلت : الله أكبر قال المسلمون : كبرناه تكبيرا وعظمناه تعظيما ، فلما قلت أشهد أن لا إله إلا الله قال المسلمون : شهدنا بها مع كل شاهد ، فلما قلت : أشهد أن محمدا رسول الله غلبنى البكاء فبكيت وبكى الناس . فتقدم أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأم الناس ، فلما قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، نظر إلى موضع أقدام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخنقته العبرة فبكى وبكت الناس ، فلما سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضجة الناس بالبكاء قال لفاطمة : ما هذه الضجة التى فى المسجد ، قالت : إن المسلمين فقدوك وقت الصلاة ، فرفع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يديه ، وقال : اللهم أمر ملك الحمى أن يخفف عن نبيك حتى أخرج وأصلى بالناس وأودع أصحابى قبل فراق الدنيا ، فوجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خفة فى بدنه فتوضأ وخرج متوكئا على الفضل بن عباس وأسامة بن زيد وعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم ، فلما رأى المسلمون أنوار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تخترق فى المسجد وأحسوا بمجيئه صلى الله تعالى عليه وسلم جعلوا ينفرجون صفا صفا والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخترق الصفوف حتى وصل إلى المحراب فوقف بإزاء أبى بكر فصلى بالناس ، فلما فرغ رقى المنبر يخطب الناس فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم أقبل على الناس بوجهه الكريم ، كالمودع لهم ، فقال : يا أيها الناس ألم أبلغكم الرسالة وأؤدى لكم الأمانة والنصيحة ، قالوا : بلى . يا رسول الله ، قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله أفضل ما جزى نبيا عن أمته . ثم نزل فودع أصحابه وصافحهم وهم يبكون . ثم أقبل إلى منزل عائشة رضى الله تعالى عنها . وعن عبدالله بن مسعود كما نقله القسطلانى فى المواهب اللدنية قال : نعى لنا رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه قبل موته بشهر ، فلما دنا الفراق دخلنا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة فنظر إلينا ودمعت عيناه ثم قال : مرحبا بكم حياكم الله ، آواكم الله ، نصركم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأستخلف الله عليكم وأحذركم الله وأوصى الله بكم إنى لكم منه نذير مبين ، ألا تعلوا على الله فى عباده وبلاده ، فإنه قال لى ولكم : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ وقال : أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ، قلنا : يا رسول الله متى أجلك ، قال : قد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، وإلى جنة المأوى ، والكأس الأوفى ، فاقرءوا على أنفسكم السلام ، وعلى من دخل فى دينكم بعدى السلام . وأعتق صلى الله تعالى عليه وسلم فى مرضه هذا أربعين نفسا . ويروى أنه كانت عنده صلى الله تعالى عليه وسلم سبعة دنانير أو ستة فأمر عائشة رضى الله تعالى عنها بالتصدق بها بعد أن وضعها فى كفه وقال : ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وهذه عنده ، ثم تصدق بها كلها . وعن فاطمة رضى الله تعالى عنها لما صار يتغشاه الكرب قالت : واكرب أبتاه . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : ليس على أبيك كرب بعد هذا اليوم . وجاء أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : وا كرباه ، ، وقال : لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ، اللهم أعنى على سكرات الموت . وفى رواية : اللهم أعني على كرب الموت ، ولم يزل صلى الله تعالى عليه وسلم متمرضا حتى إذا كان يوم الاثنين قيل : أوحى الله تعالى إلى ملك الموت ، أن اهبط إلى حبيبى ، بأحسن زى ، وأرفق به فى قبض روحه فإن أمرك أن تدخل فادخل ، وإن نهاك فارجع ، فهبط ملك الموت فى صورة رجل أعرابى ، فوقف بباب حجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم نادى : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، أتأذنون لى بالدخول إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى فى المواهب عن الطبراني من حديث ابن عباس قال : جاء ملك الموت إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مرضه ورأسه فى حجر على فاستأذن ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقال له على : ارجع فإنا مشاغيل عنك ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: هذا ملك الموت ادخل راشدا ، فلما دخل قال : إن ربك يقرئك السلام ، فبلغنى أن ملك الموت لم يسلم على أهل بيت قبله ولا يسلم بعده . اهـ . وفى رواية : فخرجت فاطمة رضى الله تعالى عنها فقالت : يا عبد الله إن رسول الله

مشغول بنفسه ، ثم نادى الثانية السلام عليكم إلخ أأدخل ، ولا بد من الدخول ، فسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا فاطمة من على الباب ؟ فقالت : رجل أعرابى ، فقلت : إن رسول الله مشغول بنفسه . ثم نادى الثانية فقلت : مثله ثم نادى الثالثة بصوت اقشعر بدنى وارتعدت فرائصى وتغير لونى ، فقال عليه الصلاة والسلام : أتدرين من هو ؟ فقالت : يا أبت لهو رجل أعرابى ، فقال : هذا ملك الموت هذا هاذم [1] اللذات ، وقاطع الشهوات ، ومفرق الجماعات ، ومخرب الدور ، ومعمر القبور ، ائذنى له ، فأذنت له ، فدخل وسلم، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : وعليك السلام يا ملك الموت ، أجئت زائرا أم قابضا ، قال : جئت زائرا وقابضا إن أذنت لى ، وإلا رجعت ، إن الله عز وجل أرسلنى إليك وأمرنى ألا أقبضك حتى تأمرنى فما أمرك ، قال : وتفعل ، قال: بذلك أمرت ، فقال : يا ملك الموت أين خلفت حبيبى ، قال : خلفته فى سماء الدنيا فلم يلبث أن هبط جبريل عليه ، وجلس عند رأسه .

وفى رواية مذكور مفصلها فى عقد الدرر واللآلئ أن الله يقرئك السلام ويقول: كيف تجدك ، وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا ، وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق ، وأن تكون سنة فى أمتك ، فقال : أجدنى وجعا، قال : أبشر فإن الله أراد أن يبلغك ما أعد لك . وفى رواية : أجدنى يا جبريل مغموما ، أجدنى يا جبريل مكروبا ، ثم أتاه جبريل عليه السلام فى اليوم الثانى ، فقال له مثل ذلك ، فقال : يا جبريل إن ملك الموت قد استأذن وأخبرنى بالخبر ، فقال : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ، ألم أعلمك بالذى أراد منك ، وأن ملك الموت ما استأذن على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك ألا أن الله متم شرفك ، وهو مشتاق إليك . ثم قال : يا جبريل ، ألست تعلم أن الأمر قد قرب ، قال : نعم يا حبيب الله ، قال : بشرنى مالى عند الله ، قال : إن أبواب السماء قد تفتحت والملائكة صفوا صفوفا لروحك ، قال : لوجه ربى الحمد ، بشرنى يا جبريل مالى عند الله قال : إن أبواب الجنان قد فتحت وحورها قد زينت ، قال لوجه ربى الحمد ، بشرنى يا جبريل ، قال : أنت أول شافع وأول مشفع يوم القيامة، قال : الحمد لله. بشرنى، قال: عم تسألنى؟ قال:عن همى وغمى ما لقراء

---

(١) هاذم بالذال المعجمة ا هـ منه .

القرآن ، وما لصوام شهر رمضان ، وما لزوار بيت الله ، وما لأمتى المصطفين الأخيار ، قال : إن الله تعالى يقول : قد حرمت الجنة على سائر الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : الآن طاب قلبى ، وفى ذلك الوقت أذن عليه الصلاة والسلام للنساء فقال : ادن منى يا فاطمة ، فانكبت عليه فناجاها طويلا ، فرفعت رأسها وعيناها تذرفان ، وما تطيق الكلام ، ثم قال : ادن منى رأسك فانكبت عليه فناجاها ، فرفعت وهى تضحك ، وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا عجبا ، فسألناها عن ذلك فقالت : قال لى إنى ميت اليوم فبكيت ، ثم قال : دعوت الله أن يلحقك بى أول أهلى وأن يجعلك معى ، فضحكت ، ثم أدنت ابنيها فشمهما ، ثم دنا ملك الموت فقال : ما تأمر يا محمد، قال : ألحقنى بربى الآن ، قال : بلى إن ربك إليك مشتاق ، ولكن ساعتك أمامك، فقال جبريل حينئذ : عليك السلام يا رسول الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض، فقد طوى الوحى وطويت الدنيا ، وما كان لى فى الدنيا حاجة إلا حضورك ، إنما كنت صاحبى فى الدنيا . وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : أغمى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجرى ، فجعلت أمسحه وأدعو له بالشفاء ، فلما أفاق قال : أسأل الله الرفيق الأعلى ، مع جبريل وميكائيل وإسرافيل. وذكر الواقدى أن بعض الصحابة قال : يا نبى الله من يلى غسلك . قال: رجال من أهل بيتى الأقرب فالأقرب ، قال : ففيم نكفنك ؟ قال : فى ثيابى هذه ، وفى حلة يمانية وفي بياض مصر ، قال : كيف الصلاة عليك منا ، وبكينا فبكى ، ثم قال : غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً . إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة فإن أول من يصلى على حبيبى جبريل ثم ميكائيل ثم ملك الموت ، ومعه جنود من الملائكة بأجمعهم ، ثم ادخلوا على فوجا فوجا فصلوا على وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكيتى . وفى رواية ولا صيحة ولا رنة ، وليبدأ بالصلاة على رجال أهل بيتى ، ثم نساؤهم ثم أنتم ، واقرءوا السلام على من غاب من أصحابى ، واقرءوا السلام على من تبعنى على دينى من يومى هذا إلى يوم القيامة ، قلنا : يا رسول الله ، من يدخلك القبر ، قال : أهلى مع ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم . ولما اشتد به الأمر ، قالت : جعل يغمى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يُغْلَب ، وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أرسل ذلك العرق وما وجدت

رائحة أطيب منه ، فكنت أقول : بأبى أنت وأمى ما تلقاه جبهتك من الرشح ، فقال: يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح، ونفس الكافر تخرج من شدقه كنفس الحمار .

وكان عليه الصلاة والسلام بين يديه ركوة من ماء ، فجعل يدخل يده فيها ويقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات . وفى بعض الكتب : لما أراد ملك الموت أن يقبض روحه روحى فداؤه قال صلى الله تعالى عليه وسلم : خفف ، قال : خففت يا رسول الله ، ولكن النزع شديد ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : أو يكون لكل واحد من أمتى مثل هذه الشدائد ؟ قال : أضعاف من هذا ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم : ضع على روحى الشدائد كلها حتى يكون عليهم أهون . وروى أنه لما بلغت الروح السرة قال : يا جبريل ما أشد مرارة الموت ، فولى جبريل وجهه عنه ، فقال : يا جبريل أكرهت النظر إلى وجهى ، فقال جبريل : ومن يطيب قلبه أن ينظر إلى وجهك وأنت تعالج سكرات الموت ، ثم نصب صلى الله تعالى عليه وسلم يده وهو يقول : اللهم الرفيق الأعلى ، حتى قضى نحبه ، قال على كرم الله تعالى وجهه : لما قبض صلى الله تعالى عليه وسلم صعد ملك الموت باكيا إلى السماء ، فوالذى بعثه بالحق لقد سمعت صوتا من السماء ينادى : وا محمداه ، وكان آخر كلامه : الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم . وروى ثابت عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : لما ثقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة رضى الله تعالى عنها . وا كرب أبتاه ، فقال لها عليه الصلاة والسلام: ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، فلما مات عليه الصلاة والسلام قالت : يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه ، فلما دفن قالت : كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على نبيكم التراب ، قيل : وأخذت من تراب القبر الشريف وقالت :

ما ذا على من شم تربة أحمد ألا يشـــم مدى الزمان غواليا

صـــبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام صـــرن لياليا

وقد تولى غسله صلى الله تعالى عليه وسلم أهل بيته ، ومنهم عمه العباس ، وعلى والفضل بن العباس ، وأسامة بن زيد وصالح مولاه رضى الله تعالى عنهم ، وتولى على كرم الله تعالى وجهه غسله بنفسه ، وأسنده إلى صدره وعليه قميصه ، وهو يقول : بأبى أنت وأمى ما أطيبك حيا وميتا ، وأنزله فى قبره عمه العباس وعلى

وقثم بن العباس رضى الله تعالى عنهم ، وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين ، ودفن يوم الأربعاء ، ولما توفى صلى الله تعالى عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة ، قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : وسجى الملائكة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بثوبى ، واضطرب المسلمون اضطرابا شديدا ، فمنهم من دهش فخلط فى كلامه ، ومنهم من كذب بموته كعمر رضى الله تعالى عنه ، فإنه قال : إن رسول الله لم يمت ، وإنما واعده ربه كما واعد موسى عليه السلام ، وهو آتيكم . وقيل قال : أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه لم يمت والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله قد مات إلا علوته بسيفى . ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام كعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، فإنه لم يكلم أحدا ، وجعل يأخذ بيده فيجاء به ويذهب ، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام كعلى بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، فإنه لم يبرح فى بيته ، إلا أبا بكر رضى الله تعالى عنه فإنه أقبل مسرعا ، وكان فى بنى الحارث بن الخزرج ، فدخل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مسجى فكشف عن وجهه الشريف وأكب عليه وقبل وجهه مرارا وهو يبكى ، ويقول : وا نبياه وا خليلاه وا صفياه ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مات والله رسول الله ثم قال : بأبى وأمى ما كان الله ليذيقك الموت مرتين [1] ، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها ، ثم دخل المسجد وعمر يتكلم وهم مجتمعون عليه فتكلم أبو بكر وتشهد وحمد الله ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر فقال : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حى لا يموت ، ثم تلا ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ فاستيقن الناس كلهم بموته ، وكأنهم لم يسمعوا هذه الآية إلا ذلك اليوم ، فتلقاها الناس منه فما سمع أحد إلا يتلوها .

فيا عباد الله ، كادت الجمادات تتصدع من ألم مفارقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكيف بقلوب المؤمنين ، فتذكروا حنين الجذع الذى كان يخطب عليه

---

(١) واختلف فى قوله رضى الله تعالى عنه : لا يجمع الله عليك الموت مرتين ، فقيل : هو على حقيقته ، وأشار بذلك إلى الرد على من زعم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سيجىء فيقطع أيدى رجال ، وقيل : أراد لا يموت موتة أخرى فى القبر كغيره ، إذ يحيا ليسأل ثم يموت ، وقيل : لا يجمع الله موت نفسك وموت شريعتك ، وقيل : كنى بالموت الثانى عن الكرب ، أى لا تلقى بعد كرب هذا اليوم كربا آخر ، مواهب ملخصا ا هـ منه .

قبل اتخاذ المنبر لما فقده وفارقه صاح وحن إليه ، فنزل من منبره واعتنقه فجعل يهدأ كالصبى الذى يسكن عنه بكاؤه ، فقال عليه الصلاة والسلام : والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لحن إلى يوم القيامة ، فكيف نحن نلتذ باللذات ، وقد قال صاحب المعجزات ، إن للموت سكرات ، أما تمرر حلو عيشكم والحياة ، حين قال عند الموت وا كرباه ، أما يبكيكم توجع فاطمة البتول حين قالت لأبيها الرسول : وا كربى لكربك يا أبتاه ، فأين أرباب العقول ؟ أين بمن يعنيه مشغول ؟ أين من اغتر بالبقاء فى هذه الدار الفانية وقد فقد الرسول ، فإذا مات صاحب المقام المحمود والحوض المورود ، واللواء المعقود ، والشفاعة العظمى فى اليوم الموعود ، فكيف بك يا من صحائف أعماله سود ، ولا يدرى هل هو مقبول أو مردود ، ولقد أحسن حسان ، بقوله فى رثاء سيد الإنس والجان :

كنت السـواد لناظرى فعمى عليك الناظـر
من شاء بعدك فليمت فعليـك كنت أحاذر

وكذا عمته صفية بقولها :

ألا يا رسـول الله كنت رجـاءنا وكنت بنا بـرا ولم تك جـافيا
وكنت رحـيما هـاديا ومعلما ليبـك عليك اليوم من كان باكيا
لعمـرك ما أبكـى النبى لفقده ولكـن لما أخشى من الهجر آتيا
كـأن علـى قلبى لذكر محمد وما خـفت من بعد النبى المكاويا
أفاطـم صـلى الله رب محمد علـى جدث أمسى بيثرب ثاويا
فـدى لرسول الله أمى وخالتى وعمى وخـالى ثم نفسى وماليا
فـلو أن رب الناس أبقى محمدا سعـدنا ولكـن كان أمرا ماضيا
عليـك من الله السـلام تحـية وأدخلت جنات من العدن راضيا
أرى حـسنا أيتمتـه وتركتـه يبكـى ويدعو جـده اليوم نائيا

ورثاه الصديق رضى الله تعالى عنه بقوله :

لمـا رأيـت نبينـا متجندلا ضاقت على بعرضهن الدور
وارتـاع قلبى عند ذاك بهلكه والعظم منى ما حييت كسير

أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى فالصبر عنك لما بقيت يسير
يا ليتنى من قبل مهلك صاحبى غيبت فى جدث علىَّ صخور
فلتحدثن بدائع من بعده يعيا بهن جوانح وصدور

ورثاه آخر بقوله :

أسفى على فقد الرسول طويل أسفى مدى الأيام ليس يزول
رزء تكاد الأرض منه والسما هذى تميد به وتلك تميل
غمر القلوب بحزنه وبوجده وبكل قلب لوعة وعويل
والأرض بدل صفوها بتكدر وجرت بحار بالبكا وسيول
والجو أظلم بعد فقد المصطفى والسحب أدمعها عليه هطول
أسفا على من جاءنا بهداية وعليه حقا أنزل التنزيل
من بعد موت المصطفى هل لامرئ فى الدهر يوما للبقاء سبيل

فيا أيها الإخوان ، إن لنا فى رسول الله أسوة حسنة حيا وميتا ، وفعلا وقولا ، وجميع أحواله عليه الصلاة والسلام عبرة للناظرين ، وتبصرة للمتبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله تعالى منه ، إذ كان خليل الله وحبيبه ، ونجيه وصفيه ، ورسوله ، ونبيه ، فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ، وهل أخره ساعة بعد حضور منيته ، لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام ، الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، حتى بكى لمصرعه الزكى من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره ، وقد امتثل الملك ما كان به مأمورا ، واتبع ما وجد فى اللوح مسطورا ، فهذا كان حاله وهو عند الله تعالى صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وصاحب الشفاعة العظمى يوم الزحام والعرض ، فالعجب أنا لا نعتبر بحضرته الكريمة ، ولسنا على ثقة النجاة فيما نلقاه من الأحوال الجسيمة ، غير أنا أسراء الشهوات ، وقرناء المعاصى والسيئات. فما بالنا لا نتعظ بمصرع سيد المرسلين ، وكرب إمام المتقين ، ونزع حبيب رب العالمين ، فلعلنا نظن أننا مخلدون ، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا وقبح أحوالنا

عند الله مكرمون ، هيهات هيهات ، بل ستخرج منا الأرواح ، وتذهب الأفراح ، ونلقى كربات الوفاة ، ولا نسترجع ما فات ، والكل على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون ، فنحن للورود مستيقنون ، وللرجوع عنها متوهمون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

إخواني ، تفكروا فى الراحلين ، واعتبروا بالسالفين ، وتأملوا بالبصائر حال الدفين، وتأهبوا فأنتم فى أثر الماضين ، أين الأخلاء ، وأين الإخوان أين الرفقاء ، وأين الأقران ، رحلوا عنا إلى أعجب الأوطان ، وبنوا فى القلوب بيوت الأحزان ، فمن الذى طلبه الموت فأعجزه ، من الذى تحصن فى قبره وما أبرزه ، من الذى سعى فى مناه فما أعوزه ، من الذى أمل طول الأجل فما حجزه ، أى عيش صفى وما كدره ، أى قدم سعى وما عثره ، أى غصن علا على ساقه وما كسره ، أما أخذ الآباء والأجداد ، أما ملأ القبور والألحاد ، أما حال بين المريد والمراد ، أما سلب الحبيب وقطع الوداد ، أما أرمل النسوان وأيتم الأولاد ، أما تتبع قوم تبع وعاد على عاد ، ما هذا الانزعاج عند موت الأحباب ، أو ما على هذا الشرط رقم الكتاب ، هل للبقاء سبيل للناس ، هل يصح البناء مع تضعضع الأساس ، يا حزينا لفراق أترابه ، كئيبا لرحيل أحبابه ، يبكى ذهابهم غافلا عن ذهابه ، إن حزنه عليه لا عليهم أولى به:

عـــزاء فمـــا يصـــنع الجـــازع ... ودمـــــع الأســـى أبـــدا ضائع
بكـــى النـــاس من قبل أحبابهم ... فهـــل منهـــم أحـــد راجـــع
عـــرفنا المصـــــائب قبل الوقوع ... فمـــــا زادنـــــا الحـــادث الواقع
فـــــدلى ابـــن عشـــرين فى قبره ... وتسعـــــون صـــاحـــبهـــا رافع
وللمـــــرء لـــــو كان ينجى الفرا ... ر فـــــى الأرض مضطرب واسع
ومـــــن حـــتفه بيـــن أضلاعه ... أيـــنفـــــعـــــه أنـــــه دارع
وكـــل أبـــى لـــداعى الحـــما ... م إن يدعـــه سامـــع طائـــع
يسلـــم مهـــجـــته ســـامحـــا ... كمـــا مـــد راحـــته البائـــع
ولـــو أن مـــن حـــدث سالما ... لما خـــسف القمـــر الطـــالع
وكيـــف يـــوقى الفتى ما يخاف ... إذا كـــان حاصـــده الـــزارع

هذا المصير يا معاشر الغافلين ، واللحود المنازل بعد الترف واللين ، والأعمال الأقران فاعملوا ما يزين ، والقيامة تجمعكم وتنصب الموازين ، والأهوال العظام فأين المتفكر الحزين ، إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين . اللهم اجعلنا ممن أفاق لنفسه، وفاق بالتحفظ أبناء جنسه ، وأعد عدة تصلح لرمسه ، واستدرك فى يومه ما ضيع فى أمسه ، واجعلنا اللهم بطاعتك عاملين ، وعلى ما يرضيك مقبلين ، وآمنا من الفزع الأكبر يوم الدين ، وثبتنا على القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأنلنا شفاعة سيد المرسلين ، واغفر لنا ولوالدينا ولأقاربنا ، وارحمنا وكافة المسلمات والمسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، وصل على محمد وعلى آله أجمعين .

* * *

المجلس السادس والأربعون
فى الزهد وطول الأمل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الذى ظهر لأبصار البصائر عيانا ، فامتلأت قلوب عارفيه به إيمانا ، وولهت أفئدة محبيه هيمانا ، فعادت تطلب وصله من هجره أمانا ، الحى الباقى فلا يزول ولا يتفانى ، السميع البصير فهو يسمعنا ويرانا ، نحمده على ما منحنا وأولانا، ونشكره وكيف لا نشكر مولانا ، ونشهد له بالوحدانية سرا وإعلانا ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله وشجرة الكفر قد فرعت أغصانا ، فقطعها بمنجل مجاهدته وزرع من الحقائق بستانا .

صلى الله تعالى عليه وعلى أصحابه الذين كانوا أنصارا له على الحق وأعوانا ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا ، أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، رزقنا الله تعالى محبتهم على الوصف الذى وصانا ، فمنهم أبو بكر الذى يوقد فى قلوب مبغضيه نيرانا ، وعمر الذى جعل لعطاء المسلمين ديوانا ، وعثمان الذى يقطع الليل صلاة وقرآنا ، وعلى على الذى نهواه معاشر السنة ويهوانا ، ما علت الورق منابر الورق ورجعت ألحانا .

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ **رُبَمَا يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قال المفسرون : هذه تهديد للكفار ، أى خل هؤلاء الكفرة ودعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهى فهم لا يرعوون أبدا ، لأنهم كالأنعام التى لا تهتم إلا بالأكل والشرب ، وقوله تعالى : ويلههم الأمل ، أى يشغلهم طول الأمل والعمر ، وبلوغ الوطر واستقامة الحال ، عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى ، وهم لا يزالون فى الآمال الفارغة حتى يسفر الصبح لذى عينين، وينكشف الأمر ويروا العذاب يوم القيامة فسوف يعلمون عاقبة أمرهم ، وسوء صنيعهم ، قال فى الفتح : وفى هذا تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين ، قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه : إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن الأول ينسى الآخرة ، والثانى يصد عن الحق ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نجى أول هذه الأمة باليقين والزهد . ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل ، ولنذكر لكم فى هذا الدرس إن شاء الله تعالى ما ورد فى اليقين والزهد والبخل وطول الأمل ، وما يتعلق بجميع ذلك وما يناسبه من الأحاديث الشريفة والآثار المنيفة والمواعظ اللطيفة ، قال ابن الجوزى عليه الرحمة عن الحسن رحمه الله تعالى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الناس لم يؤتوا فى الدنيا خيرا من اليقين ، والعافية ، فاسألوهما الله عز وجل ، وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : ذرة بر من صاحب تقوى ويقين أفضل من أمثال الجبال من عبادة المفترين ، وقال رحمه الله تعالى : يا ابن آدم إن من ضعف يقينك أن تكون بما فى يدك أوثق منك بما فى يد الله عز وجل ، وقال أيضاً : إنا نوقن بالموت والحساب والجزاء ولا نعمل عمل موقن ، وكأننا فى شك . وكان شميط بن عجلان إذا وصف الموقنين يقول : أتاهم من الله تعالى أمر ، وزادهم على الباطل ، فأسهروا العيون وأجاعوا البطون ، وأظمئوا الأكباد ، ونصبوا الأبدان ، واهتدموا الطارف والتالد [1] ، وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقال لى: يا عبد الواحد إن أحببت أن تعلم علم اليقين فاجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد ، وإذ قد بان فضل اليقين فاليقين فى باب العلوم ما يحتمل الشك ، وقد يقال فلان ضعيف اليقين بالموت مع علمنا أنه لا يشك فيه ، ولكن يراد بذلك العمل

---

(١) أى السابق واللاحق ا هـ منه .

بمقتضى ما أيقن به . والصالحون أيقنوا بالآخرة من حيث الدليل فلا يتداخلهم ريب، واستعملوا الجوارح بمقتضى ما أيقنوا به ، على أن علوم المؤمنين تزيد وتنقص على قدر قوة الدليل عندهم وضعفه ، وليس وضوح ما ثبت بدليل كوضوح ما ثبت بأدلة.

واعلم أن جميع المؤمنين يوقنون بأن الله تعالى يراهم فى جميع أحوالهم ، غير أن قوة اليقين والعمل بمقتضاه أظهرت على الأولياء المراقبة والتأدب فى القول والفعل ، كما يتأدب محاضر الملك ، فاليقين شجرة وخصال الخير فروعها ، فالعجب لموقن لا يعمل بمقتضى يقينه ، وما أحسن ما قاله عمر بن عبد العزيز فى خطبته : إن كنتم توقنون فأنتم حمقى ، وإن كنتم لا توقنون فأنتم هلكى . وهذا لأن من أيقن بقصد السبع إياه وعلم أنه لا نجاة له إلا بأن يفر فلم يبرح من مكانه فهذا فى غاية الحمق ، فكذلك من أيقن بندمه على تفريطه ، ثم دام عليه ميلا إلى التسويف الذى هو فيه على خطر ، فإنه مغتر ، فإن استدرك أمره بالعلاج وإلا نازله الندم فى حال الفوت، ولات حين مناص . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كره كاره ، إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضاء واليقين ، وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط ، ولقد أحسن القائل :

قصـــر بدنيـــاك الأمل ... من قبـــل إدراك الأجل
فلتـــرحـــلن كمثل من ... قـــد كـــان قبلك وارتحل
واحـــذر وقوفك فى غد ... عند الحساب من الخجل
وقد اعتـــرفت بما اقترفـ ... ـت من الخـطايا والزلل
فإلـــى متى هـــذا الفتو ... ر وذا التـــوانى والكسل

وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت

فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك . وعن سهل بن سعد قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، مرنى بعمل إذا أنا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم كانوا أفضل منكم ، فقيل له : بأى شىء ، قال : إنهم كانوا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة منكم . وقال أبو واقد الليثى : تابعنا الأعمال فلم نجد عملا أبلغ فى طلب الآخرة من الزهادة فى الدنيا . واعلم أن معنى الزهد انصراف الرغبة عن الشىء . وأحوال الزهاد تختلف فمنهم من ترك الدنيا لذم الشرع لها . ومنهم من خاف طول الحساب عليها، ومنهم رآها قاطعة له عن الآخرة ، ومنهم من رأى الالتفات إليها يوجب الاشتغال عن الحبيب ، فلم يعرها الطرف ، واعلم أن الزهد الممدوح هو ترك الفضول التى لا تدعو إليها الحاجة ، والمهمات الضرورية سبعة : أحدها المطعم فهمة الزاهد ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه ، ويقويه على الطاعة ، فإن قصد الالتذاذ بشىء من المتناولات ليعطى النفس حظا يتقوى به لم يخرج من الزهد . وقد كان سفيان الثورى حسن المطعم ، وربما سافر وفى سفرته اللحم المشوى والفالوذج، وقد يدخل الزاهد شيئا يتقوته (1) فلا يخرجه من الزهد فقد كان لسفيان بضاعة . وورث داود الطائى عشرين ديناراً فأنفقها فى عشرين سنة ، والثانى الملبس، والزاهد يقتصر على ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة ، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة ، وقد كان أكثر لباس السلف خشنا فصار الخشن اليوم شهرة .

وخطب عمر رضى الله تعالى عنه بالناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة ، وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخرق من المزابل ويلفقها ويقول : ما ضرهم ما أصابهم فى الدنيا ، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة . والثالث المسكن ، وقد كان بعضهم يقنع بزوايا المساجد كأهل الصفة ، وبعضهم يبنى كوخا ومتى قصد ما يخرجه

---

(1) وروى فى الجامع الصغير : نعم العون على الدين قوت سنة ، قال المناوى : بكسر الدال أى ادخار قوت سنة ، وذلك لا ينافى الزهد ، وفى هذا الحديث ضعف ا هـ منه .

عن حد الضرورة خرج عن الزهد ، وقد توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة . والرابع أثاث المنزل ، وينبغى للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف ، وفى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان ضجاع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى ينام بالليل من أدم [(١)] محشو ليفا . وقال على رضى الله تعالى عنه : تزوجت فاطمة ومالى ولها فراش غير جلد كبش كنا ننام بالليل عليه ونعلف عليه الناضح بالنهار ، وما لى خادم غيرها . والخامس المنكح وليس من الزهد تركه فإن التشاغل به للعفاف لازم ولطلب النسل فضيلة ، ومن لا يجتمع همه إلا بطلب المستحسن فذلك فى حقه فضيلة ، فأما إذا خاف عدم النفقة وشتات القلب وأمكن الاقتصار على الدون فحسن ، والنكاح من سنن المرسلين وشعار الصالحين . والسادس المال ، والزاهد يقتصر منه على ما يدفع الوقت ويقطع عنه منن الخلق . والسابع الجاه ومعناه ميل القلوب ليتوصل به إلى الاستعانة على ما يريده من الأغراض ودفع ما يؤذيه . والزاهد يمهد له الجاه فليحذر من شر ذلك ، وقد يتزهد الإنسان فى المطعم والمشرب ويلبس الخشن ويقصد المدح بالزهد فذاك الخاسر ، فلا بد من عدم هذا القصد الردىء ، ودفعه بستر الحال وألا يلتفت بالقلب إليه ، والعمل كله على النيات والبواطن ، فنسأل الله عز وجل سلامة تعم بواطننا وظواهرنا ، بمنه وكرمه . قال حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء : اعلم أنه قد يظن أن تارك المال أو لابس الصوف زاهد ، وليس كذلك ، فكم من الرهبان من لازم ديراً لا باب له ، وقلل أكله ، ليعرف الناس حاله ، ومدحهم له ، فلا بد للزاهد من أن يزهد فى المال والجاه جميعاً ، ومن يرائى فى ملبسه ومأكله فهو من أكلة الدنيا بالدين . ولا ينبغى للزاهد ألا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ بل ينبغى أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده .

ومن علامات الزاهد أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، وأن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود ، وقال الإمام أحمد بن حنبل : علامة الزهد قصر الأمل ، انتهى ملخصاً. قال فى التبصرة : وليعلم أن الزهد لا يتم إلا بالتوكل ، وهو اعتماد القلب على الله

---

(١) الآدم الجلد ا هـ منه .

وحده ، ومن اعتمد على السبب فليس بمتوكل ، ثم إن التوكل فعل القلب ولا ينافيه الكسب بالبدن والادخار ، وجلب المنافع ودفع المضار ، والتداوى ، ففى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحبس لأهله قوت سنتهم ، ولا يلتفت إلى قول من قال إن المتكل لا يدخر ولا يتعرض بالسبب ، فإن أولئك قوم جهلوا معنى التوكل ، وآثروا الراحة والبطالة ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ **خذوا حذركم** ﴾ وقال : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ فإن قال قائل : إذا أخذ المتوكل سلاحه وأغلق بابه فبأى معنى يكون متوكلا ؟ . بالعلم والحال ، أما العلم فهو أن يعلم بالعدو إن اندفع فبدفع الله تعالى لا بأخذ السلاح ، وإن سلم من اللص فبمنع الله تعالى لا بغلق الباب ، فيتوكل على المسبب لا على السبب ، وأما الحال فيكون راضيا بما يقضى الله تعالى عليه ، ومتى عرض له أنه لو احترز لم يسرق متاعه فهو بعيد عن التوكل ، وإذا علم أن الخيرة فيما يقضى الله تعالى لم يحزن فيما جرى ، وليعلم أن القدر كالطبيب للمريض ، فإن قدم إليه الطعام فرح وقال لولا أنه علم أن الغذاء ينفعنى ما قدمه ، وإن منعه فرح . وقال : لولا أنه علم أن الغذاء يؤذينى ما منعنى . روى عن الفيض ابن إسحاق أنه قال : قلت للفضيل : حد لى التوكل ، فقال : كيف تتوكل عليه وأنت مختار لك فتسخط قضاءه ، أرأيت لو دخلت بيتك فوجدت امرأتك وقد عميت وابنتك قد أقعدت وأنت قد أصابك الفالج ، كيف كان رضاك بقضائه ؟ قلت: أخاف ألا أصبر . فقال : لا ، حتى يكون عندك واحدا ، وترضى بكل ما صنع فى العافية والبلاء ، فبان أن التوكل عمل القلب واعتماده على الخالق ورؤيته أن لا نفع ولا ضرر إلا منه ، ورضاه بما يدبره لأنه حكيم . وقال فى الإحياء : اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان ، وقد وردت فى فضله الآيات والأحاديث والأخبار . أما الآيات فقد قال الله تعالى : ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ أى عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه ، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾ بيَّنَ إن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه ، وقال تعالى : ﴿ **يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه** ﴾ وكل

ما ذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار ، والتوكل على الواحد القهار ، وأما الأخبار فقد روى ابن مسعود كما ذكرنا فى بعض الدروس الماضية قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : رأيت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملئوا السهل والجبل ، فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم ، فقيل لى : أرضيت ، قلت : نعم . قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اللهم اجعله منهم ، فقام آخر فقال : يا رسول ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : سبقك بها عكاشة ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ، وقال سيدى وجدى الشيخ عبد القادر الكيلانى : من أراد السلامة فى الدنيا والآخرة فعليه بالصبر والرضا وترك الشكوى إلى خلقه وإنزال حوائجه بربه عز وجل ، ولزوم طاعته وانتظار الفرج منه سبحانه والانقطاع إليه ، فحرمانه عطاء ، وعقوبته نعماء ، وبلاؤه دواء ، ووعده حال ، وقوله فعل ، وكل أفعاله حسنة ، وحكمة ومصلحة ، غير أنه طوى عز وجل علم المصالح عن عباده، وتفرد به فليس إلا الاشتغال بالعبودية وأداء الأوامر واجتناب النواهى ، والتسليم فى القدر ، وترك الاشتغال بالربوبية ، والسكون عن لم وكيف ومتى . وتستند هذه الجملة إلى حديث ابن عباس قال : بينا أنا رديف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قال : يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن ، ولو جهد العباد أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله تعالى عليك لم يقدروا عليه ، فإن استطعت أن تعمل لله تعالى بالصدق فى اليقين فاعمل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ، فينبغى لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة قلبه وشعاره ودثاره وحديثه ، فيعمل به من جهة حركاته وسكناته حتى يسلم فى الدنيا والآخرة ، ويجد العزة برحمة الله تعالى عز وجل . انتهى .

وليعلم أنه كما كان التوكل من صفات المؤمنين فالرضا أيضاً من خصال الزاهدين، والأولياء المقربين ، فقد قال عز وجل : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ قال العلماء رضا الله تعالى على العبد هو إنعامه عليه بإصلاح أحواله وتقريبه إلى حضرته ، وأما رضا العبد عن الله سبحانه فإن أدون المقامات فى ذلك أن يقع رضا العبد لجهله بالمصالح ، ورب صلاح فى ضمن بلاء ، وما قضى الله تعالى لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، وأعلى المقامات أن يكون العبد محبا لله تعالى فيرضى بما يقضى ، ومن أحب محبوبا رضى بأفعاله ، وروى أبو العلاء عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له ، وبارك له فيه ، وإذا لم يرد به خيرا لم يرضه بما قسم له ولم يبارك له فيه ، وقالت أم الدرداء رضى الله تعالى عنها: إن الراضين بقضاء الله تعالى لهم فى الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة .

وروى فى التبصرة عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال : قال لقمان لابنه : لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته إلا جعلت فى الضمير منك أن ذلك خير لك ، قال: أما هذه فلا أقدر أعطيكها ، دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت ، قال : يا بنى فإن الله تعالى قد بعث نبيا هلم حتى نأتيه فعنده بيان ما قلت لك ، قال : اذهب بنا نأته ، فخرج هو على حمار وابنه على حمار ، فتزودا ما يصلحهما ثم سارا أياما وليالى حتى تلقتهما مغارة فدخلاها ، فسارا ما شاء الله فاشتد الحر ونفد الماء ، والزاد ، واستبطأ حماريهما فنزلا فجعلا يشتدان على سوقهما فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان فإذا هو بسواد ودخان ، فقال فى نفسه : السواد شجر والدخان عمران وناس ، فبينما هما يشتدان إذ وطئ ابن لقمان على عظم ناتئ على الطريق فدخل فى باطن القدم حتى ظهر من أعلاها ، فخر ابن لقمان مغشيا عليه ، فحانت من لقمان التفاتة فإذا هو بابنه صريع ، فوثب إليه فضمه إلى صدره واستخرج العظم بأسنانه وشق عمامة كانت عليه فلاث بها رجله ، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه فذرفت قطرة من دموعه على خد الغلام ، فانتبه فنظر إلى أبيه يبكى ، فقال : يا أبت أنت تبكى وأنت تقول هذا خير لى ، كيف يكون هذا خيرا لى وقد نفد الطعام والماء ، وبقيت أنا وأنت فى هذا المكان فإن ذهبت وتركتنى على حال ذهبت بهم وغم ما بقيت ، وإن أقمت معى متنا جميعاً فكيف يكون هذا خيرا لى ، فقال : أما

بكائى يا بنى فوددت أنى فديتك بجميع مالى وحظى من الدنيا ، ولكنى والد ومنى رقة الوالد، وأما ما قلت كيف هذا خيرا لى فلعل ما صرف عنك يا بنى أعظم مما ابتليت به ، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، فبينا هو يحاوره إذ نظر لقمان أمامه فلم ير ذلك الدخان والسواد ، فقال فى نفسه : قد رأيت ولعله أن يكون ربى عز وجل قد أحدث بما رأيت شيئا ، فبينما هو يفكر فى هذا إذ نظر أمامه فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بيض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحا ، فلم يزل يؤمه حتى كان منه قريبا فتوارى عنه ثم صاح به فقال : أنت لقمان ، قال : نعم ، قال : أنت الحكيم ، قال : كذلك يقال ، وكذلك نعتنى ربى ، قال : ما قال لك ابنك هذا السفيه ، قال : من أنت يا عبد الله أسمع كلامك ولا أرى وجهك. قال : أنا جبريل لا يرانى إلا ملك مقرب أو نبى مرسل ، لولا ذلك لرأيتنى فما قال لك ابنك هذا السفيه ، فقال لقمان : إن كنت جبريل فأنت أعلم بما قال ابنى، فقال جبريل : ما لى بشىء من أمركما إلا أن حفظتكما ، وقد أمرنى ربى بخسف هذه المدينة ، وما يليها فأخبرونى أنكما تريدان هذه المدينة فدعوت ربى أن يحبسكما عنى بما شاء فحبسكما عنى بما ابتلى به ابنك ، ولولا ما ابتلى به ابنك لخسف بكما مع من خسف به ، قال : ثم مسح جبريل يده على قدم الغلام فاستوى قائما ، ومسح يده على الذى كان فيه الطعام فامتلأ طعاما ، ومسح يده على الذى كان فيه الماء فامتلأ ماء ، ثم حملهما وحماريهما فإذا هما فى الدار التى خرجا منها.

وليعلم أنه من أعظم أدلة الزهد واليقين الكرم والتصدق على الفقراء والمساكين ، وقد وردت فى ذلك آيات كريمة ، وأحاديث عديدة ، فقد قال سبحانه : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى** ﴾ قال المفسرون : أى أعطى حق الله من ماله وصدق بالحسنى ، وهو الخلف ، أى بأن الله يخلف عليه ، وقيل هى الجنة ، وقيل كلمة التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ أى للطريقة اليسرى ، وهى العمل بالطاعة ، وقيل اليسرى الجنة . وقوله تعالى : ﴿ **بخل واستغنى** ﴾ أى بخل بالإنفاق فى الطاعات ، واستغنى فى دنياه باللذات ، وكذب بالحسنى ، أى بكلمة التوحيد ، فسنيسره للعسرى ، أى النار ، وسميت عسرى لإفضائها إلى العسر . وروى أبو موسى الأشعرى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : على كل مسلم

صدقة ، قالوا : فإن لم يجد ، قال : فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل ، قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف ، قالوا : فإن لم يفعل. قال : فليأمر بالخير ، قالوا : فإن لم يفعل ، قال : فيمسك عن الشر فإنه له صدقة . وفى الصحيح عن أبى هريرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا . وعن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ما طلعت الشمس إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر ولهى ، وملكان يناديان : اللهم عجل لمنفق ماله خلفا ، ولممسك ماله تلفا ، وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجزى بها حتى ما تجعل فى فم امرأتك ، وقال السفيرى: روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال للزبير : يا زبير إنى رسول الله إلى الناس عامة ، وإليك خاصة ، أتدرى ماذا قال ربكم حين استوى على عرشه ونظر إلى خلقه ، قال : عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم ، أرزاقكم بيدى ، فلا تتعبوا فيما تكفلت لكم ، فاطلبوا منى أرزاقكم ، وإلى فارفعوا حوائجكم ، انصبوا إلى أنفسكم أصب عليكم أرزاقكم ، أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قال : عبدى ، أَنفق أُنفق عليك ، وأوسع أوسع عليك ، ولا تضيق فأضيق عليك ، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات ، متواصل إلى العرش ، فلا يغلق فى ليل ولا نهار ، وينزل الله منه الرزق على كل امرئ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته ، من أكثر أكثر الله له ، ومن أقل أقل الله له ، يا زبير ، إن الله يحب الإنفاق ويبغض الإقتار ، وإن السخاء من اليقين والبخل من الشك ، ولا يدخل النار من أيقن ، ولا يدخل الجنة من شك، يا زبير ، إن الله يحب السخاء ولو بفلق تمرة ، ويحب الشجاعة ولو بقتل عقرب أو حية .

خاتمة : إن الدعاء لا ينافى التوكل ، كما أن التطبب ومعاطاة الأسباب لا تنافى التوكل ، وقد ورد الأمر به فى آيات وأحاديث كثيرة ، قال تعالى : ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾ وعن أبى سعيد الخدرى

قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من مسلم دعا دعوة ليس قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال ، إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له فى الآخرة ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها . وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ما من مؤمن ينصب وجهه إلى الله تعالى يسأله مسألة إلا أعطاه إياها إما أن يعجلها وإما أن يدخرها له فى الآخرة ما لم يعجل ، قالوا : وما عجلته ؟ قال : يقول دعوت الله عز وجل فلا أراه يستجاب لى . قال العلماء : وللدعاء آداب ، منها أن يرصد به الأوقات والأحوال الشريفة ، كما أخر يعقوب عليه السلام الاستغفار لبنيه إلى السحر ، وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا نودى للصلاة فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء . وروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء ، وفى حديث أنس عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : يستجاب الدعاء فى أربعة مواطن ، عند الأذان والإقامة إذا صفوا للصلاة وعند قراءة القرآن ، وعند نزول الغيث ، وعند القتال ، فى سبيل الله ، وعند كل ختمة دعوة مستجابة ، ومنها الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فروى الترمذى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شىء حتى تصلى على نبيك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنها حضور القلب ، ففى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه ، ومنها أكل الحلال قبل الدعاء ففى أفراد مسلم من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك . ومنها ألا يستعجل الإجابة فربما كانت المصلحة فى التأخير ، فعنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إن الله عز وجل يدعو عبده المؤمن يوم القيامة فيقول : أى عبدى إنى أمرتك أن تدعونى وقد وعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعونى ، فيقول : نعم يا رب ، فيقول : وهل كنت ترى لبعض دعائك إجابة وبعضه لا ترى له إجابة ، فيقول : نعم يا رب ، فيقول : أما إنك ما دعوتنى بدعوة إلا استجبت لك فإما أن عجلتها لك فى الدنيا وإما ادخرتها لك فى الآخرة ، أليس

دعوتني يوم كذا وكذا بغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ، فيقول : بلى يا رب ، فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا ، ودعوتنى يوم كذا وكذا لحاجة فلم أقضها لك ، فيقول : نعم يا رب ، فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا، قال : فيتمنى العبد فى ذلك الوقت فيقول : يا ليتنى لم يعجل لى من دعائى بشيء ، فيا من زاده قليل وطريقه بعيد ، يا مقبلا وعجلا على ما يضره تاركا ما يفيد، أنسيت هجوم الموت العظيم الشديد ، أغفلت عن نزول اللحد المهلك المبيد ، أما تخاف الحساب ، إذا نشر الكتاب رقيب عتيد ، من لك إذا تلهف القادم ، وتأسف النادم ، وأقلقت المظالم ، وتعلق المظلوم بالظالم ، كم متجبر هان بالامتهان ، وود عند شهادة الأركان ، أنه ما كان ، يا له من يوم يخرس فيه لسان الإنسان ، ويقلق عند بروز النيران الحيران ، فابك على ذنوبك وتأسف للعصيان ، فما يوضع فى الميزان مثل الأحزان ، يا قليل الإخلاص والتقى ، ستندم على التفريط يوم اللقا ، يا مطمئنا إلى دار قليلة البقا ، إيثار ما يفنى على ما يبقى من الشقا ، كم معصية فعلتها وما اتقيت ، كم خطيئة بارزت بها وما استحييت ، كم موعظة سمعتها وما ارعويت ، كم دعيت إلى ما ينفعك فأبيت ، كم أقبل عليك مولاك بعظته فوليت، يا من زمانه ينقضى بعسى وسوف وأرجو وليت ، يا من جسده حى وقلبه ميت ، متى تتقى من براك ، متى تراقب من يراك ، متى تعرف شكر من أولاك ، متى تخجل من ذل زلل قد علاك ، يا بعيد الأمل أجلك قريب ، أيها الغافل ستدعى فتجيب ، يا مغتر بالسلامة سهم التلف مصيب ، يا راحلا عن قليل ساكن القبر غريب ، يا ناسيا ما بين يديه من الأمر العجيب .

كـم تناديك الخطايا رائد الموت المشيب
سوف تدعوك المنايا وعلى رغم تجـيب

أيها المشغول طول الليل بالمنام ، وطول النهار بالحطام ، أترضى بمشاركة الأنعام، هذب النفس فهى المقصود لا الأجسام .

يا خـادم الجسم كـم تشقى بخدمته أتطلب الربح فيما فيـه خـسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنـت بالنفـس لا بالجسم إنسان

كيف يسوغ لك المطعم وقد فعلت ما تعلم ، يا معوجا بالشقاق لا يتقوم ،

يا مرتضعا ثدى الأمل عن قليل تفطم ، أما يؤثر فيك عذل اللوم ، إن كان لك عذر فقل وتكلم ، سيظهر قبيحك غدا فإلى كم يكتم ، أين غضك عن كل محرم ، أين إمساكك لسانك ، فالتقى ملجم ، تأخذ أعراض الناس وتلدغها لدغ أرقم ، لسانك معسول بالخداع وقلبك علقم ، اللذة تفنى والعذاب يبقى هل تفهم ، يا مصرا على الذنوب مثلك لا يسلم ، إن كنت قد انتبهت فاعزم على هجر النوم ، إن كنت رجلا فزاحم أويسا وابن أدهم ، القلب غائب والسر ذاهل فمن ذا يكلم . وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا خيرا من ماضيه ، اللهم يا من فتح بابه للطالبين ، وأطلق بالسؤال ألسنة القاصدين ، نسألك أن تجعلنا من أوليائك المقربين المتوكلين ، وحزبك المفلحين ، وأن تجعلنا من الآمنين من الفزع الأكبر يوم الدين ، اللهم اجعل الإيمان لنا سراجا ، ولا تجعله لنا استدراجا ، وعلمنا ما لم نعلم ، وثبت قلوبنا على دين نبيك المعظم ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى آله الطيبين، وأصحابه المكرمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

المجلس السابع والأربعون
فى فضل الصحابة يقرأ فى جمادى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١) . . .

الحمد لله القديم الأحدى ، العظيم الصمدى ، الدائم الأبدى ، القائم السرمدى، رفع بقدرته السماء ، وأجرى بحكمته الماء ، وعلم آدم الأسماء ، وأمكنه من العيش الهنى . فخالف بالأكل الصواب ، فكشف الخلاف عنه الجلباب ،

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى أحكم بحكمته ما فطر وبنى ، وقرب من خلقه برحمته ودنا ، ورضى بالشكر من بريته لنعمه ثمنا ، وأمر بخدمته لا لحاجته بل لنا ، يغفر الخطايا لمن أساء وجنى ، ويجزل العطايا لمن كان محسنا ، بين لقاصديه سبيلا وسننا ، ووهب لعابديه جزيلا يقتنى ، وأثاب حامديه ألذ ما يجتنى ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .

أحمده مسر الحمد ومعلنا ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من تردد بين جمع ومنى ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر المتخلل بالعباءة راضيا بالعنا ، وهو الذى أراد بقوله تعالى وعنى، ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، وعلى عمر المجد فى عمارة الإسلام فما ونى ، وعلى عثمان الراضى بالقدر وقد حل بالفناء الفنا ، وعلى على الذى بالغنا فى مدحه والفخر لنا ، وعلى سائر آله وأصحابه الأمناء ، وسلم تسليما ا هـ منه .

فخرج وما يعرف الباب ، لشوم ارتكاب النهى فما زال يبكى الهفوات ، ويستدرك سالف الفوات ، حتى عطفت على تلك العبرات ، رحمة الراحم الحفى ، فاحذر من الأفعال الخباث ، فإنها سبب الالتياث ، وتعلق بالمستغاث ، ينقذك من جهل العمى، تفرد بالإنعام والجود ، وأذل الأعناق له بالسجود ، وتنزه عن مشابهة كل موجود ، بالوجود الأزلى موصوف بالرضا ويحذر منه السخط ، ومعروف بالكرم فإياك والقنط ، شرط عليك التقوى فقم بالذى شرط ، فإنه لا ينسى أجر التقى . قضى القضاء قبل خلق الخلق وفرغ ، وأنزل القرآن والزمن من النذر قد فرغ ، لينذركم به ومن بلغ ، باللسان العربى . وهو المكتوب المسموع المعروف ، المحفوظ المتلو المألوف ، والمتكلم به بالكلام موصوف ، نزله روح القدس على قلب النبى . لا يخلق على كثرة التكرار ، ولا يبلى ، ولا يقدر الخلق على مثله حاشا وكلا ، تعرف الملائكة كل بيت فيه يتلى ، معرفتهم بالكوكب المضى .

أحمده على العزم القويم القوى ، وأستعيذه من الشيطان الرجيم الغوى ، وأشهد له بالتوحيد شهادة خالصة من الشك الردى ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله استخرجه من العنصر الزكى ، ونصره بالرعب قبل المشرفى ، أرسله بالدليل الواضح الجلى ، وزهده فى مجالسة الغنى الغبى ، ورغبه فى صحبة الفقير الضعيف القصى ، وعاتبه فى صهيب الرومى وبلال الحبشى ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، فصلى الله على سيدنا محمد الهاشمى القرشى ، المكى التهامى الزمزمى الأبطحى ، وعلى صاحبه المخصوص بفضيلة ثانى اثنين ، وهو فى القبر مضاجعه كهاتين ، كيف لا وقد كانا رفيقين ، فى الزمان الجاهلى . وعلى الذى كانت الشياطين تفر من ظله ، وتتفرق هيبة من أجله ، إذا سمعوا خفق نعله هربوا من الأحوذى ، وعلى مصابر البلاء ، من أيدى الأعداء ، الذى تستحى منه ملائكة السماء ، سلام الله على ذلك الحيى ، وعلى الذى ملئ ، علماً وخوفاً ، وعاهد على ترك الدنيا فأوفى ، ونحن والله بحبه أوفى من حب الرافضى ، وعلى جميع أصحابه وأزواجه وأتباعه على منهاجه، ما قام مكلف بالفرض الرسمى ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى**

وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : الكلام على هذه الآيات فى أربعة فصول .

الفصل الأول : فى تفسيرها ، قال المفسرون رحمهم الله تعالى : **﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ﴾** أى متلبساً به ، أو لأجل الهدى ، والمراد به الدليل الواضح أو القرآن **﴿ ودين الحق ﴾** هو الإسلام **﴿ ليظهره على الدين كله ﴾** أى ليعليه على كل الأديان ، بنسخ ما كان حقا وإظهار فساد ما كان باطلاً ، وقيل ليظهر رسوله عليه الصلاة والسلام ، وقد كان ذلك بحمد الله تعالى ، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان ، وانقهر له كل أهل الملل ، وقيل : إن تمام هذا الإعلاء عند نزول عيسى عليه السلام، وخروج المهدى رضى الله تعالى عته ، حيث لا يبقى حينئذ دين سوى دين الإسلام **﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾** على أن ما وعده عز وجل من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح كائن لا محالة ، أو كفى بالله شهيداً على رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ادعاها وأظهر الله تعالى المعْجزة على يده ، وذلك شهادة منه تعالى عليها **﴿ محمد رسول الله ﴾** أى هو أو ذاك الرسول المرسل بالهدى محمد وقرئ بنصب محمد على المدح **﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾** والمراد بمن معه عند ابن عباس من شهد الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة ، وهى سمرة أو سدرة، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفرون ، وقيل بايعوه على الموت ، وكان عددهم خمسة عشرة مائة ، وقيل : أربع عشرة مائة ، وقال الجمهور : المراد بهم جميع أصحابه عايه الصلاة والسلام ، وأشداء جمع شديد ورحماء جمع رحيم، والمعنى أن فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين ، ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين، ونحوه قوله تعالى : **﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾** . وقد روى عن الحسن أن من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس ثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، قال الوالد عليه الرحمة فى روح المعانى : والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء، فقد أخرج أبو داود عن البراء قال : قال رسول

الله ﷺ : إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما . وفى رواية الترمذى : ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا ، وفى الأذكار النووية أنها مستحبة عند كل لقاء . وأما المعانقة فقال الزمخشرى : كرهها أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وكذلك التقبيل ، قال : لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئاً من جسده ، ورخص أبو يوسف عليه الرحمة فى المعانقة ، ويؤيد ما روى عن الإمام أبى حنيفة ما أخرجه الترمذى عن أنس قال : سمعت رجلاً يقول لرسول الله ﷺ : يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال : لا ، قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا . وفى رواية إلا أن يأتى من سفر ، قال : أيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال : نعم .

وفى فتاوى ابن حجر الحديثية : لا بأس بالبر والإحسان على عدو الدين إذا تضمن مصلحة شرعية ، وقوله تعالى : ﴿ **تراهم ركعاً سجداً** ﴾ أى مصلين وهو إخبار عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها ﴿ **يبتغون فضلاً من الله** ﴾ وهو الجنة ﴿**ورضوانا** ﴾ يعنى رضا الله تعالى عنهم ﴿ **سيماهم** ﴾ أى علامتهم وقرئ سيماؤهم بزيادة ياء بعد الميم والمد ﴿ **فى وجوههم** ﴾ أى فى جباههم أو هى على ظاهرها ﴿**من أثر السجود** ﴾ وهل هذه العلامة فى الدنيا أو الآخرة ؟ فى ذلك قولان أحدهما : إنه فى الدنيا ، وهى السمت الحسن والخشوع والوقار والتواضع . وقيل : ندى الطهور وأثر التراب على الجباه ، وقيل اصفرار الوجه من أثر السهر ، وقيل : ظهور الأنوار عليه ، وشاع تفسير ذلك بما يحدث فى جبهة السجاد مما يشبه أثر الكى وثفنة البعير. وكان على بن الحسين زين العابدين وعلى بن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم يقال لكل منهما ذو الثفنات ؛ لأن كثرة سجودهما أحدث فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير ، وهى ما يقع على الأرض من أعضائه إذا غلظ ، قال البقاعى : إن من السيما ما يصنعه بعض المرائين من أثر هيئة السجود فى جبهته فإن ذلك من سيما الخوارج . وعن ابن عباس عن النبى ﷺ : إنى لأبغض الرجل وأكرهه إذا رأيت بين عينيه أثر السجود ، ذكره الخطيب . وأخرج البيهقى عن حميد بن عبد الرحمن قال : كنت عند السائب إذ جاء رجل وفى وجهه أثر السجود فقال : لقد أفسد هذا وجهه ، أما والله ما هى السيما التى سمى الله تعالى ، ولقد صليت على وجهى منذ ثمانين سنة ما أثر السجود بين عينى ، ونظيره ما حكى عن بعض

المتقدمين قال : كنا نصلى فلا يرى بين أعيننا شيء ، ونرى أحدنا الآن يصلى فترى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض ، والقول الثاني: إن هذه السيما فى الآخرة ، أخرج البخارى فى تاريخه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة ، وفى رواية : هو النور يوم القيامة ، وقيل : إنهم يبعثون غراً محجلين من أثر الطهور ﴿ **ذلك مثلهم** ﴾ أى صفتهم ، والمعنى إن صفة محمد ﷺ وأصحابه ﴿ **فى التوراة** ﴾ هذا ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ أى هذا المثل المذكور فى التوراة هو مثلهم فى الإنجيل ، وقيل إن المتقدم مثلهم فى التوراة وأما مثلهم فى الإنجيل ﴿ **كزرع** ﴾ وقيل : إن مثلهم فى التوراة والإنجيل كزرع ﴿ **أخرج شطأه** ﴾ أى فراخه وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه أى فى جانبيه ، وقال قطرب : شوك السنبل يخرج من الحبة عشر سنبلات ﴿ **فآزره** ﴾ أي ساواه وصار مثله فقواه لأن الأصل يتقوى بفروعه ﴿ **فاستغلظ** ﴾ أى صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان رقيقاً ﴿ **فاستوى على سوقه** ﴾ وهو جمع ساق ، أى فاستقام على قصبه وأصوله ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ أى زراعته لقوته وحسن منظره ﴿**ليغيظ بهم الكفار** ﴾ وهنا تم المثل ، وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة رضى الله تعالى عنهم ، قلوا فى بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس . وهذا ما اختاره بعضهم ، وقد أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك وابن جرير وعبد بن حميد عن قتادة وذكرا عنه أنه قال أيضاً : مكتوب فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وفى الكشاف هو مثل ضربه الله تعالى لبدء ملة الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم ؛ لأن النبى ﷺ قام وحده ثم قواه الله تعالى بمن معه كما يقوى الطاقة الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها ، وظاهره إن الزرع هو النبى عليه الصلاة والسلام والشطء أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، فيكون مثلاً له عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا لأصحابه فقط كما فى الأول ، ولكل وجهة ، قال الإمام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه : من أصبح وفى قلبه غيظ على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية .

الفصل الثانى : فيما ورد فى حق الصحابة رضى الله تعالى عنهم من الآيات والأحاديث وأقوال السلف ، واعلم أولاً أن تعريف الصحابى على ما هو المشهور ،

من رأى النبى عليه الصلاة والسلام أو رآه النبى ومات على الإيمان ، وإن تخللت بينهما ردة ، قال ابن حجر : اعلم أن الذى أجمع عليه أهل السنة أنه يجب على كل أحد تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم والكف عن الطعن فيهم ، والثناء عليهم ، فقد أثنى الله تعالى عليهم فى آيات من كتابه العزيز فمنها قوله تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ فأثبت سبحانه لهم الخيرية على سائر الأمم ، ولا شىء يعادل شهادة الله تعالى لهم بذلك . ومنها قوله عز وجل : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ والصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى هاتين الآيتين هم المشافهون بهذا الخطاب ، ولا يكون الأخير والشاهد إلا عدلاً، ومنها قوله تعالى : ﴿ **يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ ومنها قوله عز شأنه : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ ومنها قوله عز من قائل : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ وقد رضى سبحانه وتعالى فى هذه الآيات ولا يقع الرضا منه سبحانه إلا من علم موته على الإسلام ، وأما من علم موته على الكفر فلا يمكن أن يخبر الله تعالى بأنه راض عنه ، وعلم أن هذه الآيات صريحة فى رد من يزعم أن الصحابة غير عدول أو أنهم ارتدوا بعد وفاة نبيهم إلا نحو ستة أنفس منهم ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، فينبغى للمسلم أن يتصف بقوله تعالى : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ .

وأما الأحاديث النبوية فكثيرة ، منها ما فى الصحيحين أنه ﷺ قال : « لا تسبوا أصحابى فلو أن أحداً ، وفى رواية أحدكم ، أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » . وروى الدارمى وابن عدى وغيرهما أنه ﷺ قال : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، قال فى التبصرة : روى عنه ﷺ أنه قال : « إن الله اختارنى واختار لى أصحاباً فجعل لى منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً (١) ولا عدلاً » . وروى الترمذى والحاكم : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، وفى رواية أخرى : « خير الناس قرنى الذى أنا فيه ، ثم الذين يلونهم

---

(١) قوله صرفاً أى : فرضاً ونفلاً ، ا . هـ منه .

ثم الذين يلونهم ، والآخرون أرذال » . وأخرج الخطيب البغدادى أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إذا ظهرت الفتن ، أو قال البدع ، وسب أصحابى فليظهر العالم علمه فمن يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » . وروى الديلمى عن أنس رضى الله تعالى عنه : « إذا أراد الله برجل من أمتى خيراً ألقى حب أصحابى فى قلبه » . وروي الترمذى عن عبد الله بن مغفل : « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضاً بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله . ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » . وروى الطبرانى وغيره عن على كرم الله تعالى وجهه : الله الله فى أصحاب نبيكم فإنه أوصى بهم . وأما أقوال السلف ، فمنها ما قاله ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : إن الله عز وجل نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه ﷺ . وقال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ونقل دينه . وقال العلماء : ولو لم يرد شيء من الآيات والأحاديث التى ذكرناها لأوجبت الحالة التى كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة فى الدين والصبر والورع واليقين القطع بتعديلهم ، والاعتقاد بنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع الجائين بعدهم . وليعلم أن الصحابة أصناف : مهاجرون وأنصار وخلفاء ، والمشهور أن أفضلهم أبو بكر فعمر فعثمان فعلى ، وقال كثير من العلماء بتفضيل على على عثمان ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة ، ثم أهل بدر ، ثم باقى أهل أحد ، ثم باقى أهل بيعة الرضوان بالحديبية ، ثم باقى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

الفصل الثالث : فى فضائل أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر ، يلتقى مع رسول الله ﷺ فى مرة ، ولقبه عليه الصلاة والسلام عتيق لجمال وجهه ، قال ابن الجوزى : وكان على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء الصديق ، فقال رسول الله ﷺ ليلة أسرى به جبريل : « إن قومى لا يصدقونى ، فقال له جبريل : يصدقك

أبو بكر ، وهو الصديق ، ويكفيه فخراً قوله تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾ قال الشعبى : عاتب الله أهل الأرض جميعاً فى هذه الآية غير أبى بكر ، وذكر المفسرون أن المشركين كانوا يؤذون المسلمين فى مكة فتجهز أبو بكر ليلحق بالمدينة فقال له رسول الله ﷺ : « على رسلك » ، أى : اصبر فإنى أرجو أن يؤذن لى ، ثم خرجا إلى الغار ، وهو غار بجبل ثور قريب من مكة وبينهما مسيرة ساعة ، فجعل أبو بكر يشق ثوبه ويسد الأنقاب فبقى نقب فسده بعقبه فمكث ثلاث ليال فى الغار فخرجت قريش تطلب الآثار ، فلما مروا بالغار رأوا نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على الباب ، ولقد أحسن البوصيرى بقوله :

أخـــرجوه مـنها وآواه غـار ... وحـــمته حــمامة ورقـــاء

وكـــفته بنســـجها عنكبوت ... ما كـــفته الحمامة الحصــداء

فـاختـفى منهم على قرب مرآ ... ه ومن شــدة الظهور الخـفاء

ونحـــا المصطفى المدينة فاشتا ... قـــت إليه من مكة الأنحـاء

وقوله :

فالصـدق فى الغار والصديق لم يرما ... وهـــم يقـــولون ما بالغار من أرم

ظـــنوا الحمام وظنوا العنكـبوت على ... خـــير البرية لم تنســج ولم تحـــم

وقـــاية الله أغنت عن مضاعفـــة ... مـــن الدروع وعن عال من الأطم

وأخرجا فى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما . وليعلم أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه معروف الفضل فى الجاهلية والإسلام ، ولما جاء الإسلام كان أول من أسلم وهو أول من خاصم عن رسوله ﷺ . روى عن أسماء ذات النطاقين بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما قالت : أتى الصريخ أبا بكر فقيل له : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا وإن له غدائر ، فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلاً يقول ربى الله ، فلهوا عن رسول الله ﷺ ، وأقبلوا على أبى بكر ، فرجع إلينا فجعل لا يمس

شيئاً من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام . وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أمنَّ الناس على فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى عز وجل لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقى فى المسجد باب رلا سد إلا باب أبى بكر[1]» . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر » فبكى أبو بكر وقال : « وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله » . وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : رآنى النبى ﷺ أمشى أمام أبى بكر فقال : « يا أبا الدرداء تمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة. ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر » قال فى التبصرة : وقد انفرد أبو بكر رضى الله تعالى عنه بأن أفتى فى حضرة رسول الله ﷺ ، وقدمه فى الصلاة ، ونص عليه نصا خفيا بإقامته مكانه فى الصلاة . وبما روى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : أتت امرأة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه فقالت : أرأيت إن جئت ولم أرك! كأنها تقول الموت ،قال : إن لم تجدينى فاطلبى أبا بكر. أخرجاه فى الصحيحين ، وفيهما أيضاً أنه ﷺ قال لعائشة : ادعى لى أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتاباً فإنى أخاف أن يقول قائل ويتمنى متمن ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر . وأخرج الواقدى والحاكم عن عائشة قالت : كان أول بدء مرض أبى أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة ، وكان يوماً بارداً فحم خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ، وتوفى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وسنه ثلاث وستون سنة ، وافق عمره عمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان أسن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام . وأخرج الطبرانى عن الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما ، قال : لما احتضر أبو بكر قال : يا عائشة انظرى اللقحة كنا نشرب من لبنها والجفنة التى كنا نطبخ فيها والقطيفة التى كنا نلبسها فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلى أمرالمسلمين ، فإذا مت فارددية إلى عمر ، فلما مات أرسلت به إلى عمر ، فقال : رحمك الله

---

(١) وقد تقدم هذا الحديث فى بعض الدروس برواية خوخة ، فلا تغفل ، أ هـ منه .

يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك ، ولما احتضر كتب كتاباً بعد أن شاور أعيان الصحابة فى خلافة عمر بن الخطاب ثم ختمه وسلمه لعثمان وخرج به إلى الناس فبايعوا. وقالت عائشة : لما أحضر أبو بكر قال : انظروا ثوبىَّ هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت . ودفن فى حجرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت مدة خلافته نحواً من سنتين ونصف ، رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

الفصل الرابع : فى فضل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، هو عمر بن الخطاب بن نفيل ، وعند كعب بن لؤى يلتقى مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى النسب ، وقد كان مقدماً فى الجاهلية والإسلام ، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين ، وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يلقب بخليفة رسول الله ﷺ ثم كان عمر يكتب فى أيام خلافته من خليفة خليفة رسول الله ، ثم لقب بهذا اللقب . قال الحافظ الذهبى : أسلم فى السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة . وكان إسلامه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ففرح به المسلمون وظهر الإسلام بمكة عقب إسلامه . وروى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : خرج عمر متقلداً بالسيف فلقيه رجل من بنى زهرة قال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمداً ، قال : وكيف تأمن فى بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً، فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى أنت عليه ، قال: أولا أدلك على العجب يا عمر ، إن ختنك وأختك قد صبوا وتركا دينك الذى أنت عليه . فمشى عمر فأتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له : خباب ، فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت ، فدخل عليهما فقال : ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ، قال : فكانوا يقرءون طه ، فقالا : ما عدا حديث تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما . فقال له ختنه : أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك، فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها ، فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها ، فقالت وهى غضبى : يا عمر إن كان الحق فى غير دينك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فلما يئس عمر قال: أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرؤه ، فقالت أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، أو توضأ ، ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى

إلى قوله : ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ فقال عمر : دلونى على محمد ، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال : ابشر يا عمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ ليلة الخميس ، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام . قال : وكان رسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار قال : وعلى باب الدار حمزة وطلحة وأناس من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة : نعم ، فهذا عمر ، فإن يرد الله بعمر خيراً يسلم ويتبع النبى ﷺ ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً . قال : والنبى ﷺ داخل يوحى إليه فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، وقال : « ما أنت بمنته يا عمر ، حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة » ، ثم قال : « اللهم اهد عمر بن الخطاب اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب » . فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فأسلم . وقال : اخرج يا رسول الله . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما أسلم عمر كبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد ، وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ، قال : « بلى والذى نفسى بيده » ، قال : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن ، قال عمر : فخرجنا فى صفين ، حمزة فى أحدهما وأنا فى الآخر ، حتى دخلنا المسجد فنظرت قريش إلى حمزة وإلىَّ فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها . قال : فسمانى رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق .

وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر نزل جبريل فقال : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر ، وروى البزار والحاكم عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل ﴿ **يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ورى البخارى وغيره عن ابن مسعود قال : ما زلنا فى عزة منذ أسلم عمر ، وابن سعد عنه أيضاً قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وإمامته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا وسبيلنا . وأخرج أحمد بن حنبل والترمذى والطبرانى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لو كان نبى بعدى لكان عمر بن الخطاب » ، وأخرج الترمذى : إنى لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر ، وفى الصحيحين من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى

الله تعالى عليه وسلم أنه قال لعمر : « والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » . وفى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . وأخرج النسائى وأحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر » . وفى حديث على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « اتقوا غضب عمر فإن الله يغضب إذا غضب » .

ومن كراماته : ما أخرجه البيهقى والخطيب البغدادى وأبو نعيم أن عمر وجه جيشاً فى أيام خلافته إلى نهاوند من بلاد العجم ، ورأس عليهم رجلاً يدعى سارية فبينا عمر يوم الجمعة يخطب فى مسجد المدينة جعل ينادى : يا سارية الجبل ، من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناس بعضهم لبعض فقال لهم على : ليخرجن مما قال ، فلما فرغ سألوه فقال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون بجبل فإن عدلوا إليه قاتلوا ، وإن جاوزوا هلكوا ، فخرج منى ما تزعمون أنكم سمعتموه ، قال ابن مردويه : فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر فى ذلك اليوم فعدلوا إلى الجبل ففتح الله تعالى عليهم ، انتهى وله طرق آخر . ورآه طلحة ليلة يدخل بيتاً فلما أصبح دخل طلحة ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقال : ما صنع عندك ذلك الرجل فقالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا ويأتينى بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى ، فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبع ، وكان يقول : لو مات جدىٌ بطف الفرات لخشيت أن يحاسب الله عمر ، وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء . وقد توفى رضى الله تعالى عنه فى آخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، وسنه ستون سنة ، ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر ، وكان سبب وفاته أنه كان للمغيرة عبد مجوسى اسمه أبو لؤلؤة، وكان ضرب عليه المغيرة مائة درهم فى الشهر فجاء إلى عمر يشتكى شدة الخراج فقال : ما صنعتك ، قال : حداد ونقاش ونجار ، قال : ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطاً ثم عاد بعد ليال فقال : يا أمير المؤمنين إن المغيرة زاد على فكلمه كى يخفف عنى ، فقال : أحسن إلى مولاك ، ومن نية عمر أن يكلم المغيرة فيه فغضب وقال : يسع الناس كلهم عدله غيرى ، وأضمر قتله واتخذ خنجراً ذا رأسين

نصابه فى وسطه وسنه فكمن فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس ، فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات ، وكان ذلك يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة ، ودفن يوم الأحد مستهل المحرم ، بجنب أبى بكر فى حجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال سعد بن أبى طلحة : خطب عمر رضى الله تعالى عنه فقال : رأيت كأن ديكاً نقرنى نقرة أو نقرتين ، وإنى لا أراه إلا حضور أجلى ، وإن قوماً يأمرونى أن أستخلف ، وإن الله لم يكن أن يضيع دينه ولا خلافته، فإن عجل بى فأمر الخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقد جعلتها شورى فى عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ، ثم إن أهل الشورى بايعوا عثمان ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

الفصل الخامس : فى فضائل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وبه يجتمع مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان حسن الوجه ، كث اللحية ، أجمل الناس إذا اعتم ، وهو من السابقين الأولين وأول المهاجرين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عنهم راض ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن . قال فى الصواعق : ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره ، فقد تزوج رقية بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل النبوة ، وماتت عنده فى ليالى غزوة بدر ، فتأخر عنها لتمريض رقية ، فضرب له سهمه ، ولذا عدُّوه من البدريين ، ثم زوجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أختها أم كلثوم وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة ، ولما أسلم بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطا ، وقال : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ، والله لا أفكك أبداً حتى تدع ما أنت عليه ، فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه . وعن أنس أنه أول من هاجر إلى الحبشة بأهله ، وقال عليه الصلاة والسلام : إن عثمان لأول من هاجر بأهله إلى الله تعالى بعد لوط عليه السلام ، وأخرج أحمد ومسلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة . وأخرج أبو نعيم : « عثمان أحيى أمتى وأكرمها » ، وعن أبى سعيد

الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : رأيت رسول الله صلى تعالى عليه وسلم من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعاً يديه يدعو لعثمان بن عفان ، يقول : « اللهم عثمان رضيت عنه». وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، قال : أشرف عثمان من القصر وهو محصور فقال : أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم أحد إذ اهتز الجبل فركله بقدمه ثم قال : اسكن أحد ، ليس عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد ، وأنا معه ، قال : فانتشد له رجال ، قال : أنشد بالله من شهد رسول الله تعالى عليه وسلم يوم بيعة الرضوان إذ بعثنى إلى المشركين أهل مكة فقال : هذه يدى وهذه يد عثمان ، فبايع له ، فانتشد له رجال ، قال : أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من يسع لنا بهذا البيت فى المسجد ببيت له فى الجنة فابتعته من مالى فوسعت به المسجد ، فانتشد له رجال ، قال : وأنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم جيش العسرة قال : من ينفق اليوم نفقة متقبلة فجهزت نصف الجيش من مالى ، قال : فانتشد له رجال، قال : وأنشد بالله من شهد [1] بئر رومة [2] يباع ماؤها لابن السبيل فابتعتها من مالى، وأبحتها ابن السبيل ، فانتشد له رجال . وقال عبد الرحمن بن خباب : شهدت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حث على جيش العسرة فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها [3] وأقتابها فى سبيل الله ، ثم حث على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، ثم حض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، قال عبد الله : فأنا رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المنبر وهو يقول : ما على عثمان ما عمل بعد اليوم . وفى الشفاء أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يقتل عثمان وهو يقرأ المصحف ، وإن اللهتعالى عسى أن يلبسه قميصا وإنهم يريدون خلعه، وفى حديث آخر : « يا عثمان إن الله تعالى مقمصك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى » . وقد قتل رضى الله عنه يوم الجمعة صبيحة عيد

---

(١) قوله : من شهد بئر رومة إلخ كذا بالأصل أ هـ .

(٢) الرومة بالراء المهملة المضمومة بئر بالمدينة أهـ منه .

(٣) جمع حلس : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة أ هـ منه .

الأضحى سنة خمس وثلاثين من الهجرة وقصة قتله أشهر من أن تذكر ، وكان قد أحصر فى داره فى المدينة أياماً ، ولم يدخل عليه أحد من باب الدار ؛ لأن الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وجماعة من أبناء الصحابة كانوا على باب داره يمنعون الناس من الدخول عليه ، فدخل الأعداء عليه من دار محمد بن حزم الأنصارى ، وأول من ضربه كنانة بن بشير لعنه الله ، وكان رجلا أزرق قصيراً ، وقد كان عثمان رضى الله تعالى عنه رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى منامه ليلة قتله وهو يقول : أفطر عندنا الليلة فأصبح صائماً ، وأول ما ضرب على يده بالسيف فقطعت يده فقال : أما والله إنها أول كف خطت القرآن ، ومما يشجى قول الشاعر:

وكف يديه ثم أوثق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم ... عفا الله عن ذنب امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صب عليهم الـ ... ـعداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس إدبار النعام الجوافل

وفى ذلك يقول أيضاً أيمن بن خزيم :

ضحوا بعثمان فى الشهر الحرام ولم ... يخشوا على مطمح الكف الذى طمحوا
تعاقد الذابحو عثمان ضاحية ... فأى ذبح حرام ويحهم ذبحوا
وأى سنة كفر سن أولهم ... وباب كفر على سلطانهم فتحوا
ماذا أرادوا أضل الله سعيهم ... بسفك ذاك الدم الزاكى الذى سفحوا

ودفن قرب البقيع ، وكان عمره اثنين وثمانين سنة ، وكان مدة خلافته اثنتى عشرة سنة ، وصلى عليه الزبير بن العوام . وعن زيد بن أبى حبيب : بلغنى أن عامة من أشار بقتل عثمان جنوا . وعن حذيفة قال : أول الفتن قتل عثمان وآخر الفتن خروج الدجال ، والذى نفسى بيده لا يموت رجل وفى قلبه مثقال حبة من حب قتل عثمان إلا تبع الدجال إن أدركه وإن لم يدركه آمن به فى قبره . وعن أنس : إن لله سيفاً مغموداً فى غمده ما دام عثمان حياً فإذا قتل عثمان جرد ذلك السيف فلم يغمد إلى يوم القيامة ، فعليكم إخوانى بموالاة الأصحاب الكرام ، ومحبة المهاجرين والأنصار للنبى عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت أقدامهم فى الدجى قائمة ، وأعينهم ساهرة لا نائمة ، وقلوبهم على الطاعة عازمة ، وهذه أفعال النفوس الحازمة ، فوجبت لهم

نجاة قطعية جازمة ، وجوه يومئذ ناعمة ، وجوه طالما غسلتها الدموع ، وجوه طالما أذلها الخشوع ، وجوه ظهر عليها الاصفرار من الجوع ، خاطرت فى المهالك فأصبحت سالمة ، وجوه يومئذ ناعمة ، وجوه إذا عنت أذعنت وذلت ، وجوه ألفت السجود فما ملت ، وجوه توجهت إلينا وعن غيرنا تولت ، زالت عنها فترة الهجر وتجلت ، فجلت غائمة ، وجوه يومئذ ناعمة . سهرهم إلى الصباح ، قد أثر فى الوجوه الصباح ، واقتناعهم بالخبز القفار والماء القراح ، قد عمل فى الأجسام والأشباح ، وخوفهم من اجتراح الجناح ، قد صيرهم كمقصوص الجناح ، وعلى الحقيقة فكل الأرواح من الخوف هائمة ، وجوه يومئذ ناعمة . تجرى دموعهم فى الخدود كالمياه فى الأخدود ، وتعمل نار الحذر فى الكبود ، فيتمنون عدم الوجود ، فهم بين الركوع والسجود ، ونصب الأقدام القائمة ، وجوه يومئذ ناعمة ، يتفكرون فى السابقة ، ويحذرون من اللاحقة ، وكأنهم يتقون الصاعقة ، أو كأن السيوف على أعناقهم بارقة ، ياشدة قلقهم من الخاتمة ، وجوه يومئذ ناعمة .

وفقنا الله تعالى وإياكم لمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا خيراً من ماضيه ، اللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلمنا بما ينفعنا ، وزدنا علماً ، وامنحنا فهماً وعلماً وحلماً ، اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا . وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى ، اللهم طهر قلوبنا من النفاق ، وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب ، وأعيننا من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، اللهم ارحم آباءنا وأمهاتنا وأقاربنا وكافة أموات المسلمين ، يا خير الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس الثامن والأربعون
فى المعراج يقرأ فى رجب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله فالق الحب والنوى ، وخالق العبد وما نوى ، المطلع على باطن

الضمير وما حوى ، بمشيئته رشد من رشد وغوى من غوى، وبإرادته فسد من فسد واستوى من استوى ، وصرف من شاء إلى الهدى ، وعطف من شاء إلى الهوى ، قرب موسى نجيا ، وقد كان مطويا ، من شدة الطوى، فمنحه فلاحا ، وكلمه كفاحا ، وهو بالواد المقدس طوى ، وعرج بمحمد إليه فرآه بعينيه ، ثم عاد وفراشه ما انطوى، فأخبر بقربه من ربه وحدث بما رأي وروى ، فأقسم على تصديقه من حرسه بتوفيقه عن التوى ، والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى .

أحمده على صرف الجوى ، حمد من أناب وارعوى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما نشر وطوى ، وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله وعود الهدى قد ذوى ، فسقاه بماء المجاهدة حتى ارتوى ، صلى الله تعالى عليه وعلى أبى بكر الصديق صاحبه إن رحل أو ثوى ، وعلى الفاروق الذى وسم بحده جبين كل جبار وكوى ، وعلى ذى النورين الصابر على الشهادة وما التوى، وعلى على الذى زهد فى الدنيا فباعها واجتوى، وعلى جميع آله وأصحابه الذين هم كزرع على سوقه استوى.

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز ، بعد أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ **﴿والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتُمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾** .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : قال الوالد عليه الرحمة فى تفسيره : أقسم سبحانه بجنس النجم المعروف ، ومعنى هوى غرب ، وقيل : طلع ، وقال الحسن وأبو حمزة : أقسم سبحانه بالنجوم إذا انتثرت فى القيامة ، وفى رواية عن ابن عباس إذا انقضت فى أثر الشياطين ، وقيل : المراد بالنجم الثريا ، قاله مجاهد وسفيان ، فإن النجم صار علماً بالغلبة لها ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا طلع النجم صباحاً ارتفعت العاهة ، وقول العرب :

طلع النجم عشاء   فابتغى الراعى كساء

طلع النجم غديه فابتغى الراعى كسيه

وقيل : هو الشعرى المرادة بقوله تعالى : ﴿ **وأنه هو رب الشعرى** ﴾ والكهان يتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وقيل : الزهرة وكانت تعبد . وقال ابن عباس ومجاهد والفراء : النجم المقدار النازل من القرآن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإذا هوى بمعنى إذا نزل عليه مع جبريل عليه السلام ، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهويه نزوله من السماء ليلة المعراج ، وقيل : هو الصحابة ، وقيل : العلماء ، والمراد بهويهم غوصهم فى بحار الأفكار ، لاستخراج درر الأسرار ، وقيل : غير ذلك ﴿ **ما ضل صاحبكم** ﴾ وهو نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ، أى ما عدل عن طريق الحق ، وهذا جواب القسم ﴿ **وما غوى** ﴾ أى ما اعتقد باطلاً ، ولا يتكلم به قط ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾ أى عن هوى نفسه ورأيه ، قال العلامة ابن الجوزى فى التبصرة: وذلك أنهم قالوا : إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه ﴿ **إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ أى ما القرآن إلا وحى من الله يوحى ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾ أى علم جبريل عليه السلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **ذو مرة** ﴾ أى قوة وكان من قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه فقلبها عليهم ، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين ﴿**فاستوى * وهو بالأفق الأعلى** ﴾ فيه قولان ، أحدهما فاستوى جبريل ، وهو يعنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، المعنى أنهما استويا بالأفق الأعلى لما أسرى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . والثانى : فاستوى ، أى فاستقام جبريل ، وهو يعنى جبريل بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية ؛ لأنه كان يتمثل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا هبط عليه بالوحى فى صورة رجل ، فأحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يراه على حقيقته ، فاستوى فى أفق المشرق فملأ الأفق ، فيكون المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى فى صورته ، والأفق الأعلى مطلع الشمس ، وإنما قيل له : الأعلى لأنه فوق جانب الغرب فى صعيد الأرض لا فى الهوى ﴿ **ثم دنا فتدلى** ﴾ قال الزجاج : دنا بمعنى قرب وتدلى زاد فى القرب، وفى المشار إليه بذلك ثلاثة أقوال ، أحدها أنه الله جل جلاله ، والمراد به القرب المذكور فى قوله تعالى : من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ، والثانى دنا محمد من ربه ، والثالث أن جبريل دنا من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ **فكان قاب**

قوسين ﴾ القاب القدر ، قال الكسائي : المراد بالقوسين قوس واحد ﴿ **أو أدنى** ﴾ بل أدنى ﴿ **فأوحى** ﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿ **إلى عبده** ﴾ أي عبد الله ، وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال إلى عبده ولم يقل رسوله تشريفاً له عليه الصلاة والسلام كما قال الشاعر :

أصم إذا نوديت باسمى وإننى إذا قـــيل لى يا عبدها لسميع

وقوله تعالى : ﴿ **ما أوحى** ﴾ أى الذى أوحاه جبريل عليه السلام ، وإبهام الموحى به للتفخيم ، مثل قوله تعالى : ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ وروى فى المواهب اللدنية عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أنه قال : لما قرب الحبيب من الحبيب غاية القرب نالته عناية إلهية ، فلاطفه الحق تعالى بغاية اللطف ، وذلك قوله جل جلاله : ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ أى كان ما كان ،وجرى ما جرى ، وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب ، ولطف به ألطاف الحبيب بالحبيب ، فخفى السر ، ولم يطلع عليه أحد ، ولم يعلم أحد ما أوحى إلا الذى أوحى ، وعن سعيد بن جبير أوحى إليه صلى الله تعالى عليه وسلم : ألم أجدك يتيماً فآويتك، ألم أجدك ضالاً فهديتك ، ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ، ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك . وقيل : أوحى إليه سبحانه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك . ذكره الثعلبى والقشيرى : وقيل غير ذلك ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ قال ابن عباس : رأى ربه عز وجل ، والمعنى ما أوهمه فؤاده أنه رأى ولم ير، واختلفوا فى الرؤية فأنكرتها عائشة ومن وافقها ، وقال كثير بوقوعها ، لكنهم اختلفوا ، فقال بعضهم : رأى ربه بعينه ومنهم من قال بقلبه ، ومنهم من قال بالتعدد فمرة بعين رأسه، والأخرى رآه بفؤاده ، ومنهم من توقف ﴿ **أفتمارونه على ما يرى** ﴾ أى أفتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة فتمارونه ، عطف على محذوف ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه : أفتمرونه بفتح التاء وسكون الميم ، يقال : مريته حقه إذا جحدته ، أو المراد بما يرى ما رآه من صور جبريل عليه السلام على ما قال كثير من العلماء ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى** ﴾ هى شجرة النبق فوق السماء السابعة ﴿ **عندها جنة المأوى** ﴾ قال ابن عباس : هى يمين العرش ، وهى منزل الشهداء ، وقيل لها سدرة المنتهى ؛ لأنها كما روى عن ابن عباس إليها ينتهى علم

كل عالم ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى ، أو لأنها تنتهى إليها أعمال الخلائق، بل تعرض على الله تعالى عندها . أو لأنها ينتهى إليها ما ينزل من فوقها وما يصعد من تحتها ؛ أو لأنها تنتهى إليها أرواح الشهداء أو المؤمنين ، وفى الكشاف: لأنها منتهى الجنة وآخرها ﴿ **إذ يغشى السدرة ما يغشى** ﴾ متعلق برآه أو بالجملة المنفية الآتية ، والغشيان التغطية ، وفى إبهام ما يغشى من التفخيم ما لا يخفى . وعن الحسن غشيها نور رب العزة جل شأنه ، وعن سلمة قال : استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأذن لهم فغشيتها ، وقيل غير ذلك . وهذه السدرة نبقها كقلال هجر ، وأوراقها مثل آذان الفيلة ، يسير الراكب فى الفنن منها مائة سنة ، كما فى الأحاديث الصحيحة ﴿ **ما زاغ البصر** ﴾ أى ما عدل بصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يميناً ولا شمالاً ﴿ **وما طغى** ﴾ أى ما جاوز ما رأى بل أثبته إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، أو ما عدل من رؤيته العجائب التى أمر برؤيتها وما جاوزها إلى ما لم يؤمر برؤيته ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ أى والله لقد رأى الآيات الكبرى من آياته تعالى وعجائبه الملكية والملكوتية ، وجاء فى بعض الأخبار أنه رآى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق ، وعن ابن زيد رأى جبريل فى الصورة التى هو بها ، وروى أن له ستمائة جناح كل جناح منها يسد الأفق ، هذا ما كان فى ليلة المعراج قبل الهجرة ، انتهى بزيادة من المواهب وروح المعانى ، وليعلم أنه قد ثبت فى هذه الآيات الكريمات عروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى السماء ، قال فى الأمالى :

وحق أمر معراج وصدق فـفيه نص أخبار عوالى

قال الشارح الفاضل الملا على القارى : أما الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فيكفر منكره لثبوته بقوله تعالى : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ وأما إلى السماء فقد قالوا : إن منكره مبتدع . انتهى . وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى : هل كان الإسراء بجسده صلى الله تعالى عليه وسلم مع روحه أو بروحه فقط ، فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول ، وذهب إلى الثانى طائفة من العلماء ، منها عائشة ومعاوية رضى الله تعالى عنهما ، وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا : كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح،

والصحيح هو قول الجمهور للأحاديث المتعددة فى ذلك ، وكذا اختلفوا فى تاريخ الإسراء فروى أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة ، وقيل : فى ربيع الأول ليلة سبع وعشرين ، وقيل : لسبعة عشر ، من رمضان ، وقيل : فى رجب ، وقيل : غير ذلك ، وكذا اختلفوا فى الموضع الذى أسرى منه ، فقال الحسن وقتادة : أسرى به من نفس المسجد ، ويؤيده حديث الصحيحين ، وقال كثير من المفسرين إنه أسرى به عليه الصلاة والسلام من بيت أم هانئ بنت أبى طالب ، واسمها هند ، ففى سيرة ابن هشام أنها كانت تقول : ما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو فى بيتى نائم عندى تلك الليلة ، وذكر حديثها بطوله .

قال في التبصرة : روى أن نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم حدث عن ليلة أسرى به قال : بينا أنا فى الحطيم مضطجع ، إذ أتانى آت فقدَّ ، أى شق ، ما بين هذه إلى هذه يعنى من ثغرة نحره إلى شعرته ، قال فاستخرج قلبى قال : فأتيت بطشت من ذهب مملوءة إيمانا وحكمة فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار بيضاء يقع خطوها عند أقصى طرفها ، قال : فحملت عليه فانطلق بى جبريل حتى أتيت السماء الدنيا فاستفتح فقيل : من هذا قال جبريل قيل: ومن معك قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم فقيل : مرحباً به ونعم المجيء جاء ، قال ففتح فلما خلصت إذا فيها آدم ، فقال : هذا أبوك آدم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقيل : من هذا قال : جبريل . قيل : ومن معك قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه قال : نعم قال : مرحباً به فنعم المجيء جاء . قال ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال : هذا يحى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : أو قد أرسل إليه قال : نعم ، قال : مرحباً به ونعم المجيء جاء . قال ففتح فلما خلصت إذا يوسف ، قال : هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد على السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل : من هذا قال : جبريل قيل: ومن معك قال : محمد . قيل : أوقد أرسل إليه قال : نعم قيل : مرحباً به

ونعم المجيء جاء ، قال : ففتح فلما خلصت إذا بإدريس ، قال هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ، قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ،ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومن معك قال: محمد قيل : أو قد أرسل إليه ، قال : نعم قال : مرحباً به ونعم المجيء جاء، قال : ففتح فلما خلصت إذا أنا بهرون قال : هذا هرون فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد حتى أتينا السماء السادسة فاستفتح فقيل : من هذا قال جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : أو قد أرسل إليه قال : نعم ، قال مرحباً به ونعم المجيء جاء ، قال : ففتح فلما خلصت إذا أنا بموسى ، قال : هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . قال فلما جاوزته بكى ، فقيل: ما يبكيك قال : أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى ، ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح فقيل : من هذا قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد قيل : أو قد أرسل إليه ، قال : نعم قيل : مرحباً به، ونعم المجيء جاء ، ففتح فلما خلصت إذا إبراهيم قال : هذا إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد على السلام ،ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، فقال : هذه سدرة المنتهى ، قال : وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، قال : ثم رفعت إلى البيت المعمور ، قال : ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة كل يوم ، قال : فرجعت فمررت على موسى فقال : بم أمرت قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، فقال : إن أمتك لا تستطيع لخمسين صلاة ، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فرجعت فوضع عنى عشرا فرجعت إلى موسى، فقال : بم أمرت ؟ قلت : بأربعين صلاة كل يوم ، قال : فإنى قد خبرت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال : فرجعت فوضع عنى عشراً أخر ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أمرت قال : أمرت بثلاثين صلاة كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم ، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد

المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . قال : فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ، فقلت : بعشرين صلاة كل يوم وليلة، فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال : فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أمرت قلت بعشر صلوات كل يوم . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات ، كل يوم فرجعت إلى موسى ، فقال بم أمرت قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : قلت : قد سألت ربى حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم ، فلما نبذت ناد مناد . قد أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى . أخرجاه فى الصحيحين .

وفى أفراد مسلم من حديث أنس عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أتيت بالبراق فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس ، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت ركعتين ، وإنما كان الإسراء إلى بيت المقدس والمعراج من هناك إلى السماء لأربع فوائد : الأولى أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء فى بدء الحديث لاشتد إنكارهم ولو وصفها لهم لم يكن عندهم علم بذلك . فلما أخبرهم ببيت المقدس ووصفه لهم دل صدقه فى ذلك على صدقه فى حديث المعراج. الثانية أنه سير فى الأرض ليستأنس ؛ ثم درج إلى الصعود إلى السماء . الثالثة أن الأنبياء عليهم السلام جمعوا له هناك فصلى بهم فبان فضله بالتقدم عليهم فى دار التكليف . الرابعة أنه مر بالنواحى التى كلم عندها موسى عليه السلام ثم صعد فكلم فى السماء ، ليظهر التفاوت بينهما . وفى المواهب اللدنية للقسطلانى عليه الرحمة أنه عليه الصلاة والسلام لما رجع من سفر الإسراء مر فى بعض طريقه بعير لقريش تحمل طعاماً فيها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما جاء بالعير نفرت منه واستدارت وتصرع ذلك البعير . وفى رواية أضلوا بعيراً قد جمعه فلان قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « فسلمت عليهم » فقال بعضهم : هذا صوت محمد، ثم أتى مكة قبل الصبح وأخبر قومه بما رأى وقال لهم : « إن من آيتى ما أقول لكم، إنى مررت بعير لكم فى مكان كذا وكذا وقد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان وأن مسيرهم سينزلون بمكان كذا وكذا ويأتوكم يوم كذا ، يقدمهم جمل

آدم عليه مسح أسود وغرارتان ، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه عليه الصلاة والسلام . وفى رواية إلى المسجد الأقصى ، سألوه آية فأخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب فدعا الله تعالى فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : لما أسرى بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس كانوا آمنوا ، وسعى رجال من المشركين إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ، قال : أو قد قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ فقال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، فى خبر السماء فى غدوة وروحة ، فلذلك سمى الصديق ، رواه الحاكم فى المستدرك وابن إسحاق، وزاد : ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، حدث هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ، قال : نعم ، قال : يا نبى الله صفه لى فإنى قد جئته ، قال الحسن : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرفع لى حتى نظرت إليه فجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصفه لأبى بكر فيقول أبو بكر : صدقت أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئا ، وقول أبى بكر : صفه لى لم يكن عن شىء فإنه صدقه من أول وهلة ، ولكنه أراد إظهاره عليه الصلاة والسلام لقومه فإنهم كانوا يثقون بأبى بكر ، فإذا طابق خبره عليه الصلاة والسلام ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم. وفى رواية البخارى : جلا الله لى بيت المقدس ، أى كشف الحجب بينى وبينه حتى رأيته . وفى رواية مسلم : فسألونى عن أشياء لم أثبتها فكربت كرباً شديداً لم أكرب مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به . فيحتمل أن يكون حمل إلى أن وضع بحيث يراه ثم أعيد . ففى حديث ابن عباس عند أحمد والبزار : فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه ، وهذا أبلغ فى المعجزة ولا استحالة فيه . فقد أحضر عرش بلقيس فى طرفة عين ، وأما ما وقع فى حديث أم هانئ عند أبى سعد فخيل إلى بيت المقدس وطفقت أخبرهم ، فإن ثبت احتمل أن يكون المراد مثل قريباً منه كما قيل فى حديث : « أريت الجنة والنار » ويؤول قوله جىء بالمسجد جىء بمثاله ، وفى حديث أم هانئ المذكور أنهم قالوا له : كم

للمسجد من باب قال: ولم أك عددتها قال : فجعلت أنظر إليه وأعدها بابا بابا ، ولله تعالى در القائل:

سـر النبى غريب وهو معجزة عظـيمة وذوو الأخـبار ترويه
به عـلا لذوى السبع العلى ودنا إلى مقـام شـريف جل مدنيه
فقـاب قوسـين أو أدنى مسافته ورؤية الله أعـلى نعمـة فيـه

فسبحان من أسرى بعبده فعاد الحساد أسرى ، قصرت دولته قيصر وكسرت هيبته كسرى ، أقامه بالليل من وطائه ودثاره ، ورفعه فوق السموات بقوته واقتداره ، وأراه ما فى جنته وما فى ناره ، وأوحى إليه ما أوحى من أسراره ، ثم أعاده فى الليل إلى مسكنه وقراره ، جاوز أفق الشمس والقمر ، وعلا على الملائكة والبشر ، وفاز بالتقريب والنظر ، وما حضر أحد قط حيث حضر ، ارتقى إلى مقام القرب بقدميه، والأملاك تحف به من جانبيه ، وجبريل يمشى خادماً بين يديه ، والرب قد أنعم بتقريبه إليه ، وكشف له الحجاب حتى رآه بعينيه ، حماه بألطافه ، من الزيغ فى طريقه ، وأيده بإسعافه ، وإسعاده وتوفيقه ، وعضده فى صدقه تصديق صديقه .

سبحان من رفعه فوق الأفلاك ، وقدمه على الأنبياء والأملاك ، وإنه والله أهل لذاك ، لأنه أطول القوم فى جهاد أهل الإشراك ذيلاً ، سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً . أوقد لهداية الخلق سراجه ، وشاد قواعد دينه وأبراجه ، وقوى دليله وأظهر احتجاجه ، فالخزى كل الخزى لمن جحد معراجه ، وويلا له ويلا . سبحان الذى أسرى بعبده ليلا . كلمه كفاحاً ، ومنحه فلاحاً ، وسقاه من شراب المحبة راحا ، يميل بأعطافه ميلاً ، سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً . أصلح بتدبيره طباع المرضى ، وجعل طاعته على الخلق فرضاً ، وضمن أن يعطيه حتى يرضى ، كيلا يحصر ما يعطى وزناً وكيلاً ، سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً . سبحان من شرفنا بهذا الرسول، ورزقنا موافقة المنقول ، فنحن أهل السنة لا أهل الفضول ، لا نزال على الصراط ولا نزول ما نعرف ميلاً ، سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً . فخر نبينا أجل وأعلى ، ومناقبه من الشمس أجلى ، وذكره فى قلوبنا والله أحلى من ذكر قيس عند ليلى. سبحان الذى أسرى بعبده ليلا . اللهم وفقنا لمتابعة نبيك الكريم ، وارزقنا الاستمساك بسنته ودينه القويم ، واحشرنا فى زمرته وآمنا من الهول العظيم ، اللهم وأيقظ قلوبنا من رقدات الآمال ، وذكرنا قرب الرحيل ودنو الآجال ، وصبرنا على أقوم الأمور وأشرف الخصال ، فى غدواتنا وفى الآصال . اللهم اشف بلطفك

مرضانا ، وارحم بفضلك موتانا ، واستر علينا عيوبنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . وصلى الله تعالى علي سيد الأنبياء والمرسلين . محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

تتمة : ولنذكر مجلساً مسجعا ملحقا بهذا المجلس لمن يريد قراءة المعراج على وجه الاختصار ، منقولاً من كتاب تحفة الإخوان لشهاب الدين أحمد بن حجازى . عليه رحمة الرحمن ، وهو : الحمد لله الذى أشرقت بنوره الحجب والأستار ، ومن عنده جرت الأقدار ، وكل شيء عنده بمقدار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله تقدس وتعالى عما يقول الكفار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله السيد الفائق ، والأمين الصادق والحبيب الموافق ، والمنقذ بشفاعته أمته من النار ، صلى الله وسلم عليه أفضل الصلوات وأزكى السلام ، وساق إليه أطيب التحيات وأنماه ، وجزاه الله عنا أفضل الجزاء وأرضاه ، وآتاه الوسيلة فى دار القرار ، ورضى عن آله السادة النجباء ، وأصحابه القادة الكرماء ، وتابعيهم وسائر العلماء ، ما انفجر صبح وأنار ، وطلع قمر واستنار .

وبعد : فقد قال الله تعالى فى كتابه المنير : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ أخبر الله تعالى بما أكرم نبينا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم من الإسراء به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، المقدس الأسنى ، ثم عرج به إلى السموات ، ليريه من الآيات ، وقد صرح الله تعالى بذلك وأثنى بقوله : ﴿**والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ وكان المسرى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حجر مكة المعظم ليلاً ، فى اليقظة لا فى المنام ، بجسده الشريف على الصحيح، بين العلماء الأعلام ، ولله (1) تعالى در الفاروقى حيث يقول :

مـــن الغـــرائب مـــولاه براه لنا ... شمساً وأسرى به فى حندس الظلم

وعمره إذ ذاك إحدى وخمسون سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً ، قبل

(1) قوله : ولله إلى آخر البيت ، هذا ملحق بالأصل وليس فيه أ . هـ منه .

الهجرة بسنة ، ليلة سبع عشرة من ربيع الأول ، وقيل ليلة سبع وعشرين من رجب ، وعلى الأول المعول . وقد روى هذه القصة طائفة كثيرة من الصحابة الأكرمين ، من رواية جماعة كثيرة من التابعين ، من طرق جيدة حسنة ، ووجوه يشق حصرها على الألسنة ، جمعت غالبها وسقته ، في هذا المجلس وجعلته ، كاللباب . لأن فيه من أمر الله تعالى وقدرته وسلطانه وعجائب مخلوقاته عبرة لأولى الألباب ، فكان فيما بلغنا عن مسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الخبر أنه بينما هو نائم فى الحجْر ، إذ جاءه ثلاثة نفر ، من الملائكة الكرام ، وفيهم جبريل عليه السلام ،فلم يكلموه حتى احتملوه وعند بئر زمزم وضعوه ، فتولاه منهم جبريل ، فشق صدره الجليل ، وغسله من ماء زمزم بيده ، حتى أنقاه ، وأتى بطشت من ذهب محشو إيماناً وحكمة فطيب به صدره وحشاه ، وشرح صدره هذه المرة للقاء الرحمن ، وتلك المرة التى عند حليمة لإزالة حظ الشيطان ، ثم قدم جبريل البراق مسرجاً ملجماً ، بين يديه وهو دابة أبيض بين البغل والحمار ، فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه ، يضع حافره عند أقصى طرفه ومنتهاه ، وهو مركب الأنبياء قبل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ومسراه ، فذهب صلى الله تعالى عليه وسلم ليركبه فاستصعب عليه ، وتشدد فأمسك جبريل بأياديه ، وقال : ألا تستحى يا براق ، فوالله ما ركبك أحد فيما تقدم أكرم على الله من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتصبب البراق عرقاً وقر له حتى صار راكبه ، فسار ومعه جبريل لا يفارق أحدهما صاحبه ، حتى بلغا أرضا ذات نخل ، فقال جبريل ، انزل فصل أيها الخليل ، ففعل ، فقال : اعلم أن هذه الطيبة التى وقفت عليها ، وتكون هجرتك إليها ، ثم سار قليلاً مع الزمان . فقال له جبريل : انزل فصل بهذا المكان ، ففعل ما أمره من ذلك ، فقال: إنك صليت بطور سيناء ، حيث كلم الله تعالى موسى هنالك ، ثم سارا يعلوهما نور ، حتى بلغ أرضاً ذات قصور ، فقال له جبريل : انزل فصل بهذه البقعة الشريفة ففعل، فأخبره أنها بيت لحم حيث ولد عيسى ابن مريم العفيفة ،ثم سار إلى أن دخلا بيت المقدس من الباب اليمانى ، وحصل بذلك الشرف والعز والتهانى ، ونزل عن البراق سيد الأنام ، وربطه بالحلقة التى يربط بها الأنبياء عليهم السلام ، ثم دخلا المسجد من باب يميل نور القمرين ، فصلى نبينا صلى اللهتعالى عليه وسلم حيث شاء الله فى المسجد ركعتين ، ثم وجد إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان فى نفر من الأنبياء ، قد جمعوا له فى ذلك المكان ، فصلى بهم إماماً لديهم ،

ليكمل له الشرف عليهم ، ثم إن كلا منهم أثنى على ربه الجليل ، بما خصه من الثناء الجميل، فلما سمع نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ما أثنى كل من صحبه ، أثنى بثناء عظيم على ربه ، فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس أجمعين ، بشيراً ونذيراً ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شيء ، وجعل أمتى هم الأولون وهم الآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، فاتحاً خاتماً . فلما فرغ من الثناء المحمود ، قال إبراهيم للأنبياء عليهم الصلاة والسلام : بهذا فضلكم محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم أتى بثلاثة أوان قريبة ، لبن وماء وخمر عجيبة ، وقد ثبت من طرق واتصل ، أنه عرض عليه إناء من عسل ، فأخذ اللبن وشربه ، وترك الماء والمدام ، فقال له جبريل : أصبت الفطرة أنت وأمتك الكرام ، ثم توجها نحو صخرة بيت المقدس ويمماها ، فصعدا من جهة المشرق أعلاها ، فاضطربت تحت قدم نبينا ولانت ، فأمسكتها الملائكة لما تحركت ومالت . ثم أتى بالمعراج الفائق فنصب بين يديه ، وهو الذى يمد المحتضر إليه عينيه ، فأصعده جبريل عليه ، وعرجا فيه إلى السماء الدنيا ، فضرب جبريل باباً من أبوابها العليا ، عليه الملائكة صافين ، يحفظونه بأمر الملك المعين ، فقال له الموكلون : من ذا فقال : جبريل . قالوا : ومن معك من الأنام ، قال محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، قالوا : أوقد بعث إليه العلى الأعلى ، قال : نعم ، قالوا: مرحباً به وأهلاً ، فاستبشر أهل السماء بقدومه المبارك الميمون ، وتلقته الملائكة حين دخل ضاحكين مستبشرين ، يقولون له خيراً ويدعون . ولقيه ملك عابس فقال خيراً ودعا ، فقال جبريل : يا محمد هذا مالك خازن النار أتى إليك وسعى ، ولم ير ضاحكاً من حين خلقه الجبار ، فقال : مره فليرينى النار ، فقال : يا مالك أرِ محمدا النار فكشف عنها غطاءها ، ففارت وخرجت ، وكادت أن تأخذ ما رأت حين ارتفعت ، فأمره جبريل بردها ، فقال لها مالك : اخسئى ، فرجعت ، ثم رأى رجلاً جالساً يرى أسودة[1] عن يمينه فيضحك ويستبشر ، ثم يلتفت عن شماله فيبكى ويعتبر ، فقال جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فالتفت آدم إليه وخاطبه بخطاب الوالد الناصح، وقال : مرحباً وأهلاً بالولد الصالح والنبى الصالح ، فسأل جبريل عن الأسودة التى رآها المختار ، فقال : هى نسم بنيه المؤمنين والكفار ، فأهل اليمين

(١) العدد الكثير من الناس وعامتهم أ هـ منه .

أهل الجنة ذات القرار، وأهل الشمال أهل النار ، ثم رأى رجالاً لهم مشافر عظيمة، فى أيديهم قطع من نار جسيمة ، يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم، فسأل جبريل عنهم ليزداد علماً ، فقال هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً ، ثم أبصر ناساً يعرضون على النار لكل واحد منهم بطن كبير عظيم ، يمر عليهم كالإبل الهيم، كلما مروا هنالك ، لا يتحولون عن مكانهم ذلك ، فقال جبريل : هؤلاء أكلة الربا الهوالك ، ثم نظر إلى رجال بين أيديهم لحم طيب سمين ، وبجانبهم لحم منتن مهين ، من الغث المنتن يأكلون ، وللسمين الطيب تاركون ، فقال جبريل : يا محمد هؤلاء تاركون ما أحل الله لهم من النساء الطيبات ، ومرتكبو الحرام من النساء الخبيثات ، ثم رأى نساء معلقات بأبزازهن [١] ، فسأل جبريل عن أحوالهن ، فقال: هن اللاتى أدخلن على أزواجهن بالفساد ، ما ليس لهم بأولاد ، ثم مضى جبريل بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرأى نهراً عليه قصر من لولؤ وزبرجد، فضرب بيده إلى ترابه فشمه ، فإذا هو مسك أذفر ، فقال له جبريل : هذا ما خبأ لك ربك هذا الكوثر ، ثم صعد به إلى السماء الثانية ، ولم يزل يعرج به من سماء إلى سماء حتى انتهى إلى السماء السابعة ، ذات العجائب الرائعة ، والملكوت الباهر، والآيات البديعة ، فرأى الأنبياء فى السموات على قدر منازلهم الرفيعة ، فآدم فى الأولى كما تقدم ، وفى الثانية يحيى وعيسى ابن مريم ، وفى الثالثة يوسف الصديق ، وفى الرابعة إدريس الرفيق ، وفى الخامسة هرون الكريم ، وفى السادسة موسى الكليم ، وفى السابعة إبراهيم الخليل ، ذو الشيبة والنور ، جالس على كرسى من نور ، متوجها للبيت المعمور ، فرحب به واستبشر بقدومه العظيم ، وسلم علينا على لسان نبينا الكريم ، فعليهما أنمى الصلاة وأزكى التسليم ، ثم دخل به جبريل جنة المأوى ، وسقفها عرش الرحمن ، فرأى فيها قباب اللؤلؤ والياقوت والمرجان ، ترابها المسك الأذفر ، ونثارها البدر والجوهر ، ثم عرج به جبريل من ذلك المقام ، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، ثم أتى به سدرة المنتهى ، فى الحال ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها كالقلال ، فى أصلها نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فقال جبريل : أما الباطنان ففى الجنة دار المسرات ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم غشاها من الله تعالى ما غشاها ، فتغيرت فما أحد من الخلق يستطيع

---

(١) الظاهر بفروجهن أ هـ منه .

بنعتها ، من حسن ما تزينت ، ثم تأخر عنه جبريل ، وتقدم الحبيب الخليل ، فناداه الرب الجليل ، فقال : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، فأمره بسؤاله ، ليفيض عليه من جزيل نواله ، فقال : يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وألنت لداود الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيته فضلاً عظيما ، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً ، لا ينبغى لأحد من العالمين ، وسخرت له الريح والجن والإنس والشياطين ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل الكريم ، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص والسقيم ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم ، وجعل يذكر له معجزات الأنبياء الأخيار ، فخاطبه الملك الجبار ، طمأنينة لقلبه وتطييبا ، يا محمد قد اتخذتك حبيباً ، وأرسلتك كافة إلى الناس أجمعين ، وجعلتك أنت وأمتك الآخرين السابقين، فلا تجود لهم خطبة في مقام ، حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى إلى الأنام ، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً ، لتذهب عن القلوب المريضة ظلماً ووعثاً ، واخترتك هادياً مهدياً ، وآتيتك سبعاً من المثانى لم أعطها قبلك نبياً ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة ، الجليلة المفتخرة ، من كنز تحت عرشى عطاء دائماً، وجعلتك فاتحاً خاتماً .

وأباحه الجبار عز وجل النظر إليه ، وأجزل نعمه وفضله لديه ، وفرض كل يوم وليلة خمسين صلاة عليه ، فرجع وعليه خلع القرب والرضوان ، مغموراً بمواهب الرحمن ، إلى أن هبط به جبريل الكريم ، حتى بلغ موسى الكليم ، فقال موسى : يا محمد ماذا فرض ربك على أمتك من العبادات ؟ فقال : فى كل يوم وليلة خمسين من الصلوات ، فقال : يا محمد إنى خبرت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة على أقل من هذا ، وأن أمتك لا تستطيع هذا العمل الكثير ، فارجع فليخفف عنك اللطيف الخبير ، فالتفت إلى جبريل كأنه مسشير هنالك . فقال له جبريل : نعم إن شئت ذلك ، فعلا به إلى الجبار جل وعز ، ودنا فقال : يا رب خفف عنا مما به أمرتنا ، فوضع عنه عشر صلوات من الخمسين ، فرجع به جبريل الأمين ، حتى بلغ به موسى فسأله بما أمر ، فقال : بأربعين فرده موسى إلى كاشف الضر والأزمة ، فسأله التخفيف لهذه الأمة ، شفقة منه علينا ورحمة ، وتلذذاً بكلام من سمع خطاب الرحمن ، وفاز بالرؤية العظيمة الشان ، ولم يزل يردده حتى صارت الصلوات خمساً ، فرجع إلى موسى وقد وجد به أنساً ، فأخبره بما فرض

عليه ، وأوحى فى هذه الأسرار إليه ، فقال : يا محمد قد والله عالجت بنى إسرائيل . وراودتهم على أدنى من هذا العمل القليل فلم يقبلوه ، وضعفوا عنه وتركوه ، وإن أمتك أضعف أجساداً وأسماعاً وأبصاراً ، وأقل الأمم أعماراً ، فارجع إلى ربك الجليل ، ليأمرك بعمل قليل ، وهو فى كل ذلك يلتفت إلى جبريل ليستشيره ، ولا يكره ذلك جبريل ليتم سروره ، فرفعه عند ذلك إلى الجبار ، فقال : يا رب خفف عن أمتى فإنهم ضعفاء الأبدان قصار الأعمار ، فقال : يا محمد . قال : لبيك وسعديك ، تلذذاً بالخطاب ، قال : إنه لا يبدل القول لدى كما فرضته عليك فى أم الكتاب ، فالخمسة بعشر أمثالها مضاعفة مأثورة ، وهى خمسون فى أم الكتاب وخمس عليك مسطورة ، ومن هَمَّ بحسنة فلم يمض لها أمراً ، كتبت حسنة فإن عملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه ، فإن عملت صارت واحدة لديه ، فرجع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أتى موسى عليه السلام فأخبره بما أمره الملك العلام ، فقال موسى : قد والله راودت قومى على أدنى من ذلك ، فلم يبلغوا تلك المسالك ، فارجع إلى ربك واسأله التخفيف للأمة ، وزيادة النعمة ، فقال : يا موسى قد استحييت مما أختلف إلى الله تعالى ، قال : اهبط باسم الله ، فهبط به جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فأصبح وهو فى المسجد الحرام ، فلما صلى عليه الصلاة والسلام الفجر ، قال لأم هانئ : لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فى بقعته الفاخرة ، ثم صليت معكم الصبح اليوم ،ولأحدثن به القوم ، ولا أخشى من عتب ولا لوم . فقالت : يا نبى الله لا تحدثهم بذلك فيكذبوك ، ولا تذكره لهم فيؤذوك . فذكره لقريش فأنكرته ، وكذبته وجحدته ، وارتدت طائفة ممن أسلم ، ونسبوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الكذب واللمم ، وافتتن ناس من الالتباس ، فأنزل الله تعالى فيهم **﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾** .

وذهب الناس لأبى بكر وأخبروه الخبر ، فقال : إن كان قاله فقد صدق فيما ذكر ، وما يعجبكم مما سمعتم من صلاته هنالك ، فوالله إنه ليخبرنى الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة وأصدقه فى ذلك ، ثم أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واستخبره عما تفوه به وتكلم ، وقال : صف لى بيت المقدس فإنى مشتاق لرؤية ذلك الحرم ، وقد زرته ورأيته ، فكشف الله تعالى له عن بيت المقدس وجلاه لديه ، فطفق يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه كلما وصف شيئاً مما رآه النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم يقول له أبو بكر رضى الله تعالى عنه : صدقت ، أنا أشهد أنك رسول الله ، لقد صدق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ذكره وأبداه ، فلما انتهى في الوصف على التحقيق ، قال له : لقد أجبت وأصبت ، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم وأنت موفق يا أبا بكر الصديق ، ثم أخبر قريشاً بأمارات جلية ، تدلهم على تحقيق هذه القضية ، أنه مر بعير قوم بينماهم فى الخبر ، بواد وصفه لهم فيما ذكر ، فأنفرهم حس الدابة فند لهم بعير لديه ، فطلبوه فدلهم عليه ، وهو ذاهب إلى الشام ، فلما رجع عليه أفضل الصلاة والسلام ، مر بعير بنى فلان ، وهو سائر بضجنان [١] . فوجد القوم نياماً بذلك المكان ، ولهم إناء فيه ماء فشربه ثم غطاه كما كان ، وزاد قريشاً من الدلالات والتفهيم ، أن تلك العير تصوب عليهم من البيضاء ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود كأنه رداء ، وعليه غرارتان برقاء وسوداء ، فلما سمع القوم كلام سيد الأصفياء ، سألوه عن العير متى تجىء فقال : يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم ، أشرف القوم ، يعنى قريشاً ، ينظرون العير ، هل تجىء كما قال البشير النذير ، فلم تجئ حتى كاد اليوم يدخل فى أمس ، فدعا نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فزيد له فى النهار ساعة وحبست له الشمس ، فأقبلت العير من الثنية ، يقدمها ذلك الجمل المعلم ، كما وصفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم ملئوه ماء وخمروه [٢] فلم يجدوا فيه ماء حين كشفوه ، وسألوا الآخرين عن خبر البعير الذى ند لهم ووجدوه بعد أن نفر ، فقالوا : صدق والله فى الخبر ، لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكر ، وفقد لنا بعير وطلبناه ، فسمعنا صوت محمد يدعونا إليه حتى أخذناه ، فصدق بهذه القصة أهل الطاعة والإيمان ، وجحدها أهل النفاق والعصيان ، بعد أن قامت الدلالات القاطعة للجدال ، ولقد أحسن من قال :

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

فكيف تنكر هذه القصة الباهرة ، ودلالاتها بينة ظاهرة ، وقد ذكرها الرحمن فى محكم القرآن ، ولقد أحسن القائل :

ساد الأنام محمد خير الورى ... بفضائل جلت عن الإحصاء

وجوامع الكلم التى ما نالها ... أحد من الفصحاء والبلغاء

---

(١) ضجنان كسكران جبل قرب مكة ، وجبل آخر أ هـ منه . (٢) أى : غطوه أ هـ منه .

وإلـى الخـلائق كـلهم إرسـاله فشـفى القـلوب الجـمة الأهواء
وله الوسيلة والشفاعة فى غد ومقامه السامى على الشفعاء
ويجىء يومئذ كما قد قاله أنا راكب والناس تحت لوائى
ولقد دنا من ربه لما دنا فى ليلة المعراج والإسراء
سمع الخطاب بحضرة قدسية ما حلها أحد من العظماء
وبرؤية الجبار فاز وايالها من نعمة جلت على النعماء
ما نال موسى والخليل وما اجتبى ما نلته يا سيد النجباء
ونروم فضلاً من جنابك سيدى وشفاعة يا أعظم العظماء
فإليك ساق الله سحب صلاته وجزاك رب العرش خير جزاء
وعلى صحابتك الرضا متعددا والآل والأتباع والعلماء

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات ، وتقضى لنا بها جميع الحاجات ،وتطهرنا بها من جميع السيئات ، وترفعنا بها أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات ، من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات ، وعلى آله وصحبه وزوجاته أمهات المؤمنين ، وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

* * *

المجلس التاسع والأربعون
فى فضائل شعبان المعظم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله القديم فى الذات والصفات الأول ، المنزه عن الحدوث فلا يتغير ولا يتحول ، المنعم على العباد فكم أعطى وأجزل ، ومنَّ فزاد وأكثر ونول ، وأسدى وأغنى وأقنى ومول ، ثم عاد وعاد وجاد وتطول ، وأطمع ورجا وخوف وهول ، وأعان على العدو كلما زخرف وسول ، فهو المرجو للشدائد وعلى فضله المعول ، يحكم ما يشاء ولا يسأل عما يفعل ،أحمده على لطفه فإنه حليم لا يعجل ، وأقر بوحدانيته إقرار موقن لا يجهل ، وأصلى على رسوله المقدم على الأنبياء المفضل ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى عليه فى صحبة الغار عول ، وعلى عمر المتورع فما

ترخص ولا تأول ، وعلى عثمان المعطى جزيلاً فما قلل ، وعلى على بن أبى طالب الأقرب الأعلم الأفضل ، وعلى بقية آله وأصحابه المرضيين الكمل ، وسلم تسليماً.

أما بعد : فقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز ، وكلامه البليغ الوجيز : ﴿ **حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قال المفسرون : حم فيه قولان أحدهما أنه من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، وهو مذهب السلف الصالح، قالوا : هى سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى وأمثالها : الم وطسم وكهيعص من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه ، ولا نحب أن نتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ونمرها كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق، وعلي ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما ، وغيرهما من أكابر الصحابة، ثانيهما أن هذه الحروف معرفة المعنى وإليه ذهب جمع من العلماء ، واختلفوا فى ذلك على أقوال ، فعن ابن عباس أن الحروف المقطعة من القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها ، وقال الفراء والمبرد وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء ، أعلم الله تعالى بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من الحروف التى بنى كلامهم عليها ؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ فى الحجة عليهم ، إذ لم يخرج عن كلامهم ، فقد كانوا ينفرون عند سماع القرآن ، فلما نزل ألم المص استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له صلى الله تعالى عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ، ويقيم الحجة عليهم ، وقال بعضهم : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بعينها ، فالألف من الله واللام من جبريل ، والميم من محمد ، وحم ، الحاء من حميد والميم من مجيد وقيل غير ذلك كما هو مفصل بما له وعليه فى التفاسير المطولة . قلت : ومن المتشابه أيضاً قوله تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ويبقى وجه ربك** ﴾ وقوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى** ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا فى الثلث الأخير من الليل فيقول هل من مستغفر فأغفر له » ، وغير ذلك من الآيات والأحاديث ، فالخلف يؤولونها كتأويل الاستواء بالاستيلاء ، وتأويل النزول بنزول الرحمة ، والسلف يؤمنون بها ويكلون الكيفية إلى الله تعالى ، كما

قال الإمام مالك لما سأله السائل : كيف استوى ؟ فقال له مالك : الاستواء معلوم، والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ، وهذا المذهب هو الأسلم كما ذكرناه لكم فى بعض الدروس ، قال تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾ فقد ذهب جمع من القراء والمفسرين إلى الوقف على قوله تعالى إلا الله ، والابتداء بالراسخون فى العلم ، الآية ، والاعتراضات والأجوبة فى هذه المسألة كثيرة ، من الطرفين ، ومن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى كتاب العبد الفقير « جلاء العينين » ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه** ﴾ أى القرآن فى ليلة مباركة هى ليلة القدر ، كما روى عن ابن عباس وقتادة وابن جبير ومجاهد ، وعليه أكثر المفسرين ، كما ذكرناه أيضاً فى مجلس ليلة القدر ، وقال عكرمة وجماعة هى ليلة النصف من شعبان ، وتسمى ليلة الرحمة ، والليلة المباركة، وليلة الصك ، وليلة البراءة ، قال الوالد عليه الرحمة فى تفسيره « روح المعانى » : ووجه تسميتها بالأخيرين أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة والصك ، كذلك أن الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة والصك فى هذه الليلة، ولفظة البراءة بهذا المعنى عامية ولا تسمع من العرب ، وقيل أصله أن الجانى كان إذا جنى وعفا عنه الملك كتب له كتاب أمان مما خافه فكان يقال كتب السلطان لفلان براءة ، ثم عمم ذلك فيما كتب من أولى الأمر أمثالهم ، انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾ أى يفصل ويلخص ، ويبين . والحكيم بمعنى المحكم، لأنه لا يبدل ولا يغير بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام ، بخلافه قبله، وهو فى اللوح المحفوظ ، فإن الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويثبت ، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى ذلك : يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر ، حتى يكتب الحجاج ، يحج فلان ويحج فلان ، وأخرج عبد بن حميد عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل : يا أبا سعيد ليلة القدر فى كل رمضان هى ؟ قال : أى والله إنها لفى كل رمضان ، وأنها ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ،فيها يقضى الله تعالى كل أجل ، وعمل ، ورزق إلى مثلها ، وروى هذا التعميم عن غير واحد من السلف ، وقيل : يبدأ فى استفتاح كل أمر حكيم من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة، ويقع الفراغ فى ليلة القدر ، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل عليه السلام ، ونسخة

الحروب إلى جبريل عليه السلام ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل عليه السلام صاحب سماء الدنيا ، وهو ملك عظيم ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت ، وقد ذكروا فى ليلة النصف من شعبان أخبارا كثيرة ، منها ما أخرجه ابن ماجه عن على كرم الله تعالى وجهه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إذا كان ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها ، فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا ويقول : ألا مستغفر فأغفر له ، ألا مسترزق فأرزقه ، ألا مبتلى فأعافيه ، ألا كذا ألا كذا ، حتى يطلع الفجر . وأخرج الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يطلع الله إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحن وقاتل نفس .

وروى ابن الجوزى فى التبصرة عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كانت ليلة النصف من شعبان ليلتى فبات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندى فلما كان فى جوف الليل فقدته فأخذنى عليه ما يأخذ النساء من الغيرة ، فتلفعت بمرطى، أما والله ما كان مرطى خزا ولا قزا ولا حريرا ولا ديباجا ولا قطنا ولا كتانا . فقيل : مم كان ؟ قالت : سداه كان شعرا ولحمته أوبار الإبل ، فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده فانصرفت إلى حجرتى فإذا به كالثوب الساقط على وجه الأرض ساجداً وهو يقول فى سجوده : سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى ، هذه يدى وما جنيت بها على نفسى ، يا عظيماً يرجى لكل عظيم ، اغفر الذنب العظيم ، أقول كما قال داود عليه السلام : أعفر وجهى بالتراب لسيدى ، وحق له أن يسجد ، سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره ، ثم رفع رأسه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : اللهم ارزقنى قلباً نقياً ، من الشرك بريا ، لا كافرا ولا شقيا ، ثم سجد وقال : أعوذ برضاك من سخطك ،وأعوذ بعفوك من معاقبتك ، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك . قالت : ثم انصرف ودخل معى فى الخميلة ولى نفس عال ، فقال : ما هذا النفس يا حميراء ، قالت : فأخبرته فطفق يمسح بيده على ركبتى ويقول : ويس هاتين الركبتين ،ماذا لقيتا فى هذه الليلة . ليلة النصف من شعبان ، إن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيغفر لعباده إلا لمشرك أو مشاحن . وفى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : يا حميراء أما تدرين ما هذه الليلة ؟ هذه ليلة النصف من شعبان ، إن لله عز وجل فى هذه الليلة عتقاء

من النار بعدد شعر غنم بنى كلب ، قلت : يا نبى الله وما بال غنم بنى كلب ، قال: ليس فى العرب قوم أكثر غنماً منهم ، لا أقول فيهم [١] ستة مدمن خمر ولا عاق والديه، ولا مصر على ربا أو زنا ، ولا مصارم ولا مصور ولا قتات ، وقد ذكرت لكم هذا فى غير هذا المجلس والله تعالى أعلم ، وفى الدر المختار وحاشيته: ومن المندوب إحياء ليلتى العيد والنصف من شعبان والعشر الأخير من رمضان وليالى العشر الأول من ذى الحجة فرادى ، لأنهم صرحوا بكراهة الاجتماع على إحياء ليلة من هذه الليالى فى المساجد ، قال فى البحر : ومن هنا يعلم كراهة الاجتماع على صلاة الرغائب التى تفعل فى رجب فى أول جمعة منه ، وإنها بدعة وما يحتاله بعضهم من نذرها لتخرج عن النفل والكراهة فباطل ، قال الوالد عليه الرحمة : وذكر بعضهم فيها صلاة مخصوصة وإنها تعدل عشرين حجة مبرورة ، وصيام عشرين سنة مقبولة، وروى فى ذلك حديثا طويلاً عن على كرم الله تعالى وجهه ، وقد أخرجه البيهقى ، ثم قال : يشبه أن يكون هذا الحديث موضوعاً ، وهو منكر، ولهذا أعرضنا عنه ، وليعلم أنه يحصل قيام هذه الليالى بالصلاة نفلاً فرادى من غير عدد مخصوص ، وبقراءة القرآن والأحاديث وسماعها ، وبالتسبيح والثناء والصلاة والسلام على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الحاصل ذلك فى معظم الليل ، وقيل بساعة منه ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بصلاة العشاء جماعة ، والعزم على صلاة الصبح جماعة ، كما قالوه فى إحياء ليلتى العيدين ، وفى صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل كله » .

ولنذكر لكم مما يتعلق بشهر شعبان فإنه شهر نبى الإنس والجان ، قال فى عقد الدرر واللآلى فى فضل الشهور والأيام والليالى ، قال بعضهم : إنما سمى شعبان لأنه يتشعب فيه خيركثير لرمضان ، وقيل : لتشعب القبائل المتفرقة فيه ؛ لأن العرب كانت تفترق فى رجب ، ولا تجتمع على الغارات فيه ، ولذا سمى برجب الأصم ، فإذا انسلخ رجب اجتمعت وتشعبت كما كانت فى غيره ، وقيل مشتق من شعب الخيرات ، والإيمان أعظمها ، وأعظم شعب الإيمان الصلاة والصوم فينبغى للمؤمن أن يجتهد فيه بالطاعات ويكثر الصيام والصلوات ، ولقد أحسن القائل :

---

(١) قوله لا أقول فيهم إلخ هكذا بأصله وليحرر الحديث ا هـ ، والمعنى : لا أقول أن فى العتقاء هؤلاء المذكورين .

من ذا يشـــعب فى شعبان همته ويســـتقيم على الطاعات إذعانا
فـإنه شهر من ترجى شـــفاعتـه يوم القيـامة فيمن كـان خـــوانا
ســمى لما فيه من خير ومن نعم تشــعبت بعد صدع كان شعبانا

وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يقول : « إذا رأى هلال شعبان : اللهم بارك لنا فى رجب وشعبان وبلغنا رمضان » وفى الغنية لسيدى الكيلانى قدس سره عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « رجب شهر الله وشعبان شهرى ورمضان شهر أمتى». وقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام كان يأمر منادياً يقول : « شعبان شهرى فرحم الله من أعاننى على شهرى » يعنى بالصوم والصلاة والصدقة . فينبغى للمسلم إكثار الخير فيه لأنه عليه الصلاة والسلام قد أضافه إليه ، ولزم أيضاً أن يكثر فيه الصلاة عليه ، وروى العلامة الحافظ أبو الفرج بن الجوزى فى التبصرة ، بسنده إلى عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصوم شعبان كله فقالت : يا رسول الله شهر شعبان لمن أحب الشهور إليك أن تصومه فقال : « نعم يا عائشة إنه ليس من نفس تموت فى السنة إلا كتب أجلها فى شعبان ، فأحب أن يكتب أجلى وأنا فى عبادة ربى والعمل الصالح » . وعن عثمان ابن المغيرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تقطع الآجال من شعبان حتى أن الرجل ينكح ويولد له ، ولقد خرج اسمه فى الموتى » ، قال : فهذان الحديثان لم يعين فيهما متى يكون ذلك من شعبان ، وعن الحسن بن سهل قال: قال شعبان : يا رب جعلتنى بين شهرين عظيمين فمالى ، قال : جعلت فيك قراءة القرآن . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصوم من شهر أكثر من صيامه من شعبان ، كان يصومه كله لأنه عليه الصلاة والسلام ما كان يصوم جميع أيام السنة ، بل كان يفطر أياماً ، ويصوم أياماً ، فقد قالت عائشة وابن عباس وأنس : كان عليه الصلاة والسلام يصوم حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم . قال العلماء: وما ذاك إلا لتقوية البدن لئلا يضعف عن سائر العبادات ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن لنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق

حقه»، ولذا كان صوم الدهر مكروها عند كثير من العلماء ، وكان صوم داود أفضل الصيام ، فإنه كان يصوم يوما ويفطر يوما ، كما وزد فى الحديث .

وكان عليه الصلاة والسلام يصوم يوم الاثنين ويوم الخميس كما قال أبو هريرة ، كان صلى الله تعالى علية وسلم يضوم الاثنين والخميس ، ويغفر الله تعالى فيهما لكل مسلم إلا لمتهاجرين ، يقول : دعوهما حتى يصطلحا . نقله فى عقد الدرر ، ثم قال : وروى كراهة صيامهما عن أنس بن مالك ، وكرهت طائفة صيام يوم معين دائما لئلا يتأسي به جاهل فيظن أن ذلك واجب ،وإن فعل على غير اعتقاد الوجوب فحسن ، أقول : ولذلك اختلف العلماء فى صوم يوم الشك ، وهو اليوم الذى يلى التاسع والعشرين من شعبان يعنى يوم الثلاثين منه .

ولنذكر لكم ما قالوا فيه على سبيل الإجمال ، ذاكرين بعض المذاهب والأقوال ، فقد قال أئمتنا الحنفية فى كتبهم ما نصه : ولا يصام يوم الشك إلا نفلاً ، ويكره غيره من فرض أو واجب ، ولو صامه لواجب آخر كره تنزيها ، ولو جزم أن يكون من رمضان كره تحزيماً للتشبه بأهل الكتاب ؛ لأنهم زادوا فى صومهم ، وعليه حمل حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنه قال : « لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فليصمه » والتنفل فيه أفضل إن وافق صوما يعتاده أو صام من آخر شعبان ثلاثة أو أكثر ، لا أقل للحديث المتقدم، وإن لم يوافق صوماً يعتاده ولا صام من آخر شعبان ثلاثة فأكثر استحب صومه للخواص ، ولا يعلم العوام بذلك ، كيلا يعتادوا صومه فيظنه الجهال زيادة على رمضان . وأما العوام فيفطرون بعد الزوال ، وكل من علم كيفية صوم يوم الشك فهو من الخواص ، وإلا فمن العوام ، وكيفية النية المعتبرة هنا أن ينوى التطوع على سبيل الجزم ، ولا يخطر بباله أنه إن كان من رمضان فعنه ، ولو ردد فى أصل النية فهو ليس بصائم بأن نوى أن يصوم غدا إن كان من رمضان وإلا فلا أصوم ؛ لعدم الجزم بالنية ، ولو نوى إن كان من رمضان فعنه وإلا فعن نفل فهو مكروه . انتهى .

وقال الإمام أبو سليمان الخطابى فى شرحه لسنن أبى داود ما نصه عن أبى إسحاق عن صلة قال : كنا عند عمار فى اليوم الذى يشك فيه فأتى بشاة فتنحى بعض القوم، فقال عمار : من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، قلت : اختلف الناس فى معنى النهى عن صيام يوم الشك ، فقال قوم: إنما نهى عن صيامه إذا نوى به أن يكون عن رمضان فأما من نوى به عن صوم

يوم شعبان فهو جائز ، هذا قول مالك بن أنس والأوزاعى وأصحاب أبى حنيفة ، ورخص فيه على هذا الوجه أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه ، وقالت طائفة : لا يصام ذلك اليوم عن فرض ولا تطوع للنهى فيه ، وليقع الفصل بذلك بين شعبان ورمضان ، هكذا قال عكرمة . وروى معناه عن أبى هريرة وابن عباس ، وكانت عائشة وأسماء ابنتا أبى بكر رضى الله تعالى عنهم تصومان ذلك اليوم ، وكانت عائشة تقول : لأن أصوم يوما من شعبان أحب إلى من أن أفطر يوما من رمضان ، وكان هذا مذهب عبد الله بن عمر صوم يوم الشك إذا كان من ليله فى السماء سحاب أو قترة فإن كان صحوا ولم ير الناس الهلال أفطر مع الناس ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل . وقال الشافعى : إن وافق يوم الشك يوماً كان يصومه صامه وإلا لم يصمه ، وهو أن يكون من عادته أن يصوم صوم داود فإن وافق يوم صومه صامه وإن وافق يوم فطره لم يصمه ، انتهى .

وفى عقد الدرر لشهاب الدين الحنبلى فى الكلام على حديث أبى هريرة : إذا انتصف شعبان فلا تصوموا ، ما نصه أن النهى عن الصيام بعد النصف إنما هو لمن ليس له عادة وإلا فلا يمنع من هذه الطاعة ، كيف وقد ثبت فى الصحيحين عن سيد الثقلين ، صلى الله تعالى عليه وسلم من حديث عمران بن حصين ، أنه قال لرجل: هل صمت من سرر هذا الشهر ؟ وفى رواية : من سرر شعبان شيئاً ؟ قال : لا ، قال: فإذا أفطرت فصم يومين ، والسرر بفتح السين المهملة آخرالشهر على ما هو المشهور لاستسرار القمر فيه ، وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد إذا حال دون المطلع غيم ، فروى عنه وجوب صيامه من رمضان ، وهو قول عمر وعلى . وروى عنه أيضاً أنه إذا لم يحل دون مطلعه شىء أصبح الناس مفطرين فإن جاءهم خبر كان عليهم يوم مكانه ، ولا كفارة . وروى عنه أيضاً أنهم يفعلون ما يفعله إمامهم ، وكان عمر بن الخطاب إذا كانت تلك الليلة معتمة يصوم ويقول : ليس هذا بالتقدم، ولكنه بالاحتياط ، فمن أفطر أخذ بالجواز ، ومن صام أخذ بالاحتياط . وأصح من روى عنه صومه عبد الله بن عمر ، قال ابن عبد البر : وإلى قوله ذهب طاوس اليمانى وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى انتهى . باختصار . ومن أراد التفصيل فعليه بالكتب المطولة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

فيا إخوانى اجتهدوا فى هذا الشهر بمحو ذنوبكم ، واستغيثوا إلى مولاكم من

عيوبكم ، وهذه ليلة الإنابة فيها تفتح أبواب الإجابة ، أين اللائذ بالجناب ، أين المتعرض للباب ، أين الباكى على ما جنى ، أين المستعد لأمر قد دنا ، ألا رب فرح بما يؤتى ، فقد خرج اسمه فى الموتى ، ألا رب غافل عن تدبر أمره ، فقد انفصمت عرى عمره ، ألا رب معرض عن سبيل رشده ، قد آن أوان شق لحده ،ألا رب رافل فى ثوب شبابه ، قد أزف فراقه لأحبابه ، ألا رب مقيم على جهله ، قد قرب رحيله عن أهله ، ألا رب مشغول بجمع ماله ، قد حانت خيبة آماله ، ألا رب ساع فى جمع حطامه ، قد دنا تشتت عظامه ، ألا رب مجد فى تحصيل لذاته ، قد آن خراب ذاته ، أين من كان فى مثل هذه الأيام فى منازله ، مشغولا بشهواته ، مغرورا بعاجله ، أما أصاب مقاتله سهم مقاتله ، أما ظهرت خسارته عند حساب معاملته ، أين المعتذر مما جناه ، فقد اطلع عليه مولاه ، أين الباكى على تقصيره ، قبل تحسره فى مصيره :

إذا لـــم تكـــن دنياك دار إقامة　　　فـما لك تبنيهـــا بنـــاء مقـــيم
وما صـــح ود الخـــل فيها وإنما　　　يغـــر بود فى الحـــياة ســـقيم
وجـدت بنى الأيام فى كل موطن　　　يعـــــدون فيها شـــقوة كنعيم
تـزيـدك فقـــرا كلما ازددت ثروة　　　فتلقـــى غـــنيا فـــى ثياب عديم

هذه ليلة أمرها عظيم ، والخير فيها جزيل عميم ، وكفى وصفها فى الكلام القديم، فيها يفرق كل أمر حكيم ، فيها تقسيم الآجال والأعمار ، فيها يكتب الحجاج والعمار ، كم جامع دينارا إلى دينار ، وأكفانه عند القصار ، وهو يعمر الدار ، عمارة مقيم . فيها يفرق كل أمر حكيم . كم مؤمل أملا خاب ، كم منقول على ذم وعاب ، يا هذا مضى زمان الشباب ، يا من كبر على الزلل وشاب ، قد استشن الأديم ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، يا سيئ السر والعلن ، يا جاريا على أقبح سنن ، يا ناسيا إلحاق من ظعن ، يا سليما فى الجسم والبدن ، لكنه سليم ، فيها يفرق كل أمر حكيم .

إخوانى إلى كم مع البلايا ، إلام تأمنون الرزايا، أين الاستعداد للمنايا ، اعتذروا الليلة من الخطايا ، فالمولى كريم ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أقبلوا بالقلوب الليلة إليه ، وقفوا بالخضوع والخشوع لديه ، وتعلقوا بجوده تعويلاً عليه ، وانكسروا بالذل بين يديه ، فإنه رحيم . فيها يفرق كل أمر حكيم . مدوا أنامل الرجاء إلى

بابه، واتبعوا فى البكاء طريق أحبابه ، وتعرضوا الليلة لجزيل ثوابه ، واحذروا من سطوته وعقابه ، فعقابه أليم ، فيها يفرق كل مر حكيم . بين أيديكم يوم لا كالأيام، يتنبه فيه كل من غفل ونام ، وتزفر جهنم على أهل الآثام ، فيجثو الخليل والكليم ، فيها يفرق كل أمر حكيم . قوموا بنا إلى مطلوبنا . قفوا بنا على باب محبوبنا ، هلموا لنستغيث من ذنوبنا ، لعله يهب عن قلوبنا ، من العفو نسيم. فيها يفرق كل أمر حكيم . اللهم يا خالق الإنسان وبناه ، واللسان وأجراه ، يا من لا يخيب من دعاه ، هب لكل منا فى هذه الليلة ما رجاه ، وبلغه من خير الدارين مناه، يا أكرم من كل كريم . اللهم وإذا اطلعت فى ليلتنا هذه على خلقك ، فعد علينا بمنك وعتقك ، وقدر لنا من الحلال واسع رزقك ، واجعلنا ممن عرفك وقام بحقك ، وارحمنا برحمتك يا رحيم ، اللهم من قضيت بوفاته فاقض مع ذلك رحمتك ، ومن قدرت طول حياته فاجعل فى ذلك نعمتك ، وأسبل على الجميع سترك ومغفرتك ، وعاملنا بعفوك يا حليم ، اللهم اشف فى هذه الليلة مرضانا ، وارحم بفضلك موتانا ، واستر علينا عيوبنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، ياذا الفضل العميم، اللهم إنا نسألك من خير ما تعلم ، ونعوذ بك من شر ما تعلم ، فإنك تعلم ولا نعلم فعمنا بلطفك القديم ، وارحم آباءنا وتجاوز عن أمهاتنا واغفر لمشايخنا وأقاربنا واحفظ ذرياتنا وأدخلنا جميعاً جنة النعيم ، وصل على سيدنا محمد وآله أجمعين .

* * *

المجلس المتمم الخمسين
فى الميزان والصراط والحساب والكتاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله الواحد المجيد ، الخالق الرازق ومن عنده المزيد ، الفعال فى عبيده لما يريد ، يسبحه الحب النضيد ، والأب الحصيد ، والرما فى البيد ، والدماء فى الوريد ، والقريب والبعيد ، والرقيب والعتيد ، اقتضت نعمة الخالق شكرا ، فوجدت النفوس بالجهل سكرى ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . أوجد ما شاء كما شاء وأعدم ، وأمات وأحيا وعفا وأسقم ، وأغنى وأفقر وأهان وأكرم ، واطلع على أسرار الخلق وفاوت بينهم وقسم ، فمنهم شقى وسعيد ، أحمده على ما ينعم ويفيد ، وأقر بوحدانيته على برهان لا عن تقليد ، وأصلى وأسلم على رسوله وعبده معدن الرسالة وأفضل

العبيد ، صلى الله تعالى عليه وعلى صاحبه أبى بكر الثابت على وقعة يوم الردة ثبات الحديد ، وعلى عمر القوى فى دين الله الشديد ، وعلى عثمان التقى النقى الرشيد ، وعلى على مقدم الأهل وبيت القصيد ، وعلى سائر آله وأصحابه ذوى الرأى السديد ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد قال تعالى فى محكم كتابه العزيز : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : القسط العدل وإنما أفرد لأنه فى الأصل مصدر ، أو على حذف مضاف أى ذوات القسط ، والمقسط العادل ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الله يحب المقسطين** ﴾ وأما القاسط فهو الجائر قال تعالى : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ فقسط الثلاثى بمعنى جار ، وأقسط الرباعى بمعنى عدل ، كذا قيل ، ومن الغريب ما حكى أن الحجاج عامله الله تعالى بعدله لما أحضر سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه ، قال : ما تقول فىّ ؟ قال : قاسط عادل ، فأعجب الحاضرين ، فقال لهم الحجاج : ويلكم لم تفهموا جعلنى جائرا ، كافرا . ألم تسمعوا قوله تعالى : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ليوم القيامة** ﴾ أى لأهلها ، وقيل : اللام بمعنى فى وقوله تعالى : ﴿ **فلا تظلم نفس شيئا** ﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء ، وقوله سبحانه : ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل**﴾ قرئ بنصب مثقال وبرفعه ، ومثقال الشىء ميزانه ، أى وإن كان العمل فى غاية الخفة والقلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل فى الصغر ﴿ **أتينا بها** ﴾ أى أحضرناها وجئنا بها ، أى بموزونها للمجازاة عليها ﴿ **وكفى بنا حاسبين** ﴾ أى محصين لكل شىء ، والحسب فى الأصل معناه العد ، وقيل : عالمين .

وليعلم أن الأمور التى تقع فى الدار الآخرة ويجب على المكلف الإيمان بها واعتقادها كثيرة ، فمنها الميزان والصراط والشفاعة والحوض ورؤية البارى جل جلاله، وغير ذلك ، فلنذكر أشياء مما هنالك ، قال السفارينى عليه الرحمة فى منظومته :

واجـــزم بأمر البعث والنشـــور	والحشـــر جزما بعد نفخ الصور
كـــذا وقوف الخلق للحســـاب	والصحـــف والميزان للثـــواب

كـذا الصراط ثم حوض المصطفى | فـيا هـنا لمن به نال الشــــفا
عــنه يزاد المفــترى كـــما ورد | ومـن نحا ســبل السلام لم يرد
فكـــن مطيعاً واقف أهل الطاعة | فى الحوض والكوثر والشــفاعة
فــــإنها ثـــابتة للمصطفـــى | كــغيره مـن كــل أرباب الوفـا
مـن عالم كالرســـل والأبرار | ســوى التى خصت بذى الأنوار

قال العلماء : إن مراتب المعاد البعث والنشور ، ثم المحشر ثم القيام لرب العالمين ، ثم العرض ، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال ، ثم السؤال والحساب ، ثم الميزان . أما الحشر والنشر ، فقد ذكرناه فى بعض الدروس فلا حاجة إلى التكرار ، وأما الحساب فقد ثبت فى الكتاب والسنة وإجماع أهل الحق ، قال تعالى : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ وقال تعالى فى حق أعدائه : ﴿ **أولئك لهم سوء الحساب** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وقالوا يا وليلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه** ﴾ والحساب لغة العد واصطلاحا توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً تفصيلاً لا بالوزن إلا من استثنى منهم ، وقد اختلف فى معنى محاسبة الله تعالى عباده على ثلاثة أقوال ، أحدها أنه يعلمهم ما لهم وما عليهم ، قيل بأن يخلق الله فى قلوبهم علوماً ضرورية بمقادير أعمالهم ، الثانى ونقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن يوقف الله تعالى عباده بين يديه ويأتيهم كتب أعمالهم فيها سيئاتهم وحسناتهم فيقول هذه سيئاتكم وقد تجاوزت عنها وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم ، الثالث أن يكلم الله تعالى عباده فى شأن أعمالهم وكيفية مالها من الثواب وما عليها من العقاب . أخرج الطبرانى والبزار بإسناد صحيح من حديث معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه : لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه . وعن ابن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من نوقش الحساب هلك» ، وروى الإمام أحمد : يقتص للخلق بعضهم من بعض حتى للجماء من القرناء ، وحتى للذرة من الذرة ، وروى الإمام أحمد أيضاً من حديث عبد الله بن

أنيس رضى الله تعالى عنه أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : «يحشر الله العباد يوم القيامة عراة غرلا بهما ، أى غير مختونين ، وليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب . أنا الديان أنا الملك لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه ، حتى اللطمة . قال قلنا : كيف ، وإنما نأتى عراة غرلا بهما ، قال : الحسنات والسيئات » . وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » . وأما وقوف الخلق لأخذ الصحف ، وهى الكتب التى كتبتها الملائكة وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعماله فى الدنيا القولية والفعلية ، فقد ثبت بالكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ **وإذا الصحف نشرت**﴾ أى للحساب ، وإنما يؤتى بها إلزاماً للعباد ، ورفعا للجدال والعناد ، وقال تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا* اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ قال العلماء : معنى طائره عمله ، وقال تعالى : ﴿ **وأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا** ﴾ وفى رواية أخرى فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . والفتيل هو القشر الذى فى شق النواة ، وهذا يضرب مثلاً للشىء الحقير ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه الوسخ الذى يظهر بفتل الإنسان إبهامه بسبابته ، وأما السنة فقد أخرج العقيلى عن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: الكتب كلها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة يبعث الله تعالى ريحا فتطيرها بالأيمان والشمائل، أول خط فيها : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . قال قتادة : يقرأ يومئذ من لم يكن قارئا فى الدنيا ، وعن أبى هريرة مرفوعا : عنوان كتاب المؤمن يوم القيامة حسن ثناء الناس عليه ، وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : يا رسول الله ، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ، قال : أما عند ثلاث فلا ، عند الميزان حتى يعلم أيثقل أم يخف ، وعند تطاير الكتب ، فأما أن يعطى كتابه بيمينه أو بشماله ، وحين يخرج عنق من النار ،

الحديث ، قال بعض العلماء : يعطى المؤمن الطائع كتابه بيمينه من أمامه ، ويعطى المؤمن العاصى كتابه بشماله من أمامه ، وقيل بيمينه أيضاً ، ويعطى الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره ، بأن تنخلع أو يدخلها من صدره ، وأما الميزان فالإيمان به ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، ولا عبرة بمن أنكره من المعتزلة . قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ؛ لأن الوزن للجزاء فينبغى أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها . قال تعالى : ﴿**ونضع الموازين القسط**﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية** ﴾ .

وأخرج البزار والبيهقى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا ، وإن خف ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : ألا شقى فلان ابن فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . قال كثير من العلماء : الذى جاء فى أكثر الأخبار أن الجنة توضع عن يمين العرش والنار عن يسار العرش ، ثم يؤتى بالميزان فينصب بين يدى الله تعالى فتوضع كفة الحسنات مقابل الجنة وكفة السيئات مقابل النار ،قالوا : والميزان كميزان الدنيا له لسان وكفتان ، إحداهما من نور والأخرى من ظلمة ، فالأولى للحسنات ، والثانية للسيئات ، ويرجح فيه الثقيل ويعلو فيه الخفيف ، وعن بعض العلماء أنه عكس ميزان الدنيا فالراجح يصعد والخفيف يهبط ؛ لأن الآخرة عكس الدنيا . ولهذا نحن يوم القيامة نرى الجن ولا يروننا ، والصحيح أنه كميزان الدنيا ، ويدل عليه حديث البطاقة الذى ذكرناه فى بعض المجالس ، ويروى أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه فإذا كفته كما بين المشرق والمغرب ، فغشى عليه ، فلما أفاق قال : إلهى من يقدر يملأ كفته حسنات ؟ فقال : يا داود إذا رضيت عن عبدى ملأتها بنصف تمرة أو بلقمة ، ذكرها السفارينى الحنبلى والسفيرى والشافعى .

وليعلم أيضاً أن العلماء اختلفوا أيضاً فى مسائل أخر تتعلق بالميزان ، فمنها أن الذى يوزن هل هو الصحيفة أم غيرها ؟ فقيل : نفس الصحيفة وهو الصحيح ،

وقيل: أعمال العبد بدون الصحيفة فتجعل الحسنات أجساماً نورانية والسيئات أجساماً ظلمانية، وتوضع فى الميزان . وقيل نفس العبد يوزن مع عمله ، وهل توزن كلها أم خواتيمها ، فالجمهور على الأول ،وقال وهب بن منبه : توزن الخواتيم لقوله عليه الصلاة والسلام : « الأعمال بخواتيمها » . واختلفوا فى ميزان الآخرة هل هو واحد أو متعدد ، والصحيح أنه واحد ، وقال بعضهم : إنه متعدد ، واستدل بقوله تعالى: ﴿ **ونضع الموازين** ﴾ والجواب أنه جمع باعتبار تنوع الأعمال ، وليعلم أيضاً أن الموكل بالميزان هو جبريل عليه السلام ، وأن سبعين ألفا من أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يدخلون الجنة بغيرحساب ، لا يرفع لهم ميزان ، ولا يأخذون صحفاً ، والجن توزن أعمالهم كما توزن أعمال الإنس .

وأما الصراط ، فإنه حق ثابت أيضاً بلا شطاط ، وهو فى اللغة الطريق الواضح، وفى الشرع جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون ، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار ، خلق من حين خلقت جهنم . قال القرطبى فى تذكرته : إن للآخرة صراطين ، أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب ، وإلا من يلتقطه عنق من النار ، فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذى ذكرناه ولا يخلص عنه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم ، حبسوا على صراط آخر خاص لهم ، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله تعالى ، لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم التى يسقط فيها من أوبقته ذنوبه ، وزاد على الحسنات جرمه وعيوبه ، فقد أخرج البخارى والإسماعيلى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الآية ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين** ﴾ قال : يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا ، قال الحافظ ابن حجر : قوله يخلص المؤمنون من النار أى ينجون من السقوط فيها بمجاوزة الصراط ، واختلف فى القنطرة المذكورة فقيل : إنها من تتمة الصراط ، وهو طرفه الذى يلى الجنة ، وقيل : إنها صراط آخر، قال العلماء : الصراط أدق من الشعرة ، وأحد من السيف وأحمى من الجمرة ،

فقد أخرج الطبرانى بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف ، مدحضة ، أى مزلقة ، أى لا تثبت عليه قدم ، بل تزل عنه إلا من يثبته الله تعالى ، عليه كلاليب من نار تخطف أهلها فتمسك بهواديها ، ويستبقون عليه بأعمالهم ، فمنهم من شده كالبرق فذاك الذى لا ينشب أن ينجو ، ومنهم من شده كالريح ، ومنهم من شده كالفرس الجواد ، ومنهم من شده كهرولة الرجل ، ثم كرمل الرمل ثم كمشى الرجل ، وآخر من يدخل الجنة رجل قد لوحته النار ، فيقول الله له : سل وتمن فإذا فرغ قال: لك ما سألت ومثله . وأخرج ابن عساكر عن الفضيل بن عياض قال: بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط ، وخمسة آلاف استواء ، أدق من الشعرة وأحد من السيف ، على متن جهنم، لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله تعالى . وعن ابن مسعود أنه قال : الصراط على جنهم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم يمرون ، والملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم ، وفى رواية أن النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « يارب سلم سلم » ، وأنكر العلامة القرافى وشيخه العز بن عبدِ السلام كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، وأنه ليس ذلك فى الروايات الصحيحة ، وإن وردت فهى مؤولة . قال القرافى : والصحيح أنه عريض ، وقيل طريقان يمنى ويسرى ، فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين ، وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال ، وفيه طاقات كل طاقة تنفض إلى طبقة من طبقات جهنم ، وجهنم بين الخلق وبين الجنة ، والجسرعلى ظهرها منصوب فلا يدخل أحد الجنة حتى يمر على جهنم . وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ على أحد التفاسير ، وأنكر القاضى عبد الجبار المعتزلى وأتباعه ظاهر الآيات والأحاديث الواردة فى الصراط ، وقالوا : إنه لا تعذيب على المؤمنين يوم القيامة وإنما المراد بالصراط طريق النار والجنة ، ومفصل الأدلة والأجوبة فى محلها .

وقد ذكر القرطبى فى تذكرته عن بعض أهل العلم أنه قال : لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل [1] على سبع قناطر ، فعند القنطرة الأولى يسأل عن الإيمان بالله

---

(١) نسخة عند سبع أ هـ منه .

وهى شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها مخلصا والإخلاص قول وعمل جاز ، ثم يسأل عند القنطرة الثانية عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل عند القنطرة الثالثة عن صوم رمضان فإن جاء به تاما جاز ،ثم يسأل فى الرابعة عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل فى الخامسة عن الحج والعمرة فإن جاء بهما تامين جاز إلى القنطرة السادسة يسأل عن الغسل والوضوء فإن جاء بهما تامين جاز إلى السابعة، وليس فى القناطر أصعب منها فيسأل فيها عن ظلامات الناس وتبعات الخلق، نقلها السفارينى فى شرحه .

وأما حوض نبينا المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم فهو حق ثابت بإجماع أهل الحق بعد البعث والنشور وأخذ الصحف والمرور ، قال الله تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قال الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه البدور السافرة : ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيا منهم الخلفاء الراشدون وحفاظ الصحابة المكثرون ، واختلف : هل هو بعد الصراط أو قبله ، على قولين للعلماء . وقال القرطبى فى التذكرة إن للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حوضين ، أحدهما فى الموقف قبل الصراط ، والثانى فى الجنة ، وكلاهما يسمى كوثرا والكوثر فى كلام العرب الخير الكثير ، ولا يخطر ببالك أن الحوض يكون على هذه الأرض ، وإنما يكون على الأرض المبدلة ، وهى أرض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم ولم يظلم على ظهرها أحد .

وأخرج الشيخان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « حوضى مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لم يظمأ أبدا » . وأخرج الإمام أحمد عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إن الله وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفاً بغير حساب » فقال يزيد بن الأخنس : والله ما أولئك فى أمتك إلا كالذباب الأصهب فى الذباب ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « قد وعدنى سبعين ألفا مع كل ألف سبعون ألفا ، وزادنى ثلاث حثيات » قال : فماسعة حوضك يا رسول الله ،قال :« كما بين عدن إلى عمان وأوسع وأوسع » قال : فما ماء حوضك يا نبى الله ؟ قال « أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، ولم يسود وجهه أبدا » .

وأخرج مسلم عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : أغفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقال : « إنه نزلت على آنفا سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ حتى ختمها . قال :هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، فيختلج العبد منهم ، وفى رواية فيجلون ، أى يطردون فأقول : يا رب إنه من أمتى » . وفى رواية : أصحابى فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . وأخرج ابن أبى العاصم عن الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما أن عليا كرم الله تعالى وجهه يذود المنافقين عن الحوض، قال العلماء : كل من ارتد والعياذ بالله تعالى عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه أو خالف الجماعة أو السنة أو ابتدع فى الدين أو ظلم وجار أو أعلن بالكبائر أو أنكر الحوض فهو يذاد ويطرد عن الحوض . أخرج الحكيم فى نوادر الأصول عن عثمان ابن مظعون عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : يا عثمان لا ترغب عن سنتى فمن رغب عن سنتى ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضى يوم القيامة . وأخرج الترمذى والحاكم عن كعب بن عجرة ، رضى الله تعالى عنه، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج عليهم وقال : « إنه سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه وليس بوارد علىَّ الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه ، وهو وارد على الحوض ، وليعلم أن المعتزلة لم تثبت الحوض . وقد ثبت عندنا بالسنة الصريحة ، وأما ثبوته بالقرآن فمحتمل وليس بصريح . وأما قوله تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ ففيه اختلاف ، قيل : هو الحوض ، وقيل : الخير الكثير ، وقيل : النهر الذى فى الجنة ، وليعلم أيضاً أن لكل نبى حوضا . فقد أخرج الترمذى من حديث سمرة بن جندب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن لكل نبى حوضا ترده أمته وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وإنى أرجو أن أكون أكثرهم واردة » وورد فى بعض الأخبار أن لكل نبى حوضا إلا صالحا عليه السلام فإن حوضه ضرع ناقته ، والله تعالى أعلم .

وأما الشفاعة فيجب اعتقادها أيضاً لتعدد الأحاديث فيها لنبينا صلى الله تعالى عليه

وسلم وسائر الرسل والأنبياء عليهم السلام ، والملائكة والصحابة والشهداء ، والصديقين والأولياء ، على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم ، وبقدر جاههم ووجاهتهم.

وروى أبو هريرة وجابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أنا أول شافع وأول مشفع » . أخرجه مسلم ، وأخرج البيهقى عن ابن مسعود : يشفع نبيكم رابع أربعة جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم لا يشفع أحد فى أكثر مما يشفع فيه نبيكم ، ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء . وأخرج البيهقى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : يشفع يوم القيامة للأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ، وفى رواية ثم المؤذنون (١) ، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ليدخلن الجنة قوم من المسلمين قد عذبوا فى النار برحمة الله تعالى وشفاعة الشافعين » . وأخرج ابن أبى عاصم عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يجاء بالعالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ، ويقال للعالم قف حتى تشفع للناس » ، وفى رواية « بماأحسنت أدبهم » ، وأخرج الديلمى من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا ، يقال للعالم : « اشفع فى تلامذتك ، ولو بلغ عددهم نجوم السماء». وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « الشهيد يشفع فى سبعين من أهل بيته » ، وأخرج البزار عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «إن الرجل ليشفع فى الرجل والرجلين والثلاثة يوم القيامة » ، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ، قال : لا تزال الشفاعة بين الناس وهم يخرجون من النار حتى أن إبليس الأباليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه . وأخرج البزار عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «الحاج يشفع فى أربعمائة من أهل بيته » والحاصل أن للناس شفاعات بقدر أعمالهم وقربهم من الله تعالى ، والقرآن يشفع لأهله ، والإسلام يشفع لأهله والحجر

---

(١) وقد ذكرنا فى بعض المجالس أن المؤذن يلزمه أن يؤذن بالألفاظ الصحيحة حسبة لله تعالى ، وإذا بلغ وراء الإمام ينبغى أن يبلغ على قدر ما يلزم من غير تمطيط وغناء فاحش ، ومن غير إدخال وعلى أكبر ، فلا تغفل أ هـ منه .

الأسود يشفع لمستلمه ، ولكن لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، وليعلم أن لنبينا عليه الصلاة والسلام شفاعات مختصة بجنابه الرفيع وقدره المجيد ، وهى عدة أولها وهى أعظمها وأعمها شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم لفصل القضاء بين الورى بعد التردد إلى الأنبياء ، وتدافعها بين أخيار الملأ إلى أن تصل إلى صاحب الحوض المورود والمقام المحمود ، وقد عم الخلق زيادة القلق ، وتصاعد العرق ، وقاسوا من ذلك ما يذيب الأكباد ، وينسى الأولاد ، وهذه مجمع عليها لا ينكرها أحد ، فقد روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا عند ربنا فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله فيأتونه فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته ، ائتوا موسى الذى كلمه الله فيأتونه فيقول : لست هناكم فيذكر خطيئته ، ائتوا عيسى فيأتونه فيقول : لست هناكم ائتوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى فأستأذن على ربى فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء ثم يقال لى : ارفع رأسك سل تعط وقل يسمع واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنى ثم أشفع فيحد لى حدا ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدا مثله فى الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن» ، فكان قتادة يقول عند هذا : أى وجب عليه الخلود .

وذكر كثير من المفسرين لقوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾أنه المقام الذى يقومه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ، ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه من الغم والكرب ، كما هو مفصل فى المواهب اللدنية وغيرها . ثانيها أنه يشفع عليه الصلاة والسلام عند ربه فى إدخال قوم من أمته الجنة بغير حساب ، فإن هذه خاصة به صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال القاضى عياض . ثالثها شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوم استوجبوا النار بأعمالهم ، فيشفع فيهم فلا يدخلونها ، وقيل : هذه غير مختصة . رابعها فى رفع

درجات ناس فى الجنة ، قال المفسرون : وهذه لا تنكرها المعتزلة كالأولى . خامسها الشفاعة فى عموم أمته ، عليه الصلاة والسلام من النار ، حتى لا يبقى منهم أحد ، ذكره العلامة السبكى . ومنها شفاعته عليه الصلاة والسلام لجماعة من صلحاءالمسلمين ليتجاوز عنهم فى تقصيرهم فى الطاعات .

واعلم أن المعتزلة أنكرت الشفاعة فيمن استحق النار من المؤمنين ألا يدخلها وفيمن دخلها منهم أن يخرج منها ، والأحاديث دامغة لرءوسهم ، فمنها ما أخرجه البيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها ،ومن كذب بالحوض فليس له فيه نصيب ، وليعلم أن الأعمال الموجبة لشفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم كثيرة ، فمنها قول لا إله إلا الله فقد قال عليه الصلاة والسلام : «أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه » ومنها إجابة المؤذن . روى جابر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة » . ومنها ما أخرجه مسلم: « لا يثبت أحد على لأواء المدينة وجدبها إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة » ، ومنها ما أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر: « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها » ، وعن سلمان : « من مات فى أحد الحرمين استوجب شفاعتى وكان يوم القيامة من الآمنين » . ومنها ما رواه أبو الدرداء : « من صلى على حين يصبح عشرا وحين يمسى عشرا أدركته شفاعتى يوم القيامة » . ومنها زيارة قبره ، أخرج البزار عن ابن عمر مرفوعاً : « من زار قبرى وجبت له شفاعتى»، وأما المحرومون من شفاعته والعياذ بالله تعالى من الحرمان فأصناف ، منهم كما أخرجه البيهقى عن معقل : « رجلان لا تنالهما شفاعتى يوم القيامة إمام ظلوم غشوم عسوف ، وآخر غال فى دين الله مارق منه » . وأخرج البيهقى عن عثمان بن عفان : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى » ، نقل ذلك كله السفارينى ، ومن الأمور التى يجب الإيمان بها أيضاً رؤية الله تعالى بالأبصار فى الجنة لقوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ وقد تعامت المعتزلة أيضاً عن هذه الآية وعن الأحاديث الآتية ، وأنكرت الرؤية : قال السفارينى فى منظومته:

فــإنه يُنظــــر بالأبصــــار   كما أتى فى النص والأخبار

وأخرج مسلم والترمذى عن صهيب رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ، قال : فيكشف الحجاب ، أى الموانع عن إدراك أبصارهم ، حتى يروه فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ فالحسنى هى الجنة والزيادة هى النظر إلى وجه الرحمن » . وروى اللالكائى وغيره مثله عن على كرم الله تعالى وجهه ، وروى الطبرانى عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ هو النظر إلى وجه الله عز وجل . وفى الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لما نظر إلى القمر ليلة أربعة عشر : « إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضارون فى رؤيته ، أى لا ترتابون ، وفى لفظ : لا تضامون » بضم أوله وتخفيف الميم ،أى لا يلحقكم ضيم ولا مشقة فى رؤيته . وأخرج اللالكائى عن الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ قال : إذا كان يوم القيامة برز ربنا تبارك وتعالى فيراه الخلق ويحجب الكفار ، وفى حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم أن الرب سبحانه وتعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به .

وبقيت فى هذه المسائل أبحاث كثيرة من أرادها فعليه بالمطولات ، فيا كثير الخلاف، يا عظيم الشقاق ، يا قليل الصواب ، يا عديم الوفاق ، يا من سيبكى كثيرا إذا انتبه وأفاق ، والتفت الساق بالساق ، أين من أنس بالدنيا ونسى الزوال ، أين من عمر القصور وجمع المال ، تقلبت بالقوم أحوال الأهوال ، كم أراك مولاك عبرة وقد قال : سنريهم آياتنا فى الآفاق . أين صديقك المؤانس ، أين رفيقك المجالس ، أين الماشى فقيرا وأين الفارس ،امتدت إلى الكل كف المخالس ، فنزلوا تحت الأطباق . والتفت الساق بالساق . وكأن قد رحلت كما رحلوا ، ونزلت قريباً حيث نزلوا ، وحملت إلى القبر كما حملوا ، إلى ربك يومئذ المساق ، من لك إذا ألم الألم وسكن الصوت ، وتمكن الندم ووقع الفوت ، وأقبل لأخذ الروح ملك الموت، وجاءت جنوده وقيل من راق ، والتفت الساق بالساق ، ونزلت منزلاً ليس بمسكون ، وتعوضت بعد الحركات السكون ، فيا أسفى لك كيف تكون ، وأهوال القبر لا تطاق . والتفت الساق بالساق . وفرق مالك وسكنت الدار ، ودار البلى

فما دار إذا دار ، وشغلك الوزر عمن هجر أو زار ، ولم ينفعك نوح ندم الرفاق . والتفت الساق بالساق . أكثر عمرك قد مضى ، أما معظم زمانك قد انقضى ، أفى أفعالك ما يصلح للرضا ، إذا التقينا يوم التلاق . والتفت الساق بالساق . يا ساعيا فى هواه تذكر أمسك ، يا من سعى إلى خطايا خطاه تذكر حسبك ، يا مأسورا فى سجن الشهوات خلص نفسك ، قبل أن تعز السلامة ويعتاق الأعتاق ، والتفت الساق بالساق ، وينصب الصراط ويوضع الميزان ، وينشر الكتاب بجزاء ما قد كان، ويشهد الجلد والملك والمكان ، والنار الحبس والحاكم الخلاق . والتفت الساق بالساق. فحينئذ يشيب المولود . وتخرس الألسنة وتنطق الجلود ، وتظهر الوجوه بين بيض وسود ، يوم يشكف عن ساق ، فانتهب عمرا يفنى بالمساء والصباح ، وعامل مولى يجزل العطايا والأرباح ، ولا تبخل فقد حث على السماح ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق . اللهم يا حبيب كل غريب ، ويا أنيس كل كئيب ، أى منقطع إليك فلم تصله ، أم أى داع دعاك فلم تجبه ، ويروى عنك سبحانك أنك قلت ، وما غضبت على أحد كغضبى على مذنب أذنب ذنبا فاستعظمه فى جنب عفوى ، فيا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك ، أنت الذى دللت بجودك عليك ، وأطلقت الألسنة بالسؤال لديك ، اللهم أعط كل سائل لك من الخير مراده ، ونلنا الحسنى والزيادة ، واجعلنا على الصراط من العابرين ، وعلى حوض نبيك عليه الصلاة والسلام من الواردين الشاربين ، وأعطنا صحائفنا باليمين، وامح سيئاتنا ، وثقل ميزان حسناتنا ، واجعلنا من أهل شفاعة نبيك الأمين ، وارحم اللهم ما خلقت، واغفر ما قدرت ، وطيب ما رزقت ، ولا تهتك فى الدارين ما سترت ، وارحمنا ووالدينا والمسلمين . وكافة المؤمنات والمؤمنين . وصل على محمد وآله أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

* * *

المجلس الحادى والخمسون
فى النار أعاذنا الله منها والجنة ونسأله دخولها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . .

الحمد لله مبلغ الراجى فوق مأموله ، ومعطى اللاجى زيادة على مسئوله ، المنان على التائب بصفحه وقبوله ، خلق الآدمى وأنشأ له دارا لحلوله ، وجعل الدنيا

مرحلة لنزوله ، فتوطنها من لم يعرف شرف الدار الأخرى لخموله ، أو ما ترى غربان البين تنوح على طلوله ، ارحلوا عنها بإيمان كامل فرب قفر يخاف من غوله ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله .

أحمده على نيل الهدى وحصوله ، وأقر بوحدانيته إقرار عارف بالدليل وأصوله ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الذى يبغضه المبتدع [1] بفضوله ، وعلى عمر حامى الإسلام بسيف عزم لا يخاف من فلوله ، وعلى عثمان الصابر على البلاء حين نزوله ، وعلى على بن أبى طالب الصائل بشجاعته قبل أن يصول بنصوله ، وعلى سائر آله وأصحابه الفائزين من الإيمان بشعبه وأصوله ، صلاة وسلاما دائمين ما تردد النسيم بين شماله وجنوبه وقبوله .

أما بعد :فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوا فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوا وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : قال المفسرون قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا**﴾ الآية ، أى ساقت الملائكة الكافرين بعد انقضاء الحساب سوقا عنيفا ﴿ **إلى جهنم** ﴾ أى إلى النار حال كونهم ﴿ **زمرا** ﴾ أى جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضا ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها** ﴾ أى أبواب النار ليدخلوها ، وهى سبعة أبواب وكانت قبل ذلك مغلقة ﴿ **وقال لهم خزنتها** ﴾ جمع خازن وهم الملائكة المأمورون عليها ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ أى من أنفسكم وجنسكم ﴿ **يتلون عليكم آيات**

---

(١) نسخة الرافضى أ هـ منه .

ربكم﴾ التى أنزلها عليكم كالتوراة المبشر فيها ببعثة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم والقرآن المبين ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أى يخوفونكم لقاء هذا الوقت الشديد ، وإنما قالوا لهم ذلك توبيخا لهم فأجابوا معترفين ولم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا ؛ لظهور الأمر وانكشافه ولهذا ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وهى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿قيل ﴾ أى قال لهم الملائكة الموكلون بعذابهم ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ التى قد فتحت لدخولكم ﴿ خالدين ﴾ أى مقدرين الخلود ﴿ فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ جهنم .

وليعلم أنه قد وردت أحاديث وآيات كريمة فى عدد أبواب جهنم وصفاتها أجارنا الله تعالى وإياكم منها قال الله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال ابن جريج : أولها جهنم ثم لظى ، ثم الحطمة ثم السعير ، ثم سقر ثم الجحيم ، ثم الهاوية .قال على كرم الله تعالى وجهه : إن أبواب جهنم هكذا بعضها فوق بعض ، وأومأ الراوى بأصابعه . وقال الضحاك : هى سبعة أدراك بعضها فوق بعض ، فأعلاها فيه أهل التوحيد ، يعذبون على قدر ذنوبهم ، ثم يخرجون ، والثانى فيه النصارى ، والثالث فيه اليهود ، والرابع فيه الصابئون ، والخامس فيه المجوس ، والسادس فيه مشركو العرب ، والسابع فيه المنافقون ، وعن أبى هريرة رضى اللهتعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة » . وفى الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « ناركم هذه الذى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم » ، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها » . وروى مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . وروى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى الأرض لأمرّت على أهل الدنيا معيشتهم ، فكيف بمن هو طعامه وليس له طعام غيره » . وروى أن عمر

ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال يوما لكعب : يا كعب خوفنا ، فقال : يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل ولو وافيت القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملك مما ترى ، فأطرق عمر مليا ثم أفاق ، فقال : زدنا يا كعب فقلت : يا أمير المؤمنين، لو فتحت من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها ، فأطرق عمر مليا ثم أفاق فقال : زدنا يا كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا خر جاثيا على ركبته يقول : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم إلا نفسى . وقال أبو عمران : إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى بكل جبار عنيد ، وكل شيطان مريد ، وكل من يخاف الناس فى الدنيا شره فأوثقوا بالحديد ، ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم ، أى أطبقوها وأغلقوها ، فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدا ، ولا تلتقى جفون أعينهم على غمض نوم أبدا ، ولا يذوقون فيها بارد شراب أبدا . وأنشد بعضهم فى ذلك :

لو أبصرت عيناك أهل الشـقا ... سـيقوا إلى النار وقد أحـرقوا
يصـلونها حـين عصـوا ربهم ... وخـالفوا الرسـل وما صدقوا
تقـول أخـراهم لأولاهـم ... فى لجـج المهل وقـد أغرقوا
قـد كـنتم حـذرتمو حرها ... لكـن من النيران لم تفرقـوا
وجـىء بالنيـران مذمومـة ... شـرارها من حولها محدق
وقـيل للنيران أن أحـرقى ... وقـيل للخـزان أن أطبقـوا
وأوليـاء الله فـى جـنة ... قـد توجوا فيها وقد طوقـوا

وقوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة** ﴾ أى ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم ، والمراد بذلك السوق إسراؤهم إلى دار الكرامة والرضوان، بخلاف السوق الأول ، فإنه للتعذيب والهوان . وقيل : الكلام على حذف مضاف، أى سيقت مراكبهم ، إذ لا يذهب بهم إلا راكبين ﴿ **زمرا** ﴾ أى جماعات ، فجماعة أهل الصلاة على حدة وأهل الصوم كذلك إلى غير ذلك ﴿ **حتى إذا جاءوها** ﴾ جواب إذامحذوف تقديره سعدوا ﴿ **وفتحت أبوابها** ﴾ وقيل : الجواب فتحت والواو زائدة ، وقيل : إن هذه الواو تسمى واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم

كانوا يقولون فى العدد خمسة ستة سبعة وثمانية ، وفى الآية وجوه آخر فلتطلب فى التفاسير المطولات . ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال : **﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾** أى سلامة لكم من كل آفة لا يعتريكم بعدها مكروه ، وقد حيتهم الملائكة بما حيت به آدم عليه السلام ، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، أى لم ينم كالأطفال ، طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال له : اذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم من الملائكة جلوس ، فاسمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله . قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم طوله ستون ذراعا ، فلم يزل ينقص الخلق بعد حتى الآن » ، متفق عليه. وقوله تعالى : **﴿ طبتم ﴾** أى طهرتهم فى الدنيا فلم تدنسوا بالشرك والمعاصى ، وقيل : طاب لكم المقام . وقال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعهضم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان خازن الجنان وأصحابه : سلام عليكم طبتم **﴿ فادخولها خالدين ﴾** أى ادخلوا الجنة مقدرين الخلود (و) عند ذلك (قالوا) : أى أهل الجنة **﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾** بالبعث والثواب بالجنة فى قوله سبحانه : **﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾** وقوله تعالى : **﴿ وأورثنا الأرض ﴾** أى أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم فملكوها وتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما يرثه . وقال أكثر المفسرين : إن المؤمنين ورثوا الأرض التى كانت لأهل النار ، لو كانوا مؤمنين ، وقوله تعالى : **﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾** أى نتخذ من المنازل فيها ما نشاء حيث نشاء فلا يختار أحد مكان غيره ، وقيل : يتخير كل واحد من أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أين ينزل تكرمة له ، وإن كان لا يختار إلا ما قسم له، وأما بقية الأمم فيدخلون بعد أمة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فينزلون فيما فضل عنهم ، وقوله تعالى : **﴿ فنعم أجرالعاملين ﴾** أى فى الدنيا ، وأجرهم فى الجنة ، وهذا من تمام قول أهل الجنة ، وقيل هو من قول الله سبحانه .

ولنذكر لكم بعضا من صفات أهل الجنة ومنازلهم وأماكنهم وما يتعلق بذلك . أخرج الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم:

« يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين ، وهم على خلق آدم ستون ذراعا فى عرض سبعة أذرع » . ومن رواية أنس : « ثم يذهب بهم إلى شجرة فى الجنة فيكسون منها لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم » . وفى روايته الأخرى : « على حسن يوسف وعلى لسان محمد » . وفى رواية : « وقلب أيوب ، ذوى أفانين ، أى شعور وجمم » . وقد ورد فى روايات مختلفة أن لا بول لهم ولا غائط ، ولا يولد لهم أولاد ، ولا ينامون وليس لأحد منهم لحية ، وما ذكر أن لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحى فهو قول مردود ، وخبر مصنوع ، وكذا من زعم أن ليس لأهل الجنة أسنان ، وكذا مسألة التوالد فيها خلاف ، وقال بعضهم: إن المؤمن إذا اشتهى الولد فى الجنة كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة واحدة، كما يشتهى . كما نص على ذلك الشيخ محمد السفارينى فى كتابه البحور الزاخرة ، وأعلى أهل الجنة منزلة نبينا وشفيعنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إذ هى الوسيلة التى وعد بها عليه الصلاة والسلام ، وأخرج الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى خيامه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ، ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ قال السفارينى : وأما تحفة أهل الجنة إذا دخلوها فزيادة كبد النون ، أى الحوت ، كما أخرجه مسلم فى صحيحه عن ثوبان رضى الله تعالى عنه قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعنى ، فقلت : ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن اسمى محمد الذى سمانى به أهلى » ، فقال اليهودى : جئت أسألك، فقال له عليه الصلاة والسلام : « أينفعك شىء إن حدثتك » ، قال : أسمع بأذنى ، فنكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعود معه ، فقال : « سل » فقال اليهودى : أين تكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « هم فى ظلمة دون الجسر » ، قال : فمن أول الناس إجازة يوم القيامة ، فقال : « فقراء المهاجرين » ، قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنه ؟ قال : « زيادة كبد النون » ، قال فما غذاؤهم على أثرها ، قال :

«ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » ، قال : فما شرابهم عليه ، قال: « من عين فيها تسمى سلسبيلا » قال : صدقت ، قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان . قال : « ينفعك إن حدثتك » ، قال : أسمع بأذنى قال : جئت أسألك عن الولد قال : « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكرا باذن الله ، أى أتى المولود ذكرا ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنثا بإذن الله أى جاء المولود أنثى»، فقال اليهودى : لقد صدقت وإنك لنبى ، ثم انصرف فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه ومالى علم بشيء منه حتى آتانى الله عز وجل به » .

وعن وهب بن منبه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خلق الله تعالى الجنان يوم خلقها وفضل بعضها على بعض ، فهى سبع جنان ، دار الجلال ، ودار السلام، وجنة عدن ، وهى قصبة الجنة ، وهى مشرفة على الجنان كلها ، وباب جنة عدن مصراعان من زمرد وزبرجد ، كما بين المشرق والمغرب . وجنة المأوى ، وجنة الخلد، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن فى الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وإن جنة الفردوس أوسطها وأعلاها سماء ، وعليها يوضع العرش يوم القيامة . ومنها تفجر أنهار الجنة » . قال رجل : بأبى أنت وأمى يا رسول الله فيها خيل ، قال : «نعم ، والذى نفسى بيده إن فيها لخيلا من ياقوتة حمراء تزن بهم خلال ورق الجنة يتزاورون عليها » ، فجاء رجل فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله هل فيها إبل ، قال : « نعم والذى نفسى بيده إن فيها لإبلا من ياقوتة حمراء أرحالها الذهب والفضة محفين نمارق الديباج تزن بهم بين خلال ورق الجنة يتزاورون عليها » . فجاء رجل فقال : بأبى أنت وأمى ، هل فيها صوت قال : « نعم والذى نفسى بيده إن الله عز وجل ليوحى إلى شجرة أن أسمعى عبادى هؤلاء الذين شغلهم ذكرى فى الدنيا عن عزف المزاهر والمزامير بالتسبيح والتقديس » . وفى التبصرة عن على كرم الله وجهه قال : يساق الذين اتقوا ربهم زمرا حتى إذا انتهوا إلى أول باب من أبوابها وجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما

كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما فى بطونهم من قذى وأذى ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلن تتغير أبشارهم بعدها أبدا ، ولن تشعث أشعارهم ، كأنما دهنوا ، ثم انتهوا إلى خزنة الجنة فقالوا : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان الدنيا بالحميم ، يقدم من غيبته فيقولون له أبشر بما أعد الله لك من إكرامه ، قال : ثم ينطلق غلام من أولئك الغلمان إلى بعض أزواجه من الحور العين ، فيقول : قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا فتقول : أنت رأيته ، فيقول : أنا رأيته ، وهذابأثرى ، فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزلها نظر أى شىء أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأصفر وأحمر ومن كل لون ، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق فلولا أن الله تعالى قدره له لألم أن يذهب بصره ، ثم طأطأ رأسه فنظر إلى أزواجه وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، فقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون ، وتقيمون فلا تظعنون . وقال أبو هريرة : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يغدو عليه كل يوم ويروح خمسة عشر ألف خادم ليس منهم خادم إلا معه طرفة ليست مع صاحبه ، وأما ريح الجنة فقد أخرج الطبرانى عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام » . وأخرجه البخارى بلفظ ليوجد من مسيرة أربعين عاما. وأخرج أبو داود الطيالسى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه : من ادعى إلى غير أبيه لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين عاما ، وفى روايات أخر : لا يجد ريحها منان بعمله ولا عاق ولا مدمن خمر ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء ، وعن أبى هريرة مرفوعا : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ، وأما النداء فى الجنة فقد أخرج مسلم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا » وذلك قول الله عز وجل : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ وأما أشجارها قال تعالى : ﴿ **وأصحاب**

اليمين * ما أصحاب اليمين * فى سدر مخضود ﴾ أى لا شوك فيه ، ﴿ وطلح منضود ﴾ أى موز متراكم قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره ، قاله فى البحور الزاخرة . وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها فاقرءوا إن شئتم » وظل ممدود ، وأما ثمارها فقد قال الربيع بن أنس ويحيى بن كثير : عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك ، فيطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها فيقولون : هذا الذى جئتمونا به آنفا ، فيقول لهم الخدم : كلوا فاللون واحد والطعم مختلف ، فهو قوله عز وجل : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ وقال تعالى: ﴿ وفاكهة كثيرة* لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى لا تكون فى وقت دون وقت كثمار الدنيا ، ولا تمنع ممن أرادها ، وقال تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية ﴾ أى ثمارها قريبة يتناولونها كيف شاءوا قياما وقعودا ومضطجعين ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ثمر الجنة أمثال القلال والدلاء ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ، ليس فيه عجم . القلال جمع قلة وهى الحب العظيم أو الجرة ، والدلاء جمع دلو ، والعجم النوى ، وأما أنهارها وعيونها وطعام أهلها وشرابهم وآنيتهم وثيابهم قال تعالى : ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ وقال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أى لا يتغير ولا ينتن من طول المكث ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ ، وأخرج ابن أبى الدنيا عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : أظنكم تظنون أنهار الجنة أخدودا فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت ، وطينه المسك الأذفر ، أى الخالص الشديد الرائحة . وقال تعالى : ﴿ يطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديرا ﴾ أخرج الشيخان عن حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافهما فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة . وأما لباسهم وفرشهم قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ﴾ وقال تعالى : ﴿ يحلون فيها من أساور من

ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك ﴾ قال فى حادى الأرواح : السندس مارق من الديباج ، والإستبرق ما غلظ منه . وأخرج الشيخان: من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وعن الحسن : الحلى[1] فى الجنة على الرجال أحسن منه على النساء . وعن سعد بن أبى وقاص مرفوعاً : «لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا بسواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم». وفى هذا الحديث ابن لهيعة وثقه الإمام أحمد .

وعن الإمام أحمد : « سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها ، ولنصيف امرأة فى الجنة خير من الدنيا ومثلها معها » . رواه أبو هريرة ، والنصيف الخمار . وأخرج ابن أبى الدنيا : « ما من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى شجرة طوبى فتفتح له أكمامها فيأخذ ما شاء من الثياب إن شاء بيضا وإن شاء حمرا وإن شاء خضرا ، وإن شاء صفرا وإن شاء سودا مثل شقائق النعمان ، وفى حادى الأرواح عن أبى سعيد مرفوعا : « إن الرجل فى الجنة ليتكئ سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه فينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه فيرد السلام ، ويسألها : من أنت ؟ فتقول : أنا المزيد ، وإنه ليكون عليها سبعون ثوبا فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك . وأخرج الطبرانى فى قوله تعالى : **﴿وفرش مرفوعة ﴾** قال مسيرة أربعين سنة ، وأما خدمهم ونساؤهم وغلمانهم فقد قال تعالى : **﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ﴾** قال الفراء : مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون . وقال بعض العلماء : مخلدون مقرطون أى فى آذانهم القريط ، وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : إن أدنى أهل الجنة منزلا من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه . وعن أنس مرفوعا : « إن أسفل أهل الجنة درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم » ،

---

(١) قال القسطلانى فى شرحه للبخارى : قال عليه الصلاة والسلام : « أحل الذهب والحرير لإناث أمتى وحرم على ذكورها » ، قال الترمذى : حسن صحيح ، نعم الأصح عند الرافعى تحريم افتراشها إياه لأنه ليس فى الفرش مافى اللبس من التزين للزوج المطلوب ، وصحح النووى حله . قال : وبه قطع العراقيون وغيرهم لإطلاق الحديث السابق ، وبه قال أبو حنيفة : وكرهه صاحباه ، فلو صلى فيه الرجل أجزأته صلاته لكنه ارتكب حراما . وقال الحنفية : تكره وتصح ، وقال المالكية : يعيد فى الوقت إن وجد ثوبا غيره ، وقد ذكرنا بعضا من هذا فى بعض الدروس فلا تغفل أ هـ منه .

وقال تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ قال فى البحور الزاخرة فى أحوال الآخرة : والمطهرة التى طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر ، وطهر لسانها من الفحش ، ونظرها من طمح عينها إلى غير زوجها ، وأخرج الترمذى عن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « يتزوج العبد فى الجنة سبعين زوجة ، قيل : يا رسول الله أيطيقها . قال : يؤتى قوة مائة رجل » . وأخرج البيهقى عن عبد الرحمن بن سابط موقوفا : « إن الرجل من أهل الجنة يتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره من الدنيا . وأخرج الطبرانى عن أم سلمة قالت : يا رسول الله إن المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة تخير فتختار أحسنهم خلقا ، فتقول : أى رب إن هذا كان أحسنهم معى خلقا فى دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة . قال فى البحور الزاخرة : فيه ضعف ، وقد ورد خلافه ، فعن حذيفة أن المرأة لآخر أزواجها . وخطب معاوية أم الدرداء فأبت وقالت سمعت أبا الدرداء يحدث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن المرأة لآخر أزواجها فى الآخرة . وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن للعبد المؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤ مجوفة طولها ستون ميلا للعبد المؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضا » . وأخرج ابن أبى الدنيا عن سعيد بن جبير : « إن شهوته لتجرى فى جسده سبعين عاما تجد اللذة ولا يلحقهم بذلك جنابة فيحتاجون إلى التطهير ، ولا ضعف ولا انحلال قوة ، بل وطؤهم وطء التذاذ نعيم لا آفة فيه بوجه من الوجوه » . وأخرج أبو نعيم قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يسطع نور فى الجنة فيرفعون رءوسهم فإذا هو من ثغر حوراء ضحكت فى وجه زوجها ، وإلى هذا أشار :

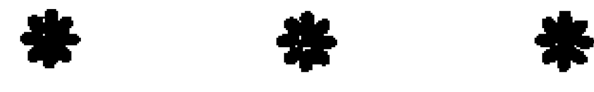
فلو أن حورا فى الدياجى تبسمت ... تجلى دجى الظلماء فى الأرض نورها
ولو مزج الماء الأجاج بريقها ... لأصبح عذبا سلسبيلا بحورها

فيا إخوانى ، سبحان من قدر الأمور وأمضاها ، وأسخط النفوس تقديره

وأرضاها، أحضر زمر المتقين ثم نجاها ، زرعوا جنات التقوى فالتقطوا جناها ، فأما زمر الكفر فالنار مأواها ، تستغيث عطشا ولو رحمها سقاها ، الغسلين شرابها والزقوم مرعاها ، حرموا لذة المنى والإسعاد ، بدلت وضاءة وجوههم بالسواد ، وضربوا بمقامع من الأطواد ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لو رأيتهم فى الحميم يسرحون ، وعلى الزمهرير يطرحون ، حزنهم دائم فما يفرحون ، مقامهم محتوم لا يبرحون . أبد الآباد . ليس لهم طعام إلا من ضريع ، والشراب الحميم وهذا الزاد، وأما زمر المتقين فقد سيقوا إلى الجنات وفتحت لهم الأبواب ، وتلقاهم الحور يقلن آن الإياب ، وغنتهم الأمانى أطيب من غناء الرباب . فكلما غنت رنت من القصور القباب . وأعطاهم مولاهم ما لم يكن بالحساب ، فهم فى النعيم يتقلبون ، وعلى الآرائك ينظرون ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . فسبحان من أصلح بالهم طوبى لهم وحسن مآب ، نزلوا والله المقام الأمين ، وكتبوا فى أصحاب اليمين، ونالوا كل مثمن ثمين ، وأسكنوا القصور وأعطوا الحور العين ، كلهن أبكار ليس فيهن عون ، قد عوضوا عن حريق القلق الرحيق ، وأبدلوا عن بريق السيوف الأباريق ، وقوبلت رياضاتهم بالروض الأنيق ، فهم يرتعون فيما يرتعون ، نقوا بالآداب الشرعية وهذبوا ، فإذا أبعدتم يوم الحضور وقربوا ، فماذا تصنعون .

فنسألك اللهم أن تجعلنا والجماعة الحاضرين من القوم الذين اغتنموا الأيام ، واجتنبوا الخطايا والآثام ، وصمتوا عن ردىء الكلام ، وصموا عن استماع الحرام ، فكأنهم ما يسمعون . واحشرنا فى زمرة العلماء العاملين ، واجعلنا يوم الفزع الأكبر من الآمنين ، وتحت لواء سيد المرسلين ، عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلاة المصلين ، اللهم وأعتقنا من النار ، وسلمنا من دار البوار ، ووفقنا لسلوك سبيل عبادك الأخيار ، واغفر لنا جميع الذنوب والأوزار ، وعاملنا بمحض فضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين ، وعمنا بعفوك ومغفرتك ووالدينا وجميع المرسلين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنا نسألك الجنة وما يقربنا إليها من قول وعمل ، ونسألك الصبر والشكر والعفو والعافية وبلوغ الأمل ، واسلك اللهم بنا مسالك الصادقين الأبرار ، وألحقنا بأوليائك الأخيار ، وارحم اللهم آباءنا وأمهاتنا وأقارينا ومشايخنا وكافة المسلمين، وانصر اللهم من نصر الدين ، واخذل من خذل الموحدين ، واحفظ المجاهدين ، والعساكر المرابطين ،وأيد شريعة نبيك المصطفى ،

وكثر أتباع دينه المرتضى ، وألف بين قلوب أمته ، واجعلنا من المتمسكين بسنته ، الفائزين بكمال حبه ، وآله وأصحابه وزوجاته وذريته ، وثبت قلوبنا على دينه المبين، والطف بنا خفيا يا رب العالمين ، وصل وسلم على جميع أنبيائك والمرسلين . وأهل طاعتك أجمعين .



هذا آخر ما سهل الله تعالى تحريره ، وغاية طيب ما دبجت بالتوفيق تحبيره ، من الكتاب الموسوم بالغالية فى المجالس العالية ، وإنى أحمد الله سبحانه على إتمامه ، وترصيفه فى سلك نظامه ، وأبتهل إليه عز سلطانه ، أن يكون ذلك سببا لغفرانه ، وموجبا فى الدارين لإحسانه ، وأن يعفو عما طغى به القلم ، أو زلت فى بعض كلماته القدم ، أو صدر تكاسل فى التنقيح ، أو توان فى بيان التصحيح ، فإن لى عذرين قويين ، وهما تشويش البال ، وتشتت الحال ، فى هذا الزمن ، الذى قد استولت فيه على أرباب العقول المحن ، والعذر الذى هو أوسع من هذين عند ذوى العرفان ، أن الإنسان محل السهو والنسيان ، فالمرجو ممن سلم من داء الجهل والحسد، أن يصلح ما فسد ، ويدرأ السيئة بالحسنات ، ويذكر أن العصمة من خواص ذوى المعجزات ، ومع هذا فأظنني قد أتيت والحمد لله تعالى بما هو فى هذا الوقت درياق ، لأهل العراق بل الآفاق . وقد جمعته من عدة أسفار ، غدت كالشمس فى رابعة النهار ، وهى تبصرة العلامة ابن الجوزى ، وروح المعانى تفسير الفهامة والدنا المبرور ، وعقد الدرر واللآلىء للحموى الحنبلى ، والترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ومختصره ، والزواجر والصواعق للعلامة ابن حجر ، وميزان العارف الشعرانى الشافعى ، وكتاب اختلاف المذاهب للوزير ، وكشف الغمة للشعرانى ، ورد المحتار حاشية الدر المختار للعلامة ابن عابدين الحنفى ، والمواهب اللدنية للقسطلانى الشافعى ، وزاد المعاد للحافظ ابن القيم الحنبلى ، وصحيحى الإمامين ، وشرح سنن أبى داود للإمام الخطابى ، وشرح السفيرى الشافعى ، لبعض أحاديث البخارى ، والبدور السافرة والحبائك للحافظ السيوطى ، والبحور الزاخرة للشيخ محمد السفارينى الحنبلى ، وشرح عقيدته ، وشرح الجامع الصغير للمناوى الشافعى، وكتاب نصاب الاحتساب وإحياء العلوم لحجة الإسلام الغزالى ، وقد كان أغلبه أوراقا مسودة ، وطروسا مبددة ، انتهبتها من أيدى الضياع ، واختطفتها من

زوايا البقاع ، فاستخرجته للتبييض ، مع زيادة وتنقيح تهذيب ، كالروض الأريض ، في شهر ربيع الآخر من شهور السنة المتممة لثلثمائة بعد الألف ، من هجرة ذى العز والشرف ، سيد بنى عدنان . ورسول الإنس والجان ، الشفيع الأعظم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم . ما لفظ لافظ ، ونصح واعظ ، وعلى كافة العلماء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وقد نسخت هذه النسخة من التسويد ، الذى كان المؤلف يمليه على الكاتب المجيد، فلما أن تم جمعها وكمل حسنها وحررها ، بادر وقال فى آخرها ، يقول الفقير إلى رحمة ربه الغنى محمد على الشهير بآل قفطان النجفى إنى بعد أن يبس من القلم ريقه ، وختم من هذا الكتاب رحيقه ، أنشد صادح اللسان أبيات ، هى عند الأدباء رياض يانعات ، مؤرخا عام الإتمام ، بهذا النظام ، فاسمعه لا زلت بسلام :

أنجـــوم أم درارى باديــــه ... أم مصـــابيح ظـــلام ساريه
أم مــن الآفاق شهب أرسلت ... راجـمات للنفوس الطـــاغيه
أم هـــو البـدر بدا فى غلس ... فمحـــا ظــلمة ليل داجـــيه
بل هو الأسفار من كتب السما ... حـــملتها نفس قـــدس زاكيه
جـــمعت ما جاءت الرسل به ... من كـتاب وحـــديث حـــاويه
لفنـون الوعظ صارت مجمعا ... حــاويا جل الصحاح العاليـه
داعـــيا لله فيهـــا بيننـــا ... رحـــم الله ملبـــى داعـــيه
أرجـــت بغداد مسكا مذ مشى ... حـــاملوها يا لها من غـاليـه
فهـــى للوعظ دروس كافـــيه ... وهـــى للطالب رشدا شـافيـه
جـاد خير الدين فيها فاستمع ... بعـض ما خـــص بأذن واعيـه
عـــالم مازال يبدى علم ما ... قـد جـــهلناه ويجلو خــافيه
ولـه حـلم وصفح راسـخ ... وأيـــاد بنداهـــا هـــاميه
وبـه روح المعانى قـــد بدت ... فلمعنـــاه وجـــوه عانيـــه
وبـه عـــز الهدى فى هديه ... وعروش الغى أضحت خاويه

ذو تقى قد حالف الحق فما ساورته الهفوات الشانيه
ذا قليل من كثير قلت فى مدح من أكثر فى إكراميه
فاعفنى عن عد أفضال له ليس يحصى فضله تعداديه
دام فى أوج علاه ساميا وبيوت المجد فيه زاهيه
ولواء العز معقود له وحلى الفخر عليه ضافيه
مذ شممنا طيبها أرختها زال وجدى بنسيم الغاليه
سنة ١٣٠٠ ١٨ ٣٣ ١٦٢ ١٠٧٧

* * *

فهرست الجزء الثانى من غالية المواعظ

* * *

